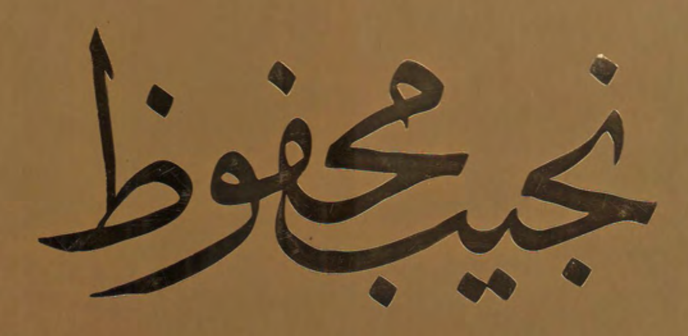


الأعمال الكاملة

١٠



دار الشروق

الغلاف والتصميم

للفنان حلمى التونى

طبعة دار الشروق الأولى

١٤٢٧هـ - ٢٠٠٦م

٨ شارع سيبويه المصرى

مدينة نصر - القاهرة - مصر

تليفون : ٤٠٢٣٣٩٩

فاكس : ٤٠٣٧٥٦٧ (٢٠٢)

email: dar@shorouk.com

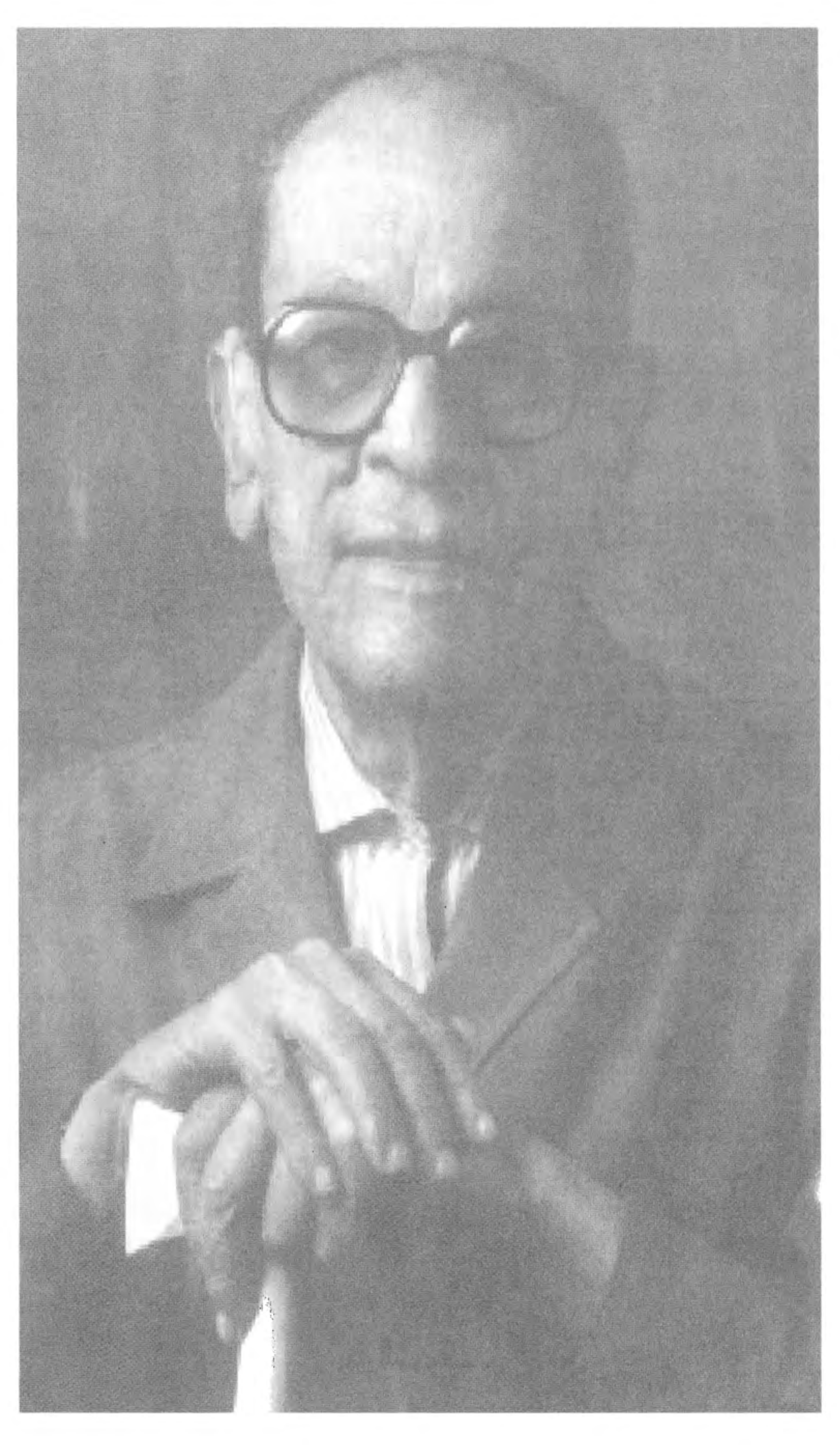
www.shorouk.com

الأعمال الكاملة

نجيب محفوظ

١٠

دار الشروق



الأعمال الكاملة

نجيب محفوظ

١٠

صَبَاح الوَرد

مجموعة قصصية

المحتويـــات

أم أحمـــــــــد

لو رجعت إلى الذاكرة ما وجدت إلا صورا متناثرة لا تعنى شيئا . قمرا يطل من نافذة عالية، أقمارا ثلاثة يخرجن من تحت القبو صفا واحدا، حنطورا يتهادى فى الميدان بامرأة كالمحمل . الزمن القديم فى الحى العتيق، لم يبق من حياته الحافلة إلا ما تعيه الطفولة . مناظر غائمة وأصوات غائبة وحنين دائم وقلب يخفق كلما حركته روائح الذكريات . ما كان أجدر ذلك كله أن يتلاشى فى ظلمة الماضى، فلا يستطيع الحب أن يستنقذه من الموت، لولا خالدة الذكر أم أحمد . قوية، سمراء، متحدية، فى ملاءتها اللف ووجهها السافر وشبشبها الرنان وصوتها الغليظ النافذ ولسانها الذى لا يهمد ولا يعرف الحرج . بيتها كان يقع ملاصقا للشرفة التاريخية لبيت القاضى، يصل إليه الزائر من ممر ضيق متصاعد مترب، فى جانبه كارو قديمة مركونة مهملة، وأحيانا يرى حمارا واقفا يقتات التبن من مخلاة تطوق علاقتها عنقه، كان يشدنى إلى مأواها العربة المهملة والأمل المثابر العنيد فى الالتقاء بالحمار الهادئ العذب، وهناك أراها وهى تطهو الطعام أو تطعم الدجاج أو تتسلى بمشاجرة شفهية عابرة . فى شبابها اليافع ـ الذى لم أشهده ـ كانت زوجة لمعلم كارو .

أنجبت منه بكريها أحمد وزينب وسيدة وسنية . ولعلّى لمحت الرجل وابنه مرة أو مرات كشيئين من الأشياء التى يموج بها الميدان التاريخى، ميدان بيت القاضى، ولكنى علمت مع الأيام أن المعلم قتل فى معركة بأرض المماليك وأن ابنه أحمد مات فى السجن . ولم أشهد أم أحمد فى حزنها، حتى حين لحقت زينب بأبيها وأخيها لمرض فتك

بها فى زمن متأخر نسبيا . كلا ، لا أذكر أنى رأيتها باكية أو مولولة أو شبه يائسة ، ما عهدتها إلا متماسكة قوية ضاحكة أو محدثة . غارقة حتى قمة رأسها فى أعمالها . ومشروعاتها ، تعيش يومها وتبنى للغد . وأذكر قول أمى عنها «لولا قوتها الخارقة لأهلكتها الأحزان» ، وهو قول لم أع معناه تماما إلا فيما بعد ، فعلمت أن أم أحمد التى عرفتها ما هى إلا الثمرة الأخيرة لصراع طويل مع الألم كتب لها فيه النصر . فمنذ وجدت نفسها وحيدة توثبت بهمة صلبة للكفاح فى الحياة المتاحة حتى ظفرت بوظيفتها المرموقة فى الميدان والحارات المتفرعة عنه فباتت أشهر شخصية دون منازع . هى الخاطبة والماشطة وأخصائية التجميل والسعادة الزوجية ، وشقت طريقها إلى سرايات الحى جميعا وبيوت الطبقة الوسطى ، إلى قيامها بمهام الصحافة والإذاعة والمخابرات ، وتحسنت أحوالها ، ثم توجت كفاحها بتشييد بيت لها من طابقين على كثب من قسم الجمالية . وألحقت سيدة بالمدارس فصارت معلمة أما بنتها الصغرى وكانت أجمل إنتاجها كله فقد أحبها ابن الأسرة الساكنة فى الطابق الأول من بيتها وتزوج منها وأصبح فيما بعد من رجال التربية الكبار فى مصر . المهم أن أم أحمد جذبتنى بسحر حكاياتها عن الجيران ، وخاصة أهل الطبقة العليا ، وهى حكايات لا يعرف مدى الصدق فيها إلا الله ولكنها تحرك الشهية دائما لدورانها حول أولئك السادة الممتازين . ولم تنقطع أم أحمد عن زيارتنا عقب انتقالنا إلى العباسية ، فقد سبقنا أهل السرايات إلى العباسية الشرقية ، فانتقل المجال الحيوى لأم أحمد من حى الحسين إلى العباسية تبعا لذلك مؤصلة ممارسة وظائفها الساحرة . ولم تتوقف عن نشاطها حتى بعد أن تقدم بها العمر ، أو بعد أن أدت فريضة الحج وأمست الحاجة أم أحمد ، ولكنها اضطرت إلى لزوم دارها بعد أن زحف عليها العجز وضعف بصرها وقلت حركتها قبل رحيلها عن الدنيا فى ختام الثمانينات . ولا أزعم أنها أحسنت تعريفى بأفراد السادة والسيدات من أهل سرايات حارتنا ، ولعلها هى نفسها لم يتح لها أن تعرف حقيقتهم ولكنها اهتمت بعموميات لا بأس بها وبشئون مما يتصل بعملها ، وعلى أى حال فقد عرفت حقائق عن الأسر ككل كما عرفت أشياء عن مصائرها . وهى فى جملتها تعد ثروة هامشية تضاف إلى التجارب التى حصلها الإنسان بنفسه وحواسه وقلبه . ورغم ما عرفت به أم أحمد من صفات الغجر فقد حظيت بإعجابى لقوتها الذاتية وصلابتها وشجاعتها وذكائها وانتزاعها من الصخر الأصم مكانة مرموقة بين أرقى سيدات ذلك الزمان ، ولن أنسى أيضا منظرها وهى واقفة فوق الكارو بين جارات لها فى إحدى المظاهرات الوطنية تهتف بصوتها المدوى لسعد ومصر .

وحارة قرمز ذات جدران حجرية عالية ، تغلق أبوابها على أسرارها ، ولا تبوح بسر إلا لمن ينظر فى داخلها ، هناك يرى ربعا آهلا بالفقراء والمتسولين يجمعهم الفناء للعمل المنزلى وقضاء الحاجات ، أو يرى جنة تغنى بالحديقة والسلاملك والحراملك . من نافذة

صغيرة عالية قبيل القبو يلوح أحيانا وجه أبيض كالقمر، أراه من موقعى فى نافذة بيتنا الصغير المطلة على الحارة فأهيم رغم طفولتى فى سحر جماله، وقد أسمع صوته الرخيم وهو يبادل أمى التحية إذا خلت الحارة من المارة فلعله بث فى روحى حب الغناء، فاطمة العمرى، حلم الطفولة المجهول، وموعد اللقاء النافذة، وإذا توارت يوما فإنما لتلقننى الألم قبل أوانه. وكلما غابت حدجت أمى بنظرة عتاب كأنما هى المسئولة عن غيابها فتضحك طويلا وتحكى لأم أحمد عن العاشق الصغير لتتلقف الخبر لتزفه إلى فاطمة ثم ترجع إلينا برسالة سعيدة أن أشد حيلى وأنها ستنتظر عريس الهنا مهما يطل الانتظار. ثم تقول:

ـ ولكنك تعشق أمها أيضا فما حكايتك؟

أمها؟! أراها أحيانا فى الحنطور وهو يتهادى بها فى الميدان وعيناها الجميلتان تطلان على فوق حافة البرقع الأبيض، وجسمها المتمادى فى العظمة يملأ المقعد بتمامه. وتضحك أم أحمد ثم تقول لأمى:

ـ زينب هانم قالت لى إنها رأته (مشيرة إلى) وهو يتطلع إلى ما بين ساقيها المنفرجتين حتى اضطرت إلى ضمهما. أيعجبك هذا؟!

من هؤلاء الناس الذين ليسوا كبقية الناس؟ العمرى ـ والعهدة دائما على أم أحمد ـ رجل قد الدنيا، صاحب فابريكة النحاس ومحل بيع النحاس بالصالحية، أصلهم من القدس، والجد الكبير هاجر إلى مصر ليستثمر أمواله، أنشأ فابريكة فى الخلاء قبالة الجبل، ويوم حملت الآلات من محطة مصر إلى الفابريكة محمولة على الكارو تجمع الأهالى ينظرون ويسبحون لله القادر على كل شىء، ومن يومها ما من عروس تزف إلا وتقتنى نحاسها من محل العمرى. وآل الخير كله لحسين بك العمرى زوج زينب هانم، وشيد الرجل سراياه فى درب قرمز، وأنجب فاطمة الجميلة وثلاثة ذكور.

وكانت زينب هانم وأمى يتبادلان الزيارة فتجىء الهانم وحدها دون فاطمة وتذهب أمى وحدها بدونى رغم توسلاتى الباكية. وبقدر ما كانت تعجبنى عينا زينب هانم إلا أن جسمها الضخم كان يخيفنى. ومن عجب أن الحارة كانت أسرة كبيرة واحدة لا تعترف بالفوارق الطبقية. أجل لم يكن التزاور ممكنا بين الربع والسراى ولكن السرايات كانت تفتح أبوابها لأهل الربع فى رمضان والأعياد، يجلسون فى الحديقة، ويأخذون حظوظهم من اللحوم والكعك ويستمعون لتلاوة القرآن من كبار القارئين. وكشفت أم أحمد عن جانب من دورها فى سراى آل العمرى فقالت إنه بفضلها استقرت الحياة الزوجية بين حسين بك وزينب هانم، وبفضل وصفاتها النادرة تمادت المرأة فى العظمة حتى حاكت المحمل السلطانى. وقالت وهى تقهقه:

ـ وهى اليوم تضرب زوجها باليد والعصا!

وذهلت أمى فقالت أم أحمد مستدركة:

ـ بالدلال والحب! . .

ليس كالضرب الذى نستعمله! أى نوع من الضرب ذاك؟!

ـ وهذا اللحم الأبيض الذى تغوص اليد بين طياته الطرية من صنع يدى!

مرة أمرت الخنطور أن يتوقف حيالى وأنا ألعب فى الميدان، ومدت لى يدا بضة بذراع مطوقة بالأساور الذهبية لتهبنى قطعة من الملبن بالقشدة فتناولتها فرحا متلقيا فى ذات الوقت مما ذقته من عبير جميل نافذ كأنه عصير مركز لحديقة ورد. وكم شغفتنى زيارات الهوانم بهداياها اللطيفة اللذيذة.

ـ وودت أن أسرع فى تسمين فاطمة ولكن أمها أجلت إلى ما بعد الزواج . .

وتساءلت أمى عما يؤخر زواج الجميلة رغم بلوغها الخامسة عشرة فقالت أم أحمد:

ـ حسين بك مصمم على ألا يزوجها قبل الثامنة عشرة . .

ـ ولكنها سن متأخرة يا أم أحمد . .

ـ لحسين بك رأيه أيضا ولكن الاختيار ينحصر فى اثنين أحدهما وكيل نيابة والآخر طبيب . .

وأحسست على نحو ما بأن فاطمة ستمضى ذات يوم إلى بعيد مثل أخواتى وإخوتى ولن يبقى منها فى أحلامى إلا الشذا. حتى الطفولة المبكرة لم تخل من حسرات على أشياء جميلة ومحبوبة يترصدها الضياع والفناء. ودهمتنا ثورة ١٩١٩ ونحن ننعم بالهدوء والنعسان. استيقظت بغتة على دوى الهتاف وفرقعة الرصاص ورأيت الألوف الغامضة. حتى أم أحمد رأيتها فوق الكارو تهتف. وزارتنا بعد أيام لتسأل إن كنا رأيناها. كانت تتيه دلالا بالعزة والنصر.

ـ سينصرنا الله على الإنجليز ويتم لنا الإفراج عن سعد . . وهى التى أبلغتنا بعد ذلك باعتقال حسين بك العمرى تمهيدا لتقديمه للمحكمة العسكرية الإنجليزية. ولكنه أفرج عنه فيمن أفرج عنهم عقب الإفراج عن سعد، فرجع إلى حارة قرمز رجوع الأبطال. فرشت أرضها بالأكمة وتناوحت فى سمائها الثريات والأعلام، وزغردت النساء من وراء المشربيات وتعالى هتاف الفقراء رغم ما فقدوا من أبناء. ووفقت أم أحمد بنذرها فرقصت أمام باب السراى وهى تنشد «سلمى يا سلامة».

وحتى مأمور قسم الجمالية جاءه مهنئا بعد أن اعتقد الجميع أن الإفراج عن سعد ما هو إلا مقدمة للاستقلال التام، وبعد فترة قصيرة حملت المرأة إلينا خبرا مزعجا وهو أن آل العمرى قر رأيهم على الانتقال إلى العباسية حيث اشتروا أرضا فضاء لإقامة

سراى كبرى. وتساءلت أمى هل هان عليهم حقا أن يهجروا الحارة التى هى أصل الخير والبركة. فقالت أم أحمد بيقين:

ـ بعد عام أو عامين لن تجدى أسرة واحدة من أسر الأعيان فى الحارة..

يا له من خبر!.. وكيف تكون الحارة إذا انطفأت أنوارهم؟!

ـ الدنيا تتغير بسرعة، الأحياء الإفرنجية هى الموضة اليوم، والعباسية مترامية الأطراف، وفيها متسع للمستورين أمثالكم...

ـ ونبعد عن الحسين؟!

ـ سوارس تنقلك إليه فى نصف ساعة..

وتحقق مع الزمن ما خطر لأم أحمد فانتقل الأعيان إلى العباسية الشرقية وشيدوا قلاعهم العملاقة، كما انتقلت الطبقة الوسطى «المستورون» إلى العباسية الغربية فسكن البعض بيوتا صغيرة واشترى البعض ما يناسبه. ولم تتواصل الرابطة القديمة بين الطرفين فسرعان ما تعرضت للوهن والتمزق. لأمر ما شغل كل فريق ببيئته الجديدة وكأن شارع العباسية الذى يفصل بين الجانبين أصبح سدا لا يعبر إلا فى الملمات وقد لا يعبر أبدا. عدنا غرباء أو كالغرباء، بل صرنا مع الزمن أعداء أو شبه أعداء. وحمل إلينا الزمن أفكارا جديدة تكرس العداوة والانفصام، وحتى الانتماء للحزب الواحد لم ينجح فى محو تلك الغربة الزاحفة. واعتدت أن أجعل من العباسية الشرقية مرتادى ونزهتى خاصة فى أصائل الصيف، أتمشى فى شوارعها الواسعة وميادينها الأنيقة، أقلب النظر فى القصور الشامخة والحدائق الغناء. وأتذكر أحيانا الجيرة القديمة الحميمة الصادقة التى تلاشت فى الفضاء، وأتذكر الوجوه المليحة التى علمت القلب الحب قبل الأوان، أتساءل ترى أين أنت الآن يا فاطمة؟.. وهل خلق منك الزمن زينب هانم جديدة؟ وجاءتنا بالأنباء فى حينها أم أحمد التى ظلت الرابطة الباقية بين الطبقتين المتباعدتين. حدثتنا طويلا عن تضخم ثروة حسين بك خاصة بعد الحرب، وعن إشراك أبنائه الثلاثة معه فى المصنع والمحل، وإصهارهم الموفق إلى أسر من طبقة الباشوات، أما فاطمة فقد تزوجت من وكيل النيابة. ووجدتنى قد نسيت صورتها تماما فلم يبق فى خيالى إلا نفحة من جمال مجرد وصدى صوت رخيم شديد التأبى والتمنع على الذاكرة. وعلمنا أيضا بإصابة زينب هانم بمرض السكر وكيف استفحل معها المرض لعجزها عن الانضباط أمام إغراء الحلوى، أجل فقدت الهانم بصرها فى الخمسينات، ثم ماتت فى الأسبوع الأول لقيام ثورة يوليو. والحق أن الثورة لم تمس آل العمرى بسوء، ولعله كان من حسن حظ حسين بك أنه هجر الاشتغال بالسياسة عقب انشقاق السعديين عن الوفد، غير أنه شارك أبناء طبقته فى خوفهم الثابت وقلقهم الدائم وشعورهم بإدبار الدنيا عنهم. وحديث أم أحمد

عن السادة لم يخل أبدا من عطف رغم تعلقها بثورة يوليو وزعيمها. أحبت ثورة يوليو كما أحبت ثورة ١٩١٩ ولكن حبها لزبائنها القدامى لم يفتر أبدا، وهى التى قالت لنا يوما بجزع واضح:

ـ أما سمعتم عما حدث لزوج فاطمة هانم العمرى؟

آه.. فاطمة الجميلة، ماذا حدث لزوجها؟

سافر المستشار فى رحلة قصيرة إلى سويسرا، وهناك قابل أحد رفاق صباه وكان هاربا من عبد الناصر ولا يكف عن مهاجمته، ولما رجع المستشار إلى مصر دعى لسؤاله عن مقابلاته لصديقه القديم، ثم لم يظهر له أثر بعد ذلك.

ـ لعله مازال معتقلا؟

ـ أبدا.. قيل لهم إن سؤاله لم يستغرق إلا ساعة أطلق بعدها سراحه..

ـ لعله وقعت له حادثة فى الطريق؟

ـ وهل يصعب الاستدلال على شخصية مستشار قد الدنيا؟!

ويسود صمت ثم تواصل أم أحمد:

ـ فاطمة هانم تؤكد أنهم قتلوه ودفنوه فى أى خلاء وانتهى الأمر..

اليوم ـ وبعد رحيل أم أحمد عن الدنيا فى الثمانينات ـ لا أعرف شيئا عن آل العمرى، ولعله لا يهمنى أن أعرف شيئا. ولكنى قرأت هذا العام نعى فاطمة الجميلة فى الأهرام ولم يمض الخبر بلا حزن ولكنه حزن من نوع خاص، لا كالحزن على الأقارب أو المعارف أو الأصدقاء. إنه حزن يتأدى كأنه شعيرة تتلى فى محراب الوجود على لا شىء أو على كل شىء. ثم قرأت عنها رثاء جميلا فى إحدى المجلات النسائية بوصفها من رائدات رعاية الطفولة، تلك الرعاية التى بدأتها بتلقائية معى فحفرت أثرها الطيب فى أعماق قلبى.

وآل سعادة بعد آل العمرى يومضون فى غياهب الماضى الجميل. تقوم دارهم كالقلعة فيما وراء القبو الأثرى العتيق. هناك يطالعك جدار عال مركب من أحجار كبيرة تاريخية، أما مدخله فيفتح على عطفة جانبية. ورؤيتى لآل سعادة تتم عادة وأنا فى الحارة عندما يخرجون من جوف القبو فى طريقهم إلى ميدان بيت القاضى، تنطق وجوههم المشعة بأصولهم الشركسية. هذا عبد الحميد بك سعادة رب الأسرة بقامته العالية وعوده النحيل ووجهه الأبيض المشرب بحمرة وعينيه الزرقاوين وأنفه الحاد الطويل المقوس، يرفل فى بذلة أفرنجية وعمامة بيضاء، متوكئا على عصا سوداء ذات مقبض ذهبى. صارم النظرة، متعالى الهيئة، ينظر أمامه، لا يعنى بما حوله. يبث حيث يسير الخوف فيستقبله الاحترام وتتبعه الكراهية. وهذا بكريه الشاب فاضل سعادة ينور المكان بلمعانه وبسحره

بأناقته وحسنه وثيابه الفاخرة. وهؤلاء بنات سعادة الثلاث، بين الطفولة والصبا، جميلات فاتنات ساحرات، يسرن صفا إلى الميدان لشراء الشيكولاته والدندورمة، يذهبن بلا مرافق ويعدن بلا مرافق غير مباليات بتقاليد الأسر الكبيرة والمتوسطة، وجمالهن يشفع لهن عند الرأى العام الرافض لتعالى الأسرة وعزلتها، أما ربة الأسرة فلا ترى أبدا راكبة أو راجلة، دائما معتصمة بالقلعة وراء الجدران والستائر. كم ولعت عيناى بالجميلات الثلاث وخصوصا الصغرى، وكم حلمت بأن ألعب معهن تحت القبو أو فوق السطح ولكنهن كن يذهبن بسرعة الأحلام ويبقين فى النفس بقوة الخيال. وآل سعادة يمثلون البطالة المستغنية عن العمل، المعتمدة فى معيشتها على الأوقاف، يقضى الأب وقته بين الكلوب المصرى والمقاهى الكبرى فى وسط المدينة. ويقنع فاضل بالحصول على الابتدائية، ولا يشك أحد فى ثرائهم الكبير إلا أم أحمد التى تقول وتعيد:

ـ إنهم أصحاب أصل ولكن ثراءهم دون ما يظن الناس بكثير..

وعزلة ربة البيت ليست نتيجة للتقاليد أو الكبرياء وحدها ولكنها ردة فعل لحزن عميق..

ـ الحزن؟!

تتساءل أمى فتقول أم أحمد:

ـ الرجل طول عمره عينه زائغة!.. وذوقه قذر لا كمظهره.. يجرى وراء الخادمات والساقطات، وزوجه والحق يقال بنت ناس وآية فى الجمال!

ـ وطبك المجرب يا أم أحمد؟

ـ منع الطلاق ولكنه لم ينج من القدر، وقد جربت سلطانة هانم الرشاقة ثم نفختها حتى فاقت زينب هانم فى الحجم ولكن المكتوب مكتوب.

وتتفكر قليلا ثم تواصل:

ـ ولكنها انتقمت من الرجل وهو لا يدرى، فخانته كما يخونها..

ـ ولكنها لا تغادر القلعة أبدا!

فتقول أم أحمد مقهقهة:

ـ لا يتعذر على اللبان أن يتنكر فى زى امرأة ويندس إلى الحريم.

وفاخرت أم أحمد بأنها الوحيدة فى الحى التى تصافح عبد الحميد بك سعادة والتى يقول لها دون تأفف: كيف حالك يا أم أحمد.

ولعلها الأسرة الوحيدة التى شهدت ثورة ١٩١٩ من بعيد دون اشتراك من أى نوع كان.

وبعد أشهر من قيام الثورة توفى عبد الحميد بك، ولم يشيع جنازته سوى نفر من ذوى القربى وشيخ الحارة ولم يشترك رجل أو امرأة من حارتنا فى العزاء. ولمحت البنات الثلاث وهن يبكين فى نافذة ففاضت دموعى. وسرت وراء المشيعين القلائل حتى جامع الحسين. ولم يكن شىء يثير خيالى وأفكارى مثل الجنازات، وشهدت جنازات معدودة لشبان الحارة الذين استشهدوا فى أوائل الثورة، وصدقت حرفيا الهتاف المعروف «فلان حى لم يمت» وكنت أتوقع أن أراه يعمل ويسير كما كان يفعل من قبل، وتساءلت عن ذلك دون جدوى. وعلى أى حال حل فاضل مكان أبيه، وما لبث أن هاجر إلى العباسية، ولكنا سمعنا أن الأسرة اشترت بيتا فوق المتوسط بغمرة ولم تشيد قلعة جديدة فى العباسية الشرقية، فتبين لنا صدق رأى أم أحمد فى درجة ثرائهم. انتقلت الحارة إلى العباسية ولكن لتعيش فى دويلات مستقلة. ولولا أم أحمد ما عرفنا بزواج فاضل من كريمة وكيل الداخلية.

رضى به زوجا لابنته بعد أن رفض يد طبيب فلاح!

وتزوجت كبرى البنات من صائغ غنى بالصاغة، والوسطى من وكيل نيابة، أما الصغرى وهى أحبهن إلى قلبى فقد عشقت موظفا بسيطا وأصرت على الزواج منه رغم معارضة الأم والأخ وبقية الأسرة، وقد أقامت معه فى بين الجناين لا يفصلهما عن بيتنا إلا خطوات، وهى الوحيدة التى كنت أصادفها فى الطريق فنتبادل نظرة عابرة ولكن مترعة بذكريات الماضى. . وقدر لى أن أرى بكريها الجميل وهو يلعب فى الشارع أو فى الحدائق التى تكتنف الحى وتسكب عليه عبيرها، وطبعا لم أتصور المستقبل المثير الذى كان ينتظره بمنحنى التاريخ. ولما قامت ثورة يوليو مرت بآل سعادة بسلام، بل حل الوقف وأصبحوا أحرارا فى التصرف فى أملاكهم. وعلمت أن الصبى الصغير ابن البنت الجميلة الصغرى من الضباط الأحرار، بل والمقربين. واختير لوظيفة فى المخابرات وسرعان ما جرى اسمه على كل لسان، واكتسب سمعة مخيفة لا تكون إلا لشيطان! وجعلت أقارن بين ما يقال عنه من حقائق وأساطير وبين صورة صباه الجميلة الوديعة وأتساءل وأتعجب. ورحت أسأل أم أحمد عن رأيها فى ذلك فأرسلت قهقهتها العظيمة وقالت:

ـ صدق من قال إن الأتراك فيهم عرق جنون. .

وكانت أسرته قد انتقلت بعد الثورة من بين الجناين إلى المعادى ولم أعد أرى من أفرادها أحدا، ولكن أم أحمد حدثتنا عن استقالة الأب من الحكومة ليشغل وظيفة فى شركة وأنهم يتوغلون فى العز والجاه بسرعة الإكسبريس. وعلى أى حال فقد اندمج آل سعادة أخيرا فى الوطنية المصرية، بل الوطنية الثورية. .

إلى يسار قلعة آل سعادة، وعلى مبعدة خمسين مترا تقوم سراى آل البنان. أرى على

بك البنان كل يوم فى دوكاره وابنه الصغير محمد صديقى وزميلى وربة السراى فردوس هانم حبيبة أمى وأقرب الجميع إلى قلبها. وعلى بك طويل القامة غامق السمرة ذو مظهر جذاب فى جبته وعمامته البيضاء، يمضى به الدوكار كل صباح من السراى إلى الطاحونة فى مرجوش. هو أتقى الأغنياء بالحارة وأبرهم بالفقراء وأجودهم بالابتسامة، وفى سراياه يقام ذكر كل أسبوع يؤمه جمع من أهل الطريقة الشاذلية وتقول عنه أم أحمد.

ـ على بك غنى وما غنى إلا الله..

ثم ترجع إلى التاريخ بصوت منخفض قائلة:

ـ كان أبوه يسرح بالبن على باب الكريم، وفتح دكانا صغيرا فى الخرنفش، وقامت الحرب فأمر الله بالثراء ولا راد لأمره. ومات الأب فأنشأ سى على الطابونة، وشيد السراى، وتزوج من فردوس هانم بنت أكبر حلوانى فى الحى وأنجب البنات كالأقمار، ثم جبر الله بخاطره فأنجب محمد على كبر.

أهل حارتنا لا فرق فيهم بين غنى وفقير وهم يعترفون بفضل الله عليهم ولا يتنكرون لأصلهم ودعك من آل سعادة فهم مجانين من ذرية مجانين..

محمد الصغير كان قرينى فى اللعب فى الميدان وفى قطف ذقن الباشا من أشجار البلخ. ودخلنا الكتاب معا فمكث فيه عامين أكثر منى لينقطع بعد ذلك عن التعليم ويمارس العمل فى الطاحونة والمحل تحت رعاية أبيه، بدأ العمل فى العاشرة، وقرر على بك أن يشعره بالرجولة قبل مجيئها فألبسه الجبة والعمامة وعامله بجدية تفوق ما يحتمل عمره. وأذهب إلى مرجوش كلما سنحت فرصة لأشاهد صديقى من بعيد وهو يعمل فنتبادل البسمات الخفية بعيدا عن أنظار أبيه. وعند فراغه من عمله يرتدى جلبابه ويهرع إلى فى الميدان لنلهو بألعاب الصبيان. ولما قامت ثورة ١٩١٩ شارك على بك فيها بماله وقلبه ولسانه، واعتقل فى يوم واحد مع حسين بك العمرى، ولكنه واصل نشاطه السياسى بعد ذلك حتى انتخب عضوا فى أول مجلس نواب بعد الثورة. وحافظ على عضويته فى جميع البرلمانات الوفدية حتى آخر برلمان قبل ثورة يوليو. وعقب الثورة انتقلت الأسرة إلى سراى جديدة بالعباسية الشرقية، وزوج الرجل ابنه محمد وهو ابن خمسة عشر عاما، وأحيا فرحه صالح عبد الحى وبمبه كشر.

ولم ينقطع ما بيننا وبين آل البنان بالسرعة التى انقطع بها ما بيننا وبين الآخرين، ولكنه انقطع على أى حال. والظاهر أن روح الألفة والتضامن المنبثة فى الحارة تتلاشى فى الأحياء المترامية. إلا تراث أم أحمد من الخدمات والأساطير فهو باق لا يقتلع من صدور الناس على اختلاف طبقاتهم. ويكتسب أهميته المتجددة من ينابيع الحب والجنس والأحلام الخالدة. وهى أم أحمد التى أخبرتنا على المدى بزيجات بنات البنان، واحدة

من محام، والثانية من مهندس رى، والثالثة من وكيل وزارة، وأن الأولى شهد زفافها سعد زغلول كما شهد زفاف الأخريين خليفته مصطفى النحاس. ولكن المجتمع تغير فى علاقاته وتياراته وأفكاره، احتدم الجدل والخصام بين أجياله، حتى قامت ثورة يوليو لتواجه التناقضات الجديدة قبل أن تجتاحها ثورة شعبية جائحة. ووجد على بك البنان نفسه فى مرمى مدافع التغيير الثورى، وحمل من سراياه إلى أعماق السجون وهو لا يدرى لذلك سببا، ثم وضع تحت الحراسة، فران على الأسرة ستار أسود من الحزن والغم، وانفجر شريان فى رأس الرجل فرحل عن الدنيا مستعيذا بالله من الناس وشر الناس، على حين انزوى ابنه محمد فى ذعر مقيم. وتصورت أم أحمد أن تلك الأحداث يدبرها رجال عبد الناصر من وراء ظهره وتمتمت متنهدة:

ـ عينى عليك يا على بك يا أمير وعلى أيامك الحلوة.

ولحقت فردوس هانم بزوجها بعد رحيله بعام، ولكن محمد البنان استرد نشاطه فى عهد الرئيس السادات، وعاونه الانفتاح فعوض خسائره وضاعف ثروته، بل وتردد اسمه فى صحف المعارضة باعتباره من وحوش الانفتاح، فأى حياة وأى سخرية من عجائبها!

* * *

آل المردانى يشكلون الأسرة الرابعة من أعيان الحارة. وتقع سراياهم عند طرف الحارة الآخر المتصل ببين القصرين. وتقسم أم أحمد أنها رأت أباه المردانى الكبير يتجول فى الحارة حافيا.

ـ ولكنه الحظ والشطارة والحرب..

على أى حال نشأ عباس بك المردانى من كبار تجار الجملة فى العطارة، وهو الذى شيد السراى التى تعتبرها أم أحمد أجمل وأفخم سرايات قرمز..

ـ أما زوجته فرحة هانم فهى من أصل مملوكى، جميلة وما جميل إلا سيدنا محمد..

فتقول أمى:

ـ جميلة نعم ولكنها لا تخلو من عنطزة!

ـ المال كثير يا حبيبتى..

ـ أهم أغنى من البنان؟

ـ عباس بك المردانى أغنى رجل فى الحارة.

وتسكت مليا ثم تواصل:

ـ لم ينجب إلا ولدين وانقطعت الهانم عن الحبل لداء احتار الأطباء فيه!

ـ وماذا فعلت أنت يا أم أحمد؟

ـ فعلت الكثير ولكن إرادة الله فوق كل إرادة . .

وكان عباس بك ضخم الرأس والوجه، غليظ القسمات، بدينا لحد الإفراط ولكنه كان كريما محسنا وابن نكتة، وكان سلاملك سراياه صالونا للظرفاء وذوى الحناجر الطيبة من الهواة وصغار المحترفين. ولما قامت ثورة ١٩١٩ أيدها بماله ولكنه لم يكن ذا استعداد للاشتراك فى الشئون العامة مثل حسين بك العمرى وعلى بك البنان. واقتحمت الثورة سراياه وهو لا يدرى فانتزعت منه بكريه محمود الطالب بالزراعة العليا حيث قتل فى إحدى المظاهرات. وقالت أم أحمد:

ـ لم يبق له إلا شاكر، وكثيرون ينصحونه بالزواج من أخرى . .

ـ مسكينة فرحة هانم!

ـ وحزنها فاق كل حد ربنا يصبرها . .

وانتقل عباس بك المردانى إلى العباسية الشرقية كآخر الأعيان المهاجرين، ولولعه الشديد بالهانم زوجته نبذ فكرة الزواج من أخرى، وكان أول من اقتنى سيارة . . «فيات» من الأعيان، وكانت تثير الخواطر إذا مرقت فى شارع العباسية فى ذلك الزمان بسحرها الخاص وأزيزها الذى يكدر الهدوء الشامل. وانتهت حياة عباس بك نهاية دراميـة مأساوية فى الثلاثينات وهو فى غاية الصحة والعافية والحيوية. وكان يهم بدخول شيكوريل فأصابته رصاصة طائشة فى معركة نشبت بين يونانيين فجرت مأساته على أوسع نطاق. وكان شاكر بك ابنه قد أصبح محاميا فصفى تجارة والده. وأخبرتنا أم أحمد أنه تزوج من فتاة بارعة الجمال تمت بصلة القربى للسلطان عبد الحميد.

وقد انضم شاكر بك إلى الوفد، وتجلى نشاطه فى الصحافة والبرلمان، ولكنه انضم إلى السعديين عند انشقاقهم وتقلد الوزارة مرتين ولما قامت ثورة يوليو اعتقل أكثر من مرة وفى مناسبات مختلفة، ثم وضع تحت الحراسة فهام على وجهه كالمجنون. وكانت أم أحمد ترثى لحاله وحال أسرته وأمه ولكنى عرفت عنه أشياء . . من بعض الصحفيين، لم يكن من المستطاع أن تبلغ علم أم أحمد. قيل ـ والله أعلم ـ أنه عمل مرشدا للمخابرات، وقيل إنه وضع نفسه فى خدمة بعض من العرب كقواد دون لبس أو إبهام، وأنه بذا وذاك أمن المزيد من العسف وكون ثروة كبيرة. وكانت تلك الثروة دعامته فى عهد الانفتاح ليقفز إلى درجات خيالية من الثراء. اليوم الظاهرة الغالبة عليه هى التدين، وكأنما يكفر عن تناقضات حياته الحافلة بالألم والذكريات الأسيفة.

خطر لى ذات يوم أن أزور أم أحمد بعد انقطاع طويل. وجدتها فى بيتها مع ابنتها المحالة إلى المعاش بعد خدمة كاملة فى التعليم. كان بصرها قد كف وقدرتها على الحركة

قد ولت. ولما عرفتنى فتحت لى ذراعيها بحرارة وشوق، ثم جلست على كرسى جنب فراشها. لعل لسانها هو العضو الوحيد الذى بقى محافظا على حيويته. ورحنا نتذكر ونتذكر ونقلب صفحات الماضى البعيد والقريب. جلنا معا فى جنبات عالم حافل بالأموات، ألا ما أكثر الراحلين، كأن الوجوه لم تشرق بالسناء والسنى فى ظلمات الوجود وكأن الثغور لم ترقص بالضحك، ها هى راوية الحكايات وطبيبة الحب والجنس والسعادة ملقاة على الفراش القديم تشكل عبئا يوميا على أقرب الناس إلى قلبها. وما قيمة الحكايات يا أم أحمد وهى تتكرر بصورة أو بأخرى قبل أن تلقى نفس المصير. وقد عبرت الحارة من أولها لآخرها وانغمست فى العطر القديم. رأيت قلعة آل سعادة مغلقة مهجورة كالبيت المسكون، أما السرايات الأخرى فقد صارت إحداها مدرسة والثانية مستشفى والثالثة مقرا للحزب الوطنى. وتنبثق من الماضى أصوات وألوان ونبضات قلب فأقول لها لقد جمعتنا هذه الحارة ذات يوم ثم فرقت بيننا الأيام، فإلى اللقاء فى المقر الأخير.

صباح الـــورد

لم يبق من شارع الرضوان القديم إلا موقعه ما بين شارعى العباسية وبين الجناين، ويحتفظ أيضا بميل سطحه الطبيعى من مرتفع الشرق إلى منخفض الغرب، غير أن بيوته قد انقلبت عمائر وتحولت الحقول والحدائق إلى أرض فضاء تباع فيها الخردة ومخلفات السيارات. وحل سكان جدد لا يحصيهم العدد مكان سكانه القدامى الذين تشتتوا فى الأحياء أو استقروا فى جوف الأرض. كان يستكن فى حضن الهدوء الشامل، محاذيا فى حبور الحقول والحدائق، يثمل بمناجاة يومية مع أشجار الحناء والياسمين والتين والخضروات، وخرير السواقى، مزهوا ببيوته المهندمة ذات الحدائق الخلفية الصغيرة. فى الشتاء تسقفه السحب وتتجهمه وجوهها المكفهرة، وحتى إذا أمطرت مطرة واحدة سال سطحه المائل بالمياه الجارية لتتجمع فى شارع بين الجناين صانعة نهرا منه يفور بالزبد، وفى الصيف تلهبه الشمس فتنطلق من صنابير جدرانه خراطيم المياه ترش الأرض مهدهدة حرارتها الحامية. وينظر القادم من الحى الشعبى العتيق فيما حوله بدهشة وسرور، ولا يجد فى قاموسه وصفا للشارع والبيوت والناس إلا أنه شارع إفرنجى وبيوت إفرنجية وأناس متفرنجون، لا ينقصه إلا القبعة واللغة الأجنبية. ومع ذلك فقد ترى القبعة فوق شعر مقصوص ألاجرسون، أو تسمع الفرنسية فى حوار عابر، وقد نطق صبيانه بجملة «أحبك وأعطنى قبلة» بالفرنسية قبل أن يتعلموها فى المدارس بسنوات طويلة.

واستقرت أسرتى فى بيت من البيوت فى منتصف الجناح المطل على الحقول، أمى وأبى وأنا أما الإخوة والأخوات فقد هاجروا هجرة دائمة إلى بيوت الزوجية. والنقلة من الجمالية إلى العباسية فى ذلك الزمان تعتبر وثبة من القرون الوسطى إلى أعتاب العصر الحديث. توارت الحارة والأزقة بعبيرها العنبرى ومصابيحها الغازية وعرباتها الكارو وملاءاتها اللف والجبب والقفاطين والعمم. وتلقانا الرضوان، ملتقى الريف والمدينة، بعصرية مقتحمة مهديا إلينا المياه والكهرباء والصرف الصحى وسرعان ما استبدلت بالجلباب البيچاما، والكرة بالسيجة والجرى وراء عربة الرش، كما كتب على أن أرى السيقان والأعناق لتتفتح على إقاعاتها مراهقتى. كنا أول من هاجر من الطبقة الوسطى الصغيرة، فى إثر أعيان الحارة الذين سبقوا إلى العباسية الشرقية فشيدوا القلاع وغرسوا الحدائق. وكان والداى قد فارقا الشباب بعقد أو عقدين من السنين، والحق أن فرحتهما بالحياة الجديدة شابها اكتئاب وحنين، ولم يستطعا التحرر من هيمنة الحى القديم على قلبيهما، من أجل ذلك لم ينقطع أبى عن حيه، أناسه ومقاهيه، وكذلك أمى واظبت على زيارة الحسين وجيران الزمان الأول، وربما سألت أبى فى عتاب:

ـ لماذا هجرنا بيتنا القديم؟

أما أنا فقد انقسمت إلى اثنين، تكيفت مع الجديد وأصدقائه ومجالسه وعصريته، وكلما سنحت فرصة للرحلة للحى العتيق انتهزتها حتى جرفت معى الأصدقاء الجدد فاكتشفوا على يدى عالما غريبا، عشقوه، وأقبلوا عليه كالسائحين. على أى حال فلن يطول حديثى عن بيتنا أكثر من ذلك، ولى عودة إليه إن شاء الله فى حينه. أما الآن وسأقتنع بأن أكون ترجمان الرضوان فيما لديه من قصص. هو صاحب الحكايات الأول، فهو الذى ضم البيوت يمينا وشمالا، وعلى سطحه التقى الصبية ليبدأوا عهد صداقة دائمة، وفى أركانه ذهب الأبطال وجاءوا، وفى جنباته تطايرت الأخبار وانتشرت، ولو لم يصدق من رواياته إلا نصفها لكفى، بالإضافة إلى أن الزمن كان ينقيها من الشوائب ويسندها بالشواهد، والعبرة فى النهاية بما يقال لا بما حدث، ورد كذبة أصدق من حقيقة، فاستمع إلى شارع الرضوان ولا تكن من المتشككين.

* * *

آل إسماعيل

يقوم بيتهم فى آخر الشارع من ناحية بين الجناين، فى الناحية المطلة على الحقول، وهو يماثل أكثر البيوت بهندسته الأنيقة وحديقته الخلفية، ولكنه بحكم موقعه يطل على

الحقول وشارع بين الجناين وشارع الرضوان، ويمتاز بدرجة عالية نوعا بأثاثه واستخدامه لطاه مع الخادمة وهو ما يعد من الاستثناء النادر. وتتكون الأسرة من جمال بك إسماعيل - ولا أدرى إن كانت رتبته رسمية أم بالشهرة، الموظف بوزارة الأوقاف، وزوجته كريمة هانم وذريته الجميلة مديحة وسامية وعثمان. أسرة ناجت وجداننا حتى نفذت إلى أعماقه. الأب ربعة كبير البطن كث الشارب مهيب الطلعة، لامع الحذاء والعصا، إذا مر أوقفنا اللعب وتلقينا نظراته الغاضبة فى سكون وامتثال. وربما صاح بنا:

- بدل اللعب والقرف روحوا سقفوا عقولكم!

ينطق «سقفوا» لا «ثقفوا» فنغرق فى الضحك بعد ذهابه ويقول قائلنا:

- ما هو إلا بغل فخم!

أما كريمة هانم فتسير مختالة بحسنها، متبخترة بلحمها الجسيم كالمحمل، وأما مديحة وسامية فما أجمل ما يشف عنه النقاب من جمالهما الغض، حتى عثمان تميز بالجمال ولكن رقته الأنثوية جرت عليه التعليقات الساخرة الحادة. وترفع عن صداقتنا لفارق عمر بسيط وكم عبر بنا دون أن ينظر إلينا. واشتهرت كريمة هانم فى أوساط الأسر بالخفة، وتمتعت فى حياتها بقدر لا يستهان به من الحرية، فكانت تصاحب زوجها إلى المسرح والسينما، وتحكى للنساء عن منيرة المهدية ومسرحياتها الغنائية، وطالما قالت عنها والدتى:

- سيدة طروب ودمها شربات ولا نهاية لنوادرها المسلية..

وكنا نرى مديحة وسامية كثيرا لدى عودتهما من مدرسة سان چوزيف بالعباسية الشرقية، كما كنا نعرف أن عثمان يتعلم فى مدرسة الفرير. ووجد فى شلتنا من ينتقد سلوك الأسرة ومنهجها فى الحياة:

- جمال بك أسد علينا ولكنه نعامة أمام زوجته فيرافقها إلى السينما والمسرح.

ونختلف على المدارس الأفرنجية التى ألحق بها أبناءه، فمنا من رأى فى ذلك نقصا فى الوطنية ومنا من أثنى على التعليم فى تلك المدارس، وكنا جميعا نشعر بدرجات متفاوتة من الغيرة وننفس عليهم طلاقتهم فى التحدث بالفرنسية.

باختصار كانت الأسرة موضع إعجابنا واستفزازنا. لذلك رحبنا بأن نسمع عنها ما يسىء. ولعل صديقنا عبد الخالق كان مصدر الهمس الأول بحكم جوار بيته لبيت آل إسماعيل. قال ونحن مجتمعون عند رأس الشارع حيث ملتقاه بشارع العباسية:

- مديحة بنت جمال بك إسماعيل هربت!

وحدقنا به ذاهلين وفى غاية من الانفعال:

- غير معقول!

ـ حصل، هربت مع محام شاب!

حلق بنا الخبر فى جو الأساطير وألف ليلة. وواصل عبد الخالق:

ـ ولكنه تزوج منها!

ـ ليس خبرا ولكنه لغز!

ـ لا أزيد عما سمعت حرفا.

الأسرة هى هى لم يتغير لها حال. الأب يمضى فى مهابته والأم فى دلالها وعثمان فى رشاقته وغرابته ولكن الشارع يتلقى التفاصيل والأسرار. قيل إنه تقدم لطلب يد البنت كثيرون وأنهم قوبلوا جميعا بالرفض، لم يملأ أحد منهم عين جمال بك.. هذا فقير، وذاك شهادته دون المستوى، الثالث أهله على غير ما يرام، الرابع أخلاقه كيت وكيت ـ حتى يئست الجميلة من ناحية أبيها فما إن مال قلبها إلى المحامى الشاب حتى اتفقا على الهرب والزواج ـ لم تقم حفلة للخطبة ولا للدخلة، ولم تقدم شبكة أو هدايا، ولم يتفق على مهر، ولكن الشاب أثث شقة صغيرة وبنى عشه. وبدا أول الأمر أن مديحة قد انفصلت نهائيا عن أسرتها، ولكن القطيعة لم تدم طويلا، وتوسط أهل الخير فرجعت الأمور إلى مستقرها وخفقت القلوب بالحب والرضا..

وبعد انقضاء حوالى عام ما ندرى إلا وعبد الخالق يقول ضاحكا:

ـ سامية بنت جمال بك هربت مع ضابط جيش..

وشاركناه الضحك هذه المرة..

ـ البك الغبى لا يريد أن يتعلم..

ـ إنه ولا شك مجنون.

وكررت حكاية سامية حكاية مديحة. الهرب والزواج وبناء العش والقطيعة ثم الرجوع إلى المستقر والرضا كأنما كانت الأسرة تخلق تقاليد جديدة للحب والزواج. غير أن شائعة غريبة تمطت فى الشارع، دعمها عبد الخالق وعم فرج بياع الدندورمة والحلوى، وصادفت هوى شاملا لتصديقها، قيل إن حوادث الهروب لم تقع مصادفة ولكنها جاءت نتيجة تدبير حكيم من جمال بك إسماعيل، ليزوج كريمته دون أن ينفق مليما، لا عن بخل، ولكن لأنه كان ينفق مرتبه كله على رفاهية أسرته والمظاهر الجذابة دون أن يعمل حسابا لغد. لم يستطع أن يدخر نقودا أو يقتنى ملكا، فدأب على رفض الخطاب حتى اضطر مديحة وسامية إلى الهرب وتم له ما أراد. كلام قيل وصدق، ولا يعز على التصديق خبر ردىء. ثم إنه لا دخان بلا نار. وعلى أى حال كنا نعيش فى جو يقطر كذبا وادعاء. كل فرد يروى الأساطير عن أسرته وتاريخها. كل أسرة يتسلل أصلها من منبع عريق كان له شنة ورنة على عهد محمد على أو المماليك أو عهد الرسول نفسه.

أما أكاذيب النساء فحدث عنها ولا حرج، وهى تقبل دون مناقشة وإن انحشرت فى الحلق كالشوكة. ولذلك ما إن تنفجر إشاعة مسيئة كإشاعة زواج مديحة وسامية حتى تقابل بالتصديق والارتياح الخفى. أما نحن المراهقين أو شبه المراهقين فكان الجانب الجنسى هو الذى يثير اهتمامنا. انتهاء الهروب إلى الزواج خيب آمالنا وفتر خيالنا وشتت أحلامنا. وددنا لو تقلد الحياة الفن ولو مرة وأن نشهد تمثيلية من تمثيليات يوسف وهبى فى شارع الرضوان. ويجرى الحوار المحموم بيننا:

ـ هل تظن أنه لم يحدث شىء قبل مجىء المأذون؟

ـ البنت القادرة على الهرب قادرة على كل شىء!

ـ تخيلوا ذلك الجمال النادر عندما تجرد من ملابسه.

وماذا تتخيل إن لم نتخيل ذلك! لم ينج أحد منا من سحر مديحة أو سامية أو كلتيهما معا. وكان غيابهما من شارع الرضوان مثل كسوف الشمس أو خسوف القمر، وهيهات أن يسلى عنه الخيال أو قراءة الأشعار الحزينة. لم يبق لنا من آل إسماعيل إلا كريمة هانم وكان حجمها يخيفنا، وجمال بك الذى يتبادل معنا نفورا ثابتا، وأخيرا عثمان المثير لإعجابنا واستفزازنا وسخريتنا إذا وقفنا اللعب حتى يمر شكرنا قائلا:

ـ مرسى مسيو.

فيفجر بعد ذهابه عاصفة من السخرية، وكان يدعو أصدقاء متفرنجين مثله ويجتمع بهم فى منظرة البيت. وكان بينهم عازف بيانو يتقن عزف المقطوعات الإفرنجية فكان يترك فى نفوسنا أسوأ الأثر والغضب. أجل كنا نتطلع إلى الفرنجة فى نواح أخرى فنقرأ الأدب الغربى المترجم، بل حاولنا أن نتعلم الرقص وخاصة الشارلستون والطانجو، أما الموسيقى فلم يكن من الميسور هضمها. وفى رمضان لم يكن عثمان يبالى أن يسير والسيجارة فى فمه. وقالت لى أمى:

ـ كريمة هانم لا تصوم أيضا..

ـ وجمال بك؟

ـ لا أدرى ولكن المعقول أنه يصوم.

وتذكرت مساحة بطنه التى تشبه خريطة آسيا فلم أصدق أنه يصوم. المهم أنه فى أوائل الثلاثينات ـ وكنا فى ختام المرحلة الثانوية ـ سافر عثمان فى بعثة إلى فرنسا وبعد أشهر دهمنا خبر فظيع وهو أنه اضطر إلى إطلاق الرصاص ليسترد نقوده التى خسرها على مائدة قمار وأنه ألقى القبض عليه. لم نستطع أن نتصور تطور تلك الشخصية البالغة الرقة والتهذيب من العذوبة اللانهائية إلى الجريمة. وخفق قلب شارعنا رغم كل شىء. ثم وردت الأخبار بأنه قضى عليه بالسجن عشر سنوات فى جزيرة الشيطان. يا للهول!..

عثمان جمال إسماعيل فى جزيرة الشيطان! إنها الجحيم كما رأيناها فى فيلم بسينما أوليمبيا فكيف يتحملها الفتى الهش الرقيق؟ ولم تعد كريمة هانم ترى فى الطريق. أما جمال بك إسماعيل قد غامت نظرة عينيه البراقتين وثقلت خطاه بالهوان. وقيل إنه استشفع بإسماعيل صدقى رئيس الوزراء ولكن ماذا تجدى الشفاعة أمام القانون الفرنسى؟! وسمعت أمى تقول ذات يوم بتأثر شديد وهى راجعة من زيارة آل إسماعيل:

ـ عينى عليك يا كريمة هانم. . ذبلت عيناك من البكاء.

ولكن المأساة لم تستمر كالجرح الذى لا بد أن يذبل فبلغت ذروتها بوفاة البطل السجين. وغيرت المأساة من حياة الزوجين فكانت الوداع لحياة السرور والضحك. وما ندرى يوما إلا وهما يسافران معا إلى الحجاز لأداء فريضة الحج. وفى أثناء الحرب العظمى الثانية رأيت كريمة هانم فى مخبأ الشارع الذى كان يجمع بين أهل الحى كل ليلة. رأيتها فى ملابس البيت وقد تخلى عنها لحمها ورواؤها وعلتها أمارات الكبر. . وعند نهاية الحرب هاجرت الأسرة إلى مصر الجديدة فلم تقع عينى على أحدهما بعد ذلك حتى اليوم. وتتابعت الهجرات من شارعنا إلى الأحياء الأرقى، وشق شارع أحمد سعيد وسط الحقول فسرعان ما اختفت الخضرة والأزهار وحلت محلها فى الأرض الفضاء الخردة ومخلفات الحرب. وفى الخمسينات ـ وأنا موظف بالأوقاف ـ رأيت ذات يوم سامية تمضى بصحبة كهل نحو حجرة مدير الأوقاف الأهلية. رأيت أمامى صورة طبق الأصل من كريمة هانم على عهد النضارة والجمال. وقد التقت عينانا فى نظرة خاطفة، وأعتقد أن التذكر تبادل حوارا صامتا بين عينينا ولكنه كان كافيا من ناحيتى لإحياء عشرة طويلة من الماضى الجميل.

آل مــــــراد

يقوم بيتهم فى نهاية الشارع من ناحية بين الجناين فى ذيل الجانب الآخر من الشارع فهو يواجه بيت آل إسماعيل. صديقنا من هذه الأسرة هو آخر عنقودها عبد الخالق. وكان يقيم فى البيت مع أخت وأخوين، أما الشيخ مراد أبوه، وكذلك أمه، فقد توفيا منذ سنوات وهو ما زال طفلا. وبترتيب السن كان محمود هو الأكبر ورتيبة تليه ثم أحمد، وتفصل سنوات غير قليلة بين أحمد وصديقى عبد الخالق، وكانت رتيبة تقوم فى البيت بوظيفة الأم خير قيام. وقال لى عبد الخالق إن أخويه موظفان وأنهما قررا ألا يتزوجا حتى تتزوج أختهم رتيبة. ورغم بساطة الحال والمظهر لم أعرف فى حياتى شخصا فخورا

مثل عبد الخالق. يحدثنا كثيرا عن أبيه الشيخ مراد وكيف كان من شيوخ الأزهر الخالدين، وأمه سليلة مجد عريق وأن أباها مذكور فى تاريخ الجبرتى، وكان يذكر أخويه محمود أفندى وأحمد أفندى باعتبارهما من موظفى الدولة المهمين. وعرفت الحقيقة بفضل بقية الأصدقاء والزمن والشارع، وعرفت أن فخره لم يكن على غير أساس دائما. أجل كانت أسرته الغصن الوحيد العارى فى شجرة مورقة بالمجد والثراء. عمه كان يوما مفتى الديار المصرية ومازال وقتذاك عضوا فى هيئة كبار العلماء، إلى مواقف مشهودة تذكر له فى ثورة ١٩١٩. وخاله كان فى تلك الأيام النائب العام وما أدراك ما النائب العام. وثمة خال آخر يعد فى الصفوة المختارة من تجار البلد. إذن ففخره لم يكن بلا أساس يعتمد عليه، ولكنه كان يغالى فيه لدرجة جرت عليه بعض السخرية. وكان ينتهز فرصة نشر أى نعى خاص بأسرته لكى يتلوه علينا بالأسماء المدوية المذكورة فيه، ولكننا لم نشهد يوما أحدا من أولئك الرجال العظام وهو يزور بيت صديقنا المنعزل فى شارع الرضوان. وعرفت بعد ذلك حقيقة أخويه الموظفين، فإذا بهما من صغار الموظفين، محمود أفندى بالابتدائية، وأحمد أفندى بالكفاءة. وكان عبد الخالق ذا وجه مستدير وشعر أسود عميق السواد، وأنف أفطس، وعينين مستديرتين صغيرتين. وكان هو ومحمود أفندى ورتيبة ثلاث صور متقاربة لا تمت للجمال بأى صلة، بخلاف أحمد أفندى الذى انطلق بقامة ممشوقة ولون ضارب للبياض وقسمات متناسقة جذابة. وكان طبيعيا أن يؤجل الأخوان زواجهما حتى تتزوج رتيبة، وحتى ينتهى عبد الخالق من مراحل تعليمه التى تعثرت خطاه فيه ولم تبشر بأى فلاح مرموق. كان الفقر يخيم على الأسرة ويطمس معالم مستقبلها، وربما كانت رتيبة مشكلتها الأساسية لفقرها وجهلها وحرمانها القاسى من الجاذبية والجمال. ورغم ذلك فهى لم تستسلم للانزواء والانطواء، وترددت على أسر الشارع فى زيارات انفرادية ـ متجنبة أيام الزيارات المعروفة ـ لتتفادى الوجود فى مجتمعات السيدات بملابسها البسيطة المتواضعة، ولتلقاهن كذلك فى بيتها منفردات فلا تكلفها الزائرة أكثر من فنجان القهوة. وكانت محور الخدمة فى بيتها، فلم يشعروا بفقد الأم ولا بافتقاد الزوجة، وراحت تتقدم فى السن عاما بعد عام فى جو من الصمت والقلق. لا شك أن أحمد كان أسعد أعضاء الأسرة، يسير بالشارع تياها بمنظره فيجذب أنظار البنات والنساء ويوزع نظراته على النوافذ والشرفات مغلقة بالحذر الواجب. جعل من فن الحب مهنته ولم يخب مسعاه فحرره الحب من البيت الكئيب بما يشبه المعجزة. أحبته أرملة غنية تماثله فى السن وعرضت عليه زواجا يناسب حاله أى بدون تكاليف تذكر وانزعج أخوه الأكبر محمود وقال له إنه سيتركه وحيدا فى السفينة الجانحة ولكنه طمأنه ووعده بأنه سيفيض على أسرته مما سيفيض به الله عليه. وتزوج من الأرملة، وانتقلت به إلى المعادى، كأنما لتستأثر به بعيدا عن أهله. والحق أنه لم يستطع أن

ينجز وعدا من وعوده الخلابة، وكاد ينقطع تماما عن أسرته تحاشيا للمشاحنات ووجع الدماغ. وساءت حال الأسرة أكثر وبلغ اليأس أقصى مداه بمحمود ورتيبة، أما عبد الخالق فنتيجة لفشله المتكرر فى الدراسة التحق بالتجارة المتوسطة بالابتدائية. وانتهى من دراسته المتواضعة قبل أى واحد منا، وبوساطة عمه أو خاله التحق بوظيفة صغيرة بالمعارف. وبحلول الثلاثينات نبذ محمود أفندى فكرة الزواج تماما يأسا وعجزا ومضى ينحدر نحو سن المعاش، ورتيبة جاوزت الثلاثين بخمس واستسلمت لليأس، وآمن عبد الخالق بأنه يسير فى نفس الطريق. ولكن كان ثمة مفاجأة فى الغيب فقد جاء أولاد الحلال بعريس لرتيبة. فى الخمسين من عمره كان وحيدا وعلى شىء من الثراء والمرض، ولعله كان فى حاجة إلى الخدمة أكثر من أى شىء آخر. هكذا تزوجت رتيبة قافزة فوق اليأس والظنون، واستقرت أيضا فى بيتها الجديد، وأنجبت قبل فوات الفرصة ولدين أتيح لى أن أرى الأكبر ضابط شرطة والآخر ضابط جيش، وصادفتهما كثيراً فى أطوار من العمر فى بيت عبد الخالق فكانا ينادياننى بقولهما «يا خالى» أسوة بخالهما عبد الخالق. والحق أن صادقتنا مع عبد الخالق صمدت للزمن قوية رغم اختلاف المشارب والمذاهب، يحفظها الشارع والمقهى والذكريات. واستقبلنا الحرب العظمى معا، وجمعنا المخبأ كل ليلة، وطالما ناقشنا التغيرات النامية حولنا فى الناس والأحوال والأسعار. وكان من السهل ملاحظة الحب الجامح الذى يكنه صديقى لأهله عامة ولابنى أخته خاصة، شأن الأعزب المحروم من ممارسة العواطف الحميمة. وأيضا لتطلعه الطبيعى الساذج نحو نفوذ الشرطة والجيش يغطى به هوانه كموظف صغير ضائع بلا مستقبل يعتد به. ولكن سوء الحظ كان يرصده من حيث لا يدرى. ففى الفترة الحرجة التى أعقبت الحرب استولت مبادئ الإخوان على ضابط الشرطة، وفى خضم الصراع بين الإخوان والسلطة انكشف أمره فى مطاردة مثيرة وقتل برصاص الشرطة! قتل الجنود ضابطهم، ولم أعرف هذه الحقيقة إلا من عبد الخالق نفسه، بخلاف ما نشر فى الجرائد من أنه قتل برصاص الإخوان فى المعركة. وأرسل عبد الخالق لنا كلمة مكتوبة يحذرنا فيها من شهود سرادق المأتم خوفا أن نجر بسبب ذلك إلى التحقيق.

وقال لى فيما تلا ذلك من أيام:

- حتى بيتنا فتشوه..

وراح يتمتم بنبرة باكية:

- إنه حظى الأسود!

لم أعرف بين أصدقائى من كان يقارب عبد الخالق فى عمق أحزانه أمام الموت، ووكان يفوق فى ذلك النساء أنفسهن، كما لم أعرف أحداً يماثله فى شدة تعلقه بأسرته.

أما خاصيته الأخرى فهى إدمانه لشراء أوراق اليانصيب وبخاصة يانصيب المواساة أو سباق الدربى العالمى. وكانت أسعد أوقاته هى ما تمضى بين شراء الورقة وظهور النتيجة، حينما يستسلم لعذوبة الأحلام، فى مباهجها الأساسية، الڤيللا والسيارة والمائدة والعروس. وأحيانا يقول لى متحسرا:

ـ يا لخسارة النظرات الضائعة فى الهواء!

فأسأله عما يعنى فيقول:

ـ الجميلات فى النوافذ..

ويحكى عن بنات العباسية، كيف يطاردهن بنظراته الجائعة، وكيف يستجبن بأدب منتظرات الخطوة التالية التى لا تجىء أبدا.

ـ العين بصيرة واليد قصيرة..

فأقول ضاحكا:

ـ ربما يخبئ لك الدهر حظا كما خبأه لأخيك أحمد!

فيقول محتجا:

ـ لا تذكرنى بالوغد!

كان عبد الخالق متدينا من نوع ما، يحافظ على صلاته وصيامه ويكثر من الدعاء لعل وعسى. ولكنه لا يتردد فيسكر ليلة الجمعة متجرعا أرخص أنواع الأنبذة بشارع محمد على ثم يذهب مترنحا إلى درب طياب. ويتغنى إذا سكر:

الحمد لعلام الغيب.

القادر على أن يملأ جيبى.

وآخذ من الدنيا نيبى.

وأتزوج بفرنسية.

وعلى نقيض شلتنا لم يعرف الانتماء إلى الحركة الوطنية. وبامتعاض يقول:

ـ كلهم مهرجون، ماذا فعلوا للبائسين؟!

وتحمل الأصوات على الاستعمار والأجانب فيقول ساخرا:

ـ السياسيون يقاسمونهم الخيرات ويضحكون علينا بالخطب.

ولا سبيل إلى تغيير رأيه، ولعله الوحيد ـ أو أحد اثنين ـ فى شلتنا كلها الذى قبع فى قوقعة محكمة من الأمية العقلية، فلم ينظر طوال حياته فى كتاب أو مجلة ـ عدا المقررات المدرسية، ولم يستطع أن يفرق بين العقاد المفكر والعقاد التاجر بالسكة الجديدة ـ واكتشفنا فى زمن متأخر نسبيا أنه يعتقد أن النيل مرادف للنهر، فيوجد نيل فى إنجلترا ونيل فى

العراق إلخ. وكان يغلب عليه الوجوم والكآبة فلا يضحك ويغنى ويرقص وينبسط إلا إذا سكر. وجرى الزمن حتى أقبلنا على الأربعين من عمرنا، وعند ذاك فاجأنا الجيش بانقلابه في يوليو ١٩٥٢. ورحنا نضرب أخماسا فى أسداس كما يقولون وإذا بعبد الخالق يقول:

ـ أى حركة خير من الكرب الذى نعانيه.

وسرعان ما تبين له أن ابن أخته الباقى من ضباط الصف الثانى المقربين. وكاد يطير من الفرح، واهتم بالسياسة لأول مرة فى حياته، وراح يقول لنا ضاحكا بغير سكر:

ـ إذا لم يقسم لنا أن نكون من الأمراء فنحن من النبلاء!

وآمن عبد الخالق بأن ورقة يا نصيبه قد رحبت أخيرا وأن الدنيا مقبلة على أجنحة الملائكة. وسألته:

ـ متى تجىء الترقية؟

فقال بحبور:

ـ قال لى ـ ابن أخته ـ إن الترقية فى الوزارة كثيرة الصخب قليلة الثمرة، ولكنه سيبحث لى عن وظيفة فى شركة وبمرتب خيالى..

ولم أعد أرى الضابط الشاب فى شارعنا، ربما لانغماسه فى واجباته الجديدة، وكان يزور خاليه أحيانا مستترا بالليل فيطمئن عليهما ويعدهما خيرا ثم يذهب دون أن يدرى به أحد. وقد صادفته ذات صباح وأنا ذاهب إلى عملى وكان يغادر دار الإذاعة بشارع الشريفين إلى سيارة عسكرية تنتظره. هممت بالسلام ولكنه مضى وكأنما لم يرنى. اندلق على جردل ماء بارد. لا يمكن أن يتجاهلنى. إنه فى شغل شاغل بأفكاره فلم يرنى. ولكن لشد ما تغير فى أيام معدودة. تلبسته هيئة عظمة لا أدرى من أين جاءته. ومضى وكأنه صاحب الأرض ومن عليها. وتذكرت بذهول تواضعه وبساطته وعذوبته وسذاجته الثقافية. وخطر لى خاطر، أن أولئك الضباط فى ثورتهم يمثلون مصر المقهورة فى معاناة مشاعرها بالنقص، ولكن يخشى أن ينقلب الأمر فى ذواتهم إلى مركب عظمة ولا يجدوا من يمارسونه عليه إلا المصريين التعساء! المهم أن عبد الخالق كان يعيش فى سراب. وبدأت المأساة بصداع متقطع ينتاب الضابط الشاب فى رأسه، ثم يشتد ويستفحل، وينجلى الفحص عن اكتشاف ورم بالمخ. وسرعان ما حملته طائرة إلى إنجلترا لإجراء جراحة عاجلة وخطيرة. وبسرعة غير متوقعة أسلم الشاب الروح. أما الحزن الذى حاق بعبد الخالق فمما لا ينسى أبد الدهر. بكى ولطم كالنساء. وأغمى عليه مرتين فى منظرة بيته ونحن نقدم له واجب العزاء. والحق أننا قدرنا حزنه وحاله فشاركناه ألمه من صميم قلوبنا. ومضى وقت طويل وهو عائش فى مأساته. وكان يقول:

ـ أي حظ هذا! حدثت معجزة من أجلى فانظروا كيف انتهت . .

ويشرد طويلا ثم يواصل :

ـ انظروا إلى حظ الآخرين . .

وراح يحصى المحظوظين . . من ضموه إلى لجنة جرد القصور الملكية وما أدراك ما الجرد، من رقى فى وزارته وفاق نفوذه وكيل الوزارة، ومن . . ومن . .

ـ حتى جاء دورى فحصل انقلاب للانقلاب . .

ونصحناه بأن يستشفع بزملاء ابن أخته من الضباط ولكن لم يسفر المسعى إلا عن ترقيته إلى الدرجة السابعة . وواصل حياته التعيسة برفقة أخيه الأتعس . ولما مات أخوه فى الستينات باع البيت . وتزوج بنصيبه أرملة فى منتصف الخمسين كانت أما لفتاتين متزوجتين، وأقام معها فى السكاكينى ولم ينجب . وهدأت أعصابه بعض الشىء بتقدم العمر وسلم بالأمر الواقع، وازداد تدينا وأملا فى الآخرة، ولم ينقطع عن المقهى وأصدقائه قط . وفى الثمانينات توفى بفشل كلوى وهو ابن سبعين بعد حياة مفعمة باللهفة والحسرة والإحباط، طاوية ذكرياتها الجميلة فى ماض بعيد لم يكد يبقى من معالمه شىء .

* * *

آل القـــربى

تقوم سراى آل القربى فيما يلى بيت آل مراد . سراى كبيرة مترامية، ينطلق النخيل متجاوزا أسوارها العالية، وتشغل مساحة واسعة بطول شارعنا وفى العمق المفضى إلى شارع أبو خودة . تلوذ بعزلة صارمة عما حولها، وتغوص فى غموض شامل كأنها تاريخ قديم بلا وثائق، فلا أحد يعرف شيئا عن الأصل أو الأقارب، وأهل السراى لا يزورون ولا يزارون بخلاف أغلبية السكان الملتحمة بالجيرة والتزاور والمودة . ولم نر من أهلها سوى ربها إحسان بك القربى وابنه الصبى عمرو . كما كنا نرى البواب والحوذى والطاهى ومديرة السراى أمام الباب فى العصارى . وكان البك يغادر السراى مرة واحدة يوميا عند الأصيل، على قدميه غالبا، وفى الحنطور نادرا، ثم يعبر شارع العباسية متجها نحو الشرق لقضاء سهرة فى أحد القصور . كان بدينا مع ميل إلى القصر، ضخم الخلفية مثل امرأة، طويل الطربوش ريان الوجه ثقيل الملامح، يرى العالم من خلال نظارة كحلية اللون ويقبض على مذبة عاجية . كان بطىء الحركة، بارد النظرة، كأنه ناهض من نوم أو

ماض إلى نوم، ويمضى غير منتبه لما حوله. وكان عمرو من سننا، ولكنه لم يشجع أحدا على التعرف به ولم يسع إلى التعرف بأحد، وكان يظهر أمام الباب قليلا، وأغلب فراغه يقضيه فى الحديقة، وكان صورة مصغرة من أبيه لولا جحوظ فى عينيه. وكنا نفضل جمال بك إسماعيل على إحسان بك رغم تأديبه المتلاحق لنا، فهو مثير وباعث على الضحك ولا وجه للمقارنة بينه وبين هذه الكتلة اللحمية الباردة الصامتة فضلا عن المكانة المرموقة التى استحقها جمال بك لإنجابه مديحة وسامية. ورغم ذلك فقد رسمنا للأسرة صورة، أمدنا الخيال ببعض خطوطها وعم فرج بالبعض الآخر. قال صديقنا عبد الخالق:

ـ اسم القربى فيه الكفاية هو نسبة إلى القربة، فجدهم كان ولا شك سقاء، وبشرتهم كما ترون لا تشى بأصل شركسى أو تركى أو حتى شامى..

أما عم فرج بياع الدندورمة والحلوى فقد اقتحم بحديثه أسوار السراى إلى الداخل وقال:

ـ ليس فى السراى امرأة سوى نفوسة كبيرة الخدم.

وأكد لنا أن الهانم توفيت عقب ميلاد عمرو، وقبله بسنوات عديدة أنجبت موسى بك الذى يعمل اليوم فى السلك السياسى. وتناسينا آل القربى بلا اكتراث حتى شدوا انتباهنا فى الثلاثينات بواقعة استفزازية خلقت لهم فى القلوب كراهية ثابتة. فقد دعا البك إسماعيل باشا صدقى رئيس الوزراء فى الثلاثينات، إلى مأدبة عشاء فى سراياه. كان الباشا فى ذلك الوقت دكتاتور مصر ومعذبها وأبغض خلق الله إلى قلبها. ومنذ عصر ذلك اليوم انتشر المخبرون فى الشارع والحى كله، وصادروا أى تجمهر لأبناء الحى حتى اضطررت لمشاهدة ما يجرى من نافذة بيتنا. وجاءت قوة من الشرطة واتخذت مواقعها فى الشارع بكامل أسلحتها. ومضى المدعوون يحضرون فى سياراتهم ويدخلون السراى تباعا. وأخيرا جاءت سيارة رئيس الوزراء، ووقف المدعوون وعلى رأسهم إحسان بك القربى لاستقبال الرجل، ولمحته وهو يغادر السيارة إلى السراى. وامتدت السهرة حتى نهاية الثلث الأول من الليل ثم غادر الجمع السراى فى مظاهرة من السيارات بين صفين من الجنود المسلحين. وانتشر الخبر فى الحى كله كالنار المندلعة، وجرى اسم القربى على الألسنة مصحوبا باللعنات.

وتراجع البك إلى جحر عزلته وغموضه حتى شد انتباهنا مرة أخرى فى تاريخ لاحق لم أعد قادرا على تحديده. ما ندرى ذات نهار إلا ونفوسة كبيرة الخدم تغادر السراى ملتفة فى ملاءتها اللف وهى تسب وتلعن قلة الحياء. ماذا حدث يا ترى؟ ومن يكون قليل الحياء؟

وعلق أحدنا قائلا:

ـ المرأة ليست شابة ولكن بها رمق ولا شك!

ورجعت المرأة بعد حين بصحبة شرطى فدخلا السراى معا . وبلغت بنا الأشواق منتهاها ، واستخفنا السرور . وإذا بركب يخرج مكون من المرأة والشرطى وإحسان بك القربى فيتحرك نحو قسم الوايلى .

ـ يا ألطاف الله ! . . البك نفسه !

ـ لم لا ؟

ـ وما دخل الشرطة ؟

ـ طمعت المرأة فى قرشين !

ولم نعرف مزيدا من الحقيقة حتى تكلم عم فرج . والله وحده هو المطلع فلم أدر حتى اليوم أين يقف الخيال وأين تبدأ الحقيقة ؟ قال عم فرج إن البك فاجأ المرأة برغبات شاذة فغضبت لكرامتها وأبت إلا أن تشكوه فى القسم . وقال الرجل :

ـ تحولت المسألة إلى قضية وربنا يستر . .

أشعلت القضية اهتمامنا وأثارت خيالنا وحركت مكامن الجنس فى نفوسنا . وزاد عم فرج فقال إن العلاقة ساءت قديما بين البك والمرحومة زوجه لميوله الشاذة . ورأينا الرجل يرجع إلى أسلوب حياته اليومى . يذهب ويجىء دون مبالاة وكأن شيئا لم يكن . ماذا حدث ؟ هل ينتظر محاكمة ؟ . . هل عجزت المرأة عن إثبات التهمة ؟ . . هل تم اتفاق من نوع ما ؟ . . هل تدخلت جهات عليا لصالح البك ؟ . . أفلتت الحقيقة منا تماما ، وعادت الحياة إلى روتينها المألوف ، وحلت خادم جديدة محل القديمة . وأتم عمرو تعليمه معنا على وجه التقريب فى تاريخ واحد ، وألحق كأخيه بالسلك السياسى . وبعد قيام الحرب العظمى بقليل غادر البك الحى إلى مكان آخر ، فلم أسمع عنه أو عن ابنيه أى خبر . ولبثت السراى مغلقة حتى بيعت قبيل الخمسينات ، وشيدت مكانها أربع عمارات .

* * *

آل الجمحى

بيتهم يقع مباشرة لصق آل جمال إسماعيل ، وهو بيت عامر بالسكان . . عبد الرحيم بك رب الأسرة ، وحسين ابنه وصديقنا ، وزوجة وبنات لم يرهن أحد ولم يعرف عددهن أحد من شدة غلظ السياج المضروب حولهن . وعبد الرحيم بك الجمحى من عرب الفيوم وأعيانها ، ولسبب ما عهد بأرضه إلى إخوته وهاجر إلى القاهرة فشيد بيته فى شارع الرضوان واستقر . لم ير وجه من حريمه فى نافذة أو باب ، ولا وجد حاجة لعرض بناته

على الأسر، إذ كن مخطوبات منذ المهد لأبناء عمومتهن، ولم يسمح لزوجه بزيارة أسرة من الأسر إلا بعد التأكد من بعدها عن «الفرنجة»، فكان من حظى أن أرى زوجته وأنا فى صباى الأول، وأتملى لونها الأبيض وقسماتها الجذابة ولهجتها العربية الريفية الممتعة، أما فى المجىء والذهاب فكانت تتسربل بالسواد كأنها جوال فحم. وكان للرجل هيبة وعنجهية وصرامة وقوة عمل لها كل إنسان ألف حساب وحساب. كان قوى الجسم كمصارع محترف، غزير الشارب، غليظ القسمات، وبه حول شديد، منفر الصورة، يقبض فى سيره على عصا غليظة أطول منه، ويضرب الأرض بقدم ثقيلة وهو يندفع بعباءته وعمامته. وذاع ـ ولا أدرى كيف ـ أن الرجل قاتل له أكثر من ضحية فى بلده. وخطر لنا ذات يوم أن نسأل حسين عن صحة ما يقال فقال بأبهة:

ـ قتل أبى أربعين رجلا!

فرأيت فيه رمز الموت وشبحه وخفته بقدر ما كرهته، وآمنت بأن العدل لن يتحقق على الأرض حتى يقتل هذا الرجل.

وعلى أثر انصرافه من زيارة لأبى قلت لأبى:

ـ يقولون إنه قاتل..

فقال ببساطة:

ـ ولماذا نصدق ما يقال؟.. الحق أنه شهم وجار أمين..

ونشأ حسين مثل أبيه فى القوة والشراسة والصورة. إذا غضب ضرب، ولا يجرؤ أحد على مواجهته. ولكنه فى حال الرضا كان مثال الكرم والمودة. وطالما دعانا للغداء وأتحفنا بالهدايا من الحلوى والفاكهة. ورغم ثرائه كان تلميذا ناجحا، ويحب المطالعة والمناقشة غير أنه بدا من أول الأمر فخورا بالعرب والعروبة، معتزاً بالطبقة، ولذلك احترم الملك وعدلى ولم يخف استهانته بسعد زغلول. نظرته إلى الأمور من فوق إلى تحت، وهو لا يداريها أو يخفيها، يثير عاصفة من المناقشات، ولكننا أخذناه على علاته، بل آمنا بضرورة وجوده كممثل لمعارضة لابد منها لتجديد حوارنا وإنعاشه. ولم نختلف معه فى السياسة و حدها، ولكن أيضا حول المرأة والحضارة الغربية والأفكار الجديدة، ولعله كان الوحيد فى شلتنا الذى يفضل الرافعى على العقاد. ولكنه اختلف أيضا مع عبد الخالق على ماشست وفانتوم فأسفر ذلك الاختلاف عن شراسته. كان ماشست وفانتوم من أبطال الأفلام الذين يأسروننا بقوتهم وشجاعتهم. وفاز كل منهما بفريق من المتحمسين فكان حسين مع ماشست وعبد الخالق مع فانتوم، واشتد النقاش بينهما عن ذلك حتى غضب حسين الجمحى. وإذا به يقبض على عنق عبد الخالق ويقول:

ـ لو قبض ماشست على عنق فانتوم هكذا فماذا يستطيع فانتوم أن يفعل؟

وضغط على عنق عبد الخالق بحنق حتى احتقن وجهه بالدم وانحبس صوته. وخلصنا بينهما وعبد الخالق يلهث. وقاطع حسين فترة طويلة حتى صالحه بدعوة خاصة إلى الغداء. وكان بيت عبد الرحيم بك يواجه سراى آل القربى مباشرة ولكن لم يحدث أن تبادلا التحية قط. كان إحسان بك يسير كالنائم غائبا عما حوله فيستفز عبد الرحيم بك بتجاهله غير المقصود. ودأب عبد الرحيم بك، كلما مر به الآخر، أن يبصق بصوت مسموع إعرابا عن ازدرائه واستيائه فيمضى الآخر فى طريقه دون أدنى التفات. وتوقعنا أن تحدث أمور أخطر من ذلك ولكن الله سلم. واعتاد عبد الرحيم بك عند زواج أى بنت من بناته أن يقيم حفلين.. الأول فى شارعنا عند كتب الكتاب والآخر فى الفيوم ليلة الدخلة. وكان الشارع كله تقريبا - طبعا لا محل لذكر القربى هنا - يدعى للحفل. وأردنا أن نسمع العالمة - ونرى الحريم - معتمدين على حداثة سننا ولكن البك الجبار انتبه لتحركنا، واعترضنا غاضبا وصاح بنا:

- يا شياطين، مكانكم فى السرادق وإلا حطمت رءوسكم!

فهربنا كالفئران وصورته المتوحشة تطاردنا. وحكيت الحكاية لأبى فى اليوم التالى فقال ضاحكا:

- إنه يعتبركم رجالا، وما أهمية العالمة ولديكم صالح عبد الحى فى السرادق؟!

وظلت الأسرة محافظة على تقاليدها حتى اضطرتها الحرب العظمى إلى اللجوء إلى المخبأ مثل الآخرين. فى ذلك الوقت كانت البنات قد تزوجن، وكان حسين قد أتم دراسته الزراعية وسافر فى بعثة إلى أمريكا ولم يبق فى البيت إلا عبد الرحيم بك وحرمه. اضطر الرجل أن يجىء بها معه إلى المخبأ الذى يتساوى تحت سقفه عم فرج مع القربى بك. وكانت حرم الجمحى تجىء متلفعة بعباءة ولا يظهر من معالمها شىء. واشتدت الغارة ذات ليلة مشهورة فتناثرت الأعصاب وصوتت النساء. وفقد عبد الرحيم بك أعصابه كذلك واندفع يضرب سقف المخبأ بعصاه فى حالة هستيرية، وصرخ فى النساء بلا وعى:

- هس.. ستحطم عصاى رأس من أسمع صوتها!

ولم يعد يسمع إلا أصوات المتفجرات ودوى القنابل المضادة ولم يفكر أحد فى مؤاخذته أو معاتبته فى تلك الليلة الليلاء.

ورجع حسين دكتورا فى أوائل الحرب وشغل وظيفة فى وزارة الزراعة، وعاد إلى عهده القديم فى صداقتنا وإن لم تغير الرحلة من موقفه فى الحياة بصفة عامة، ظل على محافظته فى كل شىء عدا ميل جديد نحو الحضارة الحديثة فى مظاهرها المادية المتقدمة. وعند ذلك انتهت حياة أبيه نهاية غير متوقعة، أو غير متوقعة بالنسبة لنا. كان فى زيارة

للفيوم، وعلمنا عن طريق الرواة أنه زار جزارا من معارفه وجلسا سويا أمام الدكان قبيل المغرب. وكان الدكان فى ميدان تتفرع منه شوارع، فلما آذنت الشمس بالمغيب وخلا الميدان من السابلة، إنهال الرصاص فجأة ومن نواح متعددة وبكثرة على الرجل. وفى ثوان انتهى كل شىء سقط عبد الرحيم بك قتيلا مضرجا بدمه واختفى الفاعلون. وكان للجريمة ردة فعل عنيفة فى الأنفس بالنظر إلى مكانة الرجل وجبروته. وبدأ التحقيق مع الجزار ومع رجلين تصادف قربهما من موضع الحادثة، ولكن اتفقت الأقوال على أن الأمر وقع بسرعة مذهلة وأنهم لم يروا أحدا على الإطلاق. لم يسفر التحقيق عن شىء وقيل - والله أعلم - أن الشهادة اتفقت على قول واحد رغبة فى الانتقام من سفاح خطير أفلت من قبضة العدالة بلا وجه حق. بل قيل أكثر من ذلك إن الشرطة تهاونت فى البحث وكذلك النيابة لأن قلوبها كانت مع القتلة تلك المرة لا مع القانون!

وربما كان ما سمعنا مجرد أسطورة ابتدعت، فإن صح ذلك فلا شك أن بعض الأساطير تتفوق على الوقائع بصدقها وجمالها. وحزن حسين على أبيه حزنا كبيرا، وجعل يقول لنا:

- أود أن أنتقم لأبى، ولكن ممن؟

ويتنهد بغيظ دفين. ولما قامت ثورة يوليو تقوض بنيان عالمه كله، وأصبح بين يوم وليلة غريبا فى دنياه.. وبدأ أحرص مما كنت أتصور، فعرف منذ اللحظة الأولى كيف يضبط لسانه ويسيطر على انفعالاته، وتزوج من ابنة عم له، ومضى يبيع أرضه أو ما تبقى منها. وأقام فى بيت العباسية وارتضى مستوى من المعيشة دون إمكانياته بكثير. وأقلع عن حديث السياسة حتى مع أخص خواصه، أصبح شخصا جديدا لا يهمه من الدنيا إلا شئون أسرته ووظيفته. لبث كذلك دهرا حتى دهمتنا الهزيمة فى ٥ يونية فتعذر عليه أحيانا أن يكتم فرحه، وربما مال على محدثه وهمس:

- هل سمعت آخر نكتة؟!

ويروى النكتة بعد النكتة. غير أنه لم يسفر عن وجهه الحقيقى إلا بعد وفاة عبد الناصر، أو على وجه التحديد، بعد السماح بنقد عهده. هناك لمست مدى الحقد الذى تنطوى عليه جوانحه نحو الرجل وثورته. وما كان يمكن أن يزيد حقده لو أنه تعرض لما تعرض له غيره من الاعتقال أو الحراسة أو المصادرة، ذلك أن الحقد لم يترك فى جوفه زيادة لمستزيد. ولا تتصور طربه عندما انتشرت إشاعة - لعلها لم تقم على أساس - بأن مياه المجارى تسربت إلى قبر الزعيم. كان يرقص طربا واقترح أن يعلقوا الجثة على باب زويلة حتى تجف! ورغم ثقافته وتعلمه فى الداخل والخارج فإنه لم ير فى ثورة يوليو إلا أنها انقلاب دبرته عصابة من اللصوص لنهب البلد باسم الوطنية ثم تركتها خرابا شاملا.

وتغير حاله فى عهد السادات، وازدهر وتألق فى الانفتاح فاستقال من وظيفته واشتغل بالاستيراد وغيره وأثرى ثراء فاحشا، وشيد لأسرته قصرا فى مصر الجديدة وعاش عيشة الملوك. وفى العهد الثالث للثورة ـ عقب اغتيال السادات ـ تكشفت له حقائق الأمور كما لم تتكشف من قبل، ولم يتبع الإصلاح الجديد بالتفاؤل الجدير به، وكان آخر ما سمعت من قوله:

ـ أشك جدا فى أنه يمكن إنقاذ السفينة من الغرق، وسوف يستوى من عنده مال ومن لا مال له، ولذلك فإنى أفكر فى هجرة بلا رجعة، وهى نهاية منطقية لحركة عبد الناصر!

* * *

آل مكـــى

وهذا بيت صابر مكى التالى لآل الجمحى مباشرة. مطرب غير مجهول الاسم، ويقيم فى البيت هو وزوجته وابنه يسرى وابنته وداد. ووداد تماثلنى فى السن أما يسرى ففى المرحلة الثانوية. وكانت أم وداد وبنتها يزوراننا كثيرا فعرفتهما معرفة جيدة. وبقى فى ذاكرتى من تلك الأيام جمال البنت وضعف الأم وشكواها المتكررة من قلة الرزق وسلوك صابر. كانت تقول:

ـ كلما رزقه ربنا بقرشين أنفقها على أصحابه، يولم الوليمة ويدعو إليها كل من هب ودب ثم نعيش بعد ذلك على باب الله..

وكان فى وجهها جاذبية ولكن يطغى عليه الشحوب والضعف. وفى ليالى الصيف كان صابر مكى يقوم بتدريباته الغنائية فى الحديقة الصغيرة الخلفية. فتترامى إلينا الأنغام مخترقة فضاء الحقول. كان صوتا حسنا ولكن صوت وداد كان أحسن. كنا ندعوها للغناء فتغنى:

ارخى الستارة اللى فى ريحنا   لحسن جيرانا تجرحنا

يا مبسوطين بالقوى يا احنا

وتقول لها أمى فى انشراح:

ـ بنت الوز عوامة.

والأم فخورة بابنتها وتقول حالمة:

ـ ستكون مطربة وربنا يعوض صبرى خيرا.

أما الابن يسرى فولد ذكى وهو يحلم بأن يكون طبيبا. ونراه كثيرا فى الشارع ولكنه يترفع عن صحبتنا لانتسابه لجيل آخر، وكان صديقا لأحمد أفندى مراد شقيق صديقنا عبد الخالق. وأيضا كان يزورنا صابر مكى ويجالس أبى طويلا فى حديقتنا الصغيرة. وسمعته مرة يقول لأبى:

ـ صالح عبد الحى رجل غريب الشأن، لماذا يلقب نفسه بعبد الحى؟!.. دجال يتمحك باسم خاله عبد الحى حلمى ويتبرأ من أبيه، وبهذا الدجل تفوق علينا فى الطرب دون جدارة ذاتية!

ولم يكف عن الحنق على صالح، ونفس عليه نجاحه المبكر المكتسح. ومرة أخرى قال:

ـ جميع الأمور منحرفة فى بلادنا حتى الطرب، وها هو الشيخ على محمود يحب صوتى حب خبير ولكننا لا نحصل على اللقمة إلا بطلوع الروح..

فيقول له أبى:

ـ صوتك مليح، والأرزاق بيد الله. لكنك تدخن كثيرا يا صابر أفندى..

فيرد باستهانة:

ـ ولا يهمك!

وقد سجل عددا من الأسطوانات، وأحيا بعض الأفراح، ولكنه لم يذق طعم الثراء الذى يحلم به. ثم هبت عليه رياح الأحزان فضاعفت من تعاسته. بدأت بوفاة زوجته فى ولادة عسيرة. ولعلها كانت أول جنازة أشهدها فى الشارع الجديد.. ولما رأيت الأستاذ صابر وابنه يسرى يبكيان بكيت. وخيمت على خيالى صورتها وهى تتحدث أو تضحك، فتطلعت إلى نعشها متمنيا الاطلاع على ما آل إليه حالها. وآلمنى صراخ وداد فكرهت من أجلها الدنيا. ورأيت جميع رجال الشارع فى الجنازة عدا إحسان بك القربى، وكثيرين من رجال الفن. وفى الأيام المتعاقبة جعلت أرقب صابر ويسرى باهتمام، وكلما لمحت ابتسامة فى وجهيهما قلت لنفسى باستغراب هاهم ينسون. ولم تكن وفاة الزوجة خاتمة الأحزان كما تمنى المشيعون وهم يقدمون العزاء لصابر، ففى الثلاثينات تعرض يسرى ـ كطالب فى كلية الطب ـ لهجمة شرسة من الشرطة ضمن مظاهرة كبيرة، ونقل إلى مستشفى قصر العينى مصابا برصاصة فى بطنه، وسرعان ما أسلم الروح. وقصم استشهاده ظهر صابر، ويوم خرجت جنازته ودعته شرفات البيوت بالصوات والعويل، وتضاعف السخط على آل القربى لوقوع الوفاة بعد إقامة الوليمة للباشا بأسابيع قلائل. لم يبق لصابر إلا وداد. وراحت مع الأيام تنضج وتحلو ويعذب صوتها فتهفو لها القلوب والأبصار والأسماع. وعلى عهد الإذاعات الأهلية فاجأتنا

بإذاعة أغنية من أغانى سيد درويش فى راديو سابو. طربت وفرحت كأنما أنا الذى نجحت. وقلنا إنه نجاح يجيء فى وقته تماما إذ كان صابر يمضى من سيئ إلى أسوأ فى الصحة والعمل. وقررا هجر الشارع فما ندرى يوما إلا والعربة تحمل أثاث البيت البسيط وتذهب إلى المجهول.

كان يوما من الأيام الكئيبة فى العمر وخيل إلى أن شارعنا فقد ابتسامة مشرقة لا تعوض وذكريات لا تنسى. واعتزل صابر الطرب حتى إننا لم نعلم بوفاته فى حينها، ولكن وداد لم تغب عنا بروحها وإن غابت تماما بجسمها. مضت تشق طريقها كمطربة ناشئة فى الراديو وعالم الأسطوانات. وكان المعجبون بها يزدادون يوما بعد يوم. وكنت أتساءل.. ترى أين تعيش؟ وكيف تتعامل مع وحدتها؟ وهل نسيت أحزانها؟ وكيف استوى جمالها الباهر؟.. حتى رأيت صورتها فى إعلان عن فيلم قادم تتقاسم بطولته مع محمد عبد المطلب. قلت من أعماق قلبى.. ها هى لؤلؤة شارع الرضوان تتألق وتندفع فى دنيا النجاح ذات السناء والسنا. وذكرت بأسى المرحوم صابر المكى فى أحزانه وسوء حظه وعسر رزقه. وذكرت قوله لأبى مرة:

ـ هذه البنت ستخلف أم كلثوم على عرش الغناء!

وتمادت قرينة صباى فى النجاح حتى اعتلت قمة شعبية لا ترام بين جماهير الحرب العظمى الثانية، وفرحت أمى لها كثيرا وأنشأت تقول:

ـ ألف رحمة ونور عليك يام وداد.

ولكن البنت الحلوة نسيت الشارع الذى ولدت فيه والجيران الذين كانوا أول جمهورها..

وفى الخمسينات وأنا فى زيارة لاستديو مصر كانت وداد تعمل فى تصوير منظر خارجى بفناء الاستديو. كان الوقت ليلا والمصابيح تصب أنوارها على المنظر، ووداد تقف فى ثوب عرس، لتمثل الهروب من زفاف فرض عليها دون إرادتها. رأيتها فى ثوب العرس كالفلة المتفتحة تشع ضياء وجمالا. الأرض والناس والعمال مأخوذون بنجوميتها المبهرة. ولما انتهوا من تصوير اللقطة وراحوا يعدون الكاميرا للقطة جديدة تراجعت وداد إلى الوراء قليلا بصحبة المخرج وآخرين. أمست على مبعدة يسيرة من موقفى ولكننى لم أتحرك ولم أفكر فى التحرك ولم أتصور أن تتذكرنى أبدا. وفى لفتة تلقائية تلاقت عينانا. وعبرتنى كأنها لم ترنى ولكنها رجعت إلى مركزة البصر. ولعلى فى اضطرابى ابتسمت. وإذ بها تمرق من بين الجماعة منطلقة نحوى هاتفة فى بساطة:

ـ أنت.. حقا الدنيا حلقة.. كيف حال تيزة؟!

تصافحنا بحرارة. واندفعت تسأل عن المعارف والجيران. وأجيب بما أعلم، فهؤلاء انتقلوا إلى مصر الجديدة. وهذه تزوجت، وفلان البقية فى حياتك وهكذا. وقالت:

ـ حركت ذكرياتى الله يسمحك ، يجب أن تزورنى ، وعند أول فرصة سأزور شارعنا القديم . .

لم يحدث شىء من ذلك . لا زرتها ولا زارتنا . كانت دفعة هواء مترعة بالطيب ولكنها لم تهب إلا مرة واحدة . ولكنها بفنها كانت تعايشنا الأيام والليالى . ويدور الزمن دورة أخرى . ويجىء الخريف بعد الربيع والصيف ، وتتكرر المأساة التى يظن صاحبها أنه أول من يعانيها وقد امتد بها العمر حتى الثمانينات ، وحظيت بصحة حسنة ومال وفير ولكن لا حيلة مع الشيخوخة وتنكر الأيام وغول النسيان .

* * *

آل قيسون

ولصق سراى القربى يقوم بيت صغير لموظف فى شركة المياه يدعى حسن قيسون . كان نساء الشارع يطلقن عليه ـ لرثاثة منظره ـ زبال أفندى . وسمعت مرة كريمة هانم ـ حرم جمال بك إسماعيل ـ تقول عنه ضاحكة إنه شحاذ إفرنجى . بدلة عتيقة مهلهلة ، حذاء غليظ كأحذية الجنود ، وطربوش متهدل حائل اللون ، ونظرة ثقيلة زاهدة ، وقسمات متنافرة . أرمل تخدمه قريبة طاعنة فى السن ، ولكنه أنجب ولدين عزت ورأفت يماثلاننا فى السن ويكبراننا بالعقل . وليست رثاثته عن فقر ولكنها وليدة انضباط شديد وحرص أشد ، غير أنه لم يضن على ابنيه بما يضفى عليهما المظهر اللائق . لا يزور ولا يزار ولا يرحب بتوثيق العلاقات الاجتماعية ولكنه لا يتأخر عن أداء واجب فيشيع الجنازة ويعود المريض ويترك بطاقته لدى التهنئة . عزت ورأفت كانا نجمين متألقين فى شارعنا . فى غاية من التفوق الدراسى . وقمة من البراعة الرياضية ، ومكانة فريدة فى الاطلاع والثقافة ، وإلى ذلك كان عزت عازف ناى ممتازا . ومن عجب ـ ورغم تقارب السن ـ كانا يلعبان فى حياتنا دور المرشد والمربى والحامى . وعزت بالذات مغرم بتقليد «شجيع» السينما فى أفلام رعاة البقر فى شجاعته وشهامته ، فإذا تحرش بنا حرافيش الوايلى انبرى لهم وانهال عليهم باللكمات حتى يطلقوا سيقانهم للريح . وكانت طبقية حسين الجمحى تصطدم بآراء عزت ورأفت الديمقراطية ، وكذلك تفاخر عبد الخالق بالأصول والأقارب . وكان عزت خاصة قوى الحجة آسر المنطق ، وحتى من ناحية القوة فإن حسين نفسه على قوته تجنب الدخول معه فى معركة مجهولة النتائج . وقال لنا عزت ذات يوم :

ـ لا يكفى التفوق فى الدراسة ، ولا الانتماء فى الوطنية ، وليست الوطنية هى يحيا سعد ولكن يجب أن تكون أنت أيضا مثل سعد . .

وحدقنا به فى دهشة فواصل :

ـ الرياضة . . الفن . . الثقافة . . العمل . . هذا هو مستقبل وطننا الحقيقى . .

لم أصادف فى حياتى أحدا يقارب عزت ورأفت تفوقا وتطلعا للجديد مع الاستقامة وسمو الأخلاق . وكان لهما أثر وأى أثر فى تعلقنا بالقراءة والرياضة والفن والتطلع للمثاليات فى القيم . وكم قال لنا عزت :

ـ أعداؤنا ليسوا الإنجليز والملك فقط ولكن أيضا الجهل والخرافات . .

ولا أشك اليوم فى أن حسن أفندى قيسون انطوى على مرب فاضل وإنسان ممتاز رغم قذارة منظره بل حذرتنا الأيام من التمادى برميه بالبخل والتقتير ، فإنما كان يقتر على نفسه ليهيئ لابنيه ما يتطلعان إليه من اقتناء الكتب والمجلات والهوايات الأخرى بالإضافة إلى حسن المظهر ، وهو ما مكنه أخيرا من إلحاقهما بالطب والهندسة رغم تعذر ذلك على أبناء غير القادرين من الشعب . ففى منتصف الثلاثينات تخرج عزت طبيبا ورأفت مهندسا . وعقب ذلك بعام توفى حسن أفندى قيسون مع تحقيق رسالته وحلمه . وسافر عزت ورأفت فى بعثة إلى إنجلترا فأغلق البيت الصغير أبوابه . وانقطعت الصلة بيننا وبينهما فلم نعد نلتقط من أخبارهما إلا ما يجود به الرأى العام . وعن ذلك السبيل سمعنا عن تقدم عزت فى مجال الطب حتى صار من أساطين الطب الباطنى أما رأفت فقد تبوأ عمادة كلية الهندسة . وفى الستينات اضطررت إلى استشارة طبية فعقدت العزم على زيارة صديقى القديم عزت قيسون . وسرعان ما عرفنى فاستقبلنى بالأحضان ، وخصنى بعناية فائقة وغمرنى بإحساس إنسانى شامل . وتبسط معى فى الحديث عن الماضى ، عن شارع الرضوان وإخوان الزمان الأول فتتابعت ذكريات الأحياء والأموات . ومما لاحظته أيضا أن وفديته العريقة حالت بينه وبين التفاهم الكامل مع ثورة يوليو ، فاعترف بإيجابياتها ولمس بخفة السلبيات . ثم قال :

ـ ولكن أين الشعب؟ . . إنه يخسر كل يوم بعضا من إيجابيته . .

فقلت ببراءة :

ـ كأنما أصبحنا دولة عظمى .

فقال باسما :

ـ دولة عظمى بلا شعب تساوى صغرى!

وقد رأيته مرة أخرى من بعيد فى جنازة مصطفى النحاس ، ثم قرأت نعيه المفاجئ فى نهاية عام الهزيمة المشئومة ، أما رأفت فلا أدرى اليوم عنه شيئا . .

* * *

آل حسب الله وفرج

البيت الصغير الثانى فى الشارع يلاصق آل مكى. دوره الأرضى فرن بلدى، والثانى شقة صغيرة، والثالث نصف شقة تفتح على نصف سطح مظلل بتكعيبة لبلاب. أما صاحب المبنى كله فهو المعلم حسب الله، ولا أعرف له لقبا أو كنية ـ وهو صاحب الفرن ومديره، ومسكنه.

فى الشقة الثانية هو وزوجته وبلا ذرية على الإطلاق. وليست صورته مما يعفى عليها الزمن، قصير مفرط البدانة ثقيل النظرة والصوت، يكحل عينيه دائما وأبدا، ولم ير أحد امرأته. يتعامل مع عماله بكفه القوية فالعمل يسير كالساعة. وعمله ينحصر فى خبز عجين السكان من شارعنا والشوارع القريبة مثل بين الجناين وأبو خودة استجابة لتقاليد ذلك الزمن التى قضت بأن تعجن الأسر فى بيوتها ثم ترسل العجين إلى الفرن فيرجع إليها خبزا ساخنا مورد الخدين نافذ الرائحة. كما ترسل إليه فى العيد الكعك والغريبة وفى المواسم الفطير رحمة القرافة المعروفة. وعرف عن عم حسب الله أنه يتعاطى المخدرات ولكنه كان فرانا ذا سمعة طيبة جدا. ومن عجب أنه لم ير أبدا خارج بيته. ومات فى أوائل الحرب فأغلقت الفرن وتغيرت التقاليد فجعلنا نشترى الخبز من البقالين والكعك من محال الحلوى.

وأما نصف الشقة فوق السطح فكان يسكنه عم فرج بياع الحلوى والدندورمة وزوجته. وقد أنجب ذكورا وبنتا واحدة ولكن لم يبق له إلا البنت. وكان رجلا خفيف الروح يعلن عن سلعته بالأغانى كعادة كثيرين من باعة ذلك الزمان، ويدعى أنه يعرف تاريخ الشارع وأهله ويروى الحكايات عن النساء والرجال. وقد زعم أن مبنى الفرن كان أول مبنى يشيد فى الشارع عندما كان متر الأرض بمليم! وكان ضحوكا بشوشا ويتعامل مع كل أسرة كأنما هو من صميم أهلها. وقد مات عم فرج قبيل الحرب فحلت ابنته بسيمة محله فى إدارة العربة. وكانت تجمع بين القوة وشىء من الأنوثة والحسن، فتزوجت من بياع فاكهة سريح. ولا أدرى كيف امتد نشاطها إلى تجارة الخردة أيام الحرب. ولما راجت تجارتها هجرت عربة الحلوى والدندورمة واكترت جراجا صغيرا فى الشارع جعلته مركزا لنشاطها وضمت زوجها لمعاونتها. وأقبلت الأيام عليها فاكترت مكانا جديدا فى الأرض الفضاء التى حلت محل الحقول وملأته بمخلفات الجيش البريطانى، وأصبحت معلمة بكل معنى الكلمة. ومضت تتوسع فى الإثراء والتملك فاشترت مبنى الفرن وشيدت مكانه عمارة، وكررت ذلك مع بيت آل جمال إسماعيل وبيت الجمحى أخيرا، أما هى

فأقامت فى شقة حديثة فى شارع العباسية نفسه. وعاصرت الثورة ثم الانفتاح الذى بلغ نشاطها فيه الغاية. وإنها اليوم عجوز ثرية، وأم لرجال ناجحين، وبالنظر إلى قوتها وحزمها ونجاحها فإن أصدقاءنا فى العباسية يطلقون عليها «مسز تاتشر»!

* * *

آل شكرى بهجت

وفيما يلى بيت حسن قيسون يوجد بيت آل شكرى بهجت. والأسرة تتكون من شكرى أفندى ونعمات هانم وسامح وأمينة. سامح يماثلنا فى العمر ويبادلنا الصداقة. وللأسرة صفة مميزة هى الثورة على التقاليد والتمرد على الزمن وإن لم يتضمن ذلك أى انحراف عن القيم الأخلاقية الحقيقية. وشكرى ونعمات يكونان رابطة تعتبر مثالا للحب والتوفيق. وهو موظف بالداخلية وهى حاصلة على الابتدائية. والرجل وسيم مهيب وهى تنافس فى جمالها حرم جمال بك إسماعيل لعلها أول امرأة فى العباسية تظهر فى الطريق سافرة بموافقة زوجها. وتقول لأمى ضاحكة:

ـ زعيم الأمة نفسه يوافق على السفور، وعلينا أن نسير مع الزمن..

أما أمينة فلم تستعمل النقاب قط. تمضى مع أسرتها سافرة أو وحدها إذا زارت هذا البيت أو ذاك. ولما خطبت وهى فى المرحلة الثانوية صاحبت خطيبها فى رحلات انفرادية، ولم تكترث الأسرة لتعليقات الناس، ولم تعتد أن تكترث لأقوال الآخرين.

ويقول لنا سامح لدى كل مناسبة:

ـ الناس؟!.. ما أغبى الناس!

جملة مأثورة يرددها كلما ترامى إليه رأى لأحد فى سلوكهم.

ـ نحن نعيش فى نسيج عنكبوتى من التقاليد السخيفة..

ثم يخاطب حسين الجمحى وعبد الخالق مراد خاصة:

ـ الفارق بيننا حيال بعض التقاليد السخيفة هو أنكم تمارسونها رغم عجزكم عن الدفاع عنها أما نحن فنرميها بكل شجاعة فى صندوق القمامة.. وقد تزوجت أمينة عقب حصولها على البكالوريا. كان من رأيه أن تتم تعليمها فى الجامعة ولكنها آثرت بمحض اختيارها الحب والزوجية. على ذلك كله كان شكرى أفندى متدينا، ويرى كثيرا أيام الجمع وهو يغادر جامع البيومى بعد صلاة الجمعة. وفى أوائل الثلاثينات أدى فريضة الحج، واستقبلت زوجته عودته بالزينات وأقامت سرادقا أمام البيت

أحييت به ليلة للإنشاد والأذكار وأطرب الشهود الشيخ على محمود بصوته الجميل فى سهرة امتدت حتى طلوع الفجر. ومن أسف أن الرجل توفى فى نفس العام عقب مرض لم يمهله إلا أيام معدودات ونشرت الأسرة نعيه معلنة الاقتصار على تشييع الجنازة. لم يكن ذلك شيئا مألوفا فى ذلك الزمان، ولم يكن يصرف الأهل والأصدقاء عن زيارة البيت والاستماع إلى ترتيل القرآن. وذهب الجيران للعزاء فوجدوا البيت مغلقا وخاليا من أهله. ودهش الناس لحد الانزعاج، وعجزوا عن التوفيق بين ذلك السلوك وبين ما عرف عن الزوجين من حب وتوفيق، وارتفع النقد تلك المرة حتى بلغ كبد السماء. ولما اجتمعنا كالعادة نحن الأصدقاء قال سامح:

ـ الحزن فى القلب لا فى السرادق، نحن لا نؤمن بهذه التقاليد، وماذا يفعل المعزون سوى أن يتسامروا كأنهم فى مقهى؟!.. من أجل ذلك غادرنا البيت وانفردنا بحزننا فى وقار ودون طقوس أو تمثيل.. ورغم إعجاب عزت قيسون بالمبادرات الجديدة إلا أنه قال فى شىء من الحذر:

ـ لم يكن من بأس فى أن نجالسك ذلك المساء، فلا سخف فى ذلك فيما أعتقد على أنه استدرك بعد ذلك قائلا:

ـ على أننى لا ألومك ولا ألوم أحدا..

أما عبد الخالق فقد همس فى أذنى:

ـ أسرة مجانين!

وحسين الجمحى همس أيضا:

ـ عليهم اللعنة، ضنوا بإنفاق قرشين تحية لذكرى الرجل..

أما المفاجأة المذهلة فقد وقعت بعد وفاة الرجل بعامين أو ثلاثة. كان سامح قد تخرج وتوظف وتزوج زواجه المبكر، فما المفاجأة؟ ذاع وتأكد أن نعمات هانم تزوجت من رجل يماثلها فى السن أو يقل عنها! إنها تقترب من الخمسين. ومسلم به أنها مازالت فى صحة كاملة وجمال غير منكور، ولكن هل يسوغ ذلك الزواج مرة أخرى؟! ويبدو أنها لم تجد من يدافع عن سلوكها فى البيوت كلها. بين المتزوجات مثلما بين المطلقات والأرامل. وكأنما فقد الزواج شريعته الدينية المطلقة. أما نحن معشر الأصدقاء فقد اتفق رأينا على تجاهل الموضوع رحمة بصديقنا العزيز غير أنه كان هو الفاتح له. قال ببساطته المستفزة:

ـ العريس فاتحنى أنا أولا مستأذنا، والحق أننى رحبت به..

فهتف حسين الجمحى:

ـ رحبت به؟!

ـ لم يهن على أن أتركها وحيدة فى بيتنا، ولم لا؟ إنها جميلة وعلى أكمل صحة

وعافية، لعلى وجدت صعوبة بعض الشىء فى إقناعها ولكننى قلت إنه العقل والشرع!

فتساءل عبد الخالق:

ـ والمرحوم؟.. ألا شأن له فى الموضوع؟!

ـ المرحوم فى قلوبنا، لم يعد له شأن بحياتنا، ونحن لم نخلق الموت ولكننا مطالبون باحترام الحياة..

وسئلت على انفراد عن رأيى فأجبت:

ـ إنى أشعر بإعجاب وامتعاض..

ويمكن اعتبار سامح من مدرسة عزت ورأفت مع اندفاع بلا حدود. ومع اتجاهه إلى الدراسات العلمية فى المدرسة والتخصص فإنه برع فى الموسيقى وعشق المسرح والثقافة، ودعا بكل قوة إلى العصر الحديث علما وصناعة وحضارة، واستمد رؤيته فى الحياة من رغبة الخديو إسماعيل فى جعل مصر قطعة من أوروبا.

وعزت ورأفت يشاركانه الإعجاب بالعصر ولكن فى اعتدال، ومع الاهتمام بحضارتنا القديمة الفرعونية والإسلامية. ولم يكن ممن يعتبرون الحضارة الغربية حضارة غريبة عنا، وهى لم تسم باسم خاص إلا بسبب البيئة التى نشأت فيها، ولكنها فى الواقع الثمرة الأخيرة فى شجرة الحضارات الإنسانية التى أسهم البشر جميعا فى غرسها.

ـ فلا علم اليوم إلا علمها ولا أدب إلا أدبها ولا فن إلا فنها ولا فلسفة إلا فلسفتها..

فقال له الجمحى:

ـ أموت قبل أن أتذوق موسيقاها، هذا على سبيل المثال لا الحصر.

ـ المسألة مسألة تدريب ليس إلا، أما التراث فلا معنى له، كان ذات يوم حضارة حية متقدمة ثم تجاوزه الزمن فأمسى خرقا بالية!

إنه خواجة بلا قبعة. بسبب جو أسرته وقراءاته والمراكز الثقافية والأجنبية، وصداقاته المتعددة للإنجليز والفرنسيين، أما انتماؤه الوطنى فكان دون المتوسط رغم اندلاع الحركة الوطنية، ولا أذكر أنه اكترث يوما لخلافاتنا الحزبية. وبالرغم مما أثاره من اعتراضات وانتقادات فلم يحفل أبدا بآراء الآخرين، ولم أشهد له نظيرا فى شجاعته. وقد تخرج فى كلية العلوم واشتغل مدرسا فى المدارس الثانوية، وسرعان ما تزوج من مدرسة متخرجة من كلية الآداب تماثله فى السن على أحسن الظنون، واتخذ مسكنا فى شارع العباسية. ولم تفتر علاقته بنا ولا لقاءاته معنا فى المقهى. وأصبح صالونه منتدى لنخبة من الزملاء ممن كانوا على شاكلته بالإضافة إلى بعض الأجانب. وكان يضرب على البيانو بامتياز،

ويلقى محاضرات فى الجمعيات التقدمية أو يعلق على بعض الأفلام . ولكن مواهبه لم تتجاوز به ذلك القدر من النشاط .

ولما قامت ثورة يوليو راقبها بحذر ، ومضى يميل إليها مثنيا على اندفاعها فى طريق التصنيع ، واعتبر ذلك حجر الأساس فى التحول نحو الحضارة الحديثة . وفى أثناء ذلك أنجب من البنات أربعا وختم بعد فترة انقطاع بولد . أما البنات فقد تعلمن وتوظفن وتزوجن ، وأما الولد فقد التحق بكلية الطب مع إحالة سامح إلى المعاش فى السبعينات ، وكان يدخر له مفاجأة أو مشكلة لم تجر لأحد فى بال . وها أنا أرويها نقلا عنه كما رواها على فترات متقطعة تبعا لحدوثها .

كان اسم الولد شكرى كجده ، وكان وسيما رياضى الجسم ومتقدما فى الدراسة ، وكان سامح يحبه حبا فاق حبه أى شىء . ولاحظ بعينيه المحبة أن الشاب لم يعد كسابق العهد به . فتر مرحه ، ومال إلى الانطواء ، ورمق والديه بنظرات غريبة حائرة . لعلها أزمة من أزمات المراهقة ، أو قصة حب خائب . وإذا بأمه تسأله :

ـ ما لشكرى يا سامح ؟ . . إنه لا يعجبنى . .

ـ ولا أنا ، فلنعترف أنه جيل مجهول رغم أى ادعاء آخر . .

ـ ولكننا ربيناه على الحرية والصراحة . .

ـ حلمك وصبرك ، إنه جيل يعانى من ذكريات الهزيمة والغلاء والمستقبل المسدود . .

ـ عليك أن تستدرجه إلى الكلام . .

ـ إنى أتوقع أن يتكلم هو !

وتكلم . غادر حجرته الحاوية لفراشه ومكتبه إلى حجرة المعيشة حيث يجلس والداه أمام التليفزيون . ضغط على مفتاح التليفزيون فأسكته ، وجاء بكرسى صغير فجلس أمام والديه وهو يقول :

ـ ثمة سؤال يشغل بالى .

فقال سامح بشىء من الجدية .

ـ ولكنك أغلقت التليفزيون دون استئذان ؟

ـ آسف ، ولى عذر فى الهم الذى يركبنى .

ـ ليكن وإن كنت لا أوافق على هذا الأسلوب ، ماذا لديك ؟

ـ لماذا لا تصليان ؟

ذهلا للمفاجأة . وخيم صمت فاندفع فيه زفيف رياح خريفية تهب فى الخارج . أى سؤال لم يتوقعا أن يسمعاه أبدا !

ـ ولم تصوما رمضان قط؟

ثم بنبرة أعلى :

ـ ولدى كل سهرة فى الصالون تقدمان الخمر وتشتربانها!

كيف يجيبان؟ ليسا متدينين ولا دينيين. لا يضمران للدين شراً ولا خيرا. لا يشغل لهما بالا. ولا فلسفة وراء ذلك، ولا يتصوران أن الله يكترث لشرب الخمر أو الامتناع عنها. الأمور تجرى بلا تفكير ولا مشكلات. إنهما لا يؤذيان أحدا ولا يسمحان لأحد بالتدخل فى شئونهما الخاصة. ولكن المتدخل هو ابنهما الوحيد. وهو يطرح سؤاله فى حرية كاملة ولكن لا حرية لهما فى الإجابة بل ويشعران بأن الإجابة يجب أن تلتزم حدودا معينة. وتبادلا نظرة. نظرة حيرة واستغاثة. ولما طال الصمت تساءل الشاب :

ـ ألستما مسلمين؟

فقال سامح :

ـ طبعا.

ـ المسلم ليس مجرد اسم ولكنه عقيدة وسلوك.

فقال سامح بضيق :

ـ المسلم مسلم فى جميع الأحوال.

فقال شكرى بأسى :

ـ كلا.. إما أن تكون مسلما أو لا.

ـ هذا رأيك؟

ـ نعم.. مذ هدانى الله إلى طريقه.

فتساءلت أمه بقلق :

ـ هل انضممت إلى التيارات التى يتحدثون عنها؟

ـ هدانى الله إلى طريقه!

ـ إنه طريق شديد الخطورة.

ـ هو طريق الله ولا يهم ما عدا ذلك.

فقال سامح باستياء :

ـ لم تحدثنا من قبل بهذه اللهجة.

ـ كنت فى غيبوبة الجاهلية..

ـ لا أقبل أن تخاطبنى بهذا الأسلوب.

ـ انظر! طالما شجعتنى على الصدق والصراحة، ها أنت تضيق بمن يخالف رأيك . .

ـ فليمض كل فى حياته كما يرضاها!

فقال الشاب بتصميم:

ـ غير ممكن، قال الرسول عليه الصلاة والسلام: من رأى منكم منكرا فليغيره بيده فإن لم يستطع فبلسانه فإن لم يستطع فبقلبه وهو أضعف الإيمان . .

لم يسمعا بالحديث من قبل فوجما وهما يتفكران فيه ثم سأله سامح متهكما:

ـ وماذا اخترت؟

فقال بتأثر:

ـ إنى حائر بين الواجب وبين البر بكما.

وتنهد سامح، ثم قال لينهى الحديث الأليم:

ـ شكرى، احصر انتباهك الآن فى دراستك الصعبة، ولما تقف على قدميك افعل بنفسك ما تشاء، أسرتنا لم تقم يوما على الإكراه أو العسف . .

وظن أنه تحاشى الزلزال كى يسترد أنفاسه. ولما انفرد لزوجه قال:

ـ إنه يتكلم مستندا إلى الدين والتراث فكيف نناقشه؟

فقالت بحيرة:

ـ لن تستطيع أن تقول له إنه مخطئ، أو نقنعه بأننا على صواب.

ـ هذه هى مشكلة!

وضايقه موقفه المتخاذل فقال مدافعا عن كرامته أمام نفسه وأمام زوجته:

ـ لو أن لى رأيا محددا فى الدين لألقيت به فى وجهه!

وانبثق سؤال من عدم لم يطرح من قبل. ترى ما الرأى فى الدين؟! خيل إليه أنه مؤمن بالله ومؤمن أيضا بأنه لا شأن لله بحريته الشخصية، وأن الفرائض لا معنى لها، والخمر مفيدة وممتعة ما احتملتها الصحة. ولكنه مقتنع تماما بأنه لا يستطيع أن يصارح ابنه بذلك. ولم يتصور من قبل أنه سيواجه هذا الموقف الحرج.

وقال لزوجته:

ـ إنه يطالبنا بالتخلى عن أجمل ما فى حياتنا . .

فحركت رأسها بالموافقة دون أن تنبس. فتساءل:

ـ كيف نستطيع أن نواصلها دون متاعب؟!

كيف يمارسان حياتهما المألوفة تحت سمعه وبصره؟!

وضاعف من همهما أنه دأب على تجنبهما تماما، فهو إما فى الكلية أو فى جامع الحى، أو فى حجرته. طعامه يتناوله فى المطبخ. إنها مقاطعة مطلقة. هما نفسهما فضلا ذلك ـ مع الألم والأسف ـ على مواجهة أخرى أليمة. إن يكن استطاع أن يتحدى ناقديه طوال حياته بلا مبالاة كاملة فإنه لا يستطيع أن يفعل ذلك فى بيته ومع ابنه. إنها مصيبة لا تخف بمرور الزمن ولكنها تتعقد وتستفحل وتنذر بشر العواقب.

ـ كدرت صفوى عليك اللعنة. .

واضطر أخيرا إلى إحياء سهراته فى بيوت أصدقائه بعيدا عن ابنه وخوفا من أن يقدم على تصرف أحمق يحرجه أمام المدعوين. وحنق على تلك التيارات المتطرفة واعتبرها غريمه الأول فى الحياة. ومضت الحياة فى ذلك الجو الكدر حتى قذفته بالمفاجأة الأخيرة. فما يدرى ذات يوم إلا وشكرى يلقى القبض عليه فى أعقاب معركة دامية مع الشرطة بتهمة القتل. أدرك سامح أنه خسر ابنه الوحيد الذى عقد به آماله. وانطلق يبحث عن محام قدير ويدبر له المال اللازم من مدخراته وبيع بعض حلى زوجته. ورفض الشاب مقابلة والديه وأنكرهما. وفسد مذاق الحياة تماما، ومرت الأشهر السابقة للمحاكمة كأسوأ ما تكون الأيام. وتمت المحاكمة وقضى على الشاب بالشنق، ونفذ الحكم، وأسدل الستار على المأساة الدامية.

ماذا حدث لصديقى بعد ذلك؟

إنه يبذل قوته كلها كيلا يغلبه الحزن أمام الناس. يتظاهر بالتسليم بالأمر الواقع والارتفاع فوقه. ويأبى أن يرجع عن رأى من آرائه المأثورة. ولكنى شعرت طوال الوقت بأنه يغالب ألما دفينا حادا وباقيا كالظل. ويوما قال لى بنبرة ساخرة:

ـ الولية بدأت تصلى وتصوم وتتعلم أصول الدين فى كتاب الديانة للمدارس الابتدائية.

ولأول مرة فى أثناء ذلك العمر الطويل أشعر بأنه يكتم عنا أشياء تحاوره فى أعماقه وأنه على أى حال لم يعد الشخص الذى كان. .

* * *

آل السناوى

الشيخ السناوى هو الجار المباشر لآل شكرى بهجت. إمام جامع الكومى، ولشيخوخته وورعه ذاع صيته كمصدر من مصادر البركة والخير. وكان يعيش فى بيته مع

زوجة طاعنة فى السن أيضا وابن وحيد يدعى محمد وهو صديقنا . وعرفنا أن أم محمد هى الزوجة الثانية للشيخ . تزوج منها على كبر بعد أن فقد الأولى وذريتها بصبر المؤمن المسلم أمره لله . محمد إذن وحيد أبويه مركز الرعاية والحب ، ومدلل الأسرة رغم كل شىء . أقول رغم كل شىء لأنه إذا قيمناه بوجهه فهو توأم قرد . ومع أن شهادة ميلاده تقرر أنه يماثلنا فى سنه إلا أن مظهره يضيف إلى سنه الحقيقية عشر سنوات على الأقل . ورغم أن التربية الدينية تدين من يسخر من آخر لعاهة فيه أو دمامة باعتباره على أى حال من صنع الله القدير إلا أننا خرقنا القاعدة واستسلمنا لإغراء السخرية من دمامته بإفراط ملحوظ ، وشجعنا على ذلك تسامحه الطيب وسعة صدره وقدرته الفذة على مقابلة السخرية بالسخرية . واحترنا فى تعليل قبحه ، إذ أن الشيخ السناوى كان على قدر مقبول من القبول ، وأجمعنا على اتهام أمه التى لم نرها وتحميلها المسئولية الكاملة . وحظه فى الحياة شابه وجهه ، فالرزق محدود ، وضاق أكثر عقب وفاة أبيه ، واستعداده للدراسة فى حكم المعدوم ، فلم يوفق إلى الحصول على الابتدائية ، ومن نوادر سقوطه أنه سقط مرة فى امتحان الخط . وكان لاعب كرة فاشلا ، غير أنه توهم دائما أنه عبقرى زمانه .

نقول له :

ـ ولكنك لم تجرب النجاح أبدا . .

فيرد هازئا :

ـ وأى علاقة بين هذا وبين الذكاء؟ ! . . ألا تنجحون جميعا رغم غبائكم؟ !

وسعى له أصدقاء أبيه حتى ألحقوه بوظيفة صغيرة بالأوقاف خارج الكادر . ولما شعرت أمه بدنو الأجل زوجته من قريبة لها عانس ، قدرنا جميعا أنها تكبره حتى لو قسناه بعمره المفترض لا عمره الحقيقى ، ولكنه وفق فى زواجه ، وفاخرنا بفحولته الفذة ، وقنع بالحد الأدنى من المعيشة صابرا ، وأكرمه الله بولد قبل أن تنقطع المرأة عن الحبل . وباختلافه إلى المقهى معنا عرف إحباطات جديدة فى خيبته القوية فى ألعاب الشطرنج والدومينو والنرد ، ولكنه لم يعترف أبدا بقصوره وعلق هزائمه بالحظ وحده ، فالحظ السيئ هو القدر الوحيد الذى لم يكابر فى الاعتراف به . على ذلك كله كان أكثرنا ضحكا وتهريجا وانبساطا . ومضت الحياة ممكنة دون يسر حتى قامت الحرب العظمى الثانية وهبت علينا رياح التغيير وأمواج الغلاء المتتابعة . هناك اقتحمته المرارة فصب غضبه على كل شىء . شابه فى ذلك عبد الخالق مراد ، ولكن على حين كان عبد الخالق رافضا لجميع الساسة فإن محمد ركز هجومه على الحكام فكان دائما وأبدا فى صف المعارضة . اليوم وفدى وغدا ملكى ، لا يهم ، ضرباته دائما وأبدا مسددة نحو الجالسين على كرسى الحكم . وقال قولته المشهورة التى أثرت عنه لتكرارها :

ـ ستجرى الدماء حتى تبلغ الركب!

مبشرا بثورة دموية يموج بها خياله لتجتث الأغنياء والحكام من جذورهم. ولما اشتدت الغارات الجوية وأخذ المخبأ يجمعنا ليلة بعد أخرى، قلنا له:

ـ ستتحقق نبوءتك وتجرى الدماء ولكنها ستكون دماءنا نحن لا الأغنياء والحكام.

ونجده مشغولا عن تعليقاتنا بتلاوة آية الكرسى مستعيذا ببركتها كما علمه أبوه فى الزمان الأول. ولا أنسى انشراحه عقب حريق القاهرة وقوله باسما عن أسنانه المثرمة:

ـ أول الغيث قطر..

ولذلك فعندما قامت ثورة يولية، وأحدثت إنجازاتها الاجتماعية الرائعة اعتبرت معجزة مرسلة من أجل عيون محمد. وارتفعت روحه المعنوية إلى أعلى درجة.

وسأله حسين الجمحى:

ـ أى فائدة جنيتها أنت يا عم محمد؟

على أى حال قبل ابنه ـ محمد محمد السناوى ـ طالبا بالكلية الحربية الأمر الذى يعتبر معجزة فى ذاته. وتخرج ملازما، وأصبح عم محمد والدا لضابط فى الجيش. واقتحمت الاصطلاحات العسكرية حديثه حتى اعترفنا به عضوا فى هيئة أركان حرب. وسافر محمد ـ محمد الثانى كما عرف بيننا ـ ضمن حملة اليمن. وتساءلنا ترى هل يقسو عليه القضاء ويتلاشى الحلم؟ والحق لقد دعونا للولد بالسلامة إكراما لأبيه سيئ الحظ، ووضح لنا مدى حبنا لذاك الصديق القديم. ولكن الله سلم، وتحسنت أحوال الابن، وسرى اليسر إلى الأب وأسرته. وبحكم الأبوة عرف محمد الانتماء لأول مرة فى حياته، وكان فى مقدمة المصابين بهزيمة ٥ يونية المشئومة فحزن حزنا بالغا، وكان من حسن حظه أن ابنه لم يشترك فيها لوصول فرقته إلى مصر بعد انتهاء المعركة. وفى السبعينات أحيل محمد إلى المعاش وتفرغ للمقهى. واشترك ابنه فى العبور فى ٦ أكتوبر، نجا من الموت، وحظى بوسام الشجاعة، وارتفع بأبيه إلى ذروة السعادة. اليوم يشغل الابن مركزا عسكريا مرموقا، وينعم الأب بشيخوخة هادئة وعافية يغبط عليها. وقد أصابته نزوة مما تصيب بعض المحالين على المعاش، فقال لنا يوما:

ـ ما رأيكم؟.. لقد ألفت زجلا!

ودهشنا لأننا طيلة عهدنا به لم نلمس لديه ميلا لأى فن. وسحب ورقة من جيبه وراح يلقى علينا زجله. وإذا بتعليق ينفجر مصحوبا بقهقهة:

ـ اسمع يا عم محمد، لقد عاشرنا قبحك وجنونك، بل من أجل حبك أحببناهما، ولكن لكل شىء حد، فارجع عن غيك واستعذ بالله من الشيطان الرجيم..

فقهقه بدوره قائلا :

ـ هذا حظ من يسبق زمنه!

* * *

آل الفنجرى

فيما يلى الفرن يقوم بيت آل الفنجرى . وأسرة الفنجرى تتكون من زوجة، وابنة تزوجت من قبل أن تنتقل إلى الشارع، وولدين هما حسن وحسين الصديقين . والفنجرى ترزى إفرنجى يقع محله فى وسط شارع العباسية، ميسور الحال، ويملك عمارتين . وحسن وحسين متقاربان فى الشبه، لهما نفس اللون الفاتح، والقسمات المتناسقة، والقامة الطويلة المشوقة، وفيما عدا ذلك فهما نقيضان تماما . حسين وهو الأصغر مثال طيب للاجتهاد والجدية والتفوق . وبتلقائية توثقت علاقته بعزت ورأفت وسامح، جاراهم فى الثقافة والرؤية مع انتماء أشد إلى الوطنية أهَّله ليكون رئيسا للجنة الطلبة الوفدية بالوايلى . والتحق بكلية الطب فى أول الثلاثينات وتخصص فى الجراحة وصار مع الزمن من كبار الجراحين . وبحكم عمله انقطع عنا فيما عدا المناسبات . أما حسن فكأنما خلق ليكون مهرجا محترفا . شخصيته عجيبة لم يقف أحد على سرها الدفين . لا أذكره إلا غارقا فى الضحك، يضحك إذا سمع نكتة أو أطلق نكتة، يضحك فى مواقف الهزل كما يضحك فى مواقف الجد . فى الأفراح يزيط ويجلجل . فى الجنازات يتحين الغفلات ليسخر من مظاهر الحزن أو يروى النكات عن الموت والأموات . وفى المآتم نتجنب الجلوس فى مجاله . لم أعرفه جادا على الإطلاق ولو مرة واحدة، خفة؟ استهتار؟ مرض؟ . . الله أعلم . وأخوه حسين كثيرا ما يضيق بأقواله وأفعاله، وربما وجه إليه كلمات حادة عما يليق وعما لا يليق، فكان يسدد نحوه رشاش نكاته حتى يجعل منه أضحوكة لنا . ويحتكم حسين إلى أبيه ولكنه لا فائدة ولا عائدة . الفنجرى يئس تماما من حسين، ورغم ذلك ـ أو بسبب ذلك ـ خصه بعطف كبير . ولما التحق الأصغر بكلية الطب، وترنح الآخر وهوى أكثر من مرة أمام حاجز البكالوريا، قرر الرجل أن يرسله إلى فرنسا فى بعثة خاصة .

قال له :

ـ ارجع بأى شهادة!

وودعنا الصديق المرح فى ليلة تذكر، وسافر إلى فرنسا . وعلمنا منه فيما بعد كيف انقضى وقته فى باريس كالأعيان، فى نطاق خمسة عشر جنيها شهريا، وكانت كافية

لمعيشة حسنة فى الشارع والملهى وبيت الدعارة. وترامت إلينا أخبار غريبة عنه، وهى أنه اختير للغناء فى بعض الملاهى الليلية. الحق أنه لم يعرف له أى استعداد للغناء، فلم ندر كيف استجابت حنجرته للنغم الفرنسى وكيف وجد من يعترف به مطربا أو من يستمع إليه. وكم وددت أن أشهده وهو يغنى، وهو يتعامل مع مدير الملهى والزملاء.

وهل استطاع أن يمسك عن الضحك فى وقت العمل؟! على أنه كان حتما مطربا عاديا وإلا لشق لحياته طريقا آخر. ولكنه رجع إلى مصر عندما أنذرت الحوادث باندلاع الحرب. رجع كما ذهب يا مولاى كما خلقتنى، لا شهادة ولا مال، حتى معرفته بالفرنسية كانت معرفة شوارع. وواصل حياته القديمة معنا، المهرج الخفيف اللطيف المرح الذى لا يحمل هما أو يتعثر فى مشكلة، وانقطعت صلته بأخيه تماما دون أسف من الجانبين. ومضت حياته بين المقهى والملاهى تحت ظلال الخمر والمخدرات. وفى أثناء الحرب تعرض لتجربة قاسية فى إحدى صالات العرض السينمائى. ساقه حظه إلى الجلوس إلى جانب فتاة بصحبة أسرتها، وحاول أن يعبث فى الظلام، وخرج فى عبثه عن الحدود حتى صرخت البنت وكانت الفضيحة. وانتهت الواقعة بإلقائه فى السجن عاما أو عامين لا أذكر. ومات الفنجرى وهو فى السجن. وغادرحسين السجن ليرث ثروة تضمن له حياة ميسرة. ولم يغير السجن من شخصيته شيئا. وراح يحكى لنا الواقعة وكيف وقعت فى الظلام وهو لا يتمالك نفسه من الضحك وكيف سعى أبوه إلى التوفيق مقترحا أن يتزوج حسين من البنت ولكن الأب رفض بإباء. وحكى لنا كثيرا عن السجن ونوادره وكأنما كان راجعا من مسرح الريحانى.. وواصل حياته، المهرج، الخفيف، المرح، اللامبالى، السكير، الحشاش، حتى أصابته أزمة قلبية فى الخمسينات وهو يشرب فى البارزيانا، فحمل إلى البيت وأسلم الروح عند منتصف الليل.

أذهلنا الخبر كأنما لم نصدق أن أمثاله يموتون. وذكرنا آلاف الضحكات التى أطلقها من صدورنا فخيم علينا حزن ثقيل.

* * *

آل الكاشـــف

فيما يلى آل الفنجرى يقع بيت آل الكاشف، ولدى انضمامنا إلى سكان الشارع لم يكن بقى من أهل البيت فيه إلا رب الأسرة والابن الأصغر عبد المنعم وهو صديقنا. الكاشف بك فى الحلقة السادسة، من كبار مهندسى الرى، وذو مظهر عسكرى صارم. وله بعيدا عن شارعنا ابن وهو البكرى، وابنته تليه فى العمر، أما صديقنا فقد ولد عقب

فترة انقطاع غير قصيرة. ويعتبر البكرى من نوابغ عصره، دكتور فى الكيمياء من إنجلترا، وفى طليعة الرجال الذين بسطوا العلم ونشروا ثقافته بين عامة المثقفين، وامتاز بأسلوب أدبى سلس وبليغ يسلكه فى نطاق بلغاء العصر من الأدباء المحترفين دون مبالغة. ولا تقل الأخت نبوغًا عن أخيها، وقد نالت الدكتوراه من إنجلترا أيضا فى الرياضة وتألقت فى عالم التربية والتعليم. عرفت الأسرة بالذكاء والتفوق، وهى تدين فى تفوقها أيضا بجدية الأب الإسبرطية وحرصه الدائب على تأهيل أولاده للبروز فى البيئة العلمية، صديقنا عبد المنعم نشأ فى جو مختلف. ترعرع فى أحضان الإسبرطية ولكنه فقد منذ طفولته حنان الأم ورعايتها. ولم توجد مشكلة فى الدراسة فقد كان يحفظ دروسه وينجح، ولكن الكاشف بك يعتبر النجاح المدرسى أولى الخطوات فحسب، ويطالب أبناءه إلى ذلك بالثقافة والاطلاع والاستقامة فى السلوك والطباع داخل البيت وخارجه، وخيب عبد المنعم تطلعات أبيه فى ذلك كله. عدا النجاح والانتماء الوطنى المتوسط أيضا لم يكترث بشىء. كره البيت فهو لا يلزمه إلا عند المذاكرة، وانتمى للشارع بكل جوارحه، يهيم على وجهه هنا وهناك، ويقتبس قاموسه الخاص مما يلقى على سمعه، منجذبا انجذابا خاصا إلى الشواذ والغرائب. وانفجر بينه وبين أبيه خصام لا ينتهى، وكان يتحمل التأديب الشفوى واليدوى بقوة خارقة، لا يتراجع عن أهوائه أبدا. وفى العطلة راح أبوه يخفى أحذيته فى صوانه الخاص ويغلقه ليضطره إلى البقاء فى البيت مع الكتب، فكان ينطلق إلى الطريق منتعلا قبقاب الحمام دون مبالاة. ويحرمه من المصروف اليومى فيبيع ما يختاره من تحف ابيت وأوانيه، ويأكل كل علقة وأختها صابرا متصبرا، حتى جفت ينابيع الحب بينه وبين أبيه، وكم يتمنى موته جهرا وكم نذر لذلك النذور، واشتهر بحب أطعمة السوق الشعبية مثل لحمة الرأس والكشرى والطعمية والفول والعدس والفسيخ ولم يكن يشارك أباه المائدة، ويستعمل الشوكة والسكين إلا فى نادر النادر، قال عنه حسن الفنجرى:

ـ إنه صاحب أعظم معدة شعبية.

وفى تجواله حفظ الكثير من نواح النادبات، وكان يطربه أكثر من أغانى أم كلثوم وعبد الوهاب، وفى ليالى السمر يسمعنا مالا نحب مثل:

عينى عليك ياللى تموتى عازبة

أو **يا شابة يا صبية ياقد المعدية**

وكثيرا ما كان ينشد مراثيه ونحن نخترق الحسينية فى طريقنا إلى حى الحسين، ونردد وراءه المقاطع المكررة، فيتطلع إلينا الأهالى متوقعين أن يشهدوا جنازة، ولما تتكشف لهم الحقيقة ينهالون علينا بالشتائم والدعوات الطالحات!

وهو قوى الجسم، عملاق القامة، شعبى الملامح، مرح رغم همومه، طيب القلب. وليس من النادر، إذا طرده أبوه إثر احتدام خصام - أن يبيت فى الحقول وحده. ومن عجب أن لم يبد أى اهتمام بالجنس الآخر، ولا تأثر يوما بالجمال. ما من فرد من شلتنا إلا عشق، وتشكى آلام العشق والحرمان، حتى محمد السناوى، أما عبد المنعم فربما كانت أكلة كرشة أهم عنده من أجمل امرأة فى العباسية. ولى معه واقعة عرضنى فيها للموت لولا لطف الله. حدث ذلك فى الثلاثينات وفى تجمع شعبى خطير قام لاستقبال مكرم عبيد حال عودته من رحلة سياسية ناجحة فى الخارج. وكانت دكتاتورية محمد محمود تلفظ أنفاسها فسمحت الداخلية بالمظاهرة وأمرت رجالها بالمحافظة على الأمن مع عدم التعرض للمتظاهرين. لأول مرة نرى رجال الأمن وهم يتفرجون علينا فى دعة وسلام. ومر موكب سكرتير الوفد يشق طريقه فى بحر زاخر بالهاتفين. وسرنا وراه بأمل أن نستمع إلى الخطب فى بيت الأمة. وفى مكان ما من الطريق صادفنا مأمورا فى ملابسه الرسمية يقف وسط التيار بلا سلاح وفيما يشبه المودة والتشجيع. وفجأة انقض عليه عبد المنعم ووجه إلى بطنه لكمة عنيفة غير متوقعة انقلب على أثرها على وجهه وهو يخور. تلفت فيما حولى فى فزع فرأيت فارسا على بعد يتطلع إلى الحادث بغضب ويحاول الاندفاع نحونا. وجرينا بالسرعة التى يسمح بها الزحام، ونحن نعلم أن الموت يطاردنا. وكلما قطعنا شوطا نظرنا خلفنا فنرى الفارس وقد لحق به نفر من الفرسان وهم يشقون طريقهم بصعوبة وأعينهم لا تتحول عنا ومازلنا نجرى حتى لذنا ببيت الأمة ونحن نرجو ألا يكونوا قد تابعوا لواذنا. وقبعنا فيه والخطب تلقى والهتاف يتصاعد. ولم أصدق ليلتها أننى نجوت وأننى رجعت إلى بيتى سالما وأسأله بحنق:

- لماذا فعلت ما فعلت بلا أى موجب؟

فيقول ضاحكا:

- أى اعتداء على الشرطة حلال!

ورغم مرحه الغالب كان الاكتئاب يزوره من حين لآخر فيلوح كالمريض. ربما لقامة أبيه التى تظله وتطارده. وربما لتفوق أخيه وأخته وضآلته بالقياس إليهما. وفى لحظة من لحظات الاكتئاب أقدم على الانتحار. دأب على ذكر الانتحار فى حديثه باعتباره أمل اليائسين ولم نأخذ حديثه مأخذ الجد. بل حاول أن يصحبنى معه فسألنى يوما.

- لماذا لا تفكر جديا فى الانتحار؟

فقلت هازئا:

- امنحنى فرصة للتفكير، ولكن لماذا أنتحر؟

فقال جادا:

ـ لقد أرهقك الحب كما أرهقتنى الكراهية، ألا يكفى ذلك؟

ولكننى لم آخذ قوله مأخذ الجد. وجلسنا ذات أصيل فى المقهى نستعد للعب النرد وإذا به يقوم قائلا:

ـ عن إذنك دقيقة . .

وغاب خارج المقهى وجلست أنتظر وإذا بصراخ ينفجر كالعواء. هرعت إلى مدخل المقهى فرأيت عبد المنعم يتمرغ عند أصل شجرة مغروسة أمام المقهى، ويعض جذعها من شدة الألم. وتجمع الناس. واتصل من اتصل بالإسعاف وقال بعضهم:

ـ واضح أنه انتحار.

وجاءت سيارة الإسعاف فحملته وقد شملنا الفزع والذهول. وعرفت أنه شرب كمية من حمض الفنيك ولحق بى فى المقهى. وأسعفوه فى الوقت المناسب. واستدعوا الكاشف بك لسؤاله فأدلى بأقواله وذهب دون أن يلقى نظرة على ابنه. ورجع كما ذهب لم يعن بزيارته سوانا. وتأثرنا جميعًا غاية التأثير. وأبى عزت إلا أن يفعل شيئا. قابل الكاشف بك، وخاطبه بالأسلوب التقليدى قائلا «يا عمى» وقال له:

ـ عبد المنعم فى حاجة إلى عطفك حاجته إلى حزمك!

ولم ينبس الرجل بكلمة، وظل طيلة الوقت متجهم الوجه، حتى غادر عزت البيت دون أن يقدم له فنجان قهوة.

ولما حصل عبد المنعم على البكالوريا قرر أن يلتحق بالكلية الحربية. ولم يعترض الكاشف بك يأسا منه فقال:

ـ فى ألف داهية.

ونجح بعد ذلك فى الالتحاق بكلية الطيران الجديدة. وأظهر تفوقا فسافر فى بعثة إلى إنجلترا، ولدى رجوعه فاجأنا بزواجه! لا ندرى كيف انتبه فجأة إلى وجود الجنس الآخر وأنجب ابنه الوحيد. وألحق بخدمة الملك فاروق ياورا فصار من المقربين وعلق حسين الجمحى على ذلك بقوله:

ـ من الكرشة ولحمة الرأس إلى سراى عابدين، يا لها من وثبة خرافية.

ومنعته تقاليد وظيفته الجديدة من مجالستنا فى المقهى. ربما تسلل إلينا فى بعض الليالى إطفاء للشوق ثم يذهب فى حذر. أخلاقه لم تتغير ولكن تقاليد حياته الجديدة لا تعرف الرحمة. ولاحظت أنه أصبح ملكيا ونسى الوفد تماما وانتحلت له الأعذار. وذاع عن الحاشية ما ذاع ولكن لم تحم حوله شبهة أبدا. ولما قامت ثورة يولية حاول أن يهرب الملك ولكنه فشل. وجرى معه تحقيق واكتفى بإحالته إلى المعاش دون محاكمة مما قطع بنقاء سلوكه. غير أن أقران ابنه فى المدرسة عيروه بأبيه حين التحقيق معه وبعد إحالته

على المعاش وأبوا أن يعترفوا ببراءته. وناضل الولد ما استطاع عن سمعة أبيه حتى أصيب بانهيار عصبى وتكالبت عليه المضاعفات حتى تقرر إدخاله مستشفى الأمراض العقلية وما زال مقيما بها حتى الساعة.

ورجع عبد المنعم بعد المعاش إلى سابق عهده بنا، لم يكن الشخص القديم ومن منا كان؟ وبدا متماسكا بعد فقدان وحيده أكثر مما توقعنا. وسرعان ما فسدت حياته الزوجية لأسباب لم يعلنها وربما لم يكن من المستحيل تصورها. وانتهى الأمر بينهما بالطلاق. وما لبث أن تزوج من امرأة ألمانية، فهيأت له حياة مستقرة لم يعرفها من قبل، وعاش حياته سعيدا أو كالسعيد ما بين مصر وألمانيا. ومن العجيب أن حديثه شهد على ما اكتسبه فى حياته من نضج وحكمة وثقافة جعلت منه شخصا جديدا بالغ الروعة. لم يكن من أنصار الثورة ولكنه أيضا لم يكن من أعدائها المتعصبين وحسبه ذلك. وحظى بمستوى معيشة حسن بفضل معاشه وميراثه. وقد تجلى إخلاصه فى حزنه الشديد فى أعقاب هزيمة ٥ يونية، وانتعاش روحه عقب حرب ٦ أكتوبر. وكان يجب أن تتوقف دراما حياته عن إفراز المفاجآت ولكن زوجته الألمانية أهدت إليه آخر المفاجآت. فبعد المعاشرة الطويلة والإيغال فى الشيخوخة إذا بها تتمرد فجأة على حياتها الزوجية واستمرار الحياة فى مصر. وانفصلت عنه راجعة إلى ألمانيا تاركة إياه فى وحدة وشيخوخة. وقال:

ـ هجرتنى الولية المجنونة فى سن لا تسمح بعلاج لوحدتها..

ولكنه خلق حمالا للهموم والمصائب. وظل يمتعنا بمعاشرته العذبة حتى طلع علينا «الأهرام» ذات صباح بنعيه وانضم ركب من الذكريات الحميمة العزيزة إلى القافلة التى لا تتوقف عن السير.

* * *

آل ضرغام

ويجىء بعد آل الكاشف بيت آل ضرغام، ويقيم فى البيت ربه ضرغام الهندى وبكريته صافيناز وابنه الأصغر ـ صديقنا ـ سيد، أما الأم فقد رحلت عن دنيانا من قبل انتقالنا إلى شارع الرضوان بأعوام ثلاثة. الأب متوسط القامة قمحى اللون واضح الملامح صلب القسمات يوحى منظره بالحدة والجدية والتجهم. يملك محل رهونات بباب الخلق يستأثر بكل وقته من طلعة الصبح حتى هبوط المساء. وعدا الاشتراك فى واجب العزاء فلم يعرف واجبا من واجبات الجيرة. وعم فرج يقول عنه فى غياب سيد طبعا:

ـ غضب ربنا مطبوع على وجهه!

وخيل إلينا أننا نرى أثر الغضب الإلهى فى وجهه الجامع بين الحسن والصرامة. ولكن عم فرج كان يعرض بمهنة الرجل الحقيقية وهى الإقراض بالربا رغم إسلامه الرسمى بل وصفه كثيرون من أهل شارعنا بالملعون، ولم يخف ذلك عن سيد، ولم يبد أنه اكترث له أو اغتم وكانت صافيناز على جمال ورشاقة فعشقها يهودى من سكان السكاكينى وتزوج منها بعد إشهار إسلامه، وسمعنا أنه تاجر أقمشة، وعلى درجة حسنة من الثراء، كما كان من المتعاملين مع ضرغام فى حقل العمل وصديقنا سيد صبوح الوجه رشيق ضحوك مطبوع على اللامبالاة وكنا نحبه لجاذبيته وصراحته وذكائه كما نجد فى لامبالاته موضعا دائما للإثارة. وما أشبهه بسامح فى موقفه من التقاليد ولكنه من نوع آخر ولأسباب مختلفة وقد زاملنا فى المدرسة الابتدائية ثم تحول منها إلى التجارة المتوسطة رغم استعداده الطيب للنجاح، إذ أن أباه ضرغام أفندى هندى نجح فى أن يصبه فى قالبه، فقال له:

ـ لا أهمية للتعليم إلا كتمهيد للعمل فلا تهتم بالشهادات.

كان يعده ليحل محله فى محل الرهونات والإقراض بالربا. ولم يمهله حتى يرشد فقرر أن يؤقلمه بجو العمل وعبادة المال من صباه. الأول جعل منه المحصل الأمين لأقساط قروضه ليمارس ويتدرب ويندمج. ومضى يتردد على المقترضين بدفتر الإيصالات ويحصل الأقساط ويرجع بها إلى أبيه سعيدا فخورا نظير نسبة من الأرباح، وتعلم منذ تلك السن المبكرة أن يربح وأن يدخر وأن يعرف لكل مليم قيمته ويقول لنا ضاحكا:

ـ كلما أقبلت على رجل منهم فر الدم من وجهه..

فيقول له حسن الفنجرى:

ـ أهلا بعفريت الرجال!

وتأدب بآداب أبيه فى تقديس القرش وعبادته، ولم يكن يصرف مليما إلا لضرورة مقنعة. وتعود منذ صغره أن يسمع الغمز واللمز يقرضان سمعة أسرته، وتهم الشح والكفر تنهال عليها، فنشأ بكل بساطة مزدريا للدين والتقاليد والأخلاق التى تدين أباه وعمله. كان وثنيا وكأنه من مواليد الغابة مثل طرزان، بلادين ولا وطن، ثم قرر أن يعيش بلا أسرة أيضا يسخر دائما من الزواج والأبوة ولم يخف دهشته من المجانين الذين يتزوجون، ولم ينتم لأى مبدأ أو رأى أو شرق أو غرب. ولعله من أعجب الأمور أن تجمع شلتنا كل تلك المتناقضات وأن تحافظ فى ذات الوقت على المودة والحب بين أفرادها. وفى الثلاثينات توفى ضرغام أفندى هندى بالسكتة القلبية. وافته المنية فى بيت من بيوت الدعارة الرخيصة! لم يتزوج الرجل بعد وفاة أم سيد. لعل حرصه على المال

هو الذى صده عن طريق الزواج. ولم يعرف عنه فى حياته كلها أنه ممن يستجيبون إلى قلوبهم فى قول أو فعل. ولذلك فإن مخاوف صديقنا سيد من تلك الناحية كانت وهمية ونتيجة لسوء ظن فى غير محله بأبيه. كلا، عاش الرجل أمينا مع نفسه تماما، وكان كلما ثقلت عليه الوحدة روح عن صدره بزيارة سرية لبيت من بيوت الدعارة. وشاء سوء حظه أن تفيض روحه فى آخر مغامرة من مغامراته. لذلك كثرت نوادرنا حوله، وجعل منه حسن الفنجرى شخصية أسطورية مثل جحا، وكان سيد يشاركنا فى المزاح ويسبقنا فى الضحك. كان يباهى بكل ما يؤخذ عليه من البخل والإقراض الربوى والوثنية ونوادر أبيه. وبموت أبيه حل محله فى دكانه وعمله وورث نصيبه من أمواله المكنوزة فى البنوك وبات من أغنى الأغنياء بكل معنى الكلمة. وكان بخلاف أبيه لا يضن على نفسه بمتعة، فجدد البيت بناء وأثاثا، واقتنى سيارة فورد، وقال ملخصا فلسفته:

ـ سأعيش طيلة عمرى عزبا، حسن! يجب أن تكون العيشة محترمة، مسكنا وملبسا وطعاما وجنسا، ولا مليم وراء ذلك إلا بحساب..

لا مليم وراء ذلك. وأذكر أنه أثار مرة ضجة لخلاف حول مليم فى حساب مشترك بينه وبين سامح. وأراد سامح أن يغالطه على سبيل المزاح ولكنه اضطر إلى التسليم إيثاراً لراحة الدماغ. ومن صفاته البارزة بعده الكلى عن الفن والثقافة وجهله الكامل للحب. لم تحركه أى فتاة، ولم يخفق قلبه أبدا بغرام، وكان للمرأة وقت محدد فى جدوله الأسبوعى، وقد يختارها من الملاهى الممتازة ويؤدى لها ثمنها المرتفع ثم يمضى إلى حال سبيله. ومرت بوطنه أحداث وأحداث وهو ينظر إليها من بعيد أو لا ينظر إليها على الإطلاق. وراح الزمن يتقدم وهو يكبر ولا يتغير ضاربا المثل الحى للرجل الناجح السعيد. وأسأله أحيانا:

ـ ألا تشعر بالوحدة؟ ألا تحن إلى الأبوة؟ ألا تندم على شىء فاتك؟

فيقول ضاحكا ساخرا:

ـ إنك تسأل عن أوهام بدافع من أوهام!

ـ قد يضعف الإنسان فى شيخوخته؟

ـ لم يفتنى الاستعداد لذلك!

ـ كيف؟

ـ إنى أحتفظ للظروف السيئة بسم يقتل فى ثوان!

نظرت إليه ذاهلا فقال:

ـ قد ترى حياتى سخفا ولكنى هكذا أرى حياتكم..

ـ على أى حال لن تأخذ المال معك إلى قبرك؟

ـ المهم أن يسند ظهرى فى هذه الحياة . .

طالما أحنقنى لتمرده على نظرياتى . طالما توقعت أن يقع فى حب ليخلقه من جديد ولكنه لم يقع فى حب . طالما تصورت أنه سيندم فى شيخوخته على ما فاته فى شبابه ولكنه لم يندم . أصر على أسلوبه فى جمع المال وشرب الوسكى الفاخر وتناول الطعام اللذيذ والزيارة العابرة للغانية الأثيرة والبعد الكلى عما يكدر الصفو من شئون الدنيا والآخرة . ومرة على الأقل تنبه إلى أن راقصة تعامله بحنان خاص ، وتلاحقه بالتليفونات ، وتفاجئه بالهدايا . وترجم ذلك باللغة الوحيدة التى يتقنها ، وهى أنها ترمى شباكها لتغتال ماله ، وقطع علاقته بها دون مقدمات ، ولديه جرأة على ذلك لا تبارى . واقتحمت عليه مجلسه فى الأوبرج ذات ليلة لتصارحه بأنه بلا قلب ، فقال لها ساخرا كعادته :

ـ أعرف للقلب وظائف كثيرة ليس بينها الحب !

وتشفعت المرأة إليه ببعض معارفه فقال :

ـ الكرم نفسه أقرب إلى من الحب !

فإذا سئل عن سر الحب الذى وقع فيه كثيرون من شلتنا قال :

ـ إنه الحرمان ، هذيان الحرمان وخيالاته .

فسألته متحديا :

ـ وملك إنجلترا الذى تنازل عن العرش من أجل امرأة مطلقة؟

ـ الجنون حقيقة موجودة ، يجب أن نسلم بهذا !

غير أنه اعترف فى شيخوخته بأن الجنس الميكانيكى يضعف ويدركه الخمود .

ولعله لم يعرف الخوف إلا بعد قيام ثورة يولية . أجل لم يكن من ملاك الأراضى ولا من رجال السياسة ، ولكنه على أى حال ينتمى إلى الطبقة الغنية التى ترمقها الثورة بريبة وعداء . ومن أجل ذلك ، وبمعاونة بعض أصدقائه من اليهود ، هرب بعض أمواله إلى الخارج . ومضى يهتم بالسياسة وأخبارها لأول مرة فى حياته . وجعل يقول لنا صراحة :

ـ جلا الإنجليز عن البلاد وأخذوا معهم القانون والأمن . .

وتعالت الاعتراضات فى ركن المقهى فقال بإصرار :

ـ نحن لا نصلح لحكم أنفسنا ، وإذا لم يكن بد من أن يحكمنا جيش فمن الأفضل أن يحكمنا جيش متحضر . .

لذلك اعتبر يوم ٥ يونيه عيدا فى حياته ، ومضى يقول شامتا ساخرا :

ـ المسألة إن الجيش لا يجوز أن يحارب فى جبهتين ، وقد انتصر الجيش علينا فى الداخل فله العذر إذا انهزم فى الخارج !

وجاء الانفتاح فكان عيدا آخر وتنوعت أعماله وتضاعفت أرباحه، وكان يقول :

ـ يقولون إننا نرتمى باختيارنا فى حضن الاستعمار الأمريكى فاللهم بارك خطانا!

وهو اليوم فى الخامسة والسبعين، قل نشاطه ولم ينعدم، صحته حسنة، ومزاجه رائق، وضحكته عالية. وقد اكترى شقة على النيل فى طريق المعادى فى الدور الخامس عشر، ويقسم لياليه بين ملاهى الهرم ومقهى العباسية.

* * *

آل العلـــوى

جيران السناوى. ولبيتهم ميزاته من الضخامة النسبية وجمال الأثاث والرياش، فضلا عن أن جدرانه معرض وطنى لزعماء الوفد. وآل العلوى أسرة عريقة فى الثراء والجاه وجدهم مذكور فى تاريخ الجبرتى بين النخبة الوطنية المصرية، وعندما انتقلت إلى شارع الرضوان وتوثقت عرا الصداقة بينى وبين ابنهم الأصغر جميل، كان رب الأسرة قد لزم الفراش طريحا مفلوجا، وكانت الأم تقوم بواجبات الوالدين معا، وإلى ذلك كان له أخوان من أهل العلم والخبرة يشغلان وظائف مرموقة فى الحكومة، وأختان متزوجتان من موظفين كبيرين، والأم سيدة ممتازة حقا ممن سبقن إلى التعليم فى أعلى درجاته المتاحة، وشاركن فى الحركة الوطنية، احتلت مركزا رفيعا فى لجنة السيدات الوفديات، هو بإيجاز بيت علم وجاه ومال ووطنية. ولما مات الأب شهد شارعنا جنازة كبرى سار فى مقدمتها سعد زغلول ومصطفى النحاس ومكرم عبيد وماهر والنقراشى وغيرهم من أساطين الثورة المصرية. وجميل مشرق الوجه، رياضى الجسم، نبيل المظهر، ولكنه انحرف عن سبيل أسرته فوهب نفسه للرياضة واللهو، ولم يحقق فى حياته المدرسية النجاح المتوقع فحصل على الابتدائية بطلوع الروح، وغلب الحب أمه فلم تعامله بالحزم الواجب. كان يطلع على المجلات والكتب، وكان ذكاؤه أكبر من همته فلم يطبع بطابع التفاهة أو السطحية أبدا، ولم يفتر اهتمامه بالشئون العامة. وأصيبت أمه بمرض عضال لم يمهلها طويلا فلحقت بزوجها، ووجد صديقنا نفسه وحيدا فى بيت الذكريات مع الطاهى وخادم عجوز. وتسلم تركته الوفيرة فى وقته فاقتنى سيارة فيات وعاش عيشة الأعيان منذ شبابه الباكر. إنه مثال نادر الوجود فى نبل أخلاقه ونقاء سريرته وشهامته وخفة ظله وخالص مودته فضلا عن انتمائه القلبى إلى وطنه. ولا شك أنه تنبه بعد فوات الفرصة إلى فداحة الخسارة التى حاقت به بإهماله الدراسة، وإلى الفوارق التى باعدت بينه وبين أفراد أسرته والناجحين من أصدقائه. ولكن ذلك لم يوغر صدره على أحد ولم

يرسب فى أعماقه عقدة من عقد النقص أو العظمة الكاذبة، فظلت العلاقة بينه وبين إخوته وأصدقائه على أتم ما يكون من الصفاء والمرح. ولكنه من ناحية أخرى انغمس فى ملاهى الشباب فعشق النساء وشرب الخمر وجرب المخدرات. وربما شابه سيد ضرغام فى استهتاره أو سامحا فى تمرده على التقاليد، ولكن ذلك اقتصر على السطح دون الأعماق. كان صاحب عقيدة دينية ومبادىء أخلاقية ووطنية، ولكن بقدر ما امتلأ قلبه بالأنوار بدا سلوكه منحرفا مستهترا متمردا. يؤمن بالله ودينه ولكن لا يؤدى فريضة ولا يحترم طقسا ويتأجج قلبه بالوطنية ولكنه لا يترجم ذلك إلى سلوك أو فعل، فلم يتفق قلبه وسلوكه إلا فى المعاملة، معاملة الأصدقاء بصفة خاصة والناس بصفة عامة. ومضى فى حياة اللهو ما بين القاهرة والإسكندرية حتى فكرت أختاه فى تزويجه من بنت الحلال المناسبة. ولما فاتحتاه فى ذلك قال بهدوء حازم:

ـ لن أتزوج، إنه قرار قديم ولكنه أبدى!

ودهشنا لما سمعنا. وكان عبد الخالق ـ الملهوف على الزواج والمحروم منه لفقره ـ أشدنا دهشة وقال له:

ـ تستطيع أن تتزوج من أحسن بنت فى البلد..

ولكنه كان يفكر تفكيرا مختلفا. الزواج الذى تقترحه أختاه زواج الكفاءة، والأسرة والعرائس فى طبقته يتطلعن إلى المركز والشهادة مع المال أو قبل المال. وهو يتحمل أى شىء إلا أن يرفض لتعليمه الرسمى المحدود أو بطالته! فتحت إشراقة الوجه وسماحة الخلق ولطافة المعشر كمنت الكبرياء كقوة لا تعرف الوسط. قلت له:

ـ توجد ولا شك من ترحب بك.

فقال باسما:

ـ لست شحاذا!

ورغم كل ما قلت عنه فإن قصته الحقيقية لم تبدأ بعد. ألم تبدأ وتنته مع القمار؟ أجل إنه متعدد الهوايات، فهناك الصداقة والحب العابث والشراب والقراءة والسينما، ولكن كل أولئك لا تمثل إلا هامش حياته فقط، أما اللب والجوهر والماهية فهو القمار، بدأ لعبه، هواية تسلية، وتمكن واستفحل حتى صار جوهر الحياة ومعناها ونبضها وحلمها وكل شىء فيها، صار قلبه وعقله وخياله وأعصابه، قلنا إنه القمار والقمار هو. النرد والبصرة، البوكر الكونكان فى المقهى، فى البيت، فى النادى، ثم بعد التحريم فى بيوت القمار السرية. وكان له وقت معين وللأشياء وقتها، ثم التهم الليل كله حتى مطلع الصبح، وأصبح لكل شىء سواه وقت يخطف خطفا. وأصبح المحور وكل شىء يدور من حوله. المائدة هى الأصل، وقد يشرب وهو جالس إليها، أو يتناول طعام عمل، أو

يعشق امرأة مقامرة. كل لذة باتت ثانوية بالقياس إلى القمار، حتى الحب نفسه. كأن الكون لم ينفجر، والأرض لم تولد، والحياة لم توجد، إلا كى يتمخض عن ذلك كله الكوتشينه الملونة المزركشة برموزها وأعدادها المقررة للمصائر. ولم تؤثر المقامرة فى صفاء أخلاقه. فلم يقارب الغش، ولا التآمر، ولا الحقد أو الغضب حتى لو تبين له أنه كان ضحية اغتيال واحتيال. وجرت الحياة على منوال واحد حتى بلغ. الخمسين من العمر. وعقب استيقاظه من نوم النهار، ذات يوم من الأيام، ما يدرى إلا ويد تقبض على عنقه، وتضغط بغلظة على جهازه التنفسى، وتمزق حنايا صدره ويخف إليه طبيب الحى ليعلن عن مجىء الذبحة الصدرية. ويصف العلاج والرجيم ويوصى بالتزام الفراش شهرا على الأقل، لم يصدق ولم يستسلم. أبى أن ينضم إلى زمرة العاجزين أو شبه العاجزين، أبى أن يحرم نفسه من طيبات الحياة من أجل ضربة عابرة. وما كاد يشعر بتحسن مع دخول الليل حتى نهض فارتدى بدلته وذهب إلى سهرته! ورجع إلى بيته فى الصباح الباكر ليتلقى الضربة الثانية. ولم يصدق الطبيب ما حصل، وقال:

ـ إنه الجنون نفسه. .

وأدرك على رغمه أن الحال تقتضى جدية وصبرا فاستكن. ولما استرد صحته فكر فى الأمر مليا. إنه مطالب بتناول الدواء بصفة مستمرة، والحرمان من لذيذ الطعام، وتجنب الانفعالات أو القمار بمعنى آخر. وبمعنى آخر أيضا إذا أراد الحياة فليقنع منها بأن يكون جثة محنطة، ليستمر نبضه وتنفسه عددا من السنين. كلا ليس هو ممن يختارون هذه الحياة. إنه لا يخاف الموت ولا تزعجه فكرته وما تهمه إلا الساعة التى هو فيها. والموت آت على أى حال سواء سبق بالفوضى أم بالنظام، بالاستهتار أم الحرص، فاحى حياتك وليكن ما يكون. ومارس حياته كأن لم تعترضها ذبحة أو طبيب أو إرشادات طبية. ويراقبه الأصدقاء بقلق، ولا يضنون عليه بالموعظة والإرشاد، ويشيدون بفضيلة الاعتدال، تذكر ما وهبك الله من مال وحرية وعقل، توجد فرص كثيرة للحياة الطيبة الطويلة، ولكننا ننهزم حيال ابتسامته الحلوة الساخرة الملخصة لفلسفته فى الحياة بلا كلام، بل إنه اعترف لنا ذات يوم قائلا:

ـ الدهن الحيوانى محرم علىّ كما تعلمون، ولكننى لا أرضى بأقل من ست كعكات من كعك العيد!

وصاح به حسن الفنجرى:

ـ إنها تتخم مدينة صغيرة لا معدة فرد من بنى آدم. .

وواصل سهره مع القمار إلى الصبح، وخطر لى يوما أن أسأله عما يجذبه بكل تلك القوة إلى مائدة القمار. توقعت أن يقول الفراغ أو الضجر أو اليأس ولكنه أجابنى مرة فى لحظة صدق:

ـ المائدة تجمعنى بنخبة من الأكابر، لا على أساس من المساواة فحسب، ولكنها تمنحنى السيادة أيضا فى كثير من الأحايين، ولا تنس لذتها الجنونية . .

ويئست من تقويمه، وتوقعت مصرعه بين يوم وآخر. سنخسر صديقا من أنبل من عرفنا فى حياتنا، صديق الذكريات الطيبة التى لا تشوبها شائبة. ولم تصدق مخاوفى. بل خيل إلى أن الذبحة تناسته كما يتناساها، وأنه أحرز انتصارا على قوانين الطبيعة. وفاجأنا وهو يقترب من الستين بقوله:

ـ أريد أن أتزوج!

أعلن رغبته بعد انقضاء عامين على وفاة امرأة عاشرها طويلا. عرفها فى بيت قمار، واتخذها خليلة، وجمعت بينهما ألفة كالزوجية أو أشد. وطالما ألحت عليه أن يتزوج منها وأن يتوب عن القمار ولكنه جاد بكل شىء إلا الزواج. وماتت فجأة، ولأول مرة أراه يبكى بحرارة. لأول مرة يكشف عن قلبه الذى يخفق بالحب كا يخفق بالحزن. كأنما أرى شخصا جديدا تماما. أجل شهدت حزنه يوم وفاة مصطفى النحاس ولكنه مر سريعا، وحسبته تحية قلبية لذكرى والديه. أما هذه المرة فقد بكى بكاء مرا وسلم نفسه لنوبته بلا حرص، ولم يعد الرجل الذى يتحدى الموت ليله ونهاره. وبعد انقضاء عامين حن إلى الزواج، ولم يبذل من ناحيته أى جهد لتحقيق رغبته ولكنه أعلنها لنا وانتظر. وتحاورنا فى حيرة، حقا إنه رجل ثرى وجيه وابن أسرة كريمة، ولكنه فى الستين من عمره ومدمن قمار ذائع الصيت. لن ترضى به امرأة إلا بعيب فيها أو طمعا فى أن ترثه بعد موته. وشعر بأننا نحرث فى بحر كما يقولون فتجاهل رغبته وطواها فى صدره وواصل حياته المنعمة بالعنف والتحدى واللامبالاة.

وأخيرا جاءت النهاية. جات الذبحة. ربما متأخرة عن توقعاتنا. ولكن مضاعفة لدهشتنا وانزعاجنا. وكنا معه على موعد. ولكن حيل بينه وبين الوفاء به فى هذه الدنيا.

* * *

آل كناشـــة

فى جوار آل ضرغام يقوم بيت آل كناشة وهو الأخير فى هذا الجناح. ربه الشيخ محمد كناشة، قارئ القرآن الكريم، لا هو من المشاهير مثل على محمود وإسماعيل ندا، ولا هو أيضا من قراء المواسم فى القرافة ولكنه فى منزلة متوسطة ضمنت له رزقا لا بأس به، وزوجته فلاحة ودودة لا تخلو من وسامة. وللأسرة ذرية مباركة، مكونة من سبع

بنات متزوجات، وولدين إبراهيم وزكى وهما من أصدقاء صبانا. وقد حصلا على الابتدائية وأمضيا سنوات عقيمة فى الثانوية. كانا مشغوفين بالغناء، ويسترسلان فيه كلما وجدا فرصة أو تشجيعا منا. وإبراهيم قصير القامة قوى البنية لا قبح فى وجهه ولا جمال، وزكى رشيق مليح ورث عن أمه خير ما فيها. وربما شاركانا بعض الشىء فى اهتماماتنا الوطنية، على حين اقتصرت ثقافتهما على حفظ الأدوار والتواشيح القديمة ثم مضيا مع الزمن يحفظان أغانى أم كلثوم وعبد الوهاب. ومع الأيام تميز كل منهما باتجاه فنى خاص، فمال إبراهيم إلى الأغانى الجادة، فى حين تبلورت موهبة زكى فى أداء الطقاطيق والمونولوجات حتى أطلق عليه حسن الفنجرى «الرقيع ابن الشيخ». ومالا معا إلى الالتحاق بمعهد الموسيقى الشرقى، واعترض الشيخ محمد بادئ الأمر، ولما يئس من نجاحهما فى الثانوية، وافق فالتحقا بالمعهد. وبعد التخرج اشتغل إبراهيم مطربا بصالة نعيمة الضباطى، وضمنت له حنجرته حياة عادية، فتزوج وأعاد من جديد حياة أبيه مع اختلاف المضمون. أما زكى فعمل «مونولوجست» فى صالة ببا. ولم تبشر حياته بقفزات غير متوقعة، لولا أن أحبته سيدة غنية. ودفعت به قصة الحب إلى أغلفة المجلات الفنية، وزكى منظره الحسن نجاحه المثير. توجت قصة الحب بزواج شرعى، وأتاح له ثراء زوجته أن ينشىء «الفونتانا» أجمل ملاهى شارع الألفى فى وقتها. قام مبناه من طابقين، الأول كافيتريا حديثة والأعلى ملهى ليلى للغناء والرقص، وأحاطت بالمبنى حديقة جميلة بارعة الجمال. وأصبح زكى مدير المحل، بالإضافة إلى بعض المونولوجات يلقيها آخر الليل من مختارات ألفت لأجله ولحنت بإشرافه. وقد نجحت وذاعت على ألسنة السكارى وأهل الانبساط من الجنسين. ولم يقسم له أن ينجب كأخيه إبراهيم فركز عنايته بذاته، وسهرنا نحن الأصدقاء فى الملهى ورأينا صاحبنا وقد خلق من جديد فى صورة غاية فى الجمال والأناقة. قال حسن الفنجرى:

ـ انظروا إلى مفعول الغذاء الطيب!

وعند انتهاء الحرب العالمية الثانية توفيت زوجته فأصبح من كبار أغنياء البلد، وقال صديقنا عبد الخالق:

ـ صدق من قال: قيراط حظ ولا فدان شطارة! وكان تنكره لأسرته، والديه المسنين وأخيه إبراهيم، وصمة فى جبينه لا تمحى أبد الدهر. ليس كتنكر أحمد شقيق عبد الخالق لأسرته، فأحمد كان فى الواقع فقيرا وكانت زوجته هى الغنية وشاءت أن تستأثر به وأن تكره أسرته من أول يوم. أما زكى فقد آلت إليه ثروة خيالية وظل تنكره لغزا ووصمة. وما لبث أن عشق راقصة اشتهرت بجمالها فتزوج منها. وبدا سعيدا مرحا رغم أنه لم ينجب، وشيد فى الهرم قصرا ضرب بجماله المثل وعاش عيشة الملوك. ولم يجد جديد من ناحيته حتى ترامت إلينا أنباء غامضة عن مرض

ألم به. وتأكد الخبر لما سافر إلى الخارج للعلاج. ورجع بمرضه دون شفاء، ولم يجىء ذكر للمرض صراحة ولكنه كان يوصف تارة بالخطير وأخرى بالخبيث. وأخبرنا إبراهيم بأنه ـ أخاه ـ حرم من أحب الأشياء فى الدنيا إلى نفسه: الجنس والطعام! قال إبراهيم بشماتة:

ـ غير مسموح له إلا بمرقة النابت!

ولم تتحمل زوجته الجميلة عشرته طويلا فاضطر إلى تطليقها، وأصبح وحيدا بلا عزاء. وفى تلك الأيام رأيته مرة فى «الفونتانا» وهو يشرف على إدارتها كنوع من التسلية. والحق أنى فزعت لمرآه. لم أر رجلا ولكنى رأيت جثة محنطة. جثة محنطة تلتوى شفتها راسمة امتعاضا أبديا احتجاجا على عبث الأقدار به. له من المال ما يمكنه من امتلاك أى شىء، وليس له من الصحة ما يمكنه من الاستمتاع بأى شىء، وانساق مع حظه إلى الهدف الوحيد الباقى له وهو الجنون!

فقد حصر كل اهتمامه بقبره. نعم قبره. حتى لو استنفد ذلك ثروته الطائلة. اشترى أرضا فى مدافن الخفير لعلها أكبر أرض خصصت لمدفن فى مصر. وغرس بها حديقة غناء تصلح أن تكون حديقة عامة. أما القبر نفسه فقد شيد ظاهره وشواهده من الرخام النفيس المنقوش بآيات الرحمن. وبلغ اتساع منامته حجرة استقبال واسعة، وطعمت جدرانه بالرخام وغطيت بالسجاجيد الفارسية، وركبت فيه أنابيب للإنارة تستمد طاقتها من مولد كهربائى وأوقف على المدفن وخدماته مالاً يفى بالإنفاق عليه أبدا الدهر. قلنا إنه لا ينقصه إلا أن يحنط جثته ويدفن معها متاعه من الجواهر والطعام والثياب! أراد ألا يرثه أحد من الشامتين ولا أدرى مدى توفيقه فى ذلك. وفى الخمسينات مات زكى كناشة فلم يحزن لموته أحد. وقال صديق:

ـ لم أعرف فى حياتى من هو أقسى منه!

فأجاب صوت:

ـ الحياة نفسها تبدو أحيانا أقسى وأمر.

* * *

آل عديلة الحرة

آخر بيت فى الجانب الآخر فيما يلى آل العلوى. عرف البيت باسم صاحبته عديلة الحرة، أما اسمها فعديلة وأما لقب الحرة فأضيف إليها على سبيل المدح المقصود به الذم.

ويقيم فى البيت عديلة ربته وابنتاها نبيلة وسناء. ويروى عم فرج تاريخ الست فيقول: إنها كانت زوجة لرجل يدعى عبد الله سنان كون ثروة لا بأس بها من السمسرة، فشيد لها هذا البيت وكتبه باسمها، وأنجب منها نبيلة وسناء. وقبيل انتقالنا إلى الشارع بعام واحد سافر الرجل إلى بر الشام لشأن من شئونه، وهو من سلالة شامية، ثم لم يعد وانقطعت أخباره. ويفسر عم فرج اختفاء الرجل بأن عديلة كانت فائقة الجمال والدلال، وأن سلوكها لم يكن فوق الشبهات، وعجز زوجها عن كبحها فهرب!

ـ تجنب مواجهتها بالطلاق خوفا من طول لسانها، والظاهر أنها كانت تعرف من أسراره ما لا يحب أن يعرف.

على أى حال اختطت لنفسها طريقا جديدا غير معهود فى شارعنا فانطلقت فى تحررها إلى آخر المدى. وأصبح بيتها مع الزمن ملتقى الأعيان من العباسية الشرقية، يتسللون إليه بليل كالزنابير محملين بالهدايا، فيقضون فيه أطيب الأوقات مع ربة البيت ثم معها ومع ابنتيها الجميلتين. وكنا نراها أحيانًا تسير فى الشارع بمفردها أو بصحبة نبيلة وسناء، فى هالة من التبرج الفاقع فينتزعن الأعين من المحاجر ويثرن عواصف من الأقاويل. وكنا نحملق فى نبيلة وسناء بأعين مترعة بالجنون ولكنهما لم تعيرانا أدنى التفات. وعلى ذلك تساءلنا أين الشرطة؟.. ألا تعلم بما يجرى فى هذا البيت؟! وقيل لنا إن الشرطة تعلم أكثر مما نعلم، وأن حماية الأعيان مبسوطة على البيت ومن فيه، بل وقيل إن الباشا وكيل الداخلية ـ وهو من سكان العباسية الشرقية ـ من عشاق البنت الصغرى رغم فارق السن الهائل بينهما. وطرح الموضوع للمناقشة فيما بيننا فتساءل عبد الخالق:

ـ هل يليق بنا أن نقبل هذا الوضع الشائن فى شارعنا؟

فقال عزت بشهامته المعهودة:

ـ إذا تناومت الشرطة فنحن الشرطة.

ورحنا نقذف البيت بالطوب فنكدر صفو سهراته الخيالية. وجاء رد الفعل سريعا فتولى حراسة البيت نفر من حرافيش الوايلى لا قبل لنا بهم، ولم يكن فى مقدور عزت التصدى لهم. وعلى ذلك تجاهلنا بيت الحرة على مضض مشاركين سكان الشارع سخطهم الصامت. وفى أواسط الثلاثينات غادرت الأسرة بيتها كأنما قد ضاق عن نشاطها المتصاعد، فارتاحت الأنفس لذلك واعتبر يوم رحيلهم من أيام السعد. ولم نعد نسمع عنهم خيرا أو شرا، حتى رأيت سناء فى تاريخ لاحق بانتهاء الحرب العظمى الثانية، فى حديقة لبتون بصحبة ضابط جيش. لم تتبد فى مظهرها القديم ولكنها رفلت فى احتشام أضفى على صحبتها للرجل روح الزوجية. وقد عجبت لذلك وتحيرت، ولكن الأيام أيدت ظنى، وعرفت من أكثر من مصدر أنها تزوجت من الضابط بعد قصة

حب، ثم علمنا بعد قيام ثورة يولية أن ذلك الضابط كان من القلة التى قررت الثورة محاكمتها، وقد قبض عليه وهو يحاول الهرب إلى الخارج وقدم للمحاكمة وقضى عليه بالسجن. وظل البيت يعرف ببيت عديلة الحرة كأنما هى تسمية تاريخية كرسها التاريخ. وحافظ على اسمه حتى بعد أن أقام فيه الشيخ الذهبى مدرس اللغة العربية والدين بمدرسة فؤاد الأول. وهو فلاح محافظ وزوجته فلاحة لم يغير انتقالها إلى العاصمة من طباعها أى تغيير. وعرف الشيخ الاسم الذى اشتهر به بيته بالمصادفة. فقد جاءه زائر من البلد وسأل عنه فى شارع العباسية فأشاروا إلى موقع البيت ورددوا على مسمعيه اسمه. وأخبر الزائر الشيخ الذهبى ببراءة. وتحرى الشيخ عن الأمر حتى ألم بأطرافه وثار غضبه. ويوما دخل الشيخ الفصل فوجد أن مجهولا من الطلبة قد كتب على السبورة بأصبع الطباشير وبالخط الفارسى: «عديلة الحرة». واحتقن وجه الشيخ بالغضب وكان شديد الغضب، والتفت نحو الطلبة متسائلا فى تحد:

ـ من ابن العاهرة الذى كتب هذا الاسم؟

ولم ينبس أحد فقال ودفقات غضبه فى تصاعد:

ـ قد تكون عديلة امرأة سوء ولكنها يقينا. أشرف من أم من كتب هذا. .

وبدأ الدرس.

وقد عاصرت من ألوان الفساد بألوانه وطبقاته وأنواعه ما يجعلنى أذكر عديلة وابنتيها كما أذكر أحيانا مكتشف النار فى تاريخ الحضارة بالمقارنة بغزاة الفضاء.

إذا شدنى الحنين اليوم إلى زيارة العباسية فسرعان ما تتكشف لى عن عالم غريب لا عهد لى به. لا الشرقية شرقية ولا الغربية غربية، اندثرت الحقول والحدائق وتوارى اللون الأخضر. عمارات متراصة متلاصقة تنوء بأثقالها بلا لياقة أو جمال، شوارع جانبية مكتظة بالأطفال والصبيان، مختلف أنواع المركبات فى سباق جنونى، ضجيج هائل يقتحم الفضاء مغلفا بالغبار، أكوام القمامة تترامى كالتلال فى الأركان، المواقع الواطئة غريقة فى مياه المجارى، الغضب والعنف والسباب ينفجر فى الآذان، ولا أعرف أحدا ولا أحد يعرفنى، وأتساءل، وأتساءل فى حيرة بالغة: أين المغانى التى شهدت أعذب المودات وأجمل قصص الحب؟!

وإنها لنقمة أن تكون لنا ذاكرة ولكنها أيضا النعمة الباقية.

أسعد الله مساءك

اليوم أبدأ حياة أخرى، حياة التقاعد. عمر طويل تقضى فى خدمة الحكومة أفنى شبابى وكهولتى وأطل بى على الشيخوخة. وأظلنى بولاء للملك وأربعة رؤساء فلم يشعر أحدهم لى بوجود لا يخالجنى أسى كبير لأنى ما انتقلت إلا من درجة من الضجر إلى أخرى أسوأ وأشد. الذاكرة تعذبنى والخيال، فلعله من حسن حظ الحشرة الهائمة فى القمامة ألا يكون لها ذاكرة أو خيال. بل الأغلب أن الحشرة تهنأ بالقمامة. بالقياس إلى لا فارق يذكر بين مسكنى البالى وبين القمامة. إنه لظلم وأى ظلم ألا أكون اليوم فى بيئة جديدة تزهو بالنقاء والنضارة، وألا أكون شجرة تنعم بالأوراق والأزهار والثمار. وأذكر أسرتى فيتقبض وجهى من المرارة والسخط، على أن وقت المحاسبة قد مضى وانقضى. لا أريد أن أصدق أننى عايشت هذه الحجرة منذ عهد التلمذة وحتى عهد التقاعد. هيئتها ومحتوياتها لم تكد تتغير إلا قليلا. هذا السرير الخشبى ما أصلبه، سرير معمر لم تنل السنون من صحته وقوة احتماله، لا يحظى أثاث هذا العصر بمثل هذه القوة المتحدية. وصوان متوسط الحجم ذو ضلفة واحدة تشغلها مرآة من أعلاها إلى أسفلها، طراز منقرض تماما. ومكتب صغير قائم بين النافذتين متين القوائم مقشر السطح راجعت فوقه دروسى الابتدائية والثانوية والجامعية. وكنبة تركية طويلة جديرة بالمتاحف. وسجادة فارسية ـ هدية البكالوريا ـ هى المتاع الوحيد المحافظ على رونقه. لم تعد تعرف هندسة البناء الحديثة حجرات بهذا الاتساع ولا أسقف بهذا الارتفاع ولا أرضية مركبة من البلاط المعصرانى. العمارة نفسها آن لها أن تحال إلى التقاعد، وشارع أبو خودة لم يعد له من مضمون الشارع إلا اسمه. نفايات الدهر الغليظ، تتوارى فى أركانها المظلمة أجمل الذكريات، ولا جديد ألبتة إلا السكان الجدد ينفثون الغربة والابتذال والاستفزاز. وحيد فى شقة كبيرة، من حجرات أربع وصالة تتكون يغزوها التراب، وتقطنها معى الصراصير والفئران. أتصدى لكل شىء دون جدوى، للغزاة والوحشة والكآبة، وللذكريات الحلوة أيضا، وألعن الذاكرة والخيال. أقول لنفسى ـ خاصة وأنا أنظف حجرتى وأرتب فراشى إننى كنت يوما مناط الأمل وقطب العناية المركزة فى تلك الأسرة الغابرة. وكنت أيضا الضوء الذى ترف حوله فراشات جميلة. إى والله فى غاية الجمال والعذوبة والجنس. وحلمى كان حلما متواضعا فى متناول كل شاب. أن أتزوج وأستقر فى أسرة بين أبناء. لم يناوشنى طموح كبير فأشقى به أوله. عرفت الطموح عند أصدقاء وزملاء، منهم من وصل وتألق، ولم يكن حلمى إلا الخطوة الأولى فى طريقهم الطويلة فكيف خاب السعى

وانقلب الهدف، كيف أجدنى اليوم وحيدا بين يدى التقاعد، لا أنيس لى إلا الراديو والتليفزيون والذكريات المعذبة، والحوار الذى يدور مرارا وتكرارا بينى وبين أشباح أسرتى الزائلة، أقول لهم لولاكم لكنت وكنت فيقولون لى ولولا الحظ لكنا وكنا، هل أصر على الغضب؟ هل أسلم للشفقة والرحمة؟ ولا أجد أخيرا ما ألعنه إلا الحظ. ومع العصر وشدة الحر نادانى المقهى. أى منطلق فهو خير من سجن هذه الشقة المنفرة. لم يبق لى أحد من أهل الزمان الأول، فمن مات مات، والقلة الباقية تغيرت مشاربها ومواقعها فى المدينة الكبيرة. أما الطريق بين أبو خودة ومقهى النجاح فى ميدان الجيش فقد رسخت هيئته الحديثة بطواره المحطم وتياره البشرى المصطخب وأصواته المرعدة المزمجرة ومركباته المتنوعة المتلاصقة المتدفقة وغباره المنتشر، رسخت هذه الهيئة فجعلت من أناقته القديمة وسماحته الزائلة وهدوئه الشامل حلما من أحلام اليقظة. وأجد حمادة الطرطوشى فى مجلسه على رصيف المقهى فى انتظارى. سبقنى إلى التقاعد بخمس سنوات، وأغرانا بالتعارف تقارب السن والوحدة. وهو ذو شيخوخة متجعدة متفجرة تمادت فى احتلال القسمات والصوت حتى ليبدو أكبر من سنه، رأس أبيض كالشمع، وحاجبان ساقطان على جفنيه كالأسلاك، ونظرة منطفئة ذابلة مع ثرثرة ومرح. ووحدته قاصرة على الأصحاب، عدا ذلك فهو رب أسرة وأب لرجال ناجحين ينتشرون فى شتى الوزارات، فلم يعد يشاركه بيته بشارع الشرفا إلا زوجته. استقبلنى بابتسامة فضحت خواء فمه ونمت عن حرارة المودة التى تجمعنا وتمتم:

ـ أهلا، هذا أول أيام التقاعد، ربنا يطول عمرك.

فقلت متصبرا:

ـ كآبة عابرة ليس إلا.

ـ بالصراحة كان وقعه على أشد.

ـ إلا ترى أن هموم الحياة اليومية تغطى على ترف العواطف الرومانتيكية؟

فلوح بيده المدبوغة وقال:

ـ صدقت يا عم حليم، والمعاش على أى حال أقل من المرتب.

ـ والمرتب لم يكن يكفى، وبين أصحاب المعاشات وضحايا المجاعة فى أثيوبيا خطوة أو خطوتان..

ضحك ضحكة صامتة وتساءل بنبرة جديدة:

ـ هل أطلب النرد؟

فقلت دون حماس:

ـ الوقت أمامنا طويل طويل..

فقال بعطف :

ـ مشكلتك الحقيقية هى الوحدة!

ـ أى نعم، كانت الوزارة تشغل نصف العمر .

ـ اسمع نصيحتى، لا تمكث فى البيت إلا للضرورة القصوى . .

فقلت متفكرا :

ـ الوحدة ليست فى البيت فقط، إنها هنا أيضا . .

وأشرت إلى صدرى . . فقال باسما :

ـ أنت لا تسلو أبدا عن حلم الزواج القديم!

فتساءلت بأسى :

ـ هل فاتت الفرصة؟

ـ الفرص بيد الله سبحانه ولكن هل فيك الرمق المطلوب؟

فقلت بحرارة :

ـ يجمعون على أن حالتى العامة أصغر من سنى بكثير، وأحيانا يخيل إلى أنى رددت إلى فترة المراهقة. نجوت حتى اليوم من الأمراض المزمنة المتداولة. لم أخبر من الأمراض إلا نزلات البرد. أسنانى كاملة ومتينة رغم حشو أربعة ضروس، ولم أحتج إلى نظارة رؤية أو قراءة علما بأن ولعى بالقراءة هبط إلى حد أدنى فى السنين الأخيرة، وما زال السواد له الغلبة فى السيطرة على رأسى، ولكننى لا أحب التنويه بذلك كثيرا خوفا من الحسد، فالحق أن الثقافة لم تقتلع من باطنى بعض الرواسب القديمة. وقال حمادة الطرطوشى :

ـ إن وجدت فرصة فأهلا وسهلا، وإن لم تجد فارض بالمقسوم، وإن تكن تحسد المتزوجين أمثالى فهم أيضا قد يحسدونك، والله ما هد حيلنا وقصر عمرنا إلا الحياة الزوجية والثانوية العامة!

ما أكثر ما سمعت ذلك. يدخل فى أذن ويخرج من الأخرى. أجل لم أحمل هما من تلك الهموم. وإلى ذلك كله عشت منذ رحيل الأسرة بلا مطبخ، بالسندوتش والمعلبات، ومع الراديو والتليفزيون، ولكنى لم أكف أبدا عن التوق إلى الزوجة والأولاد. حتى الساعة لم أكف. وأخيرا وجدت الخلاص فى النرد. وتظل ساعة الرجوع إلى العمارة المتهرئة بشارع أبو خودة أثقل الأوقات كآبة. على مدى صلتى بحمادة الطرطوشى اطلع على الكثير من خفايا حياتى. ولما حكيت له حكاية ملك سألنى :

ـ ما عمرها اليوم؟

ـ تصغرنى بعام أو عامين على الأكثر.

ـ وحالها كامرأة؟

ـ رأيتها مرات من بعيد وأنا ماض إلى المقهى فى شرفة شقتها، يخيل إلى أنها مازالت امرأة. .

فقال جادا:

ـ أرملة، ابناها فى السعودية بصفة دائمة، وحيدة مثلك وقريبة لك، زرها يا أخى وجس النبض. .

ضحكت لغرابة الفكرة ولكنها عششت فى رأسى مذ اقترحها. وتخيلت عنها كل ما يستطيعه الخيال. وقبل ذلك لم تكن تغيب عن خواطرى وخاصة عند اشتداد أزماتى الجنسية. تزورنى وأنا أتأهب لاستقبال النوم، ويدور الحوار وتحدث الأفعال ولكن مع الفتاة القديمة، فتاة القلب والأحلام الزوجة التى أعدتها الطبيعة لى وأعدتنى لها فيا للخسارة. لا أقول إنه حب فذ تحدى جميع تلك الأعوام. مات الحب فى وقته، شهدت زفافها كالغريب، ولكنها الوحدة والجوع. وألعن تقلبات الزمن التى اجتاحت وطنى والعالم وغزتنى فى عقر دارى. وأصب لعناتى على موطنى بين أبو خودة وميدان الجيش. وأتساءل من قبلى ولد ونشأ وتقاعد فى حى واحد وشارع واحد وشقة واحدة بل وحجرة واحدة، كلما هم بالتحرك قبضت عليه الأحداث. وعداوتى تتصاعد بصفة خاصة نحو مدخل العمارة القديمة، واسع مظلم نهارا وليلا وبئر السلم مكتظ بالنفايات، السلم متآكل ذو لون كابى مستمد من القذارة، عمارة بلا بواب، وشقق بلا خدم، رغم شقائى بالتنظيف والترتيب فرائحة ترابية تقتحم خياشيم الداخل، ووراء ذلك كله يجثم التضخم والانفتاح والحروب والنظام الاقتصادى العالمى، وما كان لى من طموح أكثر من أن أتزوج من ملك ابنة قريبى بهاء أفندى عثمان. قال لى حمادة الطرطوشى ذات مرة:

ـ لا أتصور أن الوطن سيخرج بسلام من أزمته.

فقلت له وأنا من القرف فى نهاية:

ـ دعنا فى أزمتنا نحن!. . عمرنا يحسب باليوم وعمر الوطن بالقرون. .

إنه محب للأحاديث العامة على حين أن همومى الشخصية دفنتنى تماما. وأنظر إلى أطلال الشقة وأتساءل أحقا كانت هذه الأطلال مهد الدفء والحنان والكرامة؟! أمى بعد إنجاب فكرية وزينب أنجبت ستة ذكور ماتوا جميعا فى الطفولة ثم أنجبتنى أنا. مجدد الأبوة والأمومة ولعبة القلبين. . بل لعبة أربعة قلوب. وهل أنسى حب فكرية وزينب؟

يشتركن جميعا فى إعدادى لصحبة أبى إلى المقهى للتسلية والفرجة. أمى تمشط شعرى، فكرية تلبسنى بدلة البحار، زينب تلمع لى الحذاء، يخرج أبى من حجرته متأنقا غاية الأناقة، بدلة آخر موضة، رائحة زكية يقطرها له الحلاق، عصا ذات مقبض عاجى يلقى على نظرة استحسان من نظارته المؤطرة بالذهب ويقول لى باسما:

ـ تفضل يا حليم بك..

اسمه عبد القوى البيه، والبيه فى الحقيقة اسم لا لقب ولكنه يضفيه على لقبا، رغم أن جدى البيه كان فطاطريا فى شارع الشيخ قمر. وفى المقهى يطلب لى الدندورمة، ويحدث أصحابه عن ذكائى المبكر، ويقول:

ـ له صورة تذكرنى بسعد زغلول فى صباه!

الحق أن لى عينين تريان أكثر مما ينبغى. تجمعنا المائدة جميعا. ها هى الأسرة بكامل هيئتها. الأب والأم وفكرية وزينب. أحب الجميع ولكن لى عليهم ملاحظات وتحفظات. وجه أبى لا يعجبنى وبخاصة إذا نزع نظارته المذهبة. وجه نحيل ممطوط مجوف بعض الشىء، صغير الأنف بصورة مضحكة، ضيق العينين كأنهما مشروع عينين، بارز الجبهة، صورة منفرة. أمى صغيرة الجسم حسنة الطلعة، ذات عينين واسعتين جميلتين وشعر ناعم وأنف دقيق مستقيم، وإن اعتور صوتها خنف ونبرة احتجاج دائمة. أما سوء الحظ فقد تركز فى فكرية وزينب اللتين خلقتا صورة طبق الأصل من وجه أبى الدميم. ودون أى فائدة ورثت أنا وجه أمى المليح. ومن ذلك التكوين المتنافر تربع سوء الحظ على عرش أسرتنا دون منازع. أنا السعيد الوحيد ولكن زحف الكدر. تبدى القلق واضحا فى سلوك أمى وكلامها. متشائمة دائما من ناحية المستقبل. يتفجر قلقها مع مرور الأيام.

تقول لأبى:

ـ كان يجب أن يتعلما فى المدارس..

فيقول:

ـ لتجر مشيئة الله كيفما شاء أما أنا فلا أبتذل كرامتى.. علاقة أبى وأمى حسنة جدا، وعلاقة فكرية وزينب بأبى على أحسن حال، أما الأم وفكرية وزينب فلا يصفو بينهن جو إلا فيما ندر. كل واحدة منهن على حدة غارقة فى مخاوفها، وينعكس ذلك توترا دائما فيما بينهن وخصاما لغير ما سبب. نقار دائم وكدر شامل واتهامات مكبوتة.

ويوما يقول لى صديقى على يوسف ـ زميلى وجار ـ بثقة ويقين:

ـ أبوك غنى يا بختك!

فأسأله بدهشة :

ـ لماذا؟

ـ منظره يؤكد ذلك، إنه أوجه أب فى شارعنا . .

صدقت ذلك بعد مقارنة سريعة بين أبى ويوسف أفندى والد صديقى، وقال على مواصلا :

ـ ومصروفك اليومى يا عم!

مصروف أقرانى لا يتجاوز نصف القرش أما مصروفى فقرش كامل . أبى يصحبنى معه أحيانا إلى المقهى أو السينما، فأنا ابن عز كما يقول صديقى على . وعمارتنا ـ فى ذلك الزمان ـ فى طور الشباب وهى أحدث من عمارة على يوسف وبهاء عثمان والد ملك . يسعدنى والله أن أكون ابن عز ومن الأغنياء، وهل فى الدنيا ما هو أجمل من الثراء؟ وأقول لأمى :

ـ نحن أغنياء .

فتقول لى بصوت لعله العنصر الوحيد القبيح فيها :

ـ لا ينقصنا شىء والحمد لله .

ـ لنا أملاك؟

فتضحك قائلة :

ـ لا أملاك لنا .

ـ إذن من أين يجىء ثراء أبى؟

ـ من ستر ربنا يا ابنى .

الظاهر أن الأثرياء لا يطلعون الأبناء على حقيقة ثرائهم قبل سن معينة . حسبى أننا نأكل ما نشتهى، وفى رمضان يمتلىء الكرار بالنقل، وبالكعك فى عيد الفطر، ونستضيف فيه الخروف فى عيد الأضحى .

أبى غنى دون أدنى شك . ومن مزاياه أيضا أنه القارئ الوحيد فى أسرتنا، يداوم على قراءة الجريدة اليومية والمجلة الأسبوعية المصورة . وعنه عشقت القراءة، وبعد أن شبعت من مجلة الأولاد طالبته بشراء القصص المترجمة . ها هى عادة جديدة تزف إلى حياتى، أن أعيش حياتين، حياة الواقع اليومى بين المدرسة ونقار النساء فى الأسرة، وحياة الخيال مع الأبطال من النساء والرجال .

ويسألنى أبى :

ـ ألا يلهيك ذلك عن المذاكرة؟

ـ ولكنى أنجح يا بابا . .

فيقول لى بإغراء :

ـ عليك بالشهادة العليا .

ـ هل حصلت عليها يا بابا؟

فيقول ضاحكا :

ـ على أيامنا كانت الابتدائية هى العليا ، ورغم ذلك حصلت على الكفاءة أيضا ، الفرص على أيامكم أكثر ، ماذا تريد أن تكون؟

ـ أريد أن أكون مثلك .

ـ ماذا تعنى؟

ـ أن يكون لى مثل بدلتك ونقودك وأن يكون لى بيت!

فيضحك عاليا ويقول :

ـ أنتظر مع الأيام إجابة أفضل!

ومثله أؤدى الصلاة والصيام . النساء يكتفين بالصيام ولكنى رجل . أبى لطيف حنون ويحب الدعابة . عندما يغضب يغلق عليه حجرته أو يرتدى ملابسه ويذهب إلى المقهى . تولت تلك الحياة وغاب أبطالها . فى باب النصر يرقدون فى قبر واحد نصفه للرجال والآخر للنساء . حجرتى كما كانت ، وحجرة أبى الملاصقة لها معدة للمعيشة يزينها التليفزيون والراديو والمكتبة ، وفى الصالة السفرة وأربعة مقاعد خشبية ودولاب شبه خال ، بيع الأثاث القديم بأبخس الأثمان ، وتعرت الحجرتان الأخريان تماما ، لا مطبخ لى بالمعنى المفهوم لهذه الكلمة ، ثمة موقد غازى صغير أعد فوقه القهوة أو الشاى وأحيانا الكراوية ، وأغتذى على الفول والطعمية وبعض المعلبات والبيض أحيانا ، وهو غذاء الحكماء فى هذا الزمن النارى .

الوحدة تتحدانى وأنا دائب على مقاومتها بالمقهى والتليفزيون ، ندرت قراءاتى للحد الأدنى فى أعقاب معايشة طويلة لعمالقة الفكر فى وطننا ونخبة من المترجمات الممتازة . اكتسبت سعة فى الأفق واستنارة لا بأس بها ، ولكن لم يؤثر شىء فى عقيدتى الأساسية ، أو لم يؤثر فيها لدرجة التخلى عنها ، ما أزال أصلى وأصوم ، وأنتظر النهاية بالرغم من أننى لم أضف إلى الحياة جديدا ولم أحدث فيها شيئا ذا بال . وأعانى كثيراً من الملل والكآبة . وأضيق بالمكان لحد الموت . وتطاردنى مخاوف كثيرة من المرض والموت . أخاف أن تدركنى علة فلا أجد من يأخذ بيدى ، و أن يوافينى الأجل فأترك فى مكانى حتى تنم عنى رائحتى . أقول لنفسى اطرد عنك الوساوس فمن الغباء أن تحمل الهم قبل وقوع القضاء . الطرطوشى يرانى أهلا للحسد . الماكر الأزرق يخزى العين عن حسده . أبناؤه

غاية فى الروعة . يمدونه بالعون أول كل شهر . وعندما يجىء أجله سيزدحم بيته بالنساء والرجال ويلعلع الصوات فيترامى إلى أنحاء العباسية ، وينشر نعيه فى الأهرام ، يأيتها النفس المطمئنة ارجعى إلى ربك راضية مرضية . انتقل إلى جوار الله المربى الفاضل ، وتمضى وراء نعشه جنازة محترمة يشترك فيها أصدقاء الأبناء والأصهار فيفوز الرجل الطيب التافه بجنازة من الدرجة الأولى . حليم بك لن ينشر له نعى على الإطلاق . سينشر نعيك فى صفحة الحوادث . دع حمادة يحسدك كيف شاء . إنه لا يعرف الوحدة ، ولم يشم رائحة التراب فى مأواه ، ويغتذى باللحوم رغم تساقط أسنانه ، نسى الفراش البارد المحروم من دفء الزوجة ، لا يعرف حرمان الجنس والأبوة ، لولا أنه لم يبق لى من أنيس غيرك لدعوت عليك . التليفزيون أنيس أيضا وأى أنيس ، عالم السحر و الخيال والنساء ، حتى الإعلانات موجعة لقلب المحروم . حياة تافهة ولكنى لست بالتافه . حتى أمس كنت المراقب العام للعلاقات العامة بوزارة التربية والتعليم . كان من الممكن أن أحقق أحلامى ولكن فى ظروف أخرى . ما جدوى ارتفاع المرتب قيراطين إذا ارتفع التضخم أربعة؟ ! ليست الأسرة وحدها المسئولة ولكن العالم كله باقتصاده وسياسته . تجنبت العالم ولكنه أبى أن يتركنى وشأنى . أين السباك ليصلح صنبور الحمام؟ ترى ما أجرته اليوم؟ أكون سعيدا لو نمت نصف اليوم ولكننى لا أنام أكثر من خمس ساعات . كى أريح نفسى من التفكير فيك يا ملك . مناجاتى الجنسية لك لا تنقطع . إحساس ما يلهمنى بأنك ما زلت صالحة . كلانا وحيد يا ملك . لم لا نفعل ما حرمنا سوء الحظ من فعله فى الزمان الأول؟ حرك الطرطوشى خاطر اللقاء وتركنى فريسة فى قبضته . تسلمه الخيال بشهوة جامحة . أن تضغط جرس الباب وتنتظر . تفتح الشراعة وتنظر . أنت . . ياه . . تفضل ، كيف ذكرتنا؟ كنت مارا فقلت لنفسى . . أهلا وحديث عن الجهات الأربع . وأدور وأناور وعينى مركزة على حلم الجسد . وهى تقرأ وتفهم فتصدر عنها إشارة خفية للعمل . وأنتقل إلى جوارها كالأيام الخالية . وتدعونى أكثر بالمقاومة الواهنة . ونهوى بقبضة الجنس الناعمة على الكآبة الغاشية . وتتراكم الأفعال الجميلة الشائنة . آه لو تتحقق الأحلام يا ملك . ثمة أخريات ألقاهن اليوم فى جنبات الحى معطرات بأريج الماضى الجميل ، غيرهن الزمن بلا رحمة ولم يبق من ماضيهن إلا الاسم . بتن غرباء رغم ابتسامة عابرة . فضليات وأمهات . لولا الظروف العاتية لاتخذت إحداهن زوجة صالحة . ذهب الشعر واختلت أوزانه . اليوم أغير الملابس الداخلية مرة واحدة فى الأسبوع توفيرا للغسيل والكى . لا أتناول الكباب إلا فى المناسبات . ينسى المتقاعد فى تقاعده كما ينسى الميت فى موته . فى الزمن المجيد سرت اختيالا بجناحى الشباب المورق . الأمهات قلن لأمى حليم لملك ، حليم لبثينة ، حليم لرباب ، حليم لبيسة . أمى غارقة فى مأساة ابنتيها . السنون تمضى بلا أمل . جميع البنات يتزوجن إلا فكرية وزينب .

لا الغرباء ولا الأقارب يقتربون منهما. أقول لنفسى مستغربا ما أكثر الزوجات الدميمات. ألا يكفى ثراء أبى لسد الثغرة؟

وأنفض عن نفسى نكد الأسرة وأسير اختيالا بجناحى الشباب المورق. وتهل على بيتنا فى شتى المناسبات ملك وبثينة ورباب وبيسة كالأقمار فى صحبة أمهاتهن. وتتفجر فى كآبة شقتنا بروق الإغراء والدلال، وتتجاذب نظرات الرغبة والأشواق، ولا يخلو الأمر من كلمة عذبة أو لمسة لطيفة أو خطف قبلة فى غفلة من الرقباء. حب مشاع لا يعرف التخصص. فى حضرة كل واحدة أتناسى الأخريات ولكن ملك تمتاز أيضا بقوة الشخصية والذكاء. ويوما سألتنى أمى وأنا فى المرحلة الثانوية أو الجامعية لا أذكر:

ـ من تعجبك منهن؟

فتفكرت مليا ثم قلت:

ـ لا أدرى!

ـ ولكن لابد من واحدة تتفوق بطريقة ما؟

فقلت وأنا أفكر فى ملك:

ـ إنهن متساويات لدرجة كبيرة.

فضحكت وقالت:

ـ أعز أمنية عندى أن أرى ذريتك، ربنا يسهل لفكرية وزينب حتى يخلو لك الجو..

وكانت الأحداث قليلة، فمرة قابلت بثينة فى العباسية الشرقية وتبادلنا قبلة سريعة. وهدايا رمزية تبادلتها مع رباب. وبعض الرسائل التى تدس فى اليد مع بيسة. أما مع ملك فالنظرات تغنى عن الهدايا والرسائل، أسعدنى أن أكون محورا ويدرن حولى. آه لو أجمعهن فى حريم واحد. ولكن ملك تزحف فى هوادة وعلى مهل فتغيب أضواء النجوم فى رحاب الشمس المشرقة. صورتها لا تبرح مخيلتى وهى واقفة فى حجرة الحريم بترام العباسية كعمود من نور فى فستانها الأبيض، طويلة القامة مكتنزة الجسد فى غير إفراط، ثرية الصدر بيضاء اللون فاحمة الشعر جذابة العينين. حائزة على البكالوريا ومتقنة لفن البيت. ومن الكلام المليح بين الأهل وتبادل الزيارات وترددى على بيتها باتت خطوبتنا حقيقة معترفا بها دون إعلان. من أجل ذلك عزف الخطاب عنها فتزوجت أخواتها وبقيت هى تنتظر. هى زوجتى وأنا زوجها وانحصر حلمى ـ بعد إتمام التعليم والتوظف ـ فى الزواج منها. وأخلو كثيرا إليها فى بيتها، أنا مثل وعاء على نار يرتعش غطاؤه بقوة البخار المحتدم فى باطنه، وهى ترنو إلى بعينين يقطر منهما الشوق والحلم. تبادلنى القبل وتصدنى عن العبث، وتقول بلطف:

ـ لكل شىء حدود.

وأركز نظرى على فتنة الحاضر ولكنها تمد نظرها إلى المستقبل فتصارحنى :

ـ عليك بعد التوظف أن توفر من مرتبك مائة جنيه فينتهى كل شىء على خير . .

فأقول متفائلا :

ـ لن يضن بها بابا على . .

ـ والدك موظف كما كان أبى !

فابتسم فى ثقة قائلا :

ـ بل أكثر من ذلك . .

قصة حبنا معروفة فى الشارع كله . يمتلئ بها والداى كما يداعبنى بها على يوسف . ولولا مأساة فكرية وزينب لتضاعف رضاهما ، ولما كان ذلك التحفظ الذى قليلا ما يلوح على أبى وقليلا ما يخفى عند والدتى . ما الحيلة؟ ليس الحب وحده هو ما يستحوذ على ، ولكننى خلقت للحلال وحده . للحلال وحده يا للذكريات . الحلال والأبوة ، اليوم حمادة الطرطوشى يلاعبنى النرد مراهنا على ثمن القهوة . غلبته وربحت وسرعان ما تلاشى الحماس . ننظر الآن إلى ميدان الجيش تحت أضواء المصابيح القوية العالية . ما أكثر النساء والرجال والأطفال ، تاريخ الحضارة ممثل فى وسائل المواصلات من عربات اليد والكارو والبصات والترام . الأصوات من كافة الأنواع من حوار ومشادة وصراخ وغناء . يمضى حمادة قائلا :

ـ البلد . .

ويشرح وجهة نظره الشاكية الساخطة على كل شىء . يثقل عليه هدوئى فيقول :

ـ لا يهمك شىء . .

فأقول ساخرا :

ـ فى ما يكفينى .

ـ ولكنك شاهدت عصورا وأحداثا وحروبا ورجالا . .

ـ يعنى !

ـ لا يهمك إلا نفسك .

ـ هى أسوأ حالا من البلد .

ـ ولكنك مثقف .

ـ طظ .

فضحك عاليا ، وضحكته أقوى ما فيه ، ويقول :

ـ ابدأ حياتك الجديدة .

ـ ماذا تعنى؟

ـ أتقنت الإنجليزية ودرست الإدارة والسكرتارية فى المعهد الليلى، بوحى من الانفتاح طبعا، فما عليك إلا أن تبدأ من جديد . .

ـ يلزمنى فاصل من الراحة . .

ـ أخاف أن تعتاد التقاعد .

ـ لا تخف على .

الإعلانات عن الوظائف الحرة كثيرة ومرتباتها فيما أسمع كبيرة لكنها لن تكفى لتغيير حياتى .

هيهات أن تمكننى من دفع خلو للانتقال إلى مسكن جديد فى حى جديد . لكن مائدتى المقفرة ستثرى بالطعام الساخن .

قلت :

ـ صبرك وسوف ترى ما يسرك . .

فضحك قائلا :

ـ عليك أن ترفع رأس المتقاعدين عاليا .

أعطيت الصحة وحرمت من ثمارها ولكن على أن أحمد الله وأشكره على فضله دون تحفظ . هو المطلع على حرمانى الطويل ووحدتى وهو الرحمن الرحيم . وقلت :

ـ لو كنت أعمق إيمانا لكنت أسعد حالا . .

ـ الإنسان إما أن يكون مؤمنا أو غير مؤمن ولا وسط .

قلت بحدة :

ـ لا تكن حادا مثل سكين المطبخ . .

فقال مقهقها :

ـ أنا لا أعترف بإيمان المثقفين .

أمسكت عنه . إنه ينثر سخطه يمنة ويسرة وينام ملء جفنيه . لكنه أيضا هو كل ما بقى لى فى هذا الزمن الأغبر . أين الأصحاب؟ أين الأحباب؟ من حجرتى سمعت أمى وهى تخاطب أم رباب أو بثينة لا أذكر .

ـ لا يجوز أن يرتبط حليم قبل أن يكمل تعليمه . .

المنطق سليم ولكنه أحنقنى . وخفف من وقعه أن الكلام لا يوجه إلى أم ملك . وقبل ذلك سألتنى ملك :

ـ متى نعلن خطوبتنا؟

وكان الجواب :

ـ جو بيتنا لا يسمح بذلك قبل إتمام الدراسة . .

واقتنعت بتسليم ، وسلمت أمها بالواقع دون اقتناع . وعلى أى حال تزوجت بثينة ورباب وبيسة فى أثناء دراستى الجامعية . ولم تخل نفسى من هزة تودع بها كل عروس ولكنها كانت عابرة واهنة وبلا أثر باق . الزواج أقوى من الحب وسحره خير وأبقى . وسرعان ما تتلاشى أحلام الصبا الوردية مثل رائحة زكية تعبر بها امرأة مسرعة . ولن أنسى ما حييت قول ملك فى ساعة تجل :

ـ لو تقدم لى أمير لرفضته ، ليس لى سواك . .

تبدت لى صادقة راسخة أقوى من أى حقيقة فى الوجود . كان حبا صادقا عظيما ويا للخسارة . وقد أحرز انتصاره فى يوم بهيج لا ينسى . فمن نافذة سكنها رأتنى وأنا أتبادل الإشارات مع بثينة .

وعند أول زيارة لنا مع أمها اقتحمت حجرتى ثم سألتنى فى حياء؟

ـ هل أهنئ؟

فسألت بدورى فى دهشة :

ـ على ماذا؟

ـ بثينة؟ !

خجلت . نظرت إليها طويلا وهى تحدق فى بشجاعة وإصرار . ما أجملها وهى تطوى غيرتها فى قبضة كبريائها .

وتمتمت فى صدق وسعادة :

ـ لا أحد سواك يا ملك .

فرفعت صوتها لتسمع من فى الخارج :

ـ أعرنى كتابا من كتبك .

ـ قرأت مجدولين؟

ـ نعم .

ـ إليك آلام فرتر .

فقالت باسمة :

ـ هاتها .

منذ تلك اللحظة بدأت أنفض عن وجدانى فتنة الأخريات . وتركز حلمى فى الزواج . خلقت للحلال وحده . لست مثل صديقى على يوسف وبقية الصحاب . ذات

ليلة قالوا فلنغامر ليكن لنا نصيب. أجل فلنغامر وليكن لنا نصيب! ذلك تاريخ قديم. اليوم وأنا سائر إلى المقهى أتساءل هل كتب على هذا المشوار المدوخ بين أبو خودة وميدان الجيش. لا حول ولا قوة إلا بالله. وأتخيل رجوعى عقب انتهاء السهرة فيبوح سرورى الوقتى المصاحب لى فى الذهاب. العباسية كتكوين عام تقرفنى مثل وجه كريه. يقولون مع ذلك إن الحياة تبدأ بعد الستين. حقا؟ شد ما أتوق إلى منظر جديد، جو نقى، موقع تكتنفه الأشجار، والحسان يخطرن مع الأصيل، وأحن إلى ناد حافل بالمعارف والتسلية، إلى دفء يشغل المرء عن هواجس المرض والموت. الشباب والمال هذه هى الدنيا. يتحدثون عن الإثراء المتفجر فى كل مكان، عن السهرات فى الشقق المفروشة، عن الأفراح الذهبية فى الفنادق، أين الطريق المفضية إلى هذه الدنيا؟ وتوجد قلة من الرفاق على قيد الحياة فأين هم؟ التقيت مرة بالدكتور حازم صبرى أمام الأميركين، تصافحنا، تبادلنا كلمتين على عجل، وافترقنا! من يصدق أننا كنا لا نفترق على مدى الطفولة والمرحلتين الابتدائية والثانوية؟ وانتخب الموت الآخرين. لم يبق إلا العجوز الطيب الذى يلوح لى بيده من مجلسه فى المقهى. واستقبلنى بجدية غير عادية وقال:

ـ أعرف ما بكر بك اليوم!

فجلست وأنا أتساءل:

ـ ما هو؟

ـ أزمة الجنيه والدولار!

فضحكت من قلبى ونادرا ما يحدث ذلك وقلت له:

ـ الله يخيبك يا عجوز!

فقال باهتمام:

ـ حلمت لك حلما غريبا!

ـ حقا؟

ـ رأيتك تركب حمارا وعلى رأسك بقجة كبيرة، ثم طوحت بالبقجة فى الهواء وحثثت الحمار على الإسراع بكعبى قدميك فسألتك عن وجهتك فقلت لى إنك ذاهب لأداء العمرة..

ـ ألديك تفسير؟

ـ طبعا.. أمامك خير، ولكن عليك أن تطرح أفكار السوء أرضا!

على أى حال أحببته تلك الليلة كما أحببته ليلة اقترح على زيارة ملك. أعترف بأنه يؤنس وحشتى. وأنه لولاه لجننت من طول ما أحدث نفسى، وقالوا فلنغامر وليكن لنا نصيب. وقصدنا تافرنا. تعشينا على أنغام المندلين. ولأول مرة أشرب قدحا من النبيذ.

طارت بى نشوة لم أعهدها فى حياتى من قبل. الخطوة الأولى المخاتلة الساحرة فى حياتنا بادرتنا بالنشوة الهازجة. انطلق الضحك من حناجرنا بلا سبب بين يدى فرحة الحياة المتدفقة. أزعجنا من حولنا من السكيرة القارحين. ولأول مرة أيضا نقتحم الدرب إياه. ومضى كل مع امرأة مستوردة. تعرت بحركة روتينية قبل أن أغلق الباب ورائى. وقفت مذهولا وقد هرب قلبى فى أعماقى. انغمست فى برميل من الثلج. ورمت تجمدى بنظرة شرسة وقالت «لست ممرضة يا أنت». ولما خرجت إلى الهواء الطلق المعبق بالبخور هاجت معدتى وماجت وقذفت بما فيها. وحدس أحدهم أن المرة الأولى لا تنجو من عواقب سيئة. ولكن الثانية لم تكن أفضل. قلت لاحظ لى مع الخمر ولا مع أولئك النسوة. أين النار التى تستعر فى حضرة ملك؟ ويئس على يوسف منى فقال لى:

ـ معدتك إسلامية وكذلك غريزتك..

وآمنت بأنه لا أمل لى إلا فى الحلال والزواج. حقا إنه أمل متواضع ولكن تحقيقه يسير. الوظيفة والزواج. أى طموح آخر سرعان ما يتلاشى. كالحلم الذى ينسى عقب الاستيقاظ. الأصدقاء يحلمون بعوالم أخرى. الزعامة أو القيادة أو التفوق فى المهنة. منهم أيضا من ينتمون إلى الأحزاب ويجلسون إلى الزعماء. أما أنا فلم أجاوز أعتاب وظيفة توفر الرزق وزوجة صالحة وأبوة. وفى خضم العراك السياسى يقول لى أبى:

ـ نحن الموظفين موالى الحاكم.

فأنقل إليه ما يقرع أذنى عن إخلاص زعماء وتهاون زعماء فيقول:

ـ كلهم خنازير يتناطحون فى سبيل الحكم، وإنه لمجنون الذى يخسر حياته أو مستقبله فى معركة زائفة..

حديثه المفضل يدور دائما عن الوظيفة والموظفين والكادر سواء فى المقهى أم فى البيت. وأنا أجتهد وأذاكر وأنجح ولكن دون إفراط. لا أعذب نفسى بالتفوق وبلوغ المراكز المتقدمة. وأقرأ وألعب وأحب. وكل صديق شهد لحبيبتى بالجمال والاستقامة. وحبها يزداد مع الأيام قوة وعمقا. أحوم حولها كالمجنون بحب راسخ ورغبة جنونية. وتقطب فى بعض المواقف وتهمس:

ـ إذا تماديت فضحتنا!

فأهمس متشكيا:

ـ إنى أتعذب حتى الموت.

فتقول برجاء:

ـ لا يعجبنى اندفاعك أحيانا، الحب بطبعه مهذب، كن لى مثلما أنا لك..

أهدت إلى صورتها فاحتفظت بها فوق قلبى. عشت أسعد الأزمان فى رحاب حبها.

لكنى عذبنى فيض الشباب وبخلاف على يوسف فشلت فى ترويضه. إنه أحب الأصدقاء إلىّ. نذاكر معا، فى بيته مرة وفى بيتى مرة. أقصر منى فى القامة وأجمل منى فى الوجه، وأذكى فهو يشرح لى أحيانا ما يغمض على، ويفوقنى فى الاطلاع، والانتماء السياسى. يقول بحرارة:

ـ سأعيش حتى أرى حياة جديدة لا الملك فيها ولا الإنجليز..

ويحدثنى عن تيارات جديدة كالإخوان والماركسيين ومصر الفتاة ولكنه لم يتخل عن الوفد. وأحب بنتا يهودية فترة طويلة من العمر ولكنها اختفت فى مطلع الحرب العظمى الثانية. ولم أعرف له قصة حب أخرى فتوهمت أنه يعيش بلا قلب. ودخلنا معا كلية الحقوق فواصلنا المذاكرة المشتركة. وأقول لملك.

ـ لم تبق إلا أعوام معدودة ثم نلتفت إلى مستقبلنا..

هى الوحيدة الباقية مع أمها رغم أنها أجمل أخواتها. تقول:

ـ ليتنى أكملت تعليمى..

ـ الوظيفة تغريك أيضا؟

ـ لم لا؟

ـ ولكنى أريدك ست بيت..

لا أجادل فى حق الفتاة فى التعليم والعمل ولكنى أفضل ست البيت، يحكم على يوسف على بأننى محافظ أكثر مما ينبغى. يقول:

ـ أنت مثل معدتك لا تتطلع إلى الحياة الجديدة..

فأقول:

ـ لا تغال، حسبى أن أصنع أسرة أفضل من أسرتى..

ونختم دراستنا فى العام السابق لنشوب الحرب. صرنا أستاذين كما يقال. لم نبلغ الدرجات التى تؤهل للوظائف الممتازة. أنا بسبب اجتهادى المعتدل، وعلى يوسف لنشاطه السياسى. وكان على قريبا للأستاذ جعفر برهام المحامى فألحقه بمكتبه. وداخ أبى حتى ألحقنى بالإدارة العامة بوزارة المعارف. لولا أزمة فكرية وزينب لا عتبر رسالته فى الحياة منتهية على أحسن وجه. على أى حال سعد بيتنا على قدر ما يستطيع، وسعد أكثر بيت بهاء أفندى عثمان، بيت ملك. زيارتى له بعد الوظيفة حفلت بمعان جديدة. ودار الحديث فيها حول التدبير والمستقبل وتوارت المناجاة ورموز العشق. أقول كالمعتذر:

ـ الوظائف الممتازة نادرة جدا اليوم.

فتقول بمرح:

ـ مفهوم . . لا داعى للأسف . .

ـ ثمانية جنيهات فيها الكفاية .

ـ وفوق الكفاية . .

ـ ولن يطول وقت الاستعداد بإذن الله . .

وتحنى رأسها بالموافقة موردة الخدين بالابتهاج . وأطالع قامتها الفارعة وهى تقدم لى القهوة فتسرى رجفة فى أعصابى كالإعصار . وأتساءل ترى لو تعلن الخطوبة ألا أستحق مزيدا من العطاء؟ ويتساءل حمادة الطرطوشى ساخرا :

ـ ما إن فرغنا من النرد حتى همت فى وديان بعيدة ، فيم تفكر؟

ـ أتابع الحاوى الذى يعرض ألعابه أمام المقهى وسط حلقة من الصبيان ، وأنظر بتقزز إلى ثعبان حول عنقه .

ويسألنى :

ـ أتحب الحواة؟

ـ أبدا .

يقول متنهدا :

ـ حفيدى مريض جدا . .

ـ ربنا يأخذ بيده . .

ـ هل تذكر بيت الشعر الذى يقول مطلعه وأولادنا مثل لا أدرى ماذا؟

أتذكر أننى قرأته ولكنى لا أحفظ الشعر . .

ـ أنا اليوم أنسى ما يجب حفظه وأتذكر مالا فائدة فيه . .

ـ وأنا مثلك .

ـ أحيانا أنسى بعض قواعد النحو الذى أنفقت عمرى فى تدريسه!

ـ نسأله الستر .

يقول ضاحكا :

ـ أنت فى حاجة إلى عروس مع الستر!

ارتجفت جذور قلبى بنغمة طالما ترددت على أوتارها منذ الزمان الأول . وأحيل أبى إلى التقاعد فى نفس العام الذى التحقت فيه بخدمة الحكومة . قرأت فى وجهه النحيل حيرة باهتة يداريها بابتسامة فاترة وما يشبه الحياء فقلت لنفسى أبى حزين . وأصر على ألا يغير نظامه اليومى ، ينام عند منتصف الليل ، يستيقظ مبكرا ، يغادر البيت فى الثامنة ـ بدلا من السابعة ـ يعود ظهرا من مقهى الدواوين بدلا من الوزارة ، يتغدى ، ينام ، يمضى

مرة أخرى إلى المقهى، لكنه حزين. قررت أن أسرى عنه وأدخل إلى قلبه البهجة. هو أبى وصديقى ولا حياء بيننا فى الحق. سأقول له يدك على يدى لنذهب معا إلى بيت بهاء أفندى عثمان لنخطب ملك. هو يومى الموعود ويومك الموعود أيضا. لا جدوى من انتظار زواج فكرية وزينب ولو انتظرت إلى آخر الدهر. ولكنه مات فجأة. بلا مرض ودون توقع. فى الصباح الباكر وهو يحتسى القهوة عقب الإفطار. إنه القلب كما قرر الطبيب فيما بعد. اشتعل البيت صواتا ولطما. بكيت مع النساء كالنساء. أحببته حبا لا يضاهيه حبى لأحد. وتحدانى موته وأنا فى سن يتعذر عليها الاقتناع بالموت. جاءت أيام بعد ذلك بأعوام وأعوام كنت أحزن لأننى لا أحزن. ويقول لى على يوسف معزيا:

ـ القلب أرحم موتة للميت وأقسى موتة على ذويه..

وضرب لى مثلا بأبيه. ما تصورت أننى سأعرف العزاء أبدا. وبرزت لى من الغيب حقيقة جديدة رغم أنها كانت تعيش معى طوال الوقت، فلم أدرك مدى فقرنا إلا بعد وفاة أبى. عشت دهرا فى نعيم من الآمال الكاذبة. أذهلنى أن أبى لم يخلف ثروة من أى نوع كان، سوى أربعين جنيهًا عهد بها إلى أمى هى تكاليف جنازته ودفنه. إذن ما سر البحبوحة التى سبح فيها بيتنا؟ المسألة بكل بساطة أن الدنيا كانت مطحونة بأزمة عالمية مررت بها فى الصحف دون اكتراث، وتميز أصحاب المرتبات الثابتة بدخل ثابت أصبح محور الحياة الاقتصادية على تفاهته. السلع رخيصة ولا تجد من يقبل عليها إلا الموظفون. بفضل ذلك أكلنا وشربنا ولبسنا وركبتنا الخيلاء ونحن نمرح فى القاهرة. وبنشوب الحرب مضى كل شىء يتغير، جاء الرواج، ومضت الأسعار ترتفع درجة بعد درجة، واسترد الملاك أنفاسهم، وانتفخت جيوب فئات ممن عرفوا بأغنياء الحرب، وتجهمت الدنيا للموظفين الذين تراءى لهم المستقبل طريقا مسدودة. وهكذا وجد الفتى المدلل نفسه رب أسرة بلا أسرة، مسئولا عن أم وأختين مزمنتين، لهم معاش ضئيل يفى بالكاد بكسائهن المتواضع، وله مرتب تضعف قيمته الشرائية يوما بعد يوم. كيف يمكن أن أتحدث عن موضوع خطوبتى؟ ومتى أستطيع أن أتزوج؟ وتم أول لقاء بيننا فى بيتها بعد أربعين أبى. أنذر جوه بالإحباط والمتاعب. مازال الحزن يصهرنى فاحترمت حزنى. لكنى لم أرها كسيفة البال كما أراها الآن. أقول بوجوم:

ـ كانت صدمة فى ألا يخلف أبى شيئا!

تتساءل بروح راكدة:

ـ والمعاش؟

ـ المعاش! أى معاش يا ملك؟

تمتمت:

ـ يبدو الأمر كالاغتيال.

ـ هو اغتيال حقا.

ـ هل لديك فكرة عن المستقبل؟

ـ مازلت أفكر وأفكر، يلزمنى وقت آخر.

تأججت أشواقى إليها لحد الاشتعال رغم الحزن الثقيل أم الحزن أمدها بوقود جهنمى؟ حتى الاغتصاب تمنيته ضمن خواطر دموية مجنونة. افترقنا على أسوأ حال من القلق. كيف ومتى أتزوج؟ هذا هو السؤال الملح المطارد القهار. زملائى فى الوزارة جميعهم متزوجون ـ يعجبون لا متناهى عن الزواج. كثيرون على أتم استعداد لتقديم عرائس. لن يكلفك ذلك مالا يذكر. ولكنكم جيل متمرد يفضل الحرام. أسمع وأتألم وأصمت. يا للعنة ما قدرت أبدا أن الحياة تدخر لى هذا المأزق. ويوما تدخل أمى حجرتى وتجلس إلى جانبى على الكنبة فى جلباب الحداد. نظرت بين قدميها وقالت:

ـ أرجو ألا أكون أخطأت يا حليم..

قلت غير متوقع أى خبر:

ـ خير!؟

ـ ما باليد حيلة.

ثم مواصلة بعد صمت:

ـ أم ملك زارتنى صباح اليوم، إنها صديقة عمرى، ولها الحق كل الحق فى أن تطمئن على ابنتها، اقترحت على إعلان الخطوبة، ساءلتنى عن المستقبل. قلت ها أنت حبيبتى ولا سر بيننا، وملك ابنتى ولن أجد لحليم خيرا منها جمالا وأدبا وقرابة، ولكن إليك حالنا وما أنت بالغريبة.

وفصلت لها الأمر تفصيلا ثم قلت:

ـ ماذا تكون حالنا لو تخلى عنا؟

ـ والعمل؟

ـ العين بصيرة واليد قصيرة.

ـ ألا يمكن أن نعلن الخطوبة إسكاتا لكلام الأهل والناس؟

ـ المسألة هى متى يستطيع أن يفتح بيتين؟

وقالت لى أمى بأسى:

ـ افترقنا، أنا آسفة وهى غاضبة فهل أخطأت يا ابنى؟

وقعت أسيرا للغضب والاقتناع. لا أجد منفذا للهجوم أو العتاب. الحقائق عنيدة

كالصخور الصلدة. لا أستطيع أن أقاتل إلا شبحا اسمه سوء الحظ. رغم ذلك حنقت عليها دون وجه حق. يا لها من أيام قرف ونكد وبادرت بزيارة بيت حبيبتى فى بيت الوجد والورد طالعنى الجفاء لأول مرة. ملك متجهمة بلا إشراق ولا دلال. وتصدرت أمها المجلس وهى تتساءل فى تهكم مر:

ـ هل استأذنت والدتك قبل أن تحضر؟

أخذت وتغيرت فقالت الأم بانفعال:

ـ ما كنت أتصور هذا الختام الغادر.

قلت بصوت منهزم:

ـ إنها ظروف سيئة كما تعلمين.

ـ الله لا يرضى بأن يضحى شاب مثلك بحياته من أجل سوء حظ غيره، عل كل إنسان أن يتحمل نصيبه من الخير والشر، ثم ما ذنب ابنتى؟

ـ دعينى أشرح لك..

قاطعتنى بحدة:

ـ لا يهمنى الشرح، ما يهمنى حقا هو مستقبل ابنتى وسمعتها!

فقلت محتجا:

ـ سمعتها بخير دائما.

ـ كلا، زيارتك لها معنى لم يعد فى صالحها.

وقالت ملك محتجة:

ـ ماما!

فصاحت بها:

ـ اسكتى أنت!

عميت عما أمامى. غادرت الشقة مطرودا. أترنح تحت ضربات الإهانة واليأس والحزن. أتساءل فى ذهول هل حقا انتهى كل شىء؟ الحب والأمل؟ ملك والزواج؟ وردمتنى عاصفة كراهية لكل شىء. خنقتنى الحقيقة البشعة وهى أننى منكوب بأسرة منكوبة. تبدى بيتنا مساء على مثل الحال التى كابدها يوم وفاة أبى. أمى وفكرية وزينب على كنبة واحدة فى الصالة حائرات البصر من القهر والخجل والشعور بالذنب. تقول أمى:

نحن حمل ثقيل ولكن ما حيلتنا أمام قدرنا؟

وقالت فكرية وكانت أحن على من أمى:

ـ أود المستحيل لإسعادك ولكنى عاجزة.

وصمتت زينب ولم تكن دونهما كربا. غمغمت وأنا ماض إلى حجرتى:

ـ ليفعل الله ما يشاء.

اليوم كلما نظرت إلى الوراء لم أر إلا التفاهة والعقم والحرمان. وأحلام اليقظة حول المال والنساء. والسجن الخبيث فى أبو خودة. وكلما آنس حمادة الطرطوشى منى شرودا أو كآبة قال بين المزاح والجد:

ـ اذهب إليها، إنها وحيدة مثلك..

باتت تثير رغبتى كالزمان الأول. وما أكثر ما عاشرتها فى الخيال. ويقول حمادة أيضا:

ـ لو كان الزمان غير الزمان لوجدت امرأة تخدمك خدمة شاملة!

ثم مواصلا وهو يقهقه:

ـ أعنى كالتنمية الشاملة!

العجوز رائق ويمزح عليه اللعنة. بل يقول:

ـ أتريد الحقيقة؟ كان بوسعك أن تتزوجها..

فحدجته بغضب فقال:

ـ لو كنت مكانك لجهزت حجرتى ولو بالتقسيط وضممت البنت إلى الأسرة وليفعل الله ما يشاء..

قلت بحدة:

ـ هذه الأفكار لم تكن ترد على الخاطر فى ذلك الزمان..

ـ لا تغضب، أرى أنك سلمت للهزيمة دون مقاومة حقيقية.

فقلت بصرامة:

ـ من فضلك لا تحملنى مسئولية سوء حظى.

ولم يقنع بيتنا بسوء حظه ولكنه أضاف إليه نكدا وقرفا. كأنما الكراهية تهيمن عليه. فكرية وزينب فى مشادة، فكرية وأمها فى شجار، زينب وأمها فى نقار. تقول فكرية:

ـ لو تعلمنا وتوظفنا لتغير حالنا، الله يسامحكم..

فتصيح أمى:

ـ زمان المرحوم غير هذا الزمان، دعوه يرقد بسلام..

فتقول زينب:

ـ ليتنى أملك الشجاعة لأعمل خادمة . .

فتهتف أمى :

ـ ربنا يريحنى بالموت !

آه يا بيت النكد والكآبة . أما من نهاية لهذه الاتهامات المتبادلة؟ أما معى فكن يقدمن خير ما تنطوى عليه مشاعرهن من رقة وحب . أنا رب البيت وضحيته . وبقدر ما أسخط عليهن أعطف وأحزن . كم كانت أمى ربة بيت ممتازة . وكم كانت سعيدة فى علاقتها مع أبى . ولكنها لم تتصور تلك النهاية الكآبية لأسرتها . تساءلت مرة بضيق :

ـ لماذا لا يخلو بيتنا من عنف؟

فقالت أمى :

ـ كيف تستخرج العسل من الخل؟ أنت نفسك . .

فقاطعتها متحفزا :

ـ أنا نفسى !

ـ الحق أنى أتمنى الزواج لهما من أجلك أنت . .

تساءلت بسخرية :

ـ هل لو جاء العريس المعجزة سأجد ما أجهزهما به؟

فتنهدت ولاذت بالصمت فقلت بحدة :

ـ وأنا ، ما ذنبى؟

فقالت بعصبية :

ـ اذهب وتزوج واتركنا لمصيرنا . .

فصحت بحدة :

ـ حتى هذا لا أستطيعه . .

بيت النكد الذى أزداد مع الأيام مقتا له . نفس الوجوه ، نفس الأسى ، نفس الحرمان ، أليس لهذه الحياة من نهاية؟ فكرية عنيفة ، وزينب أنانية ، لا يبرحان البيت كرها فى العالم ولخلو صوانهما من أى ملابس لائقة . والحرب تشتد والأسعار تتصاعد والقلق يتجمع . أقول لأمى :

ـ مأساتنا الأصلية أصبحت ترفا ، علينا أن ننضبط فى الإنفاق لأقصى حد .

ـ إنى أبذل كل ما فى وسعى .

ـ لم يحتط أبى الله يرحمه للمستقبل !

هبت للدفاع كعادتها قائلة :

ـ لم يكن فى وسعه أن يفعل خيرا مما فعل .

ـ أنفق عن سعة ، وبالغ فى تدليلى فأفسد على حياتى !

ـ أتلومه لأنه أحبك أكثر من أى شىء فى الدنيا؟

ـ ألم يكن من الأصوب أن يوفر نقودا لزواج ابنتيه؟

ـ كان فى نيته أن يستبدل جزءا من معاشه كلما احتاج إلى تجهيز واحدة . .

وذات يوم استدعانى رئيسى لمكالمة تليفونية . وجاءنى صوت خفق له قلبى بعنف ، ملك حبيبتى دون غيرها . وسمت لى موعدا عند الأصيل بشارع السرايات . التقينا وليس فى قلبى نبضة أمل واحدة . بعد عام فراق معذب طويل حزين . ها هو من جديد الوجه الجميل والجسم المترع بالجاذبية . وفى شىء من الارتباك والحياء قالت :

ـ نسيتنى طبعا !

فسرنا وأنا أقول :

ـ لم تخطر لى هذه النهاية ببال .

ـ وأنا كلما تقدم لى رجل رفضته ولكن كيف لى بالصمود أمام العواصف؟

ـ أنا خجلان يا ملك .

ـ ألا توجد بارقة تحسن؟

ـ من سيئ إلى أسوأ !

فسكتت بائسة . وقلت :

ـ لا يصح أن أخدعك .

وتقدمنا صامتين كأننا نشيع ميتا حتى شارفنا ميدان المستشفى الفرنسى فتمتمت :

ـ بوسعى أن أفعل ما تشير به على .

فقلت فى استسلام نهائى :

ـ لا أشير عليك بشىء ، حسبى شعورى بالإثم على ما ضيعت من عمرك . .

وكان المساء يهبط بثقله فى كثافة مركزة لا تخففها المصابيح الملونة بالأزرق تنفيذا لتعاليم الدفاع الجوى . وكان علينا أن نفترق قبل أن نصل إلى شارع العباسية . الفراق النهائى الذى يجرف معه كل شىء . وقفنا . سألتها بصوت غريب :

ـ هل أستحق فى نظرك أى لوم يا ملك؟

هزت رأسها دون أن تنبس . تلاقت يدانا . وآخر ما قلت كان :

ـ سأدعو لك دائما بالسعادة . .

وذهبت وبصرى منغرز فيها . ما فعل اللقاء إلا أن جدد الأحزان ، نكأ الجرح . وتضاعف سخطى على كل شىء حتى إننى صرت من قراء صحف المعارضة بلا أدنى اهتمام حقيقى بالسياسة . وقلت لعلى يوسف :

ـ خبرنى يا خبير ، أمامى عزوبة أبدية فما العمل مع المشكلة الجنسية؟

فضحك عاليا ونحن نتجول فى حديقة الأزبكية وقال :

ـ جرب من جديد .

فقلت يائسا :

ـ لا أطيق المحترفات ولا الخمر !

فإذا به يقول :

ـ لم يبق لك إلا أم عبده !

هتفت بذهول :

ـ أم عبده؟ !

قال ببساطة :

ـ تربت عندكم ، منكسرة ، وفيها رمق لم لا؟

ـ إنها تكبرنى بعشر سنوات . .

ـ لم أقترح عليك الزواج منها يأستاذ !

ليس فى الكون بقعة محطمة بالعفونة وعامرة بأحلام اليقظة مثل العمارة البالية بشارع أبو خودة ومقهى النجاح بميدان الجيش . ماذا بقى لمتقاعد وحيد؟ ! لو تهيأت لى وفرة فى المال لقمت بسياحة دخل القطر تغطيه من شرقه إلى غربه ومن شماله إلى جنوبه . ولو غمرتنى ثروة مباغته لقريب تركها لى فى البرازيل مثلا لشرقت فى الأرض ولغربت بلا حساب ، ولتزوجت من فتاة حسناء دون مبالاة بالعواقب . ما ألذ الأحلام وأقساها ، على حين تقيمين يا ملك على مبعدة أمتار منى ولا أحرك نحوك ساكنا . نحن سلالة ذكريات واحدة ، وفريسة شيخوخة واحدة ، وقلبى يحدثنى بأنك مازلت امرأة ! وقال لى حمادة الطرطوشى بسرور :

ـ ابنى رقى إلى درجة مدير عام .

فهنأته وقلت :

ـ القهوة والسندوتش على حسابك هذا المساء .

فقال بحزم :

ـ على القهوة فقط !

ـ هل ما زلت تعاشر حرمك جنسيا؟

فضحك الرجل وقال:

ـ سؤال بارد.

ـ معذرة ولكنه يهمنى.

فقال باقتضاب:

ـ عندما أشاء.

ثم مواصلا:

ـ كثيرا ما توجد القدرة غير مصحوبة بالرغبة..

ثم قال برثاء:

ـ كيف فاتك الزواج؟ ما عرفت رجلا له مثل حنينك إلى الزواج..

فقلت بمرارة:

ـ مازلت أحمل أسرتى حتى العام الأخير، وكلما ارتفع المرتب درجة ارتفع الغلاء درجتين.

ـ يا للخسارة، وأم عبده رحلت قبل الأوان!

ـ بل بعد الأوان، وبعد أن استحالت رجلا!

ـ قسمتك. ماذا يقعدك عن مقابلة ملك؟

وراح على يوسف يلاحقنى بنظراته مستطلعا. إنى أعرف ما يريد أن يسأل عنه وأتجاهله. حتى سألنى ونحن جالسان فى مقهى الانشراح القديم الذى محله اليوم معرض للأثاث:

ـ ما أخبار أم عبده؟

ضحكت وقلت:

ـ مغامرة غريبة ولكنها كللت بالنجاح..

فتساءل بشغف:

ـ كيف؟

ـ ماذا أقول؟ إنها عشرة عمر، عرفتها منذ الطفولة كأنما هى قطعة من أثاث البيت، وازدادت العلاقة احتراما بعد أن خلفت أبى، ولعلها دهشت كثيرا عندما آنست منى تغييرا فى النظر والكلام، ومثل هذه الأمور لا يغيب مغزاها إلا عن المعتوهين، وهى امرأة طيبة ولكنها لحسن الحظ ليست معتوهة، لما مددت يدى ذهلت، تراجعت، وتلاحقت أنفاسها فى اضطراب واضح، الآن كل شىء يمضى على أحسن وجه، ولكن فى حذر شديد.

ـ تخاف الفضيحة؟

ـ طبعا.

ـ لقد حرموك من الزواج فهل يردن إعدامك أيضا؟

ـ بل إنه الأدب والحياء من ناحيتى . .

ـ المهم هل ارتاحت أعصابك؟

ـ نعم.

ـ ادع لى.

فقلت ضاحكا:

ـ لاعدمتك من قواد كريم!

نعم لقد حظيت بالراحة ولكن تضاعف شعورى بالقرف والعقم والتفاهة. وتساءلت ترى هل يحق لنا أن نحسد الأمم المشتبكة فى الحرب؟ اعتدنا سماع الأهوال وصفارات الإنذار ورؤية جنود الحلفاء. وأذهلنا تقلب الحظوظ وانكسار الجبابرة. وكنت ألقى على يوسف مرتين، مرة فى مقهى الانشراح، والأخرى فى المخبأ قبيل الفجر. وقال لى ذات مساء:

ـ أريد أن أعرف رأيك بصراحة فى أمر هام.

فتساءلت ولا فكرة لى عما سيقول:

ـ خير؟

فسألنى فى شىء من الارتباك.

ـ ما العلاقة الآن بينك وبين ملك؟

اقتحمتنى المفاجأة. خرست دقيقة. ثم أجبت بصراحة:

ـ لا علاقة على الإطلاق.

ـ إنى لا أسأل عن العلاقات الرسمية ولكن عن قلبك؟

ـ الماضى نسى تماما.

ـ ألا يحزنك أن تتزوج اليوم أو غدا؟

ـ بل أتمنى لها السعادة ولعل زواجها يقتلع من قلبى رواسب الشعور بالذنب . .

ـ سؤال آخر.

فتساءلت مبتسما:

ـ أفندم؟

ـ ما رأيك لو أستأذنك فى خطبتها لنفسى؟

فقلت ببساطة:

ـ ستجدنى أول المهنئين.

ـ أطالبك بالصراحة التى لا تعقب ندما من ناحيتك أو ناحيتى!

ـ بالصراحة نطقت..

كنت صادقا. مرت فوقى سحابة كآبة لعل رياح الخيبة هى التى دفعتها ولكنى لم أكابد حبا أو غيرة. وجثم فوق صدرى أكثر من الأول شعور الإحباط واليأس. ويوم رويت ذلك الموقف لعم حمادة الطرطوشى سألنى:

ـ أكنت شفيت حقا من حب ملك؟

فأجبته بيقين:

ـ بكل تأكيد.

ـ ألم تكن تختارها زوجة لو سمحت الظروف؟

ـ بلى ولكن لصلاحيتها لذلك.

ـ إذن كانت ما تزال المرأة المفضلة؟

ـ وكان يمكن أن يقع اختيارى على غيرها أيضا!

فضيق عينيه وقال:

ـ أخبرتنى أنه كان يقيم معها فى عمارة واحدة؟

ـ نعم.

فقال بخبث:

ـ كان يحبها من قديم ورب الكعبة!

قلت بصراحة:

ـ خطر ذلك ببالى أيضا.

ـ إنه ثعلب!

قلت بحرارة:

ـ لم يخطىء فى حقى قط، وظل لآخر يوم فى حياته صديقى الأول.

ـ وهل وفقا فى الزواج؟

ـ كأحسن ما يكون التوفيق.

وأضفت من عندى:

ـ أنجب منها ولدين نابهين ولكنهما ـ مثل أبيهما ـ اندفعا فى النشاط العام، وبخلاف الأب اندمجا فى الإخوان، واضطرا إلى الهجرة إلى السعودية فتزوجا وأقاما هناك بصفة نهائية، وأنا أعتقد أن ملك تعيش اليوم عيشة ميسورة بفضلهما . .

ـ ومتى ترملت؟

ـ منذ عشر سنوات تقريبا، مات صديقى فى عز قوته بالسرطان، عاش كريما نبيلا حتى آخر يوم من حياته . .

تلقت أسرتى خبر زواج ملك بوجوم، وتضاعف شعورهن بالذنب فازداد البيت كآبة. وشهدت الزواج مع صديقى العريس وهنأت ملك. كأن ما كان لم يكن. وعجبت للعواطف وخداعها العابث. ولأوهام الصبا وأحلام الشباب. وغثاثة الواقع وصدقه ومرارته. وعلى أى حال فعلى يوسف شخص ممتاز، ودخله من المحاماة يفوق دخلى من الوظيفة عشر مرات. وقد هيأ لملك حياة ناعمة وربى ابنيه أحسن تربية وتاه بتفوقهما. أجل أزعجه نشاطهما السياسى لا لمخالفته لميوله الوفدية فحسب، ولكن للخطر المهدد لأمنهما من ناحية الحكومة. ولعله سعد بهجرتهما إلى السعودية ولكنه سرعان ما عذبه الشوق الدائم لهما وبخاصة وأنه كان فياض الأبوه. وهيهات أن أنسى حربه القصيرة مع سرطان المثانة، ولا عذاب أيامه الأخيرة، ولا رحيله الذى خلف وراءه فراغا فى قلبى لا يملأ بحال من الأحوال. ولم يكن لى من عزاء تلك الأيام إلا فى تقدمى فى الوزارة وعلاقتى السرية بأم عبده، وسلمت بالواقع المتجسد فى نسوة ثلاث متوترات الأعصاب منعمات بالسخط كأنهن الرمز الحى للزمن الموغل دوما فى الغلاء والتناقضات وسوء الحال. وعقب قيام الثورة ساءت صحة أمى وتدهورت الحال النفسية لأختى زينب فدهمتنى مصروفات جديدة للعلاج والدواء. واعتدت العزوبة ولازمتنى تطلعاتى القديمة نحو الزواج والإنجاب كحلم حزين دائم لا سبيل إلى تحقيقه. وجعلت أتساءل فى ضيق متى يتاح لى التخلص من هذا الكهف الملىء بالنفايات. وربما أحزننى وسرنى معا استباقهن إلى خدمتى وتوفير الراحلة لى. ليست هذه الراحة العفنة هى ما أنشد. إنهن يكبلننى بالحديد والعمر ينطلق ساخرا. وكانت أم عبده أولى الراحلات، أما أمى وفكرية وزينب فلم يرحلن إلا فى آخر عام لى فى الخدمة. سبقت أمى فى قمة الشيخوخة، وتبعتها بعد أشهر فكرية فى السبعين، ثم زينب فى الثامنة والستين. وكل جنازة كلفتنى الشىء الفلانى حتى اضطررت إلى الاقتراض، ثم وجدت نفسى وحيدا فى الستين فى عالم جن جنونه وانقلبت موازينه وأصبحت الليمونة فيه بعشرة قروش ويقول لى حمادة الطرطوشى:

ـ لن أسمح لك بالاستسلام لليأس، إن يكن مسكنك كريها فثمة آلاف من سكان

المدافن يحسدونك، بيدك أيضا أن تعمل فى شركة استثمار وتحسن مرتبك، وتوجد سيدة وحيدة مثلك فلم لا تزورها؟

ويقول الرجل أيضا وهو يضحك:

ـ صحتك والحمد لله ممتازة، وخواطرك الجنسية تبشر بكل خير . .

وقلت له ذات مساء:

ـ قررت التحدى والقيام بالمغامرة.

فهنأنى العجوز على شجاعتى. وضاع أكثر يومى الثانى فى الاستعداد للمساء. حلقت شعر رأسى وذقنى. أسلمت جسدى للدش طويلا. ارتديت أحسن ما عندى من بنطلونات وقمصان، انتظرت المساء طلبا للستر ثم عبرت الشارع العمومى للضفة الشرقية. خطر لى على يوسف. قلت إنه لم يخنى ولا أخونه وقلت أيضا لنفسى إنه لعار أن يرتبك شخص فى مثل سنى. وقفت أمام باب الشقة فى الدور الثالث فى ظلام تام ضغطت على الجرس. سمعت أقداما آتية، وفتحت الشراعة، وتساءل الصوت القديم:

ـ من؟

أضاءت المصابيح فى أعلى الباب فتجلى وجهى. لم تصدق عينيها.

هتفت:

ـ أنت!

فتحت الباب. وضح تلعثم حالها. أشارت إلى حجرة إلى يمين الداخل هامسة:

ـ تفضل.

ذهبت وبقيت بمفردى واقفا. الجو خانق. فتحت نافذة تطل على الشارع. نفس حجرة الاستقبال القديمة ولكن الأثاث جديد وعصرى هل أندم على هذه الخطوة؟ لعلها الآن تغير ملابس البيت. لم أرها من قريب منذ زمن طويل طويل. وقع الأقدام من جديد. رجعت مطوقة الرأس بمنديل أبيض، فى فستان صيفى لبنى لكنه محتشم، لا يكشف إلا عن ساعديها وأسفل ساقيها. تساءلت وهى واقفة:

ـ تشرب قهوة؟ . . عندى عصير برتقال أيضا.

ـ لا داعى للكلفة والتعب . .

ذهبت. بقيت صورتها. امتلأ الوجه أكثر من الماضى ولكنه متماسك ولا أثر للتجاعيد فيه، حلت الرزانة محل ماء الشباب، ولكنه وجه مقبول. ترى هل شاب شعرها؟ أما الجسم فقد امتلأ، بينه وبين البدانة خيط لا بأس. وهو داخل الفستان مثير. إى والله مثير. انهالت على أحلامى الجنسية كشلال. آه لو أضمها إلى صدرى ونتذاوب

كما فعلنا كثيرا فى الماضى المليح. ولكن حذار فأنت لا تدرى شيئا عما يعتلج فى باطنها. ربما أقامت واستقرت فى وادى الأمومة والطهر. تمالك نفسك وتجنب الخطأ. رجعت بصينية فضية صغيرة عليها قارورة، ووضعتها فوق خوان من الخشب المطعم بالصدف، ونقلته أمام مقعدى. قلت لها:

ـ أتعبتك. اجلسى وارتاحى.

جلست على فوتيه فى الجناح المواجه لى، وفى تلك اللحظة انتهبت إلى صورة الزفاف المثبتة فى الجدار فوقها، وعلى جانبيها صورتان، الأولى لعلى يوسف والأخرى لابنيها فى زى العرب. هبت على عواطفى دفقة باردة وازدادت مهمتى عسرا.

ـ خطوة عزيزة، تذكرت أخيرا أهلك!

فقلت بأسف:

ـ هى الحياة كما تعلمين، ولكننى قلت إنه غير معقول أن نكون فى حى واحد ونعيش كالغرباء!

ـ أهلا بك، هل ما زلت تعمل فى الوزارة؟

ـ تقاعدت منذ أيام أو منذ ساعات!

ـ ربنا يطول عمرك، ألا يوجد من يخدمك؟

قلت ضاحكا:

ـ أعيش وحيدا مع الجدران القديمة.

ـ وأنا مثلك لولا امرأة بنت حلال تزورنى مرة كل أسبوع أمينة وماهرة.

ـ يخيل إلى أنك لا تغادرين البيت أبدا؟

ـ لا أخرج إلا كل حين ومين ولأسباب قهرية.

ـ الوحدة قاسية، لدى المقهى والصديق، ولكنها قاسية جدا.

فقالت بتسليم:

ـ عندى التلفزيون وجارة أو جارتان.

ـ هذا لا يكفى.

ـ أفضل من عدمه!

ـ وكيف حال ابنيك؟

ـ عال، استقرا هناك إلى الأبد، أصبح لى أحفاد، هى قسمتى على أى حال.

نطقت بها بأسى واضح فسألتها:

ـ ألم تسافرى إليهما؟

ـ مرة، وأديت العمرة . .

قلت وقلبى يمعن فى تراجعه :

ـ مبارك يا حاجة .

ـ عقبالك .

ثم مواصلة :

ـ إن عزمت يوما فستجدهما فى انتظارك .

ـ كل شيء بمشيئة الله، وكيف صحتك؟

ـ كيف صحتك أنت؟

ـ على أحسن ما يكون والحمد لله .

ـ وأنا كذلك ولكنى ركبت طاقم أسنان .

ـ هذا مفيد للصحة فى ذاته . .

ـ نسأل الله حسن الختام .

فقلت بحماس :

ـ أمامك عمر مديد بإذن الله، وإنى سعيد برؤيتك؟

ـ وأنا كذلك، ولو أننى كنت أتمنى ألا تكون وحيدا .

ـ أنت أيضا وحيدة .

فقالت بمودة :

ـ أعنى أنه كان يجب أن تكون لك زوجة وأولاد .

فقلت بأسف :

ـ القسمة والنصيب .

وأمسكنا، ربما لنسترد أنفاسنا . أفرغت بقية القارورة فى جوفى وغرقت فى العرق . فارق كبير بين الحقيقة والخيال . تصورت أننى سأوجه الحوار إلى الهدف دون صعوبة، وأننى سأثب إلى جانبها مثقلا بأشواق العمر، وأنه وأنه وأنه . وهذا مناخ الجلسة ينضح بالجدية والأدب، والسيدة مصونة لا تسمح بقدح شرارة عبث . وهذه الصور المطلة علينا تشاركنا الاجتماع وتصد عنه النزق بل وتغرقه فى الحزن . ترى فيم تفكر؟! ألم ترد على خاطرها ولو صورة فاتنة واحدة من الماضى الجميل؟ هل تهيمن على خواطرها كما تهيمن على سلوكها؟ . . أود أن تطالعنى العينان بلمحة تذكر، أو مداعبة، أو حياء عابر، أو ظل ابتسامة تتعدد التفسيرات لها . لكنى لا أرى إلا نظرة رزينة، نظرة قريبة لقريب تلاقيا فى شيخوخة العمر . هل انتهت ملك وجفت ينابيعها؟ . على أى حال لن أغادر الشقة بجعبة

خاوية إلا من الفشل . ولن أسمح للجبن بأن يحملنى الندم إلى آخر البقية من العمر . قذفت إلى الماء متسائلا :

ـ هل يضايقك أن نخفف من وحدتنا بالزيارة من حين لآخر؟

فقالت بهدوء :

ـ أهلا بك .

ثم مع تردد واضح :

ـ ولكن . .

أدركت ما تضمر فقلت :

ـ نحن أقارب ولنا من عمرنا ما يصد عنا الكلام .

فلاذت بالصمت فقلت يائسا :

ـ إذن لا توافقين على الزيارة!

قالت بسرعة :

ـ لم أقل هذا .

ـ لعلك توصين بالانضباط؟

ـ هذا ما يجدر بنا أن نفكر فيه .

ـ أود أن أعرف رأيك بكل صراحة .

ـ لو عندى رأى آخر لصارحتك به .

فقلت بحرارة :

ـ أنا فى أشد الحاجة إلى الزيارة ، وحدتى لا تطاق وليس لى غيرك كما تعلمين ، وطالما فكرت فى ذلك ومنذ زمن طويل . .

لعلها ابتسمت ولكن وجهها تورد يقينا وهمست :

ـ أنا فاهمة ومجربة .

فقلت بشجاعة متصاعدة :

ـ إذن فكلانا فى حاجة إليها!

فضحكت وآثرت الصمت . وشعرت بأننا انتقلنا من عصر إلى عصر فقلت :

ـ الوحدة مرة ، والحياة مرة ، أتطلع إلى شىء جديد ، أنت جددت أثاثك . .

ـ شقتى تجددت تماما ، المرحوم ترك لى مبلغا لا بأس به ، وحيد أهدانى حجرة نوم جديدة ، وبكر حجرة للاستقبال ، واشتريت أنا حجرة سفرة .

ـ والغلاء؟

ـ المعاش لا يجدى ولكن وحيد وبكر يمدانني بما أحتاج إليه، ماذا تفعل أنت؟

ـ يدى دائما على قلبى، ولا أحد يهتم بالمتقاعدين، ولكن أفكر فى بدء حياة جديدة!

ـ بعد التقاعد؟

ـ صحتى على ما يرام، ولدى مهارة فى اللغة الإنجليزية وخبرة فى الأعمال الإدارية، وسوف أجرب حظى فى إحدى شركات الاستثمار . .

ـ مرتباتهم كبيرة .

ـ وأملى كبير جدا .

ـ فكرة جميلة .

ـ يسرنى أنك تشجعيننى . .

ورجعنا إلى الصمت فرأيت من المناسب إنهاء الزيارة . قلت :

ـ آن لى أن أذهب .

وكالعادة دعتنى للبقاء مجاملة ولكننى وقفت ومددت يدى للمصافحة . تمشيت فى الهواء الساكن متلهفا على نسمة من نسائم الصيف . إذا كان الخيال لم يتحقق فإنه أيضا لم يتلاش . ومضيت إلى مقهى النجاح بروح جديدة . ولما رآنى حمادة الطرطوشى مقبلا ابتسمت أساريره وقال :

ـ رجعت إلى شبابك، لم أرك كاليوم أبدا . .

وجعلت أعيد على مسمعه ما دار بينى وبينها واجدا فى ذلك سعادة جديدة . وعلق الرجل قائلا :

ـ أنا متفائل، وأنت؟

فتفكرت قليلا ثم قلت :

ـ بنسبة ٥٠٪ .

ـ لا، أكثر من ذلك .

ـ حقا .

ـ كان بوسعها أن تجعل من الزيارة الأولى والأخيرة . .

ـ لا شك فى ذلك . .

ـ ولا أظن أنه غاب عنها مقصدك . .

ـ أتمنى ذلك .

ـ صدقنى، أنا أدرى بالنساء منك، ولكن هل وجدتها حقا صالحة؟

فقلت بحماس:

ـ أؤكد لك أنها ما زالت جذابة . .

فقال الرجل وهو يضحك:

ـ على سبيل الحيطة لا تتمادى فى التفاؤل، المظهر فى مثل سنها غير المخبر، قد يبدو الجسم مغريا داخل الفستان، ولكن إذا عرى تجلت به ثغرات وحفر مثل شوارع هذه الأيام، لذلك أنصحك إذا وفقت إلى ما تريد أن تمارس حبك فى الظلام!

ولم أتمالك فى الضحك طويلا ثم قلت له:

ـ المهم أن أوفق أولا . .

لدى عودتى إلى شقتى أطبقت على الكآبة. تضاعفت كراهيتى لها وتمنيت لها النار. باتت الرغبة فى التغيير قوة قاهرة لا تقاوم، وفترت متعتى بالمقهى والتلفزيون فى الأيام التالية. الزيارة هى الأمل الباقى الوحيد. تكرارها بعد أسبوع قليل، بعد شهر غير محتمل، فلتكن بعد أسبوعين. فى أثناء ذلك عرفت أن شركة جنرال إليكتريك فى حاجة إلى وظيفة فى فرع منها يقوم بمشروع لبناء محطة مياه مشروع مؤقت مدته ثلاثة أعوام ولكن المرتب ٤٠٠ج. م غير بدل الانتقال. وقدمت للامتحان. ووقع الاختيار على فتاة ولكن المدير عرض على وظيفة فى العلاقات العامة بثلاثمائة جنيه، قبلت وأنا فى منتهى السعادة. لم أتمكن فى نطاق دخلى الجديد من الانتقال إلى حى جديد ولكن الغذاء والكساء سيقفزان قفزة خيالية. وانتظرت أسبوعين ثم مضيت فى ميعاد الستر إلى بيت حبيبتى. الصبر نفد، والشوق تأجج واشتعل، والعزيمة صممت. أقنعت نفسى بأن الشيخ لا يجوز أن يتعلثم كصبى أو يخجل كمراهق. ولما فتحت لى حجرة الاستقبال رجوت أن نجلس فى حجرة المعيشة، استزادة من الألفة فى الظاهر وهربا من الصور فى الحقيقة. وقلت لها بصدق:

ـ حياتى بفضلك أصبحت مما أغبط عليه.

فابتسمت قائلة:

ـ لا تبالغ . .

فقلت بارتياح:

ـ التحقت بشركة جنرال إليكتريك . .

ـ مبارك.

وحكيت لها عن المرتب وكل شىء وقلت:

ـ يمكننى الآن أن أحقق هدفى . .

وبدت أنها لم تفهم مقصدى فقالت :

ـ إن كنت تروم شقة جديدة فأشك فى تحقيق هدفك .

فقلت بجرأة :

ـ هدفى أهم من الشقة؟

ـ حقا؟ !

ـ إنى أفكر جادا فى الزواج . .

خيل إلى أنها أجهضت دهشة بلباقة وتمتمت :

ـ الزواج !

فقلت بثقة :

ـ إنى على أتم ما يكون من الصحة . .

فابتسمت فى ارتباك وقالت :

ـ ربنا يزيدك صحة وعافية .

ـ وددت أن أعرف رأيك؟

ـ لم لا ، مثلك يتزوجون ، وأكبر منك أيضا . .

ـ هذا ما قلته لنفسى .

فقالت بشىء من المرح :

ـ دعنى أبحث لك عن زوجة مناسبة .

ـ ما الزوجة المناسبة؟

ـ لعلها سيدة عاقلة لا تقل عن الأربعين .

ـ ستكون فى تلك الحال أرملة أو مطلقة .

ـ وما المانع؟

ـ ولها أولاد ، وربما فى سن الحضانة . .

ـ لابد من الرضا بالواقع المتاح . .

فركزت بصرى الثمل فى عينيها الحائرتين وقلت :

ـ إنى أعرف من أريد ولا حاجة إلى البحث .

فتساءلت وهى تغوص فى الحصار :

ـ ماذا تعنى؟

فقلت باستسلام وضراعة :

ـ ملك ، أنت الزوجة التى أريد .

غضت بصرها وقطبت دون أن تنبس فرجعت أسأل فى إلحاح :

ـ ما رأيك؟

ـ أهذا ما رجعت من أجله؟

ـ أى نعم .

ـ يا للفضيحة .

ـ الفضيحة .

ـ لا أدرى ماذا أقول . .

ـ إنه مطلب طبيعى ولا فضيحة فيه على الإطلاق . .

فقالت بصوت متهدج :

ـ الزواج لا يمكن أن يخطر لى ببال .

ـ دعيه يخطر ، كان أعز أمانينا . .

فقالت وهى من الحياء فى ضيق شديد :

ـ ذاك تاريخ مضى وانقضى ونسى . .

فقلت بحرارة :

ـ إنه يعيش معى الآن بكل قوة .

ـ أنت لا تدرك معنى ما تقول . الوحدة أطاحت بالحكمة ، وسيتمخض الحلم عن لا شىء . .

ـ إنى أعرف ما أريد .

فقالت بانفعال شديد :

ـ لا . . لن أسمح بفضيحة . .

ـ لماذا ترددين هذه الكلمة القبيحة؟

ـ هى الحقيقة ، أنت تتناسى أننى أم وجدة .

فقلت بضراعة :

ـ الدهشة تعيش ساعة واحدة ثم يلوذ الإنسان بسعادته . .

فغضت بصرها فى أسى وهمست :

ـ لا تحرمنى من سكينة القلب . .

خيل إلى أنها انقلبت فى نقاشها امرأة لا أما أو وجدة أو قريبة فحسب. انتفضت قائمًا وخطوت نحوها لأجلس إلى جانبها كالزمان الأول، ولكنها وثبت هاربة وهى تهتف بجفاء:

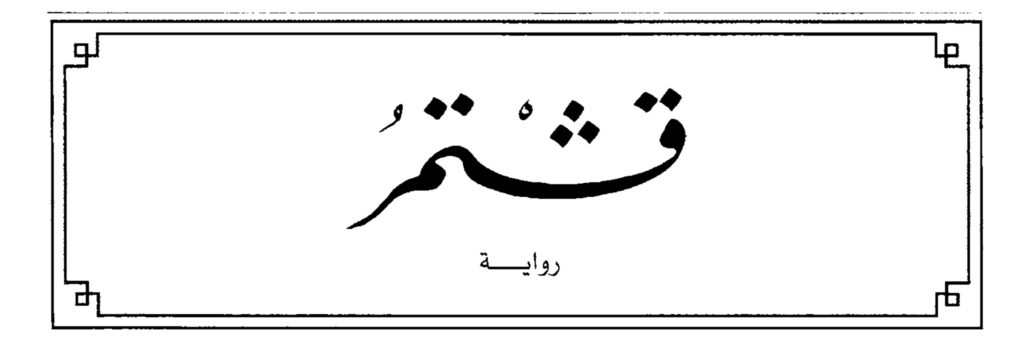
ـ لا تلمسنى.

كأنما تلقيت لطمة. تجمدت لحظات. فى غاية من الانهيار واليأس، ثم همست وأنا أتحرك:

ـ أستودعك الله..

لم أذهب إلى المقهى. لم أرجع إلى البيت. سرت طويلا على غير هدى. استرحت قليلا فى بعض مقاهى الأطراف. عدت إلى مقبرتى مع الفجر. فى اليوم التالى، وأنا فى طريقى المألوف إلى مقهى النجاح، رفعت عينى إلى شرفة مسكنها. وإذا بها تقف فوق عتبة الشرفة وكأنها تنظر نحوى. وبدافع الأدب والمجاملة أحنيت رأسى تحية فإذا بها تلوح بيدها محيية. خفق القلب وتسمرت القدمان. ماذا تعنى يا ترى؟. وفتحت مصراعى النافذة وتراجعت قليلا ثم لوحت بيدها مرة أخرى واختفت. فسرت الإشارة على هواى. وعبرت الشارع نحو العمارة يستخفنى طرب غامر. لم أبال هذه المرة بانتظار المساء.

(تمت)



العباسية فى شبابها المنطوى. واحة فى قلب صحراء مترامية. فى شرقيها تقوم السرايات كالقلاع وفى غربيها تتجاور البيوت الصغيرة مزهوة بجدتها وحدائقها الخلفية. تكتنفها من أكثر من ناحية حقول الخضر والنخيل والحناء وغابات التين الشوكى. يشملها هدوء عذب وسكينة سابغة لولا أزيز الترام الأبيض بين الحين والحين فى مسيرته الدائبة ما بين مصر الجديدة والعتبة الخضراء. ويهب عليها هواء الصحراء الجاف فيستعير من الحقول أطيابها مثيرا فى الصدور حبها المكنون. ولكن عند الأصيل يطوف بشوارعها عازف الرباب المتسول بجلباب على اللحم، حافيا جاحظ العينين، يشدو بصوت أجش لا يخلو من تأثير نافذ:

آمـــنت لـك يـا دهـــر ورجـــعت خـنتنـــــى

* * *

بدأ التعارف عام ١٩١٥ فى فناء مدرسة البرامونى الأولية. دخلوها فى الخامسة وغادروها فى التاسعة. ولدوا عام ١٩١٠ فى أشهر مختلفة، لم يبارحوا حيهم حتى اليوم، وسيدفنون فى قرافة باب النصر. تضخمت جماعتهم بمن انضم إليهم من الجيران، جاوزوا العشرين عدا، ولكن ذهب من ذهب بالانتقال من الحى أو بالموت، وبقى خمسة لا يفترقون ولا تهن أواصرهم، هؤلاء الأربعة والراوى. التحموا بتجانس روحى صمد للأحداث والزمن، حتى التفاوت الطبقى لم ينل منه. إنها الصداقة فى كمالها وأبديتها. والخمسة واحد والواحد خمسة، منذ الطفولة الخضراء وحتى الشيخوخة المتهاوية، حتى الموت. اثنان منهم من العباسية الشرقية واثنان من الغربية، الراوى أيضا من الغربية ولكنه خارج الموضوع. وتتغير المصائر وتتفاوت الحظوظ ولكن تظل العباسية حيِّنا وقشتمر مقهانا، وفى أركانه تسجلت أصواتنا مخلدة البسمات والدموع وخفقات لا حصر لها من قلب مصر.

* * *

قبل أن نهتدى إلى قشتمر جمعتنا الشوارع وميدان المستشفى والنخلة الرشيقة بحقل

عم إبراهيم الممتد بين شارع مختار باشا من ناحية وبين الجناين من الناحية الأخرى. تطل عليه الحدائق الخلفية لمساكن كثيرة فى العباسية الغربية، ويمدنا بما نحتاج من خضر، فى جنوبه تقع غابة التين الشوكى وفى شماله ناحية الوايلية تدور الساقية التى ترويه وتنتشر حولها أشجار الحناء زافرة شذاها الطيب. فى العطلات الأسبوعية والصيفية نجلس تحت النخلة المغروسة فى وسطه، تسيل أفواهنا بالحقائق والأساطير. ودل كل واحد على مسكنه لتتم المعرفة به فرأينا بيت صادق صفوان ببين الجناين، وبيت إسماعيل قدرى سليمان بشارع حسن عيد وسراى حمادة يسرى الحلوانى بميدان المستشفى وفيللا طاهر عبيد الأرملاوى ببين السرايات. وأعجب صادق وإسماعيل بالسرايتين، وتأملا حديقتيهما بانبهار، وثمل رأساهما بالفخر وهما يعلنان صداقتهما باثنين من أولاد الذوات. وفى أوقات السمر تنهمر المعلومات عن الدنيا والآخرة.

يقول صادق صفوان النادى:

- بابا موظف بالأوقاف، ونينة ماهرة فى كل شىء!

ونرى صفوان أفندى النادى فيجذب اهتمامنا من أول لحظة. نحيل الجسم مائل إلى القصر ولكنه ذو شارب غزير طويل لم نر مثله من قبل. مع التقدم فى العمر يصير شارب صَفوان أفندى موضوعا مغريا بالتعليقات والقفش والتنكيت ويشاركنا صادق الضحك من أعماق قلبه رغم ما يكنه لوالده من حب واحترام. أما الأم تيزة زهرانة كريم فصادفتنا مرات فى الشارع فى تزييرتها السوداء، ومن وراء البيشة.. تحذرنا من الترام ونحن نعبر الطريق. وتدعو لنا بالسلامة. وصادق مؤدب مهذب، ويصلى، وسوف يصوم عندما يبلغ السابعة، ولكنه لا إخوة له ولا أخوات، بسبب مرض أصاب أمه عقب ولادته. هو وحيد الأسرة وأملها الباقى، ونشعر كثيرا بأنه موضع الرعاية والعناية. غير أن أباه الحصيف يقول له كثيرا «يا صادق، اجتهد، أبوك لا يملك شيئًا ليتركه لك، فاجعل الشهادة وسيلتك إلى الوظيفة». ودب تغير عميق فى روح صادق منذ طرق عالم قريب لهم هو رأفت باشا الزين. صحبه أبوه معه إلى زيارة ابن عمه الباشا بسراياه فى بين السرايات غير بعيد من فيللا طاهر عبيد الأرملاوى صديقه. يقول صادق وهو يلهث:

- سراى ابن عم بابا مثل سرايا كم يا حمادة، حديقتها تقارب غيط عم إبراهيم فى وسعها، جامعة لأزهار الدنيا والآخرة، والسلاملك، والبهو الأزرق، وبهو السفرة، هائل.. هائل، والباشا فى غاية العظمة، وزبيدة هانم حرمه جميلة جمالا لا قبله ولابعده، وفى غاية الطيبة، يحبون أبى وأمى، كما لو أننا أغنياء مثلهم، ابنهم محمود أكبر منى بعامين، أما أميرة ابنتهم فهى أجمل من زبيدة هانم.. كل شىء يجنن!

بدأ حياته من صغار الأغنياء، وبفضل ثروة زبيدة هانم أنشأ أكبر مصنع للنحاس، ورزقه الله بالطول والعرض، ومد حباله إلى الكبراء والسادة الإنجليز ثم نال رتبة الباشوية. ويقول صادق:

- أهم شيء فى الدنيا أن تكون غنيا..

حب الثراء غرس فى قلبه فى سراى قريبه. ينعكس ذلك فى أحلامه أكثر مما ينعكس فى اجتهاده تلميذ متوسط كغالبية شلتنا. مسحور برأفت باشا وزبيدة هانم وأميرة التى تكبره بسبع سنوات. هم رموز للجنة ونعيمها. ويظل مثالا للمؤدب المؤمن، وتقدم الأعوام لا يقلل من حيائه، ولا تجرى على لسانه حكاية مكشوفة، وإذا جاء ذكر لبنت من البنات لاذ بالصمت أو راح يذكرنا بعذاب القبر وحساب الآخرة. ولمناسبة وفاة جده يقول بحيرة:

- نينة قالت لى إننا كلنا سنموت..

لا يتصور أن تموت أمه أو يموت أبوه. وليس فى قوله جديد فيما يبدو ولكن شعورهم آمن بأن الموت حتم مؤجل إلى أجل غير مسمى. كلنا نسلم بالموت بألسنتنا أما قلوبنا فترمى به إلى موضع فى الزمان قصى. وبين حين وآخر تمر بنا الجنازات فى طريقها إلى القرافة فنرنو إليها بغير اكتراث كأنها أحداث لا تعنينا. وتحت النخلة السامقة نلهو بشد الحبل، والتهام أطباق الدندورمة المصنوعة من البسكوت، وتقليد المدرسين فى أطوارهم الخارقة للمألوف. ولا نكون وحدنا دائما، فقد ينضم إلينا عشرة أو أكثر من أصدقاء الدرجة الثانية. فيهم نفر عرفوا بطول اللسان أو الخشونة أو حب العنف والأذى، ولكنه يبقى الأساس كنواة صلبة لا يسمح لغريب باختراقها. ويدعونا صادق إلى وليمة غداء فيقدم لنا طعمية لذيذة وكفتة فاخرة وتشكيلة من السلطات ثم طبقا من البرتقال اليافاوى. وتمطر السماء فى جو بارد فنتأخر فى بيته الصغير ببين الجناين حتى العصر. ويرد حمادة يسرى الحلوانى التحية فيدعونا للغداء فى السرايا بميدان المستشفى. تستقبلنا الحديقة المترامية بروائحها الطيبة وخضرتها المغسولة المشرقة. نمضى إلى بيت صغير مستقل بذاته فى الحديقة مكون من حجرتين وشرفة ومرافق. ثمة نافذة مفتوحة على الحديقة تتحرك الأغصان خارجها كالمراوح. تنتشر فى الأركان على قوائم خشبية أوراق عريضة مصمغة لصيد الذباب. أما الغداء فشواء وضلمة وسلطات ومهلبية. يتسابقون فى الأكل كشد الحبل دون كلفة. يتريضون بعد الغداء فى مماشى الحديقة. يرون «توفيق» شقيق حمادة الذى يكبره بأعوام ينطلق فوق دراجة خضراء، ويلمحون أفكار الشقيقة الكبرى بنت العشرين فى إحدى نوافذ القلعة. زيارة سعيدة لم يلم بها شيء من الارتباك إلا حين رأينا أدوات الطعام - الملعقة والشوكة والسكين - منظومة حول الطبق. ولكن إسماعيل قدرى سليمان بدد الارتباك حين قال:

ـ نحن لا نستعمل إلا الملعقة واليد!

وكان مما يحمده صادق لآل الزين باشا أن الباشا والهانم يأكلان كما يأكل والداه مجاملة ومحبة، ولم يكن يستعمل الأدوات إلا محمود وأميرة. يقول صادق:

ـ ناس طيبون حقا، كأنهم منا أو كأننا منهم، وزبيدة هانم تحب الفسيخ وتطالب أبى بهدية منه، ونينة تخبرها بأن لذته لا تتم إلا بتناول البصل، فأكلت الفسيخ بالبصل..

يروى الواقعة وكأنها معجزة فى العلاقات البشرية. على ذاك فهو أجمل شلتنا. معتدل القامة ذو بشرة تميل إلى البياض، دقيق القسمات ذو عينين سوداوين جميلتين وشعر أسود ناعم.

* * *

ونعرف الشيء الكثير عن حمادة يسرى الحلوانى وأسرته. نشأة ملكية فى السراى. الباشا صاحب أكبر مصنع للحلاوة الطحينية فى القطر. حلاوة أرق من الهواء محشوة بالفستق، وفى السرايا مكتبة هائلة وإن لم يتسع وقته للقراءة. رجل مال وأعمال. رأيناه كثيرا فى سيارته الفورد، ربعة بدينا مبروم الشارب خمرى اللون تشع منه العظمة كما رأينا حرمه عفيفة هانم بدرالدين، صورتها مقبولة ولكن فخامتها تفوق جمالها.

ـ بابا مشغول دائما، ماما شديدة وتحب أن تطاع، أختى تربت فى الميردى دييه واختارت لها ماما خطيبا غنيا، وأخى توفيق يرضيها باجتهاده، أما أنا فلا تكف عن لومى ومحاسبتى وتكرر على مسمعى بأنه لا قيمة للمال بدون العلم والمركز..

ويسأله إسماعيل قدرى:

ـ ولم لا تجتهد؟

ـ أحب أن أقلب صفحات الكتب فى مكتبة بابا وأتفرج على الصور.

ـ ألا تحب أن تكون مثل أبيك؟

ـ كلا، يأخذنا ـ أنا وأخى ـ إلى المصنع، أخى يهتم بكل شيء وأنا أتثاءب..

فيسأله صادق صفوان:

ـ ماذا تريد أن تكون؟

ـ لا أدرى..

العلاقة بينه وبين أسرته متوترة باستثناء أفكار أخته التى يحبها ويقول بحسرة:

ـ ها هى تستعد لفراقنا..

أبوه يطالبه بالاهتمام بمستقبله فى المصنع وأمه لا تكف عن لومه وأخوه يسخر من كسله. وقد مارس الصلاة فترة ثم تهرب من التزاماتها.. قال:

ـ لا يواظب على الصلاة إلا أبى . .

ويسأله صادق :

ـ وماما؟

ـ لا تصلى . . ولا تصوم . . ماذا عن حرم رأفت باشا؟

فابتسم صادق وقال :

ـ مثل مامتك رغم طيبتها المتناهية . .

ويغيب عنا شهرا كاملا فى الصيف عندما تسافر الأسرة إلى رأس البر للاصطياف . إنهم أصلا من دمياط والاصطياف فى رأس البر تقليد دمياطى ويحدثنا عن عشتهم وموج البحر، حتى يسأله إسماعيل قدرى :

ـ هل حقيقى أن موج البحر يعلو كالجبال؟

ـ وأكثر . والأهم من ذلك أن ترى التقاء النيل بالبحر .

إنه يفتن أخيلة صبية لا يبرحون القاهرة على طول العام، حتى آل الأرملاوى يقضون عطلة قصيرة فى الريف . . وحمادة عميق السمرة، يبشر نموه بقامة طويلة، رأسه كبير فيه نبل واحترام، ملامحه مقبولة ويمتاز بنظرة هادئة . وفى نهاية المرحلة الأولية وسنه تقترب من التاسعة مرض بالتيفود . وعزل فى حجرة خاصة بالسراى . كنا نزور السراى ولا يسمح لنا بدخول حجرته . غاب عنا شهرا ثم رجع إلينا كالخيال . وحدثنا عن مرضه طويلا، كيف منع عنه الطعام دون أن تريده نفسه، وكيف عضه الجوع فى فترة النقاهة وحيل بينه وبين الشبع حتى أوشك أن يفقد وعيه، وكيف كشف له المرض عن حب الجميع له . ويقول متفلسفا :

ـ أصل البلوى كلها ذبابة!

وحتى فى تلك السن المبكرة تخايلت لأعيننا أهداف عن مستقبل بعيد، إلا حمادة بدا غامضا لا نعرف له هدفا .

* * *

طاهر عبيد الأرملاوى من أحب الشخصيات إلى قلوبنا لخفة روحه وبساطته وميله إلى البدانة، وهو أسمر وملامحه شعبية ولكن جاذبيته لا تقاوم . يقول :

ـ أنا تعبان لأنى وحيد والديه .

ـ ولكنّ لك شقيقتين؟

ـ أنا الولد الوحيد، بابا مصمم على أن يجعل منى طبيب مصر الأول . . وماما تصر على تعليمى الفرنسية من الآن . .

فيللا الدكتور عبيد الأرملاوى باشا غاية فى الأناقة رغم أنها دون السرايات ضخامة. والدكتور الباشا مدير للمعامل بوزارة الصحة وحاصل على الدكتوراه من النمسا، تراه والحاجب يفتح له باب السيارة يتهادى فى جلال الميرى وأناقة الروح الأوروبية. يلوح دائما فى القمة رغم أن ثراءه دون الحلوانى أو الزين، وبيننا وبينه بعد يجعله بمعزل عنا. ولم يرحب أبدا باختلاط ابنه بأبناء العباسية الغربية ولكن طاهر صارحه بأنه لا يمكن أن يقطع ما بينه وبين أصحابه. وإنصاف هانم القللى أم صديقنا ليست مجرد خريجة فى الميردى دييه مثل والدة حمادة، إنها أيضا مثقفة وقارئة وذات عقل ممتاز، وبفضلها كملت مكتبة الباشا العلمية بثمار الفكر والأدب. واتفق رأيا الباشا والهانم على أن يجعلا من طاهر شخصا رفيع المقام.

وتسأله الهانم مرة:

ـ ما أحب المواد الدراسية إليك؟

فيجيب بصراحة معهودة:

ـ المحفوظات.. مثل:

أيها الطائر أهلا بمحياك وسهلا

حتى فى تلك السن المبكرة بدأ يحب الشعر ويحفظه. وربما وجد شعرا فى مجلة مما يوجد فى الفيللا فيسأل مامته أن تشرحه له ثم سرعان ما يحفظه. ويسعد الباشا بذلك ويقول لحرمه:

ـ الولد ذكى وسيكون طبيبا مدهشا..

وعرف طاهر دينه لأول مرة فى مدرسة البرامونى. لا ذكر للدين فى فيللا الأرملاوى، لا بخير ولا بشر، ولا ممارسة لأى شعيرة، ورمضان والأعياد تكون شهورا دينية إلا بين الخدم. ورغم حصة الدين وتدين صادق صفوان فيمكن القول بأن طاهر نشأ نشأة وثنية أو لا دينية مجردة. وتحية وهيام شقيقتاه كانتا تماثلانه فى ذلك، ولكنه يقول عنهما:

ـ لهما صديقات كالأقمار يزرنهما ويجلسن معهما فى الحديقة.. كالأقمار..!

ويتسلل إلى مجلسهن مسوقا برغبة مبهمة، ويتلقى المداعبات كالورود، وتنفجر فى أعماقه مسرة بريئة وجامحة مفصحة عن انفعاله الأول بالجنس الآخر. وفى عام من الأعوام دعيت الأسرة لقضاء أسبوعين بالإسكندرية عند خالته، فسمعنا عن الإسكندرية كما سمعنا من قبل عن رأس البر. واستحم فى الحمام الخاص بالنساء فى سان استفانو مع مامته وشقيقتيه ودهش لمنظر الهوانم فى أردية البحر التى تشبه قمصان النوم، وقال لنا ضاحكا:

ـ مثل الأبقار أو أضخم!

مامته إنصاف هانم القللى متوسطة العود، خارجة عن تقاليد عصرها التى ترى فى البدانة رمزًا للجمال فى عالمى النساء والرجال معا. ولكن بدا لنا أن شغفه الأول بالمحفوظات التى كان يرددها تحت النخلة فى غيط عم إبراهيم. وفتن أيضا بالسينما ليلة ذهبنا إليها أول مرة فى عيد من الأعياد بدار عرض «المنظر الجميل» بالظاهر. الحق أنها فتنتنا جميعًا ولكنه جن بها جنونا. وضاعف من أشواقه أنه لم يكن يسمح لنا بمغادرة حدود العباسية إلا فى الأعياد، غير أن السينما احتلت موضعا هاما من حوارنا، ولعبت بخيالنا أيما لعب، وأصبحت قرية رعاة البقر وطننا الثانى يخفق القلب لمرآها ويثور الحنين.

* * *

وأيضا فلإسماعيل قدرى سليمان حديثه تحت النخلة. إنه أسمر قوى الجسم ذو عينين عسليتين جميلتين وأنف كبير ونظرة ذكية. بيته صغير ذو حديقة خلفية بشارع حسن عيد، يشبه بيت صادق صفوان ببين الجناين. أبوه قدرى أفندى سليمان موظف بالسكك الحديدية يكاد يماثل ابنه فى الشبه لولا بدانته. يقول عن أبيه:

ـ أبى يستقل أى قطار فى القطر من غير أن يقطع تذكرة.

ويقول عن أمه ست فتحية عسل:

ـ أمى لا مثيل لها فى صنع الكعك والفطائر..

له أربع أخوات سبقنه إلى الوجود، حظهن من التعليم وقف عند حد محو الأمية، وحجزن فى البيت لتأهيلهن لعمل ست البيت. كن متوسطات الجمال، بل الحق أن إسماعيل يعد أجمل منهن، ولكنهن تزوجن قبل أن يبلغن السادسة عشرة من موظفين صغار فى السكك الحديدية أيضا، وفى سبيل ذلك باع قدرى أفندى سليمان البيت الوحيد الذى كان يملكه فى باب الشعرية. وقال لابنه إسماعيل:

ـ أما أنت فمستقبلك بيدك..

ولم يخيب إسماعيل رجاء أبيه فهو أبرزنا فى المدرسة دون منازع. يذاكر ويحفظ ويتفوق ولا يشبع من ثناء المدرسين ولا من إعجابنا به. تتفق الآراء على أنه الفارس فى هذا الميدان. وهو ذكى لماح. عشق الدين كما عشق طاهر الشعر، يصلى مثل صادق وصام فى سن السابعة. ولا يكف عن تصور الله فى هيئة جليلة لا حدود لعظمتها. ويسأل المدرس حتى يضيق به المدرس ويأمره بالتسليم والطاعة. وإلى ذلك فتجاربه كثيرة ومسلية. يقول مباهيا:

ـ فى حديقتنا الصغيرة أزرع البصل، أسقى الزرع، أجمع العنب والجوافة، أصطاد الضفادع وأشق بطونها لأرى ما بداخلها . .

يسأله طاهر :

ـ تريد أن تكون طبيبا؟

ـ ربما . . لا أدرى بعد . .

وبشغفه الغامض اندفع يجرب الجراحة فى يد خادمة صغيرة فجرح كفها، وغضبت أمه غضبة عنيفة وهيأت له أنها ستفعل براحته مثلما فعل بالخادمة وهو يبكى ويتوسل، ولما رجع أبوه من عمله وعلم بالذى كان قيد قدميه وضربه بعصاه خمسا! ولعل ذلك كان ضمن الأسباب التى حولته عن التطلع للطب فيما بعد. ومن حكاياته المسلية ما يرويه عن زياراته لأخواته فى الأحياء الأخرى فيحكى لنا عن شبرا وروض الفرج والقبيسى والسيدة زينب. ودعى أبوه مرة لنزهة فى لونا بارك بمصر الجديدة فاصطحبه معه، فجن بها كما جن طاهر بالسينما، هوس وهوّسنا بالألعاب التى سحرته مثل القطار والقارب المتزحلق والغربال والمئذنة الحلزونية. أما مجد صباه الحقيقى فاستوى فوق سطح بيتهم الصغير. فوق السطح تربى الأرانب والدجاج وثمة حجرة للخزين، وهو يتطوع لتقديم الماء والغذاء وتفقد المواليد وجمع البيض، وتحت أمره إذا شاء فى حجرة الخزين السمن والمش والجبن والعسل الأسود، بالإضافة إلى جدار السطح الذى جعل منه لوحة طويلة عريضة للرسم، وفوقه السماء بطيورها ونجومها، وله من الوحدة أحيانا فرصة للغناء، وفرصة أجمل لدى استقبال بنات الأقارب والجيران. منذ ذلك العهد البعيد بدأ تجاربه مع الدين والجنس. يصلى فى ناحية، ويندمج فى لعبة العروس والعريس فى ناحية أخرى. وأمه تطمئن إلى تدينه. فلا تشك فى عبثه. ويسأله صادق صفوان :

ـ ألا تخاف من الله؟

يضحك، يرتبك، ولا يجيب. ذلك الصبى يتقدمنا فى كل شىء.

* * *

نجلس فوق النجيل عند أصل النخلة، حمادة وطاهر يرتديان قميصا وبنطلونا قصيرا، وصادق وإسماعيل فى جلبابين. عنايتنا بمظهرنا كاملة، حمادة وطاهر يمشطان شعرهما الطويل أما صادق وإسماعيل فيحلقان رأسيهما نمرة ٣. وبتأثير السينما شغلنا أنفسنا بتقوية أجسامنا وممارسة الألعاب الرياضية ومثلنا الأعلى فى ذلك بطل الفيلم «الشجيع» مثل توم مكس ووليم هارت وفير بانكس. وزعم كل منا أن أباه «بطل» واختلق له من الحكايات ما يثبت به ذلك مثل تغلبه على لص ضبطه فى البيت أو قهره لبلطجى تحدى الناس فى الطريق. ويحدث أن يتحرش بنا بعض الصبية فى الشوارع فنتصدى لهم

متشجعين بخيالنا وسرعان ما تجئ النتيجة مخيبة للآمال، فهؤلاء الصبية ينطحون بالرأس أو يضربون بالقباقيب. أما المودة فيما بيننا فهى صافية لا تشوبها شائبة. فى وقت انقسمنا فريقين بسبب السينما فتعصب فريق لماشست وآخر لفانتوم، واحتدام النقاش بيننا، وتكدر بعض الشىء صفونا، ولكن لم تبدر من أحدنا كلمة نابية أو إشارة متحدية. نحن مجموعة تثير الحسد فى صدور من حولنا من الأقران.

* * *

وفى عام ١٩١٨ تقدمنا لامتحان القبول فى مدرسة الحسينية الابتدائية بعد أن ختمنا الدراسة الأولية وبلغنا التاسعة من العمر. وقفنا فى فناء المدرسة ننتظر إعلان النتيجة آملين ألا يفرق بيننا الدهر. ونجحنا والحمد لله. نجح إسماعيل قدرى بتفوق، وصادق وحمادة مرا بسلام، وعبر طاهر بفضل اسم أبيه الدكتور عبيد الأرملاوى ولتقارب أعمارنا جمعنا فصل واحد هو أولى رابع الذى اختص بأصغر المتقدمين سنا. ووزعوا علينا الكتب الجديدة فحملناها ـ كلها ـ آخر النهار معنا لتنعم برؤيتها الأسر. والتحق إسماعيل بفريق الأشبال لكرة القدم ثم انقطع يأسا من الإتقان، وقدم صادق فى فريق التمثيل وسرعان ما تركه، أما حمادة فأراد الانضمام للكشافة ولكن الأسرة لم توافق. نلتقى فى فناء المدرسة للسمر السريع، أما خارج المدرسة فاقتصرت اللقيا على يومى الخميس والجمعة، فنذهب مساء الخميس إلى سينما المنظر الجميل ونقضى صباح الجمعة ـ إذا سمح الجو ـ عند أصل النخلة. وحافظ اجتهادنا على إيقاعه السابق، فلم يتأثر بالتفوق إلا إسماعيل قدرى سليمان.

وذات مرة قال لنا حمادة يسرى الحلوانى:

ـ سمعت بابا يتحدث عن رجال ثلاثة ذهبوا إلى الإنجليز يطالبون باستقلال مصر!

وتساءلنا عن معنى ذلك فقال حمادة:

ـ أى أن يخرج الإنجليز من مصر.

لعلنا لم نكن نعرف عن الإنجليز إلا أنهم جيراننا فى العباسية حيث تقوم ثكناتهم، وكثيرا ما نرى جنودهم فى الترام. ولأول مرة تنبض أسرنا بهذا الحديث الجديد. ووقعت واقعة فى مدرستنا نفسها. فى أعقاب ما عرف عن نفى الزعماء. المدرسة تجمع أجيالا متفاوتة فى العمر من التلاميذ دخلوها فى ظل أنظمة مختلفة. نحن أصغر الأجيال سنا ولكن يوجد تلاميذ فى السنة الرابعة بشوارب!. وذات صباح خرج من بين الصفوف تلميذ بشارب وصاح بصوت كالرعد «اضراب». وحصلت استجابة وهياج. وأمر الناظر أولى رابع بأن تذهب فى رعاية المدرسين إلى الفصل مستأذنا الثائرين فى استثنائهم من الإضراب لحداثة سنهم. وهدر الفناء بالخطب الحماسية، ثم تدفق التلاميذ إلى الخارج فى

مظاهرة عاصفة. أول درس عملى نتلقاه فى الوطنية. سرى إلى قلوبنا الحماس رغم الغموض والجهل بما يقع. فى بيوتنا سمعنا أصداء ما يحدث فى الخارج تتردد بحرارة. لأول مرة يلتقى الآباء والأبناء فى عاطفة متأججة واحدة. حتى الأمهات يصغين وينفعلن. أنباء المظاهرات يحملها إلى بيوتنا هواء ديسمبر البارد ولكننا نتلقاها دافئة بل ساخنة. ومصارع الشهداء تروى كالأساطير. دوريات الإنجليز تخترق شارعنا محمولة فى اللوريات مدججة بالسلاح. الهتافات تترامى إلينا من الحسينية جنوبا ومن الوايلية شمالا. سعد يحيا سعد، الاستقلال التام أو الموت الزؤام. وتذاع الأخبار فى منازلنا:

- قطعت المواصلات.

- المظاهرات فى كل مكان.. الفلاحون يحاربون..

زلزلت الأرض بغتة ولا تريد أن تسكت. تدفقت العواطف إلى قلوبنا لتخلقنا خلقا جديدا. اجتاح الحماس صادق وإسماعيل وحمادة، وطاهر لم يخل أيضا من حماس. المنشورات توزع فتؤجج النيران المشتعلة. وحدث فى حينا حدث عظيم يوم اعتقل يسرى باشا الحلوانى منضما بذلك إلى طليعة الأبطال. ونظرنا إلى حمادة بإكبار. ويقول حمادة:

- بيتنا حزين ولكنه فخور، لو حدث ذلك فى ظروف عادية لماتت ماما غما..

واحتجاجا على هدوء طاهر النسبى سألناه:

- ماذا عن والدك؟

فقال ضاحكا:

- بابا موظف، وهو من رجال السلطان، وهو مع ذلك مع الثورة ولكنه..

فيسأله حمادة:

- ولكنه ماذا؟

- له رأى خاص فى سعد! لا يعجبه تاريخه..

وقطبت الوجوه استياء فقال طاهر مخاطبا صادق:

- قريبك رأفت باشا الزين من رجال السلطان أيضا..

فقال صادق:

- هذا الموقف يخصه وحده ولا شأن لنا به!

وغطى الحماس والقتال والضحايا على مسيرة الحياة اليومية. انحصرنا نحن فى عالمنا الصغير بين البيت والمدرسة. وفى المدرسة أصبح حمادة شخصية محبوبة يشار إليها بوصفه ابنا لبطل معتقل. وفى الفصل تطوع كل مدرس لتلقيننا درسا فى التربية الوطنية

مستهينا بأمنه وسلامته ومستقبله. وبفضل أولئك المدرسين العظام عرفنا ما أخفى عنا من تاريخنا منذ الثورة العرابية، وعرفنا سعد كمثال للقوة والنضال والذكاء والنزاهة منذ شبابه الأول. وثملنا بما سمعنا وانبثت فينا روح الوطنية التى لم تنتزع من قلوبنا حتى اليوم. وذاق البلد أول طعم للنصر بالإفراج عن الزعماء المنفيين ثم شهد أعجب يوم فى تاريخه يوم عودة سعد. وأطلق سراح يسرى باشا الحلوانى فيمن أطلق سراحهم، وحيته جماهير العباسية والحسينية والوايلية لدى رجوعه إلى سراياه بميدان المستشفى. وبفضل صديقنا حمادة استطعنا أن نتخيل احتفال عودة سعد الذى شاهده من موضع حجز للأسرة فى فندق الكونتننتال. وشهدنا الأحداث تباعا، فطرأ الخلاف بين سعد وعدلى على وحدة الثورة، ووجدنا طاهر فى جانب وبقيتنا فى جانب آخر، كما اختلفنا سابقا حول ماشست وفانتوم، ولكننا ـ بخلاف الزعماء ـ حافظنا على مودتنا وصداقتنا الباقية.

* * *

وعلى حين يمضى البلد من كرب إلى كرب، وينفى سعد للمرة الثانية، ناهزنا جميعا البلوغ فى فترات متقاربة. ثورة تنفجر فى أجسادنا منذرة بالشر. إسماعيل قدرى الوحيد الذى تعامل معها بجرأة فنقل ميدان عبثه الجنسى من سطح بيته إلى غابة التين الشوكى بغيط عم إبراهيم، أما صادق وحمادة وطاهر فكابدوا عذاب الغريزة تحت جناح البراءة والجهل.

وصادق صفوان يعيش فى بيت ينعم بالحب والوفاق والحياة الزوجية المستقرة، وهو ـ كوحيد لوالديه ـ يحظى بكل رعاية، غير أن البلوغ يعتبر من الأسرار المحظور الاقتراب منها. ترك مع بلوغه وتدينه بغير مرشد أو معين، حتى قال لنا مرة:

ـ لا علاج لهذا الداء إلا بالزواج، ولكن متى الزواج؟!

وهو يحب والديه ولا يخاف منهما، مثله فى ذلك مثل طاهر عبيد. وبدأ صفوان أفندى النادى يصطحبه معه إلى صلاة الجمعة بسيدى الكردى، فننتظر حتى يرجع إلينا صادق فيسأله طاهر ضاحكا:

ـ ألا يدخل طرف شارب والدك فى عين من يجاوره عند السجود؟

والأب لا يكف عن حث ابنه على الاجتهاد ليستقر فى وظيفة مناسبة طالما أنه لا مستقبل للفقير إلا الوظيفة. ويصارح صادق أباه بحلمه قائلا:

ـ أريد أن أكون غنيا مثل رأفت باشا..

فيقول الرجل:

ـ الرزق بيد الله ولكن تفكيرك غير سليم.

ـ ألم يبدأ من مستوى قريب من مستوانا؟!

فيقول صفوان أفندى ضجرا:

- لا تبدد طاقتك فى الأحلام الفارغة . .

ويقول له إسماعيل قدرى:

- كل إنسان يحب الثراء ولكن الحب شىء والعمل شىء آخر . .

سراى آل رأفت تعشعش فى دماغه بأناسها وجمالها، وفتنة تواضعهم أكثر من أى شىء فى الوجود. ولا شك أن أميرة أيقظت قلبه من براءته، رغم فارق السن، ورغم أنها موشكة على الزواج، بل إنها فتنت الجميع بطريقة ما.

* * *

وحمادة - ابن البطل - مضى يمتد طولا ورشاقة، ويتجلى فيه مظهر ابن الذوات الأصيل. يتكلم بتؤدة، ويشتق كلماته من قاموس مهذب، ولعله كان ينعزل عن العالم فى كبرياء - مثل محمود بن رأفت باشا - لولا وقوعه فى صداقتنا، ولم يتخل عن هذا الجانب الشعبى طيلة حياته. شد ما حزن لانتقال أخته أفكار إلى بيت الزوجية. هى الصديقة الوحيدة فى بيئة معادية. أخوه توفيق موضع الحظوة ومعقد الأمل. يتبادلان عواطف فاترة. قال له مرة:

- أصحابك لا يعجبوننى . .

فقال بحدة:

- ولكنهم يعجبوننى وهذا ما يهم . .

وسعى توفيق إلى إثارة الموضوع مع والدهما بحضور حمادة فقال الباشا:

- على المرء أن يحسن اختيار أصدقائه.

فقال حمادة:

- جميع أصدقائى من الطبقة التى ينتمى إليها زعيمنا سعد!

فضحك الباشا ولم يعقب. ويقول حمادة لنا:

- بابا يريدنى على أن أكرس حياتى للمصنع، ولا يضايقنى شىء مثل أن ينصحنى بأن أقتدى بأخى توفيق، ولكننى مدين لمكتبته بأسعد ساعات حياتى . .

ويقول طاهر:

- لا شك أن أباك من كبار المطلعين . .

- ربما كان كذلك على عهد الشباب، أما اليوم فلا يحظى بالراحة إلا فى عطلة الأحد . .

- ومامتك؟

- تقرأ الجرائد والمجلات وتستغرقها الحياة الاجتماعية . .

ويقول صادق صفوان :

- ما دام يوجد رجال مثل الحلوانى والزين فالثراء ليس حلما فارغا!

ثم يسأل حمادة :

- ألا تحب أن تكون غنيا مثل أبيك؟

فيجيبه حمادة ضاحكا :

- أحب المال طبعا ولكننى لا أحب المصنع . .

- سيحل أخوك محل أبيك بعد عمر طويل ويصير ولى أمر الأسرة، ماذا تكون أنت؟ ماذا تريد أن تكون؟

فيفكر فى شىء من الحيرة ثم يقول :

- لا أدرى، لم أحب عملا بعد، ولكنى أحب الحياة . .

فيقول إسماعيل :

- طاهر يحب الشعر .

فيقول حمادة بإصرار :

- الحياة أجمل من الشعر والمصنع . .

وبعد تأمل طويل لأناقته يسأله إسماعيل بلا أى مناسبة :

- ألا ينشب شجار أحيانا بين والديك؟

يدهش حمادة ويسأله بدوره :

- ما معنى سؤالك؟

- أريد حقيقة أن أعرف .

- لا تخلو حياة من ذلك . .

- كيف يجرى الشجار الزوجى فى طبقتكم؟

فابتسم حمادة قائلا :

- تندلع الحدة . . . يقطبان . . . أبى يقول يا هانم لا يليق كيت وكيت فتقول ماما يا باشا أنا لا أقبل سماع ذلك . . . يا هانم . . . يا باشا . .

فيسأله إسماعيل بجرأة :

- ألم يسبها مرة قائلا يا بنت كذا وكذا . .

ويقهقه حمادة ثم يقول :

ـ هذا عندكم لا عندنا يا حضرة . .

ويحدثنا عن حرص أبيه وتبذير أمه .

ـ بابا ليس بخيلا كما يحلو لماما أن تتهمه أحيانا ولكنه يرى ألا يضيع قرش بدون سبب معقول ، ماما ترى أن السبب المعقول هذا يجب أن يشمل ما يروق لها من سلع شيكوريل وشملا ومحال التحف والأطعمة والأشربة التى تقدمها فى ولائمها بالإضافة إلى هدايا المناسبات ، وقد تمادت بالطول والعرض وهى تجهز أختى أفكار بالأثاث المستورد والحلى ، أما ليلة الدخلة فأحيتها منيرة المهدية وصالح عبد الحى . .

ويقهقه حمادة ثم يواصل حديثه :

ـ ووصف بابا ماما قائلا يا هانم ما أنت إلا نسافة من نسافات الأسطول البريطانى . .

ومع ذلك فقد تبرع الباشا للوفد بعشرين ألفا من الجنيهات ، وتقدم فى الوقت المناسب ليحل محل المنفيين فاعتقل واندرج فى سلك الأبطال . وسوف يكون نائب حينا الهادى الجميل فى البرلمان وتكون سراياه ركن الوفد الركين . ورغم ذلك فلم يساو حمادة صديقنا إسماعيل قدرى فى حماسه ووفديته ، وقلت لنفسى إن حمادة لم يرث عن أبيه مزاياه الفذة فى العمل والجهاد ، ورث البناء المتين والرأس الكبير والجبين العالى ، منظرٌ خُلِق للإدارة والسيادة ولكنه جرد من الولع بهما .

* * *

طاهر عبيد ينتمى إلى طبقة حمادة ولكنه بميله إلى البدانة ومرحه وبساطته يبدو كأنه منا تحت النخلة أسمعنا أول أشعاره ، ومضى يتعلم الفرنسية تلميذا محبا لمامته ، ويهيم بين أركان مكتبة القصر الفاخرة . وينتابه القلق أحيانا فيقول :

ـ أنا مطارد ، الويل لى إن لم أصبح طبيبا فذا !

فتنته بصديقات شقيقتيه غير خافية حتى سأله إسماعيل قدرى :

ـ أليس للسراى سطح ؟

فأجابه ضاحكا :

ـ لا سطح ولا غابة تين شوكى !

ذو هيئة شعبية ومزاج شعبى رغم نشأته فى فيللا نصف أوروبية . كيف أفلت من قبضة الباشا والهانم ؟ فى نظر الوالدين نحن نتحمل مسئولية السقوط وهو أكول بطبعه ، وعلمناه نحن حب الرمرمة ، فعشق لحمة الرأس والفول والفلافل والممبار والكبد والمشبك والهريسة والكسكسى والباذنجان المخلل . بل تقدمنا جميعا فى الاقتباس من قاموس الشوارع والحوارى ورصع أشعاره الأولى بألفاظها المتمردة . وبدأنا طريقنا الثقافى بالقصص المؤلفة والمعربة أما هو فبدأها بالشعراء الثلاثة شوقى وحافظ ومطران .

ورغم النقد والترشيد فالمرحلة الابتدائية تعتبر أسعد أوقات حياته من ناحية العلاقة مع والديه أسعدهما بتعلمه الفرنسية ويحفظ الشعر وصوغه، واعتبر الباشا ذلك كله من آى الذكاء المدخر للطب. ويتساءل طاهر فى حيرة:

- أى علاقة بين الشعر والطب؟!

وكنا بوحى من غريزة حب البقاء نتجنب الاقتراب من فيللا الأرملاوى باشا أن تقع علينا عينا الباشا أو الهانم. والحق أن فضلا غير منكور يرجع إلينا فى تفجير موهبته الشعبية التى إزدان بها شعره بعد ذلك. بل جررناه معنا لاستقبال سعد حين عودته من منفاه الثانى. كونت شلتنا موجة صغيرة فى بحر متلاطم هدرت أمواجه فى ميدان الأوبرا. لم نشهد فى حياتنا منظرا رائعا كذلك المنظر وابتلعتنا حومة الحماس وفرحة النصر وعزة الجماهير الملتحمة، وانسربت إلى قلوبنا الفتية عواطف متأججة وتيارات فدائية ومشاعر مجنحة تطير فى الفضاء فوق هموم الحياة اليومية. رددنا الهتافات لمصر وسعد حتى بحت أصواتنا، وثمل طاهر بالسكرة الطارئة فنسى موقف أسرته من الزعيم القادم. وعندما هلت علينا سيارة الشيخ، عندما لمحنا من موقعنا فوق سور الأزبكية قامته المترامية، ووقاره الجذاب جن جنوننا، واشتعلت جوارحنا بنيران مقدسة، واختزن وعينا فى سراديبه.. يوما وذكرى وصورة لم يعد فى الإمكان أن تتلاشى. واستقبلت العباسية بعد ذلك التاريخ أياما سعيدة صاخبة، فسمعنا لأول مرة عن الانتخابات والبرلمان، وطفنا بالسرادقات، واستمعنا إلى الخطب والأشعار والأزجال، ولم يكن آن الأوان بعد لنسجل أسماءنا فى الناخبين. وعن طريق طاهر عرفنا رأى الباشا أبيه فيما يجرى حولنا. فهو يرى مثلا أنه من التهريج أن يتم اختيار الحكام بهذه الطريقة البهلوانية، وأننا نقلد أوروبا فى النتائج متجاهلين المقدمات والأسس. بخلاف يسرى باشا الحلوانى الذى أكد لنا فى خطبته الختامية أن صوت الشعب من صوت الله. والواقع أنه لم يكن خطيبا مفوَّها، ولكن الحفل كان حافلا بالخطباء والشعراء، على حين أضفى عليه اعتقاله هالة من العظمة والجاذبية. وقال طاهر لأبيه:

- النفى والسجن والاعتقال هى مؤهلات المعركة.

فقال الباشا بازدراء:

- الحكم علم وخبرة ومقدرة لا نفى أو سجن أو اعتقال..

ولم تكن إنصاف هانم القللى دون زوجها فى احتقاره لما يجرى..

* * *

لإسماعيل قدرى علينا ما يشبه القيادة. هذا حقه لتفوقه المدرسى، وللتفوق المدرسى امتياز لا ينكر. وله منزلة خاصة عند المدرسين، بالإضافة إلى الإثارة التى يبعثها بسبب

مغامراته الجنسية . وهو منذ البلوغ غدا موضع التفات خاص من أمه فضاعت من يديه فرصة السطح . وتحول بغريزته إلى غابة التين الشوكى يستدرج إليها صغار البائعات المتجولات . وثابر رغم ذلك على تدينه مثل صادق صفوان ، وأثرت خزانته بمعلومات كثيرة استمدها من أمه عن الآخرة والحساب وعذاب القبر ، وظل على شغفه بتخيل صورة لله ، حتى قال لنا مرة :

ـ لعله شيء مثل سعد ولكنه يمارس سلطانه فى الكون كله !

وضحك طاهر وعلق على ذلك قائلا :

ـ عرفت الآن لماذا لا يصلى أبى . . !

وهو يحظى بسعادة لما يحرز من منزلة بيتنا فيعوضه ذلك عن بساطة أسرته . إنه الوحيد بينهم الذى تخلو شجرته من أى نوع ذى امتياز . حتى صادق صفوان وهو يماثله فى المستوى يمت بصلة قربى إلى رأفت باشا الزين أما هو فلا قريب له يبل الريق . والبيت القديم الذى ورثه أبوه باعه وهو يزوج أخواته . لذلك فعندما انجذبنا جميعا نحو الثقافة كان يستعير الكتب للقراءة الحرة من مكتبتى حمادة وطاهر . ولم يشغله شيء عن إحساسه الوطنى وحماسه الفائق للوفد الذى بلغ درجة من الحرارة لا تكون إلا للعقيدة الدينية . وهذا ما جعله يتجه نحو مدرسة الحقوق فتنة بالقانون والمجد والسياسة . لم يعد الطب ولا الهندسة مما يشبع طموحه بعد أن أصبح سعد زغلول مثله الأعلى فى الحياة . وهو الذى حرض طاهر على والديه قائلا :

ـ السمع والطاعة للموهبة . .

ويضايقه ولا شك هذا السؤال الذى يلحون به عليه «كيف تجمع بين العبادة ومغامرات الغابة؟!» . . فقال لنا يوما :

ـ عقب كل صلاة أستغفر الله كثيرا . . ولكن ما الحيلة من نيران متأججة؟!

* * *

وفى غمرة الأحداث والحماس استعد كل منا لامتحان الشهادة الابتدائية . ونجحنا جميعا . إسماعيل فى المقدمة ونحن وراءه . والتحقنا بمدرسة فؤاد الأول الثانوية لنمضى بها خمسة أعوام ما بين ١٩٢٣ و١٩٢٨ . ولأول مرة نرتدى البنطلون الطويل ونقلع عن شراء البدل الجاهزة . أعوام انقضت فى مراهقة وسياسة وثقافة وحب . وفى عامنا الدراسى الأول هدانا الهادى إلى مقهى قشتمر . إنه أحد أفراد شلتنا الهامة التى تلاشت تدريجيا من الزمن ويدعى الصباغ . قال لنا ذات يوم :

ـ مجلسنا تحت النخلة لم يعد بالمكان المناسب ، عثرت لكم على مقهى مناسب .

روعتنا لفظة المقهى الذى يعتبر عند أهلنا من المحرمات . كيف نجلس بين رجال فى سن آبائنا وهم يدخنون النارجيلة؟! وقال الصباغ :

ـ لا تكونوا جبناء، آباؤنا توظفوا بالشهادة التى حصلتم عليها فى الصيف الماضى، والمقهى بعيد عن الأنظار، يقع عند التقاء الظاهر بشارع فاروق، صغير وجديد وجميل وذو حديقة صيفية صغيرة، وما علينا إلا أن نختار ركنا منزويا للسمر ولعب الطاولة وشرب الشاى والقرفة والقازوزة. .

وفى سرية تامة تلمسنا طريقنا إلى الظاهر، تسوقنا روح المغامرة، ويعتمل فى ضمائرنا إحساس بالذنب. وطالعنا قشتمر بلونه الأخضر الزاهى، وحجمه المحدود الذى لا يزيد عن حجم بهو بسراى الزين باشا ـ كما قال صادق ـ ومراياه المثبتة فى الجدران، وحديقته الصغيرة الموصولة به بباب صغير مفتوح، تنطلق بأركانها نخلات أربع، ويقوم فى الوسط عدد من الموائد فى صورة مربع متساوى الأضلاع. أشار صاحبنا إلى مائدة فى عمق المكان فى أقرب موضع إلى منصة الشغل فاتجهنا نحوها متجنبين الأنظار من شدة الحياء والارتباك. بدونا نبتا جديدا فى عمره ومنظره، ودخل ثلاثة منا فى جلابيبهم. وعلى رف وراء المنصة اصطفت التراجيل وقوارير المشروبات فضاعفت من ارتياعنا. جلسنا حول المائدة نتلقى النظرات المستطلعة بوجوه ساخنة حتى جاءنا النادل وبدأت الممارسة الجديدة. هكذا عرفنا قشتمر فى أواخر ١٩٢٣ أو أوائل ١٩٢٤، ودون أن ندرى أنه سينعقد بيننا وبينه زواج لا انفصام له، وأنه سيصغى بصبر وتسامح إلى حوارنا وأساطيرنا عمرا طويلا، بل ما زال يصغى مستوصيا بصبره وتسامحه. وفى ذلك الوقت اشتركنا ولأول مرة فى مظاهرة وطنية. لم نعد أطفالا من ناحية والمظاهرة مأمونة العواقب من ناحية أخرى فوزارة الداخلية هذه المرة بيد زعيم الأمة ورئيس الوزراء. فى أثناء طابور الصباح خرج رئيس الطلبة من الصف وصاح بصوته الجهورى «اضراب». واندفعت الصفوف نحوه فى عجلة ولهوجة فخطبهم مركزا على أزمة بين الزعيم والملك وأن على الشعب أن يتجمع فى ميدان عابدين لتأييد الزعيم دون قيد أو شرط. وماج الميدان بالخلق من كل صنف، كيوم الاستقبال، ولكنه يفور هذه المرة بالغضب، ويهتف من أعماقه «سعد أو الثورة». تخلف طاهر الأرملاوى عن الاشتراك فى المظاهرة فتركناه لرأيه. ولدى عودتنا سأل صادق صفوان:

ـ ولكن ما أسباب الأزمة؟

ووضح لنا أننا لا ندرى شيئا ولكن إسماعيل قدرى قال بحزم:

ـ نحن على أى حال مع سعد لسبب وبغير سبب وضد الملك بسبب وبغيرما سبب. .

واتفقت قلوبنا على ذلك. ومما يذكر أننا لم نعرف أسباب الأزمة أو لم نهتم بمعرفتها إلا بعد انقضاء أعوام طويلة ونحن نسترجع الأحداث بعد أن صارت تاريخا. فى ذلك الزمان صهرنا الوفد فى أتون وطنيته فبعثنا على يديه خلقا جديدا. ويوما قال إسماعيل قدرى:

ـ فى مصر أربعة أديان، الإسلام والمسيحية واليهودية والوفد.

فقال طاهر عبيد ساخرا:

ـ والدين الأخير أعظمها انتشارا!

علمنا الوفد ماذا نحب وماذا نكره، وبأى قوة نحب وبأى قوة نكره، واجتاحتنا القضية الوطنية وملكت قلوبنا، غطت على الأسرة والمستقبل والأمل الشخصى. واندفعنا مع طوفان الحزبية بنفس القوة والعنف ونبضت كل خلية من خلايانا بالحياة والإصرار، وعجبنا للزين باشا والأرملاوى باشا وأحزابهما، أهم من البشر أم من شواذ الخلق والطبيعة؟!

وإلى جانب السياسة هبت علينا رياح الثقافة المنعشة البيضاء، التهمنا المجلات الأسبوعية والشهرية والكتب المؤلفة والمترجمة، وتنورت رءوسنا بمصابيح مشعة مثل المنفلوطى والعقاد وطه حسين والمازنى وهيكل وسلامة موسى، ودار الحوار حول الفكر كما يدور حول السياسة، وشملت اليقظة العقل والقلب والإرادة.

صادق صفوان رسم بتقواه لنفسه حدودا لا يتعداها، أحب المنفلوطى والرواد ولكنه أغلق وعيه دون ما يمس العقيدة أو يثير الشك. وإذا جاوز الحوار فى قشتمر الحدود والتقاليد لاذ بالصمت واستغفر الله. ولم يضعف شىء من حلمه القديم بالثروة ولا بإعجابه الثابت برأفت باشا قريبه مع استثناء الجانب السياسى. ويقول بطمأنينة:

ـ موقفه السياسى لا يمس مودتنا الراسخة، ويعاتب أبى كثيرا فى رفق متسائلا إلى متى يا خالى تنخدع بذلك الرجل المهرج؟ أو يقول لى وأنت يا صادق تتبع والدك بلا تفكير، هل اشتركت حقا فى المظاهرة الوقحة بميدان عابدين؟ أراهن أنك لا تعرف لها سببا، وأرجو ألا تعتاد المظاهرات فهى اليوم آمنة ولكنها لن تكون كذلك إلى الأبد، كم ضاعت من أرواح فداء للعجوز الأنانى.

وتضحك زبيدة هانم من قلبها وتقول لأمى مداعبة:

ـ مبارك يا زهرانة، ابنك زعيم من يومه!

مازال صادق مفتونا بالباشا وقصره وتحفه وزوجه وتواضعه، وإعجابه بأميرة لم ينضب حتى بعد انتقالها إلى بيت زوجها.

ويقول له إسماعيل قدرى:

ـ لا عيب فيك إلا حلمك الغريب بالثراء..

فيقول صادق:

ـ الثراء يبدأ بحلم..

- لماذا لا تسأل قريبك عن طريق الثروة؟!

- هممت أن أفعل مرة، وشاورت نينة فهالها تفكيرى وحذرتنى من مغبته أن يتهمنى الباشا بالحسد. .

إنه شخصية متكاملة وتقليدية ولكنه نصب لنفسه هدفا بدا لنا غير معقول. أما حمادة الحلوانى - كالآخرين - فقد فتح نوافذه للثقافة دون قيد أو شرط. ويصر على أن يروى لنا فى ليلته ماقرأه بالأمس. رواية المسحور المنبهر المصدق دون أن يجشم نفسه عناء النقد. يقول:

- الثقافة هجمة ضاربة، أتيحت لنا لتوقظنا من سبات. .

فإذا كانت آخر قراءة عن الدين لخصها بنبرته المترفعة، ثم يقول بيقين:

- هذا هو القول الفصل فى الدين!

وتدور المناقشة بين أطراف متناقضة. ولم يكن حمادة فى الأصل صاحب عقيدة راسخة فلم يكابد أزمة حقيقية. ونسمعه تارة أخرى وهو يقول:

- هذه هى قصة الإنسان وهذا هو أصله. .

ثم حدث أن قرأ كتابا معتدلا عن الدين والعلم فإذا به يقول:

- يبدو أنه لا يوجد تناقض بين الدين والعلم!

إنه عميق التأثر بما يعرف، وسرعان ما ينتقل من حال إلى حال. يمتنع عن أى تعريف أو وصف. ليلة مع الليبرالية وأخرى مع الاشتراكية. وقد سأله صادق:

- ولكن من أنت؟

فأجاب بحيرة:

- أمامى طريق طويل. .

طاهر عبيد يبدو ذا هدف واضح وموقف واضح. لا يشك أحد منا فى شاعريته. إنه يحفظ الشعر ويتذوقه وبدأ يبدعه. ويحب الزجل أيضا. أسمعنا أول ما أسمعنا غزلا فى صديقات شقيقتيه، وألف زجلا فكاهيا عن شارب صفوان أفندى النادى والد صادق. ونهل من كتابات الرواد فلم يقتصر اطّلاعه على الشعراء الثلاثة أو مختارات أبى تمام والبحترى. وقال لنا:

- عما قريب سأقرأ بالفرنسية. .

ولم تضف الثقافة الحديثة جديدا إلى عقيدته، فقد نشأ بلا دين تقريبا، لم يثر الدين اهتمامه ولا شغل تفكيره، ولكنه هام بالشعب والجمال والأغانى، وكان ضميره عامرا بالقيم الرفيعة، وإن تكن نشأته فى فيللا الأرملاوى قد أقصته عن المجال السحرى لسعد

زغلول فإنها لم تربطه بالولاء للملك، ثم جاءت المعارك الحزبية فشحنته بالقرف والكفر بالجميع. وكان يقول:

ـ مصر جديرة بالحب ولكنها لم تجد بعدُ من يحبها لذاتها. .

إسماعيل قدرى لا يقرأ بغزارة حمادة، ولكنه يفكر فيما يقرأ ويناقشه وقد عبر عن موقف عندما قال:

ـ الثقافة الحديثة تحتشد للهجوم على حصن الدين والتراث. .

وزاد قوله تفسيرا فقال:

ـ إنها تبدأ بالخرافات فتبددها ثم تتصدى للمسائل الكبرى. .

فسأله صادق صفوان بقلق:

ـ هل أخذ الشك يوسوس فى صدرك أنت أيضا؟

فتملاه بنظرة طويلة ثم قال:

ـ ليس للفكر حدود. .

فقال طاهر عبيد ضاحكا:

ـ دعنى أهنئك!

فقال مقطبا:

ـ الدين موضوع، والله موضوع آخر. .

فضرب صادق كفًا على كف وقال:

ـ اسمعوا العجب. .

يبدو أنه يفكر ويشك، ولم يسْلم من شكه إلا الوفد، ومال فى اطلاعه إلى المعرفة أكثر من الفن والأدب. ومن ناحية المستقبل ركز على القانون باعتباره الباب المفضى إلى المجد والسياسة. ونحن نؤمن به ونثق فى قدراته وفى بلوغه هدفه فى النهاية. وعلى حين تستوى الثقافة كغاية فى حياة حمادة الحلوانى، فهى تلعب فى حياة إسماعيل دور الدعائم التى يقيم فوقها بناءه الشامخ. إنه رجل عمل لا قلم، وأحلامه مقدمات لأفعال، وهو يتقدم بخطوات راسخة رغم فقره وانعدام زاده من ذوى الجاه والنفوذ.

* * *

ومع الثقافة اشتعلت نيران الجنس. أقسى من الشك وأعند إلحاحا. تطاردنا ليل نهار. وزاغت الأبصار متطلعة إلى مجالات الجنس اللطيف. كلما لاح فى نافذة أو خطر فى طريق. تسترق النظر إلى الوجوه والسيقان وتكوين الأجسام التى تنبض به الملابس الفضفاضة. أصبح إسماعيل موضع حسد ولكنه لم يكن دون الآخرين معاناة.

وذات يوم جاءنا الصباغ بكتاب متسائلا :

ـ هل سمعتم عن هذا الكتاب؟

غلافه من الخارج يدل على أنه كتاب تاريخ ، وقد غطى به لإخفاء عنوانه الحقيقى وهو رجوع الشيخ . ونصحنا بقراءته سرا . تبادلناه واحدا بعد الآخر . مررنا بسرعة على أبوابه لنقع فى قبضة حكاياته . أججت نيراننا وأمدتها بوقود من العفاريت . ولما تأكد الصباغ من ضياع العقول شرع يحدث عن حى البغاء ، وسأله صادق ذاهلا :

ـ والحكومة تعلم؟

فأجاب بنبرة خبير :

ـ الحكومة تعطى الرخص وتحفظ الأمن بالمكان . .

ويوم الخميس عدلنا عن سينما المنظر الجميل إلى كلوت بك . تقدم وسرنا خلفه ونحن من الدهشة فى غاية ومن الخوف فى نهاية . هذه البيوت القديمة مرصعة مداخلها بالنساء من كل شكل ولون ، وهمس حمادة :

ـ ما أشد الزحام . .

فقال صادق :

ـ لنرجع بسرعة قبل أن نفتضح!

وقال الصباغ ساخرا :

ـ هل يتوقع أحدكم أن يقابل أباه هنا؟ . . كل زبون هنا فى حاله ، تقدموا ولا تكونوا جبناء . . اختاروا وبسرعة . .

ووجدنا أن الاختفاء فى بيت أخف من البقاء وسط الجمهور . والتقينا عند رأس الطريق ونحن نتبادل نظرات باهتة ولزمنا الصمت حتى جمعتنا مائدتنا فى قشتمر . ونفد صبر كل واحد فى معرفة ما وقع للآخرين . وكان صادق أول المعترفين فقال :

ـ الأولى والأخيرة . .

ـ لماذا؟

ـ من ناحية الجمال لا بأس بها ، الحجرة على البلاط ، فراش ومرآة وكنبة قديمة ، أشارت إلى طبق ساج فوق الكنبة وطلبت بقلة ذوق أن أضع النقود ، وضعت النقود ، وبسرعة نزعَت الفستان الأحمر عن جسم عار ، استلقت مشيرة بيدها إشارة تدل على السرعة ، أنا بردت وكأنى ما عرفْت الشهوة ، قلت بأدب : أشكرك أنا ذاهب . فجلست وهى تقول : مع السلامة . . أعوذ بالله . . هى الأولى والأخيرة . .

روّحنا عن أنفسنا بالضحك فتشجع طاهر وقال :

- وجدت فلاحة على ذقنها وشم باسمة الثغر، اتجهْت نحوها فسبقتنى إلى السلم، لم أهتم بالحجرة، قالت لى: أنت مثَل البغل رغم صغر سنك، وضحكَت فضحكْت ولكنى تضايقت، وبردت كما برد صادق. وشعرت بغربة شديدة. وسرعان ما تغير رأيى فقلت لها: لا مؤاخذة أنا غير مستعد هذه المرة. فقالت: أنت حر ولكن لا بد من الدفع، فدفعت القروش وأسرعتُ نحو الباب وهى تقول لى: لك قفا يغرى بالصفع. فزدت من سرعتى كالهارب..

وضحكنا طويلاً، وقال صادق:

- الأولى والأخيرة أيضا؟

ولكنه لم يجب، وقال حمادة الحلوانى:

- تجربة موفقة من حسن الحظ، أعجبتنى عيناها، وكانت مؤدبة ومشجعة، تركتنى أحضنها ونحن واقفان، وتم كل شىء بسرعة.. لا بأس!

واتجهت الأبصار نحو إسماعيل قدرى ونحن نتوقع أفضل النتائج بوصفه صاحب الخبرة الوحيد فينا. وضحك أكثر من عادته وقال:

- فتاتى صغيرة السن والجسم مقبولة، ولما ضمتنا الحجرة معًا دخلت امرأة بين الأربعين والخمسين، ضخمة الجسم قوية الشخصية، فهرعت إليها الفتاة بأدب ودار بينهما تهامس عن العمل غالبا ثم غادرت الحجرة. وأصار حكم بأنى رغبت فى المرأة التى لم يفسدها الكبَر بعد. وبجرأة قلت للفتاة: إننى أريد المرأة فدهشَت وقالت: إنها المعلمة وليستَ لذلك. فطلْبت منها أن تبلغها رغبتى فترددت قليلا ثم ذهبت. وما لبثت المرأة أن دخلت وأغلقت الباب وهى تقول بصوت غليظ: ادفع الضعف. فقلت لها: إننى لا أملك إلا عشرة قروش. فلم ترفض وضممتها إلىّ وذراعاى لا تحيطان بها من جسامتها، وكنت فى غاية الانبساط..

فهتف طاهر عبيد:

- أنت إنسان غير طبيعى..

وانقطع عنا الصباغ بسبب ما، ولكننا لم ننقطع عن كلوت بك. صادق صفوان الوحيد الذى لم يكرر التجربة بعد أن أثار الحى كله اشمئزازه ولم يتفق مع تدينه وذوقه. طاهر لم يتخلف ولكنه كان فى الغالب يجلس فى مقهى بلدى يسمع العربى ويتأمل الخلق. وعنَّ له رأى فى الموضع فقال:

- هذا معرض للنساء والرجال فى غاية الشذوذ والسوء، فعلى مريده أن يفقد وعيه أولا قبل أن يقدم عليه..

* * *

ومع السياسة والثقافة والجنس أشرق علينا الحب بنوره. وأول من ثمل بخمره المطهرة كان صادق صفوان، يوم رأى إحسان بصحبة أمها ست فاطمة تغادران مسكنهما بشارع أبو خودة. صاحبنا كان فى السادسة عشرة وإحسان بنت ثلاثة عشر. كلما مررنا قريبا من المسكن فى طريقنا إلى قشتمر ارتفعت عيناه بين خدين مضرجين إلى النافذة بالدور الثانى. وإحسان أنضج من سنها بكثير، ممتلئة الجسم فى رشاقة، ووجهها مستدير مائل للبياض، وشعرها كستنائى غزير، وعيناها عسليتان صافيتان، وثغرها غاية فى الدقة، يوصف عادة بأنه خاتم سليمان. ووضح للجميع أن البنت معجبة به، أو على الأقل معجبة بإعجابه بها.

وقال لنا صادق بنشوة:

- البنت مثل التفاحة..

وكلها حيوية، وعرفنا أن أباها يُدعى إبراهيم الوالى موظف صغير كثير العيال. وسأله طاهر عبيد:

- هل عرفت الآن ما هو الحب؟

فقال صادق فى غير قليل من الارتباك:

- أنا منبهر بخفتها، وتدور بى الأرض عندما تلقى علىّ نظرة، وكلما تذكرتها شعرتُ بسعادة عجيبة..

فقال طاهر عبيد:

- شعرت بمثل ذلك نحو مارى بكفورد، وبشىء شبيه به نحو صديقات شقيقتى فى زمن مضى..

فقال صادق:

- إنك لم تحب بعد..

وقال إسماعيل قدرى:

- أنا أسيطر على نفسى بفضل غابة التين الشوكى وكلوت بك وانهماكى فى العمل. لى جارة بنت الجيران ولكن لا صبر لى على إهمال عملى والوقوف فى النافذة.

والتفت حمادة الحلوانى نحو صادق قائلا:

- ها أنت تحب، فما الخطوة التالية؟!

فقال ضاحكا:

- صبركم، أنا لم أفق بعد..

وطاهر عبيد أثارنا بشعره قبل أن يثيرنا بحبه. فاجأنا بنشر أول قصيدة غزَلية له فى

مجلة الفكر . ظهرت القصيدة تحت عنوان «الجميلات فى الحديقة» ، فى مجلة عريقة منتشرة ومعروفة بالدعوة لروح العصر والتقدمية . إنه تقدير بكل معنى الكلمة . واهتز ركن قشتمر سرورا وطربا ، وقال حمادة :

ـ نحن نشهد ميلاد شاعر . .

وسأله صادق باهتمام :

ـ هل علم بالنشر والداك؟ !

فضحك طاهر وقال :

ـ الإعجاب بموهبتى فى نطاق الفيللا يسعدهما ويعتبرانه تمهيداً لموهبتى المدخرة للطب اللعين ، ولكن بابا وجم حينما اطلع على القصيدة فى باب الشعر بمجلة الفكر وقال بامتعاض شديد : هذا شغل أدباتية ولا يليق بمقامك ، فقلت له : ولكن شوقى بك شاعر يا بابا ، فقال : إن شوقى أمير من البيت المالك أولا وأخيرا ، أما الشعر فى ذاته فحرفة الشحاذين . .

على أى حال لم يفسد عليه ذلك سعادته بنشر قصيدته ، ونصحه إسماعيل قدرى بزيارة المجلة للشكر والتعارف وتوثيق العلاقة ففعل . وهناك اكتسب علاقات زمالة جديدة ، وعرف المبادئ التقدمية من خلال نخبة من المؤمنين بها ، وتعاطف مع الإرادة الطامحة لهدم العالم القديم كله وإقامة بناء جديد موضعه على أسس علمية معاصرة . وكأنما ودَّ أن تبيد مع العالم القديم أفكار أبيه الكئيبة ، ولكن التعاطف لم يتجاوز به حدود الصداقة للمبدأ ومعتنقيه دون الالتزام بمبادئه أو الاندماج فى سلوكياته . وفى ذلك الوقت خرج من شرنقة الهيام الغامض إلى حومة تجربة حقيقية . رآه صادق يوما ينتظر أمام صيدلية العباسية ليرى رئيفة حمزة وهى تغادرها . بنت سمراء رشيقة الملامح فائرة الجسم ثائرة النهدين خفيفة الحركة ، وتُماثل طاهر فى سنه على الأقل . لا يجهلها أحد من أهل العباسية تقريبا ، فهى تقيم مع أمها فى شقة بعمارة متوسطة العمر تطل على العباسية من ناحية وعلى القرافة من ناحية أخرى . وهى ممرضة تمارس مهنة إعطاء الحقن للمرضى عن طريق الصيدلية ويُقال إنها تعمل أيضا فى مستشفى . سيئة السمعة دون أى دليل ولكن هكذا يجرى الحال فى العباسية . فما دامت تعمل وتنتقل من بيت إلى بيت بخفة ووجه مليح وفستان ناطق فهى سيئة السمعة دون شك . طاهر يعترضها بجسمه المائل للبدانة ونظراته الحالمة ، ومن ذا الذى لا يعرف طاهر بن عبيد الأرملاوى باشا؟ . إنه ينظر ويبتسم وهى تعرض عنه دون غضب . وتستمر المطاردة ويلوح الأمل . هكذا يصبح فى مجلسنا عاشقان ، وتتجلى فى أحوالهما أعراض السحر والنشوة . وقال له حمادة الحلوانى :

ـ رئيفة تحتاج إلى مكان آمن . . أعنى شقة خاصة مثلا !

فقال إسماعيل قدرى صاحب الخبرة :

ـ هى أدرى بما تحتاج إليه ، ولكن يلزمك مصروف إضافى . .

فقال طاهر باستياء :

ـ كأنكما تحدثان عن مومس !

فلاذا بالصمت فى دهشة ، وقال صادق صفوان معتذرا عنهما :

ـ لا تؤاخذهما فأنت تعرف ما يقال . .

فقال طاهر بوضوح :

ـ كلام فارغ ، أنا أحب رئيفة كما تحب أنت إحسان . .

وألزم قوله كل أحد حده رغم وساوسة الباطنة ، ورجع يقول :

ـ أقبلت عليها بادئ الأمر بنية سيئة ، تبعتها من بيت إلى بيت دون جدوى ، وتبين لى أنها فتاة عاملة ؛ فهى إما تمارس عملا أو ترجع إلى بيتها ، الناس ألسنتهم لا ترحم ، وتقذف بالتهم بلا دليل ، والحق أنها لما ابتسمت لى غزانى شعور جديد فأدركت أننى أحبها . .

وتم التعارف وتواعدا للقاء فى حديقة بيبرس ، وقالت له :

ـ الحرص واجب ، وأنا أخدم الأسرة الكريمة ، وألسنة الناس رديئة . .

ربما تصور بعضنا أنها فتاة ماكرة وأنه شاعر طيب وابن ناس لا خبرة له بمكر الحوارى . وتحدانا طاهر قائلا :

ـ هاتوا لى دليلا واحدا . .

حقا لم يضبطها أحدنا مع شخص فى شارع خال ولا سمع عنها واقعة محددة ، وتمنينا لصديقنا السلامة . وتبادلا هدايا رمزية وقال لنا وهو ثمل بنشوته :

ـ إنى ماض معها إلى النهاية المشروعة !

ثم بعد صمت :

ـ وهى تعرف أسرتى وتقدر ظروفى ولكنها سألتنى فى شىء من الحذر : هل تستطيع أن تقف أمام إرادتهم ، فأكدتُ لها أننى أستطيع كل شىء . .

ويحق لنا أن نذهل لهذا التحول الكبير . وقال له حمادة الحلوانى :

ـ إنك ما زلت فى السادسة عشرة . .

فقال ببساطة :

ـ للزواج وقته المناسب . .

فقال صادق:

- الوقت المناسب بالنسبة لها مختلف . .

فقال ضاحكا:

- الحب لا يعترف بذلك . .

وسأله إسماعيل قدرى:

- هل تفهمك كشاعر؟

- على الأقل لا تسىء فهمى، ويعجبنى فيها بصفة خاصة قوة شخصيتها.

فقال حمادة:

- قد تفصل من شجرة الأسرة بسببها؟

- لا يهمنى ذلك.

وسأله صادق مداعبا:

- هل عرفت الآن الحب؟

فقال ضاحكا:

- لعله جنون أو مرض، ولكنه على أى حال يمثل السعادة فى ذروتها . .

- ومارى بكفورد؟ . . وزائرات الحديقة؟

فقهقه قائلا:

- هذه فاتحات شهية . .

فتساءل إسماعيل قدرى باهتمام:

- هل يختلف عن الجنس؟

- إنه شجرة ملائكية نواتها الجنس . .

وهنا اعترف لنا صادق قائلا:

- لقد سألت والدتى أن تقرأ الفاتحة مع ست فاطمة أم إحسان، وتفكر والدى طويلا ولكنه لم يعترض . .

ووقع حمادة الحلوانى فى شرك الحب وهو يناقش المحبين. علمنا أنه شغف بسميرة المعروقى، وقال لنا:

- فيها جميع المواصفات المطلوبة . .

وسميرة بنت ستة عشر أيضا، من الطبقة الوسطى، وعرف عنها أنها تزور الجيران سافرة الوجه وحدها فاعتُبرت متفرنجة. وكانت تفعل ذلك بموافقة الوالدين ورغم

اعتراض ابن عم لها غيرةً على سمعة الأسرة. وطبعا حمادة معروف كنجل يسرى باشا الحلوانى الثرى الكبير والبطل الوطنى. وعن طريق خادمتها دعاها إلى لقاء فى شارع السرايات الذى يخلو مساء للعشاق.

من بدء الحكاية شعرنا بأن حمادة يخوض مغامرة فريدة ولكنها لم تمتحن بالحب الحقيقى الذى اقتحم قلبَى صادق وطاهر. على أى حال تلاقَيا فى شارع الحب ولكن التجربة أجهضت قبل أن تبدأ. ما كادا يسيران دقائق معدودة حتى انقض عليهما ابن عم الفتاة كالوحش الكاسر. لطم الفتاة على خدها ففقدت توازنها وتهاوت فوق الطوار، ثم انهال على صاحبنا باللكمات حتى أدركهما شرطى الدرك. وذاعت الفضيحة من فم إلى فم ككرة القدم، وغضب يسرى باشا غضبا شديدا وقال لابنه:

- يعتدى عليك وأقف مكتوف اليدين لأننا نحن المعتدون، ألا تدرى كيف تكون المعاملة مع بنات الناس؟ ومَن هو المعروقى هذا؟... يا لك من طفل مخيب للآمال..

ونال صاحبنا من المعركة كدمات فى الخد والشفة فاضطر إلى الاعتكاف أياما فى السراى، ولما رجع إلينا لم نتمالك أنفسنا من الضحك. وسأله طاهر باهتمام:

- ماذا أنت فاعل؟

فأجاب ببرود:

- لا شىء..

- ألا تحبها؟

فقال ضاحكا:

- تلاشى كل شىء فى المعركة..

- ألم تتبادلا أى كلام؟

- مجرد التعارف والإعجاب ثم كان ما كان..

- لعلها تنتظر خطوة جديدة من ناحيتك؟

- لن يحدث أى جديد..

فقال صادق:

- المسألة أنك لم تحب..

فهز منكبيه قائلا:

- ربما..

ولم يغير إسماعيل قدرى من سيرته، ويقول ببساطة:

- الجنس شىء عظيم ومفهوم وهو مكتف بذاته . .

فيقول طاهر :

- رأى عجيب لإنسان له ثقافتك وعقلك . .

فيقول بترو :

- الجنس يضعك فى صميم الوجود ولا وزن عندى لما يقول المنفلوطى . . لعله شغل عن الحب أو لم يخلق له .

* * *

وفى غمرة الهموم الخاصة المتعة خفق فؤاد الوطن خفقة أليمة عميقة بموت الزعيم سعد زغلول . شدَّ ما ذهلنا واشتعلت جوانحنا بنار الحزن والحسرات . حتى طاهر عبيد وجم وأسف بعد أن أظلت زعامة الراحل الجميع فى الائتلاف الوطنى وأحبه الخصوم مع المريدين والأتباع . وكل منا له حكاية عن الخبر فى أسرته وما أسال من دموع . كل عين بكت سعد وكل قلب امتلأ بالشجن . وسأل صادق طاهر عبيد :

- كيف تلقى عبيد باشا وإنصاف هانم الخبر؟

فأجاب :

- بالحزن طبعا ، وقال أبى إنه فى أعوامه الأخيرة كفَّر عن ماضيه كله وأصبح أبًا للشعب والوطنية . .

وذهبت جماعتنا إلى ميدان الأوبرا وانحشرنا فى الجموع الحزينة الواجمة ننتظر ، وعندما لاح النعش فوق المدفع ارتفعت صرخات الأسى إلى سماء أغسطس الصافية التى تقطر حرارة ورطوبة . وجرفنا التيار وراء الجنازة إلى شارع محمد على ، وهناك اختلطت الهتافات بصوات المطلات من النوافذ والشرفات . ورجعنا إلى العباسية صامتين بلا سعد . ونخوض أمواجا جديدة من تاريخنا المفعم بالحرارة والقلق ، فنبايع خليفة سعد ونرقب ما يلوح فى السماء من نذُر وبشائر .

وفى عام البكالوريا ضاعفنا الهمة تطلعا للنجاح . واجتهد إسماعيل قدرى مستهدفا التفوق ليلتحق بالحقوق بالمجان ، ولكن سوء الحظ اعترض سبيله المرسوم بتدبير ماكر . ففى ختام الثلث الأول من العام الدراسى لزم قدرى أفندى سليمان الفراش لمرض فى القلب . اختل نظام إسماعيل وشغل بأبيه ، وازدادت متاعب الأسرة بتكاليف الطبيب والأدوية . وحدثنا إسماعيل عن مرض أبيه بتأثر شديد ، عن هزاله ، وورم ساقيه ، وضعف الأمل فى شفائه . والحق أن قدرى أفندى لم يسترد صحته ، وأسلم الروح فى أواخر مارس قبل الامتحان بشهر تقريبا . وأساء مرضه وموته صديقنا إساءة لا تجبر . نجح فى البكالوريا وجاء ترتيبه دون المتوقع ودون ما يستحق ، وعجز معاش والده عن توفير

المصروفات له، وبالكاد وفى احتياجات الأسرة الضرورية. وسُئل عما ينوى فعله فأجاب بأسى:

- لا توجد فرصة للمجانية إلا فى كلية الآداب..

وشعرنا جميعا بأن همة عالية قد أهدرت عبثا. وقال له صادق مواسيا:

- لا تحزن، ففى أى مجال فرصة للتفوق..

فقال مستسلما:

- يا لها من ضربة قاضية..

أما بقية الأصدقاء فقد التحق طاهر بكلية الطب بسعى أبيه وإصراره. وقال الباشا لابنه:

- نجاحك وحده ودون سعيى لا يؤهلك لكلية الطب، ولكنك قادر على التفوق إذا عزمت..

فقال له طاهر:

- ولكننى شاعر يا بابا..

فقال الباشا بحدة:

- حتى مع التسليم بأنك معتل بهذه العاهة فلا يمنع ذلك من دراسة الطب، أعرف أطباء مهووسين مثلك ولكنهم أطباء على أى حال..

وسأله حمادة الحلوانى:

- ترى كيف تدرس الطب على رغمك؟

فأجاب ضاحكا:

- دعنا من الطب وسيرته، المهم أن مجلة الفكر ترحب بأشعارى ورئيس تحريرها يحثنى دائما على الإبداع، والمعركة الفاصلة مع أبى آتية لا ريب فيها..

ودخل حمادة الحلوانى كلية الحقوق بلا أدنى رغبة فيها ولا فى غيرها قال:

- لأسكت أبى ليس إلا، كف الآن عن إغرائى بالاهتمام بعمله وقنع بأخى توفيق كخليفة له، وقد دخلت الحقوق لأوهمه بأننى صاحب هدف هام أيضا..

قال له صادق:

- بوسعك أن تعمل فى النيابة والقضاء..

فقال ضاحكا:

- هدفى أكبر من ذلك، أنا عاشق الثقافة والحياة والحرية..

- الحرية؟!

- سمِّها مؤقتا البطالة إذا شئت . .

مع الزمن مضى حلمه يتبلور ويتجسد، أن يعيش كالأعيان، يقطف من كل بستان زهرة، بالطول والعرض، بالروح والجسد، دون التزام أو ارتباط . وقال إسماعيل قدرى :

- إنه قادر على تحقيق حلمه . .

أما المفاجأة المثيرة حقا فاقتحمتنا من ناحية صادق صفوان . قال ووجهه الجميل يومض بالانشراح :

- معى قنبلة !

وانتظر ليخلق الجو المناسب ثم قال :

- سأفتح دكان خردوات !

هل جُن الشاب الوديع المتدين؟ ولكنها الحقيقة . صارح والديه بأنه قرر ألا يكمل تعليمه، وأن يفتح دكان خردوات كخطوة أولى فى سبيل الثراء . انزعج صفوان أفندى النادى أيما انزعاج ولم يصدق، وآمنت ست زهرانة كريم بأن عينا أصابت ابنها الوحيد . قال صفوان أفندى :

- أنت تمزح ولا شك . .

- بل جادٌّ كل الجد .

- إذن مسَّك جنون !

- لمَ يا بابا؟ أنا عاقل وأعرف هدفى . .

- لَم أسمع عن متعلم قبْلك يفضِّل أن يكون صاحب دكان عن أن يكون موظفا فى الحكومة . .

- قارن بين أقل ربح متصوَّر لدكان وبين أى مرتب .

- المال ليس كل شىء . . الجزار رجل غنى !

- المال أهم شىء .

- والكرامة؟

- العمل الشريف كرامة .

فصاح الرجل :

- أفسدك التدليل، هذه هى المسألة، ومن أين لك الخبرة بهذا العمل؟ فقال بهدوء وأدب ليلطف من انفعاله :

- لنا أصحاب من كل لون، منهم أبناء بقالين وأبناء خردواتية !

فسأله بحنق :

- لا يكفى هذا ، ومن أين لك المال الذى تبدأ به؟

- توجد دكان بثلاثة جنيهات فى العمارة الجديدة التى شطبت حديثا على ناصية العباسية مع أبو خودة ، نينة تملك بعض الحلى القديمة ، وسوف أردها لها أضعافا . .

- إليك رأيى ، أفكار أطفال ولعب عيال . .

وجاء الفرج من حيث لا يحتسب . ففى زيارة عائلية لسراى رأفت باشا الزين شكا صفوان أفندى ابنه للباشا فما أدهشه إلا أن هتف الباشا :

- برافو!

فتساءل صفوان أفندى فى حيرة بالغة .

- برافو يا باشا؟

- تفكير سليم ، الدنيا يجب أن تتغير ، أتعرف أنها ستكون دكان الخردوات الوحيد فى العباسية كلها؟!

فباخ انفعال الرجل ، وتساءل فى تسليم :

- أليس لكل مشروع تمويل يناسبه؟

فقال الباشا :

- هذا حق ، ويجب أن يكون مشروعا قويا ، سأقرضه بما يلزمه قرضا حسنا بلا فوائد وسوف أسدد خطاه . .

وفى الحال تلاشت معارضة صفوان أفندى وست زهرانة ، وضحكت زبيدة هانم وراحت تداعب الشاب قائلة :

- مبارك عليك يا عم صادق!

وانقلب لعب العيال إلى جد ونحن لا نصدق . استؤجر الدكان ، وأمدَّ الباشا صاحبنا برجل من دائرته ، ينظم له الدكان ويتفق من النجار المناسب ويمسك له دفاتره ويبصره بخفايا عمله ، على حين عرَّفه الباشا بتجار الجملة من معارفه وضمنه عندهم . وقبل نهاية الصيف وافتتاح الجامعة جال صادق فى دكانه مزهواً بين أرفف اصطفت فوقها المناديل والإشاربات والسجائر وأدوات الحلاقة والحياكة وصنوف الشيكولاطة والملبن واللب والسودانى . وكان علينا أن نتكيف مع الوضع الجديد وأن نوليه ما يستحق من جدية وإن بدا أول الأمر كاللعب أو التمثيل . نمر به ، نتبادل الابتسام ، نراه واقفا وراء الحاجز الخشبى ، أو ملبيا طلبا ، نرى زبائنه من الغلمان والبنات والنساء ، وهو جاد تماما ، حتى شاربه تركه ينمو . ومن حسن الحظ أنه لم يتعملق كشارب أبيه ، ولكنه استقر فوق شفته

العليا كشارب شارلى شابلن. وبعد إغلاق الدكان يلحق بنا فى قشتمر، مهاجرا إلى دنيا الثقافة والسياسة. ويغبطه إسماعيل قدرى على كثرة زبائنه من الجنس اللطيف فيعلق حمادة على ذلك بالمثل البلدى «يدِّى الحلق للى بلا ودان». ويسأل باهتمام عن الربح فيقول:

- إنى أسدد دَيْنى للباشا أولا، ولكن يبقى لى ما لا يحلم به موظف شاب.. وما لبث أن قذفنا بالقنبلة الثانية عندما قال ذات ليلة:

- سأشرع فى الزواج دون تأجيل..

لم نعجب هذه المرة لما نعرفه من تدينه وعفته. ووضح لآذاننا اللاهية صوت الزمن الغائب فى زحمة الأحداث وتتابع الفصول، فبعضنا يجلسون فى مدرجات الجامعة وأحدنا يتوثب لاستكمال دينه. وقرر صادق أن يعلن رغبته ثم يستمهل أسرته الجديدة حتى يقتصد قدرا مناسبا من المال. ويبدو أن إبراهيم أفندى الوالى لم يعجبه تحول الشاب من أفندى إلى خردواتى، ولكن صفوان أفندى قال له بكبرياء:

- ابنى حاصل على البكالوريا، ألا تقرأ ما يكتب المفكرون عن الأعمال الحرة؟!..

وجاءت موافقة إحسان صادقة وحاسمة وقاطعة فأخذت كل أسرة من جانبها تستعد لليوم السعيد. وقال صفوان النادى لابنه:

- لمَ العجلة؟. كان الأوفق أن تنتظر حتى تسدد ديْنك، ثم تقتصد على مهل حتى تَضمن لنفسك مسكنا مناسبا من جميع النواحى، ولا تنس أن إبراهيم أفندى الوالى رجل على قد حاله والله لا يكلف نفسا إلا وسعها..

ولكن صادق طمأن أباه إلى أن الأمور تسير سيرا حسنا. وعرفنا نحن سر العجلة أو سر اللهفة على اليوم الموعود. وقال حمادة ضاحكا:

- ستكون معركة حامية لا هوادة فيها وربنا يستر..

واستأجر صادق شقة من ثلاث حجرات فى العمارة التى تتبعها دكانه، وباعت والدته حليها القديمة لتغطية المهر والشبكة. وعند ذاك قال رأفت باشا لصادق على مسمع من والديه:

- زبيدة اقترحت علىّ أن أنزل لك عن باقى الدَّين ولكننى رفضت، أريد أن تبنى نفسك بجهدك لا بعون أى مخلوق..

ولكنه أهدى إليه أثاثا جميلا للصالة مكونا من كنبة وفوتيلين، وطاقما من الصينى وأدوات المطبخ. وفرشت الشقة بأثاث بسيط ولكنه طبعا جديد وذو رائحة خاصة عشعشت طويلا فى حواس صادق.

وفى ليلة الدخلة جمعنا سرادق صغير بشارع أبو خودة. جلسنا بين المدعوين فى

صفوف متتابعة، ولفت نظرنا صفوان أفندى بجسمه الضئيل وشاربه العملاق. وعلى المنصة أطل علينا عبد اللطيف البنا وتخته وغنى لنا أغنيته الخفيفة السافرة:

ارخى الستارة اللى فى ريحنا لحسن جيرانك تجرحنا

يا مبسوطين بالقوى يا احنا

ولاح صادق حائرا بين العمارة والسرادق، يرحب بنا كثيرا، يدارى بابتسامته المليحة حيرة جانحة. وقال لنا:

- سنتناول العشاء على مائدة خاصة.

فقال له حمادة الحلوانى:

- فى جيبى زجاجة خاصة هربتها معى... كل شىء مباح الليلة.

وقال طاهر:

- نحن مسئولون عنك حتى صياح الديك.

ولم يشهد رأفت باشا السرادق ولكن صاحبنا أخبرنا بأنه زار الأسرة مهنئا وأن حرمه تتوسط مجتمع النساء كالبدر. وطالبنا العريس بأن نشهد الزفة معه، فجس لنا النبض ولكن خاب المسعى. ولم يقبل المسئولون وجود شبان أغراب بين المدعوات. ولما ذهب قال حمادة:

- ما له كأنه مضطرب أو خائف..

فقال طاهر:

- المسألة فاصلة وخطيرة ولن تكون أحسن حالا منه..

وتساءلنا متى يجىء يومنا، وعلى أى حال يكون، وماجت أنفسنا بالسرور وحب الاستطلاع. وفى عودتنا إلى بيوتنا تخيلنا صديقنا فى خلوته المسربلة باللهفة والارتباك التى طال انتظاره لها مذ ناهز الحلم.

وغاب عنا أسبوعا كاملا، ولدى أول لقاء فى قشتمر انهمرت عليه الأسئلة فى حصار يتقد بالرغبات المكتومة حتى اضطر إلى الاعتراف قائلا:

- لم أذق إلا كأسا واحدة ولكنها كانت كافية، بل فوق الكفاية، وما أن أغلق الباب علينا حتى شعرت بأننى تحررت من أثقال الحياء والتقاليد وأشباح الزواجر والنواهى، وكان علىّ أن أحررها من تاج الفل المطوق لرأسها، وضممتها إلى صدرى، ولذة الوجود تفر فى حومة ارتباك غريب وجَيَشان رأس لم يصمد أمام نفثة الكأس الحامية، اعترفت لها بأن رأسى دائر فسمحت لى بالاستلقاء للراحة، وفعلت فتقضّى الليل وأنا بين اليقظة والنوم، ثم انتبهتُ وانتبهت حواسى فأيقظتها بقبلاتى، ثم..، ماذا أقول؟. أخوكم سبع!

وضحك فى سعادة بادية مؤثرة وقال :

- كلانا شعلة لا تخمد!

إنه مكبوت ملهوف ذو شوق قديم، وهى خفيفة وتعلن خفتها عن فائض من الحيوية، فهو شهر عسل مفعم بالعسل، ورجع إلى دكانه بعد عطلة امتدت ثلاثة أيام. وباشر عمله بمفرده بعد أن أتم مندوب رأفت باشا مهمته فى تدربه وأصبح الدكان ملتقى الذاهب والجائى، فهو دكان الخردوات الوحيد وهو ضربة معلم. وخلو العباسية من الدكاكين يرجع إلى كون مساكنها على الجانبين خاصة، سرايات فى الشرق وبيوتا فى الغرب، ولا توجد الدكاكين إلا بهدم بيت وإقامة عمارة فى موضعه. وانهمك صادق بكليته فى الحب والتجارة، أما السياسة والثقافة فتراجعتا إلى هامش حياته. قال له حمادة الحلوانى :

- حياتك الراهنة لا تتسع للقراءة . .

فقال صادق آسفا :

- الجريدة على الأكثر، وقد أقرأ مقالا فى المجلة . .

أما الوطن فقد تردى فى أحداث مباغتة. تصدع الائتلاف وألف محمد محمود الوزارة، فأوقف الدستور، وقام الصراع بين الوفد بزعامة النحاس من ناحية وبين الملك ومحمد محمود والإنجليز من ناحية أخرى. وكان إسماعيل قدرى أشد الجميع انفعالا. هكذا هو متطرف دائما فى السياسة والثقافة والجنس. حمادة دونه فى الانفعال والحماس بما لا يقاس رغم أن الباشا والده من أساطين الصراع الدائر. واشترك إسماعيل فى كل مظاهرة طلابية، على حين اكتفى صادق بإعلان امتعاضه، ولم يشترك حمادة فى المظاهرات خارج أسوار الجامعة . . كأنما كان يترفع عن الاندماج فى الجماهير. ولبث طاهر فى موقف شبه حيادى. لم يعد يعلن تأييده لموقف أسرته ولكنه لم ينضم للجانب الآخر. وقال لنا يوما :

- فليحل القضية من يحلها، إن لم يكن مصطفى النحاس فليكن محمد محمود . .

ومرة أخرى أعلن ملاحظة لم نلتفت إليها من قبل، قال :

- ألا ترون معى أن الوفد تقدمى فى السياسة ورجعى فى الفكر وأن الأحرار رجعيون فى السياسة وتقدميون فى الفكر؟!

والحق أننا فى الثقافة لم نكن نفرق بين وفدى ودستورى، ولا نتأثر بعواطفنا السياسية فى تقدير من يستحق التقدير من خصومنا، بل ألم نفتن بكتَّاب أعدائنا أنفسهم من الإنجليز؟!

وبقدر ما تحظى به حياتهم الثقافية الحرة من ازدهار وتقدم وجرأة فإن دراستهم الجامعية تعثرت فى الفتور المنذر بالفشل. حمادة يتلقى محاضراته القانونية فى برود ولا مبالاة.

إسماعيل قدرى يعتبر نفسه منفيا فى كلية الآداب ليحصل على شهادة لا يحبها ليشترى بها وظيفة يمقتها. ويواسيه صادق فيقول له مشجعا:

ـ بوسعك أن تكون أستاذا كبيرا.

فيقول:

ـ إذا حيل بين إنسان وهدفه فقد قضى عليه بالموت..

أما طاهر فثابر على نشر شعره الجميل، وثبت أقدامه فى مجلة الفكر، ومضى يترجم لها مختارات من الفرنسية، وهى من ناحيتها نفحته بمكافآت مالية سعد بها سعادة غير محدودة وأنفق بعضها علينا فى صورة حلوى ممتازة من جروبى، وأنذرناه بمعركة قادمة مع والديه، فقال ضاحكا:

ـ لتكن معركة..

فقال له صادق:

ـ اجبُر بخاطرهم وانجح ثم افعل بنفسك ما تشاء بعد ذلك.

فأجاب بإصرار:

ـ لا أحب العبودية..

وفى ختام العام الدراسى نجح حمادة وإسماعيل وسقط طاهر سقوطا شاملا. انفجرت أزمة حقيقية فى فيللا الأرملاوى. وخمد أملهم فى ولى العهد وجلس أمام عبيد باشا وإنصاف هانم فى قفص الاتهام متهَمًا. قال الباشا بحزن عميق:

ـ هذه نتيجة شخص آخر على وجه اليقين!

وقالت إنصاف هانم:

ـ مسئوليتك ثقيلة على قدر ذكائك، وأنت مطالب بالتفسير؟

طفح قلبه بالأسى ولكنه كان أكبر من أن يفرط فى روحه فقال:

ـ دخلت الطب مرغما، هذا هو التفسير.

فسأله أبوه وهو فى غاية التجهم:

ـ لم تعد طفلا، فماذا تريد؟

ـ مستقبلى فى الشعر والصحافة.

فهتف الرجل:

ـ خبر أسود..

ـ المسألة غاية فى البساطة يا بابا.

ـ تصورك هذا لها يجعل منها مصيبة أخرى.

وتأوهت الهانم وهى تسند رأسها إلى يدها قائلة :

- أى خيبة أمل !

فقال بهدوء :

- أنا آسف جدا ، ولكن لا حيلة لى . .

وبعد أن فرغ من روايته لخص لنا الموقف قائلا :

- الفيللا فى مأتم وأنا فى غاية الكدر .

فسأله صادق :

- ألا تراجع نفسك؟

فقال باسما :

- سألتحق قريبا جدا بالمجلة كشاعر ومترجم ، سيكون لى مرتب ثابت ، أصدقائى هناك يقدروننى جدا . .

وقال إسماعيل قدرى :

- إنى أؤيدك . .

وقال حمادة :

- أحيانا يثبت الآباء أنهم فى حاجة إلى تربية جديدة .

فقال له طاهر :

- أبوك بخلاف أبى ، لين العريكة . .

فقال حمادة بضيق :

- احتقارهم يطاردنى . .

وألحق طاهر بمجلة الفكر . وكانت علاقته برئيفة تنمو وتشتد ، بل لعلها لم تعد سرا ، فليس فى العباسية أسرار . ويوما قال لنا :

- لا مبرر للتأخير ، وعلىّ أن أفعل ما فعله صادق صفوان . .

وهمس صادق :

- الباشا لم يسترد أنفاسه بعد؟ !

فقال استهانة :

- لا بد مما ليس منه بد .

وتضاربت الأقوال فى قشتمر . اقترح حمادة أن يتم الزواج سرا حتى يعرف فى وقت مناسب . ونصح إسماعيل بأن يتم الزواج كأمر واقع ثم يبلغه طاهر أباه برسالة تحرر فى اجتماعنا . ولكن طاهر قال بحزم :

- لا . . أريد أن أواجه التحديات بنفسى . .

ثم وهو يغرق فى الضحك :

- ولتفعل بنا القوة ما تشاء .

فى تلك الأيام المغرقة فى الانفعال تلقى إسماعيل قدرى الضربة القاضية الأخيرة. قاد مظاهرة فى الحرم الجامعى فقُبض عليه خارج أسوار الجامعة، وسرعان ما تقرر رفته نهائيا من الجامعة. هوى صديقنا مثيرا فينا عاصفة من الحزن والأسف. موت أبيه غيَّر مجرى حياته وبدد آماله وها هو الجهاد يقضى على البقية الباقية. إنه وأمه يعيشان على معاش صغير ولا بد من احتواء المصيبة بحل سريع. وتبادلنا الآراء فى مجلسنا فقال صادق صفوان :

- لا بد من وظيفة بالبكالوريا أما المستقبل فبيد الله وحده .

فقال طاهر عبيد :

- لدينا أناس كبار يستشفع بهم عند الحاجة مثل يسرى باشا ورأفت باشا . .

فقال حمادة :

- أبى وفدى والرياح تهب اليوم ضد الوفد . .

فقال صادق :

- رأفت باشا من خصوم الوفد ولكنه لا يخيب الرجاء . .

وأبدى صادق مروءة محمودة فاصطحب إسماعيل إلى سراى رأفت باشا، وعرض عليه المشكلة من البداية إلى النهاية. ونظر الباشا إلى إسماعيل وقال كالعاتب :

- إذن فأنت وفدى . .

فقال صادق باسما :

- مثلى يا سعادة الباشا . .

ووعدهما خيرا، وأنجز الرجل ما وعد، وألحق إسماعيل قدرى بوظيفة كتابية بدار الكتب. هكذا انتهى الصديق الطامح للزعامة والقانون. وقال له حمادة معزيا :

- دار الكتب تناسب عشاق الثقافة .

وقال له صادق :

- وسوف يرجع الوفد إلى الحكم يوما ما . .

فقال إسماعيل بفتور :

- لا يعرفنى أحد من القادة . .

ثم بصوت خافت :

ـ لم يبق لى فى الحياة إلا الثقافة . .

وأراد حمادة أن يسرِّى عنه فقال :

ـ وغابة التين الشوكى . .

وفى تلك الأثناء اختفى من مجال صحبتنا الأقران الآخرون ، واقتصر المجلس على خمستنا . أصبحنا من معالم المقهى . وفى العطلة الصيفية لا نتخلف عنه ليلة واحدة . ووقعنا فى هوى النارجيلة وثملنا بنشوة الدخان . ونوّعنا سهراتنا مساء كل خميس فأضفنا إلى السينما المسرح والصالة ، وزودنا عشاءنا بالخمر أحيانا ، بل عرف حمادة لف سيجارة الحشيش . وظل قشتمر أحب الأماكن إلينا بما هو المأوى الذى نخلو فيه إلى أنفسنا ونتبادل عواطف المودة . وقد بدأ منا ثلاثة ـ صادق وإسماعيل وطاهر ـ حياتهم العملية ، أما حمادة فواصل حياته الجامعية الفاترة . وبدا صادق أسعدنا فقد حقق حلمه فى الحب والعمل . وكم يسعده التنويه بنعمة ربنا عليه فهو يقول لدى كل مناسبة :

ـ الزواج نعمة الله الكبرى على عبده .

وفى الوقت المناسب أيضا بشرنا قائلا :

ـ دخلنا فى متاعب الوحم السارة !

وأنبأ وجهه الصافى فى الأيام التالية عن قلق طارئ كالماء الرائق الذى لا يخفى سرائره ، أهو الوحم يا ترى؟ وصارحنا بهمه قائلا :

ـ حبها النهم توقف فجأة !

واستحوذت علينا حيرة بالغة حتى قال :

ـ أخبرنى نفر من أهلها أن تلك حال عارضة وعابرة وأن لا داعى للقلق . . وعند ذاك قال له حمادة :

ـ نحن قوم لا علم لنا بهذه التجارب ، فاسعد وحدك واقلق وحدك . . وإذا بطاهر يقتحم قلوبنا بحكايته . جاءنا ليلة مخطوف اللون ليقول لنا :

ـ وقعت الواقعة !

عرفنا بداهة ما يعنى وتطلعنا إليه فى إشفاق فقال :

ـ أعلنت الحرب .

لم يكن بقى بينه وبين والديه إلا الصمت . حتى شقيقتاه اللتان تزوجتا من دبلوماسيين بعثتا إليه برسالتين تحثانه فيهما على إرضاء أبيه . وتكمن أزمته الحقيقية فى حبه والديه مع حرصه الكامل على استقلاله . ولم يعد يحتمل التأجيل ولا يقبل بالهرب ، فمضى إليهما فى الشرفة المطلة على الحديقة فى الأصيل . وبدون مقدمات قال بصراحته المعهودة :

ـ إنى أفكر جادا فى الزواج . .

لم يظهر أى رد فعل كما توقع ، غاية ما فى الأمر أن الباشا تساءل متهكما :

ـ هل توجد فتاة محترمة ترضى بفتى فى وضعك؟

فقال بهدوء :

ـ وجدتها وهى جد راضية .

وانفلت الباشا من بروده فقال بانفعال شديد :

ـ إذن هو حق ما سمْعت وأبيْتُ تصديقه؟

وسألته الهانم بمرارة شديدة :

ـ ماذا تقول؟

فقال بهدوء :

ـ لا أدرى شيئًا عما سمعتم ولكنها رئيفة حمزة!

ـ البنت الممرضة!

وصاح الأب :

ـ البنت صاحبة السمعة . .

فقاطعه طاهر واقفا :

ـ بابا ، من فضلك . .

فصاح الباشا :

ـ ثمة قوة مجهولة تريد أن تنتقم منى وتنكل بسمعتى . .

وهمست الهانم :

ـ يا للخسارة يا طاهر . .

ورجع الأب يقول :

ـ حذار . . حذار أن تقترب هذه البنت من بيتنا . .

فقال طاهر بأسى :

ـ أمرك مطاع . .

تابعناه متأثرين فابتسم ابتسامة لا معنى لها وقال :

ـ وحملت أشيائى وذهبت . .

فسأل صادق :

ـ هل تركوك بلا مقاومة؟

فقال ساخرا :

ـ إنى أعيش مؤقتا فى البيت الصيفى بسراى الحلوانى . .

ـ وبعد ذلك؟

ـ اتفقت مع رئيفة على الإقامة فى شقتهم بعد القران فترة من الزمن . . يا لها من رحلة طويلة حقا يقطعها العاشق من بيت السرايات إلى شقة صغيرة متقشفة يطل جانب منها على القرافة . وبدا لنا صديقنا كأنه مغامر لا يبالى بما يصادفه . اختار حياته بجرأة غريبة وقطع ما بينه وبين أسرته المجيدة بوثبة جنونية . ودار نقاشنا حول الخطوات التنفيذية ، واتفق الرأى أخيرا على أن يكتب الكتاب فى مسكن صادق صفوان ونحتفل بعد ذلك بالعروسين فى كازينو العائلات بالظاهر . والحق أننا نستطيع أن نفرح فى أى مكان . وأخليت حجرة فى شقة رئيفة ففرشت بحجرة نوم جديدة اشتُريَت من تاجر أثاث بشارع الشرفا ، بالإضافة إلى حجرة نوم أم رئيفة ، أما الحجرة الثالثة فجعلت للمعيشة والسفرة . وكان الجو خريفا معتدلا فجمعتنا مائدة خاصة للشراب والعشاء . وتبدت رئيفة رائقة سعيدة ، ولم تشهد أمها الحفل لكبر السن أو لعدم الاستعداد . وشربنا وأكلنا وضحكنا ، ومضى ركبنا بعد ذلك فى تاكسيين إلى عمارة العروس .

تزوج طاهر فى العشرين من عمره ، كذلك كانت رئيفة فى العشرين ، وإن خمن إسماعيل أنها أكبر من ذلك . ولدى عودتنا إلى بيوتنا تبادلنا حديثا ذا شجون .

قال صادق :

ـ الحياة لعبة بيد الحظ فلندعُ له بالسعادة . .

فقال حمادة :

ـ أنا معجب بشجاعته ، إنه شخص غير عادى . .

فقال إسماعيل قدرى :

ـ أرجو ألا يندم أبدا

فتساءل صادق :

ـ هل يطيق حياته الجديدة وهو ربيب النعمة والترف؟!

فقال حمادة ضاحكا :

ـ هى لدرجة ما مغامرة سينمائية . .

على أى حال انضم طاهر إلى حزب الاستقرار والسعادة ، وعرفنا عن طريق صادق وطاهر حبا واقعيا رشيدا ، لا كالحب الذى نشهده أحيانا فى السينما ، ولا كالحب الذى حدثنا عنه المنفلوطى . وبفضل ذلك صار منا عضوان منتجان ، أحدهما تاجر والآخر

شاعر، وعما قريب يصيران والدين، وهو خير من الإبحار فى محيط الثقافة شمالاً وجنوبًا دون ثمرة أو التمادى فى تشريح السياسة المصرية دون عمل. ولم نكن نتصور أن ينتهى إسماعيل قدرى إلى حياة الوظيفة الخاملة، وسأله طاهر محرضا:

- لماذا لا تشق سبيلك إلى الكتابة؟!

فقال بفتور:

- لم يجر لى ذلك فى حلم..

كلا، لم نتصور أن يقنع بالهزيمة ويستسلم لمخدر الروتين. وآى ذلك أن حماسه السياسى لم يهن إن لم يكن اشتد. ولم يبق فينا من هو مجرد علامة استفهام إلا حمادة ذلك الرحالة بين الأفكار والمذاهب الذى لا يستقر على حال أكثر من أيام حتى اعتاد طاهر أن يداعبه عند اللقاء متسائلا:

- من تكون اليوم؟!

ويواصل ركن قشتمر سمره ما بين الأصالة والمعاصرة منبهرا بكل جديد فى الفكر أو العلم متطلعا إلى حكم صالح ينعم فيه بالاستقلال والديمقراطية. وتابعنا باهتمام حار صادق جهاد الوفد فى مكافحة الدكتاتورية، أما صادق فكان يحسب الأيام فى جريانها منتظرا الوليد الذى يجود به القدر. وكانت ولادة إحسان غير يسيرة فاضطر إلى استدعاء طبيب لمعاونة الداية، وتلقى بعد العناء من ربه وليده الأول الذى أسماه إبراهيم تيمنا باسم أبى الأنبياء. وفرح به صادق فرحتين، فرحة بمجيئه، وفرحة بتوقع عودة أمه إلى طبيعتها الأولى. وبالمناسبة قال طاهر:

- لا أحب فكرة الإنجاب.

فسأله صادق الذى أصبح ذا تجربة:

- ورئيفة؟

- طبعا العكس..

- عظيم، سوف تنجب عاجلا أو آجلا..

فقال باستسلام:

- بل أخشى أن يكون ذلك قد تم!

فقال صادق بأسلوبه الوعظى:

- هذا حقها فلا تأسف..

كان بعضنا يخاف على طاهر ردة الفعل بعد أن يخبو لهيب رغبته. الحق أنه استمر فى حبه فدل على أنه أحب حبا صادقا، وهضم مقامه الجديد بيسر ومرح، وازداد حماسا فى

عمله وإنتاجه ونجاحه وكأنه لم يخلق إلا لذاك. ومع أنه ابن ذوات كحمادة، إلا أنه كان ذا استعداد شعبى فطرى، حتى منظره اختلف فى ذلك عن أبيه وشقيقتيه بالإضافة إلى العادات والسلوك التى اكتسبها من صحبتنا وانغمس فيها حتى قمة رأسه. وفى أول عهده بالزواج أراد أن تنقطع رئيفة عن عملها وتستقر فى بيتها فلم تمانع وقالت له:

- أنا على أتم الاستعداد ولكن ألا يزيد ذلك من أعبائك؟!

ففكر وحسَبَ ثم قرر أن يتركها فى عملها الذى كانت تربح منه أضعاف مرتبه، وقال لنا بحرارة:

- إنها على خلق وجديرة بكل ثقة.

وعجبنا فى أنفسنا لما ذاع عنها قديما من غير أى دليل. وأهدى إلينا الزمن المتجهم بسمة بسقوط الحكم الدكتاتورى، ولكن حكم الوفد مضى فى غمضة عين عقب فشل المفاوضات فلم يدم أكثر من إشراقة شمس عابرة فى يوم غائم طويل، وخلفه فى الحكم إسماعيل صدقى مفتتحا عصرا داميا من التعسف والإرهاب. وماجت البلاد بالمظاهرات وأنَّت من كثرة الضحايا، وجعل إسماعيل قدرى يرقب المعارك فى ميدان باب الخلق من نافذة حجرته بدار الكتب وهو يتعجب كيف قضى عليه بأن يكون موظفا ويحال بينه وبين الاشتراك فى المظاهرات. وأظلت جماعتنا سحابة قلق لاعتكاف يسرى باشا الحلوانى فى سراياه مريضا، وما أعقب ذلك من إجراء جراحة فى البروستاتا. وما لبث أن تُوفى الباشا فى المستشفى الفرنسى على مبعدة يسيرة من سراياه. فقدت العباسية بموته أهم شخصية اقتصادية ووطنية بين أبنائها، كما خسر الوفد أحد مجاهديه الأوائل. وشيعت جنازته فى موكب عظيم تقدمه أعضاء الوفد وعلى رأسهم مصطفى النحاس. ورغم فتور العلاقة بين الأب الراحل وصديقنا حمادة إلا أن الحزن استغرق الفتى فى يوم الفراق، وبكى فى المدفن بكاء صادقا كأخيه توفيق. ولكن الأمر الذى لا شك فيه أنه شعر بالتحرر والاستقلال وأنه سعد بذلك الشعور. وترك الإدارة لشقيقه، واهتم بفرز ميراثه من الأموال السائلة والعقارات، وصادف ذلك أن بلغ سن الرشد قبل الوفاة بأسابيع. ووضح لنا جميعا أن صديقنا أصبح من الأغنياء بكل معنى الكلمة. ونصحه صادق قائلا:

- حافظ على حسن العلاقة مع أخيك تفاديا من وجع الدماغ.

فقال موافقا:

- أوافق تماما، ولكى أحصل على نصيبى السنوى من أرباح المصنع دون متاعب..

وقال له إسماعيل قدرى:

- وعليك أن تتم دراستك القانونية..

فتساءل بسخرية :

ـ وما وجه الحكمة فى ذلك؟

ـ على الأقل حتى لا يهدر تعب مرحلة طويلة من الحياة!

فقال باستهانة :

ـ كلام فارغ . .

ولم يتردد فهجر كلية الحقوق غير آسف وغير مكترث لرجاء والدته . ودعاه التحرر إلى تحقيق أحلام ألحت على رأسه منذ قديم فاستأجر شقة فى خان الخليلى وأثثها على الطريقة الشرقية ، كما أعد لنفسه ناديا خاصا فى عوامة بشارع الجبلاية ، وقال لنا بسرور :

ـ كى يتسع أمامكم مجال التسلية . .

جاء الوقت ليشبع شغفه بالحياة العريضة ، حسية وعقلية ، فى رحلته الطويلة المتحررة من أى التزام . وكما يأبى الانتماء لرأى فهو يرفض الارتباط بعمل . بل لم يتأثر تأثرنا بزواج صادق وطاهر ، فقد هيج الزواج حنيننا إلى الحياة الزوجية ، أما هو فلم يتزعزع أنملة عن موقفه . وتردد نهاره بين خان الخليلى وشارع الجبلاية ، يقرأ ، يستمع إلى الأسطوانات ، يشرب القليل من الخمر وعشق الحشيش ، ثم لا بد أن يختم يومه بجلسة ساعتين على الأقل فى قشتمر ، وقال لنا بوضوح :

ـ غاية الإنسان من كل سعى أن يبلغ الحياة التى أستمتع بها اليوم .

وقال طاهر عبيد .

ـ عرف صديقنا ما يناسبه . .

فقال صادق بارتياب :

ـ انتظر ، قد ينقلب كل شىء رأسا على عقب!

وها هو إسماعيل قدرى يمارس حياته وكأنما قد استنام إليها بصورة نهائية ، موظف صغير أبدى ، فى بيت محدود الرزق بلا مستقبل ، رأسه يتضخم بالاطلاع والتفكير ، وقلبه قلق بالشك الذى اجتاحه ، ومسراته الحسية متدنية وتعيسة . لماذا لا يلقى الصعاب بالتحدى المناسب لقدراته؟ . لماذا لا يحاول الكتابة؟ . لماذا لا يدرس القانون من الخارج؟ . لماذا يستسلم للهزيمة؟ . وأين تلاشت همته العالية؟! . وكأنه لم يبق له من المتع الطيبة الدنيوية إلا أكلة فاخرة وكأسان من الويسكى فى العوامة أو خان الخليلى . ولكنه لم يفقد يقظته العقلية المتألقة . ولما جاء حمادة ببعض الخواجات يستعين بهم على تذوق الفن التشكيلى والموسيقى الغربية تجلى إسماعيل على رأس المتذوقين ، وربما فتر حماس حمادة أحيانا أما حماسه هو فقد استمر . واهتمامه مع ذلك بالفن والأدب والفلسفة لا

يقاس باهتمامه بالسياسة ورؤاها، وفى ذلك الميدان يعد معلمنا الأول، ووضح ميله للديمقراطية، وإن قال بإيمان:

ـ لا ديمقراطية بلا عدالة اجتماعية . .

ويظل فى ظاهره على الأقل موظفا صغيرا، يثابر على استعارة الكتب والتعلق بالوفد، والسمر فى قشتمر، ومعاشرة الأسى وهو ما لا يلاحظه إلا من يستشف أعماق عينيه.

طاهر عبيد ـ رغم منفاه الاختيارى ـ أسعدنا فيما يبدو. بحسبه أن شعره يعتبر اليوم أجمل ما ينشر من شعر، أو فى الأقل أجمل ما ينشر من شعر فى مجلة الفكر ذائعة الصيت. وها نحن نلمح رئيفة فى ذهابها وإيابها مرتدية فساتينها الفضفاضة لتدارى حبلها. وفى الوقت المناسب أنجبت للشاعر درية. وثمل طاهر بالأبوة كما ثمل بها صادق من قبل، وتساءلنا؛ ترى هل علم عبيد باشا الأرملاوى وإنصاف هانم القللى بمقدم حفيدتهما؟. الواقع يقطع بأن صديقنا قد انفصل عن أسرته إلى الأبد. ووجه الباشا المتعجرف لا يعد بأى أمل فى التراجع، والهانم لا تقل عنه ترفعا واغترابا. ولم يتصور أحدنا أن تقف الهانم موقف الند من أم رئيفة العجوز، والمسألة تبدو حلما من الأحلام أو أسطورة نسجها قلب شاعر متمرد عذب. يسأله حمادة أحيانا متذكرا حبه القديم لوالديه:

ـ ألا تحن أحيانا إلى بين السرايات؟

فيتفكر مليا ثم يقول مداريا أشجانه بالابتسام:

ـ اهجر من يهجرك . .

ويقول عن درية بفخار:

ـ جميلة حقا وصدقا . . اقتبست أجمل ما فى ماما ورئيفة . .

فقال له صادق ضاحكا:

ـ وإذا قدر الله أن تقتبس منك بدانتك أيضا أصبحت بمبة كشر عصرها!

وقال حمادة ذات ليلة:

ـ صادق لم يعُد كالعهد به، ألم تلاحظوا ذلك؟

فقال طاهر عبيد:

ـ كما تقول تماما . .

ولما جاء صادق فى ميعاده المتأخر نسبيا أحاطت به الأعين متفحصة. ولاحظ هو ذلك ولكنه تجاهله. وقال حمادة:

ـ فيك شىء تغير!

فتنهد واستمر فى صمته . وتوالت الأسئلة عن الصحة والأحوال حتى قال :

ـ إحسان لم تعد كما كانت . .

شد انتباهنا بقوة . تستحوذ الأسرار العائلية علينا أحيانا بأشد ما تستحوذ المذابح الدكتاتورية أو الأفكار الفلسفية . . وواصل صادق حديثه قائلا :

ـ إنها اليوم أمّ مائة بالمائة . .

ولم نفهم نحن العزاب ، ولكن طاهر أيضا يبدو مثلنا .

ـ مع واجبات البيت ، فلا شىء يهم إلا الصغير . .

ونظر فى وجوهنا بوجه جاد ثم قال :

ـ وأنا؟! حسبت أن الأمومة تبدأ هكذا ثم يرجع كل شىء إلى أصله ولكن انتظارى نفد . .

فقال طاهر عبيد :

ـ الوقت يتسع لكل شىء . .

فتنهد صادق قائلا :

ـ كانت شعلة فأصبحت رمادا .

ـ لعلها الصحة؟!

ـ الصحة فى أحسن أحوالها . . بل لعلها تسمن أكثر مما يجب ، تفقد رشاقتها ، وتطل من عينيها نظرة هادئة بل خامدة ، وتعنى بكل شىء ولكنها تهمل نفسها ، منظر جديد تماما . .

وتساءل طاهر :

ـ لا مؤاخذة . . هل . .

فقاطعه بصراحة :

ـ تستجيب إذا استجابت بدافع الواجب لا الرغبة!

ـ هل وقع بينكما شىء؟

ـ أبدا ، نحن على أتم صفاء ، المسألة أعمق من ذلك .

فقال له إسماعيل :

ـ عليك بالمزيد من الصبر .

ـ قلت لها مرة : ما لك يا عزيزتى؟ لماذا تهملين منظرك؟ كنت دائما وردة يانعة . فاعتذرت بعملها فى البيت وعنايتها بالولد . . . أعذار واهية وغير مقبولة . . وأكثر من ذلك فهى راضية وسعيدة ، غاية فى النشاط ، لا تهمل شيئا ولكنها تهمل أهم

شيء، بيتنا مثال في نظافته وطعامه، الولد يتألق دائما في اللفائف الناصعة ورغم ذلك فربة البيت كبرت مائة عام!

ونظر حمادة إلى طاهر عبيد وسأله:

- كيف ترى ذلك؟

فقال طاهر:

- إنها حالة شاذة . .

فتساءل إسماعيل:

- هل يلزم استشارة طبيب؟

فقال صادق:

- لمحت إلى ذلك فاستاءت ودمعت عيناها . . إنها مثال في الحياء والتهذيب والطاعة فاعتبرت تلميحي إهانة، وذكرتني بأنه لا ينقصني شيء . . فقلت لها إن العلاقة بين الزوجين لا يمكن تكون واجبا مفروضا، فأكدت لي أنها ليست كذلك!

ولم نملك إلا أن نحثه على الصبر ونمنيه بالشفاء، ولكننا أدركنا مدى خطبه. إنه رجل يتفانى في عمله ولا عزاء له في يومه الشاق إلا الحب، وهو لا يشبع منه فكيف يصبر على بلواه؟!

وأخيرا قال لنا:

- ثم إنها حملت من جديد وأخشى أن يزداد الأمر سوءًا . .

وبات صادق أقلنا مرحا. وجاءته إحسان بابنه الثاني «صبري» وازدادت الحال سوءا كما توقع حتى قال لنا:

- إنها سيدة مثالية، وأمّ مثالية، أما أنا فزوج بائس.

وصمد قشتمر وكأنه وطن ثان لنا. وتُوفي صاحبُه الكهل وحلَّ محله ابنه. وترددت فيه أصواتنا تحتفل بسقوط صدقي. وبشائر سياسية جديدة، وأنباء عن نجاح النازي في ألمانيا بزعامة هتلر، ومعاهدة ١٩٣٦. في أثناء تلك الفترة الطويلة نسبيا لاحظنا أن حمادة يسري الحلواني يهتم اهتماما خاصا بالعمارة القائمة في الجانب الآخر من الطريق. هناك في الدور الرابع تلوح فتاة في النافذة حينا وفي الشرفة حينا آخر. بنت تستحق الاهتمام، ظهرت حديثا في أسرة سكنت في العمارة منذ وقت قصير. ومن موقعها القريب نسبيا يتبدى وجهها الأسمر المستدير غاية في اللطف، بعينيها الواسعتين وشعرها الغزير، في هالة محترمة تدل على أنها بنت ناس. ثم تتابعت الأخبار مسجلة أن أباها طبيب منقول من الأرياف ليشغل وظيفة هامة في وزارة الصحة. وقع حمادة - فيما بدا - في شباك

الحسن المطل، فواظب على الحضور إلى قشتمر مبكرا لينعم برؤيتها فى ضوء النهار. كان الوقت ربيعا، ونحن فى الربيع والصيف ننقل مجلسنا إلى الحديقة الصغيرة فلا يقوم حاجز بيننا وبين الجانب الآخر من الطريق المفضى إلى شارع فاروق. وكان قد بلغ الخامسة والعشرين أو ما يزيد وليس فى حياته من قصص الحب إلا تلك القصة الخاطفة التى أجهضت فى معركة. وبعد أن أقام لمزاجه ركنين فى خان الخليلى والجبلاية زود حياته بالعلاقات النسائية الطائرة، فتجىء المرأة مرة أو مرتين ثم تذهب لحالها، وهو يجد مسرته فى التنقل دون ارتباط أو التزام كحاله فى الآراء والمذاهب. فلأول مرة تعتوره أمارات العاشقين، فيرسل النظر، ويتورد خداه، ويتخلى عن الاستهانة، ويقلقه الشوق والوجد. وقال صادق متناسيا شجونه:

- لا يدهشنى ذلك على أى حال..

ولم ينف حمادة التهمة مستسلما لسحر الواقع. وقال طاهر عبيد:

- على بركة الله!.. اشتقنا للأفراح والليالى الملاح..

ولم تضع رسائله فى الهواء فتلقى رسائل من العينين الواسعتين ونحن شهود، حتى قال إسماعيل قدرى:

- آن لك أن تتحرك..

نحن نحب الحب، ونرحب بنسائمه، علَّها تخفف من توتر جونا المشحون بنبوءات الحرب، ونُذُر السياسة، وعواصف الثقافة المفعمة بالمتعة الضارية والشكوك العاتية. ولكن صاحبنا يتمتع ويحلم ولا تند عنه حركة. وقال إسماعيل مفسرا:

- اعذروه، ليس من اليسير أن يبيع حريته الطاغية ويسلم قلبه وروحه للقيود الأبدية..

ولكن الحركة دبت فى الجانب الآخر بشجاعة فائقة ونية صافية. ظهرت فى الشرفة ذات أصيل فى ثوب أنيق وهيئة دالة على الخروج إلى الطريق. وألقت عليه نظرة ناطقة لا تحتمل التردد بعد ذلك. هتف طاهر:

- دخلنا فى الجد؟

وتساءل صادق:

- هل تخرج وحدها؟

ورجع طاهر يقول له:

- إنها دعوة صريحة فعليك أن تستجيب بطريقة ما، جُسّ النبض بإشارة.. وزرر جاكتته كمن يتأهب للقيام، فابتسمت ابتسامة واضحة. وقال له إسماعيل:

- توكل على الله..

من شدة توتره لم يبتسم. غابت الفتاة من الشرفة وقام هو فى شىء من الحدة وغادر الحديقة. أتبعناه أنظارنا حتى اختفى. وقال صادق:

- إنها تدعوه إلى لقاء فاصل، وسوف يتزوج حمادة قبل نهاية العام.

جاء فى اليوم التالى متأخرا، وطالعنا بوجهه القديم الهادئ الخالى من ذبذبات العواطف وتوهج الأمل. وجمنا بعض الشىء وتساءل طاهر فى إشفاق:

- هل نهنئ؟

فبدرت منه ضحكة باردة وقال:

- انسوا الموضوع تماما..

ولكن حب الاستطلاع لم يترك لنا حيلة، فقال بضيق:

- انتظرت أمس عند محطة الترام، وحتى تلك اللحظة كنت عاشقا تماما، كما كان صادق وكما كان طاهر..

- ثم؟..

- رأيتها بصحبة مامتها قادمتين نحو المحطة، تخيلت ما سيحدث، سنستقل معًا حجرة الدرجة الأولى، يتم التعارف، نجلس بعد ذلك فى مكان مناسب لتحديد الخطوط الأولى، أجل لم يعد بينى وبين النهاية إلا خطوة، خطوة واحدة وأنتقل من حال إلى حال، من دنيا إلى دنيا، من فلسفة إلى فلسفة، وسرعان ما وجدتنى على برزخ فاصل بين حلمى الطويل بالحرية المطلقة وبين عاطفة طارئة مغرية تدعونى إلى العبودية، وشعرت بتمزق فظيع، البنت جميلة وتطالعنى بعينين مرحبتين، ووراءها أمها تضفى علينا طهارة وشرعية، تمزقتُ تماما، ملكنى رعب هائل، وجاء الترام ووقف، وصعدَت إليه أمها، ثم تبعتها وهى تبتسم إلى، وما علىَّ إلا أن أصعد وينتهى كل شىء، ولكنى تسمرت فى مكانى، ونظرت بعيدا هربا من عينيها، وتحرك الترام، ولبثت فى موضعى وأنا أتنهد بعمق وأتذوق النجاة وترتعش أطرافى من شدة الخجل..

لفنا الذهول مليا ثم انفجرنا ضاحكين:

- الله يخيبك يا بعيد!

- أحرجت البنت وأمها..

- بنت مناسبة جدا..

- سوف تندم..

وعند ذاك قال برجاء:

ـ انسوا الموضوع تماما . .

وسكتنا احتراما لمأساته . ربما نعود إلى الموضوع فيما بعد . الحق أن الموضوع فى ظاهره بيِّن الوضوح ، فهذا رجل يعشق الحرية المطلقة ، وله من الظروف المادية ما يتيح له ذلك . ولكن كيف يطيق إنسان سوى ألا يلتزم بشىء؟ . . لقد تصور إسماعيل قدرى أنه رجل عاجز عن الحب الحقيقى ، ولكنه أحب الفتاة ، وهل لا يكون الحب حبا إلا إذا جرى على شاكلة حب المجانين أو حتى الحب السينمائى؟! ولكن حمادة فى هذه الدنيا كزائر متحف للعرض لا للبيع . فى السراى مع مامته ، فى خان الخليلى مع الجوزة ، فى العوامة مع المحترفات ، فى المكتبة مع العقول والقلوب . وقال إسماعيل قدرى مرة :

ـ إذا تعددت الأهداف تلاشى الهدف .

أما صادق صفوان فسلم بالأمر الواقع قائلا :

ـ أعترف بخطئى وأقول إن حمادة لن يتزوج أبدا . .

وقد تزوج أخوه توفيق بعد عام واحد من وفاة أبيه ، وعن طريق أمه عفيفة هانم بدر الدين ، من إحدى عقائل الأسر الكريمة بالعباسية الشرقية . وأرادت الهانم أن تزوج حمادة أيضا ولكنه خيب مسعاها فى ذلك أيضا . وقالت المرأة متسائلة :

ـ لا عمل ، ولا دراسة ، ولا زواج ، لماذا تعيش؟!

أما الشىء الردىء فهو أن أسرار الحياة الخاصة لحمادة يسرى الحلوانى قد فاحت فى العباسية ولهجت بها الألسنة . وما العباسية إلا قبيلة كبيرة لا يخفى فيها سر . عرف الناس سر الفتى الحائر ، وشقته الشرقية بخان الخليلى وعوامته الجميلة بشارع الجبلاية ، وعُرف بالحشاش المنحل . وقالت عفيفة هانم :

ـ يا خسارة أولاد الأكابر ، ومن حمادة الحلوانى إلى طاهر عبيد يا قلبى لا تحزن!

وقيل أيضا إن شلتنا اعتُبرت المسئولة عن تدهور ابنَى العباسية الشرقية ، ولما انتهت إلينا الأنباء تساءل إسماعيل قدرى ضاحكا :

ـ أنلام على خلق شاعر شعبى فريد وعمر خيام حديث؟!

أما صادق صفوان فقال مازحا أيضا :

ـ الحق أن العباسية الشرقية هى التى أفسدتكم بتقديمها الخمر والحشيش لكم فى خان الخليلى والجبلاية ، فويل لأولاد الناس الطيبين من أبناء الذوات!

ولكن إسماعيل قدرى هو من يستحق الرثاء حقا . ولو حسنت أحواله لتقدم الجميع فى طريق الزواج لما عرف عنه من الانضباط وحب الاستقرار . ومما يُحسَب له أن أوار وطنيته لم يخبُ رغم إحباطه الشديد ، وأنه كان أشدنا غضبا وسخطا على الملك فاروق فى خلافه مع الوفد ولم يغفر له إقالته الوقحة للنحاس أبدا ، وقال بعنف :

ـ قديما كان ماهر والنقراشى يصدران حكم الإعدام على الخونة أما اليوم فهما يستحقان الإعدام . .

وفى تلك الأيام توفى صفوان أفندى النادى والد صادق. إنه ألصق الآباء بوجداننا بسبب شاربه الأشهر، ودُفن يوم إقالة النحاس من الوزارة. ويحكى صادق خبر والده فيقول :

ـ كنت منهمكا فى عملى بالدكان عندما جاء أبى لزيارتى على غير عادة، قال لى إنه أحب أن يجالسنى قليلا قبل أن يذهب إلى مقهى عبده بميدان فاروق، فرحبت به بكل حبى واحترامى، وأحمد الله أننى لم أتخلف عن زيارة بيتنا فى بين الجناين كل يوم جمعة وأننى لم أقصر فى معاونته بعد إحالته على المعاش، ورأيته نحيفا أكثر من المألوف فرقَّ قلبى له جدا، وراح يسألنى عن إبراهيم وصبرى وإحسان، رجوته أن يُعنَى بصحته، فقال لى باسما : إن جدى كان أنحف منه لكنه عاش بعد الثمانين، ثم ودعنى وانصرف داعيا لى ولأسرتى بطول العمر، وقبلت يده وصحبته فى سيره حتى ناصية أبو خودة، وأنتم تعرفون ما حدث بعد ذلك . .

أجل فقد مات بالسكتة القلبية وهو يلعب الطاولة فى مقهى عبده. وجاءنا الخبر فى قشتمر فقمنا مع صادق جميعا ولم نفارقه حتى وُورى الرجل فى التراب. وقد حزن صادق لوفاة أبيه حزنا شديدا، وصلى على جثمانه داخل قبره. وفى السرادق ليلا استمعنا لتلاوة الشيخ الشعشاعى، ورأينا رأفت باشا الزين بين المعزين، ولم يخل ركننا من حديث عن السياسة والإقالة.

وشهدنا مقهى قشتمر ونحن نودع الشباب ونخطو أول خطوة فى الرجولة. ومارسنا الحياة بين العمل والثقافة والسمر، وكابدنا حياتنا السياسية بين الأمل والنكد، وكأنما قضى علينا بمواجهة تحديات غليظة راسخة نرسف فى أغلالها ونعانى من قهرها وبعيدا عن ذلك؛ منا من يستمتع بكل متعة متاحة كحمادة أو من يثبت أقدامه فى دنيا المال كصادق، أو من يحقق ذاته فى عالم الفن والشهرة كطاهر، ومنا من ينتظر. وتخضب سمرنا أحيانا بلون من الحديث جديد عن جيل جديد؛ عن إبراهيم وصبرى ابْنَى صادق، ودرية ابنة طاهر. إبراهيم اليوم ابن تسع وهو فى المرحلة الابتدائية بمدرسة الحسينية للبنين، ودرية تشارف الثامنة وهى فى المرحلة الابتدائية بمدرسة العباسية للبنات، وصبرى فى السابعة يتأهب للالتحاق بالابتدائى. ونسأل أحيانا : كيف يتعاملون مع أبنائهم؟ ويقول صادق :

ـ رعاية فى غير شدة، والاستثناء وارد أيضا، أحيانا تهولنى جرأتهم علىّ وعدم خوفهم منى، ولكن أليس ذلك أفضل؟

أما طاهر فيقول :

ـ أنا مغرم بدرية ؛ بجمالها وفطنتها ، لا أمد يدى إليها بأذى ، وأحول بينها وبين مامتها أحيانا ، رئيفة تعتبر شديدة بالقياس إلىّ . ولا بأس من ذلك . .

وقد عرفنا الأولاد وعرفونا فى عطلات الأعياد عندما صحبوا آباءهم إلى قشتمر فى ملابسهم الجديدة .

وتلبد جو الأرض بالغيوم ، ومضت الدراما الإنسانية فى نموها نحو التأزم والتوتر ، حتى اجتاحت الجيوش الألمانية بولندا ، وما لبثت انجلترا وفرنسا أن أعلنتا الحرب على ألمانيا ، وقال إسماعيل قدرى :

ـ ها هى الحرب العظمى الثانية . .

فقال حمادة متسولا من الهواء طمأنينة :

ـ ولكن إيطاليا لم تعلن الحرب !

على أى حال لم يشك أحد فى أنها ستعلنها اليوم أو غدا ، ومن ثَمَّ تصير مصر ميدان حرب بين الحلفاء والمحور . ونشطت الحكومة إلى التأهب حيال المجهول ، فأذاعت المعلومات المفيدة عن الغارات ولفتت الأنظار إلى الإرشادات الواجبة ، ومضت تطلى مصابيح الشوارع باللون الأزرق ، وتضفى على ليالينا سوادا لا عهد لنا به ، بل وبدأت تخطط لحفر المخابئ فى شتى الأحياء .

ولم تتوقف عجلة حياتنا عن الدوران ، وشحنتها الأخبار بالإثارة واليقظة .

حمادة الحلوانى يواصل حياته بين السراى والعوامة وخان الخليلى . وأضاف إلى تنقلاته بين المذاهب تنقلا جديدا بين المحور والحلفاء ، فليلة يكون مع المحور ، يشرح بحماس النازية وفلسفتها العنصرية متابعا جذورها إلى أعمق أعماق الجنس الآرى . وليلة يكون مع الحلفاء مؤيدا للديمقراطية ، منوها بثوراتها التاريخية وما أهدته إلى الانسانية من مبادئ الحرية والمساواة والإخاء . وقد اشترى سيارة فورد من طراز حديث ليؤمن نفسه ضد الظلام وجنود الحلفاء الذين أخذوا يزحمون الشوارع . وتشكّى قائلا :

ـ الويسكى يختفى ، والحشيش ترتفع أسعاره ، والنساء بصفة عامة يفضلن الجنود على المدنيين ، فأى ميزة تبقى لنا كأمة غير محاربة ؟!

فقال له إسماعيل :

ـ سوف تنشب الحرب فوق أرضنا . .

ولكنه قال ضاحكا :

ـ كلما اقترب الموت انفجرت لذة الحياة . .

وطاهر عبيد تحسنت أحواله المادية، ودعى أكثر من مرة لتأليف أغان للأفلام. وانتقلت حماته إلى رحمة الله فى أعقاب إصابتها بالتهاب رئوى، فجدد أثاثَ الحجرتين بأن جعل إحداهما للمعيشة والسفرة والأخرى مكتبة. وقال له صادق مرة:

- لو زرت فيللا بين السرايات ومعك درية لغزت البنت القلوب المغلقة!

فقال طاهر بإشفاق:

- أخاف ألا تُستقبل درية بما هى أهل له من المودة فيتغير قلبى من ناحية والدَى اللذين ما زلت أحبهما. .

- ولكن للحفيد سحرا لا يقاوم. .

فقال طاهر ضاحكا:

- إنك لا تعرف والدَى كما أعرفهما. .

وفى تلك الفترة أقلعت رئيفة عن ممارسة عملها وقنعت راضية بوظيفة ست البيت، ولكنها حافظت بمهارة وإصرار على رشاقتها، وبدافع من حبها واعتزازها بزوجها عودت نفسها على النظر فى الجريدة والمجلة.

أما صادق صفوان فله حكاية لم نطلع على أسرارها إلا حين تمت فصولها. يبدو لنا دائما رجلا مجدا ذا جاذبية. خاصة لزبائنه بما طبع عليه من حلاوة فى الخلق والخُلق. أجل إن مشكلة إحسان تزمن مع الأيام وهو يحاول مسايرتها دون إخفاء لكدره وهمه. غير أنه فى ذات ليلة قرر أن يبوح لنا بسره فقال:

- الحرب شر لا شك فى ذلك ولكنها لا تخلو من خير!

ودهشنا لقوله، وتساءل طاهر مداعبا:

- هل تتفلسف على آخر الزمن؟

أما الحكاية فترجع بدايتها إلى اليوم الذى تولى فيه هتلر الحكم. وفى إحدى زياراته لرأفت باشا الزين قال الباشا:

- الحرب قادمة آجلا أو عاجلا.

فقال صادق:

- ربنا فوق الكل. .

فقال الباشا:

- عليك أن تستعد لها كما يستعد الحلفاء. .

- أنا يا سعادة الباشا؟!

- الإبرة التى تبيعها اليوم بمليم ستختفى وتجد من يشتريها بخمسة قروش هل فكرت فى

ذلك؟ . التجارة ليست مجرد شراء وبيع ولكنها فكر وتخطيط . . فنظر إلى قريبه التاجر الأكبر بإكبار وذهول، فقال الباشا :

ـ خزِّن كل سلعة مستوردة . . أسلحة الحلاقة . . الأقلام . . النفاثات . . الحلوى . . كل شىء . . اشتر التراب لتبيعه ذهبا . .

هذه هى الحكاية . ونظرنا إليه مستطلعين فقال :

ـ خصصت حجرة فى شقتى للخزين . . وابتعت بكل قرش يفيض عن ضروريات الحياة الأشياء الرخيصة الثمينة . .

فقال طاهر ضاحكا :

ـ هكذا تتكون الثروات حقا!

فقال صادق بارتياح :

ـ الحمد لله رب العالمين . .

وأخذت تنهمر عليه النقود . واحتل الزين باشا فى قلبه المنزلة الثانية بعد الله . وجدد أثاث شقته، وبرَّ أمه فى شيخوختها فوالاها بالرعاية وزودها بما تحتاج إليه من مأكل وملبس، ولدى أقل شكوى صحية يجيئها بأطباء وسط المدينة متجاوزا أطباء الحى . ولكن ذلك كله لم يخفف من كدره من حياته الزوجية، بل لعله ضاعفه وصعد به إلى ذروة التوتر . وقال له حمادة الحلوانى :

ـ مثلك يُعذر إذا سعى إلى امرأة . .

فقال بحزم :

ـ ليس لى فى الحرام رغبة . .

وهو على تلك الحال جاءته ليلى حسن لشراء بعض الأدوات المدرسية . سمراء ممتلئة العود، ساخنة النظرة، مثيرة، محتشمة الزى . أثارت اهتمامه وغرائزه، ولم يكن ممن يحسنون إخفاء الباطن ففضحته . وبغزوتها المباغتة شغلت وعيه طوال الوقت وهو لا يحلم برؤيتها ثانية . لكنها جاءته بعد أيام لتستبضع . فرح بها فرحة انتزعته من تقاليده فقال لها :

ـ لست من العباسية فيما أعتقد؟

فتساءلت فى دعابة :

ـ حضرتك شيخ حارة؟

ـ أعرف الجميع سواء فى الدكان أو فى الطريق . .

فقالت وكأنها تعرِّفه بنفسها :

- نحن من الوافدين حديثا، نسكن فى عمارة عم خليل لقربها من المدرسة التى أعمل بها . .

فقال منتشيا بسروره :

- تشرفنا . .

- العباسية حى خطر لوجود الثكنات الإنجليزية بها .

- الله هو الحافظ . .

شعر بأنه يوجد قبول واستجابة . وقص علينا القصة . وفكرنا فى الأمر طويلا غير أن حمادة كان أجرأنا فقال له :

- ظروفك سيئة وأنت تُعذَر إذا تزوجت مرة أخرى . .

- فقال دون أن يفلح فى إخفاء ارتياحه :

- ولكن لإحسان منزلة لا تعد لها منزلة .

فقال حمادة :

- احتفظ بها معززة مكرمة مع ابنيها، وهى ستفهم وتقدِّر وتَعذر .

وجاءته أخيرا بصحبة امرأة فى الحلقة السادسة حدس لتوه أنها أمها، فقال لها يجرها للحديث :

- مبارك، إنهم يبنون مخبأ قريبا من عمارتكم . .

فقالت ضاحكة :

- نعم، على أى حال وبصرف النظر عن الثكنات فالعباسية حى جميل . فقال مجربا نفسه فى الغزل :

- العباسية تشرفت بأجمل بنت فيها . .

ابتسمت المرأة فى سذاجة ودارت ليلى ابتسامة وانتهى الموقف على خير .

ويقص علينا ما يحدث ووجهه يتألق بالسعادة فلم نشك فى أنه وقع فى الهوى من جديد، إنه شاب طيب، وهيهات أن يعرف امرأة إلا عن سبيل الزواج . واقتنعنا تماما أنه لا مفر من الزواج . وفى الحال كلفنا أهل الخبرة بالتحرى عن الأسرة الجديدة بعمارة عم خليل . وجاءت المعلومات تقول : إن الفتاة اسمها ليلى حسن، فى الثلاثين من عمرها، أى تماثل صادق فى سنه، مدرسة بمدرسة العباسية الابتدائية، وأمها ست عيشة أرمل ذات معاش بسيط، أسرة على قد حالها . لعلها لم تكن لترضى بالزواج من خردواتى لولا حسن سمعته وثراؤه ووسامته بالإضافة إلى حصوله على البكالوريا .

ومضى فى حلمه إلى غايته فرنا إلى عمارة جديدة تشطب على الجانب الآخر من

الطريق العام أمام دكانه فقرر أن يحجز بها شقة للعروس الجديدة إن وفق فى مشروعه . وإذن فقد صدقت نيته وتوكل على الله .

ومع الحرب هبت على حينا رياح التغير لا ممتعة ولا سارة . شُقَّ شارع طويل عريض بين شارع العباسية وشارع الملكة ناظلى ، واخترق الحقل القديم الذى كنا بفضله نتمتع بجمال الريف بالإضافة إلى حضارة المدينة . ورحل عم إبراهيم وسكت نعير الساقية واختفت الخضرة المنعشة جارفة معها الشفافية والعذوبة والروائح الذكية ، وحلت محلها على جانبى الطريق الجديد خرابات قاحلة سرعان ما استغلت لبيع نفايات الجيش البريطانى من السيارات الكهنة وتلال المطاط والأدوات الميكانيكية والبطاطين المستهلكة . لم نعد نسمع إلا الدق وضوضاء الشارين وشجار المتساومين ، ولا نرى إلا غبار عربات النقل . وفقد الشارع العمومى هدوءه ، وجرت فوق سطحه عشرات اللوريات وتضاعف عدد الترامات واكتظ بعمال الأورنس ، وانتشر الجنود حتى فى المقاهى البلدى . وبيعت جملة من سرايات العباسية الشرقية المطلة على الشارع العمومى ، وشرع فى إقامة عمائر شاهقة فى مكانها وأخذ يتمايل فى الأفق منظر حى جديد مكتظ بالسكان والدكاكين ، ويطوى فى نموه المتصاعد الحى القديم بسراياته المعدودة وبيوته الصغيرة الأنيقة وسكانه المعدودين الذين تربط بينهم روابط الأسرة الكبيرة الواحدة . وفى أثناء ذلك ، قبيل شروع صادق فى زواجه الثانى وفى خلاله ، وثب صديقنا وثبة أعلنت للملأ ثراءه ، فقد استأجر فى العمارة الجديدة التى تشطَّب أمامه دكانين كبيرين فى أسفلها ، وجعل منهما دكانا كبيرا ، وهيأه بالديكورات والتجميل ، وانتقل إليه ، فلم يعد الخردواتى الوحيد ولكن الخردواتى الفريد الذى يضاهى فى منظره ومعروضاته محال وسط المدينة . ونقش أعلى مدخله على لوحة طويلة عريضة اسم «النادى» يقرأ نهارا بالخط الكوفى وليلا بالمصابيح الكهربائية ، وجلس وراء منصة الحساب مستخدما للعمل موظفا شابا يدعى رشدى كامل . وبطيبته المعهودة قال لنا :

ـ حلمى يتحقق بفضل الله أولا والزين باشا ثانيا .

فقال طاهر مداعبا :

ـ وهتلر ثالثا !

ومضى ينفذ ما اعتزمه ، ولعل طاهر كان الوحيد الذى أبدى شبه معارضة حين قال :

ـ أعتقد أنه يكفى الإنسان زوجة واحدة إن حرص حقا على راحة باله .

فقال صادق :

ـ إحسان عاقلة .

فقال طاهر :

ـ النساء يفكرن بقلوبهن .

وأفضى صادق بنواياه إلى أمه ست زهرانة فارتبكت المرأة وقالت له :

ـ لم يحدث هذا فى أسرتنا قط .

ولما بثها شكواه فى شىء من الصراحة دعت له بالتوفيق . ولكنه لقى قهرا فى مصارحة إحسان حتى تمنى لو كانت على غير هذا المثال من الطيبة والطاعة والنشاط رغم بدانتها المتنامية . وطبعا هو لم يواجهها إلا بعد أن اطمأن إلى موافقة ليلى وأمها . بل إن ست عيشة لم تبارك رغبته إلا بعد أن أقنعها بأنه لم يقدم على خطبة ابنتها إلا بسبب مرض زوجه الأولى التى يتعهد بالاحتفاظ بها رغم كل شىء . وعند ذاك قالت له حماته الجديدة : «بارك الله فيك فنحن لا نحب أن يقال عنا إننا نخطف الأزواج من زوجاتهم» . ورضى صادق بصفة عامة ولو أنه تمنى لو كانت تصغره ببضعة أعوام ، كما أنه تضايق بعض الشىء لما عرف أنه كان لها خطيب سابق انتهت خطبته بالفسخ ، ولكنه فسر ذلك بفقر الأسرة وعجزها عن تجهيز العروس بما يليق . ومما أخبرنا به أيضا أن أمه ـ ست زهرانة ـ صارحته بأنها لا تطمئن كل الاطمئنان للموظفات ، وكيف أن زبيدة هانم حرم الزين باشا سخرت من تلك الأفكار البالية قائلة إن بنات الأسر الكريمة يتعلمن اليوم ويتوظفن كالرجال ولا غبار على ذلك . المهم أنه خلا إلى إحسان وقال لها وهو يشعر بحرج لم يشعر بمثله من قبل :

ـ إحسان ، عَلم الله أنك أعز مخلوق فى حياتى . .

والغريب أنها حدجته بنظرة قلقة كأنما حدس قلبها ما ينوى قوله . .

ـ لم تعد لى حيلة ولا صبر ، ومن الخير لكلينا أن أتزوج . .

توقع غضبة لو وقعت لكانت الأولى فى حياتهما غير القصيرة . ألقت عليه نظرة سريعة ثم غضت بصرها كالخجلة أو الخائفة ، ثم أخفت وجهها فى راحتيها .

ـ سيظل هذا البيت بيتك وبيت أولادك ولن يفرق بيننا شىء . . وكأنما لم تجد إلا الصمت لتعاقبه به . .

ولما رجع إلى شقته مساء عقب سهرته فى قشتمر لم يجد إلا الخادمة التى أخبرته أن الست أخذت إبراهيم وصبرى وذهبت إلى بيت والدها بشارع أبو خودة . ولم يصبر إلى الصباح فذهب إلى أبو خودة ليجد إبراهيم أفندى الوالى وست فاطمة فى انتظاره . أى حزن وجَد! . قال إبراهيم أفندى :

ـ إحسان خير بناتى ولكنها سيئة الحظ .

فقال صادق ليلطف من حرارة الجو :

ـ هى خير النساء جميعا .

وشرح همه بالتفصيل الضرورى . وعلى أى حال رجعت إحسان إلى بيتها فى اليوم التالى بصحبة صادق . أما هو فبدأ من فوره فى تنفيذ ما عقد العزم عليه . وعرفنا الأخبار فى توالدها وتتابعها . فقد صارحته ست عيشة بأن ما لديهم من نقود يكفى بالكاد لتجهيز ثياب العروس ، فتعهد بتأثيث الشقة الجديدة وطالبت ليلى بأن تكون الدخلة فى العطلة الصيفية ، واعتذر هو عن عدم إقامة أى احتفال احتراما لمشاعر زوجه الأولى . وهنا قال طاهر عبيد :

ـ عندنا كازينو العائلات بالظاهر . .

وقد كان . وتم التعرف بيننا وبين ليلى . وتناولنا عشاء طيبا ، وتجول بهما حمادة فى سيارته فى خلوات القاهرة ثم رجع بهما إلى العش الجديد . هكذا وجدَتْ حيويةُ صديقنا المتدين العفيف إشباعا مشروعا . وتمتع صديقنا بعروسه فى الليالى المظلمة على صراخ زمارات الإنذار ودوى المدافع المضادة . وفى عز الشتاء بغتنا يوم ٤ فبراير بدباباته وعودة الوفد المفاجئة إلى الحكم . ارتفعت الأصوات فى قشتمر منا ومن سائر الزبائن وتضاربت الأقوال . الناس سعداء لعودة الوفد ولكنهم واجمون أمام ما يقال من أنه جاء على دبابات الإنجليز . ولم يتردد طاهر عن أن يقول ساخرا :

ـ ألا ترون أن جميع رجالنا خونة؟!

وقال صادق :

ـ من العسير جدا أن يتهم إنسان مصطفى النحاس بالخيانة ، ولكنى لا أدرى ماذا أقول . .

وقال حمادة الحلوانى :

ـ كل وزارة تجىء فبأمر الإنجليز ، فلماذا نتكدر إذا توافق أمرهم مع رغبة الشعب؟

أما إسماعيل قدرى فلم يفتر حماسه ولا ساوره شك . لقد شك فى كل شىء إلا الوفد . يبدو أمام الأفكار كالفيلسوف ، ولكنه أمام الوفد مؤمن بسيط من عامة الشعب المتحمس ، وقال بثقة :

ـ لا تشكوا فى الوفد وشكوا ما شئتم فيما يقال!

وذات ليلة دهمتنا أول غارة حقيقية . استيقظنا على زلزلة القنابل هذه انفجارات فى الأرض تخفق بها بيوتنا وليست طلقات مدافع مضادة فى الهواء . إنه الموت يهدر من حولنا . وهرعنا لا نلوى على شىء إلى المخابئ . وفى مخبأ واحد اجتمع إسماعيل وأمه وطاهر ورئيفة ودرية ، وصادق وعروسه ، وإحسان وإبراهيم وصبرى وست زهرانة . حفر الرعب حفائره فى صفحات وجوهنا . وتَمثل لنا الموت فى قربه وعنفه وصوته . صوتت النساء وصرخ الصغار وتجملنا نحن بالخرس . ولم تستمر الغارة أكثر من خمس

دقائق وربما أقل ولكننا كنا كالعاجز عن التنفس لغوصه تحت سطح الماء. ولدى أول نفس نتنفسه فى استرخاء وإعياء قال طاهر بصوت متهدج:

- هل يقضى علينا بأن نعيش فى الخيام؟!

وبعودتى إلى الواقع. ورجوعى إلى الوعى، وجدتنى أعيش بين ليلى وإحسان. كلتاهما ترتديان قميص النوم ومتلفعتان بروب، الشعر مشعث والوجه شاحب. وعلى حين تبدت ليلى جميلة رغم كل شىء فإن إحسان ذاب جمالها فى برميل من الدهن. وخرج صادق من هول الغارة ليجد نفسه فى حيرة ممزقة بين أفراد أسرتيه المتباعدتين. ذهب وجاء وجاء وذهب. وتعلق به إبراهيم وصبرى ولاح فى وجهه الشاحب الارتباك والحرج. ولم تخلصه من ورطته إلا زمارة الأمان التى دوت فى سكون الهزيع الأخير من الليل لترد الناس من الاحتضار إلى الحياة مرة أخرى. وقسم صادق وقته بين أسرتيه؛ يقضى يومين فى شقة ليلى ويومين فى شقة إحسان، وكان عليه أن ينتظر طويلا حتى تخلو حياته العائلية من توترات الغيرة. وأخذ ميزان الحرب يميل لصالح الحلفاء، ومضت أشباح الغارات فى التلاشى، وكالعادة أقيلت وزارة الوفد، واستقرت حياتنا فى قشتمر بين الراحة والأسى، وأطل جيل الأبناء إبراهيم وصبرى ودرية على البلوغ والمراهقة، ونوه صادق وطاهر الفخوران بتفوق الذرية فى الدراسة وولعها بالثقافة، ولكن..

- إنهم يشهدون الحياة السياسية فى تفسخها، ولا انتماء لهم لحزب من الأحزاب.

- لديهم تجمعات جديدة كالإخوان والماركسيين ومصر الفتاة..

- ألسنتهم طويلة وسخريتهم مريرة..

ووضح لنا أن صادق يبذل همته ليخلق من ابنيه رجلين من رجال الأعمال، أما طاهر فكان يترك درية لنموها الذاتى فى استقلال تام قانعا بالمشاهدة والمساعدة عند الحاجة. وما زال نجاح الصديقين المميزين يتأكد فى الثراء والفن، وحتى إسماعيل فاز بترقية إلى الدرجة السابعة فى حكم الوفد. غير أن إسماعيل كان يدخر لنا مفاجأة بدت فى وقتها آية فى الغرابة. فذات ليلة أشار إليه حمادة الحلوانى وقال ضاحكا:

- من سيارتى وفى شارع الجبلاية رأيت هذا الأفندى الداهية مع امرأة يتناجيان!

وصوبت إليه الأنظار فى اتهام مشوب بالاستطلاع. وقال طاهر عبيد:

- لا بد من التصرف بعد زوال غابة التين الشوكى..

وقال حمادة ضاحكا:

- أراهن أنه اختلس المصاحف الأثرية من دار الكتب وباعها..

وسأله صادق مؤنبا:

- هل تمارس حياة سرية من وراء ظهورنا؟

فقال إسماعيل قدرى كالمعتذر :

ـ انتظرت حتى تكتمل الرواية لأعرف كيف أحكيها لكم ، إنها أرملة وأم عجوز ، سكنتا فى العمارة الصغيرة القائمة أمام بيتى بشارع حسن عيد . .

فقال طاهر :

ـ ولكن ليس من عادتك مغازلة السيدات !

فقال إسماعيل ضاحكا :

ـ هى التى بدأت . .

ـ وماذا فعلْت؟

ـ استجبْت !

فسأله صادق :

ـ هل عرفت الحب أخيرا بعد أن تبوأت عز الرجولة؟

ـ لا مجال للمبالغة ، وكل امرأة لا تخلو من أنوثة !

وسأله طاهر :

ـ وماذا تفعل وليس بين يدك غابة تين شوكى؟

ـ لا . . لا . . إنها سيدة محترمة . .

ـ والحل؟

ـ بالإشارة التقينا وذهبنا إلى الجبلاية ، هى مقبولة من نواح كثيرة ، أسمن قليلا مما ينبغى ، أغمق فى سمرتها مما أود ، فى أنفها فطس خفيف ، عيناها نجلاوان ، حديثها يقطع بأنها تبحث عن الشرع ، وفى تقديرى أنها فى الأربعين من عمرها . .

وتريث قليلا ثم واصل حديثه :

ـ أفهمتها بصراحة أننى على الحديدة !

فقال حمادة :

ـ أحسنت ، ربما رضيت بعلاقة غير شرعية حتى يفرجها ربنا !

ـ لا . . ليست من هذا النوع . . ولم أقصر فى إعلان إعجابى بها .

ـ مشكلة !

ـ كلا . . صارحتنى بأنها غنية ، وأن ما يهمها حقا الأخلاق والإخلاص . .

فقال صادق بسرور :

ـ صبر ونال .

وفرحنا له، واعتبرنا هذه الزيجة المتوقعة أقل ما يستحقه الرجل الذى بشرت شخصيته بأعظم النهايات. ولكن ست فتحية عسل والدته لم يمتد بها العمر لتشهد استقراره. تُوفِّيت فجأة وهى تحادثه ودون أى عناء كأنها مصباح خمدت بطاريته. وكان إسماعيل قد ألف الحياة المنظمة فى كنفها فاستقبل وحدته بكدر وانزعاج. وتكرر اللقاء بينه وبين ست تفيدة فتوطدت أواصر المحبة بينهما وقال لنا مرة:

- من المؤلم ألا يشارك الرجل فى إعداد بيته.

فقال له صادق صفوان مشجعا:

- الزواج أهم من كافة طقوسه.

وعرف أن دخلها لا يقل عن مائة جنيه شهريا ففاق الواقع ما تخيلناه، بالإضافة إلى مدخر من المال لا يستهان به. ولا شك أن المرأة أحبته ورغبت مخلصة فى الزواج منه. وتم الاتفاق على شراء حجرة نوم جديدة، والاكتفاء بحجرتى الاستقبال والسفرة القديمتين. وفى أثناء الإعداد توفِّيت أم تفيدة، وقال له طاهر مازحا:

- إنى أتهمك بقتلها ليخلو لك الجو وسأطالب بتشريح الجثة..

وأعدَّ كل شىء، وتأجلت الدخلة إلى ما بعد الأربعين، ورئى ألا يقام لها أى احتفالَ فارتاح لذلك إسماعيل زهدا منه فى حفل لا يستطيع أن ينفق عليه مليما من جيبه. وترك إسماعيل البيت الذى ولد فيه ليستقر فى شقته الجميلة مستقبلا حياته الزوجية. ومن أول يوم قال لنا:

- أود أن يعفينا الله من الإنجاب..

ولكن لم يكد يمضى شهر حتى قال لنا:

- الولية حبلت، وخاب أملى فى أن تكون قد فاتت سن الحبل..

ويتقدم الزمن فيتمطى فوق كواهلنا كما تسقط حبات الرمل المتطايرة فوق التلال. وتنتهى الحرب وتتفجر أول قنبلتين ذريتين مُنذرتين بمولد عالم جديد ملئ بالرعب. وتتطلع مصر إلى حياة جديدة. ويُعد صادق بيَن الأغنياء ولكن حياته لم تخل من همّ. واضح أنه راض جدا من الناحية الجنسية، وأن هذه النقطة بالذات هى مدخله إلى الإذعان والصبر. وشكا لنا همه قائلا:

- يبدو أن ليلى عاقر، وهذا يُحدث لها سخطا دفينا.

فسئل:

- ألم تستشر طبيبا؟

- لما طال الزمن استشرنا فأكد الظنون وازدادت غمًا..

وبالتالى لم يستطع أن يدرأ عن صفوه القلق. وأراد أن يهوّن الأمر عليها فقال لها إنه لا أهمية لذلك. ولكنها أجابته - وبحدة - أنه أب ولا يهمه بعد ذلك شيء.. واعترف لنا أنها رغم أنوثتها المفرطة فهى حادة المزاج سريعة الانفعال قاسية اللسان. قال:

- كأنها تمارس مهنة التدريس فى البيت أيضا..

وباتت تغار من إحسان وتتصور أنه يتلهف على زيارة بيتها ليسعد بلقاء إبراهيم وصبرى.

- الحق أننى أتجنب الصدام ما وسعنى ذلك..

وأسفنا لهذه الأخبار، وعجبنا لحظ صديقنا الطيب الذى لا يدرى كيف ينعم براحة البال.. وقال لنا:

- إنها من النوع الذى يحب أن يفرض شخصيته على من حوله.

ولما استمرت الحال أو ازدادت سوءا اتهمها بأنها تشعر بأنها متقدمة عليه فى التعليم، وضايقه ذلك فقال:

- إنها متعلمة ولكنها ضيقة الأفق، لا ثقافة لها، وجاهلة بالشئون العامة، لا تعرف الفرق بين النحاس وصدقى، ولكنه الغرور..

أدركنا أنه أساء الاختيار، وتصورنا أنها واثقة من رغبته فيها فهى تستغل ذلك استغلالا سيئا يدل على سوء التقدير والتصرف ولكن صاحبنا لم ييأس، فكان يقول لنا:

- الأيام كفيلة بإصلاح الأخطاء..

ولكنه ينبسط ليلة ويكفهر ليلة. ويضيق صدره فيروح عن نفسه قائلا:

- هى أحسن النساء لو هذبت طبعها، لم أحدثكم عن إسرافها، أنفق عليها أضعاف ما أنفق على بيتى الآخر بما فيه التزامات الأولاد، فى بيتها طاهية، تريد شراء كل ما يبهرها فى السوق، تحب أن تزُور وأن تُزار، إذا دعوتها بلطف أن تستقر فى بيتها اتهمتنى بأنى أريد أن أحبسها وأننى رجل بعيد عن العصر، أنا لا يهمنى المصروف، وأرحب بأى مساعدة تقدمها لأمها، ولكننى لا أشعر بعد ذلك كله بأننى أستحق ولو كلمة شكر..

وسأله طاهر:

- أما زلت تحبها؟

فأجاب باستسلام:

- الحقيقة أنى أحبها.

فقال حمادة الحلوانى:

- أنت تاجر خبير ماهر ولكنك رجل بيت طيب، لم تنكشف طبيعتك مع إحسان هانم لأنها أطيب منك، ولكن الأمر مختلف مع هذه السيدة . .

وسأله إسماعيل:

- ألا تتذكر ما قدمتُه لها عند الزواج؟

- نُسى كل شيء وطبعا لا أفكر أبدا فى تذكيرها به.

فقالَ حمادة ساخرا:

- المرأة متكبرة، جاحدة، لا فرق فى ذلك بين سيدة وبغى . .

ويعتبر إقامته فى بيت إحسان استراحة من المتاعب. اعتادت إحسان الحياة الجديدة وربما وجدت فيها راحة من نوع معين يناسبها، إن تكن ثمة متاعب فى بيت إحسان فهى تحوم حول إبراهيم وصبرى، مع تفوقهما فى المرحلة الثانوية يزدادان استقلالا وانطلاقا بعيدا عن البيت. ويتساءل هو ويتساءل، ويتذكر أيامه وأيامنا حين مراهقتنا ويسأل الله السلامة. ودعاهما لمصاحبته فى صلاة الجمعة فى جامع سيدى الكردى فلبى صبرى وتهرب إبراهيم. وتساءل أيضا من سيخلفه فى عمله أو يعاونه فيه ولكن المال لم يسحرهما، ولا أسعدهما أن يكون رأفت باشا الزين قريبهما، وكل يوم يمضى يتضح معه أن إبراهيم يرفض كل شىء؛ كل حزب وكل هيئة، وأنه لا يعفى أحدا من اتهامه، فماذا يريد؟. على الأقل صبرى يعيد لدرجة ما سيرة أبيه فى التدين، فثمة زمام يمكن أن يقوده منه. وقال له إسماعيل:

- الولدان ممتازان فاقنع بذلك واسعد.

فتمتم بحرارة:

- الحمد لله.

ولكن ثمة مشكلة أخرى اعترضت أمنه فى بيته الأول تتعلق بصحة إحسان. لاحظ أن بدانتها تمضى ببطء وثبات دون توقف، وأنها تنتفخ بصو رة لا تغيب عن عين أحد، بل أخذ نشاطها يقل، وحركتها تثقل، وأحيانا تجلس فلا تقوم إلا بمعاونة الخادمة، هذا بالرغم من أنها أبعد ما تكون عن الإفراط فى الطعام. ويقول صادق:

- ليلى تأكل ضعفها ولكنها لم تفقد رشاقتها . .

وأخيرا رأى أن يعرضها على طبيب فاكتشف بها خللا فى الغدد ووصف لها الدواء، ولكن الدواء لم يجْد، واتبعت نظاما قاسيا فى الغذاء دون ثمرة، وساورها القلق على نفسها، وشاركها قلقها من قلب بات يقدرها أكثر من الأول، ولم يرَ بدًا من استخدام طاهية لها مسلمًا أمره إلى الله. وفى تلك الأيام وسَّع من نشاطه المالى فاشترى البيت الذى ولد فيه ببين الجناين وبيت إسماعيل قدرى بشارع حسن عيد، وهدمهما ليشيد

مكانهما عمارتين جديدتين كانتا أول عمارتين حديثتين تقومان فى العباسية الغربية، وتسهمان فى زيادة سكان العباسية والقضاء على ما يتبقى لها من هدوء تقليدى.

حمادة الحلوانى يواصل حياته العريضة ولا يكف عن إلقاء أحاديثه الممتعة التى تمثل جولاته بين المعارف متحررا من أى التزام. وكم أشفقنا من أن يخطفه الثراء منا فيأنس إلى أناس آخرين وأجواء جديدة ويزهد فى العباسية وقشتمر، ولكنه لم يتخلف ليلة عن قشتمر وأصدقاء طفولته؛ ولأنه الأعزب الوحيد تعلق قلبه بحرارة بالصداقة وذكريات الماضى، ولم يحظ بأى تعويض لدى أخيه توفيق للبرود المتبادل بينهما منذ الصغر، واضطر كذلك للابتعاد عن شقيقته المحبوبة لما ترامى إليه من أن زوجها يتحدث عنه بازدراء باعتباره حشاشا مدمنا، فلم يبق لقلبه من مجال يمارس فيه عواطفه سوى قشتمر وسُمَّاره القدامى. وقد ماتت أمه عفيفة هانم بدر الدين فيما يشبه المغامرة، إذ كانت أسرته أول أسرة فى العباسية تركب فى بعض حجراتها أجهزة تكييف الهواء. وفى يوم اشتد قيظه جلست الهانم أمام التيار البارد تجفف عرقها السائل، فأصابها التهاب رئوى، ولما عولجت بالبنسلين - الساحر الجديد - تبين أنه يحدث بها حساسية شديدة ففاضت روحها فجأة. وتلقى حمادة حادث الوفاة - فى منتصف الحلقة الرابعة كان - برزانة لا تتناسب مع حبه القديم لأمه. ولما كان أخوه توفيق يقيم فى المعادى وأخته أفكار فى الزمالك فقد وجد نفسه يبيت أياما فى قلعة مكتظة بالخدم والحشم، وقد يمر أسبوع كامل لا يطأها بقدم، فمن هنا نشأت فكرة بيع السراى. وتحركت غريزة الملكية والثراء لدى صادق ولكنه خاف أن يبتلع الثمن المطلوب - مائتا ألف من الجنيهات - سيولته المالية، فضلا عن أنه لا يشترى مثل هذه السراى إلا ليحولها إلى عمائر وهو ما لا يتاح له الآن، فاشتراها عم حسنين صاحب الطابونة، وهدمها وشرع فى إقامة أربع عمائر فى مكانها. كانت أول سراى داخل العباسية الشرقية تتحول إلى عمائر، وتجذب فيما بعد إلى سكناها أناسا ما كانوا يحلمون بالوجود فى العباسية الشرقية إلا كسياح أو عشاق متسللين. ويزداد ثراء حمادة بنصيبه من ثمن السراى وبما ورثه عن أمه وهو ما يقارب خمسين ألفا من الجنيهات. الثراء عادة من عاداته اليومية يكاد يفقد سحره، ونطلق عليه عادة: البوق الذى يذيع كل رأى دون أن يكون له رأى. وهو دائما وأبدا القارئ السامع المشاهد الفاسق الشريب الحشاش. ولكن يغلب عليه الحشيش فيلوح فى ثقل نظرته وبطء حركته وشدة استهانته. مرة قال له صادق:

- يا بختك، أنت أسعد الجميع وأصفاهم بالا..

فحرك رأسه معترضا ولكنه لم ينبس بكلمة. وإذا به يقول لنا ذات ليلة:

- عندما أستيقظ صباحا أتساءل: وماذا بعد ذلك؟!

فقال له طاهر عبيد:

ـ إذا أتحفنا المطرب بنغمة حلوة هتفنا له: أعد.. أعد..

فقال بهدوء:

ـ أحيانا لا يرحب القلب بالإعادة!

فسأله صادق باهتمام:

ـ هل بدأ الملل يناوشك؟!

فأجاب بسرعة كأنما يدفع عن نفسه تهمة:

ـ غير صحيح، ما هى إلا حال تمر، ولكن تؤرقنى مسألة!

ـ مسألة؟!

ـ إن الحياة أخذ وعطاء، أما أنا فآخذ فقط.

فقال طاهر ساخرا:

ـ ما دام يوجد من يعطى ولا يأخذ فلا بأس أن يوجد من يأخذ ولا يعطى..

فقال حمادة بامتعاض:

ـ نحن نتقدم بسرعة فى ذلك الطريق المجهول المسمى بالعمر..

وقال له صادق مواسيا:

ـ ثم إنك تعطى كما تأخذ وأكثر، لا تنس ما يأخذه منك المهربون والقوادون والمومسات ومالك العوامة ومالك شقة خان الخليلى والعديد من البقالين والجزارين وباعة الملابس إلخ إلخ.. لا يوجد من يأخذ دون أن يعطى..

ونظر نحو صادق متشككا ترى أيجدُّ أم يسخر، وإذا به يصيح:

ـ إليكم أول شعرة بيضاء فى رءوس شلتنا المصونة..

إنه يشير إلى رأس صادق، وهذا يقطب ويقول محتجا:

ـ كلا.. مستحيل..

ودققنا النظر حتى فرزنا شعرة فى سالفه تختلف عن الشعر الأسود الغزير الناعم، وقام صادق يتفحص الموضع المتهم فى مرآة من مرايا الجدار، ثم رجع مبتسما ابتسامة صفراء وهو يقول:

ـ أبى شاب وهو فى عز شبابه!

وتساءل طاهر باسما:

ـ هل تتذكرون كيف التقينا بمدرسة البرامونى الأولية؟ كأنما حدث ذاك صباح اليوم!

فقال حمادة بلا مناسبة:

- قشتمر أيضا طعن فى السن وشاخ، يحتاج إلى طلاء وتجديد فى المقاعد والموائد، وترميم فى دورة المياه، وحديقته المتواضعة ممكن أن تضاهى حديقة كازينو العائلات فى نضارتها . .

فقال إسماعيل قدرى :

- قشتمر أحب إلى نفسى من ركس أو البوديجا . .

وتساءل حمادة بلا مناسبة مرة أخرى :

- هل حقا أن السعادة هى مطلب الإنسان الأخير؟!

طاهر عبيد يحرز النجاح تلو النجاح فى حياته الشعرية والصحافية ويهيم بحب ابنته درية . الحق أنها جميلة جذابة، رشيقة القوام ورديّة اللون واسعة العينين ذات شعر كستنائى غاية فى الثراء . كثيرا ما نراها فى ذهابها أو إيابها من المدرسة الثانوية . وبكل فخار يقول طاهر عنها :

- ذكية، شجاعة فى أفكارها، متفوقة فى العلوم والرياضة، تريد أمها أن تراها طبيبة . .

ويقول باسما :

- أسأل نفسى كثيرا : ألم تحب ؟! من يا ترى فتى أحلامها؟!

ويسأل حمادة :

- ماذا تفعل لو صادفتها بصحبة شاب فى شارع بين السرايات؟!

فيقهقه ويقول :

- أعمل مغفلا وكأننى لا أدرى . .

ويتساءل صادق صفوان :

- أليس علينا نحو أولادنا واجب التحذير والإرشاد؟

- أمها تعرف واجبها تماما . .

وفى ذلك الوقت جمع طاهر قصائده وأصدرها فى ديوان عنونه «زائرات الحديقة» . ونال كل منا هديته وهنأناه من صميم قلوبنا، وقرر حمادة أن نحتفل بالمناسبة فى العوامة فى ليلة من ليالى العمر . ورحب زملاؤه - وفى مقدمتهم اليساريون - بالديوان، فنشرت عنه المقالات، وظهرت صورته فى المجلات . وكثيرا ما يثنى على رئيفة كست بيت ماهرة، وأمّ يقظة، وزوجة محبة مخلصة ذكية، تعرف كيف تهيئ لزوجها أسباب الراحة والسعادة . ولا شك أنها تغيرت أكثر من المتوقع، فخفّ وزنها أكثر مما يجب، وظهرت فى وجهها أمارات السن، ولكنها لا تزال تُعَد جميلة ورشيقة وفائقة النشاط .

ولكن هموم البلد غطت على همومنا الشخصية، فانفجرت الخصومات الحزبية، وامتلأت الساحة بالخصام، حتى قال طاهر لصادق:

- اعتبرنى مثل ابنك إبراهيم رافضا لكل هذا العك!

على أى حال أصبح فينا - بفضل طاهر - شخصية عامة، تصعد بخطى وئيدة إلى النجومية الأدبية. أجل إن صادق صفوان يود أن يعتبر نفسه شخصية عامة بما هو تاجر معروف ومن ذوى الأملاك، ولكن الفن يضفى على أهله هالة متفردة. ترى ألم يؤثر ذلك فى الأرملاوى باشا وحرمه؟! لم يبدر منهما ما يبشر بذلك. وقد أحيل الباشا إلى المعاش وفتح عيادة للتحاليل الطبية فى وسط المدينة، وكل الظواهر تقطع بأنه نسى ابنه تماما. أما طاهر فبالإضافة إلى الشعر والترجمة راح يكتب مقالة ساخرة أسبوعية كسبت له المزيد من القراء.

وصار إسماعيل قدرى أبًا إذ أنجبت له تفيدة «هبة الله» وكانت ولادة عسيرة، وتمت فى المستشفى اليونانى. وفاجأنا ذات ليلة بقوله:

- سأدرس القانون من المنزل..

وسررنا بذلك ووجدنا فيه ما يتناسب مع تفوقه القديم المتجدد مع الزمن وسأله صادق:

- هل رجعت إلى هدفك القديم؟

- نعم، أنا لا أفرق بين الوطنية وبين الاشتغال بالسياسة..

وانهمرت على ركن قشتمر الأخبار المثيرة؛ مصرع أحمد ماهر، حرب فلسطين، مصرع النقراشى، الحرب بين إبراهيم عبد الهادى وبين الإخوان، عودة الوفد، حريق القاهرة. كتب علينا أن نعايش الهموم ونتجرع الأحزان ونكظم الغضب أو نزفره سمرًا أو ونكاتًا ونوادر هزلية. ودخل الأولاد الجامعة وحتى هبة الله دخل الروضة. أما نحن فقد بلغنا الأربعين، تلك العلامة المميزة ذات الطنين الأبدى. بلغ صادق قمة ثرائه. وحمادة الحلوانى أدرك الغاية فى معالجة الفراغ بالإفراط فى الطعام والشراب والمخدر حتى فاق طاهر فى وزنه وبلغ طاهر منزلة فريدة فى عالم القلم، أما إسماعيل قدرى فقد حصل على الليسانس، فاستقال من عمله فى دار الكتب وعمل فى مكتب محام وفدىّ غير أن أهم الأحداث العائلية جرت فى الحريم أو من خلال الأولاد.

ففى بيت صادق صفوان الأول تفاقم مرض إحسان حتى اضطرت إلى ملازمة الفراش عاجزة تماما عن الحركة. وظل صادق يرعاها بكل ما فى وسعه ولا ينسى على حد قوله لنا:

- لم أعرف السعادة الحقيقة إلا بين يديها.

أما زوجه الثانية ليلى حسن فاستمرت فى ملاعبتها الشاذة معه، تحاوره بين قطبى اللذة والألم، حتى تمزق تماما بين الرغبة فى الإبقاء عليها وتمنّى الخلاص منها. يقول ويعيد إنه بقدرما وهبت من أنوثة بقدرما أفعمت بسم العنف، متكبرة على غير أساس كأنما هى المتفضلة، وعند الانفعال ينفث لسانها ألوانا كريهة من السموم، وهو بدوره لم يعد يسكت فعلمته السب وما يندم على قوله أحيانا.

ويقول له حمادة الحلوانى:

- حظك فى الزواج ليس كحظك فى التجارة والمال..

فيقول متحسرا:

- كانت بين يدى امرأة ولا كل النساء، يا للخسارة يا إحسان!

واختل عقل ليلى أكثر بسبب عقمها فإذا بها تقول له ذات يوم:

- أمّن لى حياتى بكتابة عمارة باسمى..

يا للمصيبة!... إنها تفكر فيما بعد موته، وتذكره بالنهاية التى لا يجب أن يُذكره أحد بها. واستاء وحنق، وآمن بأنها لا تفكر إلا فى ماله، والواقع أن المال وتوابعه هى ما يستأثر باهتمامها فى المقام الأول. وقال لها بصرامة:

- لله فى ذلك شريعة لا أحب أن أخرج منها..

فصاحت به:

- اعترف بالحقيقة وهى أنك لا تحب إلا ابنيك..

وإذا نشب خلاف بينهما خاصمته، فحتى التحية العابرة تنقطع، وتتبعها المعاشرة، ثم تقضى أكبر وقتها فى الخارج.

فقال إسماعيل آسفا:

- هذا هو الجحيم..

وقال حمادة:

- إنها فى حاجة إلى من يكبحها..

فقال صادق:

- ضقت بالحياة، فهل أطلقها؟

وسادنا صمت لم يخرقه إلا حمادة، وقال:

- الحق أن البعد عن مثلها غنيمة!

وتساءل صادق:

- هل فعلتُ ما أستحق عليه عقاب الله؟

تساءل بنبرة المطمئن إلى ورعه وتدينه، وتذكرنا بعض تصرفاته التجارية مما يُعد فى نظر التجار شطارة وحلالا ولكن الكثيرين يعتبرونه استغلالا ضارا للناس، ولكننا تغاضينا عن ذلك وفاء له ورحمة به. وقال إسماعيل قدرى:

- إذا أردت أن تسعد مع ليلى فاذعن لمشيئتها دون شرط..

فقال بكبرياء:

- مستحيل، إنها مثل النار لا تشبع..

فقال الآخر بحزم:

- إذن فلا محيد عن الطلاق.

ووجد أنها لا تكف عن المطالبة بالعمارة، فقال لها بهدوء مخيف:

- ليلى، الحياة معك لا تطاق:

فصاحت:

- هذا ما يؤكده سوء حظى كل يوم.

فقال:

- إذن ليذهب كل منا إلى حال سبيله.

فصاحت بجنون:

- هذا أجمل ما سمعت منك.

وطلق صادق زوجه الثانية قبيل حريق القاهرة بأيام. وقد غرم لذلك غرامة لا يستهان بها؛ ففازت بالأثاث ونفقة المتعة والنفقة المعتادة. ولكنه قال متعزيا:

- راحة البال أهم.

ولكنه أدرك فى الوقت نفسه أنه رجع إلى عهد الحرمان. وإلى جانب ذلك لم تخل حياته من بوارق سعادة، فقد تخرج إبراهيم وبعده صبرى فى كلية الحقوق والتحق إبراهيم بوظيفة فى بنك مصر بعد امتحان أعلن عنه وبسعى أيضا من رأفت باشا الزين. أما صبرى فقد قُبض عليه فيمن قبض عليهم من الإخوان. وأكد لنا صادق أن ابنه لم ينضم للجماعة ولكنه بدافع من تدينه تبرع لبناء جامع فعثر على اسمه فى كشف المتبرعين وعُد من الإخوان. ورغم أنه أهين وضُرب ولكنه أفرج عنه ووقفت فترة الاعتقال عثرة فى سبيل توظيفه ولو إلى حين. وثمة مفاجأة سارة سعدنا بها جميعا لا أسرة صادق وحدها. فقد صارح إبراهيم أباه برغبته فى الزواج من درية كريمة صديقه طاهر. وسعد صادق بالخبر سعادة كادت تنسيه همومه ولو إلى حين، وضمن له موافقة الأب على الأقل. وعند ذاك قال له إبراهيم:

- أنا ودريّة متفقان تماما . .

فأخذ صادق وتمتم :

- لقد جاوزت حدودك يا إبراهيم .

فتساءل إبراهيم بدهشة :

- لماذا يا بابا؟

وصمت صادق طاويا صدره على تقاليده . وجاءنا مساء منبسط الأسارير على غير عادته فى الأيام الأخيرة . ونظر إلى طاهر عبيد بعينين باسمتين وقال :

- يا حضرة الشاعر ، محسوبك يطلب القرب منك . .

وهزنا الخبر هزة لطيفة ذكَّرتنا بمرور الأيام ، ولكن بأكبر قدر من الرفق وأقل قدر من الأسى . أما طاهر فضحك عاليا وقال :

- لى الشرف يا معلم صادق ، من زمن وأنا أتوقع هذا الطلب ، ولكنك آخر من يعلم . .

وعلت قهقهة فغطت على قرقرة النراجيل . والحق أن درية بنت ممتازة ، وقد استهواها فن الرسم فدخلت مدرسة الفنون الجميلة رغم تفوقها فى العلوم والرياضة ، ورغم اعتراض مامتها . ولما أتمت دراستها ألحقها والدها بعمل فى مجلة الفكر . وهى تماثل إبراهيم فى رفضه الواقع مع شىء من الميل إلى فلسفة اليسار ، ولكن غرامها بفنها فاق كل شىء . وقال حمادة :

- من حقك أن تفرح وسط أحزانك يا رجل يا طيب ، وعليك أن تتزوج أيضا فمثلك لا يطيق حياة العزوبية . .

فقال صادق :

- بل يجب أن أطمئن أولا على صبرى . .

وصبرى كان يسترد أنفاسه عقب محنته القاسية فى الاعتقال . ولما سد فى وجهه باب الوظائف اقترح إسماعيل قدرى على أبيه أن يعمل معه فى مكتب المحاماة ، ولكن صادق حسَّن لابنه أن يفتح له فرعا فى شارع عشرة ، تمهيداً ليحل محله بعد ذلك فى تجارته ، وحتى لا تُصفَّى التجارة الناجحة بوفاته أو بتقاعده وقرر صبرى أن يجرب نفسه فى المشروع الجديد ، وفتح له والده الدكان فى شارع عشرة عند نهايته المطلة على ميدان العباسية . ثم احتفل صادق بدخلة إبراهيم ودرية بعد أن خصص لهما شقة فى عمارته الجديدة بشارع حسن عيد أمام مسكن إسماعيل قدرى . واستأجر طاهر شقة أخرى فى نفس العمارة له ولرئيفة وفرشها بأثاث جديد يناسب حالته الجديدة .

وفى أثناء تلك الفترة غير القصيرة تعرض حمادة الحلوانى لطوارق خفيّة متسللة من الهم، صار بها فى النهاية صاحب مشكلة. عانى ذلك الحشاش البدين طارئا جديدا غير الخمول والذهول. قال لنا ذات ليلة:

- رغم كل ما يتهيأ لى من أسباب الراحة فإننى أضيق بالحياة أحيانا لحد القرف!

ووجمنا، وطال صمتنا، حتى قطعه صادق بلهجته الوعظية قائلا:

- أنت الوحيد بيننا الذى تحيا بلا عمل.

وقال له إسماعيل قدرى:

- حياتك يتمناها كل إنسان كحلم، أما كواقع فهى شىء آخر.

فقال حمادة معاندا:

- دعونا من المحفوظات، إنها حياة عظيمة، ولكنها تحتاج إلى حلول جريئة..

فقال طاهر عبيد:

- أفرغ طاقتك المختزنة فى نشاط جديد، ما رأيك فى الرحلات؟!

عز علينا أن نفقده ولو إلى حين ولكنه كان العلاج المتاح. وقرر الرجل أن يقوم برحلات متنوعة بادئا بالداخل؛ تنقل صيفا بين مواقع الساحل الشمالى، وزار شتاء الأقصر وأسوان، ورجع أحسن حالا، ولكن ذلك لم يدم طويلا. وقال له إسماعيل قدرى:

- قم برحلات أخر فى الخارج..

وهشَّ للاقتراح وعزم على تنفيذه، ولكن التاريخ كان يُعِد لرحلة جديدة فى حياة مصر، فاضطر الرجل إلى أن يعدل عن مشروعه.

وكان طاهر عبيد يتألق كفنانَ، ويهنأ بأبوته إلى أقصى حد، أما كزوج فقد خامرنا من ناحيته شك. بلغت رئيفة الأربعين أو جاوزتها بقليل، ولكن العمر لم ينل من أحدنا كما نال منها، بل قدَّر بعضنا أنها كانت أكبر مما حدسنا يوم زواجها. هزلت بدرجة كبيرة جردتها من كافة مزايا الجسد الأنثوى. وبرزت عظام وجهها فتغير شكلها وشحبت صورتها. أجل بقى الحب القديم كما كان فى الظاهر على الأقل، وتبدى طاهر كعادته مرحا ضاحكا ساخرا، وتساءلنا: كيف تكون الحال مع الزميلات والمعجبات؟! وعلى أى حال فإن يكن ثمة وفاء فمرجعه إلى الأخلاق الطيبة لا إلى الغرائز الراضية. وفى تلك الأيام علم طاهر أن أباه معتكف فى فيللا بين السرايات لمرض خطير فى المثانة، فأزاح عن صدره عُقَد السنين. ومضى إلى الفيللا. رجع إليها كهلا بعد أن غادرها شابا فى ربيع العمر. وأحدث ظهوره هزة شاملة؛ استقبلته إنصاف هانم بحرارة وقبَّلته، وقادته إلى مخدع الباشا دون استئذان، ورنا إليه الرجل مليًا وببصر ضعيف، ثم أخرج يده المعروقة من تحت الغطاء فتصافحا طويلا حتى دمعت عينا طاهر، وقال برقة:

ـ شد حيلك يا بابا، أرجو أن أهنئك بالسلامة فى المرة القادمة . .

فشكره بصوت ضعيف ثم سأله :

ـ كيف حال أسرتك؟

ـ تود أن تحييك بنفسها .

فقال بصوت كالهمس :

ـ أود أن أراها . .

وتمت الزيارة فى جو يعبق برائحة الفناء؛ الباشا طريح الفراش يطوى الفصل الأخير من حياته الشامخة، والهانم اشتعل شعرها شيبا وغاض من وجهها ماء الحياة. وصحبته رئيفة ودرية وإبراهيم، فبعثت درية بحيويتها وجمالها انتفاضة منعشة فى الجو القاتم؛ ضمتها الهانم إلى صدرها بحنان، وأبقى الباشا يدها فى يده طويلا، ولبثوا فى الفيللا حتى تناولوا الغداء. وبعد أيام أسلم الأرملاوى باشا روحه، فرثته الصحف رثاء لائقا وودعته العباسية فى جنازة كبيرة. وودعت إنصاف هانم القللى ابنها وزوجته وحفيدتها وزوجها للإقامة معها فى الفيللا. ولم يترك الباشا من العقار إلا الفيللا وكمية محترمة من الأسهم والسندات وقليلا من المال السائل ووزعت تركته بين الهانم وطاهر وتحية وهيام. وأصبح لصديقنا صادق صفوان قصران يتردد عليهما بين آونة وأخرى؛ قصرالزين وقصر الأرملاوى، وكان يُسرّ بذلك دون خفاء.

أما إسماعيل قدرى فقد أثبت كفاءة غير عادية فى مكتب المحاماة، وقدمه أستاذه إلى نخبة من رجال الوفد، وميَّزته ثقافته الشاملة فاحتل منزلة محترمة فى القلوب، وشهد كثيرا من الندوات فى جمعيتى الشبان المسلمين والمسيحيين واشترك فى المناقشات، وبُشر بلمعان قريب ولم نشُك فى أنه بالغ هدفه طال الزمان أو قصر. ولما جرت انتخابات عام ١٩٥٠ قال له أستاذه :

ـ أتنبأ لك بأنك ستكون من المرشحين فى الانتخابات القادمة!

وعند إلغاء المعاهدة تسنمنا ذروة النصر، وعند حريق القاهرة هوينا إلى الحضيض. وتعاقبت الأحداث وكأنما يوجهها أبلهٌ أو مجنون، فعلق عليها طاهر عبيد بقوله :

ـ ما هذه بدولة ولكنها سيرك هزلى . .

ونحن على حال كئيبة من المرارة والسخرية والتقزز، هلَّ علينا يوم ٢٣ يوليو كالسحر المبين. شملتنا صحوة طاغية وتتابعت الحوادث كالأحلام، فرحل الملك والإقطاع والألقاب، وبرز الفقراء والضائعون من القاع فتربعوا على العرش، وأصبح كل مستحيل ممكنا. ولم يعد لنا من حديث فى ركننا العتيد بقشتمر إلا حديث الحركة المباركة. هرع صادق إلى قريبه العجوز الزين باشا أو السيد رأفت الزين ليستمد منه الأخبار، وراجع ما تبقى له من وفدية قديمة، ولكنه لم يسعه إلا أن يقول :

ـ حقا إنها حركة مباركة!

لكن صوته يخونه، وابتسامته تخونه، ونظرة عينيه تشى بالانقباض والقلق. ومضى حمادة الحلوانى على عادته، ينبهر يوما بقرار فيحتدم حماسه وكأنه أحد الضباط الأحرار، ثم تترامى إليه معلومة أو إشاعة فينقلب عدوا لدودا ويقول:

ـ ما هم إلا عملاء أمريكا!

وأما إسماعيل قدرى فقد رحب عقله بالأفعال ورفض قلبه أصحابها. لم يتنكر لوفديته قط، وساءه التفاف الشعب حول الحركة، واستعرت بين جوانحه معركة بين عقله وقلبه، وقال بصراحة:

ـ كان يجب أن يجعلوا من الوفد قاعدة لهم!

ولا شك أنه وجد آماله الشخصية تداس تحت أقدام الحركة الغليظة العسكرية. العجيب حقا هو حماس طاهر عبيد! لأول مرة فى عشرتنا الطويلة نراه متوهجا متألقا كالكهرباء، يرقص طربا ويتغنى بالمجد، ويهب قلبه وعقله بلا تحفظ. يقول:

ـ هذا حلمى الذى لم أعرف تأويله إلا اليوم!

ثم بارتياح عميق:

ـ ودرية معى على طول الخط..

وبهذه الروح مضى شعره ينبض فى مجلة الفكر.

وانطلق قطار الثورة من محطة إلى محطة، ويحقق انتصارات لا حصر لها، ويذلل العقبات، ويطوى التحديات.

وما زال صادق صفوان يكابد القلق الذى يأبى أن يفارقه. وشد ما جزع لما حل بأسرة الزين باشا، فقد التهم الإصلاح الزراعى الجزء الأكبر من أراضى زبيدة هانم، كما توقف نشاط الزين فى البورصة، ولم يعد للأسرة من مورد إلا إيجار المتبقى من الأرض الذى ضمر أيضا بحكم القوانين الجديدة. وحتى ابنه محمود استقال من السلك السياسى وأقام فى إنجلترا مهاجرا أبديا. ويقول صادق:

ـ لست من الإقطاعيين ولكننى من ذوى الأملاك، وقد يأتى دورنا، ألا ترون أن الثورة عدوّ سافر للناجحين؟!

دائما وأبدا يشعر بأنه مُطارد، وأصبح فى حيرة وأىّ حيرة من أرباحه المتصاعدة فيقول:

ـ لا أدرى ماذا أفعل بمدخراتى، من الحماقة أن أستثمرها فى البناء، ومن الغباء أن أودعها فى البنوك، ومن الجنون أن أبقيها فى بيتى!

وقال لابنه إبراهيم يوما :

ـ لعل بالك قد ارتاح الآن!

ولكن إبراهيم أجابه :

ـ ألم تسمع عن استغلال النفوذ؟ ألم تبلغك أنباء المخابرات؟ ألم تشم رائحة الفساد؟!

فقال له حانقا :

ـ كأنك تحلم بثورة جديدة، ألا تكفينا ثورة واحدة؟!

وظن صبرى يوما أنه صاحب الثورة باعتباره إخوانيا، فلما انقلبت الثورة على الإخوان قبض عليه فيمن قبض عليهم وقدم إلى المحاكمة، غير أنه كان من القلة التى برئت ساحتها، وفقد ثقته فى كل شىء، وفى اللحظة المناسبة هرب إلى السعودية والتحق بعمل مناسب فى شركة مقاولات. وقد شق الفراق على صادق وإحسان ولكنه تعزى بأن ابنه وجد فى السعودية مستقرا وعملا وأمنا بعيدا عن مصر التى أصبح يحكمها ـ فى اعتقاده ـ قانون الغاب. ورغم همه المقيم وَالَى ولىّ نعمته بحبه وإخلاصه وزياراته المتلاحقة. وكان الباشا القديم قد نيف على الثمانين وتدهورت صحته ولزم حجرته، فوهنت ذاكرته وذبلت شعلة اهتمامه بأى شىء، بخلاف زبيدة هانم التى صمدت لتقلب الحظوظ. وعرض صادق عليها أن يمدها بما ينقصها. قال :

ـ اسمحى لى أن أرد شيئا من جميلكم الذى لا ينسى.

وقبلت معونته قائلة :

ـ إنك ابنى مثل محمود الذى فقدته إلى الأبد..

وأخذت السرايات فى الاختفاء وحلت مكانها العمائر والسكان الجدد فتساوت العباسية شرقيها وغربيها لأول مرة فى التاريخ. وذات ليلة أراد حمادة الحلوانى أن يخفف من قلق صادق، فقال له مازحا :

ـ إليك هذا البيت..

ما مضى فات والمؤمل غيب ولك الساعة التى أنت فيها

اتله ثلاث مرات قبل غيار الريق!

فقال صادق بفتور :

ـ ولكنى سأظل أفكر فى الفك المفترس!

ولعل حمادة الحلوانى أيضا لم يبرأ خياله من الفك المفترس. ما زال يحتفظ بشقة خان الخليلى والعوامة والسيارة، ولكنه كان يتساءل كثيرا؛ ترى ماذا تخبئ لنا أيها الغد؟. وكلما ناوشته أفكار السوء لف سيجارة حتى أصبح يتعاطاه على طول اليوم، مستمدا من سحره استهانة ولا مبالاة. ويقول ساخرا :

- من فضل الثورة أنها تمدنا بعجائب لا يعيش معها الملل .

أو يقول :

- المسألة واضحة كالشمس ، مجموعة من الفقراء ثارت على الأغنياء لتنهب أموالهم وترمى إلى الشعب ببعض الفتات . .

وتلقى أول إصابة مباشرة حين التأميم ، فقد أُمِّم مصنعهم وانقطع دخله الثابت . ولم يهز ذلك ثراءه الواسع ، ولكنه ضاعف من مخاوفه كما أكد إدمانه وقال معلقا وساخرا :

- الله يرحمك يا بابا ، شد ما أنبتنى لكسلى . . وأشدتَ بأخى لعلوّ همته . . فانظر أينا كان الحكيم . .

وقد مرض بكبده وعولج منه ، ولكنه امتنع نهائيا عن تعاطى الخمر ولم يكن من عشاقها . وحين التأميم بلغ الخمسين من عمره فأخبرنا بأنه لم يعد ينسجم مع أى امرأة جميلة ، وأنه يدقق فى الاختيار ليحقق لمزاجه ما يريد . ولأول مرة باتت ذاكرته تخونه أحيانا فجزع لذلك وقال :

- الموت يبدأ بالذاكرة ، وموت الذاكرة أقسى أنواع الموت ، ففى قبضته تعيش موتك وأنت حىّ ، وتُرَد وأنت لا تدرى إلى الأمِّية !

ولا شك أن سحابة من الأسى نشرت جناحيها فوقه لما حل بأخيه وزوج أخته أفكار الذى كان من كبار الملاك الزراعيين ، ولما جرى على الوفد حزب أبيه ، والبطولات التى أطلت على الدهر فى شموخ والتى تتحول من خلال أبواق الدعاية إلى تلال من الخرائب . وقال :

- ضايقنى يوما أننى آخذ دون أن أعطى ، اليوم أندم على الندم ، وخير ما يفعله الإنسان فى هذه الأيام أن يوطن نفسه على استقبال الموت فإذا وقعت شدة وجدنا فيه الفرج . .

أما إسماعيل قدرى فقد عجب لسعى الدهر بينه وبين آماله . كلما ابتسم له المستقبل وثبتْ الحوادث فطمست ابتسامته ، ذهب المجد وتولى ، لكن حظه أفضل من كثيرين من الوفديين الكبار الذين تمزقوا بين الإهانة والسجن ، ونشاطه فى المحاماة يدرّ عليه دخلا لا بأس به ، وأسهمه لا تزال فى صعود بالإضافة إلى دخل زوجته . ولم يغب عن عقله الموضوعى ما أنجزته الثورة للوطن والشعب حتى يخيل إليه أحيانا أنه مواطن فى دولة عظمى ، أما قلبه فلم ينفتح للثورة أو رجالها وتابع فى كل حين سلبياتها حتى قال لنا يوما :

- إنها ثورة ذات أهدف جليلة ولكن القدر عهد بها إلى شلة من قطاع الطرق . . ولم يعد يجد عزاء فى تفيدة التى بلغت الستين حين بلغ الخمسين . ولم تكن تسلم

بالواقع أو تستسلم للهزيمة فأنفقت عن سعة على طعامها المختار ورياضتها اليومية، والموضة التي تتنافر مع سنها، وتبالغ في التبرج لدرجة تثير الابتسام. واعترف لنا يوما قائلا:

- هيهات أن أنسى فضلها ولكن رغبتي فيها تموت ساعة بعد أخرى. فسأله حمادة الحلواني مازحا:

- لعلك تحن من جديد إلى غابة التين الشوكي؟!

الحق أنه ركز اهتمامه الأول على هبة الله الذي جاءت الثورة وهو ابن ست سنوات، ويوشك اليوم أن ينتهي من المرحلة الابتدائية، ويبشر نموه بعملقة في الجسم وقوة الملامح وتفوق في الرياضيات. ويقول إسماعيل ضاحكا:

- إنه ابن الثورة مائة في المائة وأنا مضطر إلى تحمله دون تذمر، وأتحاشى تصحيح أي معلومة له إيثاراً للسلامة..

ومرة طرح سؤالا بلا مناسبة على الإطلاق، قال:

- للحياة هدف وهذا قد نخلقه بأنفسنا، ولكن للكون أيضا هدف فما هو؟!

وغرقنا ليلتها في حوار طويل عن هدف الحياة وهدف الكون فنسينا همومنا الشخصية وإلى حين.

ومن بين أفراد مجموعتنا الفانية يبزغ طاهر عبيد كالقمر في تألقه وينطلق في طريق النجاح كالشهاب. من أول يوم دُعي إلى المشاركة في تحرير مجلة الثورة، لماذا؟. لم يكن من المنافقين ولا أهل الثقة، لكن شعره الشعبي القديم بشر بالثورة قبل أن توجد. وزكّاه أيضا أنه عرف ببعده عن الأحزاب، وسرعان ما توثقت العلاقة بينه وبين الضباط المتولين شئون الثقافة، وهو من ناحيته، وبتلقائية وإخلاص، كرس شعره للثورة، فما من إنجاز أو نصر أو موقف نبض به قلب الثورة إلا وأعطاه المعادل الشعري في أجمل صورة، ثم سرعان ما يترجم إلى غناء تردده الإذاعة والتليفزيون في حينه. وسأله صادق صفوان الذي لا يفيق من القلق:

- ألا تستطيع بمنزلتك الغالية عندهم أن تدفع عنا البلاء إذا حمَّ قضاؤه؟!

فضحك عاليا وقال:

- لا يدفع ذلك شعر أو نثر..

وقال حمادة الحلواني بأسف:

- من المحزن وغير المفهوم أنك مخلص فيما تقول وتكتب..

وقال إسماعيل قدري بمرارة:

ـ شعر جميل ومضمون زبالة!

ويقول طاهر جاداً:

ـ صدقونى إن مصر لم تعتل هذه الذروة منذ عصورها المجيدة كما أنها لم تشهد طيلة تاريخها مثل هذا الرجل المعجزة، وإنه لعظيم من يستطيع منكم أن يعلو فوق خسائره الذاتية ليلحق بركب التاريخ فى مسيرته الشامخة.

وفى فيللا الباشا الراحل ينشب نزاع ودّى أحيانا بينه وبين مامته أو بينه وبين إبراهيم. يقول لإبراهيم:

ـ أتنتظر حقا ثورة أخرى؟.. ما أنت إلا محترف ثورات!

فيقول إبراهيم متحديا طاهر ودرية معا:

ـ لقد تغير المنظر ولكن الممثلين لم يتغيروا.

ـ لا تخلو ثورة من انتهازيين ولكن بحسبها أن زعيمها رمز للكمال..

ـ إنه دكتاتور يا عمى..

ـ بل إنه المستبد العادل.

وكانت درية سعيدة رغم فوات عشر سنوات على زواجها دون حبل، وتجلت موهبتها فى الرسم إلى جانب فتنتها الشخصية.

وتحسنت حال طاهر المادية جدا فأتاحت له الفرصة لممارسة ما جبل عليه من كرم أو إسراف إذا شئت، فهو على حبه المال لا يسمح له أبدا باستعباده.

وجرت الأيام تطير بقوم وترزح فوق آخرين. وظل ركننا بقشتمر عامرا بوجودنا فلم ننقطع عنه إلا فترة قصيرة حينما قرر صاحب المقهى تجديده. غيَّر أرضيته، وطلى الجدران بلون ناصع البياض، وأحل أثاثا جديدا مكان القديم، وعنى بالحديقة فزرع الياسمين فى أصل سورها وزيَّن أركانها بأصُص الورد والقرنفل، ورمم دورة المياه، وابتاع طاقما جديدا من النراجيل، وأضاف إليها وحدتين، واحدة لتقديم الدندورمة والأخرى ـ فرن ـ لتقديم الكوفتة. وكالعادة لا نتخلف عن مجلسنا فى رحاب صداقة لا تتغير، ولعل ما ساعدنا على ذلك بقاؤنا فى حى العباسية رغم ما طرأ من تقلبات الدهر، فلم ينتقل منها إلا حمادة، ولكن سيارته كانت تحمله إلينا كل مساء، وأبى أن يستبدل بنا قوما آخرين. أجل ذهبت فى أدراج التاريخ عباسيةُ الزمان الأول، بالهدوء والخضرة والسرايات والترام الأبيض، وانتشرت العمائر، وقامت الدكاكين على الجانبين، وفاض الحى بسكانه، واكتظت الشوارع بالصبية والسيارات الخاصة والعامة، إنه الزحام والضوضاء والأنفاس المتلاطمة، ولكن لم يجر هجرها لأحدنا فى خاطر، ولا تصورنا أنه يمكن السمر فى غير قشتمر ولم يبق من معارفنا القدامى أحد؛ انتقل إلى الأحياء

الأخرى من انتقل وانتقل إلى جوار الله من جاءه الأجل، وازداد شعورنا الحميم بالمودة، ووجدنا فى صداقتنا سلوى الوجود وحلاوته، وغلب علينا الاستسلام للواقع، وتخلصنا من كثير من رواسب الماضى، واجتاحنا ما يشبه النعاس الهنىء والحلم العذب حتى انتفضنا قائمين على صوت انفجار كالبركان فى يوم من الأيام عجيب اسمه ٥ يونية. دهشة وتساؤل وتعجب، حيرة وعدم تصديق، ثم دهشة وتساؤل وتعجب، تجرع لواقع لا مفر منه، كيف؟!. . . لا ندرى، لماذا؟. . . لا ندرى، ثم سيل ينهمر من الحواديت، وفيضان من النكت، ومضطرب بلا حدود لعواطف متناقضة، من أقصى الحزن إلى أقصى الفرح، ولكن جرثومة الكآبة استقرت فى أعماق كل نفس.

وربما تنفس صادق صفوان بارتياح لأول مرة منذ عام ٥٢، خجل أن يعلن ارتياحه، وربما لم يخلُ ارتياحه من كدر، ولكن فضحته عيناه، وفلتات من تعليقاته، وترديده للنكت المنتشرة كالجراد. وسرعان ما زار رأفت باشا الزين، فلم يجده قد استوعب ما حدث لتماديه فى شيخوخة متدهورة، أما زبيدة هانم فأشارت بأصبعها إلى السماء وتمتمت:

ـ إنه موجود.

ولكن الباشا لم يعمر بعد الهزيمة إلا أياما ومات إثر أزمة قلبية، ثم تبعته الهانم قبل أن يتم الأربعين، وقريبا من ذلك التاريخ توفّيت ست زهرانة والدة صادق وشُيِّعت جنازتها من الشقة التى انتقلت إليها بعد أن حوّل صادق بيتهم إلى عمارة. ولم تنتزع هذه الأحداث صادق من انفعالاته بالحوادث العامة. ولم يعد يشعر بحرج فى الإفصاح عن مشاعره فقال لنا ساخرا:

ـ أسد علىّ وفى الحروب نعامة!

وبصفة عامة لم يعد يخشى الفك المفترس بعد أن نزعت الحرب أنيابه.

وتراوح حمادة الحلوانى كعادته بين المتناقضات؛ ليلة ينوح راثيا لحال الوطن، ويتألم غاية الألم للكرامة التى تمرغت فى التراب، وليلة يسبق صادق إلى الشماتة والهزل فيقول:

ـ ألم يقل إنه علمنا العزة والكرامة؟ اشبعوا عزَّة وكرامة!

وغضب إسماعيل قدرى غضبة مجللة بالحزن العميق لما نزل بوطنه الجريح، وراح يردد بانفعال شديد:

ـ لا بد من رد اللطمة بمثلها على الأقل. .

ثم يتساءل فى حنق:

ـ كيف لم يتلاش نظام الحكم حتى الآن؟! لو أن هذا الرجل عميل مأجور ما استطاع أن يفعل بنا أكثر مما فعل. .

ولكن لم يُصدَم أحد كما صُدم طاهر عبيد، كأنما جن جنونا أو مات موتا. ويتنهد هامسا:

ـ ليتنى مت قبل ذلك.

وأراد حمادة أن يخفف عنه فقال:

ـ ما من أمة يخلو تاريخها من كوارث.

فقال بصوت منهزم:

ـ ولكن هذه هى كارثة الكوارث.

فقال مدفوعا بالشفقة عليه:

ـ طالما أننا أحياء فلا مفر من الأمل.

فتساءل فى شك:

ـ أى أمل؟

ـ الأمل فى الأبناء.

فتساءل فى حيرة:

ـ أبناء الهزيمة؟

وسأل صادق:

ـ هل كفرت بالبطل؟

فصمت مليا ثم قال:

ـ أعتقد أنه يموت الآن وأنا أموت معه..

وازدادت رغبتنا فى التلاقى رغم أنه لم يعد يعدنا بتسلية صافية، لم يعد لنا إلا حديث واحد ثقيل، وجبة سياسية حامضة ننام وبقاياها المرة ممتزجة بريقنا. وقلَّ الضحك وربما فزعنا إلى التأمل والتفلسف. وينقضى بقية العام ويتبعه العام التالى ونحن نمضى على وتيرة واحدة وندنو من الستين.

وذات ليلة قال لنا صادق صفوان:

ـ حدثت زيارة هامة فى الدكان، جاءتنى جارة مع كريمتها لشراء بعض الأشياء..

فأثار فى نفوسنا الخامدة اهتماما، وحدسنا وراء الخبر مفاجأة ممتعة وتمتم صادق:

ـ ست أمونة حمدى وكريمتها سناء إبراهيم..

ولم تخل الأسماء من مضامين نعرفها؛ فست أمونة حمدى مطلقة فى الأربعين مقبولة بدرجة لا بأس بها، أما سناء فبنت ثمانية عشر ربيعا وذات جمال موفور. وهما تعيشان

فى كنف الأب ـ جد الفتاة ـ على بركات وحرمه ست خديجة علام ، وهو موظف على قد حاله . وقال حمادة الحلوانى :

ـ ست أمونة امرأة مناسبة لرجل فى الستين . .

فقال صادق رافعا حاجبيه :

ـ ولكن عينى ثبتت فوق سناء . .

فقال إسماعيل قدرى :

ـ إنها يمكن أن تكون حفيدة لك . .

فقال محتجا :

ـ العمر لا يقاس بالسنين .

فقال طاهر :

ـ فارق العمر كبير جدا . .

ـ إنها تذكرنى بإحسان فى قمة رونقها ، تفاحة أمريكانى ، حيوية وذكاء . .

فقال إسماعيل :

ـ كابدت الفشل قبل ذلك مرتين ، وفى كل مرة توارى سوء الحظ وراء الفشل ، أما هذه المرة فإنك تمضى باختيارك . .

فقال صادق بإشراق :

ـ ويجىء الفرج من حيث لا تحتسب .

وتساءل طاهر :

ـ هل ترحب الأم وأسرتها بعريس فى الستين لصبية فى الثامنة عشرة؟ !

فقال حمادة :

ـ الرجال يوزنون اليوم بالقرش أكثر من أى وقت مضى ، والفتاة تعيش فى جو فقر فى كنف جدها ، فعريسنا يعتبر لُقطة . .

فقال صادق :

ـ خُيل إلىّ أن الأم جاءت تعرض نفسها وكريمتها لأختار ما يناسبنى . .

فقال طاهر :

ـ فاخترت ما لا يناسبك . .

وقال إسماعيل :

ـ اعرف لرجلك قبل الخطو موضعها . .

فابتسم صادق ساخرا وقال :

ـ ما أجدر أن نوجه هذه الحكمة لبطل ٥ يونية ، أما أنا فإنى واثق من نفسى ، طال عذابى مع العزوبة والعفة والله أعلم بحالى . .

ولم يُضع وقتًا ، فسعى سعيه ، وصادف القبول . وغلب علينا الفتور لحرصنا الأكيد على سعادته وتمنَّينا أن تكذب الظنون . وكعادته قام هو بكافة التكاليف واختار لمقامه الجديد شقة فى عمارة جديدة بميدان الجيش ـ ميدان فاروق سابقا ـ وبالغ فى الكرم ليغطى على نقصه وليستمتع بحياته تعويضا لها عما ذاقت من خوف حيال الفك المفترس . وهمس إسماعيل بعد أن خلونا إلى أنفسنا فى طريقنا إلى بيوتنا :

ـ نحن فى زمن اللامعقول فلا تدهشوا لشىء!

وكأنما كان يمهد بقوله هذا لما طرأ على حياة حمادة الحلوانى من تغير غير متوقع . . لم يعد يقتصد فى شكواه من الفراغ والملل . قال لنا :

ـ إليكم صورة صادقة عن حياتى ، أنا كرجل يتثاءب بانتظام فى انتظار نوم لا يجىء . .

ويقول مقطبا :

ـ كل يوم يبدو طويلا ثقيلا لا جديد فيه .

وقال وهو يردد ناظريه بين طاهر وإسماعيل :

ـ الضجر هو سرطان الروح . .

وتساءل صادق :

ـ ما جدوى دائرة المعارف إذن؟

فهز منكبيه استهانة وقال :

ـ حتى السطول بات سوداويا ، ولا أجد شيئًا من الراحة إلا فى قشتمر . . وفى غمار استعداده للاحتفال ببلوغه الستين فاجأنا بقوله :

ـ يا رجال ، زوجونى . . !

فضحكنا طويلا ، ولكنه قال بجدية :

ـ إنى أعنى ما أقول ، زوجونى ، أريد زوجة!

وصمتنا نفكر حتى هتف صادق :

ـ هذا ما تنبأت به . .

فقال حمادة :

ـ المسألة لا تعدو محاولة لملء الفراغ .

وقال صادق مؤمِّنا أو مجاملا :

ـ أنت رجل تعتبر لقطة عند أكرم الأسر !

هذا كلام يقال ، أما الحقيقة فإن سمعته السيئة كانت أشهر من ٥ يونية ؛ ما من أسرة إلا وتراه مثالا للرجل المنحل الحشاش الفاسق ، بالإضافة إلى شيخوخته . بنات اليوم غير بنات الزمان الأول ، ومن النادر أن تتكرر ظروف سناء حرم صديقنا صادق صفوان . وكل واحد منا سعى من ناحيته فلم يلق إلا الرفض حتى قال له صادق بطيبته المعهودة :

ـ ما رأيك فى حماتى ؟ . . إنها مقبولة جدا وأعتقد أنها توافق .

فقال حمادة ساخرا :

ـ أصوم ثم أفطر على بصلة !

وهيج الرفض المتكرر غضبه فثار كبرياؤه وقال :

ـ المحترفات خير من المصونات !

فوجمنا جميعا ، وقال له صادق :

ـ اتئد ولا تلق بنفسك إلى التهلكة .

فقال باستهانة :

ـ لم يخبرهن مثلى أحد .

وانطلق فى طريقه بإصرار فاستأجر شقة فى الزمالك وأثثها حتى جعل منها متحفا ، ودعانا إلى شهود عرسه على مائدة عشاء فى الأوبرج . وجدنا العروس امرأة فى منتصف الحلقة الرابعة ، ريانة الجسم ، حسنة الوجه ، لم يفلح ثوب الزفاف فى مداراة ابتذالها ، ونطقت نظارة عينيها الثقيلة بالخبرة والمزاج . قلنا إن حياته المتحررة ما بين خان الخليلى والعوامة لا تتنافر مع أصله بقدر ما تتنافر معه هذه الحياة الشرعية الزائفة ، ولو قامت على الحب لوجدنا له عذرا ولكننا تصورنا أنها لم تقم إلا على العناد والكبرياء . أما هو فأكد لنا ـ فى قشتمر ـ أنها أفضل من الأخريات ، وأنها تنحدر أيضا من أسرة طيبة ! وما وسعنا إلا أن ندعو له بالتوفيق والسعادة .

وببلوغ اسماعيل قدرى الستين حقق فى المحاماة بمكتبه الذى استقل به نجاحا مرموقا . وناهزت تفيدة السبعين فانهزمت أمام العمر واستسلمت للواقع وراحت تعانى من دوالى الساقين والصداع النصفى . وتخرج هبة الله مهندسا فى الرابعة والعشرين من عمره ، وبقلب حطمته الهزيمة وانتكاسة البطل فحقق حلما راوده من قديم وهو الهجرة إلى السعودية . وجزعت تفيدة ولكن إسماعيل قال لها :

ـ لست دونك فى النكد ولكن لعله يجد فى المال عزاء . .

ولم يُنسه عمله ولا نجاحه أحزانه السياسية ولا هزيمة وطنه، وانضم إليها ذبول زوجته وهجرة ابنه. ولاحظنا أنه مال فى تلك الفترة إلى الحديث عن الروحانيات وعجائب الباراسيكلوجى. حقا لقد مر بها قديما فى سياحته الثقافية، كما أن جولات حمادة الثقافية المتضاربة لم تخل منها، ولكن إسماعيل وجد فى أقوال المتصوفين سحرا جديدا، حام حوله، وثمل به، واتجه نحو قبلته كملاذ من عوالج قلبه. وقال صادق ببساطة:

ـ اعترف بأنك ترجع إلى الدين.

فقال له متأففا:

ـ لا تبسِّط الأمور فتفقدها مغزاها..

وقال طاهر عبيد:

ـ الليالى حُبالى بالعجائب، والظاهر أن سلسلة الهزائم لا نهاية لها! وبدا إسماعيل حائرًا بين كبريائه وحنانه.

أما طاهر عبيد فقد حزن على الزعيم أكثر مما حزن الزعيم على نفسه. وتلا علينا ذات مساء قصيدة رثاء تقطر حزنا ومرارة وسخرية من النفس، ولم يسمع القصيدة أحد سوانا. ولم تعد الأجهزة تردد أغانيه، فهى أغان لا تُسمَع إلا فى جو النصر. واعترف لنا ليلة قائلا وموجِّها حديثه إلى إسماعيل بالذات:

ـ زوجتى فى حال تفوق فى السوء زوجتك..

فقال إسماعيل بمرارة:

ـ أعطيتا خير ما عندهما.

فقال بقسوة:

ـ أصبحت أعافها..

فقال إسماعيل ساخرا:

ـ كل شىء يُعاف فى النهاية.

وقال طاهر شعرا كثيرا يفيض يأسا وحزنا وتشاؤما. وتأثر فى بعضه تأثرًا واضحا بفن العبث، ولم ينشر شيئا مما يمكن أن يسىء إلى البطل الجريح ولو من بعيد. ويقول أحيانا قابضا على أى خيط من الأمل:

ـ ها هو يطهر الثورة من سلبياتها ويعيد بناء الجيش..

فيقول إسماعيل ساخرا:

ـ سيزيف يصعد الجبل من جديد.

لم يعد يرد على السخرية بعد أن انكسرت نفسه وانهزمت كبرياؤه. ولما رحل الرجل عن دنيانا رحيله المفاجئ تلقى الضربة القاضية. وقال:

ـ دعونى أردد مع المؤمنين ـ ولست منهم ـ كل شىء هالك إلا وجهه . ولم يخف صادق صفوان فرحه فقال :

ـ هذا خبر أمتع من شهر العسل .

وقال حمادة ساخرا :

ـ موته يعتبر من أمجد أعماله .

أما إسماعيل قدرى فقال :

ـ هرب فى الوقت المناسب تاركا الطوفان لمن يخلفه .

واندمج صادق صفوان فى حياته بطمأنينة جديدة وقال لنا :

ـ أنا متفائل بالرئيس الجديد .

وسعد بسناء سعادة شاملة ، وشعر بأنه ملك الدنيا والدِّين ، ربما لم تكن سناء بالبساطة التى تمناها ، فلم تكن صورة طبق الأصل من إحسان . وكانت حصلت على الثانوية العامة قبل زفافها مباشرة . وفى عز الحب واللهو قالت له :

ـ أود أن أكمل دراستى !

فانزعج وقال لها :

ـ أنا لم أكمل دراستى بعد البكالوريا إيمانا منى بالعمل ، افعلى مثلى وكرِّسى حياتك لعملك كست بيت .

فقالت برقة :

ـ كان حلمى دائما أن أكمل دراستى .

ـ لا معنى لذلك ألبتة .

ـ كل بنت تفعل ذلك اليوم .

ـ أهو تقليد أعمى ؟ !

ـ أبدا ولكن للعلم قيمته .

ـ إنه ليس أهم من كونك زوجة وعلى وشك أن تصيرى أما .

فقالت بما اعتبره عنادا ضايقه :

ـ بعض طالبات الجامعة متزوجات .

فقال بحدة غلبت على حبه وسماحته :

ـ لا تتصورى أبدا أنه يمكن أن أوافق على التحاق زوجتى بالجامعة واختلاطها بالطلبة !

فأصرت على التساؤل :

- ألا تثق فىّ؟
- كل الثقة، ولكن كرامتى لا تسمح بذلك.
وخطر له أنها لم توافق على الزواج منه إلا تحت ضغط أهلها وظروفها القاسية، فقال بحزم:
- ليكن مفهوما أننى لن أوافق على ذلك.
فلاذت بالصمت مغلوبة على أمرها، وحاولت فيما بعد أن تقنعه بإكمال دراستها بالانتساب من الخارج ولكنه لم يرتح لذلك أيضا، وتذكر ما جرَّه عليه لينه مع ليلى، فقال بحزم:
- ولا هذا، وما أوله شرط آخره نور!
أدركنا أن الدرس الذى لقنته له ليلى لم يُمْح من وجدانه، وطاب لنا أن نتخيل صديقنا الدمث وهو يمثل دورالرجل الأسد، وقال له إسماعيل قدرى:
- فى كل خرابة لك عفريت.
فقال بثقة:
- ولكننى قتلت هذا العفريت فى قمقمه.
ولم يوافقه أحد منا على أسلوبه ولكننا تجنبنا تكدير صفوه بمعارضتنا، وقد أثبتت له أنها ست بيت نشيطة بقدر ما هى جميلة. وأدركنا أنها تضحى بآمالها أن ترجع مرة أخرى إلى ركن الذل فى بيت جدها، خاصة وأن أباها لم يظهر فى الصورة قط بما يقطع بتفاهته أو عدمه. وفى أكثر من مناسبة راح صادق ينوه بحيويتها ونشاطها ويُرجع الفضل فى اكتشاف مزاياها إلى حزمه. وقال:
- ولم أستطع أن أحول بينها وبين مكتبتى، فوقت فراغها كله تنفقه فى القراءة، ولم أجد فى ذلك من بأس، ولكنها قالت لى مرة: إن المعرفة أهم من المال نفسه. ولم أرتح لقولها، ولولا الحياء لذكَّرتُها بما قدمه لها مالى مما يعجز عنه علم الدنيا والآخرة، وقلت لها: إن رجل المال أهم رجل فى المجتمع، وأن كثيرين من المثقفين يعجزون عن إسعاد زوجة، بل ربما عن الزواج أصلا..
وضحك حمادة الحلوانى وقال ساخرا:
- ما أعجب أن تعاشرنا العمر كله ويكون لك هذا الرأى!
فقال بنبرة الخبرة والحكمة:
- للنساء لغة خاصة لا يجوز التحدث إليهن بسواها..
وبقدر ما تمنينا له السعادة بقدر ما ساورنا الشك فى توفيقه حتى النهاية. وأنجبت له سناء بكريتها نُهَى فأفعم قلبه بالسعادة والدفء.

ويمضى بنا الزمن، نطوى كل يوم خطوة فى الحلقة السابعة. من عجب أن صحتنا تنافس همومنا فى قوتها. وعصر الزعيم الثانى عامرٌ أيضا بالمفاجآت؛ فهو عصر المنابر والنصر والسلام والانفتاح وعصر أكبر درجات سجلها الفساد فى تماديه واستفحاله، ولا نكاد نفطن إلى ما طرأ علينا من تغير إلا أن نطلع لمناسبة على صورة قديمة فنقارن ذاهلين بين ما كنا وما نكون، ونزداد التصاقا ومودة، ويمسى قشتمر عضوا فينا كما نمسى ركنا فيه، ونتبادل النظرات ونتذكر الراحلين ونعرف أن يومنا سيجىء.

ويقول صادق صفوان ذات ليلة:

- يا لها من حياة! إبراهيم ابنى يرفض فيمن يرفض الأغنياء، وزوجتى لا تضع المال فى موضعه اللائق به، ألا يعكس ذلك شعورهما الخفى نحوى؟!

إنه لا يخلو من همٍّ وكرب، شدَّ ما سعد بنصر أكتوبر ثم بالسلام مع إسرائيل وبالاتجاه نحو الديمقراطية، ولكنه لا يخلو من همٍّ وكرب. وحاول إسماعيل قدرى التسرية عنه فقال:

- لا تقلق فإن البنوّة والزوجية أقوى من التفلسف..

وقال حمادة الحلوانى:

- ثم إننا فى زمن المال وأصحاب الملايين.

فقال صادق:

- وأين نحن من هؤلاء؟! ما أنا إلا غنى كلاسيكى من الفئة التى يجرفها العصر نحو الفقر..

ونردد بعضًا مما يُقال عن الصفقات والإثراء الخيالى. وفى ذلك الوقت فنيت أسرة زوجته؛ فرحل على بركات الجدّ فست خديجة الجدّة ثم ست أمُّونة حماته وفى سن الرابعة التحقت نُهى بالروضة، وإذا به يشغل نفسه ويشغلنا بوافد جديد فيسألنا يوما:

- ما معلوماتكم عن المقويات؟!

وكان لابد أن نبتسم وأن يتورد وجهه، ولكنه قال:

- ليس الأمر مزاحا..

شعرنا بذلك تماما، وهنا قال إسماعيل قدرى:

- عليك بالإخصائيين، هذه هى النصيحة..

وشاركناه قلقه الذى لم يفصح عنه مباشرة، وحدث أن انتقلت إحسان إلى رحمة الله، فحزن عليها حزنا صادقا. يقول:

- أكمَلُ النساء، لولا مرضها الثقيل لحظيتُ بين يديها بسعادة لم يعرفها بشر..

ويقول :

ـ أشد أنواع الغربة هو ما تشعر به فى وطنك .

أو يقول :

ـ لعن الله العصر ، إنه يخطف أقرب الناس إلينا ويحولهم إلى أعداء لنا . . . والحقيقة يا أصدقائى أنكم أغلى ما فى الوجود . .

وهو أول من عرف المرض منا ؛ فأصابه روماتيزم مفصلى فظيع الألم ، فتردد على الأطباء ، واعتاد الدواء ، وغيَّر من عاداته الغذائية . . ولكنه كان يقول :

ـ الحمد لله على الإيمان ، إنه النعيم فى الدنيا والآخرة ، كلما تنغص علىّ صفوٌ أو حزب ألمٌ أو جحد قريب ، أو . . أو ، كلما طاف بى شىء من ذلك تذكرت الله سبحانه ولذت برحابه وسلمت له أمرى فيلهمنى الصبر والرضا . .

ختام حسن ، أو لا بأس به ، لولا القنبلة التى فجرها تحت أقدامنا حمادة الحلوانى ، إذ قال لنا فور قدومه :

ـ يا جماعة ، وأنا قادم بالسيارة لمحت حرم صادق فى النافذة تتبادل إشارة مريبة مع جار شاب فى العمارة المجاورة!

تلقينا الخبر كأسوأ داهية تنقضُّ علينا من عالم الغيب . تبادلنا نظرات حيرة ، بل استغاثة ، متسائلة ملحَّة ، مثقلة بالكرب . وخرسنا حينا حتى قال طاهر :

ـ لعلك أخطأت الرؤية أو التفسير!

فقال بوجوم شديد :

ـ أنا على يقين مما قلت ، فكروا قبل أن يحضر .

فقال طاهر :

ـ الأمر خطير جدا .

فقال حمادة :

ـ علينا أن نتخذ قرارا .

فقال طاهر :

ـ لا بد من اليقين .

فقال حمادة :

ـ أنا على يقين .

ولذنا بأثقل صمت حتى قال حمادة :

ـ علينا أن نخبره . .

فقال طاهر :

ـ ربما دمرناه . .

ـ هل نخفى عنه ما نعلم؟

فقال إسماعيل :

ـ لا مفر من أن يعرف بطريقة أو بأخرى . .

فقال طاهر :

ـ قد تدفعه الفضيحة إلى ارتكاب جريمة . .

وتبادلنا النظرات طويلا حتى تساءل حمادة :

ـ ما هو الصواب فى نظركم؟

ـ أن يعلم وأن ينتهى الموضوع بلا مضاعفات خطيرة . .

وقال إسماعيل :

ـ الخطأ لا يمكن أن يستمر إلى الأبد، لا بد من نهاية .

وقال حمادة :

ـ ليس فى وسعنا أن نخفى عنه .

وقال إسماعيل قدرى :

ـ دعوا الأمر لى . .

ولما جاء صادق صفوان، مضى به إلى الحديقة . كنا فى أواخر الخريف وكانت خالية . وغابا ساعة؛ مرت علينا أثقل من دهر، ثم رجعا صامتين واتخذا مجلسيهما . يا لصورة الإنسان الكريم عند الهزيمة! وتشاورنا فى الأمر حتى احتوينا بالتشاور انفعالاته . وطلب مهلة ليراقب الموضوع من بعد . ومرت أيام ثم لما جاءنا فى ميعاده سألنا :

ـ ماذا تقترحون؟

فقال إسماعيل قدرى :

ـ إليك حلاً يتوافق مع حكمتك وتقواك، الطلاق لا مفر منه، وعليك أن تحتفظ بنُهى، وأيضا لا يجوز أن تترك الأخرى فريسة لفقرها، وإذن فالاتفاق خير من المحكمة، استأجر لها شقة وأجْر عليها رزقا إكراما لابنتها، وأكرر فإن هذا ما يتوافق مع تقواك . .

وأعتقد أنه بذل جهدا جباراً لكبح رغبته فى التأديب أو الانتقام، ولكنه فعل الصواب الذى لم يفعله أحد سواه من قبل؛ طلَّقها، حفظ كرامتها، واحتفظ بنُهَى سادلاً الستار على مأساته . . ورجع إلى وحدته ولكنها لم تكن مطلقة هذه المرة؛ فعلى كثب منه نُهى

ومربيتها، وفضلا عن ذلك فبفضل السن والمرض لم يعد يكابد الحرمان القديم. وجاءه نفر يعرضون عليه شراء دكانه لتحويلها إلى بوتيك من بوتيكات الانفتاح، فتمتم:

ـ لم يثبت معى إلى النهاية إلا الدكان وقشتمر.

فقال له حمادة:

ـ لو كنت مكانك لقبلت الصفقة؛ المبلغ خيالى، وأنت آن لك أن تستريح . .

واختلفنا . . ولكنه قال:

ـ لن يخلفنى أحد فى عملى؛ إبراهيم له دنياه، وصبرى تأقلم حيث يقيم، وحتى متى أعمل من الصباح حتى المساء؟!

وباع دكانه، وتفرغ لتربية نهى، ومهادنة الروماتيزم، وقراءة القرآن والحديث، وأدى فريضة الحج، ولكن ظل ركننا بقشتمر قرة عينه.

حمادة الحلوانى أيضا كان ممن سعدوا بنصر أكتوبر وممن رحبوا بالسلام، ولكن فى هدوء رصين وما يشبه البوذية. وقد باء زواجه بالفشل فاعترف بذلك وهو يستمتع بشهر العسل. وتلوح فى عينيه أحيانا ابتسامة وكأنما يتساءل «ماذا فعلت بنفسى؟». والحق أنه لم يشعر بتغيير حقيقى فى علاقته بالجنس الآخر، ولم تغيِّر زوجته من سلوك المرأة المحترفة؛ ظلت عشيقة لا زوجة، تُعنَى ليل نهار بتبرجها، وتمارس عاداتها المستقرة فى تعاطى الخمر والحشيش، وتتجاهل واجباتها المنزلية عدا إلقاء الأوامر للخدم، ولا تكُف عن مطالبها المالية، ومضت فى طريقها من أول يوم وبلا تدرج. وأمل فى التغيير عندما حبلت ولكن الجنين مات فى بطنها واقتضت الحال جراحة وإزعاجا دون جدوى. وبثَّنا شكواه قائلا:

ـ لا حوار بيننا خارج الفراش، قد أسمع ولكننى لا أجد ما أقوله.

وتضاعف شعوره بالوحدة والملل وتمنى دائما أن تغيب عن المسكن الجميل لأى سبب؛ فالوحدة بدونها أخف على القلب.

توقعنا أن نسمع عن الطلاق فى أقرب فرصة. وسأله صادق صفوان:

ـ أهى شريرة؟

فتفكر مليا ثم قال:

ـ إنها تافهة، لم تسنح فرصة لإظهار شرها، إنها تافهة، الاحتراف يقتل الإنسانية فى قلب المرأة، وفى هذا تكمن التعاسة الحقيقية . .

وسأله صادق بنبرة حزينة:

ـ وماذا تنوى أن تفعل؟

فقال ضاحكا :

ـ الطلاق طبعا . .

وبعد صمت قصير واصل حديثه :

ـ ولكن الأمر ليس سهلا ، ولن يتم إلا من خلال معركة عنيفة ، فضيحة وجرسة ومحكمة وابتزاز ، لن تتورع عن الاشتباك معى أو التعرض لى فى الطريق . .

فقال طاهر عبيد :

ـ قلت يوما إن المحترفات أفضل من المصونات . .

ـ دعنا مما قلت ، ستحاول أن تخرج بأكبر ربح . .

فقال صادق :

ـ اشتر راحة بالك . .

هذا ما صمم عليه ، وبدأ بإعلان فتوره ، ولم يكن اعتاد على الصبر على الكدر . وراحت ترميه بنظرات مؤنبة متحدية . وأخيرا صارحها قائلا :

ـ الظاهر أننى لم أخلق للحياة الزوجية .

فتساءلت بقحَة :

ـ تزوجتنى لَلتجربة؟

فقال برقة :

ـ على خير ننفصل مثلما اجتمعنا ، أرجو أن تغفرى لى خطئى .

فسال لسانها بأقوال بذيئة ، ولاذ بالصمت والصبر ، وعرض عليها أن يبحثا عن اتفاق يرضى الطرفين بعيدا عن المحكمة . طالبت بمائة ألف جنيه ، فآثر الاحتكام إلى حكم القضاء ، وبعد نزاع وأخذ ورد رضيَت بربع المبلغ وقال لنا :

ـ إنها خسارة فادحة فى هذا الزمن المجنون ، لا قيمة لثروتى اليوم ، والغلاء يحرق الأخضر واليابس ، إنى أدفع أربعين جنيها أو خمسينًا ثمنا للقرش الذى كنت أشتريه بخمسين قرشا ! ولكن الملل يعتبر رحمة بالقياس إلى معاشرة محترفة تافهة . .

فقال له إسماعيل قدرى معزيا :

ـ على أى حال إذا أردت أن تتزوج زواجا حقيقيا . .

فقاطعه بشراسة :

ـ توبة ! . .

واعتبر رجوعه إلى الحياة التى سبق أن ضاق بها غُنمًا وأىّ غنم . وحدث أن انقطع عن قشتمر على غير عادة سابقة ، مرت ليلة ولحقت بها أخرى ، فذهب الأصدقاء يتحرون

عن سر غيابه فى مظانه ما بين خان الخليلى والعوامة وشقة الزمالك، وعرفنا الحقيقة المزعجة، وهى أنه يعالج فى مستشفى المعادى على إثر ذبحة صدرية دهمته. وقصدنا المستشفى ونحن من القلق فى نهاية. واستقبلنا هناك أخوه توفيق وشقيقته أفكار فأهديا إلينا السلام والطمأنينة بأنه عبر الخطر ولكنه ممنوع من الزيارة بضعة أيام، وقد صار توفيق صورة من يسرى باشا فى آخر أيامه، أما أفكار فتبدت عجوزا عجفاء مسحاء مكرمشة الوجه كأن لم يجلس الجمال يوما على عرش كينونتها ويتيه ويتحكم. وتمتم طاهر عبيد:

- ما أكثر الأردية التى يلفعنا بها الدهر.

ولما اجتمعنا به بعد يومين سُرَّ بوجودنا حوله سرورا طفح به وجهه الذابل، وحدثنا عن الذبحة فقال:

- حضورها وحشى مرعب، فإذا مرت استرد الإنسان طبيعته وكأنه لم يكن على مبعدة قيراط من الموت..

وقال إنه كان وحده فى غاية من السطل، وقام ليتناول عشاءه فى تلك الساعة المتأخرة من الليل عندما اشتعل مس كهربائى فى أعلى صدره، وعصره الألم عصرا وأوشك أن يختنق فتأوه وصرخ وانطرح على الأرض يتقلب على الجنبين، واتصل الخادم ببيت شقيقه فجاءه بصحبة طبيب صديق ثم نقلوه إلى المستشفى..

وغادر المستشفى بعد ثلاثة أسابيع ورجع إلى قشتمر ليملأ مكانه الذى لا يملؤه سواه. وطرق بابه الدواء والرجيم. قال:

- يريدون سلب اللذة الباقية لى فى الحياة..

فقال صادق صفوان:

- أيضا للروماتيزم رجيم خاص وللضرورة أحكام..

فقال حمادة:

- ولكن الحياة إما أن تكون حياة أو لا تكون.

وتبين لنا فيما بعد أنه يواظب على تناول الدواء، أما الرجيم فتخطاه كأن لم يكن. استمسك بعاداته الغذائية بكل جرأة واستهانة، ولم يمتنع عن الكيف ولم يقلل منه.. وخاطبناه بلسان الوعظ فأمطرنا بسخرياته حتى سأله طاهر عبيد:

- هل قررت الانتحار؟

فقال ضاحكًا:

- قررت ألا أتهاون فى حب الحياة.

حتى النساء لم يقلع عنهن تماما، يستضيفهن ولو مرة فى الشهر. وسأله صادق باسما:

ـ ألا تعفيك السن من هذا الواجب؟

فقهقه قائلا :

ـ لكل حال ما يناسبها!

أما طاهر عبيد فقد وجد نفسه تحت حكم الزعيم الثانى فى عالم غريب كريه لا يحتمل، وأساء به الظن منذ أول ساعة وعدَّه عميلا لجميع القوى الرجعية فى الداخل والخارج. وما لبث أن عزل من رئاسة تحرير الفكر دون أن يفصل من المجلة، فغضب وغضبنا معه وامتنع عن الكتابة فلم يهتم به أحد، ولم يظهر له أثر فى أى جهاز من أجهزة الإعلام. ولما حدث النصر العظيم تلقاه بفتور غريب، وراح يرجع جذوره إلى البطل الراحل. إنه الوحيد فى شلتنا الذى عبد الراحل فى حياته وقدس ذكراه بعد مماته، ولولا صداقتنا العجيبة لربما ضاق بنا وانصرف عنا ولكنه أبقى علينا وصمد لنا يلقى الجد بالجد والهزل بالهزل. واقتصر نشاطه فى تلك الفترة على نشر بعض القصائد فى المجلات العربية التى تصدر فى الخارج. ولما جاوز الستين بقليل صادفته تجربة جديدة لم تجر لأحد فى تقديرى؛ فى ذلك الوقت عرف محررة جديدة تُدعى أنوار بدران التحقت بالفكر. وضح أنها كانت من قرائه وأن إعجابها بشعره فاق كل أحلامه، وقد زارته مرات فى قشتمر وتعرفت إلينا، وعرفنا أنها خريجة آداب قسم اللغة الإنجليزية، ووجدناها غاية فى الذكاء وعلى قدر عظيم من الثقافة بالقياس إلى زمانها وعمرها البالغ خمسة وعشرين عاما، سمراء رشيقة عادية الملاحة صغيرة العينين وبأنفها فطس خفيف ولكنها فى الجملة جذابة. ومن واقع الملاحظة الدقيقة سأله إسماعيل قدرى ذات ليلة :

ـ هل تحب تلميذتك؟

فأجاب بإيجاز وصراحة :

ـ نعم . .

فتساءل حمادة الحلوانى :

ـ هل اللعب على الطريقة العصرية ممكن؟

فأجاب طاهر :

ـ ولكن عاطفتى جادة!

فقال صادق صفوان :

ـ ظننتك أحببت بما فيه الكفاية . .

ـ ليس للحب قانون!

ـ ورئيفة؟!

- انتهت من زمن غير قصير . .

فقال إسماعيل قدرى ضاحكا :

- شلتنا تستحق أن يخصص لها فصل فى كتب الجنس !

فقال طاهر مستسلما :

- الحذر لا ينجى من القدر !

ومن الغريب أنه فى ذلك الوقت حملت ابنته درية لأول مرة منذ زواجها حملت بعد أن قاربت الأربعين، وبعد أن يئست من الحمل واستشارة الأطباء، وبدلا من أن ينتظر طاهر حفيده فى وقار مناسب أسلم نفسه للحب. وجاءنا ذات ليلة ثملاً بفرحة شاملة لم تُر عليه منذ زمن طويل، وقال لنا قبل أن يطلب القهوة :

- سنتزوج !

ولم يسعنا إلا إزجاء التهانى، وسأله صادق :

- ورئيفة؟

فمط شفته السفلى وقال :

- كان لا بد من المصارحة، موقف عسير ومؤلم ولكنى متعود على مواجهة التحديات، وهى موقنة من أنها لم تعد تملك ما تعطيه . . وطمأنتُها من أول الأمر بأنها ستبقى فى بيتها معززة مكرمة . .

وصمت قليلا ثم قال فى حياء وتأثر :

- قالت لى بهدوء ولكن بصوت متهدج وعينين شارقتين بالدمع «تقبل رثائى ولكن ما باليد حيلة» فقلت لها «أنا مقتنع بأننى مخطئ» فقالت «لا شك فى ذلك، أوتيتَ حكمة كبيرة فى وقت لم تكن فى حاجة ملحة إليها، وفقدتها فى ساعة الحاجة إليها، ربنا معك».

تخيلنا بأسى شديد الزوجة التعيسة التى هجرها زوجها بعد أن تنكر لها زمانها وتركها نفاية. وقال صادق صفوان :

- لا شك أنها تتجرع من المرارة ما لا يتصوره أحد، رأيت إحسان فى حال مثلها رغم وضوح عذرى وقوته . .

لكن السعادة استخفته وجرفت فى طريقها المشاعر المترددة، يبدو أحيانا كطفل برىء فيذكرنا بأيام نصره الخالية. وقال لنا على سبيل الاعتذار :

- لا يوجد فى دنيانا شىء صحيح سليم، فلماذا أطالب أنا بذلك؟ ولأول مرة تخالفه درية وتُدِين قراره. قالت له :

- بابا، ما كنت أتصور . .

فقال لها باسما :

- إنه شيء طبيعي ويحدث كل يوم .

فقالت برقة :

- وماما؟ نحن مطالبون بالوفاء وهو جميل كالحب . .

أعاد علينا حوارها بفخار خفى، ولكنه مضى فى سبيله باندفاعه المعروف عنه منذ قديم . وقال لنا كالمعتذر :

- الحب هو الحب، ولدَى حضوره تتلاشى القوَى المضادة جميعا فى غمضة عين .

وواجهته - وهو يبحث عن عش الزوجية الجديدة - مشكلة لم نعرفها فى زماننا الأول وهى العثور على شقة، ولكن حلها لم يكن مستعصيا؛ فبعد تعب غير قليل وجد شقة فى الجيزة بإيجار حديث مرتفع وبلا خلو، واستقبل حياته الجديدة كأنما يدخل دنيا لأول مرة، ولم تسعده أنوار بالحب وحده ولكنها أنعشته بذكائها وصداقتها وعشقها الصادق للثقافة، بالإضافة إلى تذوقها العميق لشعره . قال لنا ذات ليلة :

- إنها تصلح أن تكون عضوا فى مجلسنا هذا!

وقررتْ تأجيل الحمل فسرَّه ذلك جدا، ولكنه لم يعرف لها انتماء سياسيا، فهى تسمع وتقرأ ولا تصدق ولا تهتم، ويتركز وعيها فى الشعر ونقده ومحاولة قرضه أحيانا . ولما باح لها بناصريته قالت له :

- لن تعثر على جدية حقيقية إلا فى التيار الدينى . .

فسألها منزعجا :

- أهذا إعجاب؟

- أبدا، إنهم وحدهم يقفون على أرض صلبة فى محيط يمور بالاضطراب والفساد . .

فسألها وهو يزداد قلقا :

- هل يلوح لك أمل من ناحيتهم؟

- أبدا . .

ثم متسائلة :

- لماذا لا تهاجر؟ . . الغلاء يتمادى يوما بعد يوم، وفى الخارج توجد فرص رائعة . .

- لم تنعدم كل الفرص فى الداخل، ها هى مسارح القطاع الخاص تطلب منى أغانى واستعراضات . .

فهتفت :

ـ كيف تستهين بسمعتك وترضى بالهبوط؟!

وقلنا له صراحة إنه ليس من الحكمة فى شىء أن يفكر إنسان فى الهجرة وهو يقترب من منتصف الحلقة السابعة. وقال له صادق صفوان:

ـ تلبيتك لطلبات القطاع الخاص ستمده بأسباب للارتفاع!

والواقع أنه استجاب لمغريات القطاع الخاص تحت ضغط ظروف المعيشة وارتفاع الأسعار ومسئوليته فى الإنفاق على بيتين. وبذل أقصى ما يملك من مهارة ليتجنب الهبوط ولكنه شعر بأن صورته المثالية قد اهتزت فى عينى أنوار. وازدادت أرباحه ولكن لاحت فى عينيه نظرة شاردة أنذرت بما وراءها وبررت مخاوفنا. وتوقعنا مع جريان الزمن أن تعزف الرباب أنغام الأسى التى ألفنا سماعها من صادق وحمادة. وحملت أنوار فى أثناء ذلك مختارة، ولكنها كابدت ولادة متعسرة وأنجبت طفلة ميتة. وقال لنا طاهر:

ـ ليس هذا فحسب، ولكنها اقتنعت أخيرا بأنها لن تكون شاعرة وكفَّت عن المحاولة.

على أى حال فإنها تتقدم كناقدة، وما زال بوسعها أن تحمل من جديد وأن تلد ثمرة حية رائعة. وغلب على طاهر تذكر ماضيه المضىء فى ظل حاضره، فتضاعف همه وقلقه، وبدا كأنه يفيق من سحر عشقه وأنه لا يجد فى قبضته إلا هواء. وفى ذات ليلة اعترف لنا بصراحته المعهودة قائلا:

ـ انتهى صاحبكم!

تطلعنا إليه متسائلين عما يعنى فقال:

ـ استقل كل منا بحجرة منفردة..

ثم بصوت هامس:

ـ ما زالت العلاقة بيننا كأحسن ما يكون..

وعُرض على أنوار عمل فى مجلة عربية تصدر فى لندن، وشعر برغبتها فى السفر، فضلا عن أنه لم يجد مبررا للرفض. ولعل صادق صفوان كان الوحيد بيننا الذى قال له:

ـ هذا وضع غير لائق.

ورجع طاهر إلى شارع السرايات ليقيم من جديد مع رئيفة ودرية وإبراهيم وحفيدته الجديدة نبيلة. واندفع فى ميدان الفن السهل بعيدا عن أنوار التى عذبته فترة كأنها ضميره الغائب، وكان قد أحيل على المعاش ولكن المال جرى بين يديه فى فيض ويسر حتى قال لنا ساخرا:

ـ أصبحت من أغنياء الانفتاح..

ولكنه فى أعماقه حزين حزين، يطارده الشعور بالسقوط . وسألنا مرة :

ـ ما أعذب أمل فى حياتى؟

فأجابه حمادة ساخرا :

ـ أن يموت الزعيم أو يقتل!

ولكنه أجاب نفسه قائلا :

ـ إنه الموت، إنى أود الموت وأستجديه . .

وسكت حتى انتهت احتجاجاتنا، ثم قال :

ـ لولا درية، أو لولا درية ونبيلة لانتحرت، يمنعنى حبى لهما وخجلى منهما . .

فقال له إسماعيل قدرى :

ـ سيبقى شِعرك القديم شامخا ويغفر لك ما تأخر .

وقال له صَادق صفوان :

ـ وهل من الإجرام أن يدفع إنسان عن نفسه غائلة الجوع والفقر؟! وتردد قليلا، ثم قال بصراحته الطيبة :

ـ وكيف تعد أعمالك الأخيرة هابطة؟! إنها فى نظرى كأعمالك الأولى فى جمالها إن لم تزد!

وكابد وهو يقترب من السبعين اضطرابا فى البول غير حميد، فاكتشف الأطباء خللا فى البروستاتا، ووصفوا له علاجا كتجربة فإن لم تفلح فلا مناص من الجراحة. واستقبل المرض باستهانة ظاهرة، وتمتم برجاء :

ـ لعلها النهاية .

وذات ليلة ونحن راجعون من السهرة قال صادق :

ـ ما رأيكم؟ إنى أفكر فى أن أقترح على طاهر تطليق زوجته أنوار؟

فسأله إسماعيل عن السبب فقال :

ـ إن لم يبادر هو فستسبقه إلى ذلك وتضاعف من شجونه، هل تتصورون أن تعيش فتاة فى سنها فى تلك البلاد بلا قلب؟

ـ ألا يضيف الاقتراح إلى أحزانه حزنا جديدا؟

ـ كلا، لقد خرجت من حياته إلى الأبد .

وكاشفه صادق برأيه فى الليلة التالية، وكأنه لم يفاجأ بالاقتراح وقال :

ـ فكرت فى ذلك طويلا، ومن العدل أن تجرب حظها مرة أخرى . .

وحرر لها رسالة رقيقة بطلبه، وتم الطلاق، وتنفسنا جميعا الصعداء. ولكن يخيل إلىّ أن طاهر لم يكفّ عن الرغبة فى الموت وانتظاره.

وزهد إسماعيل قدرى فى المحاماة فانتظر حتى يستحق المعاش وأحال نفسه عليه. وفى فترة عودة الأحزاب، وعودة الوفد بالذات، خفق قلبه وناوشته أحلامه القديمة. حقا إنه اليوم شيخ أبيض الرأس ولكن الحزب الجديد عامر بذوى الرءوس البيضاء، ومنهم من يكبره بعقد أو عقدين من السنين. ولكن طاهر عبيد سأله:

- ما رسالة الوفد اليوم؟

فأجاب بقوة:

- الدفاع عن الديمقراطية.

فقال طاهر:

- والدفاع عن الاقتصاد الحر ثم تصفية ثورة يولية، وبذلك يكرس نفسه كالحزب الأول للرجعية..

- لا يمكن أن يتجاهل مطالب العدالة الاجتماعية وهو أول من سبق إليها فى إطار زمانه..

- هذا ما يقوله الحزب الوطنى، فما معنى أن يقوم حزبان لتحقيق رسالة واحدة؟!

وجعل يفكر فى الموضوع، ويتابع الحوار بين عقله وقلبه، ولكن الظروف اضطرت الوفد إلى تجميد نشاطه فأعفته من حيرته.

وبدا إسماعيل مع مرور الأيام أصحّنا بدنًا وأيقظنا فكرا وأشغفنا بالاطلاع المستمر. وما زالت ست تفيدة متشبثة بالحياة رغم تفشى الشيخوخة فى جسدها وروحها، حتى أوشكت أن تنسى ابنها المهاجر. وأكبر ما واجه الأسرة فى ذلك الوقت مشكلة أعباء المعيشة؛ فرغم إيراد ست تفيدة ومعاش إسماعيل ومدخراته من العمل لم تطمئن إلى التغلب على الغلاء مع المحافظة على مستوى معقول من الحياة، وكانت ست تفيدة تملك خرابة فى السبتية فاقترح صادق على إسماعيل بيعها والانتفاع بارتفاع سعر الأرض الأهوج. وأقنع إسماعيل حرمه بذلك، وبيعت الخرابة بخمسين ألفا من الجنيهات، ووهبته هدنة طويلة يطمئن بها القلب ويستقر. وغلب عليه بوضوح ميله إلى الروحانيات والتصوف، واستشهاده بيننا بأقوال كبار الصوفيين وشرح رموزها، وتفرَّد بذلك فلم يحظ بمن يستجيب له أو يأنس إليه؛ فصادق صفوان مؤمن بسيط لا قبل له بالشطحات أو الرموز، وحمادة هواهُ فى التنقل، يتصوف معه ليلة وينقلب عليه فى الليلة التالية فيسخر منه ومن جميع الأقطاب، أما طاهر فلا دين له، وقد سأله مرة:

- أأنت دارس محب للاستطلاع أم تبغى السير فى الطريق؟

يا له من سؤال يطرح على رجل يؤمن الإيمان كله بالعقل والعلم ولا يستطيع أن يتخلى عنهما. وأجاب:

- الإلهام وسيلة للمعرفة كالعقل ولكل منهما مجاله..

فقال طاهر:

- أما العقل فنعرفه معرفة حميمة، أما الإلهام فنسمع عنه فقط.

- ويمكن أن نعرفه أيضا، وقد عرفه الكثيرون..

فابتسم طاهر فى استهانة وقال ساخرا:

- علينا أن نتوقع أن تجيئنا يوما مرتديا خرقة معرضا عن الدنيا وما فيها..

فقال بحزم:

- كلا، ليست من هؤلاء. السر يوجد فى الدنيا كما يوجد وراءها، والسماء والأرض والأشياء تخاطبنا فى كل حين، وعلينا أن نعى ما تقول، فأنا أعشق السر كما يتجلى فى هذه الدنيا، كما سأعشق وجوده الآخر بعد الموت..

ويضحك طاهر قائلا:

- إنها الشيخوخة والخوف من الموت..

فيقول إسماعيل باسما:

- إنه الحب، وهو أكبر من الشيخوخة والخوف..

- جميل أن تبرر تعلقك بالدنيا على هذا النحو..

- فهتف:

- كلا، إنه تعلق من نوع خاص، تعلق مقدس، ولا يخجل من الاعتراف بأن قمة الجمال فى الدنيا يتركز فى المرأة!

ويقهقه حمادة الحلوانى قائلا:

- لا داعى للف والدوران، قل إنك تستقبل المراهقة الثانية، وأنك ترسم خطة لارتكاب الخيانة الزوجية..

فقال باسما:

علىّ أن أتحلى بالصبر..

وضحك طاهر كما كان يضحك قديما وقال:

- وضحت طريقتك يا شيخ إسماعيل ومقاماتها هى الثروة والتأمل والحب ثم المقويات الجنسية!

على أى حال فإن سلوك إسماعيل لم يجاف خيال طاهر فى الظاهر على الأقل،

ورفض بكل قوة أن يعدَّ مسلكه هروبا؛ فإنه لا يعرض عن الحياة حتى آخر لحظة ولا يزهد فى حبها وتصور الكمال لها، ولم يسلم نفسه للتأمل والحب إلا بعد أن أدى واجبه فى نطاق قدراته عمرا طويلا. ولم نعرفه كما نعرفه اليوم صفاء وعذوبة؛ فهو لا يجرى وراء الملامح كما يجرى حمادة مثلا، ويقينا إنه يجد فى الحب ما لا يجد أى عاشق عادى، بل يجد فى الجنس ما لا يتصوره أى رجل عادى! ولكن حق لصادق صفوان أن يقول:

ـ الشرطة لا تعرف لهذا السلوك إلا وصفا واحدا هو المنصوص عليه فى قانون العقوبات، فربنا يستر عليه!

* * *

هلموا نمضى معا فى الحلقة الثامنة. ركن قشتمر باق، ربنا يديمه! المكان المستقر الوحيد مهما تثر العواصف من حولنا. ولا تحول جدرانه القديمة بيننا وبين الدنيا. وتمر السنون سراعا فلا تمنع قلوبنا من الخفقان أو ألسنتنا من الكلام، حتى الحلم تنعم به، فضلا عن ذكرياتنا المشتركة ومودتنا الأصيلة، تمدنا بين الحين والحين بنادرة نرددها أو ابتسامة نبتسمها. حقا يرعبنا الغلاء، ويكدرنا الفساد، ويحزننا الظلم. ويوم قُتل الزعيم فزعنا وتساءلنا عما يخبئه لنا الغد. ورغم الشيخوخة والروماتيزم والذبحة والبروستاتا والتصوّف ذهبنا متوكئين على العصىّ إلى مركز الاستفتاء بالمدرسة القديمة ببين الجناين لننتخب الرئيس الجديد الذى تعلقَت به آمالنا بقدر تعلقها بالأمان والحياة.

وتلقى صادق صفوان من الروماتيزم آلاما كثيرة، ولكن بيته سعد بنمو نُهى ودخولها المرحلة الإعدادية وبزيارات إبراهيم ودرية ونبيلة له. ولم تنقطع المراسلات بينه وبين صبرى الذى وعده بزيارة قريبة لمصر هو وأسرته التى كونها فى الخارج. وأصبح صادق يصلى وهو قاعد، ويمضى وقتا كل يوم فى سيدى الكردى، وقد هبطت عليه الشيخوخة بجمالها الخاص الذى تجلى فى بياض رأسه وشاربه ووقار وجهه وربما تساءل:

ـ تُرى كيف يكون زمان نُهى ونبيلة؟!

فيفتح باب الحديث عن الشباب وتحديات الواقع له وما فعله الماضى بحاضرهم ومستقبلهم. فيقول حمادة الحلوانى:

ـ أبناؤكم أفضل حظا من الملايين الضائعة..

ويقول إسماعيل قدرى:

ـ عسى أن تصهرهم الشدة فتخلق منهم عمالقة..

فيستطرد حمادة:

ـ عايشنا الوطن مع ثورتين، وصادفنا من الآمال والإحباطات ما لا يعد ولا يحصى، وها نحن نشهد الوطن مطحونا فى مأزق لم يجر لأحد فى خاطر..

ويقول إسماعيل :

ـ لا أعفى أحدا من مسئوليته، ومن الخطأ أن نحصر الذنب فى شخص أو شخصين . .

وقدمنا أنفسنا للمحاكمة، فطال الجدل بين دفاع وهجوم، وعجز صديقنا حمادة عن الدفاع عن نفسه . ثم حدثنا صادق عن ابنته نُهى فقال :

ـ يسرنى أنها متدينة ولكنها مولعة بالأغانى الإفرنجية، عاشقة للتليفزيون، ورغم تفوقها الدراسى فهى لا تحب الثقافة المقروءة، ولا اهتمام لها بالشئون العامة . .

فقال طاهر ضاحكا :

ـ إنها متصوفة على طريقتها الخاصة!

ونظر صادق فى وجوهنا الشائخة وقال ضاحكا :

ـ حقا أصبحنا هياكل عظمية، وسيكون أتعسنا من يمتد به العمر بعد رحيل الآخرين . .

أما حمادة الحلوانى فكأنما اعتاد ضجره؛ فصبر وندرت شكواه، وكلما جرى الزمن صالح الحياة ورضى عنها، ولم يحتمل قيادة السيارة وفكر فى استخدام سائق ولكن هاله الأجر الذى طالب به، فركن السيارة واستعمل التاكسى . وعاد يقول :

ـ لا قيمة اليوم لأغنياء الزمن الماضى . .

بقى له من لذائذ الحياة الطعام والحشيش، وحتى الحشيش عجز عن تدخينه فى الجوزة، أما القراءة فلم يعد يستمتع بها أكثر من ساعتين فى اليوم . وسمع صادق صفوان يقول مرة :

ـ من الحكمة أن يفترض الكفرة منكم أنهم مخطئون ولو بنسبة ١٪ وأن يعملوا فى هذا النطاق حسابا للآخرة . .

ولم يمر قوله بلا أثر كما مر بطاهر عبيد . لم يكن غريبا عن الإيمان كل الغربة، فقد طاف به كما طاف بكل رأى وعقيدة، تبنَّى مرة الإسلام ومرة المسيحية وثالثة اليهودية، لذلك فكر فى قول صادق باهتمام . ولما جاء رمضان قرر أن يصوم ويصلى، فعاش مسلما حوالى الأسبوع ثم ارتد أو نسى، كما نسى الذبحة، بل كدنا ننساها معه، وإن حدث وحرك أحدنا الموضوع قال :

ـ مجنون من يعذب نفسه فى مثل عمرنا حرصا على الحياة!

ويشرد أحيانا ثم يقول :

ـ أى مقلب نشربه لو أن إحساسنا بالموت يستمر معنا فى القبر ولو لمدة قصيرة!

وسأل صادق صفوان يوما :

ـ ألا تندم على أنك لم تتزوج ولم تنجب؟

فأجاب بصدق :

ـ مطلقا ، ولكنى ندمت على تجربتى السخيفة مع الزواج . .

وطاهر عبيد يزداد ثراء وقرفا ولم يخف وزنه ، ولا يعفيه مرضه من إزعاج وكدر بين الحين والحين ، وهو وإن ثابر على رغبته فى الموت إلا أنه يخاف المرض ومضاعفاته . ووافته أنباء بأن أنوار بدران تزوجت من زميل فى المجلة فأبلغنا الخبر دون مبالاة . ويقول له صادق صفوان :

ـ كيف تتمنى الموت وبين يديك درية ونبيلة؟!

فيقول طاهر مقهقها :

ـ حقوق الإنسان ينقصها حق جديد هو حقه فى الموت إذا شاء ليتولاه الطب الشرعى بأيسر السبل . .

وإسماعيل قدرى يمضى فى طريقه من مقام إلى مقام ما بين التأمل والحب والجنس ، وصحته صامدة بصورة عجيبة . وتمر الأعوام ولكنه يبدو أصغر منا بخمس سنوات على الأقل .

وقال له طاهر عبيد :

ـ الطاقة الجنسية لها حدود على أى حال!

فقال بطمأنينة :

ـ ربما ، ولكن تبقى معى الأزهار والنجوم والليل والنهار ، ولا تنس هذا الركن الأمين فى قشتمر ، ركن الوفاء والمودة الصافية . .

أخبرنا أن ابنه هبة الله ذكر له فى آخر رسالة تلقاها منه أنه يفكر فى العودة إلى مصر وإنشاء مشروع مناسب ، فسررنا بالخبر .

* * *

وتسير الأيام بلا توقف ، ولا تعترف بهدنة أو استراحة ، نحن نكبر وحبنا يكبر ، إن غاب أحدنا ليلة لعذر قهرى قلقنا وتكدرنا . وفى لحظات الإحساس الفائق يسمعنا الزمن صلصلة عجلاته ، ويرينا قبضته وهى تطوى الصفحات الأخيرة . ويتساءل حمادة الحلوانى :

ـ ترى كيف تجىء النهاية؟

فى البيت؟ . . فى الطريق؟ . . فى المقهى؟ يسيرة رحيمة أم خشنة وحشية؟ . . وسرعان ما نهرب إلى شتى الأحاديث . ومضت الذاكرة تتمرد فلم يعد حمادة وحده . .

ويناقش موضوعا ذات يوم ولكنه ينسى اسم من يريد أن يستشهد به، ولما أعياه تذكُّره قال:

ـ أقصد صاحب نظرية الموناد!

فيتذكره إسماعيل قائلا:

ـ ليبنتز..

فيتنهد قائلا:

ـ كيف غاب عنى اسمه؟!.. هل يكون ختامها الأميَّة من جديد؟!

ورحنا نتذكر من طواهم النسيان، صفوان النادى وزهرانة كريم، رأفت باشا الزين وزبيدة هانم عفت، إحسان، يسرى باشا الحلوانى وعفيفة هانم نور الدين، عبيد باشا الأرملاوى وإنصاف هانم القللى، قدرى سليمان وفتحية عسل، وعشرات من الزملاء والمعارف.

العباسية القديمة هل بقى منها أثر؟ أين الحقول والحدائق؟ أين النخلة ومجلسها وغابة التين الشوكى؟ أين البيوت ذوات الحدائق الخلفية؟ أين السرايات والقلاع والهوانم؟ هل نرى اليوم إلا غابات من الأسمنت المسلح ومظاهرات من المركبات المجنونة؟... هل نسمع إلا الضجيج والضوضاء؟ هل تحدق بنا إلا أكوام الزبالة؟!

ـ كلما ضن الحاضر بنبأ يسر هرعنا إلى الماضى نقطف من ثماره الغائبة. نفعل ذلك رغم وعينا بما فيه من خداع وكذب، وعلما بما أترع به الماضى من سلبيات وآلام ولكننا لا نستطيع أن نرد النفس عن الاستمتاع بذلك المورد المليء بالسحر والسراب.

وقال لنا صادق صفوان يوما:

ـ أقترح أن نحتفل بمرور سبعين عاما على صداقتنا الوطيدة..

وضممنا الاقتراح إلى صميم قلوبنا. وقال حمادة:

ـ لنحتفل به فى خان الخليلى..

فقال طاهر عبيد:

ـ العوامة أفضل..

ولكن إسماعيل قدرى قال:

ـ بل فى قشتمر، فنحن وصداقتنا وقشتمر كلٌّ لا يتجزأ.

ووافقنا على ذلك دون تردد، وأملى المكان على الحفل بساطة تناسب أعمارنا وصحتنا، فاكتفينا بشراء تورتة، وأعددنا الشاى، وأخذ كل منا قطعة، وفرقنا الباقى بين صاحب المقهى والجرسونات وماسحى الأحذية. وتراءى لنا أن يقول كل واحد كلمة للمناسبة، فقال صادق صفوان:

- أقول وأنا أستعيذ الله من الحسد والحاسدين أن سبعين عاما مرت فلم تند عن أحدنا هفوة تسيء إلى الوفاء من قريب أو بعيد، ألا فليدم هذا الصفاء وليكن مثلا للعالمين . .

وقال حمادة الحلوانى :

- لو جمعنا الضحكات التى روينا بها قلوبنا المنهكة بكئوس الأحداث لملأت بحيرة من المياه العذبة الصافية . .

وقال طاهر عبيد :

- أحقا نحن نحتفل بمرور سبعين عاما على صداقتنا؟ لقد مرت على بلادنا سبعون عاما، أما صداقتنا فلم يمر عليها سوى دقيقة واحدة . .

وقال إسماعيل قدرى :

- ينطوى التاريخ بما يحمل ويبقى الحب جديدا إلى الأبد . .

وكدت أجنح إلى تذكر عازف الرباب القديم ولكن صادق صفوان أيقظنى من سباتى وهو يتلو بصوت واضح :

﴿ وَالضُّحَىٰ (١) وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ (٢) مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ (٣) وَلَلآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الأُولَىٰ (٤) وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ (٥) أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ (٦) وَوَجَدَكَ ضَالاًّ فَهَدَىٰ (٧) وَوَجَدَكَ عَائِلاً فَأَغْنَىٰ (٨) فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلا تَقْهَرْ (٩) وَأَمَّا السَّائِلَ فَلا تَنْهَرْ (١٠) وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴾ [الضحى : ١ - ١١]

(تمت)

الفجر الكاذب

مجموعة قصصية

المحتويات

الفجر الكاذب

كأنما هو سباق بينى وبين قرص الشمس المائل نحو الغروب . بلغت شارع ابن ياسر المكلل بأشجار الأكاسيا على جانبيه . تستبق فوق أديمه السيارات فى تيارات متدفقة وتقوم فى موقع من وسطه العمارة بمدخلها الواسع الممتد وضوئها المشع من داخل الجدران

الشفافة. رفعنى المصعد إلى الدور الثامن. ضغطت على الجرس ففتحت الشراعة عن وجه الخادم. تقدمنى إلى المثوى المكون من ثلاث حجرات متصلة، فجلست على مقعدى فى الأعماق. أزاح الرجل ستارة وفتح نافذة فتدفق هواء الخريف. وهلت سيدتى فى فستان أزرق آية فى البساطة والرقة وشبشب أزرق مذهب السير، ترنو إلى بعينيها النجلاوين الثاقبتين وأنا أتعجب من صفاء بشرتها. سألتنى عما أحب أن أشرب فطلبت القهوة فقالت إنها سلت بعض فراغها بصنع شيكولاتة بالبسكويت. قلت إذن أتناول واحدة. وأمرت لى بما طلبت. ونظرت فى وجهى مليا وقالت:

ـ واضح أنك لم تتقدم خطوة مفيدة.

فقلت فى تسليم:

ـ هذه هى الحقيقة.

تساءلت ضاحكة:

ـ ترى أهو ذنب المشكلة أم ذنبك؟

ـ لا أدافع عن نفسى، ولكن لا يمكن أن أتهم بالإهمال!

ـ كأننا لم نبدأ بعد.

ـ وهذا ما يؤرقنى.

وجاء الخادم دافعا أمامه خوانا يحمل القهوة والشيكولاتة. وتركتنى أحتسى القهوة فى هدوء، ودون أن يزايلنى التوتر. وقلت برجاء:

ـ لا تسيئى بى الظن.

ـ تهمنى النتائج لا النوايا أو الأقوال.

ـ نحن فى زمن عجيب، شهدنا إنسانا يهبط فوق سطح القمر، ونرى السوق ملأى بكتب عن القوى الخفية . . .

ـ لا يعنى هذا أن يقف الإنسان مكتوف اليدين وهو يعلم أنه عرضة للهلاك فى أى لحظة.

ـ لم أقف مكتوف اليدين وطالما أتعبت سعادتك معى . . .

ـ أمرك يهمنى كما تعلم.

فبسطت راحتى على صدرى وأحنيت رأسى شاكرا. ثم قلت:

ـ طبعا سمعت عن الذى قتل والديه؟

ـ والتى قتلت ابنها، وقديما سمعنا عن ريا وسكينة. ماذا تريد أن تقول؟

ـ يشعرنى ذلك باقتراب القدر.

فقامت لتغادر المكان وهى تقول :

ـ سأحرر لك رسالة للبك .

وغابت حوالى ربع ساعة ثم رجعت فسلمتنى رسالة مطوية فى مظروف مغلق، وتساءلت :

ـ هل تبقى للعشاء؟

فقمت بدورى شاكرا وغادرت الشقة . ليل الخريف هبط بسرعته المألوفة، وأضواء السيارات المبهرة اقتحمت الأعين . وذكريات متلاطمة تفعل بإحساسى ما تفعله أضواء السيارات المبهرة ولكنها تختفى وتضيع قبل أن أقبض عليها . فالدنيا تبدو مراوغة مثيرة للحيرة والقلق . ومضيت من توى إلى شارع البورصة، إلى مشرب الزهرة، الصغير الأنيق الذى لا يتلاشى الجالس فيه . طلبت من النادل سندوتش لحم بقرى وقدح شاى، وقال لى الرجل قبل أن يذهب :

ـ سألت عنك . . وستجىء لمقابلتك بعد قليل .

سررت بذلك . وتناولت عشائى وانتظرت .

ولم يطل بى الانتظار فجاءت تخطر فى بنطلونها بجسمها الرشيق الثرى ووجهها الأسمر الصافى المنمق، وقد ارتدت جاكتة من الجلد البنى . وطلبت الشاى كالعادة وهى تنظر إلىّ فى عتاب .

ـ لم أرك منذ أيام .

ـ آسف، أنا غريق فى مشكلتى، وأمضى من وسيط إلى وسيط . .

ـ لم يمنعك ذلك من ملاحقتى كظلى فى وقت مضى .

ـ لا يمنعنى عنك إلا عذر قاهر .

ـ ولكنك تدور فى حلقة مفرغة لا ترى لها نهاية .

ـ لولا أنه يوجد فى الدنيا أمل كالذى تعديننى به لانتهيت من زمن بعيد .

استشعرت شيئا من الحياء وهى تتساءل :

ـ لماذا تصر على تأجيل زواجنا حتى تحل جميع مشكلاتك؟

ـ هذا هو التصور الطبيعى .

ـ ولكن الزواج يهيّئ لك نصف الأمان على الأقل، فأخى من كبار رجال الشرطة!

فقلت وأنا أنظر فى عينيها بإشفاق :

ـ خصمى شخص مجهول .

ـ هو أيضا لم يهتد إليك بعد، وقد يساعدك أخى على معرفته .

ـ أتمنى أن أتزوج وأنا رائق البال .

ـ لا عقبة فى طريقنا إلا ما ينبثق من ذاتك .

عاودتنى عواطف صافية من زمن مضى فرمقتها بحنان وحب وقلت :

ـ فلنجلس لنحلم فى عذوبة وهدوء ، وقريبًا سوف تنقشع الهموم .

وتبادلنا حبا عميقا بلا كلمة ولا حركة . وفى لحظات عابرة بدت الدنيا مراوغة ، وتلاشت حبيبتى من مجلسها القريب . وعادت مرة أخرى مشرقة الوجه فواصلنا الحب المتبادل الصامت . ولما تركتنى تذكرت بزهو عنادى فى مطاردتها حتى انتزعت من صميم قلبها الاعتراف بالحب .

وأمدنى اللقاء بحماس جديد فقمت لأقابل البك وأسلمه الرسالة . ذهبت إلى النادى بشارع الشط الأخضر . وجدته جالسا مع نخبة من الأصدقاء فى الشرفة المطلة على الحديقة الواسعة . ولما رآنى مقتربا قام مستأذنا من صحبه ، وصافحنى إكراما طبعا للهانم ، ومضى بى إلى المثوى الأخضر . أجلسنى قريبا منه ونظر إلىّ بعينيه الثقيلتين وبوجه لا يعبر عن شىء ، وسألنى :

ـ هل من جديد؟

فقلت بأسى :

ـ أقابل أناسا وأتلقى وعودا .

وتناول منى الرسالة وأبقاها فى يده المنبسطة وتساءل :

ـ ألا يقنعك هذا؟

ـ أريد أن يتحقق وعد .

ـ لكلّ عمل يشغله . هذه أيام الصرف الصحى والعدوان على تونس وخطف السفينة الإيطالية ثم خطف الطيارة المصرية . . . والدولار .

ـ مشكلتى غاية فى البساطة .

ـ أنت تتصور ذلك ، لا ، انظر إلى الموضوع بعين محايدة . .

ـ لكن حياتى مهددة!

ـ هل تعرف عدد الفلسطينيين الذين قتلهم الإسرائيليون؟ . . . والفلسطينيين الذين قتلهم العرب؟ . . وضحايا العنصرية فى جنوب إفريقيا . . والطائفية فى لبنان ، وضحايا الزلازل والبراكين ، والسموم البيضاء ، والمظاهرات؟

فقلت وأنا أنظر بين قدمى :

ـ ما على إذن إلا أن أستسلم للموت . . .

ـ بل أعنى أن تصبر وتعتمد على النفس .

ـ أليس من الحكمة أن أستثمر علاقاتى بالرجال الكبار؟

ـ لن ينقذك إلا اعتمادك على نفسك . افعل ما فعله رمسيس الثانى عندما حاصره الحيثيون وأوقعوه فى الشرك . .

فقلت وأنا أدارى ابتسامة :

ـ سيدى ، أنا لست رمسيس الثانى .

ـ لتكن رمسيس المائة أو الألف . . .

وتنبه للرسالة بين يديه فقص المظروف وقرأها بعناية . ونادى النادل فطلب رسالة ومظروفا . وفى تلك الأثناء هفت إلى أنفى رائحة مسك فلم أستطع أن أخفى اضطرابى ، فسألنى عما ألم بى ، فكاشفته بما تردده الشائعات عن خصمى المجهول . قلت :

ـ إنه يتطيب عادة بالمسك .

فقال الرجل بضجر :

ـ وغيره كثيرون ، لا أظنه عضوا فى نادينا . .

وغرقت فى مستنقع الهواجس على حين راح هو يكتب التوصية الجديدة ، ثم يسلمها إلىّ فى مظروف مغلق . وغادرت النادى ، ولما قرأت اسم الوسيط الجديد رأيت أن أذهب إليه ضحى الغد . وذهبت إلى مسكنى بشارع الجندى المجهول . غيرت ملابسى وجلست أمام التليفزيون أشاهد فيلمًا بطله سيارة تندفع ذاتيا وتقتل من يصادفها من البشر . شقتى صغيرة بالية ولكن الزمن رفعها ألف درجة وجعل منها درة لا يفوز بها إلاَّ ذو حظ سعيد . وقد أقمت بها مع قريب على عهد التلمذة ، ثم استقللت بها بعد انتهاء دراستى الجامعية وتعيينى فى الوزارة . ورن جرس الشقة فعاودنى الشك الذى اجتاحنى حين شممت رائحة المسك . ومضيت إلى العين السحرية فطالعنى وجه جارتى المقيمة فى الشقة المواجهة لشقتى . ماذا جاء بها دون طلب أو اتفاق؟ دخلت ملتفة فى روب وردى مشرقة الوجه بالزواق ، ولما رأت فتور وجهى قالت :

ـ لا تحب أن ترانى إلاَّ وقت الحاجة؟!

وجلست على مقعد قريب من مقعدى وهى تقول :

ـ لا يوجد زبائن ، فقلت أسلى وحدتى بجلسة بريئة!

ثم بعد صمت :

ـ ماذا جرى للزبائن؟

فقلت دون أدنى اكتراث :

ـ لعلها الحالة الاقتصادية .

ـ أنا لا أتعامل بالدولار .

وتفحصتنى قليلا ثم قالت :

ـ مازلت غارقا فى همومك؟

ـ طبعا .

ـ يوجد فى قريتى من يصمم على قتلى لو عثر علىّ، ولكنى لا أفكر فى الغد .

فقلت بحياد :

ـ كل شيخ وله طريقة .

ـ لكل أجله وهو يعمل مستقلا عن الأسباب .

فقلت وأنا أدارى غيظى :

ـ فلسفة عظيمة ، أنت امرأة سعيدة . .

ـ لا . . وزنى ثقيل ، وهو آخذ فى الازدياد ، وتسبب فى حرمانى من تعلم الرقص . .

ـ ولكن الشهرة ليست فى صالحك ، وقد تدل عليك من يريد قتلك .

وانقطع حبل الحديث . ولم تجد من ناحيتى أى رغبة فى وصله ، فسلمت بفشل مهمتها ، وانصرفت وهى تلوح لى مودعة . وأنا أهم بالنوم عاودنى الإحساس بأن الدنيا تراوغنى ، فخيل إلىّ أن جارتى لم تأت لزيارتى . وخيل إلىّ حينا آخر أنها ترقد إلى جانبى . وفى الصباح ذهبت إلى الوزارة . هى المكان الوحيد الذى ألقى فيه الاحترام وأسمع الثناء تلو الثناء . ولى زميل غاية فى الدماثة والمودة . وهو يحثنى دائما على أن أعيش حياتى ، وأن أستهين بالظنون والأقاويل التى لا يقوم عليها دليل مادى . . . يقول لى :

ـ من منا لا يتربص به الموت؟

ودعانى ذلك الصباح إلى الاشتراك فى رحلة إلى جنوبى سيناء فوعدته بالتفكير فى الأمر . وعند الساعة العاشرة استأذنت فى الانصراف لعذر مهم ، وغادرت المؤسسة إلى شارع الوادى الجديد حيث توجد عيادة الوسيط الجديد الذى أحمل إليه الرسالة . ورجوت التمورجى أن يوصل الرسالة إلى الطبيب ، فذهب بها ثم عاد بعد دقائق ليأذن لى فى الدخول فورا . وجدت الطبيب جالسا وراء مكتبه يطالعنى بشخصية قوية وعينين نافذتين ، غير أنه توكد لدى ما يحظى به صاحب الرسالة من منزلة فريدة عنده . قلت :

ـ أعتقد أنى قادم إلى سعادتك بصفتك الشخصية لا المهنية .

فسألنى بجدية :

ـ ما الذى حملك على هذا الاعتقاد؟

ـ مشكلتى، بل كل مشكلاتى، لا علاقة لها بالطب.

ـ لكن الطب له علاقة بكل مشكلة. على أى حال ظنك فى محله، وما نريد إلاَّ أن تمكث فى مصحة لى بحلوان فترة من الزمن حيث يتهيأ الأمان والأمن.

ـ ولكنى بعد خروجى سأرجع إلى ما كنت فيه.

ـ أو يكون الوسطاء قد تمكنوا من تصفية مشكلاتك فى أثناء ذلك.

ـ ولكن المصحة ستسىء إلى سمعتى!

ـ مصحتنا تعيش فى سرية كاملة.

وترددت متفكرا فتساءل:

ـ ألا يوجد فى حياتك ما تخجل منه أو تندم عليه؟

ـ هذه مسألة أخرى.

ـ بل لعل كثيراً من المشكلات يرجع إليها.

فقلت بيأس!

ـ إذن فأنا ذاهب للعلاج.

ـ لن أفرض عليك شيئا لا تريده.

وقلت بمرارة وكأنما أخاطب نفسى:

ـ كيف أعيش بين مجانين؟!

فتساءل متهكما:

ـ وهل ترى نفسك عائشا بين عقلاء؟!

وانفجر قلقى فقلت:

ـ معذرة يا سيدى، لن أذهب إلى المصحة.

فقال بهدوء كريه:

ـ فى هذه الحالة سأوصى البك بأن يتركوك لشأنك دون رعاية أو عناية.

فقلبت النغمة قائلا:

ـ أعطنى مهلة قصيرة.

فقال موافقا:

ـ لك ذلك.

أنفقت بقية النهار متسكعا، وتجاذبتنى طوال الوقت الحقائق والأحلام، ولم تبق إلا

خطوة يسيرة لأتساءل عمن أكون وفى أى مكان أقيم والزمان الذى أعاصره. ورجعت مساء إلى عمارتى ولكنى قصدت شقة الجارة لا شقتى. وخيل إلى أنها استقبلتنى دون مبالاة، وربما بشىء من الجفاء، وكأنما تعاقبنى على إعراضى عنها ليلة أمس. ولكن مسكنها يضفى على شعورا بالألفة، ولا يخلو من فتور وضجر وإحساس شبه خفى بالخيبة. وهو بعيد كل البعد عما يجده الزائر المتسلل من التوتر والمغامرة. ولكيلا تتساءل عن سر غيابى الوشيك زعمت لها أنى راحل إلى قريتى لمهمة طارئة. وفى الصباح أعددت حقيبتى وذهبت إلى المصحة بحلوان. وهى مبنى رائع يقع فى أقصى المدينة، ويقوم على هضبة تطل على الصحراء. واخترقت حديقة واسعة لأصل إلى البناء فى العمق، وقادونى إلى جناح يتكون من صف طويل من الحجرات، تفتح أبوابها على ممشى طويل يتصل بالحديقة بسلم رخامى يشغل الوسط. وتبدت حجرتى بيضاء الجدران والسقف، بها ما يلزم من فراش وصوان وخوان ومقعدين. ولبثت وحيدا حتى جاءتنى ممرضة ناضجة الشخصية والأنوثة بالغداء. سألتها عن الطبيب فأجابت بأدب:

ـ سيجىء فى وقته!

وأعطتنى قارورة صغيرة تشف عن أقراص بيضاء خالية من أى ملصقات وقالت:

ـ حبة بعد كل وجبة.

فقلت محتجا:

ـ ولكننى لست مريضا..

فقالت بهدوء وهى تغادرنى:

ـ ليست مصحتنا للمرضى، ولكنها للراحة والأمان.

وأخذت أشعر بالندم على المجىء، وأنتظر فى ملل متصاعد. وفى تمام الخامسة مساء، انفتح الباب ودخل الطبيب. جلس على المقعد الآخر أمامى وقال:

ـ بداية حسنة فانعم بالأمن والأمان.

فقلت بقلق:

ـ ولكنى أتعاطى دواء.

ـ ما هو إلا مهدئ وفاتح للشهية.

ـ ومتى يستحسن أن أذهب؟

ـ وقتما تشاء من ناحية المبدإ، أما إذا راعينا مصلحتك فالأوفق أن تذهب بعد أن تؤدى الامتحان..

ـ أى امتحان يا سيدى؟

ـ ما عليك إلا أن تسجل على الورق أكبر مشكلة مصرية ، وأكبر مشكلة عالمية ، ثم تفكر فى الحل المناسب لكل منهما .

فندت عنى ضحكة عالية وقلت :

ـ لا شك فى أنك تمزح يا سيدى .

فقال بجدية وبرود :

ـ ليست مصحتى مسرحا فكاهيا .

فقلت متراجعا :

ـ معنى هذا أننى سأبقى هنا إلى الأبد .

ـ إنها محاولة لمعرفة تصورك ليس إلا ، وعقب ذلك تذهب بسلام .

ـ ولكن ما علاقة ذلك بمشكلتى أنا؟

ـ إذا استطعت أن تقدم تصورا لحل مشكلَتَىْ مصر والعالم فلا شك فى أنك تستطيع ذلك بالنسبة لمشكلتك الخاصة .

ـ لكن مشكلتى من نوع خاص .

ـ ولو ، لن تكون أعقد من مشكلات العالم .

ـ أنت تعلم ولا شك أننى مهدد بالقتل فى أى لحظة .

ـ كلنا مهددون بالقتل فى أى لحظة!

وسكتُّ مغلوبا على أمرى حتى همَّ بالذهاب فسألته :

ـ هل يشترط أن تكون الإجابة صحيحة؟

ـ لا أحد يزعم أنه يعرف الإجابة الصحيحة ليقيس عليها ، حسبك أن تقدم تصورا معقولا .

وعلى أثر ذهابه جاءتنى الممرضة بورقة ومسطرة وقلم رصاص ووضعتهما على الخوان . جذبتنى بقوة إلى أنوثتها ونضجها دون أن تتكلف كلمة أو حركة . وانبعثت فىَّ آمال عجيبة ملأتنى جرأة وفى الوقت نفسه محت صورتها من قلبى العالق من خطيبتى وجارتى . قلت لها :

ـ إنى مدين لك بحسن الرعاية .

فقالت بجدية وحياء :

ـ إنى أؤدى واجبى .

ونظرت إلى خاتم الزواج فى يسراها وتساءلت :

ـ أسعيدة أنتِ فى زواجك؟

فقالت بدهشة :

ـ سؤال غريب !

ـ لا مؤاخذة ، ولكن لى هدفا .

ـ أى هدف ؟

ـ إذا خطر لك أن تجربى حظك من جديد فإننى على أتم الاستعداد للزواج منك .

فغادرت الحجرة دون أن تنبس بكلمة . وسرت فىَّ قشعريرة إحباط وبرودة ، وضقت بالحجرة فخرجت إلى الممشى . بعض النزلاء يجلسون أمام الحجرات أو يتمشون . جارى رجل فى الأربعين ، حدجنى باهتمام فتبادلنا التحية . واقترب منى وسألنى عما جاء بى فلخصت له الموقف فى شىء من التحفظ ، ثم سألته بدورى عما جاء به فقال :

ـ لعلى الوحيد بينكم الذى جاء بلا مشكلة !

ـ ولكن كيف ؟

ـ أنا رجل ميسور الحال ، صاحب مزاج ، أحب السرور والرحلات ، ولا أحمل للدنيا هما .

ـ عظيم . . عظيم . .

ـ لى صديق مشترك بينى وبين الطبيب ، هاله أن يجدنى بلا مشكلة ، وأصر على أن أعيش فى المصحة مدة . .

ـ جئت لأنك بلا مشكلة ؟ !

ـ هذا هو الواقع .

ـ وكيف قبلت ؟

ـ قلت لتكن تسلية جديدة .

ـ وهل أديت الامتحان ؟

ـ هذه هى مشكلتى الجديدة ، فلا علم لى عن أى مشكلة فى مصر أو العالم ، ولا أقرأ من الصحيفة إلا الإعلانات والوفيات وأين تذهب هذا المساء .

ـ ما عليك إلاَّ أن تقرأ الصحف وستمدك بمشكلات لا حصر لها .

فتساءل ضاحكا :

ـ وكيف أقدم حلولا لمشكلات لا تهمنى ألبتة ؟ !

والحق أنه امتص منى توترى بغرابة مشكلته ، وفتح نفسى للرجوع إلى حجرتى لأداء الامتحان المطلوب منى ، وعند منتصف الليل آويت إلى فراشى ونمت نوما عميقا . وفى الصباح الباكر جاءتنى الممرضة بالإفطار . وجاءت معها برائحة ما أن شممتها حتى

ارتعدت أطرافى . ولما لا حظت تغيرى سألتنى عما ألم بى ، فقلت بقلق لم أستطع أن أداريه :

ـ هذه الرائحة !

فقالت بثقة :

ـ رائحة المسك أطيب الروائح . .

ـ من أين لك بها؟

ـ أهدانيها أحد زوار النزلاء .

ـ هل يتردد على المصحة من زمن؟

ـ منذ أكثر من شهر ، ألا تعجبك؟

فقلت متحفظا :

ـ هى مرتبطة فى حياتى بذكريات غير سارة !

فقالت بمرح :

ـ فك الارتباط وتناول إفطارك !

ونضب إعجابى بالممرضة وتبخر . ولعلها شعرت بذلك على نحو ما فتساءلت بجدية :

ـ هل فرغت من تسجيل المشكلات لآخذها إلى الدكتور؟

وفى الحال أعطيتها الورقة لأتخلص منها فى أقصر مدة . وجاءنى الطبيب قبيل الظهر . دعانى إلى الجلوس أمامه واضعا الخوان بيننا وألقى على ورقتى نظرة جديدة وقال :

ـ أنت ترى أن مشكلة مصر الأولى تتركز فى عدد السكان؟

ـ هم أم المشكلات كلها .

ـ عظيم ، أى حل تقترح لها؟

ـ يجب أن يهبط العدد إلى ما يتناسب مع الإمكانات المتاحة فتحل جميع المشكلات دفعة واحدة .

ـ وكيف نتخلص من الزائد؟

ـ بالهجرة الدائمة وقتل الباقى بوسيلة رحيمة خالية من الألم !

ـ يالك من رجل رحيم !

ـ كل عاقل يجب أن يعتبرنى كذلك .

ـ ومن حسن الحظ أننى عاقل . . والآن ننتقل إلى العالم ، فأنت ترى أن الحرب النووية هى مشكلته الأولى؟

ـ نعم . . .

ـ فكيف ترى العلاج؟

ـ أن تقوم الحرب وتقضى على العالم وتخلصه من مخاوفه .

ـ ولكن الإبادة ستلتهم المخاوف والخائفين معا .

ـ أو يبقى نفر كالذين نجوا من الطوفان . . .

ـ الحق أن تفكيرك لا يخلو من رحمة وكمال دائما!

وتبادلنا نظرة طويلة ثم سألته بقلق :

ـ هل أستطيع أن أذهب الآن؟

فقال وهو يقوم تأهبا للذهاب :

ـ بيدك وحدك أن تذهب وقتما تشاء .

وفى الحال أعددت حقيبتى وذهبت . ذهبت أسوأ مما جئت ، ولكن روح استهانة استحوذت على وأملت على أن أمضى فى حياتى دون اعتبار لأى شىء إلا الحياة نفسها . ونازعتنى نفسى إلى لقاء الهانم التى لولا عطفها لهلكت من زمن بعيد . وعند العصر أقبلت علىَّ فى ثوبها متلفعة بروب خفيف بنفسجى زادها جمالا وصفاء . جلسنا حول إبريق الشاى وهى تقول :

ـ لم يفتنى شىء من أخبارك ، وإنى مسرورة بما سمعت .

فنظرت إليها بارتياب وقلت :

ـ تجربة المصحة تجربة غريبة ، وفى جملتها غير سارة ، وحتى هنا طاردتنى رائحة المسك . .

فابتسمت عن لآلئها وقالت :

ـ الطبيب مرتاح ومتفائل ويجب أن تطمئن إلى حكمه فهو ثقة علامة . .

وترددت قليلا ثم قلت :

ـ عَنَّ لى أن أزور قارئة الفنجان المشهورة . . .

فابتسمت قائلة :

ـ كما تشاء ، الحقيقة اتسعت فى أيامنا هذه حتى شملت كل شىء . . .

وقبلت يدها ، وغادرت مقامها إلى مصر القديمة ، إلى مسكن المرأة التى شغل ذكرها صحفنا الكبرى . وجدت حجرة الانتظار مزدحمة فطال انتظارى حتى أوشك صبرى أن

ينفد. ثم جلست أمامها على مقعد صغير مريح الوسادة، وحسوت فنجان القهوة فلم تبق إلا الرواسب. وتناولت الفنجان وراحت تتأمله بعناية، وطال تأملها حتى قطبت كالحائرة.

ثم قالت:

ـ لا أدرى كيف أقرأ مستقبلك.

فتساءلت منزعجا:

ـ أهو غامض لهذه الدرجة؟!

ـ المسألة أن نجاتك أو هلاكك بيدك أنت. فليس عندى ما أقوله!

ـ لى خصم عنيد مجهول.

ـ نعم، أنت مجهول أمامه أيضا، وهو يخشاك كما تخشاه..

ـ لم يعرفنى بعد؟

ـ نعم على رغم أن الحياة جمعت بينكما أكثر من مرة!

ـ جمعت بيننا؟!

ـ هذا واضح.

ـ أليس لديك معلومة إضافية تبل الريق؟

ـ قلت ما عندى، والله معك.

تركتها مشتت الخاطر ينهمر فوق رأسى القلق من سماء ملبدة بالغيوم.

تقول إن الحياة جمعت بيننا أكثر من مرة! اللعنة! فهو إذن أحد سكان العمارة أو زميل فى الوزارة وربما يكون البك أو طبيب المصحة! وذهبت إلى الزهرة لأتناول لقمة وألملم أنفاسى. سرح بى الخيال إلى عهد الطمأنينة والسلام قبل أن أطلب يد خطيبتى. وكيف نما إلى علمى أن نفرا من أهلها اقترحوا رفضى لهوان أصلى. ومع أن خطيبتى ذللت العقبات بقوة إرادتها إلا أن اقتراح الرفض آلمنى جدا. ودفعنى إلى النبش فى الماضى لعلى أعثر على أصل كريم غابر أخنى عليه دهر لا يرحم. وأهلتنى دراستى الجامعية للبحث، فتوغلت فيه بإصرار، وما زلت أنتقل من جد فقير إلى آخر أجير حتى اهتديت إلى جد خطير فى عصره. كيف تدهور ذلك الجد العظيم؟ لقد تمرد على أبيه فحرمه من الميراث، واستقبلت ذريته تاريخا طويلا من الفقر والذل. وعرفت من التاريخ سر النزاع القديم الذى اتخذ من الثأر المتوارث وسيلة متجددة ومقدسة فتك بها بأرواح لا تحصى من أبناء الأسرة جيلا بعد جيل، لا يعفى منها غنى أو فقير. وقدرت بالحساب الدقيق أننى المرشح اليوم للقتل، لا يؤخر الأجل عنى إلا أن الخصم لم يهتد إلى بعد. هكذا استوعبتنى

مشكلات الأصل والموت فلم تبق من حيويتى إلا القليل لمشكلات الحياة اليومية الملحة . وطبيب المصحة يرى أن تصورى لحل مشكلات مصر والعالم قادر ضمنا على حل مشكلتى المؤرقة ، ولكن من يضمن لى الحياة حتى تحل مشكلات مصر والعالم؟! وتاقت نفسى للخروج من قصر التيه بأى ثمن ولأن أحيا حياتى مهما كلفنى الأمر . ودعوت خطيبتى إلى لقاء بالزهرة فى أصيل اليوم التالى . ولبت كالعادة بكل حيويتها واستجابتها العذبة ، وقصصت عليها حكايتى مع قارئة الفنجان منتظراً تعليقها . قالت باسمة :

ـ هذا يعنى أنه يحتمل أن أكون أنا خصمك المجهول!

ثم بجدية :

ـ احذر أن تسيء الظن بالجميع فتصبح وحيدا منبوذا .

فقلت بنبرة واضحة وقوية :

ـ لا أود أن أموت قبل أن أموت .

ـ يسعدنى أن أسمع ذلك .

ـ وأود أن نتزوج فى الحال .

فوهبتنى الموافقة بنظرة عينيها ودون كلام . وإنى على أتم استعداد والحمد الله . واتفقت مع مقاول من المترددين على الوزارة لتجديد شقتى الصغيرة العتيقة ، يغير أرضيتها ويصلح النوافذ ويدهن الجدران والأسقف ، ويعيد بناء الحمام ودورة المياه والمطبخ . ولما انتهى العمل فى الشقة مضوا يفرشونها بجهاز العروس تحت إشراف خطيبتى وأمها وأخيها ضابط الشرطة . ولما كلل التعب بحسن الختام إذا بحماتى تقول بنبرة ذات مغزى :

ـ لابد من فرحة!

لكن مدخراتى أوشكت على النفاد ، وهمست بذلك ، فقالت الست :

ـ لا نريد حفلا فى فندق ، حسبنا عشاء لائق فى مطعم خلوى ، وبلا رقص أو غناء!

ولبيت رغبتها على رغمى . واقتصرت الدعوة على الأهل . غير أنى دعوت الهانم فشرفتنا مع هدية سعيدة متبرعة للاجتماع بفرقة «كان كان» الموسيقية . وجلسنا متواجهين حول مائدة طويلة ، ورأيت بين المدعوين البك وطبيب المصحة دون أن أدرى كيف تم ذلك؟ وعاودنى إحساسى الغريب بمراوغة الذكريات الغامضة ، ولكن سعادتى بالعروس غلبت على كل شيء . وخطر لى فى أثناء الطعام أن خصمى المجهول موجود حتما بين المدعوين ، ولكنى طردت الفكرة بإصرار وواصلت الأكل والشرب .

ولما فرغنا من الطعام ، وقف رجل كان يجلس فى الصف الآخر إلى يسار حماتى ليلقى كلمة فيما بدا . خيل إلىّ لأول وهلة أننى أراه لأول مرة فى حياتى ، ثم خيل إلى

مرة أخرى أننى سبق أن لمحت هذا الجبين البارز والحاجبين الغزيرين والفكين القويين، ولكن أين؟ ومتى؟

وملت نحو الهانم الجالسة إلى جانبى وسألتها عنه، فقالت:

ـ رجل طيب يقدم نفسه فى الأفراح طلبا للرزق!

وركزت عليه بصرى باهتمام لا يخلو من قلق. أما هو فراح يقول بصوت جهير:

ـ «سيداتى.. آنساتى.. سادتى..

«للفرح يوم واحد، لا يتكرر مهما تكرر، وهو من صنع الرحمن لا البشر، من أجل أسمى غاية وهى عمران الوجود. فالزواج طاعة، والحب عبادة، إذا حاد أحدهما عن طريقه ضل إلى الأبد. وفى مثل هذا اليوم تسجل الحياة أحد انتصاراتها الرائعة، فلنهنئ العروسين، ولنحى ذكرى ربَّىْ أسرتهما النبيلة آدم وحواء، اللذين دفعا إلى دنيانا بسبب العصيان ورفعا منها بحكم الغفران. ولندع الله أن ينصرنا على إبليس عدو الأسرة القديم الذى لا يكف عن طلب الثأر، والعقبى لكم فى المسرات».

وأحنى الرجل رأسه شكرا للتصفيق الذى أعقب كلمته ثم جلس.

وكاد ذكر الثأر يفسد على ليلتى لولا لباقة عروستى التى جذبتنى لنجواها. وانفض الحفل الصغير على خير حال. ومضيت بعروسى إلى شقتى، ولكن استعصى على أن أدخل المفتاح فى عروة الباب. ماذا حدث؟! وفتحت شراعة الباب عن وجه لم أتبين معالمه. سألنى قبل أن أفيق من ذهولى:

ـ من أنت؟!

فصرخت فيه:

ـ من أدخلك شقتى؟!

فصاح الرجل بغضب:

ـ سكران!... مجنون!... اذهب قبل أن أكسر دماغك...

ادعى كل منا أن الشقة شقته وأن الآخر معتد أو معتد ومجنون، ولم أجد بدا من الاستغاثة بالشرطة. ولكن أين عروسى؟ هل بادرت إلى أخيها؟ ولم أحب أن أضيع الوقت فى البحث عنها، فذهبت إلى قسم الشرطة، واصطحبنى ضابط إلى الشقة، واطلع على العقد، ثم صارحنى بأنه لا يستطيع أن يتعرض للرجل بسوء، وأن الأمر يجب أن يعرض على النيابة. وتكشف التحقيق عن غرائب وعجائب. أثبت الرجل أن الشقة شقته بعقد قديم، وشهد معه صاحب العمارة، والبواب، وكثرة من السكان. واستشهدت بعروسى وأبيها الذين فرشوا الشقة بأيديهم، وقد أدلوا بشهادتهم القاطعة بأنهم لا يعرفوننى وأننى لم أتزوج من ابنتهم. وماذا يقول الذين لبوا دعوة العشاء وشهدوا الزفاف؟... ماذا تقول

الهانم، والطبيب، والبك؟ . . . . أجمعوا على أن أقوالى ادعاءات باطلة لا أصل لها، وأنهم لا يعرفوننى، ولم توجد بينهم وبينى أى صلة. ولعل الوحيد الذى لم ينكرنى، والذى جاء دون دعوة منى، هو صاحب الخطبة. سمعته يقول للمحقق إنه أخى الأكبر، ويرجو أن يذهب بى لأعالج من تلك الحالة الطارئة. . !

ودخلت فى شبه غيبوبة لا أدرى كم غشيتنى ولا متى انقشعت، ولكنى أنتبه أحيانا إلى وجود أخى إلى جانبى، وأحيانا أخرى أعى إقامتى فى مصحة الطبيب بحلوان. وبعودتى إلى ذاتى أدركت أننى مريض وأننى أعالج، وأن الطبيب يعالجنى بالعقاقير والكهرباء. ولما خاطبت أخى فى شئوننا الخاصة هتف الرجل بسرور:

ـ الحمد لله، ها أنت ذا تعود إلى الواقع.

ولكن علاجى امتد طويلا وجالسنى الطبيب كثيرا حتى آنست إليه وأسرنى بذكائه وإنسانيته. وفى آخر مرة قال لى:

ـ أعتقد أنك على أتم ما يكون من الشفاء الآن.

فوافقته بتسليم وصبر. فسألنى:

ـ ما حقيقة علاقتك بأخيك الأكبر؟

فأجبت بهدوء ويقظة ودون أى إرهاق:

ـ إنى أقيم معه فى شقته بالعمارة، وهو زوج وأب، وذو ميول دينية واضحة، ولا يكف عن حضى على الزواج على رغم الظروف المعاكسة، ولم ير بأسا فى أن أتزوج بجارتنا الأرملة على رغم أنها تكبرنى بأعوام، ولكنها تملك الشقة وبعض المال. ولم أذعن لمشيئته لنفور قلبى من المرأة ولارتيابى فى استقامة سلوكها. لا أنكر عطفه على ونصاعة خلقه، ولكنه طالما وقف من سلوكى موقف الناقد طويلا بل والرافض.

ولما سألنى عن عروسى ضحكت طويلا، وقلت:

ـ كانت زميلتى فى الكلية، أحببتها وكأنها كانت تزن مستقبلها بميزان العقل، فأثبتت لى بمنطق واضح حاد أننى غير صالح للزواج، أى غير قادر عليه. وفضلا عن ذلك فقد صارحتنى بأن أهلها يصرون على اختيار زوج لها من طبقتها. .

وسألنى عن الهانم، فقلت:

ـ عرفتها من خلال عملى بوزارة الشئون الاجتماعية بوصفها رئيسة لإحدى الجمعيات الخيرية. بهرنى جلالها وقوة شخصيتها ورقة إنسانيتها، وأقررت لها بأنها تملك من المزايا ما يؤهلها لحكم أمة حكمًا عادلا سعيدا. ولم أجد بها من عيب إلا زواجها بـ «البك» الذى كان أدنى منها كثيرا فى العلم والخلق. . .

وقال الطبيب :

ـ أما أنا فلا شك فى أنك عرفتنى عن طريق التليفزيون .

ـ بالضبط ، وأعجبت بأسلوبك فى معاملة مرضاك بوصفهم ضيوفا .

ـ تبقى مسألة القتل والثأر ، فهل لك أعداء؟

فقلت ضاحكا :

ـ بدأت المسألة بالمجاز . يقول أخى لى فى شتى المناسبات إننى عدو نفسى وإنه يجب أن أحذر العدو الكامن بين جوانحى . وأقول له إنه يوجد أكثر من عدو يتربصون بنا الدوائر . . وإلا فكيف تفسر هذا الانهيار الشامل؟!

وهز الطبيب رأسه وهو يبتسم ، ثم قال :

ـ وفى حوارنا المتصل الطويل لمست انفعالك الشديد حول قيم كثيرة كالعلم والعمل والسعادة ، أيرجع ذلك للأسباب التى ذكرتها؟

فقلت بحدة :

ـ ليس ذلك فحسب ، لكنى أذكر دائما دراستى الجامعية الضحلة العقيمة ، وبطالتى التى أمارسها فى الوزارة ، والسعادة التى أحلم بها دون جدوى . .

ـ ورحت تكمل ما ينقصك بأحلام اليقظة حتى أشرفت على الضياع الذى أنقذت منه بمعجزة .

فقلت خاشعًا :

ـ بفضلك يا سيدى .

وخرج أخى عن صمته فقال :

ـ وبفضل الله قبل كل شىء .

فقال الطبيب :

ـ حدثنى الآن عن الدرس الذى أفدته من إقامتك القصيرة فى مصحتى؟

فقلت بحماس :

ـ إن أحلام اليقظة غير مجدية !

نصف يوم

سرت إلى جانب أبى متعلقا بيمناه . جريت لألحق بخطاه الواسعة . ملابسى كلها جديدة ، الحذاء الأسود والمريلة الخضراء والطربوش الأحمر . غير أنى لم أسعد بالملابس

الجديدة سعادة صافية، فيومى لم يكن يوم عيد ولكنه أول يوم يلقى بى فى المدرسة. وقفت أمى وراء النافذة تراقب موكبنا الصغير فالتفت نحوها كالمستغيث بين حين وآخر. تقدمنا فى شارع بين الجناين تحف به من الجانبين حقول مترامية مزروعة بالخضر والتين الشوكى وأشجار الحناء وبعض النخلات. قلت لأبى بحرارة:

ـ لماذا المدرسة؟ . . . لن أفعل ما يضايقك أبدا!

فقال ضاحكا:

ـ أنا لا أعاقبك، المدرسة ليست عقابا، ولكنها المصنع الذى يخلق من الأولاد رجالا نافعين، ألا تريد أن تصير مثل أبيك وأخوتك؟!

لم أقتنع. لم أصدق أنه يوجد خير حقا فى انتزاعى من بيتى الحميم ورميى فى هذا المبنى القائم فى نهاية الطريق مثل حصن هائل شديد الجدية والصرامة عالى الأسوار. ولما بلغنا البوابة المفتوحة تراءى لنا الفناء واسعا ومكتظا بالأولاد والبنات. وقال أبى:

ـ ادخل بنفسك وانضم إليهم، ابسط وجهك وابتسم، وكن مثالا طيبا . .

ترددت وشددت أصابعى على راحته، ولكنه دفعنى برفق وهو يقول:

ـ كن رجلا، اليوم تبدأ الحياة حقا، ستجدنى فى انتظارك وقت الانصراف.

مشيت خطوات ثم وقفت أنظر: أنظر ولا أرى. ثم: أنظر فتلوح لى وجوه الأولاد والبنات. لا أعرف أحدا ولا أحد يعرفنى.

شعرت بأننى غريب ضائع. ولكن ثمة نظرات اتجهت نحوى بدافع من حب الاستطلاع. واقترب منى ولد وسألنى:

ـ من الذى جاء بك؟

فهمست:

ـ أبى.

فقال ببساطة:

ـ أبى ميت.

لم أدر ماذا أقول له. وأغلقت البوابة مرسلة صريرا مؤثرًا. أجهش البعض بالبكاء. دق الجرس. جاءت سيدة يتبعها نفر من الرجال. أخذ الرجال يرتبوننا صفوفا. انتظمنا شكلا دقيقًا فى فناء واسع محاط من ثلاث جهات بأبنية مرتفعة مكونة من طوابق، وبكل طابق شرفة طويلة مسقوفة بالخشب تطل علينا. وقالت المرأة:

ـ هذا بيتكم الجديد، هنا أيضا آباء وأمهات، هنا كل شىء يسر أو يفيد من اللعب إلى العلم إلى الدين، جففوا الدموع واستقبلوا الحياة بالأفراح . . . .

استسلمنا للواقع . وسلمنا الاستسلام إلى نوع من الرضا . . وانجذبت أنفس إلى أنفس . ومنذ الدقائق الأولى صادق قلبى من الأولاد من صادق ، وعشق من البنات من عشق ، حتى خيل إلىّ أن هواجسى لم تقم على أساس . لم أتصور قط أن المدرسة تموج بهذا الثراء كله . ولعبنا شتى الألعاب من أرجوحة وحصان وكرة . وفى غرفة الموسيقى ترنمنا بأول الأناشيد . وتم أول تعارف بيننا وبين اللغة . وشاهدنا الكرة الأرضية وهى تدور عارضة القارات والبلدان . وطرقنا باب العلم بادئين بالأرقام . وتليت علينا قصة خالق الأكوان بدنياه وآخرته ومثال من كلامه . وتناولنا طعاما لذيذا . وغفونا قليلا . وصحونا لنواصل الصداقة والحب واللعب والتعلم .

وأسفر الطريق عن وجهه كله فلم نجده صافيا كامل الصفاء والعذوبة كما توهمنا . ربما تدهمه رياح صغيرة وحوادث غير متوقعة فهو يقتضى أن نكون على تمام اليقظة والاستعداد مع التحلى بالصبر . المسألة ليست لهوا ولعبا . ثمة منافسة قد تورث ألما وكراهية أو تحدث ملاحاة وعراكا . والسيدة كما تبتسم أحيانا تقطب كثيرا وتزجر . ويعترضنا أكثر من تهديد بالأذى والتأديب . بالإضافة إلى ذلك فإن زمان التراجع قد مضى وانقضى ولا عودة إلى جنة المأوى أبدا . وليس أمامنا إلا الاجتهاد والكفاح والصبر ، وليقتنص من يقتنص ما يتاح له وسط الغيوم من فرص الفوز والسرور .

ودق الجرس معلنا انقضاء النهار وانتهاء العمل . وتدفقت الجموع نحو البوابة التى فتحت من جديد . وودعت الأصدقاء والأحبة وعبرت عتبة البوابة . نظرت نظرة باحثة شاملة فلم أجد أثرا لأبى كما وعد . انتحيت جانبا أنتظر . طال الانتظار بلا جدوى فقررت العودة إلى بيتى بمفردى . . وبعد خطوات مر بى كهل أدركت من أول نظرة أننى أعرفه . هو أيضا أقبل نحوى باسما فصافحنى قائلا :

ـ زمن طويل مضى منذ تقابلنا آخر مرة ، كيف حالك؟

فوافقته بانحناءة من رأسى وسألته بدورى :

ـ وكيف حالك أنت؟

ـ كما ترى ، الحال من بعضه ، سبحان مالك الملك !

وصافحنى مرة أخرى وذهب . تقدمت خطوات ثم توقفت ذاهلا . رباه . . أين شارع بين الجناين؟ أين اختفى؟ . . ماذا حصل له؟ متى هجمت عليه جميع هذه المركبات؟ ! ومتى تلاطمت فوق أديمه هذه الجموع من البشر؟ وكيف غطت جوانبه هذه التلال من القمامة؟ وأين الحقول على الجانبين؟ قامت مكانها مدن من العمائر العالية ، واكتظت طرقاتها بالأطفال والصبيان ، وارتج جوها بالأصوات المزعجة . وفى أماكن متفرقة وقف الحواة يعرضون ألعابهم ويبرزون من سلالهم الحيات والثعابين . وهذه فرقة موسيقية

تمضى معلنة عن افتتاح سيرك يتقدمها المهرجون وحاملو الأثقال. وطابور من سيارات جنود الأمن المركزى يمر فى جلال وعلى مهل. وعربة مطافئ تصرخ بسرينتها لا تدرى كيف تشق طريقها لإطفاء حريق مندلع. ومعركة تدور بين سائق تاكسى وزبون على حين راحت زوجة الزبون تستغيث ولا مغيث. رباه! ذهلت. دار رأسى. كدت أجن. كيف أمكن أن يحدث هذا كله فى نصف يوم، ما بين الصباح الباكر والمغيب؟ سأجد الجواب فى بيتى عند والدى. ولكن أين بيتى؟ لا أرى إلا عمائر وجموعا. وحثثت خطاى حتى تقاطع شارعى بين الجناين وأبو خودة. كان على أن أعبر أبو خودة لأصل إلى موقع بيتى، غير أن تيار السيارات لا يريد أن ينقطع. وظلت سارينا المطافئ تصرخ بأقصى قوتها وهى تتحرك كالسلحفاة، فقلت: لتهنأ النار بما تلتهم. وتساءلت بضيق شديد: متى يمكننى العبور؟ وطال وقوفى حتى اقترب منى صبى كواء يقوم دكانه على الناصية، فمد إلى ذراعه قائلا بشهامة:

ـ يا حاج.. دعنى أوصلك..

يرغب فى النوم

غادر التاكسى عند مدخل شارع حسن عيد. الضحى ارتفع والشمس تريق أشعة حامية من سماء باهتة، ودفقات متتابعة من الخماسين تزيد من الحرارة وتثير الغبار وتنفث الضيق والكدر. تغير كل شىء بقوة تفوق الخيال. الطريق من محطة مصر حتى هنا يكشف قاهرة أخرى. أين ذهبت القاهرة التى عاش فيها منذ نيف وخمسين عاما؟ جنت بالزحام والسيارات والصراخ والدمامة. ليس وجهه وحده الذى عبس به الزمن. وهو متوسط القامة نحيلها، معروق الوجه، أصلع، شائب العذار والشارب. مطوق العين والفم بالغضون، يتوكأ على عصا، ويتمتع بنشاط يحسد عليه بالقياس إلى سنه. ها هو ذا قد رجع بعد عمر طويل، فما الأمل؟ لم يرجعه عقل أو منطق ولكن نداء خفى ملح متعب مبدد للراحة قال له: اذهب وانظر وافعل شيئا ما لعله يجعل نومك أعمق!

وشارع حسن عيد يتراءى فى تكوين جديد. حتى اسمه امحى من الوجود وحل محله اسم جديد هو الشهيد مصطفى إبراهيم. وعلى الجانبين قامت العمائر العالية، وتراصت فى أسفلها الدكاكين، وماج الطريق بالزبائن. إنه سوق ولا أثر للبيوت القديمة والهدوء الشامل والذكريات المتلاشية كحلم. نداء عقيم، ساقه بلا وعى. وسيتمخض عن لا شىء. واتجه نحو العمارة الأخيرة فى الجانب الأيمن. هنا قام يوما البيت القديم. كأن الشارع لم يكنس منذ جيل والخماسين تشتد وتحمى منذرة بالمزيد من الإرهاق. وحن إلى

متجره فى الريف، والأولاد والبيت الذى اضطر إلى الابتعاد عنه بعد إقامة نصف قرن. بواب العمارة مشغول ببيع الفاكهة فى مدخل العمارة معروضة على رف طويل تحت صناديق البريد ما بين برتقال وموز وليمون. وقعت عيناه على عينيه فانتبه الرجل متوقعا زبونا جديدا فحياه بسرعة وقال:

ـ هل تعرف عم محمد الشماع أو أى أحد من أسرته؟

فتر إقبال الرجل وقال:

ـ لا أعرف أحدا بهذا الاسم.

ـ كان يقيم فى البيت القديم الذى شيدت هذه العمارة محله؟

ـ هذه العمارة قائمة منذ أربعين عاما!

ـ لعل أحدا بهذا الاسم فى عمارة أخرى؟

ـ لا أظن، وعليك أن تتأكد بنفسك بسؤال البوابين.

دورة من العناء والضجر واليأس ولا أحد يعرف الشماع أو أسرته. كانوا أسرة كاملة مكونة من أب وأم وأخ وأخت. من رحل يا ترى؟ ومن بقى؟! ونصف قرن ـ بل أكثر ـ ليس بالزمن القليل، عمر طويل دالت فيه دول وقامت دول. وهل تنسى أيام التعاسة الأولى، أيام القحط والأزمة؟ وإن يكن جيل مضى ألم يخلف جيلا جديدا؟ألا توجد همزة وصل تصل ما بينه وبين ذلك الزمن الغابر؟ هل يرجع كما جاء ليجد الذكريات فوق فراشه ترصده بنظراتها الباردة القاسية؟

ورجع إلى الشارع العمومى فشعر بالعرق ينساب على جسده خطوطا لاذعة تحت جلبابه المخطط، واشتدت الخماسين واكفهرت وأثارت مزيدا من التراب فحجب الأفق عن الرؤية. لا مفر من الانتظار حتى المساء ليعود مع قطار الصعيد. وقت طويل والتسكع لا يحلو فى مثل هذا اليوم. ترى أين أصحاب الشباب ومن بقى منهم على قيد الحياة؟ لعل عند أحدهم نبأ عما يبحث عنه، ولكن أين هم؟ وهل ما زالوا يتذكرونه؟ لا. لا.. بحث عقيم عن أناس اقتلعوا تماما من وجدانه وكأنهم ماتوا وشبعوا موتا. حتى أغانى ذلك الزمان لم تعد تطرب أحدا وتثير السخرية.

وخطر له خاطر لا يدرى من أين جاء: أن يزور المدفن القديم. ومن توه مضى إلى باب النصر. وجد القرافة عامرة بالسكان كما قرأ فى الصحف. أصبحت فى موسم دائم. ولكن حوشهم نجا لصغره إذ كان يحوى قبرا واحدا، وخاليا من المرافق والمياه ولا يكاد يتسع لواقفين أو ثلاثة. وسأل عن التربى الذى نسى اسمه تماما، فجاء عجوز يسعى، فى سن أبيه لو كان على قيد الحياة، ولعله ظن أنه استدعى لرزق جديد. اطمأن إلى شيخوخة الرجل وحدس أن يعرف من خلالها أشياء. وبعد تحيته سأله:

ـ حوش الشماع؟

ـ نعم .

ـ إنى أسأل عنه أو عن أى فرد من أسرته .

انطفأ وميض الأمل فى عين الرجل ، وسأله :

ـ من حضرتك؟

ـ صديق قديم ويهمنى جدا أن أهتدى إلى أى فرد من الأسرة .

ـ كنت على معرفة وطيدة بعم محمد الشماع الله يرحمه .

ـ مات؟!

ـ ورقد فى هذا القبر منذ أكثر من خمسين عاما!

ـ والست الكبيرة؟

ـ لحقت به بعد عام أو عامين .

ـ وماذا عن الآخرين؟

ـ لم يفتح القبر منذ وفاة الست . . ولا علم لى عن الآخرين .

ـ كان للمرحوم ابن وبنت .

ـ كان له ابنان وبنت!

خفق قلبه وهو يتساءل :

ـ ابنان؟!

ـ الابن الأصغر ، ربنا يجحمه حيث يكون .

ـ لماذا؟

ـ ولد فاسد شرير ، كان يعمل فى الدكان مع أبيه وأخيه ، وفى عز الأزمة سرق الخزانة وهرب ولم يسمع عنه خبر بعد ذلك . .

ـ أعوذ بالله ، لاشك فى أنه تركهم لأيام عسيرة . .

ـ محنة وفقر وتسول . سرعان ما مات الرجل كمدا ، ولحقت به امرأته . أنجب شيطانا ، ولاشك فى أن الله قد انتقم منه شر انتقام . .

نظر إلى القبر مليا ، ثم رفع بصره إلى السماء المغبرة ، وهمس :

ـ شكرا .

فقال الرجل :

ـ ربنا يدلك على ابن الحلال ليرشدك إلى ما تريد .

وحياه وانصرف . سار كالأعمى لا يرى ما بين يديه . .

الهمـــــس

يخطر لى أحيانا أن الراحة الحقيقة لا توجد إلا بزوالهما معا، هو وهى. ولكنه مجرد خاطر يعبر القلب إذا اشتد العنت أو ادلهم الخطب. خاطر لا وزن له فى الواقع، حلم يقظة أخرق. وهل تصبح الحياة حياة إلا من خلال التعامل معهما معا؟ وهل يمكن تخيل الوجود بدونهما؟ أما حيرة التردد بينهما فهى قدره الذى لا مفر منه. فى البدء تردد همسه بالمحاذير والدعوة إلى الاعتدال حيال يسماتها المغرية، فتحدت هى محاذيره وهونت من ترشيداته. ويكفهر وجهه ويفجر إنذاراته. فتغضب هى وتغرينى بتجاهله أو تشكك فى جديته، وأنا لا غنى لى عنها ولا قدرة لى على تجاهله. فى أيام البراءة لعبنا معا ـ أنا وهى ـ فى نور الشمس تحت السمع والبصر، ولكن همسه يقتحمنى قائلا:

ـ حافظ على نظافة ملابسك وسلامتها.

ـ ولكن اللعب يحب الحرية، أليس كذلك؟

فيهمس:

ـ اللعب الرشيد لا يتنافر مع النظام!

وأمتعض وأتضايق. اللعب هو اللعب. لماذا يقيد لعبى بنواهيه؟ لماذا يفسد على مذق الأيام الحلوة؟! فلتتسخ الملابس فثمة من يغسلها، ولتتمزق فالسوق مليئة بالجديد. وهو كبير، ولديه ما يشغله نهاره وليله فلم يهدر وقته فى تكدير صفوى على رغم حبنا المتين المتبادل؟ وترنو هى إلى بعينيها الصافيتين وتتساءل:

ـ أرأيت تعسفه؟

ثم تواصل بحدة:

ـ لم لا يتركنا وشأننا؟ ولم تعمل كل هذا الحساب لكلمة تصدر عنه؟

ولكنه قوى، والمالك الأوحد للبيت وأدوات اللعب وكل شىء. وعلمتنى التجربة أن الاستهانة به غير محمودة العواقب. ها هو ذا يهمس أيضا:

ـ البنت ماكرة بقدر ما هى لطيفة، أنا أعرفها كما أعرفك، اسمع كلامى أنا، ولست أمانع فى لعبك معها، العب معها ما شئت، ولكن عليك بالاعتدال والنظافة، وتذكر أنها تلعب مع آخرين أيضا فعاملها بالمثل، ولا تجعل منها كل شىء لأنك لست لها كل شىء. إنى أعرف أكثر منك فاسمع كلامى..

تمنيت أن ألعب دون قيد أو شرط، ولكننى تعثرت فى الخوف ولم أنس ما سمعت عن

غضبه إذا غضب أو عقوبته إذا عاقب . وتضاعف عنائى عندما حملت إلى المدرسة . والتعليم مشقة تتحدى اللهو والمرح وتلتهم الساعات بلا رحمة ، فهل قضى على أن أنفق العمر فى الصراع مع الجهل؟ أما هى فلم تكن تكترث إلا بالساعة التى هى فيها . ترمق انشغالى بازدراء واستنكار وتقول :

ـ اختر لنفسك ما يحلو .

لو خيرت لاخترت ، ولكن همسه لا ينقطع عنى فما حيلتى؟ ! ولأعترف بأننى كنت أنحرف عن الخط ، أحيانا أشرد عن الدرس لأفكر فيها ، أو أخلو إليها فى غفلة ونأخذ فى اللعب . ويسألنى دائما عن مواظبتى فأتورط فى الكذب . ويكفهر وجهه ويكتشف كذبى . وقلت لها : إنه لا تخفى عليه خافية ، فقالت :

ـ أنت ضعيف فيتجلى الكذب فى عينيك !

ويقول هو لى مؤنبا :

ـ الكذب أرذل من الجهل .

ياله من رجل ! أى ضرر يصيب العالم إذا جهلت أن القاهرة هى عاصمة مصر؟ . . أو إذا لم أحفظ جدول الضرب؟ ويقرصنى فى أذنى قائلا :

ـ الرجل الحقيقى يجب أن يعرف السماوات والأرض . ليست الحياة لعبا . انظر إلى النملة ! هل يرضيك أن تكون أدنى مرتبة منها؟ !

ويغلبنى الارتباك فأقول له معاتبا :

ـ أنت الذى جئتنى بها لألعب معها فأبعدها عنى . .

فيقول باسما :

ـ إنك أصغر من أن تشير على بما يجب ، ولن أرتكب خطأ فى حق الجيرة والقربى ، وهى بمنزلة ابنتى ، وليس بها من بأس كزميلة لك ، فلا منع ولا إبعاد ، ولكن عليك أن تعطى الدرس ما يستحقه ولك أن تلاعبها فى أوقات الفراغ .

تلك أيام مزقها العذاب ، وإن بدت اليوم آية فى الجمال بسحر الزمن . وكان أن تغير صوتى فقالوا : ناهز البلوغ . وهمس فى أذنى بحزم أن الآن حرم اللعب . يا للخبر ! ما شعرت برغبة فى اللعب معها كما أشعر الآن . وهى ترمقنى من بعيد ولكن جرأتها تلاشت . يتكلم لسانها بكلام وعيناها بكلام آخر . أقول لها خلسة :

ـ لا يمكن أن نهدم فى لحظة ما بنيناه فى عمر مديد .

فتقول فى دلال :

ـ ولكنك لم تعد تقنع بلعب زمان !

ـ اللعب يتغير بتغير العمر .

ـ وله حدود لا يتعداها . .

من ناحية أخرى راح هو يحذرنى من الأخطاء ويخاطب فىَّ الرجل الناشئ . تمنيت ولو فراقا مؤقتا ولكنه احتقر رغبتى وقال لى :

ـ الحياة اقتحام وحذر ولا مجال فيها للهروب . .

الأمور تتعقد وتزداد عسرا ، بل أضحت عذابا ومحنة . ولعله لم يبد لى منفرا كما يبدو الآن . ارتفع صوته درجات . قلت : إنه هراء فى هراء . وإنه يتدخل فيما لا يعنيه . كأنه لم يمر بالشباب يوما . وكلما ظفرت معها بخلوة امحى وجوده تماما . أنا وهى كل شيء وهو لا شيء كأنه خرافة . غير أنها اعتصمت بحد لا تتعداه حتى خيل إلى أن همسه قد انسرب إليها . وانفجر غضبى عليه ، فسخرت منه فى كل مكان . واعتبرت نفسى ندا له أو أقوى . ولما تيقنَتْ من موقفى الجديد خافتنى وهربت منى . لعل ذلك بوحيه وتأثيره . وهالتنى وحدتى وتخبطت فى الفراغ . وشحنت برغبة دكناء فى الانتقام ، فاندفعت فى اقتراف أخطاء كثيرة بتشف واستهتار . أتحداهما معا ، وأعبث بذكراهما معا ولكنى لم أنج من غشاء الوحشة الذى وقعت فى شركه .

وتوهمت أن الانفصال قد فرق بينى وبينه إلى الأبد ، ولكن بدا أنه على رغم صمته الظاهر لم يكف عن الاهتمام بأمرى . هكذا تبدل الحال فظفرت بوظيفة فى المجتمع ، وعقد قرانى بها فى ليلة بيضاء . وحق على أن أشكر فضله إلى الأبد ، وأن أقر بأنه لولاهباته العديدة وإرثه القيم ما وسعنى أن أسعد بما نلت . واستقللت بمسكن جديد ، ومارست السيادة فى مملكتى الصغيرة . انغمست فى الحب والإنجاب والعمل . وكدت أنساه تماما لاتمرداً عليه هذه المرة ولكن انشغالابالأعباء الجديدة . وبمرور الأيام تغيرت هى أيضا ، صارت زوجة لاحبيبة ، وأما وشريكة . لا تمسك عن المحاسبة والمطالبة والشكوى . وأتساءل : أين الدلال والبسمات والكلمات العذبة؟ وهالنى العبء المتصاعد فانزلقت قدمى من جديد فى طريق الخطإ . وربما تمادى الخطأ إلى ما لا تحمده عقباه . وفجأة وبعد انقطاع طويل تلفن لى فى مكتبى وذكرنى بوصاياه القديمة قائلا :

ـ إن فوائدها لم تنعدم بعد .

يا للعجب! كدت أنسى أنه ما زال على قيد الحياة . ها هو ذا يعيد الأسطوانة القديمة متناسيا أننى لم أعد طفلا . وأننى اليوم مثله تماما فى الحرية واتخاذ القرار . ومضيت فى سبيلى ولكن شيئا من الحذر خالط سلوكى وأهدافى . وأطرح كل ثمرات الجهد تحت أقدام الأسرة فتتلقفها دون كلمة شكر أو تقدير . وأقول لها :

ـ الشكر لايهم ولكننى أرجو شيئا من الرحمة . .

فتقول:

- إنى أتعب مثلك وأكثر ولكنك أنانى..

وتبدى لى الزواج صيغة غريبة للتوفيق بين الحب والكراهية، بين حب الحياة وحب الموت، بين التضحية والرغبة فى القتل. ولكن السفينة صارعت الأمواج حتى صرعتها ونجت من الغرق. ونال الآخرون استقلالهم كما نلنا يوما استقلالنا. لم يعد أحد منهم فى حاجة إلى. ورجعت إلىَّ الوحدة جارة معها أثقال العمر. ولكننى لم أستسلم للأسى. وطنت نفسى على تقبل قوانين الأشياء. وناجيت فى وحدتى الرضا والسلام. ولم أقلل من المسرات الزائلة ولا من سحر التحف والأغانى، ولاحتى من جمال الأطعمة الشعبية.

وإذا بى أتذكره فجأة بعد طول نسيان. وكيف لا أتذكره ما دام على قيد الحياة؟! وهو من جيل معمر يغبط على طول عمره وسلامة صحته. ولو كان أصابه تلف لترامت إلينا أخباره فى حينها، فلا شك فى أنه يمارس حياة طبيعية وسيسعد برجوعى إليه مثل سعادتى وربما أكثر. وهيهات أن أنسى نواياه الطيبة ورحمته. أما عن رأيه فىَّ فلا أحسبه فى صالحى، ولكن كان دائما أكبر من تقصيرى وأعلى. اليوم يبدو لى على حقيقته أكثر من أى عهد مضى. ثم إنه أقام فى القرية منذ عهد بعيد وشد ما تهفو نفسى إلى الخضرة والهواء النقى. إنها أثمن فى النهاية من أثاث بيتى وتحفه وما جمعت من مال وبنين. سأمضى إليه وليس فى نيتى أن أعتذر أو أن أصوغ من سحر البيان جملة واحدة. سأمثل بين يديه باسما وأقول هامسا: ها أنا ذا قد رجعت، مدفوعا بالشوق وحده، فاقض بما أنت قاض.

فى غمضة عين

ما ظن يوما أن زوال محنته يعنى انزلاقه إلى محنة جديدة. من أجل ذلك لم يستمتع طويلا بعطر الخريف وأماراته المشربة بالبياض الناعس والتى تغازله فى مجلسه بشرفة كافيتريا الجلوب. إلى جانبه وفى متناول مس منكبه جلست رافعة بروفيل وجهها الأسمر الصافى الذى تفانى فى حبه على مدى سنوات طويلة. هيأ نفسه منذ اللحظات الأولى للقاء - كالعادة - للتشاكى، ولنفث نسمات الحب فى مناخ الإحباط المحدق، وللحومان حول هموم المسكن والخلو والجهاز والمهر ثم كيفية مواجهة تحديات المعيشة. استقلا معا قارب الحب منذ المرحلة الثانوية، وتلاعبت به أمواج الحياة المعاندة غير المواتية، ولكنهما

ظلا مصممين على البقاء جنبا لجنب قابضين بشدة كل على مجذافه رافضين الانهزام أمام العقدة التى تطوقهما.

هذا الصباح تطالعه عيناها بمرآة جلية الصفاء، لاينضح بياضهما النقى بفتور. لم يخل قط جمال نظرتها من كآبة خفية تتجلى حينا وحينا تستشف. وتاق قلبه لسماع أى خبر حسن. واحتسيا قدحى الجوافة على مهل فى صمت حتى خرقه قائلا:

ـ الحلم يتضخم فى رأسى، وغير بعيد أن يصبح واقعا!

فقالت بثقة جديدة كل الجدة:

ـ غير بعيد على الإطلاق.

حقا؟! اقترح ذات يوم أن يتزوجا بالفعل وليكن ما يكون. أجل سيظل فى بيت والده بالقبيسى كما ستظل فى بيت أبيها بالوايلى، ثم يبحثان عن حل وهما حاملان معا أمانة الزوجية. أبوه على رغم كونه موظفا صغيرا ممن عجنهم الانفتاح إلا أنه لم يرتح أبدا لاختياره ابنة حلاق. لتكن جامعية وموظفة، فأى قيمة لذلك اليوم؟ ولكن الفتى نشأ رجلا لايتحول عن المطالبة بحقوقه الكاملة. تفرس فى وجهها مأخوذا بتعليقها القوى وقال:

ـ ماذا وراءك؟.. لديك شىء جديد..

فقالت بثقة باسمة:

ـ أجل.

ـ حقا؟!

ـ تبخرت المشكلة، انحلت العقدة، هبط حل بارع من السماء!

ـ ماذا عندك؟

فقالت بانفعال لم تستطع كبحه:

ـ اسمع، رجل أعمال عرض على أبى التنازل له عن دكانه نظير مبلغ خمسين ألفا من الجينهات..

انعقد لسانه من طغيان الفرح. الخبر فى ذاته خبر من الأخبار المتداولة فى تلك الأيام ولكنه لم يتصور أن يطرق بابه واقعًا حيًّا.

ـ أرأيت يا عزيزى كيف تحل العقد بالسحر؟!

ـ حكاية لاتصدق..

ـ هى الحقيقة، وبعض زبائن أبى قدموا له نصائح ثمينة..

ـ مثال ذلك؟

ـ أن يهجر حرفته ويعمل بالاستيراد، ودلوه على الطريق لفتح مكتب . .

ـ استثمار وثراء مضاعف . .

فنقرت على ظهر يده بأظافرها الأرجوانية، وقالت :

ـ أبى يجهل اللغات الأجنبية . سيسافر كثيرا . أقترح أن نستقيل من بطالتنا المقنعة وأن نعمل فى مكتبه بمرتب حسن ونسبة فى الأرباح . .

ضحك . ولبثت أساريره ضاحكة، ونسى هموم العمر كله، وقال :

ـ دخل خيالى .

ـ وتلاشت المشكلات دفعة واحدة . .

ونظرت إليه باسمة وكأنما تدعوه لإعلان موافقته وشكره، فقال :

ـ توفيق ما بعده توفيق .

وتاه فى الحلم تحت مراقبة عينيها مورد الخدين من الفرح غائصا فى لجة من الخواطر، ومسح بيده على شعر رأسه الغزير، وتنفس بعمق ثم قال وكأنما يحاور نفسه :

ـ سنصبح منهم!

ـ من تعنى؟

ـ أنت تعرفين ما أعنى تماما .

الماضى لا يمكن أن ينسى . إنه ماض حاضر . تجسد فى حوار متواصل . انهال بألسنته المحمومة على الانحرافات والطفيليين . من منطلق مثالية ناصعة بل انتماء لايخلو من تطرف . لكنها قالت :

ـ الصفقة مشروعة ولاغبار عليها .

ـ أسلم بهذا، ولكنا لم نعفها من نقدنا المر .

فقالت محتجة :

ـ لابد أن نفرق بين ما هو شرعى وما هو منحرف . .

ـ معك الحق . ولكن أصحابنا سيسخرون منا . . .

ـ فليسخروا ما شاءوا، المهم أن عملنا لا غبار عليه . .

ـ العمل لا غبار عليه . .

ـ من منهم يعرض عن فرصة مماثلة إذا منحت له؟

ـ لا أحد فيما أتصور . .

ـ فلا يوجد سبب واحد يدعو للتردد .

ـ هذا حق، المسألة . . .

وتوقف متفكرا فتساءلت بحدة :

ـ المسألة؟ !

ـ ماذا أقول؟ !كنا نتكلم بين الأصحاب بحماس جاوز الحد . .

ـ حول المنحرفين ودائما المنحرفين . .

ـ ألم نعتبر بعض أنواع الاستيراد انحرافا؟

فقالت متجهمة :

ـ سنكون موظفين لا أكثر !

ـ صاحب المكتب هو أبوك وحموى!

ـ لن يكون مهربا أو خطافا . .

ـ طبعا . . طبعا، ولن يمنعنا العمل الجديد من المحافظة على أفكارنا . .

ـ طبعا . . طبعا . . هل تتصور أن تضحيتنا بالفرصة هى التى ستصلح المجتمع؟

ـ طبعا لا .

ـ لاتبال إذن بأى قول متعسف .

ـ هذا هو الرأى الصواب . .

ـ هل أعتبر الأمر منتهيا؟ !

ـ أى نعم!

هكذا تلاشت المشكلات وابتسمت الحياة. آمن بذلك تماما، ولكنه شعر فى الوقت نفسه بأن محنة جديدة تتربص به بين الأصحاب أو فى أعماق ذاته . ومن الآن فصاعدا ستكون السعادة هى المشكلة . ستكون المشكلة هى الدفاع عنها والمحافظة عليها للنهاية إن أمكن . .

مرض السعادة

ثمة عدو خفى يتربص به ليكدر صفوه ويقوض بنيانه . زحف عليه زحف سحابة ثقيلة متدنية غامقة السمرة، حجبت نور الشمس وأطفأت ضياء النهار وتسربت إلى أركان النفس بغشاوة من الكآبة فمزقت الخيوط التى ربطته طويلا بينابيع الحياة. وتهرب من إعلان حاله لعلها تكون عابرة، ولكنها لم تتزحزح ولم تخف عن عينى شريكة حياته .

ـ مالك؟ . . . . لا يمكن أن تكون الصحة فأنت طبيب!

ـ صحة أحسد عليها، الزملاء فحصونى فحصا شاملا وتلقيت التهانى . . . . .

ـ إذن طرأ طارئ . . . .

ـ إنى أفتش عنه فلا أعثر له على أثر . . . .

ـ لعله الفراغ بعد المعاش؟

ـ أين هذا الفراغ المزعوم؟ . . لدى النادى . . الصداقات . . . الرياضة . . الموسيقى . . المطالعة . . . بالإضافة إلى أن كل شىء تمام يا أفندم!

عندما يلقى نظرة على ماضيه ترتد إليه بتقرير موجز وصريح أن ليس فى الإمكان أبدع مما كان. ولد فى بيت عز وجاه لأب من تجار القطن، وكان وطنه بدأ يتعرض للعواصف والتقلبات ولكنه وجد المنجى والمتعصم فى نصيحة أبيه حين قال له: «كن فى نفسك تسلم، ولاشأن لك بالآخرين»! ولإعجابه بأبيه وحبه له أخذ بنصيحته. تطوع لأن يكون امتداداً له بمحض اختياره وحبه. ماج الوسط الطلابى بالزلازل وهو قابع فى ركن هادئ يراقب ويبتسم. لم يهمه إطلاقا حتى أن يعرف فيم يختلفون أو لم يثورون.

وقال له أبوه أيضا: «الإنسان الكامل كامل دائما وأبدا، والكمال هو الكمال سواء فى بلد مستعمر أم فى بلد مستقل». وعكف على ذاته ينميها ويصقلها بالعلم والرياضة والثقافة والفن، بل كان ضاربا على البيانو بامتياز. ودرس الطب بكل جدارة، وكان بميراثه فى غنى عن الكسب والعيادة فتخصص فى فرع نظرى وحصل فيه على الدكتوراه من إنجلترا، ثم شغل وظيفة فى وزارة الصحة. كره من بادئ الأمر فكرة الاتصال بالجمهور أو العمل فى المستشفيات، وتطلع إلى المراكز المرموقة. ولعل زواجه كان الإنجاز الوحيد الذى أقدم عليه بدوافع ذاتية ولكن اختياره حظى بموافقة أبيه وبركاته وكأنما هو الذى اختاره له. تزوج من كريمة الباشا وكيل الصحة وكانت مستوفاة لشروط الجمال واللياقة والتعليم المناسب فضلا عن الأخلاق الطيبة.

وواصل حياة هادئة سعيدة ما بين البيت والعمل والنادى وكأنما قد حقن بطعم واق من هيجان العصر وتقلباته وعواصفه. وأنجب ولدين ممتازين وناجحين. أجل تعذر عليه أن يصبهما فى قالبه كما فعل أبوه معه، ولكنهما أرضياه تماما فى أحلامه الكبرى، فتخرجا طبيبين، وتزوجا من فتاتين لا يقلان فى المستوى والأهلية عن أمهما. ما عدا ذلك فللزمن أيضا مقتضياته. وبلغ هو فى ترقيه وكالة الوزارة. وقامت ثورة يولية فلم تمسسه بسوء لبعده الطبيعى عن أى شبهة. وأحيل إلى المعاش فى ميعاده القانونى ليستقبل حياة جديدة مليئة بالعواطف والمسرات. إنه الرجل السعيد حقا، إنه فلتة من فلتات الحظ والطبيعة. طبعا لم تخل تلك الحياة من أكدار روتينية عابرة، كمرض عابر، أو سوء تفاهم زوجى،

أو تمرد بنوى، أو منافسة فى العمل، ولكنها تتلاشى مثل تجعدات أمواج عارضة فى محيط واسع من الاستقرار والسعادة.

ماذا حدث بعد ذلك؟ لماذا يفقد كل جميل مذاقه الحلو؟ لماذا تتراكم أنات الشكوى ولا موضوع واحد للشكوى؟ الأدهى من ذلك أنه مضى يرفض العمد التى قامت عليها سعادته: النادى.. الصداقات.. الزوجة.. الطعام.. الرياضة. وقبل أن يسلم بالهزيمة ويستسلم لليأس ذهب شبه مرغم للطبيب النفسى. كان صديقا حميما وزميلا قديما. وأدركه أول ما أدركه بالعقاقير. وأحدثت العقاقير أثرا طيبا فرجع إلى الشفاء وأفاق من إغماءته الطويلة. غير أنه لم يقنع بذلك وراح يتساءل:

ـ ولماذا يصيبنى الاكتئاب فى بحبوحة السعادة الشاملة؟...

فضحك صديقه قائلا:

ـ ربما بسبب من السعادة نفسها!

فتبادلا نظرة كالإشارة الغنية بنفسها، فقال الرجل:

ـ إنك تسخر من نوعية السعادة التى قسمت لى...

فابتسم الطبيب وقال متهربا:

ـ ابناك مختلفان عنك فيما أرى؟

فقال بعفوية:

ـ من سوء الحظ!

ولكنه استدرك ضاحكا:

ـ أعنى من حسن الحظ!

من تحت لفوق

أى أمل يمكن أن تجود به هذه الحياة؟ إنها من صميم الأسرة ولكنها غريبة عنها تماما فى الوقت نفسه، تمضى حياتها على الهامش، على حافة الهامش، على رغم أنها المحور الذى يدور حوله كل شىء. هى أول من يستيقظ لتعد الإفطار، ولتمارس بعد ذلك خدمات متصلة، ختامها غسل الأوانى بعد العشاء. لا تشعر بانتمائها إلى الأسرة إلا حينما تجلس إلى مائدة الطعام معهم، أو عندما تتخذ مجلسها أمام التلفزيون بعد الفراغ من السخرة اليومية. وما إن تجاوز الساعة العاشرة حتى تقول لها تفيدة هانم ـ زوجة أبيها ـ بنبرة تجمع بين الحزم الصادق والعطف الكاذب:

ـ آن لك أن تنامى يا نعيمة لتأخذى قسطك من الراحة . . .

المرأة لا تهمها راحتها فى شىء ولكنها تحرص على استيقاظها المبكر .

يشهد على ذلك ما يتبادلانه من كراهية عميقة الجذور ، تتستر أحيانا بالصمت ، وتتعرى أحيانا بقوارص الكلم . هذه المرأة التى قضت عليها ، وسدت طريق الأمل بجدار غليظ . وحوالى السابعة يغادر أبوها بكرى أفندى مسكنه إلى عمله بالحكومة ، ويتبعه أخواتها الثلاث إلى وظائفهن التى ألحقن بها حديثا عقب إتمام دراساتهن الجامعية . وتأخذ نعيمة فى عملها اليومى تحت إشراف تفيدة هانم . لم يعد من المستطاع اكتراء خادمة فى هذا الزمن ، وها هى ذى تسد هذا الفراغ بلا أجر ، وبلا شكر ، وكأنه واجب تؤديه نظير لقمتها وإقامتها فى البيت المفترض أنه بيت أبيها . أذعنت لوضعها التعيس كما يذعن أبوها لمشيئة زوجته ، كلاهما يجد فى الإذعان منجى من الكدر . ألفت الخدمة ، وكراهية تفيدة هانم ، وألفت ملابسها الخشنة الرخيصة الشعبية وحظها التافه من التعليم مذ أصرت المرأة على إبقائها فى البيت للمعاونة مضحية بمستقبلها ومستسلمة لحقدها الدائم . ولم تلق عند أبيها الضعيف أى دفاع . لم تجد نصيرا مذ فقدت أمها وهى بنت ثمانية أعوام . وها هى ذى تعبر الثامنة والعشرين بلا أمل ولا يكاد أحد يكتشف جمالها وراء غشاء الإهمال والقذارة . الإهمال والقذارة والجهل والسن والفقر . المستقبل لا يبتسم ابتسامته الشاحبة إلا فى الحلم ، والحلم لا يريد أن يتحقق ، فهل تتجرع تعاستها حتى الثمالة؟! أبوها يهرِّب إليها العطف أحيانا من زاوية عينه فى غفلة من المرأة ، ثم تطحنه الحياة بأعبائها فيشغل عنها بهمومه ، وتقول وهى تتنهد :

ـ نسينى كما نسى أمى من قبل . .

وكلما تحدت زوجة أبيها تحديا عابرا ينقلب الجميع عليها ، أخواتها وأبوها ، فتنحصر فى ركن وحيدة مغلوبة على أمرها . إنه بيت ظالم يستغلها بلا رحمة ، وإنها تمقته من صميم قلبها الجريح . وحلمت كثيرا فى شبابها الأول بمعجزات الحظ السعيد ، بمقدم رجل الأحلام ، الذى يضمها إلى قلبه على رغم الفقر والجهل ويطير بها فى سماوات السعادة . ولكنه لم يقدم ولم ينتظر الزمن . وصادفت أعينا تتطلع بإعجاب ، وهى تنشر الغسيل فى الشرفة ، أو تتسوق فى الطريق ، محض نظرات بلا فعل ولا أمل . وتنفذ امرأة أبيها إلى أعماقها أحيانا ، فتخاطب بناتها على مسمع منها :

ـ ادخرن واعتمدن على أنفسكن ، أبوكم لا يملك إمكانية تجهيز بنت!

الماكرة تخاطبها هى . وتخاطبها أيضا وهى تقول لأبيها :

ـ الشاب اليوم فى حاجة إلى زوجة تشاركه حمل الأعباء ، والموظفة بمرتبها تماثل صاحبة الإيراد على أيامنا . .

ولم تستطع السكوت فقالت :

ـ لو لم أجبر على ترك المدرسة لكنت اليوم موظفة!

فقالت المرأة بصرامة :

ـ بل كنت ضعيفة فى دراستك فجعلت منك ست بيت ، وشىء خير من لا شىء .

فهتفت على رغمها :

ـ ربنا بينى وبينك!

فصرخت المرأة :

ـ تدعين علىَّ؟!

وتدخل الأب والأخوات وخسرت كالعادة القضية . وما جدوى الكلام؟! وما جدوى الخصام والشباب يتلاشى مع الأمل؟! بل ها هى ذى تشهد مأساة من نوع جديد . فقد تقدم شاب لطلب يد درية كبرى الأخوات ، وفشلت الخطوبة لعدم إمكان الحصول على شقة! . . وليلتها دار نقاش طويل أسيف فى الأسرة عن تكاليف الزواج ، أدركت نعيمة بعده أن أخواتها لسن أسعد حظا منها إلا قليلا . حقا لقد تغيرت الدنيا وها هى ذى تمارس عقوباتها على من يستحقها ومن لا يستحقها! . .

ورجعت ذات صباح من أيام الشتاء الأخيرة من السوق فى جلبابها الكستور متلفعة بشال رمادى ويدها قابضة على سلة الخضار ، فوقفت كالعادة تتبادل كلمتين مع زوجة البواب . وإذا بالمرأة تقول :

ـ عينى عليك ، خادمة بلا أجر! . .

فقطبت دون ارتياح وفى شىء من الكبرياء ، فقالت المرأة :

ـ أصبحت أكره أسرتك من أجل عيونك!

فتمتمت نعيمة :

ـ ربنا موجود .

فتساءلت المرأة بإغراء :

ـ ألديك فكرة عن مرتب الخادمة اليوم؟

ما زالت تعتبر نفسها ـ على الأقل أمام الآخرين ـ فتاة كريمة من أسرة! . .

ـ وهل المرتب هو كل شىء؟

ـ طبعا ، لا تكونى عدوة لنفسك . .

لم تنم ليلتها من الفكر . ولم يكن المرتب هو الإغراء الوحيد ، ولكن التحرير أيضا من سطوة تفيدة وضعف أبيها وأنانية أخواتها . ولم ينقطع الحوار بينها وبين زوجة البواب . رفضت فكرة العمل فى شقة مفروشة قائلة بإباء :

ـ إنى بنت محترمة . .

فقالت المرأة :

ـ وعندى أسر محترمة أيضا !

وغادرت نعيمة البيت فلم تعد . اشتغلت فى أسرة بمدينة المهندسين بمائة جنيه ، وتحسنت أحوالها فى الملبس والصحة . وفى مجرى عامين تزوجت من كهربائى مناسب جدا . ووجدت من نفسها رغبة فى زيارة أسرتها ، ليعلم زوجها أنها بنت ناس من ناحية ، وليعلم أهلها أى مصير حسن انتهت إليه بعد التحرر من ربقتهم .

وكان يوما من أسعد أيامها يوم أن رجعت إلى مسكنها القديم بوجهها الجديد وزيها الجميل بصحبة الزوج السعيد .

رجـــــل

يستقبل يومه بزيارة الشارع الطويل ، شارع الحرية . وهو صالح تماما لرياضته الصباحية بطواره السليم وأشجاره العتيقة الباسقة . يتمشى بقدر ما يستطيع ثم يرجع إلى شقته فيجد خادمته العجوز قد أعدت له مجلسه فى حجرة المعيشة ، ليخلو إلى الصحف والإذاعة والتأمل الطويل . وقرأ ذات يوم العمود اليومى للأستاذ م . أ . فشد انتباهه بقوة غير عادية . قرأ : «لى جار من رجال الجيل الماضى المعروفين ، يمشى كل صباح على رغم شيخوخته فى جولة رياضية يغبط عليها ، ولكنه يقضى شيخوخته فى وحدة مطلقة ، فقد شريكة العمر منذ أعوام ، وهاجر أبناؤه الثلاثة إلى الولايات المتحدة . لم يجن من عمره الطويل إلا الذكريات بعد سطوع نجمه فى الهندسة والسياسة . ترى فيم يفكر فى وحدته ؟ ! وكيف يعالج كآبته ؟ كيف نصنع من طول العمر نعمة لا نقمة ؟ ! » .

وأكمل الأستاذ عموده عن العناية بالمسنين وما يعد لأمثالهم فى البلاد المتحضرة . وقال الرجل وهو يبتسم : «إنه يعنينى أنا دون سواى» . فهو جاره على نحو ما ، وكثيرا ما يراه وهو راجع من جولته الصباحية . لكنه تخيل فأخطأ ، وما أكثر أوهام هؤلاء الكتاب . وعزم فى نفسه على أمر ، غير أنه أجل تنفيذه إلى صباح اليوم التالى . وكما قدَّر تماما رأى ـ لدى عودته من جولة الصباح ـ الأستاذ وهو يتجه نحو سيارته الصغيرة فتألقت عيناهما فى ابتسام لأول مرة .

وقال العجوز :

ـ قرأت عمودك أمس ، إنه عنى فيما أعتقد ؟

فقال الأستاذ :

ـ أرجو أن تكون راضيا!

ـ شكرا ولكن ليس الواقع كما تتخيل!

ـ حقا؟!

ـ شرفنى وقتما تشاء إذا كان يهمك أن تعرف الحقيقة.

فقال الأستاذ متحمسا :

ـ أعدك بذلك.

وقد كان. وجالسه فى شرفة مغلقة بالزجاج اتقاء لجو الخريف حول مائدة شاى. عن قرب تجلت شيخوخة الرجل فى انتفاخ جفنيه وتجعدات فمه وذبول نظرته على رغم صحته الجيد ة ونشاطه الموفور. وراح يقول وهو يشجعه على تناول الشاى والبسكويت :

ـ أشكر لك رقتك، وجميل رثائك لى، ولكننى لا أستحق الرثاء لأننى فوق الرثاء! وصدقنى فأنا راض عن نفسى كل الرضا!

ـ ما أجمل أن تقول ذلك!..

ـ إنى قوى دائما ومنتصر دائما.

فرمقه الأستاذ بإعجاب، وبنظرة تطالب بالمزيد، ربما التماسا لليقين فى الوقت نفسه. شعر العجوز برغبة ملحة فى الإفصاح عن مكنون ذاته.

ـ من أين جاءتنى القوة؟ إنه أبى رحمه الله، كان مربيا عظيما يعشق القوة ويجلها. شحذنى بالرعاية والعناية والشدة الحميدة العاقلة. علمنى كيف أهتم باللعب كما أهتم بالعمل لأتطلع إلى الكمال فى جميع الأحوال. ولن أحدثك عن تفوقى الدراسى، ولكنى أحرزت فى لعبة الكرة نفس الدرجة من التفوق، كنت قلب الهجوم بالمدرسة الخديوية، ولعلى كنت اللاعب الوحيد الذى يحافظ على حماسه كله حتى اللحظة الأخيرة من المباراة وبصرف النظر عن النتائج. وكان مدربنا يقول لفريقنا : إن اللعب أهم من النتيجة، وإن عليهم أن يحافظوا على روحهم العالية حتى الختام. وقال محددا : ليكن لكم أسوة فى زميلكم صفوت راجى.

فقال الأستاذ منشرحا :

ـ ولكنك طويل القامة بصورة ملحوظة فهل أعتبر ذلك ميزة؟!

ـ إنه ميزة لمن يحسن استغلاله، وقد برعت فى اللعب حتى واتتنى الفرصة للالتحاق بأحد النوادى المعروفة.

ـ وهل صرت نجما شعبيا؟

ـ كلا، هجم على خصم هجمة غير قانونية فأحدث بى عاهة فى مفصل ساقى اليمنى فاضطررت إلى الانقطاع عن رياضتى المحبوبة . .

ـ يا للخسارة! . . وإذن لم تخل حياتك من منغصات!

ـ الحياة لا تخلو أبدا من منغصات، من حيث تتوقع أو لا تتوقع. المهم: كيف تواجهها؟ كيف تستوعبها؟ كيف تطويها تحت جناحك ثم تمضى فى سبيلك؟ أجل خيمت على الكآبة فترة طويلة حتى رمقنى أبى بازدراء، وعاتبنى بدلا من أن يعزينى، وسرعان ما كرست طاقتى كلها للدراسة حتى تخرجت فى الهندسة على رأس الناجحين . .

فقال الأستاذ بصدق:

ـ إنك مهندسا غنى عن التعريف . .

ـ وكنت من الرعيل الأول الذى زهد فى الوظيفة الحكومية فقدمت فى امتحان عام لوظيفة خالية فى شركة الكهرباء ونجحت . . وأثبت وجودى بين الخواجات . .

ـ برافو!

ـ وثمة سوء حظ من نوع آخر أشد ضراوة مما أدركنى فى الكرة، كان ميدانه القلب. أحببت جارة لى حبا امتد من المراهقة إلى الشباب. فى ذلك الزمان كانت وسائل الاتصال عسيرة جدا ومحدودة، لم تزد على تفاهم بالأعين وتبادل للابتسام، وكان ذلك يعنى حبا متبادلا. وعرفت أن مدرستها الثانوية ستقوم برحلة إلى القناطر فسبقتها إليها. واختلسنا لقاء سريعا عابرا بعيدا عن أعين الرقباء، دقائق سريعة تحت خميلة. ماذا قلت لها؟ لعلى استعرت جملة عذبة من جمل المنفلوطى، ولكنها خرجت محملة بالصدق. وأفهمتها أن أبى لا يسمح بالكلام فى العواطف قبل أن أستكمل دراستى، وسألتها أن تعتمد على شرفى ورجولتى وأننى سأتقدم لطلب يدها فى الوقت المناسب. فوافقت بابتسامة صامتة، وثملت بحلم السعادة فترة غير قصيرة. وإذا بها تختفى من النافذة متجنبة مجال الرؤية فكدت أفقد صوابى. وتلقيت منها رسالة تخبرنى فيها بأن ابن عمها خطبها، وأنها لم تستطع أن تقنع أحدا بالرفض، وأعربت عن أسفها! سائلة إياى المعذرة . . هل خبرت مثل ذلك الموقف؟ . . أو بالحرى تلك المحنة؟! والظاهر أن الحب الحقيقى كان تجربة نادرة فى تلك الأيام، وما كان يظن أنه الحب لم يكن إلا استعدادا عاما للزواج، وكان سحر الزواج أقوى من سحر الحب وبخاصة إن بشر بتوفيق وسعادة. لم أصدق أنها أحبتنى حقا كما أحببتها، ولكننى كنت المرشح المفضل طالما لم يتقدم من هو أجدر بها منى.

تمتم الأستاذ :

ـ كانت محنة كما قلت .

ـ انغرز سن الألم المسموم فى أعماقى حتى نهايته، وخيل إلى أنى انتهيت تماما وأن الحديقة جفت وتساقطت أزهارها، وتلاشت رغبتى فى العمل . .

ـ ألم تقدم على أى محاولة جادة لاستردادها؟

ـ نعم، تعذر على ذلك، لم أستطع رؤيتها قط، وأقنعنى سلوكها بأنها فتحت صفحة جديدة. لم يبق لى إلا ألم مجنون، وأوهام غريبة بأننى فقدت المرأة الوحيدة فى دنياى. إنه ألم جهنمى لايبدو غير معقول إلا إذا فصل الزمان بيننا وبينه بالمدة الكافية للشفاء.

ـ ولكنه قد يقتل قبل ذلك . .

ـ بلا شك .

ـ وفشلت فى الامتحان لأول مرة فى حياتك؟

فابتسم العجوز قائلا :

ـ كلا، تلقيت لكمة قاضية، ولكننى نهضت مترنحا قبل أن يبلغ الحكم فى عده رقم عشرة، وبإرادة من صلب استخلصت الرغبة فى النجاح والتفوق من حومة المأساة. كان نضالا هائلا، بين الألم والعمل، وعلى ضوئه تكشف لى جوهر عزيمتى لا يهزم ولا يستسلم . .

ـ مرة أخرى برافو!

ـ ولم أكد أستقر فى وظيفتى حتى صممت على الزواج، مؤثرا هذه المرة السبيل التقليدى المعروف أو الذى كان معروفا على أيامنا. وتم كل شىء بحمد الله وفضله . . . .

ـ ونسيت الحب وأيامه؟!

ـ ليس تماما، ربما بقيت منه رواسب معاندة كرائحة الورد الذابلة، ولكنى عايشت تجربة الزواج بكل أبعادها، وبنجاح أيضا. أأنت متزوج؟ عظيم، حقا يوجد فارق كبير فى السن ولكن الزواج هو الزواج، بمودته ونقاره، وأنغامه المنسجمة والنشاز، والرضا والغضب، والذرية ومسراتها ومتاعبها، وعند الحساب الختامى تجد أنه لاغنى لطرف عن الآخر. ماذا تريد أكثر من ذلك تعريفا للزواج الموفق؟! بل من يضمن لى أننى كنت سأوفق مع الأولى كما وفقت مع الأخرى؟!

فضحك الأستاذ قائلا :

ـ خفيف الروح بقدر ما أنت حكيم!

وصمت العجوز قليلا ثم واصل:

ـ لعلى لم أبرأ تماما حتى اليوم من فقد ابنين، ولكنى أثبت صمودى أمام الموت نفسه! أنجبت خمسة أولاد مات منهم اثنان، الأول فى وباء الكوليرا والثانى فى حمام السباحة. تهدم بنيان زوجتى. وحنقت على صمودى. الصابر المتصبر متهم فى هذا البلد. قيل عنى إنى غليظ القلب وإنى منهمك فى عملى للدرجة التى تنسينى ما عداه. هذا خطأ. إنى أعرف الحزن والألم. ولكنى لا أعاند المقادر. وأرى أن أكبر عار فى هذه الدنيا هو عار الهزيمة.

ـ هذا ما نتمناه ونعجز عنه.

وتهلل وجهه الضامر دالا على أنه ما زال محبا للثناء، وقال:

ـ وكما طعنت أبوتى طعن طموحى. إنى رجل مخضرم. لم أكن مهندسا ناجحا فحسب، ولكننى كنت أيضا ذا انتماء سياسى معروف وآمال وطنية مترامية. وظفرت فى انتخابات ١٩٥٠ بعضوية مجلس النواب وتنبأ لى كثيرون بالوزارة. وإذا بثورة يولية تقوم على غير توقع منى، وطويت الأرض التى كنت أقف فوقها مثل المسلة، وقذفت بأحب الرجال إلى قلبى إلى مجاهل النسيان وأعماق السجون. أصابنى من الأذى شىء قليل، ولكنى وجدت نفسى لأول مرة متهما معزولا. وقبعت فى كهف الضّياع زمنًا، ولكنى لم أستسلم كما أنى لم أنطح الصخر. وتذكرت انتصاراتى السابقة لأستمد منها الشجاعة، وقررت أن أكرس حياتى للعلم والعمل ففتحت مكتبى الهندسى وكان من أمرى ما تعلم مما أشرت إليه فى عمودك اليومى.

ـ بعض رجال الثورة أنفسهم لم يكتموا إعجابهم بك......

ـ ولم تخل حياتى الجديدة من هزائم وانتصارات كالعادة. زوجتى اضمحلت وماتت. وعقب هزيمة ٥ يونية اجتاح الزلزال أبنائى الثلاثة ففقدوا انتماءهم وثقتهم فى كل شىء، وهاجروا واحدا فى إثر واحد إلى الولايات المتحدة، ووجدت نفسى غريبا كما كنت فى البداية!!

ـ الهجرة تيار جامح لا ذنب لك فيه.....

ـ ولكن توجد حقيقة مرة لا يجوز أن نغفلها، وهى أننا لم نكن على المستوى المنشود حيال الهزيمة كما كنا حيال النصر. وحاولت أن أغريهم بالرجوع بعد أن تغير المناخ العام كثيرا ولكنهم أبوا ذلك بشدة.....

ـ من المحزن أن أفضلنا هم من يهاجرون....

ـ واعتزلت العمل بحكم الشيخوخة لأعاشر وحدتى حتى النهاية. . . .

فقال الأستاذ باسما:

ـ إذن فكلمتى لم تخل من حقيقة. .

فقال باسما بدوره:

ـ ولكننى لم أستسلم للوحدة.

فرفع الأستاذ حاجبيه فوق حافتى نظارته لائذا بالصمت، فواصل الآخر:

ـ عقدت العزم على الانتصار حتى النهاية، أن أنتصر على الكآبة كما انتصرت على الموت والثورة، ما زلت قادرا على تذوق الأشياء الجميلة!

ـ مثل ماذا؟

ـ المشى، الموسيقى، الكرواسان بالحليب، التأمل تأهبا للمغامرة الأخيرة!

فقال الأستاذ مقهقها:

ـ إنك صلب عنيد. . . .

ـ أترانى الآن مستحقا للرثاء كما كتبت؟!

فقال الأستاذ بهدوء:

ـ اقرا عمود الغد لتعرف رأيى النهائى فيك. . . . . .

خطة بعيدة المدى

بالأمس تحديات الجوع والصعلكة، واليوم تحديات الثراء الفاحش. بيت عتيق بنصف مليون. خلق عصام البقلى من جديد. خلق من جديد وهو فى السبعين من عمره. تملى صورته فى المرآة: القديمة. صورة بالية، تكالب عليها الزمن والجوع والحسرات.

الوجه قالب من العظام البارزة والجلد المدبوغ الكريه، جبهة ضيقة غائرة وعينان ذابلتان ورموش قليلة باقية. أسنان سود بلا ضروس ولغد من التجاعيد. ماذا يبقى من الحياة بعد السبعين؟ ولكن على الرغم من كل شىء فللثروة الهابطة سكرة لا تتبخر. أمور لاحصر لها يجب أن تنجز. المليونير عصام البقلى. . بعد الصعلوك المتسول عصام البقلى. كل من بقى على قيد الحياة من الأصدقاء القدامى هتف: «أما سمعتم بما حصل للبقلى؟!»، «ماذا حصل للصعلوك؟»، «البيت القديم اشترته شركة من شركات الانفتاح بنصف مليون!»، «نصف مليون؟!» و«كتاب الله!».

وينتشر الذهول ما بين السكاكينى والقبيسى والعباسية كإعصار . البيت كان يمتد بفنائه الواسع بشارع قشتمر ، ورثه عن أمه ، رحلت منذ عشر سنوات بعد أن حولها العمر إلى حطام ، تعلقت بالحياة بإصرار حتى تهتكت الخيوط فهوت . لم يحزن عليها ، عودته الحياة على ألا يحزن على شيء . لم يكن للأسرة إلا معاش أمه الصغير والمأوى ، لم يحرز أى نجاح فى المدرسة ، لم يتعلم حرفة ، لم يؤد عملا أبدا ، صعلوك ضائع ، قد يربح قروشا فى النرد مع الغش بفضل تسامح الأصدقاء . أصدقاء كثيرون جادت بهم المدرسة والجوار على أيام الطفولة والصبا والشباب ، فى روحه خفة كفرت عن سيئات كثيرة وغفرت أخطاء ، دائما يحظى بالعطف لشدة بؤسه وانغلاق مستقبله . الأب كان موظفا بالبريد وأمه ورثت بيت قشتمر بطابقه الواحد الصغير وفنائه الواسع المهمل ، فحق له أن يقول إنه ابن ناس طيبين ولكنه سيئ الحظ . الحقيقة أنه كان بليدا تنبلا وقليل الأدب فسرعان ما طرد من المدرسة .

عاش حياته تقريبا فى مقهى إيزيس مدينا أو مسددا دينه بالغش وكرم الأصدقاء . فكر صديقه المحامى عثمان القلة أن يلحقه بمكتبه الكائن بميدان الجيش فأبى لأنه كان يكره العمل كره العمى . وفى وحدته عندما يغيب الأصدقاء فى أعمالهم يمضى وقته فى الكسل وأحلام اليقظة . يبتل ريقه بشيء من اليسر فى مواسم الانتخابات والأفراح والمآتم . عاش دهره بفضل خفة روحه وكرم أصدقائه . واحترف التهريج ، يغنى ويرقص ليفوز بأكلة فول أو قطعة بسبوسة أو نفسين حشيش ، وظلت غرائزه مكبوتة جائعة مجنونة . بيت قشتمر لا يعرف من ألوان الطعام إلا الفول والطعمية والباذنجان والعدس والبصارة والنابت ، أما أحلامه فتهيم دائما فى وديان من الولائم الغامضة والجنس المكبوت . وكانت له أساطيره عن غراميات مع أرامل ومطلقات ومتزوجات أيضا ، فلم يصدقه أحد ولم يكذبه أحد .

طبع بصورة المتسول منذ شبابه الأول ببدلته المشتراة من سوق الكانتو وصلعته المبكرة وشحوبه الدائم . لم يصدق أساطيره أحد سوى مغامرة مع خادمة أرملة تكبره بعشر سنوات ، سرعان ما انقلبت إلى شقاق ونزاع عندما تبين له أنها تروم الزواج منه . بل اشترطت أيضا أن يجد لنفسه عملا لأن اليد البطالة نجسة . ووقع الانفصال من خلال معركة تبودلت فيها الضربات على الوجه والقفا . تلك كانت المغامرة الوحيدة الحقيقية والتى شهدها جاره الأستاذ عثمان القلة فحدث فى المقهى قائلا :

ـ فاتكم مشهد ولا السيرك ، امرأة مثل زكيبة الفحم ، فرشت الملاية لعزيزنا البقلى فى فناء بيته الكريم ، على مسمع ومرأى من أمه الكريمة المذهولة ، ولم تفض المعركة إلا بطلوع الروح وتدخل أولاد الحلال ، وسرعان ما نشبت معركة جديدة مع أمه . .

عدا تلك التجربة الفاشلة جحظت عيناه من طول التطلع النهم إلى السائرات فى الطريق، واحترق قلبه كما احترقت معدته من الجوع. ولم يجد إلا أمه ليصب عليها جام غضبه وإحباطه على رغم حبها الشديد له. حب عجوز لابنها الوحيد. وكلما حثته على العمل أو الاستقامة سألها متحديا:

ـ متى ترحلين عن هذه الدنيا؟

فتقول باسمة:

ـ الله يسامحك، وماذا تفعل إذا انقطع عنك معاشى؟

ـ أبيع البيت.

ـ لن تجد من يشتريه بأكثر من خمسمائة جنيه تبددها فى شهرين ثم تحترف الشحاذة..

لم يسمعها كلمة طيبة قط، ونصحه أصدقاؤه بتغيير سياسته معها حتى لا يقتلها هما وكمدا ويعرض نفسه حقا للشحاذة. وذكروه بما قال الله وما قال الرسول، ولكن ضياعه اقتلع جذور الإيمان من قلبه المفعم بالجوع والحسرات. والتزم بموقفه الساخر الساخط من الأحداث التى تمر به كالمعارك الحزبية والحرب العالمية. بل دعا على الدنيا بالمزيد من الهلاك والفناء، وتمادى فى السخرية والاستهتار. ويئست أمه منه تماما وسلمت أمرها لله. ويغلبها الأسى أحيانا فتسأله:

ـ لماذا تقابل حبى بالعقوق؟

فيقول ساخرا:

ـ من أسباب النحس فى هذه الدنيا أن يمتد العمر بالبعض أكثر من الضرورى!

ومضت تكاليف الحياة فى صعود. هل ثمة مزيد من الحرمان؟ واقترح على أمه أن يسكن فردا أو أسرة فى حجرة نومه على أن ينام هو على الكنبة فى حجرتها. فقالت المرأة فى حيرة:

ـ نفتح بيتنا للأغراب؟!

فصاح بها:

ـ خير من الموت جوعا...

وألقى نظرة على فناء البيت وتمتم:

ـ كأنه ملعب كرة ولكن لا خير فيه.

وجاء سمسار بطالب ريفى فاستأجر حجرته بجنيه. وتندر الأصدقاء بالواقعة، فقالوا: إن بيت قشتمر أصبح بنسيونا. وأطلقوا على أمه: «مدام البقلى»..! ولكن لم يكن يعتق نفسه من السخرية أمامهم ويغنى: وأيام تيجى على ابن الأصول ينذل.

واستهان بالغارات الجوية بخلاف الكثيرين، لم يستجب لزمارة الإنذار أبدا، ولم يغادر مجلسه بالمقهى ولاعرف طريق المخبأ. لا يهمه هذا، ما يهمه أن العمر يجرى وأنه يشارف الأربعين دون أن يهنأ بلقمة لذيذة أو امرأة جميلة. حتى الثورة لم يهتم لقيامها وقال ساخرا:

ـ يبدو أن هذه الثورة ضدنا نحن أصحاب الأملاك!

وهو لم يقرأ فى حياته جريدة ويتلقى معلوماته دون اكتراث فى مجالس الأصحاب. ويتقدم به العمر حتى يتجاوز الخمسين. وطعنت أمه فى السن، وركبها الضعف وأخذت تفقد الاهتمام بالأشياء، ومرت بها أزمة فتطوع صديق طبيب بفحصها، وشخص علتها بالقلب ونصح بالراحة والدواء. كانت الراحة مستحيلة والدواء متعذرا، ومضى يتساءل: كيف يتعامل مع الحياة إذا حرم من معاشها؟! وراحت تقترب من الموت ساعة بعد أخرى حتى استيقظ ذات صباح فوجدها ميتة. نظر إليها طويلا قبل أن يغطى وجهها. خيل إليه أنه يتذكر قبسات من ماض بعيد وأنه يتوقف مرغما عن السخرية وأن تلك اللحظة من الصباح كئيبة حزينة. وقصد من توه أغنى أصدقائه السيد نوح تاجر العمارات فتكفل الرجل بتجهيز المرأة ودفنها، وحذره من بيع البيت حتى لا يجد نفسه بعد حين مشردا فى الشارع. ترى هل يكفى الغش فى النرد وإيجار الحجرة؟!.. أو ليس لكرم الأصدقاء حد؟..

وغامر بتجربة الشحاذة فى بعض أطراف المدينة ولم تكن تجربة عقيمة. وتتابعت الأيام فمات زعيم وتولى زعيم وجاء الانفتاح وهو يستقبل عامه السبعين، عامه السبعين من الضياع واليأس. تمادى الغلاء حقا وعربد، وزلزلت الموازين. لم يعد التسول بنافع، وكرم الأصدقاء انحسر وتهاوى فى بئر التلاشى، رحل منهم نفر وا أسفاه، وآوى الباقون إلى شيخوخة هادئة تقنع بالسمر. ياله من عجوز بائس يائس! وتنقشع ظلمات الوجود ذات يوم عن وجه السمسار وهو يهبط بأجنحة ملائكية من كبد السماء!

وفى حضرة صديقيه المحامى وتاجر العمارات تمت الصفقة وأودع المبلغ الخرافى فى البنك. وجلس الثلاثة فى مقهى بلدى بشارع الأزهر يتوافق تواضعه مع منظر المليونير التعيس. تنهد عصام البقلى فى ارتياح عميق يغنى عن أى كلام. إنه سعيد سعادة كاملة لأول مرة فى حياته. ولكنه قال فى حيرة:

ـ لا تتركانى وحدى.

فقال عثمان القلة المحامى ضاحكا:

ـ لا حاجة بك لإنسان بعد اليوم.

ولكن السيد نوح قال:

ـ إنه مجنون وفى حاجة إلى مرشد فى كل خطوة .

فقال البقلى بامتنان :

ـ وأنتما خير من عرفت فى حياتى .

فقال السيد نوح :

ـ هنالك أولويات قبل الشروع فى أى عمل ، غير قابلة للتأجيل ، فى مقدمتها أن تذهب إلى الحمام الهندى لتزيل القذارة المتراكمة وتكشف عن شخصك الأصلى . .

ـ أخاف ألا يعرفونى فى البنك . .

ـ وتحلق رأسك وذقنك . ونشترى لك اليوم بدلة جاهزة وملابس ، فيمكنك الإقامة فى فندق محترم دون إثارة للريب .

ـ هل أقيم فى الفندق بصفة مستديمة؟

قال المحامى :

ـ إذا شئت ، ستجد خدمة كاملة وكل شىء . . . . . .

فقال السيد نوح :

ـ الشقة لها مزايا أيضا . . .

فهتف البقلى :

ـ والشقة لا تكتمل إلا بعروس !

ـ عروس؟ !

ـ لم لا؟ . . لست أول ولا آخر عريس فى السبعين !

ـ إنها مشكلة !

ـ تذكر أن العريس مليونير . . . .

فقال المحامى ضاحكا :

ـ إغراء شديد ولكن لأولاد الحرام . .

فقال البقلى باستهانة :

ـ حرام أو حلال ، كله واحد فى النهاية !

فقال نوح :

ـ لا . . قد ترتد إلى التسول بأسرع مما تتصور . .

وقال عثمان المحامى :

ـ فلنؤجل ذلك إلى حين.

فقال عصام البقلى:

ـ مسألة المرأة غير قابلة للتأجيل، هى أهم من البدلة الجاهزة..

ـ الفرص كثيرة والملاهى أكثر من الهم على القلب.

ـ حاجتى إليكما فى هذا الطريق أشد..

ـ ولكننا ودعنا زمن العربدة منذ أجيال..

ـ وكيف أسير وحدى؟

ـ من ترافقه النقود لا يعرف الوحدة..

وقال السيد نوح:

ـ لنا جلسة أخرى فيما بعد للتفكير فى استثمار الثروة، فمن الحكمة أن تنفق من الريع لا من رأس المال..

فقال البقلى محتجا:

ـ تذكر أننى فى السبعين وبلا وريث!

ـ ولو!

فقال المحامى:

ـ المهم أن نبدأ.

وعندما اجتمعوا مساء تبدى عصام البقلى فى بشرة جديدة وبدلة جديدة. تلاشت القذارة ولكن بقيت تعاسة الكبر والبؤس القديم.

وقال المحامى ضاحكا:

ـ فالنتينو ورب الكعبة!

ولما كان الأستاذ عثمان القلة على مودة وتعامل مع مدير فندق النيل فقد استأجر له حجرة ممتازة بالفندق، وسرعان ما دعاهما البقلى للعشاء على مائدته. ودارت كئوس قليلة لفتح الشهية، وجلسوا معا بعد العشاء يخططون للقاء الغد، وأوصلهما حتى سيارة السيد نوح ولكنه لم يرجع إلى الفندق. استقل تاكسيا إلى شارع محمد على ومضى من توه إلى محل الكوارع المعروف. ولم يعترف بذلك العشاء المرهف فاعتبره فاتحا للشهية، وطلب فتة ولحمة راس وأكل حتى استوفى المزاج. وغادر المحل ليرمرم ما بين البسيمة والكنافة والبسبوسة وكأنما أصابه جنون الطعام. وعاد إلى الفندق قبيل منتصف الليل وقد سكر بالطعام حتى كاد يفقد الوعى. وأغلق حجرته، وثقل غير متوقع يزحف على روحه وأعضائه. خلع الجاكتة بمنتهى العناء ثم عجز عن الإتيان بأى حركة. استلقى فوق

الفراش بالبنطلون والحذاء وحتى النور لم يطفئه. ماذا يجثم فوق بطنه وصدره وقلبه وروحه؟ ماذا يكتم أنفاسه؟ من يقبض على عنقه؟ يفكر أن يستغيث، أن ينادى أحدا، أن يبحث عن موضع الجرس، أن يستعمل التليفون، ولكنه عاجز تماما عن أى حركة. كبلت يداه وقدماه واختفى صوته. يوجد علاج، يوجد إسعاف، ولكن كيف السبيل إليهما؟ ما هذه الحال الغريبة التى تستل من الإنسان كل إرادة وكل قدرة وتتركه عدما فى عدم؟ آه، إنه الموت، الموت يتقدم بلا مدافع ولا مقاوم. ونادى بخواطره المحمومة المدير.. نوح.. عثمان.. الثروة.. العروس.. المرأة.. الحلم.. لا شيء يريد أن يستجيب.. لم كانت المعجزة إذن؟.. غير معقول.. غير معقول يا رب!...

النشوة فى نوفمبر

لدى خروجه من مملكة النوم الغامضة تلقى وحدته. أمس والآن وربما غدا. بللورة الوعى المتثائب. وطاف حنينه بأجواء غريبة حبيبة، الولد فى بلجيكا والبنت فى سنغافورة ورفيقة العمر تحت الثرى. لكنه يستقبل الصباح الباكر بارتياح وبشر. نوفمبر ذو برودة حانية. يغادر الفراش، يتناول الروب من فوق المشجب ويلتف به، ثم يذهب إلى حجرة السفرة ليجد الشاى والجبن والشهد والتوست المحمص فى انتظاره على أحسن صورة.

عبده عجوز نشيط على رغم طعونه فى السن. وهو سعيد حقا بالجبن والعسل. الجبن الدمياطى الأبيض والعسل البائح بشذا البرتقال. يحب منظر إبريق الشاى الفضى وأوعية اللبن والسكر والأطباق الصغيرة المزخرفة. ويركب طاقم أسنانه ويقبل على الإفطار بشهية. لم يعد يضيق بالوحدة كما تعود على الحياة بعد السبعين. صحة لا بأس بها، بوسعها أن تهنأ بالهدية إذا جادت بها السماء على غير انتظار. هدية جميلة حقا قلبت موزاين الزمن. وشحنت الدقائق والساعات بالوعود المسكرة. وعندما ارتدى ملابسه بدا فى بدلته الصوفية نحيلاً طويلاً، أبيض الرأس والشارب، خفيف التجاعيد.. ووجد الشارع أمام العمارة مغسولاً متألقا، ترى هل أمطرت بعذوبة فى الليل؟ وانبسطت السماء بين هامات العمائر تسبح فيها السحب البيضاء فى زرقة عميقة صافية.

انشرح صدره وتحفز للهو على رغم موعد الطبيب المضروب. وطبيبه أيضاً على المعاش ويستقبل مرضاه خلال ساعتين أو ثلاث ساعات فى نصف النهار الأول. وبسبب من بعض الأمراض المزمنة ـ القلب مثلاً ـ تنشأ صداقة بين المريض والطبيب على مدى الزمن.

تصافحا، جلس أمام مكتبه الحافل بالمراجع وقوارير العينات حتى تساءل الطبيب:

ـ خير؟

ـ وجبت الزيارة بعد غياب أشهر . .

وخلع جاكتته ومضى إلى الفراش وراء البرافان، ففك حزام البنطلون، واستلقى على ظهره. وفحصه الرجل بعناية مستعينا بأصابعه المدربة ومقياس القلب والضغط. وفى أثناء ذلك جعل يعلق على الأحداث السياسية المثيرة، فضحك الرجل الراقد وتساءل:

ـ حتى متى يحل لأمثالنا الكلام فى السياسة؟

فأجابه الطبيب وهو لا يكف عن الفحص:

ـ حتى تختل الذاكرة فتعفينا من قرفها. كيف حال ذاكرتك؟

ـ نحمده، ولكنها فقدت مزايا لا يستهان بها.

ـ على فكرة، الدواء الذى تواظب عليه ينفع أيضا للذاكرة.

وارتدى ملابسه وعاد إلى مجلسه الأول أمام المكتب وأخرج من جيب الجاكتة الصغير مشطا فسوى به شعره الأبيض الذى تشعث.

وقال الطبيب:

ـ بصفة عامة الحالة طيبة، لا تغير فى الدواء ولا إضافة، وعليك بتجنب الانفعال . .

ـ نصيحة ثمينة ومستحيلة.

ـ لا أعنى الانفعال وحده!

ـ أفندم؟

ابتسم الطبيب ابتسامة ذات مغزى وقال:

ـ أنت تزعم أنك مازلت قادرا على الحب؟

ـ ولكنى عجوز أرمل!

ـ عظيم واظب على ذلك . .

فهز رأسه موافقا أو متظاهرا بذلك فقال الطبيب ضاحكًا:

ـ صحتك أحسن من صحتى.

غادر العيادة مطمئنا. وقال لنفسه: إن نشوة رقيقة خير من حياة عامين بلا نشوة. وابتسم داخله. أحمق أم حكيم؟ رب أحمق حكيم ورب حكيم أحمق. من يرفض هدية سقطت من السماء سهوا؟ وحام خياله وهو فى السيارة حول التجربة الجديدة. تلك الجارة المحترمة. فى الأربعين أو جاوزتها بقليل، غاية فى النضج والجاذبية. كيف ولماذا أثار اهتمامها؟ لن يجد عند المنطق جوابا ولكنه اهتمام مذهل، فلم يستطع أن يقاومه.

يقاومه؟! هوى من حصنه دون أدنى مقاومة. وهبته نشوة فاقت جميع انتصارات الحياة. ذاق انتصارات المناصب والثراء والزواج الأرستقراطى الموفق والبنوة الفريدة. هذا الانتصار يفوق سابقيه جميعا. ولعله لم يفقد حسن إدراكه فهو يشعر بأنه لا يحب. إنه لا يحب كما أحب فى الماضى البعيد. ما هو إلا تعلق بأهداب الحياة. آخر نظرة للشمس قبل الغروب. وهل نسى أنه نبذ فرصة متاحة وهو فى الخمسين رافضا أن يخون رفيقة عمره؟ ولكن الاستهانة بالفرصة الأخيرة جنون، جنون لا يغتفر.

وانزلق فى رعونة إلى الحلم بتبادل الإشارات خلسة... وينتظر فى قلق.. ويسعد باللقاء.. ويتغنى بالعواطف كالأيام الخالية. بل افترض أيضا أنها امرأة ذات خطة وغرض، ومكر ودهاء، فلم يثنه ذلك عن الاندفاع، ورأى العدل كل العدل فى أن يؤدى ثمن ما ينال. غير أن الأيام تمر ولا تبدى هى إلا الود، وتهب الحرارة والصدق، دون أى مقابل. فليصدق إذن، أو فليصدق وليوطن نفسه على أى نكسة. ولو أنه كاشف طبيبه نفسه بما يفعل لاقتنع، بل ولربما حسده على جميل حظه. لذلك لم يكبح تحذير الطبيب إصراره واندفاعه. وانطلق مساء اليوم نفسه إلى عشه. ونسى فى رحابها هموم الحياة وهواجسها. وامتلأ فؤاده بالرضا والراحة والسرور. طيبة ورقيقة ومستجيبة ولله فى خلقه شئون. يقول لها:

ـ توجد أماكن صباحية غاية فى الأناقة والعزلة!

فتقول:

ـ الستر أوجب.

فيقول متمنيا:

ـ ليتنى أرجع إلى الوراء ثلاثين عاما.

فتقول باسمة:

ـ ولكنى أحبك كما أنت!

أحيانا يصدق ولا يصدق أحيانا. فى فترة الجفاف تنبثق له وردة مشتعلة الأوراق. ويتوقع مفاجأة لا تريد أن تقع. ويتمادى فى لهفة وراء النشوات. حتى شعر ذات صباح أنه فى أشد الحاجة إلى لقاء طبيبه. لم يستطع أن يغادر فراشه وكان ذا خبرة سابقة. وجاء الطبيب وراح يفحصه بعناية وهو يقول:

ـ انقطعت عنى مدة غير قصيرة.

لماذا بالصمت أو أجبر عليه. وفرغ الطبيب من فحصه فقال:

ـ أزمة بسيطة، ولكن الأفضل أن تنتقل إلى المستشفى، ما رأيك؟

أجاب بصوت ضعيف:

ـ كما تشاء .

ـ هناك ستجد كل ما يلزم وسوف أرتب كل شيء ، وإن شاء الله تسترد صحتك في أقرب وقت . . . .

ـ أشك في هذا . . . . .

ـ ليس الأمر بالخطورة التي تظن .

ـ بل هو خطير حقا .

ـ سوف أذكرك .

وتردد الطبيب قليلاً ثم قال باسما :

ـ يبدو أنك لم تعمل بنصيحتي !

فقال وهو يسدل جفنية :

ـ ولست نادما على ذلك .

يـوم الـوداع

الحياة ماضية بكل جلبتها كأن شيئا لم يكن . كل مخلوق ينطوي على سره وينفرد به . لا يمكن أن أكون الوحيد . لو تجسدت خواطر الباطن لنشرت جرائم وبطولات . بالنسبة لي انتهت التجربة . من جراء حركة عمياء . لم تبق إلا جولة وداع . عند مفترق الطرق تحتدم العواطف وتنبعث الذكريات . ما أشد اضطرابي ! تلزمني قدرة خارقة للسيطرة على نفسي . وإلا تلاشت لحظات الوداع . انظر وتمل كل شيء ، وانتقل من مكان إلى مكان ، ففي كل ركن سعادة منسية يجب أن تذكر . يا لها من ضربة مفعمة بالحنق والغيظ والكراهية . اندفعت بقوة طائشة ونسيان تام للعواقب . تطايرت حياة لا بأس بها . انظر وتذكر واسعد ثم احزن . لأسباب لا وقت لإحصائها انقلب الملاك شيطانا . شد ما يلحق الفساد بكل شيء طيب . واقتلع الحب من قلبي فتحجر . لنتناس ذلك في الوقت القصير الباقي . يا لها من ضربة قاضية . ما الأهمية؟ هذا شارع بورسعيد يتحرك تحت مظلة من سحب الخريف البيضاء . الأبخرة المتصاعدة من صدري تغبش جمال الأشياء . وغمزات الحنين من الماضي البعيد تطرق أبواب قلبي ، قدماي تجرانني إلى زيارة أختي . وجهها الهادئ الشاحب يطالعني من وراء شراعة الباب . يشيع فيه السرور وتقول :

ـ خطوة عزيزة على غير توقع ، في هذا الوقت الباكر . .

ذهبت لتعد القهوة وجلست في حجرة المعيشة أنتظر . نظرت إلى الوالدين والإخوة

الراحلين من صورهم القائمة فوق المناضد. لم يبق لى إلا هذه الأخت الأرمل المحرومة من الذرية، والتى وهبت موفور حبها لى ولسميرة وجمال. هل جئت لأوصيها بابنتى وابنى؟ رجعت بالقهوة ومن داخل روبها الأبيض تساءلت:

ـ لم لم تذهب إلى الشركة؟

ـ إجازة لوعكة.

ـ واضح ذلك من وجهك، نزلة برد؟

ـ نعم.

ـ لا تهمل نفسك.

بدأ وجهى يفضحنى. ترى ماذا يجرى فى شقتى التعيسة الآن؟

ـ زارنى أمس سميرة وجمال.

ـ إنهما يحبانك كما تحبينهما..

ـ وكيف حال سهام؟

يا له من سؤال برىء!

ـ بخير..

ـ ألم يتحسن الجو بينكما؟

ـ لا أظن.

ـ دائما أنصحها وأشعر بأنها تضيق بى..

غلبنى القهر فسكت، فقالت:

ـ زماننا يحتاج للصبر والحكمة...

أود أن أوصيها بسميرة وجمال ولكن كيف؟ سوف تدرك مغزى زيارتى فيما بعد. هل تغفر سميرة وجمال لى ما فعلت؟ ما أشد اضطرابى!

ـ ما رأيك فى أن أصحبك الآن إلى طبيب؟

ـ لا ضرورة لذلك يا صديقة، سأذهب الآن لإنجاز بعض الأعمال.

ـ وكيف أطمئن عليك؟

ـ سأزورك غدا!

غدا؟! هاهو ذا الطريق من جديد. انظر وتمل وانتقل من مكان إلى مكان. شاطئ إسبورتنج وحيد أيضا. خال من البشر وأمواجه تصطفق منادية بلا مجيب. القلب يخفق تحت غلاف الهموم المحكم. ساعة خرجت من الماء بجسمها الرشيق مخضبة الإهاب بلعاب الشمس. تلفعت بالبرنس وهرعت إلى الكابينة لتجلس عند قدمى والديها. كنت

أتمشى فى بنطلون قصير فالتقت عينانا . غمرنى ارتياح ابتهج له قلبى . ونادانى صوت فلبيت ، فوجدتنى فى مجلسها ، وكان المنادى خالها وزميلى فى الشركة . وتعارفنا وجرى حديث عابر ، ولكن ما كان أمتعه! لحظات من السعادة الصافية لا تشوبها شائبة . لا تتكرر ، تأبى أن تتكرر ، تطوف بقلبى الآن على هيئة حنين طائر . له وجوده الدفىء على رغم تمزق الخيوط التى ربطته يوما بالواقع . وقولها ذات يوم : قلبك طيب والقلب الطيب لا يقدر بثمن . حقا؟! من إذن القائلة : لا يوجد من هو أخس أو أحقر منك؟! ومن القائلة : ربنا خلقك لتعذيبى وتعاستى؟! كان على الحب أن يصمد أمام خلافات الأمزجة ولكن الخلافات قضت على الحب . كلانا عنيد شعاره كل شىء أو لا شىء . أنت مجنونة بالمظاهر الفارغة ، فتصرخ فى وجهى بل أنت متخلف . سميرة وجمال يلوذان بحجرتيهما مذعورين . شد ما أسأنا إليهما . عانى الحب بيننا ساعة بعد أخرى ويوما بعد يوم حتى لفظ أنفاسه . اختنق فى لجة الجدل والخصام المستمرين . والشتائم المتبادلة . ولكن فى هذا الكازينو ، فى هذا الركن بالذات ، كاشفت خالها بإعجابى بها .

ـ إنها متعلمة ، لم تدخل الجامعة . أبوها له سياسة خاصة ، بعد التعليم الثانوى يعد الفتاة للبيت اكتفاء بدخل لا بأس به . .

قلت :

ـ هذا مناسب جدا .

دعانا ـ أنا وهى ـ إلى عشاء فى سانتالوشيا . التقينا فى حديقة البجعة بعد ذلك . أيام الخطوبة والأحلام والسلوك المثالى . أسمع نغمة جميلة تهيم على رغم تقصُّف جميع الأوتار التى عزفتها . يا لها من ضربة قاضية! ماذا يحدث فى الشقة الآن؟! لم لا تكون الحياة أيام خطوبة دائمة؟ آه يا أقنعة الأكاذيب التى نتوارى خلفها! . . لا غنى عن وسيلة ناجعة لمعرفة النفس .

ـ أستاذ مصطفى إبراهيم؟

نظرت إلى المنادى فإذا به مفتش بالشركة ماضٍ ولا شك إلى عمل .

ـ أهلا عمرو بك .

ـ إجازة؟

ـ متوعك .

ـ واضح جدا . . تحب أوصلك إلى أى مكان؟

ـ شكرا . .

لعله أول شاهد . كلا . رآنى جارى الدكتور وأنا أغادر الشقة . هل لاحظ شيئا غير عادى؟ رآنى البواب أيضا . لا أهمية لذلك . لم أفكر فى الهرب قط . فى الانتظار حتى

النهاية. لولا هيامى الأخير بالوداع لذهبت بنفسى. لم أسع إلى نبذ الحياة باختيارى. انتزعت من بين يدى عنوة. ما قصدت هذه النهاية أبدا. بينى وبين الخمسين خمس. وعلى رغم المعاناة فالحياة حلوة. لم تستطع سهام أن تبغضها إلى. هل أزور سميرة وجمال بكلية العلوم؟ ذهبا دون أن أراهما ولم أكن أتوقع ما حدث. ولن أجد الشجاعة للنظر فى أعينهما. ويعز على أن أتركهما لمصيرهما. أتصورهما يطرقان الباب دون أن تهرع ماما لفتحه. سيخلف هذا اليوم أثره حتى نهاية العمر. وإذا لعنانى، فلهما الحق. متى أتناسى كربتى وأخلص للوداع؟ انظر وتمل وانتقل من مكان إلى مكان. السوق.. يوم سرنا فى السوق لنبتاع الدبلتين ويشعر من يمتلك العروس بأنه يتحفز لامتلاك الدنيا. ويشعر بأن السعادة قد تكون أى شىء إلا أن تكون كالكحول.

وأقول لها بوجد:

ـ إلى سان جيوفانى.

فتقول مشرقة:

ـ أتلفن لماما.

الرقة والعذوبة والملائكية فى أيامنا الأولى. متى وكيف ظهرت المرأة الجديدة؟ بعد الأمومة، ولكن دون تحديد حاسم. كيف هيمن على شعور بخيبة الأمل؟ قالت لى سميرة مرة:

ـ ما أشد غضبك يا بابا! وما أسرعه!

واعترفت لسهام مرة قائلا:

ـ قد أنسى نفسى وقت الغضب ولكننى لا أغضب إلا لسبب..

ـ وبلا سبب.... إنه سوء الفهم.....

ـ تهدرين حياتنا فى السفاسف.....

ـ السفاسف؟! إنك لاتفهم الحياة!

ـ أنت مستبدة، لاوزن للعقل عندك، وما فى رأسك يجب أن يتم دون اعتبار لأى شىء....

ـ لو احترمت آراءك لحقت علينا اللعنة!..

انظر وتمل وانتقل من مكان إلى مكان. أبو قير مصيف الفطرة ليكن الغداء سمكًا. املأ بطنك وحركه بشىء من النبيذ الأبيض. هذا المكان جلسنا فيه سويا، وعلمنا فيه سميرة وجمال السباحة وهما صغيران. اهدأ يا اضطرابى فاليأس إحدى الراحتين. ألم يكن الأفضل أن أطلقها؟

ـ طلقنى وخلصنى . . . . .

ـ عز المنى لولا إشفاقى على سميرة وجمال .

ـ بل تشفق على نفسك بعد أن وضح لك أنك شخص لا يطاق . . . . .

الحق أنى تمنيت كثيراً موتك . بيد الأقدار لا بيدى . أى متاعب تهون إلى جانب جحيم الكراهية . نتبادل الكراهية دون خفاء . بعد تبادل أقسى الألفاظ وأفظعها . كيف تناولت طعامى بشهية؟ حقّا لليأس سعادة لايستهان بها . وترامت من راديو أغنية «أنا والعذاب وهواك» ، فارتجف قلبى . أغنية أحببتها كثيراً فى ذلك الشهر المراوغ شهر العسل . كيف تتلاشى السعادة بعد أن تكون أقوى من الوجود نفسه؟ تتطاير من القلوب لتعلق بأجواء الأماكن بعد اندثار مصدرها ، ثم تقع كالأطيار على الأرض الجافة فتزخرفها بوشى أجنحتها ثوانى من الزمن . أنا والعذاب وهواك وهذه الضربة القاضية . لعله اليوم الذى انقضضت فيه على سميرة بجنونك ففزعت أدفعك عنها فسقطت على رأسك . يومها اشتعلت فى عينيك نظرة غير إنسانية تمج سمّا :

ـ إنى أكرهك .

ـ فى داهية .

ـ أكرهك حتى الموت .

ـ إلى الجحيم .

ـ إذا تعكر قلبى فهيهات أن يصفو .

هى الحقيقة للأسف . يا ذات القلب الأسود . لم يُجْد اعتذار أو مجاملة أو توادد . ولم يجر بيننا حديث بعد ذلك إلا عن الواجبات والميزانية . واختلط الانتقام بتكاليف المعيشة . ونضب معين الرحمة . حامت أحلامى حول الهروب كالسجين أو الأسير . جفت رغبات قلبى وأطبقت عليه الوحشة . وراحت تتصرف تصرُّف المرأة الحرة ، فتذهب وتجىء بلا إذن أو إخطار . يلفها الصمت فلا تند عنها كلمة إلا للضرورة . وانطوت على سرها كبرياء فلم تشكنى إلا لأختى صديقة .

ولما لم تقم بما توقعته منها وقصدت التوفيق كرهتها بدورها . وقالت إنه ليس بجنون رجل ولكنه جنون متوراث عن أسرة . وانتهزت فرصة انفرادى بسميرة وجمال . سألت عن رأيهما فيما يشهدان من أحوالنا . قال جمال :

ـ حالكما لا يسر يا بابا ، كحال بلدنا أو أسوأ ,لذلك فإنى سأهاجر فى أول فرصة . . . . .

أعرف الكثير عن تمرده . أما سميرة فبنت عاقلة ، متدينة وعصرية فى آن ، ولكنها قالت :

ـ معذرة يا بابا لا تسامح من ناحيتك أو ناحيتها . . . .

ـ كنت أدافع عنك يا سميرة .

ـ ليتك ما فعلت ، كانت ستصالحنى بعد ساعة ، لكنك سريع الغضب يا بابا . . . .

ـ لكنها غير معقولة . . . . . .

ـ بيتنا كله غير معقول .

ـ اخترتك قاضية .

ـ كلا . . . . لايحق لى هذا أبدًا .

ـ لم أجد عندكما أى عزاء .

فقال جمال :

ـ لاعزاء عندنا ولا عزاء لنا .

إذا لم يحبنى هذان الاثنان كما أحبهما فأى خير أرجو فى هذا الوجود؟ آه . انظر وتمل وانتقل من مكان إلى مكان ، بحق الحياة الضائعة . عش الساعة التى أنت فيها وانس الماضى تماما . املأ عينيك فما تغادره لن تراه مرة أخرى . كل لحظة هى اللحظة الأخيرة . من دنيا لم أشبع منها ولم أزهد فيها وانتزعت من بين يدى فى هوجة غضب . أى شارع من الشوارع لم يشهدنا معًا؟ أو يشهد أسرتنا الكاملة وسميرة وجمال يتقدماننا؟ ألم تكن هناك وسيلة لإصلاح ذات البين؟ أقسى عقوبة أن تودع الإسكندرية فى مجلى خريفها الأبيض . وفى عنفوان الرجولة والرشاد . وهذا هو البحر الصامت فى الناحية الأخرى من أبو قير . ونغنى معا «يا للنعيم اللى أنت فيه يا قلبى» . فى حوار غنائى بين قلبين يقظين . وسميرة وجمال مبهوران بعد قوارب الصيد الراسية فوق شعاع القمر . . . . .

هل يكفى يوم واحد للطواف بمعالم ربع قرن؟ لم لا نسجل الاعترافات العذبة فى إبانها لعلها تنفعنا وقت الجفاف؟ الذكريات كثيرة مثل أوراق الشجر والمدة الباقية قصيرة مثل السعادة . السعادة تغيب الوعى حين حضورها وتراوغنا بعد زوالها . ومن لى بمن يجمعنى بدولت؟! لاسبيل إلى ذلك اليوم . ولو تيسر لزادنى ارتباكًا وفضح أمرى قبل الأوان . وما جدوى ادعاء حب لا وجود له؟ اليأس وراء انزلاقى فيه . ولم تكف أبدًا عن التلويح لى بالزواج دون اكتراث لمصير سميرة وجمال . ليس هو بحب ولكنه نزوة انتقام . ليتنى وقفت عنده ولم أعبره للضربة القاضية .

المساء يهبط والبحث عنى يشتد ولاشك ، فلأنتظر فى إستريا أحب أماكن المساء إلى . مجمع الأسر والعشاق والأحلام الوردية . الجعة والعشاء الخفيف والمرطبات . ربما أكون المنفرد بنفسه الوحيد . معذرة يا سميرة معذرة يا جمال . استقبلت الصباح بنية صافية ، ولكنه الغضب يطوح بنا فوق المحاذير . ضرعت إلى الساعة أن تتأخر دقيقة واحدة . ولما

تلاشت التوترات العنيفة لم يبق إلا اليأس بوجهه الثلجى الأبكم. وجلت جولة الوداع يتبعنى الموت حينا ويتقدمنى حينا آخر. أختزل العمر فى ساعات فعرفت الحياة أكثر من أى وقت مضى. ما أسعد الناس من حولى، ولو وقفوا على سرى لسعدوا أكثر. ويسألنى النادل مجاملاً:

ـ أين الهانم؟

فأجيبه باكتئاب خفى:

ـ مسافرة.

لم يعد فى الوقت بقية. عما قريب سيقترب منى رجلان أو أكثر:

ـ حضرتك مصطفى إبراهيم.

ـ نعم يا أفندم. . . . . .

ـ تسمح تتفضل معنا؟

أقول بهدوء كامل:

ـ كنت فى انتظاركم. . . . .

أحلام متضاربة

كنا زميلين فى العمل بسكرتارية وزير المعارف كما كنا زميلين من قبل بكلية الحقوق. عمل هو ـ محمد العبلاوى ـ سكرتيراً خاصّا للوزير بحكم قرابته له، ولمرانه على لقاء كبار الزوار اكتسابًا من نشأته فى الطبقة العليا، وعملت أنا كاتبًا مختصا بشئون الصحافة. وسمعته يوما يعلن قراره عن خوض معركة الانتخابات القادمة بعد وعد من عمه ـ نائب الدائرة ـ بتنحيه عنها له وليس ذلك غالبًا إلاّ تمهيداً لتوليه الوزارة فى أول فرصة تسنح. وكانت علاقتنا طيبة جدّا كما كانت علاقته بإخوانه على أتم ما يكون من المودة والمروءة. وقلت له يومًا:

ـ ستكون نائبًا، ثم وزيرًا، فعدنى بألا تنسانى. . . .

فابتسم مبتهجًا بوجهه الجامع بين الجمال والوقار على رغم شبابه اليافع وقال:

ـ لك منى وعد شرف بألا أنسى العهد أبدًا. . . .

ولكن لم يقدر له أن يخوض المعركة الانتخابية ولا أن يتولى الوزارة فقد انسد طريقه بغتة بقيام ثورة يولية. وتبدى واجمًا من اليوم الأول، وسألنى فى حيرة:

ـ هل سمعت شيئًا؟

فقلت ببراءة:

ـ إنها كما تعلم الخلافات المعروفة بين الملك والجيش، وسوف تسوى لحساب الجيش...

فقال شاردًا:

ـ لا... إنها أكبر مما تظن....

واستقال صاحبى من وظيفته باختياره واختفى من مجالى تماما. وسارت الثورة فى طريقها المعروف، وتغير النظام الطبقى فى مصر تغيراً ملموسًا، وتفتحت دنيا الآمال أمام أمثالنا. لم تقع عينى على صديقى القديم زمنًا طويلاً، وكان يخطر ببالى فى مناسبات كثيرة مثل الإصلاح الزراعى، التأميم، الحراسة، المصادرة. أحداث اتسمت بالحزم واستجابت لها أنفس لاحصر لها بالارتياح وأحيانًا بالشماتة. ولم يكن من السهل لدى كثيرين نسيان القرون التى استعبد فيها الشعب لصالح قلة من المواطنين، فأى ظلم فى أن يرتفع المظلومون ويهبط الطغاة؟! وكدت أنساه تماما حتى صادفته مقبلا نحوى فى شارع طلعت حرب فى الستينيات. من أول نظرة تم التعارف والتذكر، وكأنما لم نفترق إلا أمس. ولكنه شخص آخر تماما. وتساءلت: ترى هل أدركنى نفس التغير وأنا لا أدرى؟... كلا، ليس السن وحدها. تلاشت تماما الأناقة والرونق، وبرزت معالم شيخوخة قبل أوانها فابيض شعره كله وتجلت عظام وجنتيه، وأفظع من ذلك كله نظرة العينين الخابية المنهزمة الضائعة، وصوته المنخفض كأنه الخائف الأبدى أو المراقب أو المطارد.

ـ كيف حالك؟

ـ الحمد لله.

ـ أين أنت الآن؟

فأجبت متلعثمًا:

ـ مدير الإدارة القانونية.

ـ مبارك.

ـ وأنت؟

ـ كما ترى.

ثم بصراحة غريبة:

ـ لولا حلى زوجتى لهلكنا جوعًا.

فارتبكت كأننى المسئول عما حل به وقلت مجاملاً :

ـ غير معقول . . . .

ـ أصادف أحيانا وزراء سابقين فى سوق بيع الحلى .

ـ يؤسفنى أن أسمع هذا يا عزيزى . . . .

وهم بالانطلاق فى الحديث ، ولكنه عدل فجأة وتحول به عن مجراه فسألنى :

ـ هل أستطيع أن أعتمد على معاونتك فى نشر بعض القطع المترجمة بأى ثمن؟ . . . لاشك فى أنك تعرف صديقًا هنا أوهناك يمكن أن تقبل شفاعته فى ذلك . . . .

فقلت بصدق :

ـ أعدك ببذل أقصى ما لدى من جهد . . . .

وتصافحنا ومضى ، ولم أقصر فطرحت الموضوع على صحافى صديق ، رحب من ناحية المبدإ ، ولكنه عندما سمع اسم المترجم «العبلاوى» هتف :

ـ يا خبر أسود! أسعى فى الخير اليوم لأجد نفسى غدًا فى المعتقل؟

ولكنه لم يتصل بى مرة أخرى . وغاص من جديد فى ظلمات الاختفاء فأعفانى من الحرج .

وتتابعت الأيام بأحداثها . رحل زعيم وتولى زعيم ، وجاء عصر الانفتاح ساحبًا وراءه التضخم . ورجعنا نحن ـ الموظفين ـ إلى المعاناة والضيق والخوف من المستقبل . بل تهددنا الجوع نحن وأبناءنا . وذهلت يوما وأنا أقرأ اسم صديقى القديم فى مجلة ضمن أصحاب الملايين الجدد .

وقرأت له فى صحيفتى اليومية سلسلة من المقالات يهاجم فيها الزعيم الراحل وعصره ويشيد بالزعيم الحالى ومآثره . وألتقى بصديق من كبار العهد الناصرى فيجول معى فى أبعاد المواقع ثم يقول بحنق :

ـ أردناها ثورة بيضاء وها نحن أولاء ندفع الثمن؟

غير أن انشغالى بلقمة العيش لم تترك لى فراغًا للكلام فى السياسة . وفى حيرتى وعذابى تذكرت عهد الشرف الذى أعطانيه العبلاوى قبل الثورة إذا ولى الوزارة . أجل إنه لم يل الوزارة ولكنه على وجه اليقين أغنى من الوزراء مجتمعين . ولن يعجزه أن يجد لى عملا فى محيط نشاطه الحافل بالأعمال . وتحريت عن مكتبه حتى عرفت موقعه . ومضيت إليه كأمل أخير فى حياتى العسيرة . والحق أنه استقبلنى بحرارة نفت عنى ارتباكى وحيرتى . وكان على أن أستغل الوقت أحسن استغلال بين رنين التليفونات والداخل والخارج ، قلت :

ـ هل تذكر وعدك القديم؟

فضحك عاليًا ولم يتكلم، فقلت بإيجاز:

ـ لعلك تسمع عن معاناة ذوى المرتبات الثابتة . . .

فقال ساخرًا:

ـ كما سمعت أنت عن ضحايا عبد الناصر . . .

فقلت بسرعة:

ـ لم أقصر فى حقك، ولكنك اختفيت عنى تماما . . . .

فقال باسمًا:

-أدركت أننى أورطك فيما لاقبل لك به . . . . .

ثم بلهجة جادة:

ـ أتريد عملا فى المكتب بعد الاستقالة من الحكومة؟

ـ كلا . . . المعاش مهم أيضا . . . أريد عملا إضافيا . . . .

ـ لامجال عندى لبطالة مقنعة كما تعلم . . . ولكن توجد وظيفة إضافية لسواق سيارة؟!

لطمة هوت على كرامتى فلم أدر ماذا أقول.

ـ لن يقل المرتب عن مائة جنيه . . .

تذكرت القبيلة الصغيرة التى تعانى فى البيت، فقلت بتسليم:

ـ طبعًا فى غير أوقات العمل الرسمية؟

فقال بهدوء وربما بشىء من البرود:

ـ مفهوم.

تحت الشجرة

كأنما غادرها أمس. بمدخلها الضيق المتوج باسمها الرنان «فينكس، كافيتريا، بار»، وحجرتها المربعة المرصعة بموائدها الرخامية وكراسيها الخيزرانية ومقصفها المتصدر. وكالعادة مصابيحها مضاءة منذ الصباح لانزوائها فى عمق بعيدا عن نور الشمس. وجوه غريبة لزبائن جدد فيهم نفر من الأجانب. اختار كرسيا وجلس. بجسمه الطويل النحيل المتهافت، وبنطلونه الرمادى وقميصه الأبيض نصف كم، ورأسه الكبير الموخوط

بالشيب، ووجهه الغامق الموسوم بالعناء. نظر فيما حوله، وقلقت فى عينيه الواسعتين نظرة حائرة. أقبل النادل، ولما رآه من قريب اتسعت عيناه دهشة وسرورا، وهتف:

ـ مبارك يا أستاذ.. حمدا لله على سلامتك.

وتصافحا. وطلب فنجان قهوة زيادة ولكن الرجل سأله قبل أن يذهب:

ـ كيف الصحة؟

ـ كما ترى.

ـ ستعود كما كنت وأحسن.

حقا؟! سبع سنوات عجاف، ولكنه قال:

ـ ربنا يسمع منك.

وذهب الرجل ورجع بالقهوة ثم صبها فى الفنجان قائلا:

ـ هذا الفنجان على حسابى!

ـ تشكر.

ـ أسفنا جدا، ما باليد حيلة، على أى حال فأنت بطل!

رشف رشفة وسأله:

ـ لماذا؟

ـ السجن فى سبيل المبدإ.

ـ عظيم، هل أنت مستعد لذلك؟

فضحك النادل الكهل قائلا:

ـ لست بطلا مثلك.

وذهب يلبى طلبا. أتى على الشراب فلم يبق إلا الرواسب فى القعر والتصاوير فى الجدران. وتذكر قول قارئة الفنجان فى الزمان الأول: قدامك سكة سفر وسعادة. يستوى قول الأول والآخر فى الكذب. خمس سنوات ضاعت. وأبوه قال له: «حذار من الجنون يا مجنون، البلد مختنقة مهزولة، ولا هم للفقير إلا اللقمة ولا للقوى إلا الثروة». الواضح أن الإيقاع يتضاعف والجنون يتفشى. وتفرس فى الوجوه من حوله بدهشة وإنكار. ولما رجع النادل الكهل إليه قال له:

ـ لا أرى أحدا من زبائن زمان!

ـ لعلهم فى البيوت، هؤلاء سماسرة ورجال أعمال وسياح. الانفتاح يا أستاذ..

ـ والأصدقاء ألا يجيئون كالعادة؟

ـ أبدا.. منذ سنوات طويلة.

فعبس متسائلا :

ـ كلهم؟

ـ ولا واحد يوحد الله .

ـ عندك فكرة عنهم؟

ـ طبعا ، القاسم والأرملاوى ورضوان مدرسون فى السعودية .

ـ السعودية مرة واحدة؟

ـ خير وبركة .

ـ والقائمة السوداء؟

ـ لا سوداء ولا بيضاء . وأدوا فريضة الحج أيضا!

ضحك على رغمه ، فقال النادل :

ـ سيملكون الشقق والسيارات ، لم لا؟

ـ والسيوفى؟

ـ السيوفى وبدران ورزق الله فى فرنسا ، صحافة عربية ، ثراء أيضا ، وقيل إن رزق الله اعتنق الإسلام!

ضحك مرة ثانية وتساءل :

ـ وأكرم؟

ـ تاب ، ويعمل فى الصحافة القومية .

ـ وجلال؟

ـ يعمل فى الأهالى .

فضحك للمرة الثالثة وقال :

ـ لعله جن!

ـ كلا ، الذى جن هو الأستاذ البرديسى!

ـ تعنى أنه فى المستشفى؟

ـ كلا ، يرى أحيانا فى الشوارع يحاور الهواء . .

ـ أفادك الله .

ـ حتى زملائى فى القهوة هاجروا إلى العراق ، ولولا سنى للحقت بهم .

ـ ربنا يعوض عليك .

فحدجه بنظرة باسمة ثم سأله :

ـ وأنت متى تهاجر؟

فلم يجب وارتسمت على زاوية فمه ابتسامة ساخرة، فقال النادل بنبرة ودودة :

ـ زمن المبادئ مضى، وهذا زمن الهجرة.

ـ كلامك كله حكمة.

وتجهم وجهه فبدا أكبر من سنه بعشر سنوات. أى ماض؟ وأى حاضر؟ وأى مستقبل؟! أين ومتى يقابل جلال؟ وكيف يصارع العبث؟!

وقال النادل :

ـ فنجان قهوة آخر، بن زيادة وسكر زيادة. .

ذكرى امرأة

أسير تحت العمارة الشاهقة بشارع شريف كل صباح وكل ظهر فى ذهابى إلى العمل ولدى عودتى منه إلى محطة الترام. كلما أسير تحتها يرتفع بصرى بحركة تلقائية إلى الدور الخامس حيث تطل على لافتة الجراح المعروف (. . . .) لا لأنه من أبناء الحى القديم وأقران الصبا فحسب، ولكن أيضا ـ وهو الأهم ـ لأنه تزوج من الفتاة التى استحوذت على إعجابى وحبى عهداً طويلاً. لا يبقى اليوم من ذلك الحب إلا الذكرى. حكاية قديمة لم يكد أحد يفطن إليها. أما العاطفة المتأججة فقد بردت وماتت، وأمست نشواتها وآلامها كأن لم تكن أو كأنما عاناها شخص آخر تلاشى فى تيار الزمن العجيب. ويومًا أرى الطبيب واقفًا فى الشرفة وراء اللافتة وهو يخطب. . . . . . يخطب؟! إى والله وبصوت مرتفع كالرعد ملوحًا بذراعيه يمنة ويسرة كأنما ليهيمن على جمهوره المحتشد. ولكن أين الجمهور؟ العمائر فى الصف المواجه له إما مغلقة النوافذ، وإما تنظر إليه من خلال أفراد تجمعوا فى الشرفات والنوافذ من موظفى الشركات.

وعابرو الطريق وقفوا قليلا لينظروا ويسمعوا ويتبادلوا النظرات والابتسامات ثم يمضى كل إلى سبيله إلا المتسكعين فلم يبارحوا الطوار وتابعوه باهتمام. لا أتصور أن أحداً ميز كلمة مما يقول، لارتفاع موقعه، ولتضارب أصوات الخلق والمركبات. وتدل النظرات والهمسات على اقتناعهم بأن الطبيب خرج عن وعيه أو حصل له لطف. على رغم غرابة المنظر وشذوذه وإغرائه بالضحك، فإن جانبه المأساوى غلب وسلط الوجوم على الخلق كغبار منتشر. والحق أنى تألمت، وملكنى الرثاء للزميل القديم الذى فرق العمر والعمل بيننا. وطارت خواطرى محتدمة نحو شريكته فى الحياة، لؤلؤة حينا التى

لا تنسى، فأسفت من أعماق القلب. ولم أحتمل البقاء طويلاً وبخاصة بعد أن سمعت أن البعض اتصل بالإسعاف وشرطة النجدة، فغادرت المكان مغتمّا، تتقدمني صورة الفتاة التى فتنتنى فى الزمان الأول، وأتساءل: ترى كيف آل إليه حالها اليوم؟ هل ما زالت متمتعة بجمالها الرائق؟ وكم أنجبت من الذرية؟ أما زالت تشتغل بالتدريس، أم استغنت عنه بعد أن أغناها الله؟ وكيف تتعامل مع هذا البلاء الذى ستمتحن به؟

وتظل الواقعة حديثى مع نفسى، ثم مع الأصدقاء فى المقهى، حتى عرفت ختامها صباح اليوم التالى فى جريدة الصباح، بالبنط العريض، وفى أسفل الصفحة الأولى قرأت: «انتحار الجراح المعروف (. . .)، يلقى بنفسه من شرفة عيادته بالدور الخامس». شد ما تأثرت لتلك النهاية، وكل صديق تأثر لها حينا، على رغم أن علاقتنا به انقطعت منذ التحاقه بكلية الطب، واختلطت التفسيرات: لعله مرض لا شفاء منه، أو نكسة مالية مفاجئة، أو خطأ فى نطاق المهنة، حتى قال أحدنا:

ـ أو جن وكفى، ألا يجن الإنسان بلا سبب إلا الجنون نفسه؟

ومضينا ننسى المأساة كما ننسى كل شىء. ولكن صديقًا آخر فجرها قبل أن تموت. هو أيضا طبيب من أقران الصبا، ويقيم فى نفس الحى ـ الزمالك ـ الذى كان يقيم فيه المنتحر، ولم تنقطع صلته به قط، كما لم تنقطع بنفر منا. ولدى أول زيارة له فى أعقاب الحادث توافر أكثر من سبب لإثارة الموضوع.

قال لى:

ـ أنت تذكره لاشك، كان غاية فى الاتزان والاجتهاد.

فقلت مصدقا:

ـ كل ما أذكره عنه حسن.

ـ هو أيضا قمة فى مهنته، وأثرى ثراء واسعًا.

ـ هذا مسلم به ولذلك تبدت مأساته لغزاً محيراً.

فهز صديقى رأسه وقال:

ـ الله لا يسامحها، زوجته.

فهتف بذهول:

ـ سميحة؟!

فابتسم قائلاً:

ـ طبعًا تتذكرها.

ـ حينا كله يتذكرها، الجمال والكمال والأدب، المثل الأعلى للاستقامة والرزانة

والحشمة فى ذهابها إلى المدرسة وحين العودة منها، هه، حصن منيع أمام أى عابث حتى شهد لها الجميع بالامتياز الخارق وحق للمرحوم أن يغبط ويهنأ يوم وفق فى طلب يدها. . . . . . .

فأكمل الدكتور قائلاً:

ـ وأنجب منها ولدًا وبنتا، الولد فى كلية الطب والبنت فى الثانوية العامة، ولكنها مع الأيام والمعاشرة تكشفت عن امرأة أخرى تماما. . . . . . .

تابعته بانتباه فائق وذهول، فواصل:

ـ امرأة أخرى تماما، ولولا اختلاطى بهم ما صدقت ما أسمع وما أرى.

ـ يا للعجب!

ـ هى الحقيقة، وكم حاولت الإصلاح ولكن دون جدوى. . . . .

ـ اعتبرناها ملاكًا من السماء.

فارتسمت بسمة ساخرة على شفتيه، وقال:

ـ جبارة متسلطة ذات رأس صلب، تفرض رأيها بإصرار وبعنف، لاتقبل المناقشة، عصبية لحد الجنون، يذهلها الغضب عن كل شىء فتحطم التحف والأوانى، وتسب بلا تحفظ. ثم إنها مسرفة لدرجة جاوزت كل الحدود، ولم تكن تترك له إلا مصروف الجيب . . . . .

وصمت لحظة ممتعضًا ثم قال:

ـ حتى العفة لم تسلم.

فصمت على رغمى.

ـ العفة؟!

ـ إنى واثق بما أقول. . . .

ـ يا للداهية! أكانت مجرد ممثلة ماهرة؟

ـ عسير على أن أتصور ذلك

ـ ولم لم يطلقها؟

فقال متمهلا:

ـ كان أضعف من أن يتخذ قرارًا حاسما. . . . .

ـ فقلت وأنا من الانفعال فى نهايته:

ـ من كان يتصور ذلك؟!

ـ هو أيضا سحره المظهر ، ثم إن شكواه لم تقتصر عليها ولكنها امتدت إلى أمها وحتى إلى أبيها . . . .

هكذا انتهت قصة الطبيب ، وقصتى أنا أيضا . تقدمنى فى السباق لوفرة إمكاناته ولولا ذلك لربما كنت أنا الضحية . ولكن كيف يمكن أن أنسى صورتك الملائكية يا سميحة؟ ولم أصدق ما يقال دون تحفظ ، أليس من الجائز لو جمعتنى بك الأيام يومًا أن ينقلب الحكم أو يتغير؟

مولانا

ابن الأرض ، من أسرة الأعشاب البرية ، نشأ ونما وترعرع فى البستان الذى توسط يوما ميدان العتبة الخضراء القديم . من المجهول انبثق ، لتربيه الأيدى القذرة ، تطعمه لقمة وتلبسه جلبابا وتسلبه إنسانيته . وذات يوم ـ وكان عوده قد اشتد وطال ـ أشار إليه عابر سبيل وقال لصاحبه بصوت مرتفع ضاحك :

ـ انظر ، كأنما هو الملك!

الملك؟! يعرف أنه يوجد ملك . ورأى من بعيد موكبه . ماذا يعنى الرجل؟ وتكررت الإشارة والنظرة المندهشة . أيشبه الملك حقا؟! أيمكن أن يحدث ذلك فى هذا الوجود؟! وسعى إلى مرآة مصقولة معروضة عند مدخل محل لبيع الأثاث فى أول شارع الأزهر ليرى صورته ، ليرى الملك . . إذن فهذا هو الملك . لم تطمس شكله رثاثة الجلباب ولا قذارة الوجه وراح يغسل وجهه ويمشط شعره ويقطع الميدان بالطول والعرض فيحرز النجاح بعد النجاح ، ويتلقى الإشارات والتعليقات ، ويمضى باسما مزهوا بصورته النفيسة . وعرف فى المنطقة مع الأيام بمولانا ، مولانا صاحب الجلالة . وفسرت الظنون الساخرة الشبه العجيب بما عرف عن الملك الراحل الأب من رمرمة جنسية ، فمن يدرى؟! فلعله . . . وأليس من الجائز أن . . . ؟! وما وجه الاستحالة فى أن يكون . . . ؟!هكذا ألحقته السخريات بالدم الأزرق المصون لأسرة محمد على . وهو لا يعرف لنفسه أما ولا أبا ، فكل شىء محتمل . وجد على الأرض ، عاريا أو فى لفة ، ونشأ فى أحضان الطبيعة مثل أجداده الأول فى العصور الغابرة . وحام مع الظنون حول أصله الرائع المجهول ، وانتظر من وراء ذلك الشبه خيرا وأى خير . والواقع أن فخامة منظره خففت عنه من بلاء التشرد وجنبته كثيرا هراوات الشرطة ، فكان أكرم المتشردين وآمن النشالين . وقال له أقرانه :

ـ إذا رفعك الحظ يوما فلا تنسنا!

فوعدهم بالخير والحماية، وتعلق أكثر بأحلامه الخرافية. وطرقت شهرته أخيرا قسم الشرطة وذهب المخبرون ورجعوا قائلين:

ـ الطول والشكل واللون، إنه معجزة. .

وقرر المأمور أن يراه بنفسه. ولما مثل بين يديه تفحصه بذهول، ولما صرفه وجد نفسه يفكر فيه بوصفه مشكلة حقيقية. أيمكن أن يتغاضى عنه كدعابة لا وزن لها؟ هل يأمر بمراقبته حتى يقبض عليه متلبسا؟ لم يقنع بهذا الحل أو ذاك، ورأى أن يبلغ الخبر إلى أحد الرؤساء فى الداخلية الذى تربطه به علاقة حميمة. وجرت التحريات من جديد، وارتبكت مراكز الأمن العليا، واعتبرت الموضوع بالغ الأهمية والخطورة.

ـ قد يتكشف الأمر عن مضاعفات مجهولة ونسأل عند ذاك: أين كنتم أيها السادة؟!. .

ـ والعمل؟!

واستقر الرأى على اعتقاله ووضعه فى الطور بوصفه من الخطرين على الأمن الواجب استبعادهم. وتم التخلص من فاروق «الثانى» واطمأنت القلوب وكاد ينسى تماما.

وقامت ثورة يولية. وانهالت المطارق على العقد البائد. وكتب أحد الصحافيين عن واقعة شبيه الملك المخلوع المنسى فى المعتقل فكانت كلمته إيذانا بالإفراج عنه. . . .

رجع إلى تشرده ولكن بلا حلم هذه المرة ولكنه حمد الله على نعمة الحرية. . ونشرت بعض المجلات صورته فاكتسب شهرة لم تخطر له فى بال. وقررت إحدى الشركات السينمائية أن تنتج فيلما يصور الفساد فى عصر ما قبل الثورة، وكان الملك يظهر فيه فى منظر هامشى فيما وراء الأحداث، واستدعت الشاب لتجربه فى الدور فأداه أداء مقبولا لسهولته، وحاز سمعة لا بأس بها، ولكنها لم تفتح له طريق النجاح ولم تكتشف فيه موهبة ذات شأن. ورأى المسئولون أن الحديث يتكرر عن الشاب، وأن صوره تنشر أكثر مما ينبغى. وإذا بمشكلة جديدة تنشأ من حيث لا يحتسب إنسان. وقال شخص بعيد النظر:

ـ شعبنا طيب، ولا يبعد أن يوجد فيه من يعطف على الملك على رغم فساده، وسيكون وجود هذا الشاب محركا لهذا العطف. .

ـ إذن يمنع نشر صوره. .

ـ بل الأوفق أن يختفى تماما!

وظن الشاب أنه ولد من جديد ليستقبل عهدا جديدا. وأشعل الدور الصغير الذى قام

به فى الفيلم طموحه إلى أقصى حد، وتوقع الخير مع طلعة كل شمس. وكلما شعر بمرارة الانتظار قال:

ـ إن الله لم يخلقنى فى هذه الصورة إلا لحكمة بالغة. . .

ولكنه اختفى بلا سبب ظاهر. لم يعد أحد يراه فى أى من مظانه. اختفى تماما. بل يبدو أنه اختفى إلى الأبد.

حــــــوار

فى جلبابه الأبيض الفضفاض، جلس على أريكة تتوسط حجرة المعيشة، وتحت طاقيته البيضاء بدا وجهه متجهما. أما هى فلم تكن تستقر على حال، يتحرك جسمها الرشيق فى فستان البيت الوردى بين مقعد وآخر أو تنظر حينا من النافذة المطلة على الطريق الصاخب. قالت بجدية:

ـ انتهيت إلى قرار أن أقيم مع خالتى.

فلوح بيده محتجا وهتف:

ـ تهجرين أخاك لتعيشى مع خالتنا؟! هذا لن يكون، لن تتركى هذا البيت إلا إلى بيت الزوجية.

ـ ولكن الحياة أصبحت نقارا مستمرا.

ـ كل شىء له سببه.

ـ الخلاف بيننا لا يهدأ، وهو يستفحل يوما بعد يوم.

ـ إن ما أقترحه هو عين العقل.

ـ هذا رأيك، أما رأيى فشىء آخر.

ـ أنا أخوك وأخبر منك بالدنيا.

ـ لماذا؟ كلانا متعلم وله عمله، وأنا أكبرك بعامين. .

ـ ولكنى رجل، وهذه ميزة لا حيلة لنا فيها.

ـ لا تردد ذلك من فضلك. لعل انتقالى إلى بيت خالتى. . .

قاطعها بحدة:

ـ لا، من فضلك، افتراقنا ونحن على هذا الخلاف يهدد كلينا بكارثة. .

ـ ما العمل ما دمنا لا نتفق فى شىء؟

ـ رأيي واضح مثل ١ + ١ = ٢ .

فدارت ابتسامة طارئة وهى تقول :

ـ الواضح عندى أن ١+١=١ .

ـ ما أعذبك لو ألنت صلابة رأيك .

ـ عندى كل شيء طيب .

ـ ما أطالبك به يقره الناس والمنطق وطبائع الأشياء .

ـ أستطيع أن أقول نفس الوصف لما أطالب به ، ولكنك تقسو على نفسك ، حتى الموسيقى الحلوة تعرض عنها .

ـ يا لك من ظالمة ، أليس لى أوقات فراغى أيضا؟

ـ ولكنك طيلة الوقت مشغول بالهموم اليومية .

ـ هى الحياة ، لولا ذلك ما بقى لأسرتنا ما تعتز به .

ـ فضلك مشكور . ولكن الحياة أوسع من ذلك كله .

ـ لو طاوعتك لرمينا بالجنون .

ـ دعنى أصارحك بأن من الجنون ما يعجبنى .

ـ هكذا أنت ، لا تفكرين أبدا فى العواقب .

فحدجته بنظرة متحدية من عينيها السوداوين الشهلاوين ، وقالت :

ـ غاية الحكمة ألا نفكر فى العواقب .

ـ الله . . الله . . خطوة واحدة تبقى ثم يدركنى اليأس من ناحيتك .

ـ ما صبرت عليك إلا لإيمانى بحسن نواياك .

ـ تذكرى عمتك ، والعاقل من اتعظ بغيره .

ـ عمتى؟! . . ما أروعها!

فكبح غيظه ولكن وجهه ازداد تجهما وهتف :

ـ مناقشة لا تعد بنتيجة طيبة .

ـ هكذا خلقت ، فدعنى وشأنى .

ـ لا . . لا . . علينا أن نتدبر أمرنا طويلا .

ـ ما الفائدة؟

ـ المزيد من التفكير لا يضر .

ـ إلا إذا جر وراءه مزيدا من التردد والخوف .

ـ لعلك تهربين من المسئولية .

ـ ليس فى حياتى هروب ، إنها سلسلة من المغامرات ، وكل مغامرة تحمل فى طياتها مسئولية مهمة . . .

ـ والخسائر ألا يدور لها فى تقديرك حساب؟

ـ ما تظنه خسارة أراه ربحا .

ـ أتمنى ألا تترامى خواطرك إلى الناس!

ـ الناس . . . الناس . . . الناس . . .

ـ إنهم خطر مدمر .

ـ إنهم خطر على من يهتم بأمرهم .

فقال بنبرة مرتفعة :

ـ معى المنطق ووصية أبينا رحمه الله .

فانحرفت بعينيها عن عينيه وقالت بهدوء :

ـ لى أيضا منطقى وهو لا يتفق مع وصية أبينا رحمه الله!

ـ عجبا! عرفتك دائما بارة بالوالدين .

ـ هذا حق ، ولكن لكل شىء حدوده .

ـ أليس من الجحود الاستهانة بوصيته؟

ـ أبدا ، طالما أننى أفعل ذلك فى سبيل الحياة التى أحبها ، والتى علمنى كيف أحبها وأحترمها . .

ـ هو أيضا كان يحب الحياة .

ـ الحياة التى أحبها غير الحياة التى أقبل عليها .

وتبادلا نظرة مليئة بالانفعالات ، وفصل بينهما صمت كئيب ، حتى تساءل :

ـ والعمل؟!

فقالت بأسى :

ـ آسفة على الإزعاج .

ـ لا يمكن أن أفرط فيك .

ـ ولكننا لا يمكن أن نتفق .

ـ الانفصال يعنى كارثة لكلينا .

ـ ليس الأمر كما تتصور .

ـ يجب أن نستمر معا مهما كلفنا ذلك من عناء .

ـ وهل نتحمل النقار ووجع الرأس إلى الأبد؟

ـ بل إلى أن نجد ملتقى للاتفاق .

ـ أخاف أن يكون ذلك وهما يا أخى .

ـ أبدا ، المهم ألا تنفذى قرارك الأرعن بهجر بيتنا .

ـ معذرة ، لولا أزمة المساكن ما كان يجب أن نبقى فيه يوما واحدا .

ـ هو اليوم نعمة كبرى إذا قيس بسكنى المقابر .

ـ أعترف أنه أحسن قليلا .

ـ لا تسخرى يا جاحدة ، أتنكرين أنه شهد أسعد أوقاتنا؟

ـ لا ، ولكن ماذا يشهد اليوم؟

ـ وبيت خالتك ليس بالجنة على أى حال ، إنها تنظر إلينا من فوق!

ـ ولكنى أستطيع أن أتفاهم معها بسهولة . .

ـ إنها تحتقرنا ، أشك أحيانا فى أنها شقيقة أمنا ، وهى فى نظرى مسئولة مسئولية كاملة عما حصل لعمتك . .

ـ عمتى؟! أين نحن من عمتى؟!

ـ اسمعى ، لا أبرئك من الانتهازية!

فضحكت قائلة :

ـ الله يسامحك . .

ـ المهم ألا نفترق وألا نيأس من الاتفاق .

فقالت بنبرة واضحة :

ـ لا تتوقع تنازلا من ناحيتى .

ـ ولا تتوقعى تنازلا من ناحيتى .

ـ إذن فلن نجنى إلا تعب القلب ووجع الرأس .

فقال بجدية ورجاء :

ـ وأيضا الوفاق . .

خيال العاشق

تزوج على الصناديقى زينب رأفت بعد انقضاء عام كامل على مقتل زوجها السابق وابن عمها سليمان عيسى. أرعشتنى قشعريرة وقلت لنفسى بحسرة: «سبقنى». ولعل أكثر من شخص فى شارعنا ردد ما قلت فيما بينه وبين نفسه.

زينب وردة حينا اليانعة، استبقنا جميعا إلى طلب يدها، ولكن أمها الشركسية المتعجرفة زوجتها بابن عمها سليمان. ساقط ابتدائية متخلف العقل ومن ذوى الأملاك، والدنيا حظوظ. يمين الله ما عرفنا الحزن الجماعى كما عرفناه فى تلك الأيام. ومضى كل يضمد جراحه بالطريقة التى تناسبه.

اكتشفت جثة الزوج ذات صباح بعطفة الحفناوى، واكتشفها أول ساع للرزق، بياع اللبن. قتل وهو راجع إلى مسكنه آخر الليل. كانت الشوارع والحوارى الفرعية تسبح فى الظلام لم تدخلها الإنارة بعد. وكان الرجل من هواة السهر ويعود كالعادة سكران أو مسطولا.

وجاءت التفاصيل ـ كما وردت فى كوكب الشرق ـ مؤيدة مصرعه بضربة عصا غليظة أو آلة حادة على أم رأسه. ووضح أن الباعث على القتل هو السرقة، فقد جرد من ساعته الذهبية وخاتمه الماسى ومحفظته. وزلزلت الجريمة الحى كله، وصارت حديث النساء والرجال فى العباسية شرقيها وغربيها، وتنبأ أهل الخبرة بأن شيطان القتل لن يدعنا فى سلام. وتبادلنا النظر فى مقهى قشتمر فى وجوم، معلنين الأسف، كاتمين أى بادرة ارتياح. وأرجعنى نواح زينب إلى الماضى فاستثار المنسى من الذكريات. .

ولاحظ الفران أن عامله «بيضة» ينفق عن سعة، وأنه يبتاع الكونياك من خمارة الميدان بدلا من الكحول الأحمر الذى كان يشتريه كل مساء من البقال، فسأله عن الخبر فاعترف الرجل المدمن بأنه عثر على محفظة فى عطفة الحفناوى فاعتبرها رزقا من الله. وبلغ الفران قسم الوايلى فقبض على بيضة وحقق معه ثم حول إلى المحاكمة بتهمة القتل والسرقة وقضى عليه بالأشغال الشاقة المؤبدة.

هكذا انتهت قضية قتل سليمان عيسى. لا شك فى أن الحلم القديم استيقظ فى قلوب كثيرة. واستيقظ فى قلبى على وجه اليقين، ولكنى انتظرت الوقت المناسب. كل عاشق قديم رسم خطة وانتظر الوقت المناسب طاويا صدره على سره. وعلى الصناديقى فعل مثلنا ولكنه كان أقدر منا جميعا على تدبير المناورة وانتهاز الفرصة، كما كان ـ باعتراف

الجميع ـ أجرأنا على الاقتحام، وفاز باللذة الجسور. كنا جميعا من صغار الموظفين، أما هو فقد ورث عن أبيه محل منى فاتورة بالغورية فحاله المادية معدن بالإضافة إلى خبرة مبكرة بالحياة وتمتعه بإرادة صلبة وفحولة نادرة. فى الوقت ذاته هدهدت أم زينب من عجرفتها بسبب ترمل ابنتها الجميلة واقتران اسمها بحكاية مصرع زوجها فوافقت على الزوج الجديد مزدردة امتعاضها التقليدى.

وكان من عادتى أن أعالج أحزانى بالمشى المنفرد فى ميدان المستشفى الفرنسى وأرض المولد النبوى. ولما مررت بالبيت رقم ١٠ المكون من دورين على ناصية الميدان دهمتنى ذكرى قديمة بعض الشىء فدق قلبى دقة عنيفة انطلقت كإنذار مرعب. لا لأن على الصناديقى وعروسه يقيمان فى الدور الأول، ولكن لمنظر تكرر مرتين قديما دون أن يثير ظنونى فمر بسلام. تذكرت أننى رأيت زينب فى حياة زوجها السابق تدخل هذا البيت مرتين. يومها اعتقدت أنها تقوم بزيارة وانتهى الأمر. الساعة يلوح لى وجه آخر للمسألة. فى ذلك الوقت كان الصناديقى يقيم فى الدور الأول بمفرده بعد وفاة أبيه! قد يقال إنها كان تزور أسرة الشيخ محرم ـ أستاذنا القديم ـ المقيمة فى الدور الأعلى، ولكن الشك يساورنى فى ذلك. لم؟ إلام تريد هواجسى أن تقودنى؟!

أكان ثمة علاقة بين الصناديقى وزينب؟! الصناديقى من ناحية مثال للاستهتار والمجون، لا يرعوى عن فعل، ولا يعقله أدب أو خلق. وزينب من ناحيتها اعتبرت فى زمانها عصرية ولم يكن للدين ولا التقاليد أثر ملموس فى بيتها. وحتى لو كان السبب المعلن للتردد على البيت هو زيارة آل محرم، فهل يمنع ذلك من التسلل إلى مسكن الصناديقى عند الذهاب أو الإياب؟! ليس شكا ما أتخيل ولكنه اليقين. وهى لم توافق على الزواج به على رغم كثرة المريدين إلا استجابة لتلك العلاقة الآثمة القديمة. لم لا؟ يقينا إنها لم تحب زوجها السابق ولم تحترمه، ولولا سطوة أبيها ما قبلت أن تتزوج به. وقد انصرف عنها جميع عشاقها احتراما لقدسية التقاليد المرعية، ولكن الصناديقى لم ينصرف ولم يسل، ولم يجد من قيمه ما يصده عن المغامرة. وأصر وألح حتى استجابت المرأة لعواطفه ولبت نداءه.

حاولت أن أنفض عن رأسى تلك الأفكار المحمومة ولكننى لم أستطع، وطاردتنى كأنها حقيقة واقعة. وليتها وقفت عند ذلك الحد ولكن ثمة فكرة سوداء انطلقت كما ينطلق عفريت من قمقم. وسوست لى بأن الصناديقى يكمن فى قاع الجريمة التى أودت بحياة سليمان عيسى! لم لا؟ إنه الوحيد بين أقراننا القادر على القتل. طالما عرف بيننا بالانفعال الأهوج والعدوان، ومعاركه الشخصية لا تحصى. ولا أنسى دهشتنا يوم وجه الاتهام إلى «بيضة» عامل الفرن، فإن أكثر من فرد قال:

ـ بيضة؟! . . من يتصور أن بيضة يمكن أن يقتل؟!

ولكن البعض تفلسف قائلا :

ـ إن أبعد الناس عن شبهة القتل قد يقتل فى لحظة جنون!

كلا، بيضة لم يقتل، ولكن سوء حظه ساقه للعثور على المحفظة التى تركها القاتل لإيهام الشرطة بأن السرقة كانت الباعث على الجريمة لا الحب. دبر الشيطان فأحسن التدبير، ولكن هل شاركته زينب فى مؤامرته؟ عند ذاك الفرض خذلنى خيالى المحموم، أما جريمة الصناديقى فقد تمثلت لى حقيقة واقعة. عبثا. . عبثا. . حاولت التملص من قبضتها.

فى الوقت نفسه لم أفاتح أحدا بما يمور فى أعماقى. أكره أن يسخر منى ساخر أو يتهمنى بالجنون. وأسترق النظر إلى الصناديقى ونحن بمجلسنا بمقهى قشتمر فأراه هادئا أو ضاحكا ينبض وجهه المتورد بحلاوة شهر العسل. أيمكن أن تمضى الجريمة بلا أثر تخلفه فى القاتل؟! وأراه أحيانا يسير فى الشارع وزينب تتأبط ذراعه كأكمل ما يكون الزوجان سعادة، فأذكر بأسى بيضة الملقى فى ظلمات التأبيدة بلا ذنب. وأتساءل: أين العدل؟! وأين الرحمة؟! وأحاول مناقشة أخيلتى وتفتيتها فلا أستطيع، ولا أجد من أشركه فى سرى لعله يخفف عنى بعض ثقله. وقلت لنفسى منذرا :

ـ إنى مريض، ولا بد من الشفاء قبل أن أتردى بلا أمل.

وخطرت لى فكرة لم أتردد فى تنفيذها. حررت إليه خطابا غفلا من الإمضاء، وسجلته على الآلة الكاتبة فى الوزارة. فى جمل برقية أكدت له أنى على علم تام بجريمته، وبعلاقته الآثمة السابقة بزينب، وبكل خطوة خطاها فى ارتكاب جريمته، وتهددته بالانتقام القريب. وعنونت المظروف بعنوان مقهى قشتمر وأودعته صندوق البريد بيدى. كنا نجتمع كل مساء بالمقهى، ومرة جاء النادل بالخطاب للصناديقى وهو يقول :

ـ تسلمته من عامل البريد صباحا.

تناوله الشاب بدهشة قائلا :

ـ أول خطاب يجيئنى فى المقهى. .

وعلى سبيل الاحتياط تنحى جانبا ليقرأه. أثار الخطاب اهتمام الجماعة لحظة ثم انخرطت فى السمر. وجعلت أنا أراقبه من وراء وراء ملهوفا على رؤية رد الفعل. هل يضحك ساخرا؟ هل ينفعل ويغضب؟ لا هذا ولا ذاك. وجم وسكن وانخطف لونه. غاض من وجهه التألق والعنفوان. جمد وخمد وكأنه نام. والتفت أحدنا نحوه متسائلا :

ـ خير؟

فأجاب وهو يدس الخطاب فى جيبه ويرجع إلى مجلسه :

ـ ليست خيرا على أى حال!

ـ لم والعياذ بالله؟

ـ مشكلة من مشكلات العمل، ولكن لا خطورة فى الموضوع.

ونظر فى ساعته ثم قام وهو يقول :

ـ يستحسن أن أقوم بزيارة عاجلة.

وحيًّا وانصرف. لم يعد ثمة مجال للشك. انكشف المجرم ولم أخطئ فى الحساب. ولكن ماذا بعد؟! لم يحضر فى اليوم التالى، ولا ما تلى ذلك من أيام. وسأل البعض عنه فى بيته، فقيل لهم إنه مشغول. وعلمنا بعد ذلك بأنه سافر فى مهمة عاجلة إلى سوريا، ولكنه لم يعد من مهمته حتى اليوم! واضطرت زينب إلى الإقامة مع أمها فى شارعنا. وعرفنا ـ بوصفنا جيرانا ـ أنها مرضت بمرض عصبى، وأنها تعالج بالطب، وعولجت أيضا بالزار، ولكن من دون جدوى.

هكذا انتهت أسطورة زينب الجميلة وبدأت رحلة زينب المريضة إلى الأبد. لم أشعر بالنصر أو الارتياح إلا لحظات عابرة. اعترانى قلق وتطايرت برأسى الهواجس وخيم على قلبى هم ثقيل. ماذا فعلت؟ ما جدوى ما فعلت؟... ما دور زينب الحقيقى فى المأساة؟ وماذا أفاد ضحية الليمان من هذا كله؟ حقّا تخيلت وحكمت على الآخرين ولكن كيف يكون الحكم علىّ أنا؟!

غدا تغرب الشمس

فقْدُ الطعام سحرَه وجاذبيته ليس بالحال العارضة التى يصبر عليها يوما أو يومين. وعليه فيجب أن يستشير طبيبه: طالما عد نفسه من السعداء لاقتناصه ستين عاما من الزمن وهو على أتم ما يكون من الصحة والعافية. وعلى رغم نشاطه المتواصل بوصفه رجلا من رجال الأعمال، فإنه لم يهمل جانب الأناقة والرياضة فى حياته الثرية، يتبدى دائما فى أجمل صورة ويحسن السباحة والتنس ولا تفوته الرعاية الدقيقة لصحته.

زار طبيبه بميدان الأزهار، وفحصه الرجل بعناية وعلى مهل، ثم قال :

ـ الكبد.

ندت عن يده حركة كالاحتجاج وخاطبه كصديق قائلا :

ـ أنت تعلم أننى معتدل جدا فى الشراب .

ـ لا بد من أشعة .

هذه الإجراءات هى ما تضايقه فى الطب الحديث، ولكن لا سبيل إلى التراجع . وصعد إلى الدور السابع بنفس العمارة مسبوقا بتوصية تليفونية . فالتقطت له صورة . ذهب بها إلى طبيبه فى مساء اليوم التالى . وقرأها الطبيب ثم قال بإيجاز :

ـ لا بد من تحليل الدم .

وساوره قلق جدى لأول مرة بوصفه ذا تجارب مأساوية سابقة فى أسرته . فقال :

ـ فى الأمر اشتباه؟

ـ سيسفر عن نتائج حميدة بإذن الله .

ومضى إلى معمل التحليل مهموما مغتما . وانغرزت الإبرة فى كبده مصحوبة بآلام لم يتوقعها .

وفى مساء اليوم التالى ذهب بالنتيجة إلى الطبيب، وقال للطبيب وهو يتفحصها :

ـ صارحنى بالحقيقة الكاملة . إنى مستعد لذلك .

فقال الرجل بجدية :

ـ هيهات أن يسهل خداعك . .

فقال متظاهرا بالبساطة :

ـ إذن فهو ما كنا نخشاه؟

أجاب بإيماءه من رأسه، فقال المريض :

ـ وإذن فلا شفاء ولا دواء ولكن مجرد مسكنات!

ـ بل يرجى إيقاف الورم وليس هذا بالإنجاز القليل .

ـ أتنصحنى بالسفر إلى الخارج؟

ـ ما كنت لأتأخر عن اقتراحه عليك لو أفاد .

وتفكر قليلا ثم سأله :

ـ هل يمكن أن تحدد لى المدة الباقية من حياتى .

فقال بعجلة .

ـ كلا . الأعمار بيد الله وحده .

ـ ولو على وجه التقريب؟

ـ كلا . كلنا أمام الموت سواء . وقد يسبقك إليه جميع الأصحاء من أصحابك؟

فقال برجاء:

- جنبنى الألم ما استطعت.

- هذا متيسر.

بين يوم وليلة. بل فى غمضة عين. مذهل. حقا مذهل. خاطب نفسه بقوة: «حذار من الانهيار». وقال لها أيضا: «سلمى بهذا الواقع كأى واقع آخر». من أول لحظة قال له عقله كلاما مليحا ولكنه لم يستطع أن يخلصه من قبضة الهزيمة والخوف والأسى. وقال له صديق:

- ليتك تستطيع أن تتناسى الموضوع.

فقال:

- هذا ما أحاوله. وإلا فلن أنجز شيئا.

أجل، أمامه واجبات معقدة كثيرة. أو كما قال لنفسه: «لولا الأسرة لقمت بسياحة حول الأرض غير مبال بشىء». وفكر أول ما فكر فى عمله، فتراءى له لأول وهلة أن يتخلى عنه لنائب عنه، ولكنه سرعان ما استبعد الفكرة ما دام أن العمل سيشغل وقته وينقذه زمنا لا يستهان به من الوحدة والأفكار المضادة. وانهمك فى توزيع ثروته ومشاورة محاميه بما يحقق الاستقرار لأهله وتوفير الضرائب التى يمكن توفيرها. ولم يبح بسر مرضه إلا لزوجته، أما الأبناء فقد رسم خطة لإعدادهم للنهاية دون إزعاج لا ضرورة له قبل الأوان.. وواصل ترشيده لهم فى الأمور التى تهمه كالجنس والمخدرات وشئون المال والعمل.

والحق أن انهماكه فى ذلك كله خفف من قسوة محنته، وبخاصة فى إبان حدتها وشدتها. واستعاد شهيته للطعام ولم يشعر بأى ألم مما هجست به نفسه. ومارس رياضاته المحبوبة باعتدال. ووجد امتنانا كبيرا للعلم وما أبدعه من مسكنات، ولم ينقطع عن ناديه وأصحابه ولا عن شجون الحديث فى الاقتصاد والسياسة. وكلما ألمت خاطرة سوداء ردد فى باطنه قول طبيبه وصديقه: «كلنا أمام الموت سواء». بل إنه مع مرور الزمن أخذ يؤمن بأن مرضه أتاح له فرصا لم تكن مهيأة له من قبل.

ألم يستعد لأمور كثيرة كان يمكن أن تترك معلقة وأن يشقى بها أهله؟ واعترف أيضا بأنه خفف من عبء الدنيا الذى حمله على كاهله طويلا وفى معاناة مستمرة. حقا ما زال يواصل عمله ولكن هان توتره العصبى الذى لم يرحمه جل حياته. إنه يعمل من أجل الدنيا ولكنه لم يعد أسيرا فى قبضتها. وانجابت عن وجدانه مخاوف كثيرة طالما ناوشته مع كل طلوع شمس. موت أول ابن له فى عز الشباب، ماذا يعنى الآن؟! حسده لأقران له أدَّوا دورا أكبر من دوره فى تاريخ وطنه. تدبير الدولارات اللازمة لشراء مستلزمات

الإنتاج. الركود الاقتصادى والخوف من العجز عن تسديد بعض الأقساط للبنوك. مستقبل البلد السياسى وما ينذر أمثاله من تقلبات مجهولة.

أجل يصح له اليوم أن يتساءل عما ينتظره بعد الموت. إنه لم يدخل فى حياته جامعا إلا فى مناسبة دعى فيها ضمن من دعوا ليكونوا فى شرف استقبال رئيس الجمهورية. لم يؤد فريضة دينية قط ولا يعرف عن دينه شيئا يذكر. ولكنه يعتبر نفسه من المؤمنين بالله ورسوله. ويؤمن بأن الله أرحم الراحمين بمخلوقاته. فضلا عن أنه لم يرتكب فى حياته إثما كبيرا، كما كان كريما مع الفقراء من أقاربه وأصدقائه. ولم يفكر فى أن يعرف من شئون دينه ما فاته خشية أن تفتح له المعرفة أبوابا تفسد عليه صفوه وطمأنينته إلى رحمة الله. أقنع نفسه بأن إيمانه البسيط سينقذه بلا حاجة إلى مزيد. ومرت له لحظات خيل إليه فيها أنه اليوم أسعد مما كان أمس.

وعجب لذلك عجبا شديدا. أكان يضمر كراهية لحياته الماضية على رغم الصحة والنجاح؟ أكان يجاهد وهو لا يدرى ليتحرر من قبضتها العاتية؟ هل ضاق بأن يعمل لدنياه كأنه يعيش أبدا وودّ أن يتعامل معها كأنه يموت غدا؟

وقال لصديقه يوما وهما يتناجيان:

ـ المرض لقننى درسا، وهو: أن الموت صديق فى ثياب عدو.

على ضوء النجوم

فى الصباح الموعود تجمع الفريق وهو على أتم الاستعداد. الشتاء يطوى ذيوله والجو ينفث فى الأرواح الحيوية والنشاط. ارتدى كل فرد بنطلونا صوفيا و«بلوفر» رماديا، وغطاء رأس من القطن الأبيض، وانتعل حذاء من المطاط. وجىء بشاحنة متوسطة فحملت بالأطعمة الجافة وقوارير المياه. وهل علينا رجل فارع الطول واضح الملامح مهيب الطلعة، مثلنا فى زيه كأنه واحد منا، غير أنه يطوق عنقه بقلادة تدلى منها صفارة فضية فوق صدره العريض. قال بصوت جهير:

ـ أنا مرشدكم، والله يوفقكم. هل اطلعتم على التعليمات؟

فأجبنا بالإيجاب، فعد ثلاثا ثم قال:

ـ سيروا ورائى على بركة الله.

فمضت القافلة تخترق الصحراء والسيارة تتهادى وراءها. رحلة كل عام ولعبته التى تجرى تحت رعاية اتحاد الأندية الرياضية. يسير الفريق وراء المرشد، وعلى كل أن يخمن

الواحة التى يقصدها، معتمدا على ما حصل من معلومات عن الصحراء، ومن يصدق تخمينه يحصل على الجائزة السنية. والجائزة لا تقسم، وينالها كل فائز وإن تعدد الفائزون. سرنا مع طلوع الشمس، يخيم علينا الصمت، نستذكر التعليمات حتى لا نخرج من السباق لهفوة عارضة، ونمارس ما أوتينا من قوة ملاحظة وفطنة ومعرفة يحدونا الأمل فى الفوز. المنظر يتمادى، وتختفى من أبعاده المعالم، ويمضى على وتيرة واحدة تبعث على الملل. وقاومت الرمال أقدامنا، واقتضتنا جهدا إضافيا، وثقل الوقت، وتساءلنا: ألا يوجد محطات للراحة؟ شعرنا بالحاجة إلى الكلام لولا أنه ممنوع، أما مخاطبة المرشد فتعتبر خطيئة. إنها رحلة ممتعة وواعدة، ولكنها شاقة أيضا، بل شاقة فوق ما تصورنا، ولا يخبرها بحق إلا من يكابدها. وحدث أن تبادل زميلان كلمة بسبب لا ندريه، وإذا بالمرشد يتوقف عن السير ويلتفت نحوهما كأنما رآهما بعين ثالثة، وقال بحزم:

ـ إلى السيارة.

قال أحدهما:

ـ سألته عود ثقاب لأدخن.

فقال المرشد بصرامة:

ـ التدخين ممنوع أيضا، اذهبا...

ولاح القهر فى وجهى الرفيقين، ولكنهما أذعنا لأمره مرغمين فرجعا إلى السيارة يجران ذيول الخيبة.

وقال بوضوح:

ـ واجبى لا يتضمن أى تساهل مع المتسيبين أو الكسالى أو المنحرفين..

وعند الضحى أوشك أن ينهكنا التعب. وفترت قوانا فى الملاحظة والمتابعة. ووضح لنا أنها رحلة شاقة بكل معنى الكلمة وامتحان قاس للكرامة وإن جرت فى إطار الرياضة. وتراءت لكثيرين لهوا ولعبا. واشتد الوقت وغلظ، وتاقت أنفسنا إلى لمسة من الراحة، وإذا بالمرشد ينفخ فى الصفارة ليشد الانتباه إليه، ثم يصيح بنا:

ـ عليكم أن تفعلوا مثلى.

واندفع يجرى جريا هادئًا مع رفع الساقين وتحريك الذراعين. حلمنا بدعوة إلى الراحة لا إلى مضاعفة الجهد. واضطررنا إلى محاكاته بقلوب حانقة ووجوه مكفهرة. وارتفعت الشمس نحو كبد السماء مرسلة أشعة ساخنة على رغم عذوبة الهواء. وتعثر شاب فندت عنه آهة وتوقف مغلوبا على أمره، فصاح المرشد:

ـ إلى السيارة!

هكذا خرج سيئ الحظ من السباق، وأمدنا خروجه بشيء من الصلابة والصبر، ولاحت عن بُعد صخرة عاتية، كأنها صغيرة، تشبه إلى حد ما رأس أبى الهول من الخلف، فاتجه الرجل نحوها، ولما بلغها نفخ فى الصفارة مرة أخرى ووقف، فوقفنا ونحن نلهث ونكاد نسقط إعياء، والتفت نحونا وقال:

ـ جلسة للراحة وتناول الغداء.

افترشنا الرمال، ووزع علينا رجال السيارة لفافات وقارورة صغيرة من المياه. وفى صمت جعلنا نحل أربطة اللفافات، فوجدنا رغيفا وبطاطس وقطعة من الطماطم وشريحة من اللحم البارد وبرتقالة. التهمنا الطعام بشهية عظيمة وارتوينا ثم استلقيا على ظهورنا طلبا للاسترخاء أو النوم. وسأل أحدنا المرشد ببراءة:

ـ هل يمكن أن أدخن سيجارة هنا؟

فقال الرجل بهدوء:

ـ اذهب إلى السيارة!

وجم الشاب، وندت عن جار له ضحكة ساخرة، فقال المرشد للضاحك:

ـ وأنت معه فورا!

ونظر الرجل نحوهما بتحد فلم يجدا بدا من الإذعان لمشيئته. وقام قبل أن ننال كفايتنا من الراحة فنفخ فى الصفارة، وعد ثلاثا، ثم واصل السير. تبعناه ساخطين وصامتين. أيكون هذا الرجل مثاليا أم ساديا؟! وقلت لنفسى: صدق من قال: إن السلطة تكشف فى صاحبها عن أحسن ما فيه وأسوإ ما فيه معا. وتذكرت من نصحونى بعدم الاشتراك فى هذا السباق، ولكنى لم أنس كيف يتباهى الفائز فيه بما أحرز على مدى العمر.

وأعملت فى الملاحظة والاستذكار جماع ما أملك من قوة ومعرفة. حقا إنه سباق يتطلب قوة فى الملاحظة وصلابة فى الإرادة وصفاء فى الذاكرة وتألقا فى الذكاء بالإضافة إلى ما يحتاج إليه من شدة الصبر والاحتمال والشجاعة وضبط النفس، وحسن السياسة مع مرشدنا الجبار. وسارع إلينا التعب وساورتنا الهواجس وتوقعنا من ناحية المرشد مفاجأة جديدة تفوق سابقتها فى عنفها. ومع ميل الشمس نحو الأفق انخفضت درجة الحرارة ونضح الهواء ببرودة غير مؤذية، وزادت سرعته فأنذر بهبوب عاصفة. ووهنت عزيمة شابين فتخلفا عن السباق باختيارهما ولاذا بالسيارة فى كآبة واضحة. وتساءلت فيما بينى وبين نفسى: ألا يجوز على هذا الرجل ما يجوز علينا من التعب؟ لماذا يبدو وكأنما قد من عجينة غير بقية البشر؟!

وحدث ما توقعناه، فغير الرجل إيقاع السير واندفع يجرى بسرعة جديدة مضاعفة. بدأنا الجرى والليل يهبط، وخضنا الظلام على ضوء النجوم الخافت معرضين طوال

الوقت لشىء نرتطم به أو شىء يرتطم بنا، أو حفرة نقع فيها أو منحدر ننزلق عليه. وتعذر علينا الاستمرار فى الملاحظة والتفكير حتى خيل إلى أن الحظ وحده كان وراء من فاز فى هذا السباق فى الأعوام السابقة. وأخيرا وبعد الإشفاء على اليأس انطلقت الصفارة وارتفع صوت المرشد آمرا بالوقوف. وقفنا ونحن من الإرهاق فى حال. ولعلنا لم نعد نطمح إلى الجائزة مؤثرين السلامة. وقال الرجل:

ـ العشاء، ثم النوم. نستأنف السير عند منتصف الليل، وبعد مرور ساعتين من التحرك تجمع البطاقات مسجلة عليها الأجوبة. نبلغ هدفنا بمشيئة الله عند طلوع الشمس...

وجىء بكلوب مضاء فعلق فى طرف عمود وغرز فى الرمال. وجدنا أنفسنا على مبعدة يسيرة من تل كبير. ووزع علينا العشاء وهو تكرار للغداء. كما وزعت علينا الأغطية والحشيات السفرى. واقترب المرشد من أحدنا ونحن نتناول طعامنا وقال له بخشونة:

ـ معك قارورة خمر جرعت منها مرتين! اذهب إلى السيارة.. وصرخ الشباب غاضبا:

ـ بيننا جاسوس دنىء..

فصاح به:

ـ هات القارورة واذهب إلى السيارة.

فقال بتحد:

ـ ليس معى قارورة.

ـ لا تعرض نفسك للتفتيش.

ـ لن أسمح لأحد بتفتيشى.

ـ لن تسمح؟!

ومد نحوه يده فدفعها الشباب بجرأة غريبة. عند ذاك لطمه على وجهه لطمة عنيفة طرحته على الأرض. وفجأة اشتعل غضبنا جميعا ولم نعد نبالى بالسباق ولا بالتعاليم. وتطايرت أصواتنا الهادرة:

ـ أى إهانة؟!.. لا نقبل الإهانة.. لكل شىء حدود!

تصفح الرجل وجوهنا بهدوء منذر، ثم قال:

ـ هذا تمرد عام، وإنى أعلن إلغاء الرحلة! سوف تحاكمون أمام مجلس إدارة الاتحاد، وسأنسحب فورا ودون تردد.

وذهب الرجل إلى السيارة يتبعه رجاله حاملين الكلوب . ولم تمض دقيقة حتى تصاعد هدير السيارة ، وتحركت بمن عليها حتى غابت فى الظلام تاركة فريقنا بلا مرشد . وقفنا جميعا فى دائرة واحدة ، ذاهلين من المفاجأة ، حائرين أمام وحدتنا الضائعة . ثم تفجر الحوار بيننا :

ـ كيف يجرؤ على تركنا فى الصحراء بلا مرشد؟!

ـ سنرفع خصومتنا معه إلى اللجنة العليا .

ـ ولكن علينا الآن أن نفكر فى موقفنا .

ـ نبقى فى مكاننا حتى يطلع الصباح .

ـ بل لابد من التحرك فكل دقيقة لها ثمنها .

ـ فى أى اتجاه يكون التحرك؟

ـ توجد ولا شك تخمينات شتى ، نقترع عليها ونأخذ بالأغلبية .

وتضاربت الآراء ولم يكد اثنان يتفقان على رأى . وبعد مناقشات عنيفة تمخض النقاش عن خمس فرق . ورجعنا إلى الحوار تحت وطأة المسؤولية الثقيلة :

ـ قد نتوه فنموت عطشا أو جوعا .

ـ أو نتعرض لوحش أو ثعبان أو قاطع طريق .

ـ لا مفر من المغامرة .

ـ ألا يحسن بنا أن نبقى فى مكاننا حتى يعثروا علينا؟

ـ لا تعلل نفسك بأمانىّ قد تصدق أو لا تصدق . لم يبق لنا إلا الاعتماد على النفس .

ومضت كل فرقة إلى وجهتها ، واضعة ثقتها فى رأيها ، يحدوها الأمل فى السلامة ، ينبسط أمامها مصير مليء بالاحتمالات كافة فى ذلك الليل البهيم ، وكأنهم على موعد مع طلوع الشمس .

الجرس يـــرن

نظر فى مذكرته ليراجع رءوس المسائل المطلوب إنجازها . هالته كثرتها . كلما ألقى عليها نظرة غبط من يستخدمون السكرتيرين لإنجاز الأعمال ولكن موارده لا تسمح بهذا الترف . ارتدى بدلته ليزور ابنته بعد انقطاع طال فى غمرة شواغله . ولما اقترب من باب الخروج رن الجرس فعجب للطارق على غير موعد فى هذ الساعة من الغروب . خاف أن

يشغله عن زيارة ابنته التى تنتظره للعشاء فمضى بخفة نحو العين السحرية ونظر فرأى وجهه واضحا تحت ضوء السلم. انقبض صدره انقباضا ثقيلا فتراجع إلى الصالة بنفس الخفة التى جاء بها عاقدا العزم على إهماله حتى يعتقد أن الشقة خالية فيذهب إلى حال سبيله. آخر من يود أن يلقاه وهو يعلم أن لقياه يعنى اختلال المواعيد وانقلاب الموازين. الجرس يرن، ينقطع وقتا ثم يعود إلى الرنين. متى يسلِّم بأن الشقة خالية؟ سيسأل البواب، سيقول البواب إنه فى الدخل، أو إنه خرج دون أن ينتبه إليه. الجرس مستمر معلنا تصميم صاحبه وعناده. ولكنه سيصمت عاجلا أو آجلا.

وانتقل إلى حجرة المكتب المطلة على مدخل العمارة. وقف فى الظلام وراء خصاص نافذة ليراه عند ذهابه يائسا. لاذ بالصبر حتى سكت الرنين تماما. لم يشهد خروجه، ولكن يحتمل أنه غاب فى زحمة الطريق. ذهب على أطراف أصابعه إلى العين السحرية ونظر. وخنقه الغيظ أن يراه واقفا فى هدوء. ماذا ينتظر؟! ولم كفَّ عن دق الجرس؟ هل شك فيه فتلفع بالصمت ليوقعه؟! ورجع إلى حجرة المكتب وهو من الحنق فى نهاية. وطلب ابنته بالتليفون.

ـ ألو.

ـ أنا والدك.

ـ مازلت فى البيت؟!

ـ صاحبنا واقف أمام الباب.

ـ أعوذ بالله.

ـ سأتركه حتى ييأس، ربما تأخرت قليلا.

ـ أنا منتظراك ومعى الأولاد.

ـ إلى اللقاء يا حبيبتى..

وقف وراء الخصاص يراقب الطريق. ولم يطل انتظاره هذه المرة. رآه يغادر العمارة ويتوارى فى الشارع الجانبى. تلقى دفقة منعشة من الارتياح والسرور. وتريث دقائق ليطمئن إلى ابتعاده تماما عن مجال تحركه. ومضى إلى الباب ففتحه. وإذا به يجده واقفًا ينتظر فى صبر وتصميم. ذهل. أدرك من فوره أنه خدعه وغلبه. وتمالك نفسه متظاهراً بالدهشة. وتمتم:

ـ أهلا.

تساءل الآخر وهو يدخل قبل أن يؤذن له:

ـ ألم تسمع الجرس؟!

ـ أبدا، قمت من النوم متأخرًا فهرعت إلى الحمام، ثم ارتديت ملابسى بسرعة لموعد مهم. آسف.

قال القادم:

ـ أزف الوقت، حسن أن أصادفك مستعدا، ولكن عليك أن تغير رباط الرقبة..

فقال باهتمام:

ـ ابنتى تنتظرنى الآن.

ـ مهمتنا لا تقبل التأجيل.

ارتبك، فى الوقت نفسه تنبه إلى وقوفهما فى المدخل، فقال:

ـ لا مؤاخذة.. تفضل بالجلوس فى الداخل.

ـ لا وقت لذلك يا عزيزى..

ـ لكنها مفاجأة غير مسبوقة بميعاد.

ـ من المتفق عليه أن أحضر فى الوقت المناسب دون ميعاد.

ـ يوجد أكثر من وسيلة لتنبيهى.

ـ أنت أول من يعلم بشواغلى التى لا تترك لى فراغا.

فتساءل برجاء:

ـ ألا يمكن أن نؤجل المشوار للصباح؟

ـ حقا إنى أبدو فظا، ولكن الأمر ليس بيدى كما تعلم.

ـ البنت كبيرة الرجاء فى أن ينهى محضرى الحل المناسب لمشكلة طارئة.

ـ يا سيدى الفرص لا تنقطع، وما أكثر المشكلات التى تُحل بلا حلاّل!

فقال برجاء أخير:

ـ لا شك فى أنك تعلم بمدى احترامى لك.

ـ علم الله أنها عاطفة متبادلة، ولكن العمل لا يرحم فضلا عن أنه ينجز لصالح الجميع.

ـ طيب، جارى أنت تعرفه طبعا، مشكلتنا واحدة، يمكن أن يحل محلى اليوم.

ـ لا.. لا.. لا.. دوره أبعد مما تتصور.

ـ هل يتغير نظام الكون إن لم نذهب هذا المساء؟

ـ بل فى هذه الساعة أيضا!

ـ إنك تحب النظام لحد الإدمان، ولكن الحياة تتطلب المرونة أحيانا.

ـ إنى أعرف واجبى تماما .

ـ ألا ترى أنها مفاجأة لم أستعد لها؟

ـ مفاجأة؟! حسبتك تتوقعها فى أى لحظة .

ـ هموم الحياة تنسى!

ـ أنا مثلك فى الضغوط ولكننى بفضل الله لا أنسى .

ـ كل شئ يتغير إلاّك .

ـ أحمد الله على ذلك .

رد قائلا :

ـ يا لها من مأساة!

ـ إنها أطيب فرصة تسنح .

ـ أتسخر منى؟!

ـ السخرية لا تتفق مع عملى! وفضلا عن ذلك فأنا أعرف أنك مقتنع بما نفعل .

ـ مقتنع أو مسلّم به، ولكن لا حيلة لى فيه .

ـ إنه قانون عام احترمته جميع الحكومات على اختلاف منازعها .

ـ ما شككت فى ذلك قط، ولكن ما أكثر الكوارث التى يجىء بها!

ـ لو لم يكن لتعرضنا لكوارث أشد. لا تضيع الوقت .

فقال بتسليم :

ـ دعنى أتلفن لابنتى معتذرا .

ـ لا . . آسف . . ضاع وقت كثير .

ـ دقيقة واحدة .

فهز منكبيه ضجرا وقال :

ـ ما عليك إلا أن تغير رباط الرقبة .

لما آنس منه ترددا مد يده فحل عقدة رباط رقبته . وأخرج من جيبه رباطا آخر مناسبا . وفرد ياقة القميص وطوقه به، ثم راح بعقده برشاقة ومهارة، وثنى الياقة . ألقى عليه نظرة فاحصة وقال بارتياح :

ـ غاية فى الأناقة .

تأبط ذراعه، ومضى به، ثم أغلق الباب .

وصية سواق تاكسى

لوحت للتاكسى بيدى فأقبل نحو موقفى فوق الطوار. جلست إلى جانب السواق وأنا أقول: «جريدة الفجر من فضلك». التفت الرجل إلى باهتمام حرت فى تفسيره. أيكون من الموظفين الذين يواجهون أعباء الحياة الجديدة بعمل إضافى؟ كلا، شكله يقطع بأنه ليس موظفا. رجل ضخم كأنه من رافعى الأثقال، ريان الوجه، غليظ القسمات، تطل من عينيه الحادتين نظرة قوية متحدية، ويده القابضة على المقود تذكر بالسلحفاة حجما وصورة. هيئته مستفزة معدة للمعارك. وسألنى بصوت خشن متهكم:

ـ جريدة الفجر؟!

فقلت متجاهلا تهكمه:

ـ نعم.

فقال باستهانة وقحة:

ـ طظ!

وقدر ردة الفعل السيئة فى نفسى فاستدرك:

ـ طظ فى الجريدة لا مؤاخذة، أنت لا شأن لك بالموضوع.

ـ أى موضوع؟

ـ عندكم كاتب اسمه الولد على علام!

فقلت مصححا:

ـ الأستاذ على علام من أنجح كتاب العمود اليومى.

فدوى صوته وهو يقول:

ـ طظ وطظ وطظ!

ـ لماذا؟!

ـ ليتك تبلغه رأيى، خذ رقم التاكسى، اسمى عتريس الغندور، وليته يغضب ويجىء لتأديبى فأسوى به الأرض ببصقة واحدة، وعد علىّ ونذر ألا أمد له يدا أو رجلا، بصقة تكفيه وزيادة.

أسفت على عجزى عن الغضب الواجب للفارق غير المحدود بين ضعفى وقوته، وقلت:

ـ لا أفهم شيئا، ولكنى مقتنع تماما بأنه لا ضرورة لهذا الغضب.

فقال وهو يزداد انفعالا:

ـ حضرته كتب عمودا عن السواقين الذين لا يشغّلون العداد، ثم حرض علينا وزير الداخلية.

فقلت بهدوء:

ـ هذا رأى، ولعله تلقى شكاوى كثيرة من الأهالى..

ـ أهالى؟! وهل يهمه أمر الأهالى؟! لمحته مرة فى سيارة قد المترو، منتفشا كالديك الرومى. ماذا يعرف عن همومنا ليشرّع ويحرض، ابن القديمة؟!

ـ لا.. لا.. من فضلك..

ثم بنبرة واضحة:

لو عرفته عن قرب لغيرت رأيك فى الحال.

فصاح:

ـ لو قابلته لشوهت وجهه حتى لتجهله زوجته.

ـ المسألة بسيطة، لماذا لا تكتب له بوجهة نظرك؟

فقال بصوت كالرعد:

ـ وما قيمته فى الدنيا إذا لم يعرف الحقائق بنفسه؟!.. هو صحفى أم سائح غريب؟ ألم يسمع عن الغلاء؟ وكيف تحدث رقيعا عن الفول والطعمية وهو لا يهمه إلا الويسكى والسيجار؟! اللعنة على كتاب درب الأغوات!

ـ الحق، والحق يقال، إنه من أصدق دعاة العدالة الاجتماعية..

فأصدر صوتا إسكندريا وضحك طويلا ثم قال:

ـ يا حلاوة!.. يا حلاوة!.. عدالة تجار العملة والمخدرات!

ـ عن كل شىء كتب.

ـ هل كتب عن أبناء «فلان» من أين لهم القصور والملايين؟

ـ لا تصدق كل إشاعة.

ـ إشاعة؟!.. وعلان الذى نشرت الصحف أنه سرق منه خمسون ألفا من الدولارات؟

ـ ما أكثر حملاته عن الانحراف والمنحرفين!

ومضى يعد أسماء رجال ونساء، ثم قال:

ـ يا خبر أسود يا هوه . . ينسى كل هؤلاء ويتشطر على عداد التاكسى . . ؟!
وضاق صدرى، فقلت: «اسكت!»، لعله يسكت، ولكنه لم يسكت وواصل:
ـ إذا خاف الكاتب فلا يصح له أن يزعم أنه كاتب . .
عدت إلى الكلام مضطرا فقلت:
ـ توجد حدود . . أنواع من الرقابة الداخلية . .
ـ والرجولة؟! . . عليه أن يرفض!
فكرت فيما يجب قوله، ولكنه سبقنى قائلا:
ـ ستقول الحياة . . المعيشة . . الأولاد؟!
ـ أظن أنها هموم حقيقية.
ـ عظيم . . سلمنا . . وإذن فلا يحق له أن يهاجم عداد التاكسى . . ويجب عليه أن يرتدى فستانا وحجابا وحذاء بكعب عال ويقول أنا مرة . . !

الميدان والمقهى

١

الصباح مشرق، السماء صافية، الربيع يزفر فيفعم الجو حلاوة. الميدان يستيقظ بدوره الحديثة وآثاره العتيقة، الدكاكين تفتح أبوابها، الألبان والفطائر تزهو فى معارضها، المقاهى تستقبل العاملين والخاملين. جلست مع الشاى الأخضر أراوح بين النظر والتذكر، مستمتعا بالصحة والأمل وأحلام الشباب. لم يخل المناخ مما يكدر، الصفو، فهذا رجل ذابل العينين من البكاء والسهر، يسأل عن مكتب الصحة، وهذه امرأة طاعنة فى السن تتحرى عن أقصر السبل إلى سجن مصر، ولكنها تذوب فى حوادث كل يوم. فى الوقت نفسه يتهادى صوت أم كلثوم من الراديو ليسعد صباح السامعين. أحتسى الشاى وأطرب وأنعم بالسمر مطمئنا إلى أن الأكدار عابرة وأن الجمال أبدى لا يذعن لمشيئة الزمن.

٢

انتصف النهار . وجاء الكباب . وراح النادل يرفع الإبريق والأكواب ويعد المائدة للغداء .

وقال صاحبى :

ـ الزحام اليوم عجيب .

فقلت دون مبالاة :

ـ الميدان دائما عامر بالخلق .

ـ ولكنه اليوم خرق المألوف .

وتدخل النادل فى الحديث متشجعا بالمودة القديمة ، قال :

ـ الناس يتغيرون ، ليسوا كما كانوا . . . .

قال صاحبى :

ـ سبحان من له الدوام .

فواصل النادل :

ـ وتسأل أحدهم عما غيره فينكر ويتهم الآخرين ، صدقنى الدنيا انقلب حالها .

ـ أخذنا نتناول طعامنا وأنا أفكر فيما سمعت . وقلت بنبرة مهدئة :

ـ هكذا الناس فى كل زمان ومكان .

٣

ما بين الظهيرة والعصر كففنا عن السمر وحملقنا بأعين ذاهلة فيما يقع . تساءل صاحبى :

ـ أهذا زحام كل يوم؟

فقلت معترفا .

ـ كلا ، ولا فى المواسم!

الزحام يتكاثف بصورة مذهلة . الأرض تختفى تماما تحت أقدام الرجال والنساء

والأطفال. الدكاكين مكتظة بالزبائن. الضوضاء ترتفع فى سباق مزعج مع الراديو. أى إقبال على الشراء كأنما يخزنون أو يهاجرون. تيار لا ينقطع من أمواج صاخبة مصطفقة. ويتم كل شيء بسرعة ولهوجة تثيران الريب. ضاعت توسلات الشحاذين فى الهواء. انفجر مولد البيع والشراء والأنات الضائعة بلا نهاية. وتمتم صاحبى:

ـ يا خفى الألطاف نجنا مما نخاف.

وضحكنا، وكان الضحك منا سفاهة.

٤

ما بين المغيب والعتمة سارع الناس إلى التفرق والاختفاء. وفى الهرج والمرج توترت الأعصاب فنشبت معارك لسانية ويدوية. ومضت الأمواج تنحسر ويعقب المد الشديد جزر أشد فتلاشت الأصوات. خلا الميدان تماما وهو الذى لا يخلو إلا فى الهزيع الأخير من الليل. فكرت فى أن أقوم لأسأل جندى المرور ولكنى رأيته مشدود الأعصاب مكفهر الوجه فآثرت السلامة. وإذا بالدكاكين تغلق أبوابها والبيوت نوافذها فيغلب الظلام ويسود الصمت، ويتبادل رواد المقهى نظرات حائرة:

ـ ماذا حصل للدنيا؟!

ـ ها هى ذى الجرائد ليس بها شيء..

ـ ولكن فى الجو شيئا ولا شك...

ـ يجب أن نذهب، ماذا يبقينا بعد الآن؟

ـ ننتظر نشرة الأخبار.

ـ تجمّعنا خير من عدمه.

ـ البيوت؟.. ومن فى البيوت؟!

وقام رجل وهو يقول:

ـ قلبى يحدثنى...

ولم يتم كلامه وأشار بيده إشارة غامضة ثم ذهب. وشجع ذهابه المترددين فتسللوا واحداً فى إثر واحد. وسرت مع صاحبى ونحن من القلق فى نهاية. وقال صاحبى:

ـ رأسى يدور فبالله حدثنى عما حدث؟

فقلت بنفاد صبر:

ـ ما حدث قد حدث، ولكن ماذا عما لم يحدث بعد؟!

المـــــرة القادمـــة

توثبنا للعمل من قبل أن تطلع الشمس . وتألقت الأعين بالنشاط والحماس والأمل . وقلت بحزم ومحبة معًا :

ـ إنه يوم الامتحان ، وعند الامتحان يكرم المرء أو يهان .

وبهمة عالية تناول كل فرد من أسرتنا مكنسته وراح يكنس حجرته بعناية وأمانة . وبماشى الحديقة الصغيرة كنسناها وغسلناها أيضًا ، وشذبنا الأشجار فنزعنا منها كل ورقة جافة . وأخذنا المنافض وجعلنا نجلو المقاعد والستائر والأخونة والنوافذ والمصابيح والتحف حتى لمع كل شيء وابتسم . ورششنا الجو بالنفاثات العطرية فانتشرت روائح الورد والبنفسج والقرنفل فى الحجرات ونظمنا الورد فى الأصص وأعددنا الصوانى والآنية فتجلى البيت كأنه متحف قبل أن ينتصف النهار . وهرعنا إلى المطبخ ليقدم كل ما يملك من معونة ، اختصت ربة البيت بالطهى ولكن بقى لنا مجال فى غسل الخضر وتقشير البطاطس والبصل ونقع اللحوم وصنع السلطات وغسل الفاكهة . فعلنا كل شيء ونحن من السرور فى نهاية . وتناولنا غداء خفيفًا فى المطبخ .

واسترحنا ساعة بين النوم والاسترخاء . وأقبلنا على الحمام تباعًا وفى مقدمتنا الإناث . تطهرنا ولبسنا ثيابنا الجديدة . ومشطنا شعورنا وتطيبنا . وصرنا فى أحسن تكوين . وكان جو الربيع نقيًا لطيفًا فتجمعنا فى الحديقة وفتحنا الباب على مصراعيه وانتظرنا . وربما ساور ربة المنزل هاجس قلق فتمضى إلى الداخل لتلقى نظرة ناقدة على الأشياء ولتطمئن إلى كمالها . وأكثر من صوت قال :

ـ ليس فى الإمكان أبدع مما كان .

وعلى سبيل الترشيد قلت :

ـ عندما تصل السيارة أهرع أنا وأمكم إلى الباب لنكون فى شرف الاستقبال ، أما أنتم فتصطفون فى نظام الجنود وأدب السفراء ، ثم يكون تقدمكم واحدة فواحدة وواحدًا فواحدًا ، ولينطق كل بما حفظ عن ظهر قلب فى أدب وخشوع وامتثال . . . .

وقالت الأم :

ـ سنسير بين يدى سيادته حتى مجلسه فى صدر المثوى ، نظل واقفين حتى يشير إلينا بالجلوس فيتخذ كل مجلسه ، سيلقى أبوكم كلمة موجزة للترحيب ، وإذا وُجِّه إلى

أحدكم سؤال فليجب بالحياء الواجب وبالقدر الملائم، وإن جاد علينا بملحة فالابتسامة أولى بنا من الضحكة . .

وقلت :

ـ لن أذكركم بآداب المائدة ولا تنسوا ما زودنا به أنفسنا من معلومات إن خطر لسيادته أن يختبرنا!

وقالت الأم :

ـ وحذار أن تتجاوزوا حدود الأدب إذا شاء أن يتبسط معنا فى السمر أو رأى أن يخص أحدنا بتأنيب أو زجر . . وعلينا أن نصدع بما يأمر دون تردد أو حذر .

وقلت مشجعا ومذكرا . .

ـ إنها فرصة العمر، فلنسأل الله السلامة والتوفيق .

وجلسنا ننتظر بأعين تتطلع إلى الباب من خلال أشجار الورد . نحلم بما سنفعل أو نقول، ونحلم بالنعمة التى سيجود بها القدر . وانتظرنا . . وانتظرنا . . وانتظرنا . واشتد الشوق والوجد، وتناهى الصبر . وقلنا يا نسائم الربيع احملى إلينا السيد المنتظر . ولكن خطوات الوقت مضت تثقل والزمن يتمطى ويطول والأعصاب يعتريها الألم . وكلما سمعنا أزيز سيارة أو نفخة بوق قمنا نسوى من هندامنا . وغبنا حتى الذوبان فى المجهول المتمادى أمامنا . ومن حومة الجزع ارتفع صوت أحد الأبناء متسائلا :

ـ ألم يحدد ساعة حضوره؟

فقالت الأم :

ـ حسبه أنه تفضل بتحديد اليوم .

فغمغم الشاب فيما يشبه الضجر :

ـ ما أطول اليوم!

وأخذ النور يخف ويتوارى، والمغيب يرسل ألوانه الهادئة الرزينة المليئة بالشجن . وتطلع نحونا الأبناء فى صمت وتساؤل، فقلت بثقة :

ـ إنه لا يخلف الميعاد .

ـ مع التأخير ستقل فرص السمر .

فقلت وكأننى أوجه الخطاب لنفسى أيضا :

ـ ما أشقى من لا ينعم بنعمة الصبر!

وانتظرنا . وزحف الليل بجحافله، وهبط الظلام مشبعا ببرودة . وعند ذاك ارتفع أول احتجاج يجىء من أصغر الأبناء :

ـ ضاع الوقت وخسرنا مسرات اليوم من دون جدوى .

وهتفت به مؤنبا ومداريا ضيقى :

ـ ما أفظع ما تقول !

فقال بعناد :

ـ فى انتظار نعمة كبرى ضيعنا النعمة المتاحة . .

فنهرته أمه :

ـ هذا هو الهذيان . .

ولكن بتوغل الليل وتماديه فتر الحماس وتراجع الأمل ، وغلب الظن بأننا لم نحسن فهم المكالمة التليفونية . ولم ندر ماذا نفعل ، ولا ماذا نقول . وانسحبت الفتيات بهدوء إلى الداخل وشغلن التليفزيون . وما لبث الأبناء أن غادرونا ، فذهب أولهم إلى النادى ، والثانى إلى المسرح والثالث إلى ملهى فى الهرم . وتبادلت مع الأم نظرة مثقلة بالخجل وخيبة الرجاء .

وآوينا إلى حجرتنا وأنا أقول :

ـ يلزمنا حبة من الحبوب المنومة !

وجمعتنا سفرة الإفطار فى ضحى اليوم التالى . تجنبنا الإشارة إلى مأساة الأمس . ورن جرس التليفون فقامت الأم إليه ، ثم رجعت فى غاية من الانفعال والاضطراب وهى تصيح :

ـ واخجلتاه !

وحدجناها بنظرة متسائلة فقالت بنبرة باكية :

ـ سكرتير السيد ، قال إن سيادته جاء فى ميعاده فوجد البيت نائما فرجع . أردت أن أشرح له ما حدث ولكنه كان قد أغلق السكة . . هتفت بصوت كالأنين :

ـ يا للعار !

فقال ابنى :

ـ لا ملامة علينا ، أكان يجب أن ننتظر حتى الصباح ؟ !

فرجعت أقول بأسى :

ـ يا للعار !

ـ ولكنا فعلنا الواجب وزيادة .

فقلت وقلبى يتقطع من الحزن :

ـ بل لم نصبر بما فيه الكفاية .

وأخذت الأم تنشج باكية فقلت معزيا :
ـ لا جدوى من البكاء ، ثم إننى ألمس فى اتصاله الجديد بنا توبيخا لا يخلو من العناية .
فتساءلت ابنتى :
ـ هل يمكن أن يقرر الزيارة من جديد؟
فقلت على سبيل العزاء لهم ولى معا :
ـ كل شىء ممكن ، وليسدد الله خطانا فى المرة القادمة .

القضـــــية

دهمتنى قضية من حيث لا أدرى . زوجة أبى تطالبنى بنفقة شرعية . استيقظت من غيابات الزمن وغزانى الماضى بذكرياته . وهتفت بعد أن قرأت عريضة الدعوى : «متى أفلست»؟ . . . . . هل سرقت بدورها؟ وقلت لمحامى :
ـ هذه المرأة سرقتنا وحرمتنا من حقنا المشروع .
أفلتت منى رغبة قوية فى رؤيتها . لا بإغراء الشماتة ولكن لأرى ماذا فعل الزمان بها . هى اليوم مثلى فى الأربعين ، فهل صمد جمالها للأيام؟ وهل يثبت أمام الفقر؟ لولا صدق دعواها لما مدت يد السؤال إلى عدو من وكر الأعداء ولو كانت كاذبة فلم لم تمدها من قبل؟ شد ما كانت جميلة فتانة . قلت للمحامى :
ـ تزوجها أبى وهو فى منتصف الحلقة السادسة وهى بنت عشرين . مقاول بناء شبه أمى ، دقة قديمة ، لايتعامل مع البنوك ، يكنز أرباحه فى خزانة كبيرة بحجرة نومه . نسعد بذلك طالما أننا أسرة واحدة . وينفجر نبأ الزواج الجديد بيننا مثل قنبلة . أمى وأخى الأكبر وأنا وأخواتى فى بيوتهن . وينفرد الدور الأعلى بأبى والعروس والخزانة ، صعقنا لحداثة سنها وجمالها . وقالت أمى بصوت متهدج باك :
ـ يا للخراب! سنخرج من المولد بلا حمص .
أخى الأكبر أمى ، متخلف العقل ، بلا عمل وإن اعتبر نفسه من الأعيان ، اشتعل غضبًا وقال :
ـ سأدافع عن نفسى حتى الموت .
نصحنا بعض الأقارب باستشارة محام ولكن أبى هدد أمى بالطلاق عند أى مبادرة ، وقال لنا :

ـ لست غرّا ولا أبله ولن يضيع حق .

أنا أقلهم تأثرًا بالكارثة ، لحداثة سنى ولأنى الوحيد فى الأسرة الذى رغب فى التعليم حتى التحقت بالهندسة ، ولكن لم تخف عنى معانى الحوادث مثل سن أبى وعروسه الحسناء والثروة المهددة . وعلى سبيل التلطيف أقول :

ـ إنى مطمئن إلى أبى . . .

فيقول أخى :

ـ إذا سكتنا فسنجد الخزانة خاوية .

أشاركه مخاوفه ، وأتظاهر بغير ما أبطن ، وأشعر طيلة الوقت بأن الواحة التى كانت مطمئنة تعصف بها ريح عاتية ، وتتجمع فى أفقها سحب سوداء . لاذت أمى بجحر الصمت والخوف وأنذرها الغد بسوء المصير . أما أخى الأكبر فيقتحم عرين الأسد ، ويتوسل إلى أبيه قائلاً :

ـ أنا البكرى ، جاهل كما ترى ولا مورد لى ، أعطنى نصيبى . . . .

فيقول أبى :

ـ تريد أن ترثنى وأنا حى ؟ ! عيب أن تشك فى ، ولن يضيع حق .

لكن اضطراب أخى لم يسكن ، يلح على أبى كلما لاقاه ، ويقذف بتهديداته من وراء ظهره .

وتقول أمى إنها تخاف على أخى أكثر مما تخاف على الثروة . وأتساءل : هل ينهزم أبى أمام بنت حلوة ؟ ذلك المعلم القادر المحاسب المدقق على رغم أميته ؟ ! ولكنه يتغير بلا شك وينزلق كل يوم درجة . يختلف إلى الحمام الهندى مرتين فى الشهر ، يهذب لحيته ويحف شاربه كل أسبوع ، يرفل فى ثياب جديدة ، وأخيرا يصبغ شعره . هداياه الثمينة تشى بحسنها حول عنق العروس وفوق صدرها وحول ساعديها . وهاهى ذى الشيفروليه والسواق تنتظر أمام بيتنا . ويجن أخى الأكبر ويزداد جنونا . يقول لى :

ـ من أين جاء بها ؟ هل يعز عليها أن تهتدى إلى مفتاح الخزانة وطريقة فتحها ؟ ألا تأخذ منه ما يؤمن حياتها ؟ ألا تستطيع أن تسعده إذا شاءت أو أن تقلب حياته غمّا ونكدًا ؟ ويتطور الجدل بين أخى وأبى فيخرق تقاليد الأدب . يغضب أبى فيبصق على وجهه . فى ثورة متفجرة يتناول أباجورة ويقذف بها أباه فيهرق دمه . ويرى الدم فيفزع ، ولكنه يتمادى محاولا القضاء عليه . يحول بينهما الطاهى والسواق . يصر أبى على إبلاغ الشرطة فيحمل أخى إلى المحكمة ثم إلى السجن حيث يموت بعد انقضاء عام واحد . وأقول للمحامى :

ـ كيف وجدت الشجاعة على رفع دعواها ؟

فيقول الرجل :

ـ للضرورة أحكام .

وفى حومة قلقنا وحدادنا نسمع صواتا مفزعا ينقض علينا من الدور الأعلى . نهرع أنا وأمى دون استئذان لنقف مبهوتين أمام جثة أبى . ونتساءل ونتساءل كالمألوف ، ولكن أى تساؤل يجدى مع الموت ؟ ! وتتسرب إلينا الأنباء بأنه سقط مشلولا قبل الوفاة بيوم كامل دون أن ندرى . وننتظر حتى يوارى فى مدفنه وتنتهى طقوس العزاء . وتجتمع الأسرة فينضم إلينا أخواتى وأزواجهن وينضم إليها أبواها ، ويحضر أيضا المحامى . نسأل عن مفتاح الخزانة فتجيب ببساطة إنها لا تدرى عن ذلك شيئا . أحيانا وقاحة الكذب تفوق كل خيال ، ولكن ما الحيلة ؟ ونعثر على المفتاح ، وتبوح الخزانة بسرها الأخير مبدية لنا فى سخرية بالغة عن رزمة لا تتجاوز خمسة آلاف جنيه عدا ! وتهتف الحناجر :

ـ إذن فأين ثروة الرجل ؟ !

وتحدق بالجميلة الأعين فتثبت لوقعها بتحد . ونلجأ إلى الشرطة . ويكون تحقيق وتفتيش ، وكما قالت أمى نخرج من المولد بلا حمص . وتذهب الزوجة الجميلة إلى بيت والديها ويسدل الستار عليها وعلى التركة . وتموت أمى ، وأعمل وأتزوج وأحقق نجاحا مرموقا ، وأتناسى الماضى حتى ترجعنى إليه القضية . وأقول للمحامى :

ـ قمة السخرية حقا أن تفرض علىّ نفقة لتلك المرأة .

فجاءنى صوته من بين الأضابير فوق مكتبه قائلا :

ـ القصة القديمة تصلح فى الظاهر منطلقا للعرض ولكن ما جدوى نبشها ونحن لا نملك دليلا عليها ؟

فقلت بحماس :

ـ القضية القديمة غير معروضة للبحث ولكنها مدخل طيب له تأثيره الذى لا يستهان به .

ـ بالعكس ، سنهيئ لمحامى المرأة فرصة للهجوم واستدرار العطف .

ـ العطف ؟ !

ـ حلمك ، فكر معى بشىء من الحياد ، عجوز يكنز ثروته فى خزانة بحجرة نومه ، يشترى صبية جميلة فى العشرين وهو ابن خمسة وخمسين ، يحدث لأسرته كيت وكيت ، ويحدث لزوجه الجميلة كيت وكيت ، عظيم ، من يكون الجانى ؟ !

صمت مقطبا مغتما ، فواصل :

ـ لنمض فى سبيل آخر ، فأنت رجل منتج وذو أسرة وتكاليف الحياة أبهظ من أن يحتملها إنسان إلخ إلخ ، وحسبنا أن تقرر نفقة معقولة .

ورحت أتمتم :

ـ يا للخسارة! . . سرقتنا وموت أخي وحسرة أمي!

ـ آسف . . إنها ضحية مثلكم ، حتى الثروة التى نهبتها دفعت بها إلى كارثة ، وهاهى ذى تتسول .

فقلت مدفوعا بحب استطلاع طارئ :

ـ كأنك تعرف عنها أشياء؟

هز رأسه فى غموض دبلوماسى وقال :

ـ امرأة عقيم ، تزوجت وطلقت مرات وهى فى عنفوان جمالها ، وفى كهولتها وقعت فى غرام طالب ، نهبها بدوره ، ثم ذهب!

لم يفصح عن مصادر معلوماته ولكنى حدست منطق الحوادث المتتابعة ، وداخلنى ارتياح منعنى الحياء من إعلانه . وفى يوم الجلسة عاودنى الشوق الغامض لرؤيتها . عرفتها وهى منتظرة أمام غرفة المحامين . عرفتها بالحدس قبل الحواس . فالجمال الذى نهب ثروتنا وأتعسنا تلاشى تماما . تبدت مفرطة فى البدانة لدرجة غير مقبولة ، وغاض من صفحة وجهها ماء السحر ، والبقية الباقية من جمالها تراءت بلا روح ، وحجبتها عن الناظرين مسحة من الكآبة الدائمة . ومن دون روية مضيت نحوها ثم أحنيت رأسى تحية وقلت :

ـ تذكرتك ، فلعلك تذكريننى! . .

رمقتنى بدهشة لأول وهلة ، ثم بارتباك . وردت التحية برأسها المحجوب ، وقالت كمن يعتذر :

ـ آسفة لإزعاجك ، ولكنى مضطرة!

ونسيت ما أردت قوله ، بل أرتج على الكلام ، وحل سلام ، فقلت :

ـ لا بأس عليك ، وليفعل الله ما يشاء .

وابتعدت عنها فى هدوء وأنا أقول لنفسى :

ـ لم لا؟ . . حتى المهزلة يجب أن تتم فصولا . .

ذقن الباشا

متى فتح هذا المقهى؟ علم ذلك عند الله. لم يخطر لى أن أطرح هذا السؤال فى الزمن القديم. فى صباى كنت أعبر الطريق أمامه كثيرا فى الذهاب والجيئة كأكثر أبناء العباسية. وكانت تشع منه إلى صدورنا هيبة وإجلال، فنمضى إذا مضينا ناحيته بسرعة وأدب متحاشين النظر إليه حيث يجلس الآباء ونخبة من مدرسى مدرستنا بكل ما يحملون بين جوانحهم من وقار ورهبة. وهو صغير إذا قيس إلى مقاهى وسط البلد أو حتى مقاهى السكاكينى. مستطيل الشكل، أنيق المنظر، تقوم فى عمقه المنصة الرخامية والموقد، ويعلوها رف أول تصطف فوقه برطمانات البن والشاى والسكر والقرفة والزنجبيل والكراوية والأنيسون، ورف ثان تتجاور فوقه النراجيل البيضاء الشفافة والكحلى الزاهية. أرضه مدكوكة بالبلاط المعصرانى وجدرانه وسقفه زرقاء صافية، وفى منتصف الجدارين المتقابلين تلتصق بالغراء والمسامير المذهبة مرآتان مستديرتان مصقولتان مؤطرتان بالأبنوس. وثمة طابوران من الموائد الرخامية المتواجهة على الجانبين ولوازمها من الكراسى الخيزران. أما الطوار أمام المقهى فمزروع ببلاط صغير ملون، ويمتد فوقه صفان متوازيان من الموائد فى مركز الوسط منها تنطلق شجرة لبخ فارعة تتهدل فوقها أغصانها حانية، وبها شهر المقهى باسم «دقن الباشا» على حين أن لافتته تحمل اسم صاحبه «سيد كنج»، ولا أحد يعرف أصل لقبه، ولكن الجميع يسلمون بسطوته على الأحياء الشعبية المجاورة.

وعلى الرغم من عبيره البلدى، ومن أن النُّدُل العاملين به يسعون فى الجلاليب حفاة الأقدام، فإنه امتاز بالنظافة المطلقة فى أرضه وجدرانه وأدواته كما عرف بجودة مشروباته. إنه مجمع أهل الوقار من الآباء والمدرسين. وفى مواسم الانتخابات يهرع إليه المرشحون من الباشوات يخطبون ود صاحبه المهيمن على الناخبين فى الحوارى والأزقة. ودائما يسبح فى هدوء، فالحديث يتجاذب فى تؤدة والضحكة تند بحساب والحوار السياسى يمضى فى وفاق وانسجام وصورة سعد زغلول تطل على الجميع من موضعها فوق النراجيل وهو منتصب القامة فى بدلة التشريفة المحلاة بالقصب.

* * *

وتغير سكان المقهى، بصورة غير ملموسة أول الأمر، ثم وضحت المعالم قبيل الحرب العالمية الثانية وفيما تلا ذلك من أيام. رحل الآباء والمدرسون أو لم يبق منهم إلا نفر من المعمرين. واكتسبنا مع تقدم العمر والتوظف الحق فى اقتحام أجمل مقهى فى حينا.

جلسنا مكان الآباء وشربنا القهوة والشاى ودخنا النارجيلة وخضنا فى أحاديث السياسة والحب والجنس بأصوات مرتفعة تترامى أحيانا إلى الطريق. ولم نعد نجفل من المعمرين من أساتذتنا، فأقبلنا عليهم نصافح ونتوادد ونتبادل الذكريات، وربما مازج حوارنا المزاح، بل منهم من شاركنا اللعب بالنرد، ولكن حظى كل واحد منهم بحقه الكامل فى الاحترام. وهلت علينا مشكلات جديدة فتنوعت أحاديثنا بين الدستور والغلاء واليمين واليسار والملك والوفد والإنجليز والجلاء وفلسطين واليهود. ولم يوقف ذلك مسيرة الحياة الطبيعية، فعشق منا من عشق وتزوج من تزوج وأنجب من أنجب، واستفحل التشكى وانفجر النقد.

ولم يسلم من ألسنتنا رجل أو امرأة أو حزب. وحتى النُّدُل الحفاة شاركوا فى الكلام بعد أن خفت رقابة سيد كنج لطعونه فى السن وتوغله فى الضعف وزهده فى الانشغال بالحياة اليومية.

وجاء وقت فبدا أن كلا منا قد أصبح حزبا قائما بذاته له أهدافه ووسائله، وتسلل الشيب إلى الرءوس، ورحل آخر المدرسين المعمرين. وتوترت أعصابنا يوم توفى سيد كنج واحتل مكانه فى الإدارة ابنه الأكبر الشافعى. من جيلنا كان، فأسدينا إليه النصيحة بأن يحافظ على سمعة المقهى، وأن يعنى عناية خاصة بالنظافة وجودة الأصناف، وألا يتهاون فى سمعته طمعا فى مضاعفة أرباحه كما يفعل قصار النظر. ووعد الرجل، وأنجز ما وعد بصفة عامة فلم يطرأ على المقهى إلا تغير طفيف يمكن التسامح معه كما اعتدنا أن نتسامح مع كل مكروه يجد.

* * *

وزحف الجيش بثورته، فانطوت صفحة وانبثقت صفحة جديدة. وتفجرت ينابيع الأمل وتضاربت الخواطر. وباتت جماعتنا ركن المقهى الركين، وقاعدته الثابتة. وكالمنتظر تسلل إلى الأركان شباب صاعد، واشتبكت حباله بحبالنا بحكم الجوار والعشرة. ومع تتابع الأمجاد اعترضت أزمات كما عودنا التاريخ، وحملقت أعين الأمن تطارد الخوارج، ونادى أهل الحكمة بيننا: حذار من السياسة وحديثها يا محبى السلام والسلامة. وعقدنا العزم على ذلك ولكن اجتاَحنا الإغراء وألح علينا كحكة الجرب. وقبض على نفر منا لتهور التعبير ونزقه، فتعلمنا التفاهم بالهمس والإشارة والرمز ونحن نستعيذ بالله من المهالك. وكلما بدا وجه غريب رمقناه بحذر، وإذا طرح شاب سؤالا محرجا تساءلنا: ترى ماذا وراءه؟ وحدثونا عن أجهزة التسجيل التى تلتقط الخواطر من بعيد، حتى اقترح البعض أن نقبع فى دورنا آمنين. وعجزنا عن تنفيذ ذلك، وقلنا إنه لا غنى لنا عن سلوى اللقاء، وأن الأمان متاح لمن يصون لسانه.

وكدر صفونا الشباب الصاعد بتعاليه علينا، وتجاهله لماضينا، وازدرائه لأمجادنا.

نحن لا ننكر المعجزات التى تقع، ولا الانتصارات التى تتحقق، ولا انطلاق الأيدى القوية لتحرير الشرق والغرب. ولكن ما الداعى إلى إنكار أمجاد سلفت وانتصارات سبقت؟! وتجنبنا مع ذلك الخصام، وتراجعنا عن العناد، واستبشرنا خيرا بالغد وما بعده. وكنا إذا تحدانا سؤال مستفز مثل: «من يكون سعد زغلول؟»، أجبنا بكل تواضع: «كان محاميا ناجحا»، أو «من يكون مصطفى النحاس؟»، قلنا بمنتهى اللطف «كان تاجر منى فاتورة بالغورية». قلنا لا داعى لتكدير الصفو بالجدل العقيم، ولنترك للتاريخ ما ينفرد بتصحيحه عندما يشاء، ولنشارك فى الفرحة الشاملة بكل بناء يقوم أو عدالة ترسخ.

* * *

ودهمنا ونحن فى غفلة يوم ٥ يونية الأسود. تطايرت آمالنا أشلاء وشظايا ثم سقطت فى أعماق بئر من رماد عفن. تحوّل سكان المقهى إلى أشباح تهيم فى وادى الظلام مهمهمة فى هذيان متواصل. الحزن شامل، الحزن باك. الحزن ساخر. لم يخل حزننا من تمرد. أما حزن الأصدقاء الجدد فتلقفته دوامة الضياع. قالوا لنا بنبرة جديدة: «حدثونا عن دنياكم كيف كانت؟». ليكن، فالحديث هو السلوى المتاحة، ولكن ما جدواه؟وسألونا أيضا: «ما حكمة خلق الإنسان فى هذا الوجود؟». وتراكمت الإجابات مثل تل من الهواء.

واستمر الحديث واستمر الزمن. تراجعنا إلى ركن الشيوخ وانبسطوا فى كل مكان. وحدثت أمور. وواصلت الحياة العطاء والموت الإفناء. وارتفع شعار الانفتاح، فريق هاجر بلا أسف، وفريق ارتفع تحوطه الريب، وفريق عوى عواء الذئاب. لم نكن نفرح بالنصر إلا يوما أو بعض يوم. ولا بالسلام إلا ساعة أو بعض ساعة. وانصبت الأحاديث على الخيار والطماطم والرغيف، وزاغ البصر بين الغيم الداكن والبرق الخاطف اللامع.

* * *

وذات مساء قال لنا الشافعى صاحب المقهى:

ـ آسف يا حضرات، تم الاتفاق على بيع المقهى!

لم نصدق أول الأمر، حتى تأكد لدينا أنه سيقوم مقامه سوبر ماركت. يا ألطاف الله! إنه خبر كطعنة خنجر. مقهى العمر والذكريات والآباء. المقهى الذى داعب صبانا وآوى شبابنا وكهولتنا، وشهد حبنا وزواجنا وإنجابنا وهزيمتنا ونصرنا. وتساءلنا: أين نتلاقى كل مساء؟ قال أحدنا:

ـ أقرب مقهى إلى حينا مقهى الانشراح فى أول الظاهر.

قال آخر:

ـ لكنه مقهى الحرفيين، غاية فى الفقر والقذارة..

فقال الأول :

ـ اصح ، حقا ما زال مقهى الحرفيين ولكنهم يذهبون إليه اليوم فى سياراتهم الخصوصية الملاكى ، وقد تجدد المقهى بتجددهم فأصبح انشراحا بالمعنى الصحيح .

ثم وهو يضحك :

ـ سنمثل فيه الطبقة الكادحة الجديدة!

عندما يقول البلبل: لا

تطاير فى جو المدرسة نبأ مهم بأن الناظر الجديد حضر . تلقت النبأ فى غرفة المدرسات وهى تلقى نظرة أخيرة على دروس اليوم . لا مفر من أن تهنئه مع المدرسات ، وأن تصافحه أيضا . سرت فى بدنها قشعريرة ولكن لا مفر . قالت زميلة :

ـ ينوهون بكفاءته ، ويتحدثون أيضا عن صرامته .

كان دائما احتمالا متوقعا وها هو ذا قد وقع . شحب وجهها الأنيق ولاحت فى عينيها السوداوين النجلاوين نظرة شاردة . وأزفت الساعة فذهبن طابورا فى أرديتهن المحتشمة إلى حجرته المفتوحة . وقف وراء المكتب يستقبل الوافدات والوافدين . متوسط القامة ، مائل إلى البدانة ، ذو وجه كروى وأنف أقنى وعينين جاحظتين ، يتقدمه شارب غليظ منتفخ مقوس كموجة محملة بالزبد . تقدمت فى خطى خفيفة مركزة عينيها على صدره متحاشية عينيه ، ثم مدت يدها . ماذا تقول؟ مثلما قلن؟ لكنها خرست فلم تنبس بكلمة . ترى ماذا تجلى فى عينيه؟

صافح يدها الرقيقة بيده الغليظة وقال بصوته الخشن :

ـ شكرا . .

استدارت ومضت بقامتها الرشيقة . نسيت همومها فى أداء واجبها اليومى ولكنها لم تبد فى حال حسنة . أكثر من بنت قالت : «أبلة عصبية اليوم!» . ولما رجعت إلى مسكنها بأول شارع الهرم ، غيَّرت ملابسها وجلست إلى مائدة الطعام مع أمها . نظرت الأم إلى وجهها وتساءلت :

ـ خير؟

قالت بإيجاز :

ـ بدران ، بدران بدوى ، تذكرينه؟ عين ناظرا على مدرستنا .

ـ ياه!

ثم بعد قليل من الصمت :

ـ لا أهمية لذلك على الإطلاق ، تاريخ قديم منسى .

بعد الطعام آوت إلى حجرة مكتبها لتستريح وقتا ثم لتصحح مجموعة من الكراسات . نسيته تماما . كلا لم تنسه . يطوف بها بين زمن وآخر . كيف يمكن أن ينسى تماما؟!

عندما جاء لأول مرة ليعطيها درسا خصوصيا فى الرياضة كانت فى الرابعة عشرة . بل لم تكن أتمتها . كان يكبرها بخمسة وعشرين عاما وفى سن المرحوم أبيها . قالت لأمها : «شكله فوضى ولكن شرحه جيد» . فقالت أمها : «لا شأن لنا بشكله ، المهم شرحه» . كان غاية فى المهارة . يبعث النشاط برواية النوادر اللطيفة . أنست به واستفادت من خبرته .

ولكن كيف حصل ما حصل؟! لم تفطن فى ملكوت براءتها إلى أى تغير فى سلوكه لتأخذ حذرها . انفرد بها ذات يوم عندما ذهب والداها لعيادة عمتها . لم يداخلها شك فى رجل اعتبرته أبا ثانيا . كيف حصل ما حصل؟ بلا حب ولا رغبة من ناحيتها حصل ما حصل . تساءلت فى رعب : ما هذا؟! قال لها : «لا تخافى ولا تحزنى ، احتفظى بسرك ، وسوف أخطبك يوم تبلغين السن المعقولة» . ووفى بوعده . جاء وخطب . كانت بلغت درجة من النضج أتاحت لها إدراكا لأبعاد مأساتها . لم تجد نحوه أى حب أو احترام وكان أبعد ما يكون عن أحلامها وما تخلقت به من نقاء ومثالية . ولكن ما الحيلة؟! أبوها رحل عن دنياها قبل ذلك بعامين ، وذهلت أمها لجرأة ذلك الرجل ، ولكنها قالت لها :

ـ أنا عارفة تمسكك باستقلالك الشخصى ، ولذلك أترك لك الرأى . .

شعرت بحرج مركزها . فإما أن تقبل وإما أن يغلق الباب إلى الأبد . ياله من موقف يدفع الإنسان دفعا إلى ما يكره . هى الجميلة الغنية التى يضرب المثل بنبل أخلاقها فى العباسية كلها تتخبط فى مصيدة محكمة وهو يطل عليها بعينيه الشرهتين . كرهت قوته كما كرهت ضعفها . أن يعبث ببراءتها شىء ، أما أن يتسلط عليها وهى فى كامل عقلها فشىء آخر .

قال لها :

ـ ها أنا ذا أوفى بوعدى لأنى أحبك .

وقال لها أيضا :

ـ إنى أعرف حبك للتعليم وسوف تكملين دراستك بكلية العلوم .

غضبت غضبا لم تشعر بمثله من قبل . رفضت الإرغام كما رفضت القبح . هان عليها أن تضحى بالزواج . رحبت بالوحدة ، وقالت إن الوحدة فى رفقة الكبرياء ليست وحدة . وحدست أيضا أنه يطمع فى مالها . وقالت لأمها بكل بساطة :

ـ لا .

فقالت الأم :

ـ إنى أعجب كيف لم تقررى ذلك من أول لحظة !

واعترض الرجل طريقها فى الخارج وقال لها :

ـ كيف ترفضين؟ ألا تدركين المصير ؟

فقالت له بحدة لم يتوقعها :

ـ أى مصير أحب إلىّ من الزواج بك !

وأتمت دراستها . وأرادت أن تملأ الفراغ بالعمل فاشتغلت مدرسة . وواتتها فرص الزواج تباعا فأعرضت عنها جميعا ، حتى سألتها أمها :

ـ ألا يعجبك أحد؟ !

فقالت برقة :

ـ إنى أعرف ما أفعل .

ـ ولكن الزمن يجرى؟

ـ فليجر الزمن كيف شاء ، أنا راضية . .

ويتقدم بها العمر يوما بعد يوم . تتجنب الحب وتخافه . تأمل بكل قواها أن تمضى الحياة فى هدوء . مطمئنة أكثر منها سعيدة . تلح على إقناع نفسها بأن السعادة لا تنحصر فى الحب والأمومة . ولم تندم قط على قرارها الصلب . ومن يدرى ماذا يخبئ الغد؟ حقا إنها تأسف لظهوره فى حياتها من جديد . وأنها ستتعامل معه يوما بعد يوم . وأنه سيجعل من الماضى حاضرا حيا أليما .

وعندما خلا إليها فى حجرته لأول مرة ، سألها :

ـ كيف حالك؟

أجابت ببرود :

ـ على خير ما يكون .

فتردد قليلا ثم سأل :

ـ ألم . . أعنى . تزوجت؟

فقالت بنبرة من يقصد قطع هذا الحديث :

ـ قلت إننى على خير ما يكون .

العجوز والأرض

جذب نظرى منظر جديد فى أثناء مسيرتى اليومية على شاطئ النيل بشارع الجبلاية . الساعة السابعة صباحا ، أوائل الربيع ، الطريق تكاد تخلو تماما من أى عابر ، رأيت على سفح المنحدر نحو النهر رجلا وامرأة .

الرجل عجوز يقارب الثمانين ، طويل القامة مع أحديداب خفيف ، أبيض الشعر خفيفه ، عتيق القسمات ، يرتدى بدلة متهدلة من التيل السنجابى ، والمرأة فوق الستين ، امّحت من صفحة وجهها أمارات الأنوثة وحل الجفاف والخشونة . على الأرض بينهما انطرحت خيمة مطوية وتناثرت حلل نحاسية وآنية شاى وموقد غاز . خطر لى أنهما جاءا يمضيان يوما على شاطئ النيل تسلية عن الوحدة والكبر ، فأشفقت على صفوهما من حصا المنحدر والقاذورات المتراكمة فوق أديمه .

فى اليوم التالى أدهشنى أن أرى الاثنين بنفس موضع الأمس . وضاعف من دهشتى أن أراهما منهمكين فى رفع الحصى وكنس القاذورات على مدى مسافة غير قصيرة من الشاطئ . ترى ما شأنهما؟ هل يبغيان إقامة طويلة؟ وتمهلت فى السير ممعنًا النظر . انتبها إلىّ فتطلعا نحوى بأعين متوجسة مرتابة ، فلم أر بدا من الإسراع فى الخطو دفعا للحرج . هل داخلهما شك فى نيتى؟! هل حسبا أننى أراقبهما من موقع مسئوليتى عن الشاطئ؟ شعرت نحوهما بالعطف والرثاء وتمنيت على الله ألا يخيب لهما رجاء .

فى صباح اليوم الثالث رأيت الأرض قد خططت فأصبحت أحواضا متتابعة على هيئة مستطيلات ، على حين ركب أسفل المنحدر شادوف لرفع المياه ، وغير بعيد جلس الزوجان يحتسيان الشاى . ولما رأيانى مقبلا رفعا رأسيهما نحوى فى قلق فاق قلق الأمس . مررت مسرعا مشفقا متحاشيا التقاء الأعين . إنه الخوف عليه اللعنة . يطاردهما فى مهجرهما الجديد ولا شك . وثمة سبب يمكن تخمينه على رغم جهلى بتلك الأمور . إنما يسيئان الظن بمسيرتى الصباحية ويتوهمان أنها تدور من أجل مراقبتهما . كيف أعفيهما من جرعة النكد اليومية التى أصبحهما بها؟ لا غناء لى عن الطريق ولكن بوسعى أن أتجاهلهما أو أشعرهما بذلك .

ويوما بعد يوم أرى ـ بلحظ العين ـ المياه وهى تغمر الحقل والخيمة وهى تنتصب فى رشاقة . ويوما بعد يوم تغير وجه الأرض فآذن بمولد حياة جديدة . ويوما بعد يوم ذرت القرون الخضراء كالأغاريد الخفيفة مبشرة بالبهجة المشرقة . تمنيت لو كان فى قدرتهما أن ينشرا العمران فى الشاطئ كله ويريحا البصر من سوء مطلعه . ولم يكدر صفوى إلا

إصرارهما على التوجس والحذر. حتى قررت يوما أن أحيى وأبتسم. وما كدت أفعل حتى لوح لى العجوز بيده، وصعد نحوى حتى وقف أمامى، ثم سألنى:

ـ حضرتك موظف؟

فأجبت بالإيجاب فعاد يسأل:

ـ فى المحافظة؟

فقلت بوضوح:

ـ كلا، لا علاقة لى بالمحافظة ولا الداخلية ولا ما شاكل ذلك..

فصمت حائرا، فقلت ضاحكا:

ـ لماذا تنظر إلى فى ارتياب كأنى عدو؟

فقال بنبرة اعترافية:

ـ أنا رجل عجوز على المعاش، كنت موظفا بالزراعة، أخلت الشرطة بيتنا الآيل للسقوط، فكرت فى سكنى الشاطئ بدلا من المقابر!

ـ فكرة جميلة.

ـ المعاش قليل، قلت أزرع لآكل لا لأتاجر. بعنا العفش القديم واشترينا ما يلزمنا كالخيمة والشادوف..

ـ فعلت خيرا..

فتردد قليلا ثم قال:

ـ أعتقد أن هذا لا يسىء إلى أحد؟

ـ حسبك أنك جمّلت رقعة من الشاطئ القذر.

ـ ولكنى أخاف التعليمات والإجراءات.

فقلت بصدق:

ـ الحق إنه لا دراية لى بذلك.

وتمنيت له الخير، ثم صافحته وذهبت. ولما هل الصيف قمت بإجازتى السنوية. وعدت من المصيف بعد شهر ونصف الشهر لأواصل حياتى المألوفة. واستأنفت مسيرتى الصباحية، ولما اقتربت من شارع الجبلاية تذكرت ـ ربما لأول مرة ـ الرجل والمرأة. أقبلت نحو موضعهما توّاقا للاستطلاع. ولكنى لم أجد أثرا لهما ولا للحقل. رجع المنحدر إلى حاله القديمة من الخراب والقذارة. لا تفسير لذلك إلا أن مخاوف العجوز قد وقعت وتحققت. فاض قلبى بالأسى وأنا أتساءل عن مصير العجوزين. ورأيت جندى المرور على مبعدة يسيرة من المكان، فقصدته وتبادلنا التحية كعادتنا منذ سنوات. قلت له:

ـ كان هناك رجل وامرأة يزرعان الأرض . .

فضحك الرجل قائلا :

ـ لم يدم الحال وسبحان من له الدوام . جاء شرطى ذات يوم للتحقيق ، وقاد الرجل إلى القسم لعمل محضر مخالفة .

صمت مغتما متفكرا فقال الجندى :

ـ أرض الحكومة ليست لكل من هب ودبّ ، وجاء عمال فاقتلعوا الزرع قبل أن ينضج ، ولا علم لى بما حصل للرجل بعد ذلك .

انقبض صدرى حزنا على آدم وحواء وحقلهما ، وصحبتنى ذكراهما زمنا حتى تلاشت فى خضم الحياة اليومية .

مضى اليوم على ذاك التاريخ أكثر من عشرين عاما . أذكره أحيانا عند مرورى بالموضع إياه .

أذكر الرجل والمرأة والحقل الأخضر الذى عصفت به التعليمات المقدسة .

فوق السحاب

أكابد الواقع ، وهو يعاندنى ، يستوى فى ذلك يومه وغده . لم أنل من عطايا الدهر إلا تكوين أسرة وإنجاب ذرية ، وفى الوقت ذاته عجزت عن إسعادها وبالتالى عن إسعاد نفسى . ولولا التطابق الفريد بين سوء حالى وسوء حال البلد ما فكرت فى البلد ، ولكننى وجدت أسرتى تعكس صورة البلد ، والبلد يعكس صورة أسرتى . كلاهما يعانى من كثرة العدد وقلة الموارد واختلال التوازن بين الدخل والمنصرف وتكاثر الديون وتجهم المستقبل . غير أننى لم أخف عن ذوى حقيقة وضعنا ولم أعد بشىء يفوق قدرتى . ولعجزى عن تحسين حالتى فضلا عن عجزى عن تحسين البلد ، غشيتنى الكآبة وبادرنى الشيب قبل الأوان . ولم أجد ما أروح به عن نفسى فى خلوتى إلا الحلم ، هو الذى شق لى طريقا جديدة ، ويسر لى رزقا وافرا ، وهيأ لى صحة وعافية وعلاقات إنسانية حميمة ، ورفعنى إلى عالم جديد ، وحقيقة سامية ، وعدل شامل ، وتطلع باهر إلى عالم الغيب .

وفى أتون المعركة بين الحقيقة والخيال طال ليل الشقاء وامتد ، وانكمشت تحت الغطاء بكل جوارحى المرتعدة ، فقلقت زوجى واقترحت أكثر من وصفة للعلاج ، ولكننى تمنيت النوم باعتباره المنقذ من الاضطراب والألم . ولم أنم ولم تهدأ الثائرة وأصابتنى فى الأعماق ضربة رادعة . مفاجأة وأى مفاجأة! وارتفعت فى جو الغرفة كأنى طير يطير فى

هدوء ووقار، ولبثت معلقا بسقفها، غير غائب عن خاطرى ما خبرته من معلومات عن الهذيان والحمى. وأنظر فأرى جسدى مطروحا على الفراش والجميع يتطلعون إليه من خلال دموع منهمرة. هى الحمى ولا شك. وكل ما تموج به الغرفة من حركات وأصوات تبدو لى خالية من أى معنى. دعوتهم إلى التزام الهدوء والصمت فلم يسمعوا.

راقبتهم فى سكينة كاملة، ومضى اهتمامى بما حل بهم يضعف ويتلاشى رويدا رويدا. ومنظرهم يغوص فى العمق ويتضاءل حتى اختفى تماما. وامتد أمامى ممر طويل مجوف غائم الأرض والجدران يلوح فى طرفه القصى نور رائق. أتقدم فيها بخطوات ثقيلة متعثرة، ومترنحا أحيانا، وبقلب يفتقد الأمان. وفى مستقر النور يلوح لى وجها أبى وأمى، يرمقاننى بحنان، فأهرع نحوهما متخففا من مخاوفى. ثم أذكر حاجز الموت الذى يفصلهما عنى فأتوقف فى حذر، وأهمس كالمعتذر:

ـ لعلى أحلم!

فيجىء صوتاهما معا كأنهما صوت واحد:

ـ بل تستيقظ.

ويقبلان نحوى فى ثوبين من السحاب، ويتأبط كل منهما ذراعا، ويقولان:

ـ انتبه، أصبحت معنا بلا فاصل.

وقلت لنفسى إن الحلم لا يكون بهذا الوضوح، وهمست:

ـ نعم، إنى منتبه تماما..

ـ هذا حسن.

ـ ولكنى أشعر فى داخلى بكابوس ثقيل.

ـ سينقشع عندما تبرأ من أخطائك.

قلت برجاء:

ـ سوف تساعداننى..

فقالا معا:

ـ بل تنتهى مهمتنا هنا، اعتمد على نفسك.

وتلاشيا فى لحظة خاطفة، وسرعان ما وجدتنى فى عالمى الجديد. عالم جديد حقا لا أملك أسماء لمفرداته. مكان وليس بمكان، ضوء وليس بضوء. ألوان وليست بألوان، أشجار وليست بأشجار، بيوت وليست ببيوت، أرضه وسماؤه مغطيان بالسحب.. مترام بلا حدود، بيوته من السحب أيضا ممتدة فى صفوف متوازية تفصل بينها مسافات شاسعة. أشجاره هائلة، ألوانها جديدة تماما وذات تأثير عميق فى الحواس. ويغمره ضوء ثابت هادئ جديد أيضا فلا هو شفق ولا هو غسق.

لأول وهلة خيل إلى أننى وحيد فى وجود لا متناه. ولكن الوحشة لم تثقل على طويلا ولم تدم. فهذا الوجود المحيط بى ينتفض بحياة غامضة. إنه حى وعاقل أيضا ويرنو إلىّ باهتمام وكأنما يتساءل عما سأفعل. وفى البيوت أحياء منشغلة بشئونها، تترامى إلى أذنى الباطنة تسبيحاتها. هل أطرق بابا لأسترشد بمن فى الداخل؟ ولكن إذا كان والداى قد تخليا عنى فكيف بالغرباء؟! لم يبق لى سوى أن أعتمد على نفسى، ولكن كيف أبدأ؟! وأين أتجه؟! ويقبل على شخص جليل يرفل فى ثوبه السحابى، ويطالعنى بوجه آية فى الإشراق والجاذبية. وبنظرة من عينيه أمرنى أن أتبعه حتى وقف أمام بيت وهو يقول:

ـ بيتك.

نظرت إلى بيتى بحب استطلاع فقال:

ـ انتظر، لن تدخل حتى تستحم.

فأشرت إلى قلبى قائلا:

ـ ثمة كابوس يجثم فوق صدرى.

ـ من أجل ذلك يجب أن تستحم أولا.

واندلعت فكرة فى نفسى فقلت:

ـ أعتقد أن أمامى عملا متواصلا..

ـ الطريق طويل، ومنازله كثيرة، وغايته ليس كمثلها شىء.

ـ هل ترشدنى ولو إلى الخطوة الأولى؟

ـ اعتمد على نفسك أولا وأخيراً..

وأخذ بيدى، فقادنى إلى بحيرة من نور فى خميلة وأمرنى بإسلام نفسى إلى أمواج أنوارها. وصدعت بالأمر، فطفوت ثوانى، ومضيت أغوص على مهل ودون توقف حتى استقررت فى أعماق أعماقها. وتسربت الأمواج إلى باطنى فاجتاحته.. وانبسطت أمام ناظرى سلسلة الهفوات والأخطاء التى كابدتها فى حياتى الأولى. وكلما تطهرت من هفوة أو خطإ تلاشت مصحوبة بآلام متفاوتة، ويخف وزنى بمقدار فأرتفع عن مستقرى قليلا قليلا. وتواصل الاستحمام ساعات أو أياما أو أعواما حتى طفوت فوق سطح البحيرة. وانتقلت إلى الأرض فى خفة وانشراح. ودخلت بيتى، وارتديت ثوبى من السحاب الرائق. وقررت ألا أضيع وقتا بلا عمل، وفكرت وتأملت طويلا، ثم عزمت أخيرا على أن أبدا بالهندسة لحاجة المسافر إلى إتقان الملاحة ورسم الخرائط.

وانهمكت فى العمل بعزيمة لا تعرف اللين أو التردد. وساعدنى على ذلك جمال الجو وثباته، فهو معتدل دائما، لا يطرأ عليه ليل أو نهار، ولا تغيره الفصول. ولا تضعف

المشكلات من قوة العزائم ، ولا يعترينا الضجر أو اليأس . ومن صميم ذاتى ودون أى مساعدة من الخارج تراءى لى الطريق بطوله ومنازله فاطمأن قلبى إلى اختيار الهندسة منطلقًا لعمل . وازداد شوقى إلى الغاية البعيدة التى راودت أحلامى الأرضية نفسها . غير أن طارقا طرق بابى فقطع على العمل . دهشت حقا وأذنت له بالدخول ، وإذا بها ـ هى هى ـ مقبلة نحوى بجمالها القديم وسحرها النضير فى ثوبها السحابى الجديد ـ ما تمالكت أن فتحت ذراعى فتلقيتها على صدرى بحنان وشوق ، وأنا أقول :

ـ ما كنت أتصور أننا سنجتمع مرة أخرى!

فقالت بصوتها العذب :

ـ وما أتصور أن نفترق بعد الآن!

فقلت بحماس :

ـ معا . . معا . . حتى منزل السجود .

ونظرت إلى عملى ثم تساءلت :

ـ بم تبدأ؟

ـ بالهندسة

قالت بقلق :

ـ بدأت بالشعر .

وتبادلنا نظرة مترقبة . وهمستُ بأسى :

ـ لا نستطيع أن نمضى معا .

فتساءلت بحزن :

ـ هل نفترق باختيارنا بعد ما ذقنا من مرارة الفراق القديم؟

ـ لن نلتقى قبل الوصول إلى منزل الحب .

ـ إنه بعيد فى الطريق .

ـ ولكننا سنبلغه على أى حال .

ـ ألا تستطيع أن تفعل شيئا من أجلى؟

ـ لا يمكننى العمل إلا بالطريقة التى تناسبنى ، ولعلك أيضا كذلك؟

ـ نعم .

ـ رغبتى مثل رغبتك أو أشد ، ولكن لا حيلة لنا . .

ولاذت بالصمت فقلت بأسف :

ـ على أى حال فاللقاء آت لا ريب فيه ، ولا قيمة للزمن هنا .

ابتسمت ابتسامة لا تخلو من عتاب وتراجعت على مهل حتى تلاشت . ولم أستسلم هذه المرة للحزن كما فعلت فى عالمى الأول . وأشفقت من أن يصرفنى الحزن عن العمل فضاعفت من اجتهادى وحماسى . ولم آبه لطول الطريق وكثرة مشكلاته . ولم أعد أخاف خيانة الزمن أو زحف الشيخوخة أو تهديد الموت .

وإذا ببابى يدق مرة أخرى . توقعت بقلب خافق أن أرى وجهها ، ولكن القادم كان رجلا جديدا غير المرشد الذى دلنى على بيتى . قدم نفسه قائلا :

ـ أنا همزة الوصل بين هذا العالم والعالم القديم .

العالم القديم الذى نسيته تماما . وتطلعت إليه فى تساؤل فقال :

ـ عطلت عملك ولكنى أؤدى واجبى .

ثم بنبرة حيادية :

ـ ثمة من يناديك من أهل الأرض .

ماذا يريدون؟ وما شأنى بهم؟ وكيف لا يدركون خطورة العمل الذى نكرس له حياتنا؟! وسألته :

ـ من الذى ينادى؟

ـ ابنك أحمد .

آه . . الذى غادرت الدنيا وهو فى بطن أمه . وخفق قلبى على رغمى ، غير أنى سألته :

ـ هل تنصحنى بتلبية ندائه؟

فقال بحياد وأدب :

ـ لا شأن لى بذلك ، اتخذ قرارك بنفسك .

نشب صراع فى نفسى ، ولكننى سرعان ما ملت إلى جانب مستسلما لهزيمة لم أتصورها من قبل . وهمست وأنا مثقل بشعور آثم :

ـ أرى أن ألبى النداء .

وفى الحال وجدتنى أطلع على حجرة محكمة الإغلاق تسبح فى شبه ظلام ، تنبسط أمامى نصف دائرة من المقاعد يجلس فوقها نفر من الرجال بينهم ابنى أحمد ـ عرفته ببصيرة داخلية ـ يتخذ مجلسه فى الطرف الأيمن ، على حين استلقى الوسيط على فراش يفصله عن الحاضرين ستارة شفافة . همست بنعومة :

ـ أحمد .

فانتفض قائلا :

ـ أبى؟!

ـ نعم ، أنا أبوك .

فسأل باهتمام ساخن :

ـ كيف حالك يا أبى؟

ـ الحمد لله .

ـ كيف تجرى الحياة عندكم؟

ـ لا لغة مشتركة تقرب واقعنا إليك ، ولكن كل شىء حسن .

فقال وهو يتنهد :

ـ الحياة هنا تبدو قاسية لا تعد بخير .

ـ عليكم أن تغيروها حتى تعد بكل خير .

ـ ولكن كيف؟!

ـ السؤال منك والجواب عندك ، وكل يحيا قدر همته .

ـ إنهم يتساءلون عما يخبئه لنا الغد؟

ـ الغد يعلمه الله ويصنعه الإنسان .

ـ ألا يمكن أن نأمل فى معاونتك؟

ـ قد فعلت يا بنى .

قال متشكيا :

ـ يتهموننى بأننى لا أحب إلا نفسى .

فقلت وأنا أهم بالذهاب :

ـ إنك لا تدرى كيف تحب نفسك .

ورجعت إلى بيتى أسرع من البرق . وهناك غلبنى شعور حاد بالأسف والندم . كيف هان على أن أقطع عملى النبيل وأن أنشغل بهموم الدنيا التافهة؟! وما أدرى إلا والمرشد الوقور يطالعنى بوجهه المشرق .

تضاعف شعورى بالذنب وقلت :

ـ أعترف بأننى أخطأت ، ولكنى سأكفر عن ذنبى بمضاعفة العمل!

لم يعر قولى أى اهتمام ولم تتغير نظرته الصافية . وكما جاء ذهب دون أن ينبس بكلمة ، غير أنه خلف وراءه وردة لم أر مثلها من قبل كبيرة الحجم ، غزيرة الأوراق ، فتانة اللون ينتشر منها شذا طيب لم يصادفنى شىء فى مثل جماله وقوته . وخطر لى أنه لا

يمكن أن تكون قد سقطت منه سهوا ، بل إنه يقينا لم يحضر إلا ليهديها إلى . وغمرتنى سعادة صافية ، وقلت لنفسى لا شك فى أن رحلتى ـ بخلاف ما توهمت ـ قد حازت الرضا . .

الغابة المسكونة

مرارا وتكرارا يشيرون إلى الغابة ويقولون لى محذرين :

ـ لا تقترب منها ، فهى مسكونة بالعفاريت!

الغابة تقوم فى الطرف الجنوبى من صحراء مولد النبى بالعباسية . تبدو من بعيد جبلا من الخضرة الداكنة متعدد الرءوس ، طولها ثلاث محطات من محطات الترام وعرضها قريب من ذلك ، وقد يعبر سماءها دخان تحمله الرياح من المقلب الذى تحرق فيه الزبالة . ما نوع أشجارها الباسقة؟ وما معنى وجودها فى ذلك المكان؟ من الذى زرعها؟ ولأى غرض زرعها؟

وصحراء مولد النبى هى ملعب الكرة لصبيان العباسية ، تتسع للعديد من فرق الهواة يمارسون هوايتهم فى وقت واحد . ولما نفرغ من مبارياتنا الودية نرتدى جلابيبنا فوق أردية اللعب المعروفة ونرجع إلى الحى متجنبين الاقتراب من الغابة المسكونة .

وجاوزت الصبا وولجت المراهقة وولعت بهوايات جديدة منها القراءة . وأشرقت على روحى استنارة تحفل بكل جديد وطريف . وتطايرت من رأسى ووجدانى خرافات كثيرة ، ولم أعد أومن بعفاريت الغابة ولكنى لم أستطيع التحرر تماما من رواسب الخوف الكامنة فى أعماقى . وكنت أخلو إلى نفسى كثيرا فى الصحراء وبخاصة فى العطلات الصيفية ، أقرأ أو أتأمل أو أدخن السجائر بعيدا عن أعين الرقباء . وأرمى ببصرى من بعيد إلى الغاية فأبتسم ساخرا من ذكرياتى ، ولكنى أمكث بعيدًا وأمضى من بعيد . وأضيق بموقفى وأتحداه وأطرح على نفسى سؤالا :

ـ ألم يأن لك أن تكتشف الغابة؟

بعد حوار غير قصير صممت على الإقدام والتنفيذ . ليكن فى العصر والشمس طالعة ، فالليل على أى خال غير مأمون . وكان مجلسى قريبا من محطة لضخ المياه يتحرك فى فنائها مهندسون وعمال . حييت أحدهم مرة وسألته عن سر الغابة فأخبرنى بأنها تابعة للمحطة ، وأنها زرعت قديما ، استغلالا للمياه الفائضة . ولم تمتد أكثر من ذلك ليمكن إقامة الحفل السنوى بمولد الرسول . قلت لمحدثى :

ـ قالوا لنا إنها مأوى للعفاريت .

فضحك الرجل قائلا :

ـ ما عفريت إلا ابن آدم .

ولأول مرة أمضى نحو الغابة . وقفت عند حافتها مستطلعا فرأيت الأشجار الشامخة صفوفا منسقة كالطوابير ، والعشب يغطى أرضها ويكسوها بخضرة غضة يانعة ، وثمة قناة تشقها بالعرض تتفرع عنها جداول متلألئة ، وتجاوب جوها بزقزقة العصافير فبثت فى الهواء عزفا وطربا . واستأنست بكل شىء فتقدمت غير هياب . لم أصادف إنسانا ولكنى ثملت بالوحدة والسلام . قلت لنفسى : «يا للخسارة! ضاع عمر هدراً، سامح الله الذين تصوروا أن تكون الجنة مأوى للعفاريت» . وعند مركز الوسط تقريبا ترامت إلى ضحكة . الحق أن قلبى ارتجف . ولكن تلاشى خوفى فى ثانية . لا ريب فى أنها ضحكة ابن آدم . تفحصت ما حولى بعناية . لمحت على مبعدة حلقة من الشبان . وسرعان ما تبين لى أنهم ليسوا بالغرباء . جيران أو زملاء بالمدرسة . اتجهت نحوهم وأنا أحمحم . تحولت الرءوس نحوى حتى سلمت ووقفت باسما . بعد صمت سألنى أحدهم :

ـ أهلا ، أى مصادفة سعيدة جاءت بك؟

فتساءلت ضاحكا :

ـ وماذا جاء بكم أنتم؟

ـ كما ترى ، نتسامر أو نقرأ أو نتناقش!

ـ منذ زمن طويل؟

ـ ليس قصيرا على أى حال .

قلت بعد تردد .

ـ يسرنى أن أنضم إليكم لو سمحتم؟

ـ هل تحب القراءة والمناقشة؟

ـ أحبهما من كل قلبى .

ـ تفضل إذا شئت .

منذ تلك اللحظة بدأت حياة جديدة يمكن أن أطلق عليها حياة الغابة . طيلة العطلة الصيفية نمضى كل يوم ساعتين على الأقل فى الحلقة . ومع زقزقة العصافير هبطت أفكار ورؤى . انتقلت الدنيا من حال إلى حال . ليس الأمر لهوا ولعبا . ولا رياضة عقلية تمضى إلى حالها . إنها تشير إلى مسيرة ومغامرة وتجربة محفوفة بالاحتمالات كافة . وكان من عادتى أن أجالس أبوى بعد العشاء . نستمع إلى الفونوغراف . ونتبادل الحديث . وكنت

قد احتفظت بسر الغابة فلم أطلع عليه أحدًا. وكان أبواى آخر من أتصور أن أبوح لهما به. منذ زمن لا أذكر أوله استقرا فى أعماق طمأنينة أبدية ونعما بسلام دائم. ولا يخرج أبى عن إطاره إلا إذا أغرته السياسة بأخبارها. يطيب له متابعة الأحداث والتعليق عليها.

ويوما ختم حديثه بقوله:

ـ ما أكثر عجائب هذا البلد!

فاندفعت أقول له:

ـ العجائب لا نهاية لها.

فحدجنى بنظرة متسائلة فقلت:

ـ إليك بعض الآراء مما يدور فى مجتمعنا.

وتكلمت بإيجاز وتركيز فأنصت إلىّ ذاهلا ثم هتف:

ـ أعوذ بالله، ليس أصحاب هذه الآراء بآدميين، ولكنهم عفاريت!

عند ذاك أدركت أننى أصبحت من عفاريت الغابة المسكونة.

فى المدينـــة

١

رزق بولد أول ما رزق. سعد بالمولود سعادة رجل يقدس الأسرة والإنجاب، ولا يعترف بالإنجاب إن لم يتوج بذكر. كان يقترب من أواسط العمر، ويستقر فى دنيا النجاح محاميا نابها. والزواج كان تقليديا، بنى على البحث والسؤال وحسن الاختيار ثم جاءت العاطفة فى حينها لتكمل البناء وتنمقه. غير أن إعصارا عصف بسعادته بلطمة واحدة. فيوما اصطحب زوجته إلى السينما، ولما رجعا إلى مسكنهما بالحدائق لم يجدا الوليد ولا الدادة. لم يكن من المألوف أن تخرج به ليلا، وبخاصة ليل الشتاء، فبدا الأمر مقلقا. وسأل الرجل الجيران والبواب فلم يظفر بما يطمئنه، وانتظر هو وزوجه على غير طائل، ثم ذهب أخيرا إلى القسم. أدلى بالأقوال المطلوبة عن الدادة والمخدم الذى جاءه بها والطفل ذى العامين. ثم رجع إلى مسكنه مهيض الجناح مشتت العقل، ولم يغمض لهما جفن ـ هو وزوجته ـ حتى الصباح. وقامت الشرطة بتحريات واسعة، وتردد عليها أياما متواصلة، ولكن البحث لم يسفر عن نتيجة، ولم يعثر على أثر للطفل أو للدادة. أيقن

أن ابنه قد سرق، لحساب الدادة من أجل أم عقيم. هل مازال على قيدة الحياة؟ وأى مرعى جديد يؤويه ويحتضنه؟

وتعكر صفو الزوجين، وكابدا آلاما مبرحة، لعلها أشد من آلام الموت نفسه الذى يؤلف فى النهاية كقدر لا مفر منه. ولكن مرور الأيام دواء على أى حال، فسلم الرجل أمره لله وأذعن لمشيئته. وانهمك فى عمله غارقا فى هموم الحياة ومشكلاتها. وقد رزق بعد ذلك ببنات ثلاث، ولم يرزق بولد على رغم اللهفة والحسرات، وظل عند مولد كل بنت يتذكر ابنه الضائع فى خضم الحياة المصطخب. وتقدم فى عمله من نجاح إلى نجاح حتى عد بين النخبة من رجال القانون والقلة من أثرياء أصحاب المهن. وشيد لأسرته فيلا فى الهرم واقتنى سيارة مارسيدس، واستمتع بالجاه والصيت العريض، وتوج نجاحه بالمساهمة فى الحياة السياسية فتألق كنجم من نجوم المجتمع وقائد من قادة الفكر.

ولم تمح ذكرى ابنه المفقود من ذاكرته. أجل لم يكن يذكره بصوت مسموع رحمة بأمه، ولكنه كان يستحضره فى المناسبات، فيقول لو بقى لى لكان اليوم يتأهب لامتحان الثانوية العامة، أو لكان اليوم يختم دراسته الجامعية، أو لربما كنا نحتفل بزواجه. ثم يتمنى على الله أن تهيئ بيئته الجديدة له الدفء والحب والفلاح. وفى أثناء ذلك تزوجت بناته، فانضم إلى الأسرة ثلاثة شبان فى سن ابنه المفترضة أو قريبين منها، وصار له أحفاد من الذكور عوضوه عن فقده خيرا. ولكن عقدة الابن الذكر لم تفارقه، واقتضته إجراءات كثيرة لحفظ إرثه فى ذريته من دون مشاركة أحد من إخوته الذين لم يكونوا فى حاجة إلى ماله. وعاش فى نظر الناس مثالا للنجاح والسعادة، وفى باطنه مثالا للسعادة الواقعية التى لا تخلو من حزن أو ألم.

٢

أما الابن فقد نشأ وترعرع فى شقة صغيرة فى بيت قديم بمصر القديمة. إنه يذكر تماما أمه الطيبة المحبة، كما يذكر أباه الكهل الذى كان يغادر البيت صباحا ويعود إليه مساء، كما يذكر شاربه الغليظ وعصاه وبدلته الأنيقة. حظى بحياة طيبة مريحة، وفى السادسة دخل المدرسة، ولم يجد فى جو البيت الطيب ما يشجعه على الدراسة، وما لبث أن مات أبوه ولم يوفق فى الدراسة، ثم ماتت أمه وهو فى الثامنة. وجد نفسه وحيدا بلا أهل. ولم تتركه جارته لوحدته، فدعته للبيات مع أولادها. واتفقت هى وزوجها مع صاحب البيت على إخلاء الشقة وبيع الأثاث، واقتضى العدل أن يحتفظا بالمال نظير إيواء الغلام

والعناية به. ولكنه لم يحظ برقابة كافية فضاع مرة أخرى بين مسكنه الجديد والمدرسة حتى فصلته المدرسة.

وتغيرت المعاملة مع الزمن فما إن بلغ العاشرة حتى وجد نفسه يعمل خادما فى البيت والسوق. ومن أول يوم كره عمله الجديد ورفضه ولكنه تحمله مرغمًا. وأحيانا يتذكر حنان والديه فتدمع عيناه فى وحدته. ويومًا خرج للتسوق فوجد الشوارع تموج بالكبار والصغار، يصيحون فى غضب، ويقذفون السيارات ومصابيح الشوارع بالطوب. روعه المنظر لأول وهلة ولكنه سرعان ما استجاب إليه بسرور خفى وشارك فيه. وفر فى الوقت المناسب مصمما فى الوقت نفسه على عدم العودة إلى مخدومته. هام على وجهه ولكنه التقى بكثير من الهائمين، وعند الضرورة تسول رزقه حتى عطف عليه منادى سيارات فاستغله فى التنظيف والحراسة نظير المأوى واللقمة. وكان الرجل رب أسرة وله أطفال دون سن العمل. وارتاح لعمله الجديد وسعد به وعاش يومه كله فى الهواء الطلق. ولما بلغ المراهقة وتدرب على عمله قرر الرجل أن يختار له موقعا مستقلا نظير جعل يومى. قال له:

- إنها فرصة مليحة لا تتاح إلا لسعيد الحظ، ولا تتيسر إلا بالمال والفهلوة..

ولكى يضمن ولاءه زوجه بكبرى بناته وهى عروس لا بأس بها شكلا وموضوعا على الرغم من أنها عوراء واتخذ مسكنه مع حميه مستقلا بحجرة منفردة واستقبل حياة طيبة مثمرة.

٣

طيلة ذلك العمر جمعت مدينة واحدة بين الابن وأسرته الحقيقية، أبيه وأمه وأخواته. أما والداه الزائفان فقد نسيهما تماما، ولم يخطر له ببال أنه ابن شرعى لوالدين آخرين. ومرات كثيرة اخترقت سيارة الأب الشارع الذى يعمل فيه الابن دون أن تقع عين أحدهما على الآخر. غير أنهما تقاربا مرتين فرأى الابن أباه، وثمة احتمال أن الأب أيضا رأى ابنه. الأولى وقعت عندما كان الابن ما يزال صبيا مساعدا لحميه، إذ ركن الأب سيارته المرسيدس فى الموقف وتركها لموعد مهم مع النائب العمومى. وقف الابن على مبعدة يسيرة ينتظر دوره فى العمل فرأى أباه وهو يغادر السيارة ويمضى لعبور الطريق. مرت عينا الرجل به فيما مرت بأشياء الطريق القائمة والمتحركة. أما الابن، فقد راعه منظر الرجل بجلاله وأبهته فخلف فى باطنه أثرا عميقا وأقبل على تنظيف السيارة بحماس.

ولمح وهو يجلى زجاج النافذة سيدة فى الداخل فتنته فخامتها على رغم كهولتها ولكنها كانت مستغرقة فى قراءة جريدة فلم تلتفت نحوه.

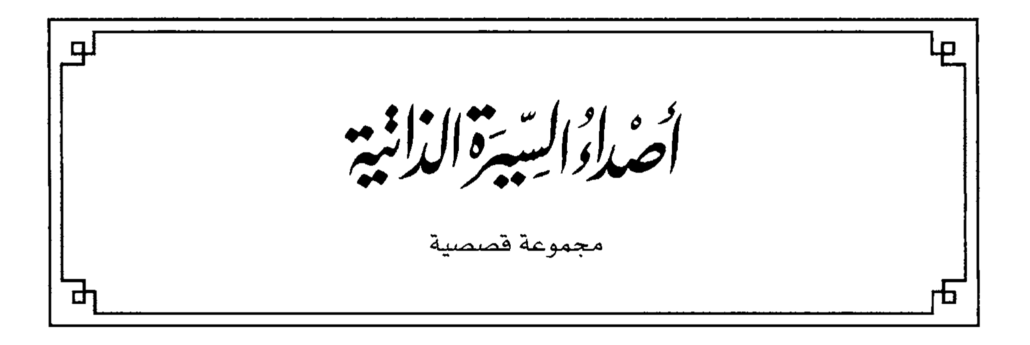
الثانية تمت فى سياق المعركة الانتخابية، فقد أقام الأستاذ سرادقا شعبيا ليوزع حلاوة المولد على الكادحين لمناسبة حلول المولد النبوى قبيل الانتخابات. فى ذلك الوقت كان الابن قد استقل وتزوج. ووقف يتفرج دون أن يشترك مع الجالسين. جاء الأب متبوعا بنفر من أعوانه وراح يوزع علب الحلاوة بنفسه ويتقبل الدعاء. وتذكره الابن وانبهر به مرة أخرى. ولما فرغ الرجل من مهمته وغادر السرادق اقترب الشاب منه مدفوعا بانجذابه وقال:

ـ هل أنبه السائق للحضور بالسيارة؟

ولكن أحد الأعوان كان قد بادر للقيام بالمهمة، فنظر الأب نحوه نظرة عابرة وقال:

ـ شكرا، ولا داعى للإزعاج.

فصادف قوله من نفس الابن منتهى الرضا.



أصداء السيرة الذاتية

مجموعة قصصية

دعـــــــاء

دعوت للثورة وأنا دون السابعة.

ذهبت ذات صباح إلى مدرستى الأولية محروسا بالخادمة. سرت كمن يساق إلى سجن. بيدى كراسة وفى عينى كآبة، وفى قلبى حنين للفوضى، والهواء البارد يلسع ساقىّ شبه العاريتين تحت بنطلونى القصير. وجدنا المدرسة مغلقة، والفراش يقول بصوت جهير:

- بسبب المظاهرات لا دراسة اليوم أيضا.

غمرتنى موجة من الفرح طارت بى إلى شاطئ السعادة.

ومن صميم قلبى دعوت الله أن تدوم الثورة إلى الأبد!

رثـــــــاء

كانت أول زيارة للموت عندنا لدى وفاة جدتى. كان الموت ما زال جديدا، لا عهد لى به عابرا فى الطريق. وكنت أعلم بالمأثور من الكلام أنه حتم لا مفر منه، أما عن شعورى الحقيقى فكان يراه بعيدا بعد السماء عن الأرض. هكذا انتزعنى النحيب من طمأنينتى، فأدركت أنه تسلل فى غفلة منا إلى تلك الحجرة التى حكت لى أجمل الحكايات.

ورأيتنى صغيرا كما رأيته عملاقا، وترددت أنفاسه فى جميع الحجرات، فكل شخص تذكره وكل شخص تحدث عنه بما قسم.

وضقت بالمطاردة فلذت بحجرتى لأنعم بدقيقة من الوحدة والهدوء. وإذا بالباب يفتح وتدخل الجميلة ذات الضفيرة الطويلة السوداء وهمست بحنان:

ـ لا تبق وحدك .

واندلعت فى باطنى ثورة مباغتة متسمة بالعنف متعطشة للجنون . وقبضت على يدها وجذبتها إلى صدرى بكل ما يموج فيه من حزن وخوف .

دين قـديم

فى صباى مرضت مرضا لازمنى بضعة أشهر . تغير الجو من حولى بصورة مذهلة وتغيرت المعاملة . ولت دنيا الإرهاب ، وتلقتنى أحضان الرعاية والحنان . أمى لا تفارقنى وأبى يمر على فى الذهاب والإياب ، وإخوتى يقبلون بالهدايا . لا زجر ولا تعيير بالسقوط فى الامتحانات .

ولما تماثلت للشفاء خفت أشد الخوف الرجوع إلى الجحيم . عند ذاك خلق بين جوانحى شخص جديد . صممت على الاحتفاظ بجو الحنان والكرامة . إذا كان الاجتهاد مفتاح السعادة فلأجتهد مهما كلفنى ذلك من عناء . وجعلت أثب من نجاح إلى نجاح ، وأصبح الجميع أصدقائى وأحبائى .

هيهات أن يفوز مرض بجميل الذكر مثل مرضى .

الحركـة القـادمـة

قال برجاء حار :

ـ جئتك لأنك ملاذى الأول والأخير .

فقال العجوز باسما :

ـ هذا يعنى أنك تحمل رجاء جديدا .

ـ تقرر نقلى من المحافظة فى الحركة القادمة .

ـ ألم تقض مدتك القانونية بها؟ . . هذه هى تقاليد وظيفتك .

فقال بضراعة :

ـ النقل الآن ضار بى وبأسرتى .

ـ أخبرتك بطبيعة عملك منذ أول يوم .

الحق أن المحافظة أصبحت وطنا لنا ولا غنى عنه .

ـ هذا قول زملائك السابقين واللاحقين ، وأنت تعلم أن ميعاد النقل لا يتقدم ولا يتأخر .

فقال بحسرة :

ـ يا لها من تجربة قاسية !

ـ لمَ لم تهيئ نفسك لها وأنت تعلم أنها مصير لا مفر منه؟

مفترق الطرق

عرفت فى بيتنا بأم البيه ـ حتى اليوم لم أعرف اسمها الحقيقى فهى عمتى أم البيه . تجلس فى حجرتها فوق الكنبة متحجبة مسبحة ، طمعت فى مصروف إضافى تسللت إلى مجلسها . وعلى فترات متباعدة تقف سيارة أمام بيتنا الصغير فيغادرها البيه ، قصيرا وقورا مهيبا ، يلثم يد أمه ويتلقى دعاءها .

زيارته تنفخ فى البيت روحا من السرور والزهو ، وقد تحمل إلى علبة من الحلوى . رجل آخر يتردد على أم البيه كل يوم جمعة . صورة طبق الأصل من البيه غير أنه يرتدى عادة جلبابا ومركوبا وطاقية وتلوح فى وجهه أمارات المسكنة . وتستقبله عمتى بترحاب وتجلسه إلى جانبها فى أعز مكان .

حيرنى أمره .

وحذرتنى أمى من اللعب فى الحجرة فى أثناء وجوده .

ولكنها لم تجد بدا فى ا لنهاية من أن تهمس لى :

ـ إنه ابن عمتك !

تساءلت فى ذهول : أخو البيه؟

أجابت بوضوح :

ـ نعم . . واحترمه كما تحترم البيه نفسه !

وأصبح يثير حب استطلاعى أكثر من البيه نفسه .

الأيام الحلوة

كنا أبناء شارع واحد تتراوح أعمارنا بين الثامنة والعاشرة. وكان يتميز بقوة بدنية تفوق سنه، ويواظب على تقوية عضلاته برفع الأثقال. وكان فظا غليظا شرسا مستعدا للعراك لأتفه الأسباب. لا يفوت يوم بسلام ودون معركة، ولم يسلم من ضرباته أحد منا حتى بات شبح الكرب والعناء فى حياتنا. فلا تسأل عن فرحتنا الكبرى حين علمنا بأن أسرته قررت مغادرة الحى كله، شعرنا حقيقة بأننا نبدأ حياة جديدة من المودة والصفاء والسلام. ولم تغب عنا أخباره تماما، فقد احترف الرياضة وتفوق فيها وأحرز بطولات عديدة حتى اضطر إلى الاعتزال لمرض قلبه، فكدنا ننساه فى غمار الشيخوخة والبعد.

وكنت جالسا بمقهى بالحسين عندما فوجئت به مقبلا يحمل عمره الطويل وعجزه البادى.

ورآنى فعرفنى فابتسم، وجلس دون دعوة. وبدا عليه التأثر فراح يحسب السنين العديدة التى فرقت بيننا ومضى يسأل عمن تذكر من الأهل والأصحاب، ثم تنهد وتساءل فى حنان:

- هل تذكر أيامنا الحلوة؟!

النسيان

من هذا العجوز الذى يغادر بيته كل صباح ليمارس رياضة المشى ما استطاع إليها سبيلا؟

إنه الشيخ مدرس اللغة العربية الذى أحيل على المعاش منذ أكثر من عشرين عاما.

كلما أدركه التعب جلس على الطوار أو السور الحجرى لحديقة أى بيت، مرتكزا على عصاه مجففا عرقه بطرف جلبابه الفضفاض.

الحى يعرفه والناس يحبونه، ولكن نادرا ما يحييه أحد لضعف ذاكرته وحواسه. أما هو فقد نسى الأهل والجيران والتلاميذ وقواعد النحو.

المطــرب

قلبى مع الشاب الجميل . وقف وسط الحارة وراح يغنى بصوت عذب :
الحلوة جاية .
وسرعان ما لاحت أشباح النساء وراء خصاص النوافذ .
ومضى الشاب هانئا تتبعه نداءات الحب والموت .

قبيل الفجر

تتربعان فوق كنبة واحدة . تسمران فى مودة وصفاء . الأرملة فى السبعين وحماتها فى الخامسة والثمانين . نسيتا عهدا طويلا شحن بالغيرة والحقد والكراهية . والراحل استطاع أن يحكم بين الناس بالعدل ، ولكنه عجز عن إقامة العدل بين أمه وزوجه ولا استطلاع أن يتنحى . وذهب الرجل فاشتركت المرأتان لأول مرة فى شىء واحد وهو الحزن العميق عليه .

وهدهدت الشيخوخة من الجموح ، وفتحت النوافذ لنسمات الحكمة .
الحماة الآن تدعو للأرملة وذريتها من أعماق قلبها بالصحة وطول العمر .
والأرملة تسأل الله أن يطيل عمر الأخرى حتى لا تتركها للوحدة والوحشة .

السـعادة

رجعت إلى الشارع القديم بعد انقطاع طويل لتشييع جنازة .
لم يبن من صورته الذهبية أىّ أثر يذكر .
على جانبيه قامت عمارات شاهقة فى موضع الفيلات ، واكتظ بالسيارات والغبار وأمواج البشر المتلاطمة .

تذكرت بكل إكبار طلعته البهية وروائح الياسمين.

وتذكرت الجميلة تلوح فى النافذة باعثة بشعاعها على السائرين.

ترى أين يقع قبرها السعيد فى مدينة الراحلين؟

ويوافينى الآن قول الصديق الحكيم: «ما الحب الأول إلا تدريب ينتفع به ذوو الحظ من الواصلين».

الطـــــرب

اعترض طريقى باسما وهو يمد يده. تصافحنا وأنا أسأل نفسى عمن يكون ذلك العجوز. وانتحى بى جانبا فوق طوار الطريق وقال:

ـ نسيتنى؟!

ـ فقلت فى استحياء:

ـ معذرة، إنها ذاكرة عجوز!

ـ كنا جيرانا على عهد الدراسة الابتدائية، وكنت فى أوقات الفراغ أغنى لكم بصوت جميل، وكنت أنت تحب التواشيح..

ـ ولما يئس منى تماما مد يده مرة أخرى قائلا:

ـ لا يصح أن أعطلك أكثر من ذلك..

قلت لنفسى: يا له من نسيان كالعدم. بل هو العدم نفسه. ولكننى كنت وما زلت أحب سماع التواشيح.

رسالة

وردة جافة مبعثرة الأوراق عثرت عليها وراء صف من الكتب وأنا أعيد ترتيب مكتبتى.

ابتسمت. انحسرت غيابات الماضى السحيق عن نور عابر.

وأفلت من قبضة الزمن حنين عاش دقائق خمس.

وند عن الأوراق الجافة عبير كالهمس .

وتذكرت قول الصديق الحكيم : «قوة الذاكرة تنجلى فى التذكر كما تنجلى فى النسيان» .

عتـــــاب

همت على وجهى حاملا طعنة الغدر بين أضلعى .

وقال الصديق الحكيم : ليست أول من كابد الهجران .

فسألته : أليس للشيخوخة مقام؟

فقال : غر من يعشق قصة معادة قديمة .

ووقفت تحت شجرة الكافور أرنو من بعيد إلى الملهى .

وهى تجلس وسط الشرفة يشع منها نور الإغراء المبين .

لا يدركها كبر ولا يمسها انحلال .

وتخطانى بنظرة لا مبالية فليس لقرارها تبديل، بل وسوف أرجع وحيداً كما بدأت .

التلـقـين

جلست فى السرادق أنتظر تشييع الجنازة .

خيمت فوقنا ذكريات ذلك العهد القديم .

وجاء رجال ذلك العهد يسيرون رجلا وراء رجل كانت الأرض تزلزل لأى منهم إذا خطا .

اليوم هم شيوخ ضائعون لا يذكرهم أحد .

وجاء خلفاؤهم تنحنى الأرض تحت وطأة أقدامهم تقول نظراتهم الثابتة إنهم ملكوا الأرض والزمن .

أخيرا، هلّ النعش فوق الأعناق فتخطى الجميع وذهب .

الوظيفة المرموقـة

أخيرا مثلث بين يدى مدير مكتبه. وصلت بفضل اجتهاد مضن وشفاعة الوجهاء المكرمين.

ألقى نظرة أخيرة على التوصيات التى قدمتها، ثم قال:

ـ لشفعائك تقدير وأى تقدير، ولكن الاختبار هنا يتم بناء على الحق وحده.

فقلت برجاء:

ـ إنى على أتم استعداد للاختبار.

ـ أرجو لك التوفيق.

فسألته بلهفة:

ـ متى ندعى للامتحان؟

فتجاهل سؤالى وسألنى:

ـ ولماذا هذه الوظيفة بالذات على ما تتطلبه من جهد خارق؟

فقلت بإخلاص:

ـ إنه الحب، ولا شىء سواه.

فابتسم ولم يعلق.

ورجعت وأنا أتذكر قول صديقى الحكيم: «من ملك الحياة والإرادة فقد ملك كل شىء، وأفقر حى يملك الحياة والإرادة».

الصـور المتحركة

هذه الصورة القديمة جامعة لأفراد أسرتى..

وهذه جامعة لأصدقاء العهد القديم.

نظرت إليهما طويلا حتى غرقت فى الذكريات..

جميع الوجوه مشرقة ومطمئنة وتنطق بالحياة.
ولا إشارة ولو خفيفة إلى ما يخبئه الغيب.
وها هم قد رحلوا جميعا فلم يبق منهم أحد.
فمن يستطيع أن يثبت أن السعادة كانت واقعا حيا، لا حلما ولا وهما.

العـــــدل

ذهبت إلى محام معروف بلا تردد. ما أجمل صراحته حين قال لى:
- أنت صاحب حق ولكن خصمك أيضا صاحب حق.
فقلت له:
- عرضت عليه أن نحتكم إلى شخص يكون موضع ثقتنا معا.
- هيهات أن يوجد هذا الشخص فى زماننا.
- لدى خطابات مسجلة ستعرف منها المحكمة حسن نيتى.
- قد يطعن فيها بالتزوير.
- الحق أنى برىء مائة فى المائة.
- لا يوجد إنسان برئ مائة فى المائة.
- ليس الأمر بالمستحيل.
ألم تهدده فى لحظة غضب بالقتل؟
هو نفسه لم يأخذ كلامى مأخذ الجد.
- بل قام باحتياطات كثيرة، وزار الأضرحة ونذر النذور. فهتفت ضاحكا:
- هذا هو الجنون.
- عليك أن تثبت أنه مجنون خاصة، وأن محاميه سيحاول من ناحيته أن يثبت جنونك.
فأغرقت فى الضحك حتى قال المحامى:
- لا يوجد ما يدعو إلى الضحك.
- اتهامى بالجنون مثير للضحك.

ـ بل إنه يدعو للأسى .

ـ لماذا يا سيدى؟

ـ الجنون يدعو للأسى .

ـ طالما أنى عاقل فلا أهمية للاتهام .

ـ ولكن عدم الاهتمام قد يعنى الجنون نفسه .

فسألته بذهول :

ـ هل يداخلك شك فى عقلى؟

بل إنى على يقين ، اختلافكما المزمن يدل على جنونكما معا .

لكنك أبديت استعدادا طيبا للدفاع عنى؟

ـ إنه واجبى!

وتنهد المحامى من أعماقه وواصل :

ـ ولا تنس أننى مجنون مثلكما . .

من التـاريـخ

فى ذلك الوقت البعيد قيل إنه هاجر أو هرب . والحقيقة أنه كان يجلس على العشب على شاطئ النيل مشتملا بأشعة القمر . يناجى أحلامه فى حضرة الجمال الجليل .

عند منتصف الليل سمع حركة خفيفة فى الصمت المحيط . ورأى رأس امرأة ينبثق من الماء أمام الموضع الذى يفترشه . وجد نفسه أمام جمال لم يشهد له مثيلا من قبل . ترى أتكون ناجية من سفينة غارقة؟ لكنها كانت غاية فى العذوبة والوقار فداخله الخوف ـ وهمّ بالوقوف تأهبا للتراجع ، ولكنها قالت له بصوت ناعم :

اتبعنى .

فسألها وهو يزداد خوفا .

ـ إلى أين؟

ـ إلى الماء لترى أحلامك بعينيك .

وبقوة سحرية زحف نحو الماء وعيناه لا تتحولان عن وجهها .

الأشباح

عقب الفراغ من صلاة الفجر، رحت أتجول فى الشوارع الخالية، جميل المشى فى الهدوء والنقاء بصحبة نسائم الخريف. ولما بلغت مشارف الصحراء جلست فوق الصخرة المعروفة بأم الغلام.

وسرح بصرى فى متاهة الصحراء المسربلة بالظلمة الرقيقة. وسرعان ما خيل إلى أن أشباحا تتحرك نحو المدينة. قلت: لعلهم من رجال الأمن. ولكن مر أمامى أولهم فتبينت فيه هيكلا عظميا يتطاير شرر من محجريه.

واجتاحنى الرعب فوق الصخرة. وتسللت الأشباح واحدا فى إثر آخر.

تساءلت وأنا أرتجف عما يخبئه النهار لمدينتى النائمة..

قطار المفاجآت

فى عيد الربيع يحلو اللهو ويطيب. وقفنا جماعة من التلاميذ فى بهو المحطة بالبنطلونات القصيرة. وبيد كل سلة من القش الملون مملوءة بما قسم من طعام. وكان علينا أن نختار بين رحلتين وقطارين. قطار يذهب إلى القناطر الخيرية، وآخر يمضى إلى جهة مجهولة يسمى بقطار المفاجآت.

قال أحدنا:

ـ القناطر جميلة ومضمونة.

فقال آخر:

المغامرة مع المجهول أمتع.

ولم نتفق على رأى واحد.

ذهبت كثرة إلى قطار القناطر.

وقلة جرت وراء المجهول.

حمام السلطان

حلمت مرة أننى خارج من حمام السلطان. تعرضت لى جارية ودعتنى إلى لقاء سيدتها. ومالت بى فى الطريق إلى حجرتها لتهيئنى للقاء كما يملى عليها واجبها.. وألهانى التدريب عن غايتى حتى كدت أنساها. ولما وجب الذهاب، ذهبت إلى السيدة الجميلة وأنا من الخجل فى نهاية. ووقفت بين يديها منهزما وقد علانى الصدأ.

هكذا تحول الحلم إلى كابوس.

وكان لابد من معجزة لتشرق الشمس من جديد.

العقاب

رآه ماثلا أمامه كالقدر. غاب طويلا ولكن لم ينحن له ظهر أو يرق بصر. بسرعة انقضاض الزلزال جرى شريط الذكريات الدامية. وسحب وراءه صورة أسرته البريئة التى عرفته مثالا للاجتهاد والرزق الحلال جاهلة ما وراء ذلك.

- اتفقنا على أن نفترق إلى الأبد.

فقال له الزائر بهدوء:

- للضرورة أحكام وإنى مهدد بالإفلاس.

وقال لذاته: إن طوفان الابتزاز يبدأ بقطرة،

- كنا شريكين فما يصيبنى يصيبك.

فقال الزائر:

- عند اليأس أقول: علىّ وعلى أعدائى يارب! أسرته هى ما يهمه، حتى إذا كان الانتحار هو الحل.

المـــرح

نظرت إلى بعينين باهتتين ذابلتين. النظرة تشكو مر الشكوى وتريد أن تبوح ولكن اللسان عاجز.

كنت أعودها والحجرة خالية.

الجلد متهرئ والعظام بارزة والأركان تفوح منها رائحة الموت.

يا صاحبة المداعبات التى لا تنسى.

طفولتى عامرة بمداعباتك اللطيفة.

لم يكن يعيبك إلا الإغراق فى المرح.

أى نعم.. الإغراق فى المرح.

فرصة العمر

صادفتها تجلس تحت الشمسية، وتراقب حفيدها وهو يبنى من الرمال قصورا على شاطئ البحر الأبيض.

سلمنا بحرارة، جلست إلى جانبها، عجوزين هادئين تحت مظلة الشيب.

وضحكت فجأة وقالت:

ـ لا معنى للحياء فى مثل عمرنا، فدعنى أقص عليك قصة قديمة.

وقصت قصتها وأنا أتابعها بذهول حتى انتهت. وعند ذاك قلت:

ـ فرصة العمر أفلتت، يا للخسارة!

رسالة لم تكتب

فى عام واحد علمت بتعيين همام رئيسا لمحكمة استئناف الإسكندرية، كما قرأت خبر تنفيذ حكم الإعدام فى سيد الغضبان لقتله راقصة. كنا ـ أنا وهمام والغضبان ـ أصدقاء طفولة، وكان الغضبان بؤرة الإثارة لجمال صوته ونوادره البذيئة. وافترقنا قبل أن نبلغ

التاسعة فمضى كل إلى سبيله . عرفت من بعض الأقارب بانخراط همام فى سلك الهيئة القضائية ، وتابعت أنباء الغضبان فى الصحف الفنية كبلطجى من بلطجية الملاهى الليلية .

والحق أن خبر الإعدام هزنى ، وطار بى على جناح التأمل إلى العهد القديم . وفكرت أن أكتب رسالة إلى همام أضمنها تأثرى وتأملاتى . وشرعت فى الكتابة ، ولكننى توقفت وفتر حماسى أن يكون قد نسى ذلك العهد وأهله أو أنه لم يعد يبالى بهذه العواطف .

الزيارة الأخيرة

لولا المعلم عبد الدائم لضاع كل وافد على المدينة القديمة . يستقبل الوافدين فى مقهى المعز ثم يفتح لكل مغلق الأبواب . وكان عبد الله أحد أولئك الوافدين .

ما لبث أن ألحقه بوظيفة مساعد بواب فحمد الرجل ربه على الرزق والمأوى . وحثه على الرشد والتدبير حتى زوجه من بنت الحلال . وجعل عبد الله يزوره فى المقهى من حين لآخر اعترافا بفضله وإحسانه ، غير أنه لما استغرقه العمل وتربية الأولاد ندرت زياراته حتى انقطعت . وبلا الرجل الحياة بحلوها ومرها ، وتصبر حتى وقف الأولاد على أقدامهم وانطلق كل فى سبيل . ومع تقدم السن شعر عبد الله بأنه آن له أن يستريح وينفض عن رأسه الهموم . وفى فراغه تذكر المعلم عبد الدائم فشعر بالخجل والندم ، وصمم على زيارته داعيا الله أن يجده متمتعا بالصحة والعافية . وقصد مقهى المعز وهو يعد نفسه للاعتذار وطلب العفو . لاحظ من أول نظرة ما حل بالمقهى من تجديد وفرنجة فى الأثاث والخدمة والزبائن ولم يعثر لصاحبه على أثر . ووضح له أن أحدا لم يسمع به . وظهر عجوز يسرح بالمسابح والبخور ، وكان الوحيد الذى تذكره ، والوحيد الذى يعرف منزله بالإمام ، ولا يعرف عنه أكثر من ذلك . ولم تحل تلك الصعوبات بين الرجل ورغبته فمضى من فوره إلى الإمام ، كان يقوده شعور قوى بالوفاء ، وبأنه ذاهب إلى غير رجعة . .

الرحمة

البيت قديم وكذلك الزوجان . .

هو فى الستين وهى فى السبعين

جمعها الحب منذ ثلاثين عاما خلت، ثم هجرهما مع بقية الآمال .

ولولا ضيق ذات اليد لفر العصفور من القفص .

يعانى دائما من شدة نهمه للحياة، وتعانى هى من شدة الخوف .

ويسلى أحلام يقظته بشراء أوراق اليانصيب لعل وعسى .

كلما اشترى ورقة غمغم : «رحمتك يارب» .

فيخفق قلب المرأة رعبا وتغمغم «رحمتك يارب» .

البحث

لدى المساء قصد المدفن الذى يجتمع فيه مع بعض الأقران للسمر والمرح وتبادل أنات الشكوى . وسأله أحدهم :

كيف انتهى سعيك هذا اليوم؟

فأجاب بفتور :

ـ كالأيام السابقة .

فقال آخر :

ـ إنك تضيع وقتك بين أوغاد، وعندنا أقصر طريق للرخاء .

فقال بامتعاض :

ـ وهو أقصر طريق إلى السجن أيضا!

فقال الآخر ساخرا :

ـ الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم .

سؤال وجواب

سأل العجوز السيدة :

ـ معذرة يا صديقة العمر، لماذا تبذلين نفسك للهوان؟

فأجابت بوجوم:

- من حقك علىّ أن أصارحك بالحقيقة، كنت أبيع الحب بأرباح وفيرة، فأمسيت أشتريه بخسائر فادحة، ولاحيلة لى مع هذه الدنيا الشريرة الفاتنة.

التحدى

فى غمار جدل سياسى سأل أحد النواب وزيرا:

- هل تستطيع أن تدلنى على شخص طاهر لم يلوث؟

فأجاب الوزير متحديا:

- إليك - على سبيل المثال لا الحصر - الأطفال والمعتوهين والمجانين، فالدنيا ما زالت بخير..

المليم

وجدت نفسى طفلا حائرا فى الطريق. فى يدى مليم، ولكنى نسيت تماما ما كلفتنى أمى بشرائه. حاولت أن أتذكر ففشلت، ولكن كان من المؤكد أن ما خرجت لشرائه لا يساوى أكثر من مليم..

دموع الضحك

قلت له:

- الحمد لله، لقد أديت رسالتك كاملة، وبلغت بأسرتك بر الأمان. وانتزعت من وحش الأيام أنيابه الضارية، فآن لك أن تخلد إلى الراحة والسكينة فى الأيام القليلة الباقية.

حدجنى بارتياب وسألنى:

- هل تذكر أيامنا الطاهرة فى الزمان الأول؟

قرأت هواجسه فقلت :

- ذاك زمان قد مضى وانقضى .

فقال بنبرة اعتراف :

- يا صديقى الوحيد، فى عز النصر والرخاء، كثيرا ما بكيت الكرامة الضائعة .

الحوار

رجع الأب إلى البيت فوجد الأبناء فى انتظاره، أخرج حافظة نقوده متجهما وغمغم :

- الأب فى زماننا شهيد .

فالتزموا الصمت

ثم تفرقوا تفرق الشهداء .

المتسول

إنه يسبح فى بحر الماضى فتغمره موجة مخضبة بلون قاتم وصداها ينداح فى نغمة حزينة لا تتلاشى

عندما يكون المرء فى العشرين وجارته فوق الخمسين وقد وهبته من الذكريات الحنان والأمومة .

وفى خلوة بريئة تهل خواطر من عالم الرغبات المتوهجة .

وتند عن لمعة العين حرارة النداء .

يشكمه الحياء قليلا وشىء كالخوف .

يرافقه بعد ذلك الندم

ويتسول النسيان .

الوحـدة

لزق المنظر البشع بذاكرتها يتزحزح. منظر كف الضابط العمياء وهى تهوى على خد أبيها العليل وبقدر ما كانت تحب أباها وتقدسه بقدر ما خاصمت كل شيء، نفسها والعالم من حولها. وتتقدم بها السن وهى وحيدة ترمقها ثقوب الكون برثاء.

عيد الميلاد

ما أكثر ما يسير بلا هدف. وإذا التعب نال منه توقف، لكنه لا يكف عن مناجاة الأشياء الثابتة والمتحركة.

فى نهاية هذا العام يبلغ الثلاثين من عمره..

سؤال بعد ثلاثين عاما

يعد انقطاع عشرين عاما عن حى الشباب دعتنى مناسبة إلى عبوره. لولا ما جاش فى صدرى من عواطف نائمة ما عرفته فى عمائره الجديدة وزحامه الصاخب. وثبتت عيناى على بيت قديم بقى على حاله فشعرت بابتسامة ترف على الروح والجسد. إنها اليوم وحيدة فى الثمانين.. وآخر لقاء جمع بيننا بالمصادفة منذ ثلاثين عاما حين أخبرتنى بهجرة وحيدها إلى الخارج بصفة نهائيه. ومضيت ومظلتى وقصدت الباب بعد تردد وضغطت على الجرس. فتحت شراعة الباب عن وجه امرأة غريبة فداريت ارتباكى بسؤال:

ـ ألا تقيم ست سامية هنا؟

فأجابت بسرعة:

ـ نحن نقيم هنا منذ ثلاث سنوات!

تحولت عن موقفى فى حيرة. وذهبت إلى مشوارى وأنا أتساءل: ترى أين هى؟ هل تقيم فى حى آخر، هل لحقت بابنها فى الخارج، هل رحلت عن دنيانا دون أن نعلم رغم القربى؟. وهل يصلح ذلك نهاية لذلك التاريخ المؤجج بالعواطف والأحلام!.

وجمعنى فى نفس العام مأتم مع الباقين من الأسرة فسألت أحدهم:

ـ ماذا تعرف عن ست سامية؟

فرفع حاجبيه بدهشة وقال:

ـ أعتقد أنها ما زالت تقيم فى البيت القديم!

وجه من الماضى

رأيت ست نفوسة فى المنام. ماذا جاء بك بعد غياب سبعين عاما بل يزيد. كانت طلعتك بهية وبشرتك صافية وشعرك غزيرا. وكان بيتك يطل على النيل، وكنا نزورك كثيرا وكنت أعتبر أوقات زيارتك من أسعد الأوقات، ومن نافذة الحجرة كنت أغوص ببصرى فى الأمواج الهادئة فيسبح حتى الشاطئ البعيد.

ولم يبق من الحلم إلا وجهك، وتساؤلى: ترى أما زالت على قيد الحياة!

أما وقائع الحلم فقد تلاشت بعد استيقاظى مباشرة.

المطر

دفعنا المطر إلى مدخل بيت قديم. فى الخارج صوت انهلال المطر وهزيم الرعد، وفى الداخل لون المغيب. وقفنا متقابلين فى المدخل الضيق، وليس معنا إلا بئر السلم وأفكارنا الخفية. قلت لنفسى: يا لها من امرأة! وسرحت هى فى الجو البارد معتزة محتشمة.

قالت وكأنما تحدث نفسها:

ـ هذا المطر مقلب ما بعده مقلب.

فقلت وأنا حائر بخواطرى:

ـ إنه رحمة للعالمين.

رجـل الســاعة

دائما هـو قـريب منى. لا يبرح بصرى أو خيالى، يريق علىّ نظراته الهادئة القوية. من وجه محايد فلا يشاركنى حزنا أو فرحا. ومن حين لآخر ينظر فى ساعته موحيا إلىّ بأن أفعل مثله، أضيق به أحيانا ولكن إن غاب ساعة ابتلانى الضياع، جميع ما لا قيت فى حياتى من تعب أو راحة من صنعه. وهو الذى جعلنى أتوق إلى حياة لا يوجد بها ساعة تدق.

الساحرة

مرت بى فى خلوتى كالوردة اليانعة فوق الغصن النضير. وانهمرت ذكريات تلك الأيام الباهرة وذهلت لسرعة الزمن. وكنت شكوت إلى صديقى الحكيم بعض ما لقيت، فعقب على شكواى قائلا:

ـ هل تنكر حظك من دفء الدنيا ونشوتها؟

فعددت الحسنات إقراراً منى بفضل الوهاب فقال:

ـ جميع تلك الحظوظ ثمرة لإعراضها.

وبعد صمت قصير سألنى:

ـ ألا تذكر إثارة من إقبالها؟

فقلت:

ـ نظرة رضا عابرة تحت النخلة!

ـ هل تذكر مذاقها؟

ـ أطيب من جميع الحظوظ مجتمعة.

فقال بهدوء:

ـ لذلك أقول لك إنها سر الحياة ونورها.

شـق الطريق

كنت أنتظر لصق جدار بالطريق الضيق المكتظ بالناس والدكاكين. في ذلك التاريخ كنت معذبا فى مقام الحيرة تتجاذبنى رياح متضاربة. وجذبتنى قوة خفية إلى ناحية ما فرأيت عجوزا وقورا يشع طيبة وصفاء.

أقبل نحوى حتى صار على بعد شبر منى، وهمس:

ـ إنها لا تساوى شيئًا..

أيقنت أنه قرأ هو اجسى وأنه يدعونى إلى قطع الروابط.

ارتجفت جوارحى وخفق قلبى بشدة.

وتبدى لى الإغراء فى صورة حسناء لم أشهد لجمالها مثيلا من قبل.

لكنى ترددت.

وفى تلك الآونة رجعت زوجتى حاملة قراطيس العطارة جارة أبنائى الثلاثة.

وأفقت من غشيتى، وحملت الأصغر بين يدى، وتقدمت أسرتى أشق لها طريقا وسط الزحام.

رجل يحـجز مقعـدا

بدأ الأوتوبيس مسيرته من الزيتون فى نفس اللحظة التى انطلقت فيها سيارة رجل من مسكنه فى حلوان.

غيرت كل منهما سرعتها، أسرعت وأبطأت، وربما توقفت دقيقة أو أكثر تبعا لما لاقته فى سيرها من ظروف الطريق.

ولكنهما بلغا ميدان المحطة فى وقت واحد، بل ووقع بينهما صدام خفيف، أتلف مصباح الأوتوبيس وكشط مقدم السيارة.

وكان رجل يمر فانحصر بين السيارتين، وسقط فاقد الحياة.

كان يعبر الميدان ليحجز مقعدا فى قطار الصعيد.

سر الرجل

كان يمر بمجالسنا وهو يصيح :

ـ إنها آتية لا ريب فيها .

ثم يمضى مهرولا فلا يبقى منه إلا منظر ثيابه المهلهلة ونظرته الشاردة .

ووقعت الكارثة . .

قوم قالوا : إنه ولى من الأولياء .

وقوم قالوا : ما هو إلا عميل من العملاء .

هدية

فى عزلة الشيخوخة وعجزها ينتشر التأمل مثل عبير البخور . .

وقال لصاحبه العاكف على العبادة وكأنه يعتذر :

ـ فى زحمة هموم أسرتى ومطالب الشئون العامة ضاع عمرى ، فلم أجد وقتا للعبادة .

فى تلك الليلة زاره فى المنام من أهدى إليه وردة بيضاء وهمس فى أذنه :

ـ هدية لا يستحقها إلا العابدون الصادقون!

القبر الذهبى

رأيت فى المنام قبرا ذهبيا قائما تحت أغصان شجرة سامقة مغطاة بالبلابل الشادية .

وعلى صدره نقشت بأحرف جميلة واضحة كلمات تقول :

هنيئا لمن كانت نشأته فى بوتقة الهجران .

الرســـالة

عثرت يوما على وردة مطروحة تحت قدمى. لم تخل من إثارة رونق فالتقطتها.

وإذا بورقة مطوية مربوطة بخيط أبيض حول عودها الأخضر. بسطتها بفضول فقرأت «تعال، ستجدنى كما تحب».

سرحت فى ابتسامة وتساءلت: كيف أخطأت الرسالة هدفها. لماذا ألقى بها فى التراب؟

وهمت حينا فى وادى الفروض والاحتمالات، ولكنى أثنيت على الدنيا التى لا ينضب فيها معين الحب.

ونسمت على نسائم من الماضى البعيد فخفق القلب بقدر ما أتيح له.

وفجأة تجاوزت ترددى القديم.

وعزمت على أن أبدأ الإجراءات ليكون لى مدفن فى هذه المدينة المترامية.

النــداء

أحيانا يظهر لى بوجهه الجميل فيلقى إلىّ نظرة رقيقة ويهمس:

«اترك كل شىء واتبعنى».

قد يلقانى وأنا فى غاية الإحباط، وقد يلقانى وأنا فى نهاية السرور، ودائما ينتزع من صدرى الطرب والعصيان.

وكلانا لم يعرف اليأس بعد.

المنشـود

فى غمار شيخوخة وعزلة وأفكار يقطر منها ماء الورد.

ترددت أنفاس الوعد المنشود.

ودق الجرس على غير توقع وجاءت الجارة مستأذنة .
واندمجت فيما أنا مندمج فيه حتى آمنت بأنها الوعد المنشود .

الغـوص فى المـاء

شهد ذات ليلة خسوف القمر . وتلقى من تعاسته المتوارية خلف الغلالة المظلمة كآبة قطعت ما بينه وبين الأشياء . لم يعد يأنس لشىء واحتار الأطباء فيه . ونصح بالهجرة إلى مكان ناء لتغيير المنظر والمخبر . ذهب يائسا يتجول على شاطئ البحر . وعلى بعد رأى شمسية تستكين فيها امرأة شبه عارية غاية فى الجمال والسكينة . انجذب نحوها كأول شىء يلقاه فلا يبعث فى نفسه الكآبة والوحشة ، وشعر بأنها ترحب به دون كلمة أو حركة فاستخفه الطرب . وقامت متوجهة نحو الماء فتجرد من ثيابه وتبعها . وخاضا فى الماء معا دون أن يلقيا على ما رواءهما نظرة واحدة .

التـوبـة

مرت أمامى الجميلة الفاتنة وهى تتأود وتتنهد ، فلم ألتفت إليها .
نعمت فى ذلك الوقت الجاف بإرضاء كبرياء الزهد والإعراض عن مغريات الدنيا .
وثبت إلى طبيعتى فى ليلة قمرية ذات بهاء .
وسعيت وراء الجميلة الفاتنة وأنا مشفق من العقاب ، ولكنها تلقتنى بابتسامة وقالت :
ـ لتهنأ بمصيرك فإننى أقبل التوبة .

التسبيح

فى وضح النهار والحارة تموج بأهلها من النساء والرجال والأطفال ، والدكاكين على الصفين تستعد لاستقبال الزبائن .

فى وضح النهار سقط رجل ضعيف ضحية لعملاق جبار .

وشاهد الناس الجريمة . وتواروا فى برج الخوف .

لم يشهد منهم أحد ومضى القاتل آمنا .

وشهد الدرويش الحادث ولكنه لم يُسأل للاعتقاد الراسخ فى بلاهته .

وغضب الأبله غضبا كدما (عضوضا) فعزم على الانتقام من الجميع .

كلما واتته فرصة قضى على رجل أو امرأة وهو يسبح لله .

النصيحة

كان لنا جار من المريدين . وكان يدعو شيخه كل ليلة خميس لإقامة الذكر والإنشاد .

وكنت أقف مع الصبية المتجمعين وراء المدعوين المتربعين على الأبسطة .

وكان الذكر يمتعنا والإنشاد يطربنا .

ومرة سأل الشيخ سائل من المريدين :

«نراك وجيها فى منظرك ، بادى الصحة والعافية ، تحب الأكل والشرب ، ولست كالشيوخ الزاهدين؟

فقال الشيخ بصوت سمعه الجميع :

- نحن قوم نعمل لنرتزق ولا نتسول ، نقبل على دنيا الله ولا نعرض عنها ، قرة أعيننا فى العشق والسكر ، وسياحتنا الليلية من التأمل والذكر .

ليلة القدر

زينا حجرة الاستقبال بالورود . وتسلّل البخور من نوافذ بيتنا إلى عرض الطريق . وأعددنا من أسباب السرور ما يلذ السمع والبصر والذوق .

وأملنا كالآخرين أن ينزل الشيخ فى ضيافتنا ويسهر عندنا ليلة القدر . واستغرق والداى فى التلاوة وجعلت أذهب وأجىء بين النافذة والباب المفتوح .

وفجأة تعالت فى جلال الليل زغرودة من بيت أحد الجيران .

وتبادلنا نظرات الأسى فى صمت .

وقال أبى متنهدا :

ـ لا يريد الحظ أن يبتسم بعد .

همسة عند الفجر

فى مرحلة حاسمة من العمر عندما تسنم بى الحب ذروة الحيرة والشوق همس فى أذنى صوت عند الفجر :

هنيئا لك فقد حم الوداع

وأغمضت عينى من التأثر ، فرأيت جنازتى تسير وأنا فى مقدمها أسير حاملا كأسا كبيرة مترعة برحيق الحياة .

الهجر

لم أشعر بأنه مات حقا إلا فى مأتمه .

شغلت المقاعد بالمعزين وتتابعت تلاوة القرآن الكريم . وانهمك كل متجاورين فى حديث ، فذكرت حوادث لا حصر لها . إلا الراحل فلم يذكره أحد .

حقا لقد غادرت الدنيا أيها العزيز ، كما أنها قد غادرتك .

هيهات

ما ضنت على بشىء جميل مما تملك .

فنهلت من ينبوع الحسن حتى ارتويت .

ولكن البطر بالنعمة قد يرتدى قناع الضجر
ومن أمارات خيبتى أنى فرحت بالفراق.
وعلى مدى طريقى الطويل لم يفارقنى الندم
وحتى اليوم يرمقنى هيكلها العظمىّ ساخرا.

البلهاء

كانت خادمة بلهاء ويدعونها الشيخة، وكانت الست وحيدة فى الحلقة السادسة. وكان البيت يضطرب أحيانا تحت وطأة الرغبة. وتسلل الاضطراب إلى روح الخادمة البلهاء فاستحوذت عليها الكآبة. وسألتها الست وكانت تعطف عليها:

- مالك يا شيخة؟

فأجابت بتأفف:

- أنا ذاهبة..

فانزعجت الست وتساءلت:

- وتتركيننى وحدى يا شيخة؟

فقالت بحدة:

- لست وحدك يا فاجرة.

الطاهر

رأت الشيخة رجلا حائرا وهى تسير فى السوق بجلبابها الأبيض وخمارها الأخضر فسألته:

- عم تبحث يا رجل؟

فأجاب بصبر نافد:

- أبحث عن ماء طاهر.

فقالت بلهجة لم تخل من عتاب:

ـ لا يوجد ما هو أطهر من عرق المرأة.

الحيـــــاة

أجبرتنى ظروف الحياة يوما لأكون قاطع طريق وبدأت أولى ممارساتى فى ليلة مظلمة فانقضضت على عابر سبيل.

ـ وارتعب الرجل بشدة شارفت به الموت وهتف برجاء حار:

ـ خذ جميع ما أملك حلالا لك، ولكن لا تمس حياتى بسوء.

ومنذ تلك اللحظة وأنا أحوم بروحى حول سر الحياة!

فى الحجرة الواسعة

فى المنام رأيتنى فى حجرة واسعة عالية السقف، خالية من الأثاث عدا مائدة مستديرة فى الوسط حولها كرسيان متقابلان. جلست على كرسى وجلس على الآخر صديق حميم وأمام كل منا فنجان قهوة. وثمة باب يفضى إلى حجرة أخرى مظلمة جدا لا أدرى شيئًا عما بداخلها.

وقال صديقى:

ـ علينا أن ننجز المهمة.

فقلت موافقا:

ـ لا بد من إنجازها.

وفجأة قام صديقى فمضى نحو الحجرة المظلمة واختفى، وتبين لى بعد ذهابه أن القهوة اختفت من فوق المائدة فناديت عليه.

لم أسمع ردا ولكن ظهر شخص غريب فجلس مكانه وقد لفت انتباهى بعباءته البيضاء. ورغم أننى لم أكن أعرفه إلا أننى قلت لنفسى إن وجوده خير من عدمه، أما هو فقد وضع أمامه كأسا، وكأسا أمامى، وقال:

ـ لنشرب نخب الضوء والظلام .

رفعت الكأس لأشرب ، ولاحت منى التفاتة إلى داخلها فرأيت وجه صديقى الغائب يرنو إلى ، فارتعشت يدى وقلت للجالس أمامى :

ـ لا بد من إنجاز المهمة .

اللحــن

فى حلم ثان وجدتنى فى حجرة متوسطة يضيئها مصباح غازى يتدلى من سقفها . فى ركن منها جلس جماعة من الرجال والنساء على شلت متقابلة يتسامرون ويضحكون بأصوات مرتفعة . لم يكن فى الجدران باب ولا نافذة إلا فتحة صغيرة فى اتساع عين منظار ، مرتفعة بعض الشيء فلم أر منها إلا سماء تتوارى وراء السماء . شعرت برغبة شديدة فى العودة إلى أهلى ودارى . ولم أدر كيف يمكن أن يتيسر لى ذلك وسألت السمار :

ـ أكرمكم الله ، كيف أستطيع الخروج من هنا؟

فلم يلتفت إلى أحد ، وواصلوا السمر والضحك . وغزت الوحشة أعماقى . عند ذاك لاح من خلال الفتحة وجه غير واضح المعالم وقال لى :

ـ إليك هذا اللحن ، إحفظه منى جيدا ، وترنم به عند الحاجة ، وستجد فيه الشفاء من كل هم وغم .

الفـتنــــة

كنت أتمشى عند الباب الأخضر ، فصادفت درويشا منتحيا جانبا بامرأة . كانت وسيطة العمر ، ريانة الجسم فواحة الأنوثة ، محتشمة النظرة .

ولما اقتربت منهما سمعتها تقول :

ـ يا سيدنا ، إنى أرملة ، أعيش مع شقيقتى ، مستورة والحمد لله ، ولكنى أخاف الفتنة .

فقال لها :

ـ أدى الفرائض .

فقالت بصدق :

ـ لا تفوتنى فريضة .

وأضافت :

ـ وأسمع تلاوة القرآن لدى كل فرصة .

فقال :

ـ لن يمسك الشيطان .

فقالت :

ـ ولكنى أخاف الفتنة .

المعركة

رجعت إلى الميدان بعد زيارة للمشهد الحسينى . رأيت زحاما يحدق براقصة وزمار . الزمار يعزف ، والراقصة تتأود لاعبة بالعصا ، والناس يصفقون والوجوة تتألق بالسرور والنشوة . فكرت غاضبا كيف أفض الجمع . ولكن فى لحظة نور رأيت فى مرمى الزمن الجميع يهرولون نحو القبر . كأنهم يتسابقون حتى لم يبق منهم أحد .

عند ذاك وليتهم ظهرى وذهبت .

الأضواء

استعدت الكاميرا فى موقعها ، وضبطت الأضواء ، وأشار المخرج ببدء التصوير .

تلاقى حبيبان ودار حوار . انتهى تصوير اللقطة .

همس الموزع للمنتج وهما يجلسان على مبعدة يسيرة وراء الكاميرا :

ـ لن تصلح لأدوار الحب بعد اليوم ، قلبى معها . أشعلت الممثلة سيجارة لتريح أعصابها من عناء التمثيل .

ووقف المؤلف فى زاوية بعيدا عن الأضواء يصغى ويتابع ، لا يبالى به أحد .

على مائدة الرحمن

عمرت مائدة الرحمن بالصائمين. ولما ترامى إليهم الأذان تأهبوا وبسملوا، وهتف رجل ذو شأن:

ـ طعامنا حرام على من بقلبه زيغ.

وندت عن رجل ضحكة عالية لفتت إليه الأنظار.

أمسك عن الضحك وقال:

ـ عندى غذاء أجمل فأصغوا إلىّ

ولكنهم أقبلوا على الطعام وهم يسخرون من الرجل.

ولما امتلأت البطون وثقلت الأجفان فغفوا اغفاءة قصيرة. ورأوا فى نومهم عالما يفتن ويسحر. ولما استيقظوا توجهوا نحو الرجل الضاحك فلم يجدوا له أثرا.

وترك الغائب فى كل قلب لوعة..

البليـاردو

جلست فى ركن المقهى الذى تقوم فيه مائدة البلياردو.

وجاء رجل نشط وراح يلاعب نفسه فيرمى الكرة مرة ويرد فى الأخرى.

وقلت له بأدب:

ـ هل تسمح لى أن ألاعبك فهو أجلب للمتعة؟

فقال دون أن ينظر إلىّ:

ـ بل المتعة أن ألعب وحدى وأن يتفرج الآخرون.

ونظرت حولى فرأيت جميع الزبائن يغطون فى النوم.

اللؤلـؤة

جاءنى شخص فى المنام ومد لى يده بعلبة من العاج قائلا :

ـ تقبل الهدية .

ولما صحوت وجدت العلبة على الوسادة .

فتحتها ذاهلا ، فوجدت لؤلؤة فى حجم البندقة .

بين الحين والحين أعرضها على صديق أو خبير وأسأله :

ـ ما رأيك فى هذه اللؤلؤة الفريدة؟

فيهز الرجل رأسه ويقول ضاحكا :

ـ أى لؤلؤة . . العلبة فارغة . .

وأتعجب من إنكار الواقع الماثل لعينى .

ولم أجد حتى الساعة من يصدقنى .

ولكن اليأس لم يعرف سبيله إلى قلبى .

المصـادفـة

تحت التمثال تقابلنا مصادفة .

توقفت عن السير ، إنه يبتسم ، وأنا أرتبك صافحته بالإجلال الذى يستحقه فسألنى :

ـ كيف الحال؟

فأجبت بأدب وحياء :

ـ الحمد لله ، فضلك لا ينسى . .

فقال بصوت لم يخل من عتاب رقيق :

ـ حسن أن تعتمد على نفسك ولكن خيل إلىّ أنك نسيتنى !

فقلت بحياء :

ـ لا أحب أن أثقل عليك ولكن لا غنى عنك بحال. وافترقنا وقد أثار شجونى..

تذكرت عهدى الطويل معه عندما كان كل شيء فى حياتى، كما تذكرت فضله وأيامه. تذكرت أيضا أطواره الأخرى مثل إعراضه وجفائه ولا مبالاته دون تفسير يطمئن إليه القلب.

رغم كل شيء اعتبرت اللقاء مصادفة سعيدة.

الحنين

كنت ألقاه فى الخلاء وحيدا يحاور الناى ويعزف لجلال الكون.

قلت له يوما:

ـ ما أجدر أن يسمع الناس ألحانك.

فقال بامتعاض:

ـ إنهم منهمكون فى الشجار والبكاء!

فقلت مشجعا:

ـ لكل امرئ ساعة يحن فيها إلى الخلاء.

الطامة

لم ترفض فى حياتها طلبا أو تتجاهل إشارة،

وكانت تلبى نداء الشوق دون مبالاة بالثمن.

وأنذرها منذر بسوء العاقبة

ولكنها كانت شديدة الإيمان بالغفور الرحيم.

ساعة الحساب

جلس يتناول طعامه فى المطعم الصغير بهدوء وشهية ذو مظهر مقبول ووجه مرهق.

ولما حدث وقت الحساب قال لصاحب المطعم:

ـ لا تؤاخذنى ليس من جيبى مليم واحد، وكنت جائعا لحد الموت.

بهت الرجل ولم يدر ماذا يصنع

وكأنه حرص على أن تبقى الواقعة سرا لا يدرى به أحد.

الغفلة

كالعصافير يمرحون فى كنف الوالدين. البيت صغير والرزق محدود، ولكنهم لم يتصوروا نعيما يفوق النعيم الذى ينعمون به. وتمادى يوم حار من أيام الصيف بأنفاسه المحملة بالرطوبة فهتفت عصفورة:

ـ أف.. متى يجىء الخريف؟

وغمغم وهو يراقبهم من بعيد:

ـ لماذا تفرطون فى الأيام المتاحة الطيبة؟

دعابة الذاكرة

رأيت شخصا هائلا ذا بطن تسع المحيط، وفم يبلع الفيل، فسألته فى ذهول:

ـ من أنت يا سيدى؟

فأجاب باستغراب:

ـ أنا النسيان، فكيف نسيتنى؟

ليلى

فى أيام النضال والأفكار والشمس المشرقة تألقت ليلى فى هالة من الجمال والإغراء.

قال أناس: إنها رائدة متحررة.

وقال أناس: ما هى إلا داعرة.

ولما غربت الشمس وتوارى النضال والأفكار فى الظل هاجر من هاجر إلى دنيا الله الواسعة.

وبعد سنين رجعوا، وكل يتأبط جرة من الذهب وحمولة من سوء السمعة.

وضحكت ليلى طويلا وتساءلت ساخرة:

- ترى ما قولكم اليوم عن الدعارة؟

البلاغة

قال الأستاذ:

- البلاغة سحر.

فأمَّنَّا على قوله ورحنا نستبق فى ضرب الأمثال.

ثم سرح بى الخيال إلى ماض بعيد يهيم فى السذاجة.

تذكرت كلمات بسيطة لا وزن لها فى ذاتها مثل أنت.. فيم تفكر.. طيب.. يا لك من ماكر..

ولكن لسحرها الغريب الغامض جن أناس.. وثمل آخرون بسعادة لا توصف..

الطـرب

يا له من زمن، زمن الطرب.

ترسل الحناجر الذهبية أنغامها فتنتشر النشوة كالشذا الطيب النفاذ.

وتتخلق فى حالة الطرب امرأة جميلة تعشقها القلوب البيضاء. ولكنها لا تعثر لها على أثر فى غير دنيا الطرب.. لقد اختارت قلب الطرب مقاما لها لا تبرحه.

على الشـاطئ

وجدت نفسى فوق شريط يفصل بين البحر والصحراء. شعرت بوحشة قاربت الخوف. وفى لحظة عثر بصرى الحائر على امرأة تقف غير بعيدة وغير قريبة. لم تتضح لى معالمها وقسماتها ولكن داخلنا أمل بأننى سأجد عندها بعض أسباب القربى أو المعرفة. ومضيت نحوها ولكن المسافة بينى وبينها لم تقصر ولم تبشر بالبلوغ. ناديتها مستخدما العديد من الأسماء والعديد من الأوصاف فلم تتوقف ولم تلتفت.

وأقبل المساء وأخذت الكائنات تتلاشى، ولكننى لم أكف عن التطلع أو السير أو النداء.

سر النشـوة

حلمت بأننى صحوت من نوم ثقيل على أنفاس رقيقة لامرأة آية فى الجمال، رنت إلىّ بنظرة عذبة وهمست فى أذنى:

- إن الذى أودع فىّ سر النشوة المبدعة قادر على كل شىء فلا تيأس أبدا.

الانبهار

ذاع عنه أنه عالم بكل شىء. وقصدته الجموع فى ركن الطريق الذى يجلس على أريكة فيه. وقال وسيط خير:

ـ لا وقت للأسئلة السهلة، هاتوا ما لديكم من أسئلة مستعصية..

وانهالت عليه الأسئلة المستعصية حقا

وساد صمت عميق ليسمع كلٌّ الجواب الذى يعنيه.

لم أر حركة تدب فى شفتيه ولم أسمع صوتا يند عن فيه.

ورجعت من عنده وسط جموع قد انبهرت بما سمعت لحد الجنون..

الذكرى

فى يوم السوق بحارتنا اخترقت الجموع امرأة عارية تتهادى. تسير فى ترفع وتذيب مفاتنها الصخور.

كف الناس عن البيع والشراء ووقفوا ينظرون بأعين ذاهلة، كذلك مضت حتى غيبها المنعطف الأخير، وأفاق الناس من ذهولهم فركبتهم حال جنون، واندفعوا نحو المنعطف. فتشوا فى كل مكان ولكنهم لم يعثروا لها على أثر..

كلما خطرت ذكراها على القلوب أكلتها الحسرة..

الندم

حملت إلى أمواج الحياة المتضاربة امرأة ما أن رأيتها حتى جاش الصدر بذكريات الصبا. ولما ذابت حيرة اللقاء فى حرارة الذكريات سألتها:

ـ هل تتذكرين؟

فابتسمت ابتسامة خفيفة تغنى عن الجواب .

فقلت متهورا :

ـ التذكر يجب أن يسبق الندم .

فسألتنى :

ـ كيف تجده؟

فقلت بحرارة :

ذو ألم كالحنين . .

فضحكت ضحكة خافتة ثم همست :

ـ هو كذلك ، والله غفور رحيم!

المعـركـة

فى عهد الصبا والصبر القليل نشبت خصومة بينى وبين صديق . اكتسح طوفان الغضب المودة فدعانى متحديا إلى معركة فى الخلاء حيث لا يوجد من يخلص بيننا . ذهبنا متحفزين . وسرعان ما اشتبكنا فى معركة ضارية حتى سقطنا من الإعياء وجراحنا تنزف بغزارة .

وكان لابد أن نرجع إلى المدينة قبل هبوط الظلام .

ولم يتيسر لنا ذلك دون تعاون متبادل .

لزم أن نتعاون لتدليك الكدمات ، ولزم أن نتعاون على السير .

وفى أثناء الخطو المتعثر صفت القلوب ولعبت البسمات فوق الشفاه المتورمة .

ثم لاح الغفران فى الأفق .

حوار الأصيل

إنه جارنا فنعم الجيرة ونعم الجار .

عند الأصيل يتربع على أريكة أمام الباب متلففا بعباءته .

بذلك يتم للميدان جلاله وللأشجار جمالها، وعندما تودع السماء آخر حدأة يرجع أبناؤه الثلاثة من أعمالهم.

وعشية السفر إلى الحج نظر فى وجوههم وسألهم:

ـ ماذا تقولون بعد هذا الذى كان؟

فأجاب الأكبر:

لا أمل بغير القانون.

وأجاب الأوسط:

ـ لا حياة بغير الحب.

وأجاب الأصغر:

ـ العدل أساس القانون والحب.

فابتسم الأب وقال:

ـ لابد من شىء من الفوضى كى يفيق الغافل من غفلته.

فتبادل الإخوة النظر مليا، ثم قالوا فى نفس واحد:

ـ الحق دائما معك!

الرحلـــــــة

بقضاء لا راد له حملنى الإذعان إلى أرض الغربة.

وعملت أن الواقعة آتية لا ريب فيها، غدا أو بعد غد.

انتظر قليلا ولا تتعجل المجهول.

وقال الطيبون: لا تخف فقد سبقناك فى نفس الطريق.

تنبسط أمامى حديقة مترعة بالحسن، وتذهب الفاتنات وتجىء،

ودعيت للغناء، ولكنى شغلت بالخواطر، والهواجس.

وانتزعت حواسى لاجتياز الغابة الدامية.

لم يبق لى منها إلا ذكريات أشباح وأصداء كوابيس خانقة، وأثر باق لمعركة طاحنة.

وقالوا: آن لك التجوال فى رياض الشمال، ولكن قلبى نازعنى إلى الملعب بين السبيل والتكية.

وصلت وأنا ألهث .

الوجه والإهاب والنظر كل شىء تغير .

وتلقانى الأحبة ، ومن حولهم ترامى الجليل بهوائه وضجيجه .

وقال لى قلبى : استقر فى ظله ، وليحفظه الصمد .

الشـذا

نظر إلى الوراء طويلا فلم يبق منه إلا ما يبقى من الورد بعد جفافه . اللهو وصفاء الأحلام ودفء السيدة الحنون .

هى دائما كبيرة ولكن لا تجوز عليها الشيخوخة ودائمًا تلهج بالدعاء .

وتعرض بعد الظلام ناشرا لواء الفراق .

وتحرك طابور الوداع وتأوه العريس الذى لم يتم زفافه .

وتلاشت وجوه الحب وعبق الجو بالشذا الطيب .

الثابت والمتـغير

ذهبوا إلى السوق ، وبقيت فى البيت وحدى .

وجاءت صغيرة ذات ضفيرتين تتضوع منها رائحة القرنفل ، تحمل طبقا فارغا ، مرسلة من قبل أمها بمهمة خاصة .

ولما لم تجد أمى همت بالذهاب ، ولكنى دعوتها للانتظار ، فانتظرت .

وذاب المتسوقون فى السوق ، وزقزقت العصافير طويلا ، يظهرها الصيف ويخفيها الشتاء .

وقلت لها لأملأ الزمن :

ـ تخففى من ثيابك فهو أطيب لك .

فقالت بحياء :

عندما يحين الموسم .

وهكذا جمعنا الزمان والمكان والشوق .

أما الزمان والمكان فلا ثبات لهما ، وأما الشوق فلا يورث إلا الحزن .

المهمة

قالت لى أمى :

ـ اذهب إلى جارتنا وقل لها هاتى الأمانة .

فسألتها وأنا أهم بالذهاب :

ـ وما الأمانة؟

فقالت وهى تدارى ابتسامة :

ـ لا تسأل عما لا يعنيك ولكن احفظها عندما تتسلمها كأنما هى روحك .

وذهبت إلى جارتنا وبلغتها الرسالة فحركت أعضاءها لتطرد الكسل ، وقالت :

ـ يجب أن ترى بيتى قبل ذلك .

وأمرتنى أن أتبعها ومضت أمامى وهى تتبختر .

وانقضى الوقت مثل نهر جار

وكانت أمى ترد على خاطرى أحيانا ، فأتخيلها وهى تنتظر .

فى وصف العاصفة

زلت قدمى فى ليلة عاصفة ممطرة فآويت إلى دكان عطار . وسألت العطار :

ـ متى تهدأ العاصفة؟

فأجاب بهدوء :

ـ ربما بعد دقيقة واحدة وربما استمرت حتى مساء الغد .

ولمحت على ضوء مصباح الدكان شخصا يهرول فى الخارج ، ناشرا فوق رأسه مظلة

سوداء. شعرت بأننى لا أراه لأول مرة رغم أننى لا أعرفه. والحق أننى لم أرتح إليه. وقال له العطار:

- لا لوم على من يؤثر السلامة فى هذه الليلة.

فقال الرجل وهو يمضى دون توقف:

- أنا لا أخلف المعياد.

وجاءت سيدة جميلة لتلوذ بالدكان، فنسينا الرجل ومظلته.

- الظاهر أن المرأة رأت أن تنتهز الفرصة لتتسوق فسألت العطار:

- هل عندك دواء للوساوس والأرق؟

فأشار الرجل إلى برطمان وقال:

- ليس فى الدنيا ما هو أجمل من الصحة وخلو البال.

المخبر

كنت أتأهب للنوم عندما طرق الباب طارق فتحت الشراعة فرأيت شبحًا يكاد يسد الفراغ أمام عينى وقال:

- مخبر من القسم.

ومد لى يده ببلاغ يأمرنى بالحضور مع المخبر لأمر هام.

أصبح من المألوف فى حينا أن يذهب هذا المخبر إلى أى ساكن لاستدعائه. يذهب فى أى وقت ودون مراعاة لأى اعتبار، ولا مناص من التنفيذ ولا مفر.

ولم أجد جدوى فى المناقشة. فرجعت إلى غرفة نومى لارتداء ملابسى.

سرت فى إثره دون أن نتبادل كلمة واحدة.

ولمحت فى النوافذ أشباح الناس يتابعوننا ويتهامسون.

وإنى أعرف ما يتهامسون به، فقد طالما فعلت ذلك وأنا أتابع السابقين.

الريح تفعل ما تشاء

قد ضجرت الساعة من دقة عقاربى فى الزمان الأول.

وعقدت حبال العزيمة حول ذراع الأمان ونمت.

ولكن حملتنى ريح الغربة فوق السحاب صادعة بأمر المجهول.

لم يكن فى نيتى ما أفعل ولا فعلت ما كنت نويت. وأيقظنى رفيقى الرقيق من غفوتى قائلا: «غداً نسفك الدماء».

فقلت مشهدا الكون على استسلامى المطلق «لتكن مشيئة الله».

المرشد والبائعة

من أول يوم اكتشفت أن عملى فى المنطقة يحتم على التجوال المستمر فى أنحائها. سألت عن مرشد طريق فدلونى على رجل يقيم بالدرب الأحمر، تبين لى أنه أعمى، ولكن أهل الحل والعقد أكدوا لى صدق فراسته وعمق خبرته، وحفظه زوايا الحى عن ظهر قلب.

وتأبطت ذراعه فسار بى بقدمين ثابتتين، وسرعان ما وثقت به وآنست إليه.

كان يمكن أن أبقى معه وحده حتى نهاية العمر، لولا أن صادفتنا ذات يوم بائعة خبز ذات حسن، فودعت مرشدى وسرت معها وتجمعنى الطريق أحيانا بمرشدى القديم، فأحييه بوجد، ولكنه يرد على بفتور ويمضى كل فى سبيله.

وربما حلا لنا فى بعض أوقات الفراغ أن نذكره فى سياق الدعابة والعبث، ولكن هيهات أن ينكر عاقل فضله.

سلم نفسك

خطر على بالى فتفجر قلبى بالشوق. ذهبت إلى مسكنه فى آخر مساكن الضاحية المحفوفة بالحقول. رحب بى بود قائلا:

ـ مضى عمر على آخر زيارة، ولكنك جئت فى وقت مناسب.

قال ذلك وهو يشير إلى خوان قصير، وضعت عليه صينية بالعشاء المكون من سمك مشوى وزيتون مخلل وخبز ساخن.

ودعانى للعشاء فجلست.

وما كدنا نبسمل حتى ترامى إلينا صوت من مكبر يصيح «سلم نفسك».

وثب إلى مفتاح الكهرباء فأغلقه، فساد الظلام. وسرعان ما انهال علينا الرصاص من جميع الجهات كالمطر.

وقلت لنفسى وأنا أرتعد من الرعب «سعيد من يستطيع أن يسلم نفسه».

بعد الخروج من السجن

غص البهو بطلاب الحاجات.

جلسنا نتبادل النظر فى قلق، ونمد البصر إلى الباب العالى المفضى إلى الداخل المغطى بجناحى ستارة عملاقة خضراء.

متى يبتسم الحظ ويجىء دورى؟.. متى أدعى إلى المقابلة فأعرض حاجتى وأتلقى الرجاء؟ الباب مفتوح لا يصد قاصدا، ولكن لا يفوز باللقاء إلا أصحاب الحظوظ.

على ذاك تمضى الأيام، فأذهب بصدر منشرح بالأمل ثم أعود كاسف البال.

وخطر لى خاطر: لماذا لا أختفى فى مكان فى الحديقة حتى إذا انفض السامر وخرج الرجل لرحلته المسائية رميت بنفسى تحت قدميه.

لكن الخدم انتبهوا لتسللى، وساقونى إلى القسم، ومن القسم إلى السجن، فألقيت فى ظلماته.

عبثا حاولت تبرئة ساحتى.

كيف أذهب طامعا فى وظيفة شريفة، فينتهى بى المآل إلى السجن؟

وانتهى إلينا التهامس بأن الرجل الجليل سيزور السجن، ويتفقد حاله، ويستمع إلى شكاوى المظلومين.

عجبت أن تيسر لى فى السجن ما تعذر فى الحياة.

وهذه حاجتى إلى عطفه تشتد وتتضاعف.

وأحنيت رأسى بين يديه وقصصت قصتى .
لم يبد عليه أنه صدّق ولم يبد عليه أنه كذّب
قلت بضراعة :
ـ كل ما أتمنى أن يسمح لى باللقاء بعد الخروج من السجن .
فقال بصوت هادئ وهو يهم بالسير :
ـ بعد الخروج من السجن!

النهـــر

فى دوامة الحياة المتدفقة جمعنا مكان عام فى أحد المواسم .
من تلك العجوز التى ترنو بنظرة باسمة؟
لعل الدنيا استقبلتنا فى زمن متقارب .
واتسعت ابتسامتها فابتسمت رادا التحية بمثلها .
سألتنى :
ـ ألم تتذكر؟
فازدادت ابتسامتى اتساعا
قالت بجرأة لا تتأتى إلا للعجائز :
ـ كنت أول تجربة لى وأنت تلميذ . .
وساد الصمت لحظة ثم قالت :
ـ لم يكن ينقصنا إلا خطوة!
وتساءلت مذهولا : أين ضاعت تلك الحياة الجميلة! .

حـديث من بعيـد

فى حارتنا بيت مسكون لا يقربه أحد، فهو مغلق الباب والنوافذ، مستسلم لعوامل البلى .

أمرّ به فلا أصدق عينىّ وأقول لنفسى : ما هى إلا أسطورة من أساطير الأولين .

وفاجأنى المطر يوما وأنا أمر أمام بابه ، وأسخر منه كعادتى ، وإذا بصوت يتهادى إلىّ هادئا :

ـ إن كنت فى شك ، بت ليلة فى البيت يأتك البرهان بلا وسيط .

ركبنى الرعب وانعقد لسانى ،

وتذكرت ما قرأت عن عالم الأرواح فقال الصوت :

ـ كن مع العقل وإلا تعرضت لتجربتنا القاسية .

واشتد المطر ، فسكت الصوت كأنما قد ذاب فيه .

الـدرس

كنت منطلقا مهرولا لأشهد حلقة الذكر . مررت فى طريقى بعجوز رث الملبس تعيس المنظر وهو يبكى . صرفت نفسى عن الانشغال به أن يفوت علىّ قصدى . ولما احتل الشيخ مكانه وسط حلقة الذكر نظر فيما حوله حتى وقع بصره علىّ فأومأ إلىّ لأقترب منه . ومال على أذنى هامسا :

ـ أهملت العجوز الباكى فأضعت فرصة للخير لن تحظى بمثلها باستماعك إلى درسى اليوم . .

فيلسوف صغير جـدا

يطاردنى الشعور بالشيخوخة رغم إرادتى وبغير دعوة . لا أدرى كيف أتناسى دنو النهاية وهيمنة الوداع . تحية للعمر الطويل الذى أمضيته فى الأمان والغبطة . تحية لمتعة الحياة فى بحر الحنان والنمو والمعرفة .

الآن يؤذن الصوت الأبدى بالرحيل . ودع دنياك الجميلة واذهب إلى المجهول . وما المجهول يا قلبى إلا الفناء . دع عنك ترهات الانتقال إلى حياة أخرى . كيف ولماذا وأى حكمة تبرر وجودها؟ أما المعقول حقا فهو ما يحزن له قلبى . الوداع أيتها الحياة التى تلقيت منها كل معنى ثم انقضت مخلفة تاريخا خاليا من أى معنى .

(من خواطر جنين فى نهاية شهره التاسع) .

أصـل الحـكايـة

الست فى الشرفة ترنو إلى أسفل من وراء الخصاص بعينين ملؤهما اليقظة والحنان . الصبى يلعب أسفل البيت ويغنى . وبين الحين والحين يمضى إلى حارة من الحارات التى تصب فى جوانب الميدان آتية من أنحاء المدينة المترامية . وعند المغيب ينتزع الصبى نفسه من دنيا اللعب والسياحة ويدخل البيت .

ولم يدم الحال على ذلك طويلا .

خلت الشرفة من الحنان .

وأدخل الصبى داخل حارة فلم يرجع .

المتنبئ

دعينا إلى سهرة فى بيت صديق . وجلسنا حوله فى الحديقة الصغيرة يسكرنا شذا زهر البرتقال .

وحدثنا الصديق عن مشروع قيم لعلنا نسهم فيه ولمحت على ضوء عود ثقاب زميلا غائبا عن وجودنا فى دنيا أحلامه ، فلمسته بكوعى ، ولكنه لم يلتفت نحوى .

وفى طريق العودة قلت له :

ـ يقينا أنك لم تسمع كلمة مما قال صاحبنا .

فقال ببساطة مثيرة :

ـ قلبى حدثنى بأنه سيرحل عن دنيانا قبل طلوع الشمس !

العجب أن صاحب المشروع رحل حقا قبل شروق الشمس .

أما الأعجب فهو أن الصديق الآخر الذى تنبأ رحل عند الفجر ،

ومن يومها كلما جاء الزمان بساعة طيبة ، أبيت أن أغيب عنها بشىء مضى أو بشىء آت .

شكـوى القلب

ثقل قلبى بعد أن أعرض عنى الزمن، وراح الطبيب يبحث عن سر علته فى صورته التى طبعتها الأشعة. تأملته بفضول حتى خيل إلىّ أنه يرانى كما أراه وأنا نتبادل النظر. وجالت أيضا نظرة عتاب فى عينيه، فقلت له كالمعتذر.

ـ طالما حملتك ما لا يطاق من تباريح الهوى.

فإذا به يقول:

ـ والله ما أسقمنى إلا الشفاء:

ملخص التـاريخ

أحببت أول ما أحببت وأنا طفل، ولهوت بزمنى حتى لاح الموت فى الأفق. وفى مطلع الشباب عرفت الحب الخالد الذى يخلفه الحبيب الفانى. وغرقت فى خضم الحياة. ورحل الحبيب، واحترقت الذكريات تحت شمس الظهيرة. وأرشدنى مرشد فى أعماقى إلى الطريق الذهبى المفروش بالمعاناة، والمفضى إلى الأهداف المراوغة. فطورا يلوح السيد الكامل. وطورا يتراءى الحبيب الراحل.

وتبين لى أن بينى وبين الموت عتابا، ولكننى مقضى على بالأمل.

رجـل الأقـدار

لم أنس ذلك الرجل. كان معلمى فترة طويلة من العمر. اشتهر فى حياته بتلاحق المحن، والتعاسة الزوجية، ورقة الحال. ولكنه اشتهر أيضا بالصبر والقدرة على معايشة الألم والانغماس فى الكآبة. ولما تقدم به العمر انضاف إلى متاعبه تصلب الشرايين. وأخذت ذاكرته تضعف وتتلاشى. ومضى ينسى فيما ينسى خسائره وجميع ما ناله من عنت الحياة. فخف عبئه وهو لا يدرى. وطعن فى المرض، فنسى زوجته تماما وأنكرها،

وأصبح يتساءل عن سر وجودها فى بيته . وذهب عنه الكثير من كدره . وبلغ به المرض مداه فنسى شخصه ولم يعد يعرف من هو ، وبذلك تسنم قمة الراحة ، هكذا أفلت من قبضة الحياة القاسية حتى غبطه من كان يرثى له .

الصفح

إعجابى بك يا سيدتى يفوق أى حساب . إنك تنورين المكان بصفاء شيخوختك . تلقين الإساءة بالصمت وتغفرين للمسيئين إليك . فلم أعرف أمّا قبلك بهذا الوفاء .

قلت لها يوما :

ـ إنك ضحية القسوة والأنانية . .

فقالت باسمة :

ـ بل إنى ضحية الحب .

ولما قرأت الدهشة فى وجهى قالت :

ـ أنت تتوهم أن سلوكهم معى صادر من قسوة وأنانية ، الحقيقة أنه صادر من حبهم الشديد لأبنائهم ، وهكذا كنت أحبهم ، ومن أجل ذلك قد صفح قلبى عنهم .

الضحكة

وقفت فوق فوهة القبر ألقى نظرة الوداع على جثة العزيز التى يعدونها للرقاد الأخير . ترامت إلى ضحكته المجلجلة قادمة من الماضى الجميل ، فجلت بنظرى فيما حولى ، ولكنى لم أر إلا وجوه المشيعين المتجهمة .

وعند الرجوع من طريق المقابر همس صديق فى أذنى :

ـ ما رأيك فى ساعة راحة بالمقهى !

وسرت الدعوة فى أعصابى برعشة ارتياح . ونشطت قدماى إلى حيث المجلس ، وقدح الماء المثلج والقهوة المحوجة ، ومناجاة اللاحقين عن السابقين .

الاختيـار

ذهبت إلى السوق، حاملا ما خف وزنه وغلا ثمنه، واتخذت موضعى منتظرا رزقى. وهدأ الضجيج فجأة واشرأبت الأعناق نحو الوسط. نظرت فرأيت ست الحسن تتهادى فى خطى ملكة على أحسن تقويم.

سلبت عقلى وإرادتى قبل أن تتم خطوة، فنهضت لأتبعها مخلفا ورائى العقل والإرادة وأسباب رزقى. حتى دخلت بيتا صغيرا أنيقا يطالع القادم بحديقة الورد. واعترض سبيلى بواب مهيب الجسم حسن الهندام وحدجنى بنظرة مستنكرة فقلت:

- إنى على أتم استعداد لأهبها جميع ما أملك.

فقال الرجل بلهجة قاطعة:

- إنها لا ترحب بمن يجيئون إليها هاجرين عملهم فى السوق.

السـؤال

راحت القافلة تخوض الصحراء، يقودها عزيف الناى، ودق الطبول، والصمت من حولها محيط، ولا يبدو أن لشىء نهاية. وخطر لى أن أتساءل عن الموضع الذى يحب صاحب القافلة أن يسير فيه.

سمعنى جار فقال:

- فى مقدمة القافلة كما يليق بمقامه. ولكن ماذا دعاك للسؤال؟

وإذا بجار آخر يقول:

- بل لعله فى المؤخرة ليراقب كل حركة، ماذا يهمك من ذلك؟

ولم أجد ما أجيب به. وظننت أن الأمر انتهى، وأننى سأعرف الجواب عند انتهاء الرحلة.

ولكنى وجدت الرءوس تتقارب، والأعين تسترق النظر إلىّ، والريبة تتفشى فى الجميع. رباه كيف أقنعهم بأننى لم أقصد سوءاً. وأننى لا أقل عن أى منهم ولاءً للرجل؟

ودنا منى رجل صارم الوجه وقال لى:

ـ اترك القافلة ودعنا فى سلام.

ولم أر بدا من الخروج لأجد نفسى فى خلاء مطبق وكرب مقيم.

فى الظلام

كنت راجعا إلى بيتى أخوض ظلمات الليل ولا بصيص نور يشع فى الظلماء، وارتطمت بشبح فوقفت حذرا متوثبا وأنا أتساءل:

ـ من أنت يا عبد الله؟

فقال:

ـ لعلك صاحب الحظ الذى أبحث عنه.

أى حظ تعنى؟

فقال بعذوبة:

ـ إنى أدعوك إلى سهرة فى بيتى يجول فيها الحب والطرب.

فخطر لى أنه يهذى.

وفى لحظة الشك غابت أنفاسه المترددة، فعلمت أنه اختفى.

وغصنى الندم على إفلات فرصة قد تكون هى الحظ المأمول.

وما زلت أدور فى الظلام مناديا حتى بح صوتى.

أقوى من النسيان

طالعنى وجهه بوضوح ومن قريب بقوة نفاذة وهمس فى أذنى:

ـ تذكرنى لتعرفنى حين ألقاك.

ولما صحوت لم تغب عنى صورته. وكم شغلت عنه بالعمل حينا وباللهو حينا، ولكنه يعود بكل قوته وكأنه لم يغب لحظة واحدة.

وأتساءل تحت وطأة القلق: متى يلقانى؟. كيف يتم اللقاء؟ وما الداعى إلى ذلك كله؟

ويندر أن أطرد عنى الهواجس حتى فى الأحضان الدافئة..

ذكاء الجسد

فوق السطح وقفا يتناجيان، هو أطول قامة وهى أجمل وجها، أما أنا فألعب بالطوق مرة ثم أراقبهما ولا أفهم. ويغيبان فى حجرة السطح قليلا ثم يرجعان فأعود إلى استراق النظر بمزيد من الحيرة.

وجاء الإدراك متعثرا من خلال الأعوام الحامية..

الشروق والغروب

رأيته فى حالين مختلفين.

مرة والشمس تشرق عليه فبدا غاية فى البهاء والجلال، يتكلم فيجد السامع الحكمة فيما يفهمه من كلامه، والشعر فيما لا يفهمه.

ومرة والشمس تغيب عنه فبدا ضئيلا مسكينا يهرول فى أسمال بالية، يتكلم فيجد السامع الابتذال فيما يفهمه من كلامه، والبلاهة فيما لا يفهمه.

الشبيه

كان الشبه العجيب بين القاضى والمتهم ملفتا لأنظار النساء والرجال الذين صحبوا جارتهم أم المتهم إلى المحكمة.

وتذكر أناس منهم بكرى المرأة الذى فقدته فى زحام المولد. ولكن أحدا لم يربط بحال بين الولد التائه والقاضى، وقالت امرأة همسا:

ـ القاضى ابن ناس أما الولد المفقود فلا يقع إلا فى أيدى أولاد الحرام.

وكانت الأم قد نسيت بكريها تماما، ولم تعد تفكر إلا فى ابنها القابع فى القفص.

حتى نطق القاضى بالحكم الرهيب.

وعند ذاك دوى الصوات فى قاعة الجلسة.

ربة البيت

يا ربة البيت اصحى صلى ثم ابسطى يديك بالدعاء .

جهزى الفطور وادعى إلى المائدة رجلك وأولادك .

عاونى الصغار على تنظيف أنفسهم وكشرى لمن يركن إلى الكسل .

اكنسى بيتك ورتبيه وتسلى بترديد أغنية .

سوف يجمعهم الحظ السعيد حول مائدة العشاء إذا سمح الدهر .

ويبقى الأولاد للمذاكرة ، ويذهب الرجل إلى المقهى للسمر .

اغتسلى ومشطى شعرك وغيرى ملابسك وبخرى غرفة النوم . قد شهد اليوم ما يستحق الشكر والحمد .

تذكرى ذلك إذا جاء اليوم الذى يتفرق فيه الجميع كل إلى سكنه .

واليوم الذى لا تجد هذه الذكريات من يتذكرها .

سيدتى الحقيقة

عرفت منازل الحقيقة فى عصر الفطرة .

عندما تقرفص المرأة أمام طشت الغسيل ، أقرفص قبالتها ، فتلعب يدى فى الماء وتسترق عيناى النظر .

عندما ألهو فوق السطح فى الليالى البدرية ، أمد يدى فى الفضاء لأقبض على وجه القمر .

عندما نزور القبر فى المواسم ، أركز عينى على جداره لأرى .

نعم الرفيق الشغف والمنازل .

شهد الضحك علينا

شهدنا مجلس السمر بالحديقة على أتم ما نكون من العدد والمرح، ينتقل بنا الحديث من شأن إلى شأن كالنحل بين الزهور، والجو الرطيب يضج بضحكاتنا.

فى تلك الجلسة نسينا الدهر ونسيناه. وإذا بأحدنا يقول فجأة، ودون مناسبة ظاهرة:

ـ تصوروا أين وكيف نكون بعد نصف قرن؟!

الجواب أيها الصديق غاية فى البساطة، وإن يكن فى الوقت نفسه غاية فى التعقيد، ولكن لماذا تذكرنا بذلك؟

اليوم يمر على تلك الجلسة ربع قرن فقط، على ذاك لم يبق من سمارها إلا اثنان.

ويذكر أحدهما الآخر بقول العزيز الراحل.

ويتنهدان ويتخيلان أين وكيف ما حلا لهما التخيل.

هل حقا عاش أولئك جميعا، وتبادلوا المودة والأمل؟!

أصل الحكاية

سارت فى ظل أمها وكان هو يلعب فى الطريق. أسعد ما يسعد أمها ضفيرتها الفواحة بشذا القرنفل. أما هو فكان يلعب الحجلة. توقف قليلا ريثما تمر الأيام وابنتها الصغيرة نظرت إليه نظرة غامضة، فامتلأ بالخيلاء وانطلق يعدو ليشهد الجميع على قوته وسرعته.

ودعت الأم بالخير لكل مخلوق وهمست:

ـ أخاف عليها من النظرة وأخاف عليه من الجرى. فاشملهما بالرعاية يا رب.

وكان ثمة رجل جالس فى ركن ممن يقرءون الخواطر فقال لها وكأنما لا يعنيها بالذات:

ـ فلتنظر إليه ما طاب لها النظر، وليجر هو حتى تخور قواه فيخمد.

مـأوى النعمـة

ما أجمل العصفور فى طيرانه وشدوه. مرة فى سكرة من النشوة هتفتُ: يا ليتنى خلقت عصفورا. وإذا بى أنقلب عصفورا يحلق ويشدو يثب من غصن إلى غصن. ومن خبرتى السابقة حذرت القطط والزواحف وعشقت شعاع الشمس. منذ قديم وأنا أغبط العصافير على تحليقها ورؤيتها لجمال حبيبتى الذى لا يبلغه الهائمون فوق الأرض، أيقنت مع الجهد الضائع أنه لا سبيل إلى الفوز إلا بالطيران واستراق النظر من فوق هامات الشجر. وجعلت أخطف النظرات المحترقة بالأشواق وهى تتهادى فى أعماق البيت. وارتويت برحيق الهناء حتى ثملت. ويوما رأيت فوق سور السطح طبقا مملوءا بالقرطم، فتحلب ريقى، ونسيت الحذر وطرت نحو الطبق، وحططت عليه، ورحت ألتقم بمنقارى الحب بنهم وسرور. وإذا بيد تقبض علىّ بحنان وصوت عذب يقول:

أخيرا وقعت..

وأودعتنى القفص، وقد بعث مسها فى كيانى سكرة لا تجىء إلا من خمر الفراديس.

وكلما فاض كأس حظى بالسعادة، أقبلت بحسنها الدرى لترنو إلىّ وتقدم لى الماء والغذاء.

وها أنا يغمرنى جنون السرور والفرح.

وفى أوقات الفراغ أتطلع إلى جماعات العصافير فوق الشجرة سعيدة بين الشدو والطيران، ولكن لا شدوها ولا طيرانها بشىء يذكر إلى جانب قرب الحبيب.

عبـد ربه التـائه

كان أول ظهور الشيخ عبد ربه فى حينا حين سمع وهو ينادى:

«ولد تائه يا أولاد الحلال»

ولما سئل عن أوصاف الولد المفقود قال:

- فقدته منذ أكثر من سبعين عاما فغابت عنى جميع أوصافه. فعرف بعبد ربه التائه.

وكنا نلقاه فى الطريق أو المقهى أوالكهف، وفى كهف الصحراء يجتمع بالأصحاب،

حيث ترمى بهم فرحة المناجاة فى غيبوبة النشوات، فحق عليهم أن يوصفوا بالسكارى وأن يسمى كهفهم الخمارة.

ومذ عرفته داومت على لقائه ما وسعنى الوقت وأذن لى الفراغ، وإن فى صحبته مسرة، وفى كلامه متعة، وإن استعصى على العقل أحيانا.

التعارف

وكان لى صديق خطاط ومن مريدى الشيخ فرجوته أن يقدمنى إليه، فمضى بى إلى الكهف مخترقين صحراء المماليك، وهناك رأيته وسط صحبه يتبادلون أنخاب المناجاة فى نشوة هادئة نقية، فقدمنى صديقى بين يديه ولكنه استمر فيما كان فيه غير ملتفت إلى مما أضرم الحياء فى قلبى، ولكن صديقى أخذنى من يدى وجلسنا فى أخر الصف.

وهمست فى أذنه:

- الأفضل أن نذهب..

فهمس فى أذنى:

- لقد قبل صداقتك، ولو كان رفضك لطردك بإشارة من يده.

وختمت الليلة بغناء طويل جميل، ولدى العودة سألنى صاحبى:

- ما رأيك فى المكان وأهله؟

فقلت:

- دخلوا قلبى بلا وسيط، عروتهم (صحبتهم) ساحرة، أصواتهم عذبة، والمكان جذاب هادئ ورائحته زكية..

عندما التقت العينان

مضى زمن قبل أن يلتفت إلىّ وتلتقى عينانا. ولما شاعت ابتسامة فى ملامحه، وثبت إلى جانبه وقلت:

- اقبلنى فى طريقتك..

فسألنى:

ـ ماذا يدفعك إلينا؟

فقلت بعد تردد :

أكاد أضيق بالدنيا وأروم الهروب منها .

فقال بوضوح :

ـ حب الدنيا محور طريقتنا وعدونا الهروب .

وشعرت بأننى أنطلق من مقام الحيرة .

الانتظار

ولكن لماذا هذا الكهف بالذات؟

قيل إن سيدة المكان كانت تطوف بالموقع حول الكهف فى المواسم . وكثيرون قد جنّوا بسحر جمالها وجدّوا فى البحث عنها دون جدوى . وقيل إنها قد تختار قرينها ذات يوم فى الكهف . وقصد الكهف أناس لا حصر لهم . . ولكن عبد ربه التائه ومريديه صمدوا إلى النهاية .

أغلب أحاديثهم وأغانيهم عن المرأة الجميلة ، ينتظرون الرضا ولا يعرفون اليأس .

مأمور

وجذب انتباهى شخص لا مثيل لنشاطه فى خدمة الإخوان ، فسألت عنه ، فقال عبد ربه التائه :

ـ له حكاية فاسمعها . ما ندرى ذات ليلة إلا وقد اقتحم علينا خلوتنا ويقول :

ـ صدر الأمر بإغلاق الخمارات!

فقلت له :

شرابنا النجوى فاشرب هذه الكأس .

وقدمت له شرابا . وكان سحر المكان قد شاع فى جسده وروحه فشرب . ثم تركنا وذهب . وفى ليلة تالية رجع مرتديا ملابس عادية وقال باستسلام :

ـ تركت الخدمة وجئت إليكم . .

فهللنا وكبرنا . ومن ساعتها وهو مندمج فى مودتنا .

وفى المواسم يغنى ويرقص حتى مطلع الفجر .

الذكرى المباركة

سألنى صديقى الحكيم عن حلم لا أنساه، فقلت : وجدتنى فى خمارة وسط جماعة من أهل الخير والبركة، نشرب ونغنى . وسأل سائل «ترى من يكون صاحب الحظ السعيد؟» .

وانزاحت الستار المسدلة على باب الخمارة ودخلت امرأة عارية تموج برحيق الحياة وفتنتها .

ووقفنا ذاهلين ننظر وننتظر . واتجهت المرأة نحوى حتى التصقت بى، وحلت عقدة شعرها المعقوص فانصب حولنا كموجة عاتية فغطانا .

وثمل الجميع بسعادة شاملة وأنشدنا معًا :

بشرى لنا نلنا المنى

داء

قال الشيخ عبد ربه التائه :

بالأمس وأنا راجع من السهرة قبيل الفجر اعترضنى فى ظلمة الحارة شخص لم أتبين معالمه وقال لى :

ـ أنا قادم إليك من وراء النجوم .

فهزتنى العزة وقلت بفرح :

ـ من أجلى أنا هبطت؟

فقال بنبرة لم تخل من امتعاض :

ـ لم تسلم بعد من الخيلاء !

واختفى صاعدا بسرعة البرق

فمن يعيده إلىّ ومعه الغفران؟!

فسألته:

- وماذا كنت تنوى أن تطلب منه؟

فأجاب متجاهلا سؤالى:

«الحياة فيض من الذكريات تصب فى بحر النسيان. أما الموت فهو الحقيقة الراسخة».

الشكوى

كان الكهف عامرا بالخلان، والنشوة تذيب الأحجار.

ونفخ نافخ فأطفأ الشموع، وترددت الأنفاس فى ظلام دامس.

وتهادى صوت إليهم يقول: «فى السماء ضجروا من الأفعال الخسيسة والروائح المنكرة».

وذهبت تاركا صمتا ثقيلا، فقال أحدهم:

- إنها رسالة.

فقال آخر:

بل هو أمر.

وانطلقوا فى الأسواق يحملون على كل خسيس ومنكر

وغضب السادة، فزمجروا بالغضب، ولوحوا بالعصىّ.

الرقص فى الهواء

ومرة قال لى الشيخ: إن القصص التى تنشر ليست بالقصص الحقيقية، وأراد أن يقدم لى قصة فقال:

فى أحد أصابيح الربيع جذبتنى ضجة نحو الباب الأخضر. خضت حاجزا من البشر يلتف حول رجل وامرأة قيل إنهما كانا من مجاذيب الحسين. ثم أغواهما الغرام، فهجرا

دنيا الأسرار إلى دنيا العشق، ورؤيا وهما يترنحان من السكر، ويترنمان بالأغانى الساخنة.

وكاد الناس يفتكون بهما لولا تدخل الشرطة.

ونسى الأمر مع الزمن. وذات صباح وأنا أسير فى الصحراء رأيت سحابة تهبط كالطائرة أو السفينة حتى صارت فى متناول الرؤية الواضحة.

رأيت على سطحها رجلا وامرأة يرقصان، وسمعت صوتهما قائلا:

ـ متى تصعد يا عبد ربه!

عبير من بعيد

قال الشيخ عبد ربه التائه:

ساقتنى قدماى إلى القبر المهجور الذى رحل جميع من كانوا يعنون بتذكره. وجدته آيلا للسقوط وعليه طابع العدم. وصدر نداء خفى من الذاكرة، فأقبل نحوى جمع من النساء والرجال كما عهدهم الزمان الأول. وردد أحدهم ما قاله لى مرارا: «لا أغير ريقى قبل أن أسمع أغنية الصباح فى الإذاعة».

الخلود

قال الشيخ عبد ربه التائه:

وقفت أمام المقام الشريف أسأل الله الصحة وطول العمر. دنا منى متسول عجوز مهلهل الثوب وسألنى «هل تتمنى طول العمر حقا؟».

فقلت بإيجاز من لا يود الحديث معه:

ـ ومنذا الذى لا يتمنى ذلك؟

فقدم لى حقا صغيرا مغلقا وقال:

ـ إليك طعم الخلود، لن يكابد الموت من يذوقه!

فابتسمت باستهانة فقال:

ـ لقد تناولته منذ آلاف السنين ومازلت أنوء بحمل أعباء الحياة جيلا بعد جيل . .

فغمغمت هازئا :

ـ يا لك من رجل سعيد!

فقال بوجوم :

ـ هذا قول من لم يعان كر العصور وتعاقب الأحوال ونمو المعارف ورحيل الأحبة ودفن الأحفاد .

فتساءلت مجاريا خياله الغريب :

ـ ترى من تكون من رجال الدهر؟

فأجاب بأسى :

ـ كنت سيد الوجود ، ألم تر تمثالى العظيم؟ ومع شروق كل شمس أبكى أيامى الضائعة وبلدانى الذاهبة ، وآلهتى الغائبة!

السمع والطاعة

قال الشيخ عبد ربه التائه :

قلت له بخشوع وعيناى لا تفارقان طلعته :

ـ لم أر أحدا فى مثل بهائك من قبل .

فقال باسما :

ـ الفضل لله رب العالمين .

ـ أريد أن أعرف من تكون يا سيدى؟

فقال بهدوء وكأنه يتذكر :

ـ أنا الذى كان يوقظك من النوم قبل شروق الشمس .

أصغيت باهتمام ، فواصل :

ـ أنا الذى ناصرتك على الكسل فانطلقت مع العمل .

فكرت بعمق فيما قال ، واستمر هو :

ـ أنا الذى أغراك بحب المعرفة .

فهتفت :

ـ نعم . . نعم .

ـ وجمال الوجود أنا الذى أرشدتك إلى منابعه .

ـ إنى مدين لك إلى الأبد .

وساد صمت متوتر ، وشعرت بأنه جاء يطالبنى بشيء ، فقلت :

إنى طوع أمرك

فقال بهدوء شديد :

جئت لأضع فوق عملى نقطة الكمال .

سـؤال عن الدنيا

سألت الشيخ عبد ربه عما يقال عن حبه النساء والطعام والشعر والمعرفة والغناء فأجاب جادا :

ـ هذا من فضل الملك الوهاب .

فأشرت إلى ذم الأولياء للدنيا ، فقال :

ـ إنهم يذمون ما ران عليها من فساد .

المشى فى الظلام

قال الشيخ عبد ربه التائه :

عرفت الرجل فى طورين فى حياته الطويلة .

عرفته فى شبابه محبا للعبادة ، ملازما للمسجد ، مأخوذا بسماع القرآن الكريم .

وفى شيخوخته ساقه قدره إلى الخمارة ، فأدمن الخمر متناسيا ما لا يهمه .

وكان يرجع إلى بيته فى الهزيع الأخير من الليل ، ثملا يترنح ، ويغنى أغانى الشباب ، خائضا الظلمة الحالكة .

وحذره محبوه من المشى فى الظلام ، فقال :

ـ حراس من الملائكة يحيطون بى ، ويشع من رأسى نور يضىء المكان . .

قــــول

قال الشيخ عبد ربه ذات ليلة فى سهرة الكهف :

ـ ما أجمل قصص الحب ، عفا الله عن الزمن الذى يحييها ويميتها .

تعـريف

سألت الشيخ عبد ربه :

ـ ما علامة الكفر؟

فأجاب دون تردد :

الضجر :

سيدتى الجميلة

قال الشيخ عبد ربه :

ـ حدث ذلك وأنا أسير بين الطفولة والصبا .

رأيت فوق الكنبة الوسطى تحت البسملة ، امرأة جالسة لم أشهد فى حياتى شيئًا أجمل منها . ابتسمت إلىّ فذهبت إليها ، فحنت علىّ ، وقبلتنى ، ووهبتنى قطعة من الملبن . وكتمت السر ليدوم العطاء . وكلما ذهبت إلى الحجرة ، رجعت مجبور الخاطر بقبلة وقطعة من الحلوى .

ويوما ذهبت كالعادة ، فوجدت الحجرة خالية .

هل أفقد الجمال والسعادة؟

وسألت أمى عن الضيفة الجميلة الكريمة .

فدهشت لسؤالى ، كما دهش أبى ، وجعلت أحلف بأغلظ الأيمان .

ولم يصدقا حرفا مما حكيت، وساورهما القلق طويلا. وظلت الكآبة كامنة فى الأعماق حتى هلت ليالى القمر.

على وشك الهروب

حدث الشيخ عبد ربه التائه قال:

ـ أغرتنى نشوة الطرب ذات مرة بالتمادى فى الطرب حتى طمعت أن أثب من الطرب الأصغر إلى الطرب الأكبر، فسألت الله أن يكرمنى بحسن الختام.

عند ذاك همس فى أذنى صوت «لا بارك الله فى الهاربين».

عندمـا

سألت الشيخ عبد ربه التائه:

ـ متى يصلح حال البلد؟

فأجاب:

ـ عندما يؤمن أهلها بأن عاقبة الجبن أوخم من عاقبة السلامة..

ساعى البريد

فى تلك الليلة من ليالى الكهف اشتدت الريح وانهل المطر. ولعبت دفقات الهواء المتسللة من المدخل ذؤابات الشمع، فخفقت القلوب بعنف. ومدوا الأبصار إلى المدخل وانتظروا فازداد خفقان القلوب.

وهمس أحدهم:

ـ يقولون إن ليلة هذا العام مباركة.

وتطلعت القلوب إلى المدخل بكل ما تملك من قوة.

وترامى إليهم صفير فهبوا واقفين، وعند ذاك دخل ساعى البريد بزيه المألوف وحقيبته، يكاد يغرق فى الماء الذى تشربته ثيابه.

وبهدوء أعطى كل يد ممدودة رسالة وذهب دون أن ينبس. وفضوا الظروف ونظروا فى الرسائل على ضوء الشموع.

وجدوها بيضاء لاشية فيها.

وهتف عبد ربه «العقبى للصابرين».

عزرائيل

قال الشيخ عبد ربه التائه:

استدعانى المأمور يوما وقال لى:

ـ كلماتك تدفع الناس إلى التمرد، فحذار!

فقلت له:

ـ أسفى على من يطالبه واجبه بالدفاع عن اللصوص ومطاردة الشرفاء!

فصاح بى:

ـ هذا إنذار نهائى..

ولما كان عزرائيل يخف لنجدتى فى الملمات، فقد تجلى ثوان للمأمور، حتى ارتعدت مفاصله، وسقط عن كرسيه هاتفا:

ـ الله بينى وبينك!

الرحمة

سألت الشيخ عبد ربه التائه:

ـ كيف لتلك الحوادث أن تقع فى عالم هو من صنع رحمن رحيم؟

فأجاب بهدوء:

ـ لولا أنه رحمن رحيم ما وقعت!

الواعظة

قال الشيخ عبد ربه التائه :

اعترضتنى فى السوق امرأة آية فى الجمال ، وسألتنى :

ـ هل أعظك أيها الواعظ ؟

فقلت بثقة :

ـ أهلا بما تقولين .

فقالت :

ـ لا تعرض عنى ، فتندم مدى العمر على ضياع النعمة الكبرى .

فى الحظيرة

قال الشيخ عبد ربه التائه :

حلمت بأننى واقف فى حظيرة أغنام مترامية الأطراف . وكانت تأكل وتشرب وتتبادل الحب فى طمأنينة وسلام . تمنيت أن أكون أحدها ، فكنت جديا بالغ القوة والجمال .

ويوما جاء صاحب الحظيرة يتبعه الجزار حاملا سكينه .

انتهاء المحنة

سألت الشيخ عبد ربه التائه :

ـ كيف تنتهى المحنة التى نعانيها؟

فأجاب :

ـ إن خرجنا سالمين فهى الرحمة ، وإن خرجنا هالكين فهو العدل .

لا تصدق

قال الشيخ عبد ربه التائه :

جاءنى رجل وقال لى : «لا تصدق . . ما أنت إلا ابن الصدفة العمياء . . وصراع العناصر . . بلا هدف جئت . . وبلا هدف تذهب . . وكأنك لم تكن» .

فقلت له «سبق أن صدق أبوك ما لا يجب تصديقه . فخسر الراحة والنعيم» .

الفعل الجميل

حدث الشيخ عبد ربه التائه قال :

عثرت يوما على حقيبة تحوى كنزا من المال وفيها ما يدل على شخص صاحبها وعنوانه .

وكان من المنحرفين الذين ابتليت بهم البلاد ، فقررت ألا أردها إليه . وأودعتها سراً بدروم رجل فقير من أصحابنا عرف بالتقوى ، وأنا لا أشك فى أنه سينفقها فى سبيل الله . ثم علمت أنه ردها إلى صاحبها نازلا على حقه الشرعى فيها ، فحزنت وأسفت .

ثم توفى صاحبنا التقى الفقير فهرعت إليه ، وغسلته وكفنته ، وحملته إلى الجامع ، وصليت عليه . ولما انتهت الصلاة لمحت بين المصلين خلف نعشه الرجل الغنى المنحرف وهو يبكى بحرارة .

واهتز فؤادى وقلت «سبحانك يا مالك الملك ، تعلم ما لا نعلم . وربما جاءت الصحوة بإذنك من حيث لا يدرى أحد» .

دعاء

أصابتنى وعكة فزارنى الشيخ عبد ربه التائه . ورقانى ودعا لى قائلاً :

اللهم منّ عليه بحسن الختام ، وهو العشق» .

العريس

سألت الشيخ عبد ربه التائه عن مثله الأعلى فيمن عاشر من الناس، فقال:

- رجل طيب، تجلت كراماته فى المداومة على خدمة الناس وذكر الله، وفى عيد ميلاده المائة سكر ورقص وغنى وتزوج من بكر فى العشرين.

وفى ليلة الدخلة جاءت كوكبة من الملائكة فبخرته ببخور من جبل قاف.

العزلة

قال الشيخ عبد ربه التائه:

كنت أعبر ميدانا غاصا بالخلق فرأيت مجذوبا يضرب بعصاه فى جميع الجهات كأنما يقاتل كائنات غير منظورة، حتى خارت قواه، فجلس على الطوار، وراح يجفف عرقه. وطيلة الوقت لم يبال به أحد، فاقتربت منه وسألته:

- ماذا كنت تفعل يا عبد الله؟

فأجاب بحنق:

- كنت أقاتل قوة جاءت تروم القضاء على الناس ولكن لم يفهم عملى أحد ولم يعاونِّى أحد.

السر

طالما سمعت الحكايات عن الملاك المتجسد فى صورة امرأة، وكم بحثت عنه فى الميادين والطرق والحوارى وأنا أقول لنفسى: إن رؤيته تضارع رؤية النور فى ليلة القدر.

وفى ليلة الموسم المباركة سمعت همسا بأنه سيمر عند السبيل حين سطوع القمر. وتجولت حول السبيل بنية العاشق وعزيمة البطل. وإذا بامرأة تلوح لفترة قصيرة،

فاقتحمنى وجهها السافر الملائكى وغمرنى بالهيام والنشوة، ولكنى لم أسع وراءها لعلمى باستحالة العبور من دنيا البشر إلى دنيا الملائكة.

عند ذاك انكشف لى سر حبى الأول.

صوت القبر

قال الشيخ عبد ربه التائه: كنت أسير فى طريق المقابر راجعا من سهرة الخمارة. تسلل إلىّ صوت من قبر وهو يسأل:

ـ لماذا انقطعت عن زيارتنا والحديث معنا؟

فأجبته:

ـ لا يحلو لكم الكلام إلا عن الموت والأموات، وقد مللت ذلك.

صفحة القلب

قال الشيخ عبد ربه التائه:

رحت أشاهد قلبى فى مرآة كاسى، فهالنى صفاؤه، وقلت له: من يصدق أنك خفقت بذلك الحب كله؟.. كيف كنت عالما يموج بالنساء والرجال والأشياء؟

ولم يبق من دليل يا قلبى على حقيقة ما كان، إلا دموع تفجرت فى الهواء وتلاشت فى الفضاء.

الثبات

رأيت الشيخ عبد ربه التائه ماشيا فى جنازة. ولعلمى بأنه لا يشيّع إلا الطيبين، انضممت إلى صفه حتى صلينا عليه معا. ثم سألت الشيخ عنه فقال:

ـ رجل نبيل وما أندر الرجال النبلاء. أبى رغم طعونه فى العمر أن يقلع عن الحب حتى هلك..

ذلك الحب

قلت للشيخ عبد ربه التائه :

ـ سمعت قوما يأخذون عليك حبك الشديد للدنيا . .

فقال :

ـ حب الدنيا آية من آيات الشكر ، ودليل ولع بكل جميل ، وعلامة من علامات الصبر .

عتاب الموت

قال الشيخ عبد ربه التائه :

مرة ضايقتنى فكرة الموت أكثر من المعتاد . كنت أهمّ بالنوم فخطر لى أن الموت قد يزورنى فى النوم فلا يطلع على الصباح . وسألت الله السلامة رحمة بأناس ينتظرون معونتى فى اليوم التالى .

واستغفر الله طويلا ثم غمغم : «شد ما تشربت عمق التسبيح فى مقام الحيرة» .

الطوفان

قال الشيخ عبد ربه التائه :

سيجيء الطوفان غدا أو بعد غد . سيكتسح النساء والفاسدين العاجزين . ولن تبقى إلا قلة من الأكفاء . وتنشأ مدينة جديدة تنبعث من أحضانها حياة جديدة . ليت العمر يمتد بك يا عبد ربه لتعيش ولو يوما واحدا فى المدينة الآتية .

فى التجـارة

قال الشيخ عبد ربه التائه :

حذار . . فإننى لم أجد تجارة هى أربح من بيع الأحلام .

الزمن الحلو

قال الشيخ عبد ربه التائه :

وجدتنى على ربوة أنظر إلى شاشة عرض مبسوطة فى الفضاء . ورقصت فرقة من الفاتنات ، وغنت على إيقاع كونىّ ، فنثرن من حركاتهن لآلئ النور البهيج .

سألت بصوت جهير :

ـ من أنتن؟

فأجبن :

ـ نحن الأيام القليلة الحلوة التى مرت فى غاية من البهاء والصفاء ولم يشبها كدر .

الراقصان

قال الشيخ عبد ربه التائه

ما روعنى شىء كما روعنى منظر الحياة وهى تراقص الموت على ذلك الإيقاع المؤثر الذى لا نسمعه إلا مرة واحدة فى العمر كله .

المطارد

قال الشيخ عبد ربه التائه :

هو يطاردنى من المهد إلى اللحد ، ذلك هو الحب .

الفائز

قال الشيخ عبد ربه التائه :

ذاع فى الحارة أن المرأة الجميلة ستهب نفسها للفائز . وانهمك الشباب فى السباق بلا هوادة . ومضى الفائز إلى المرأة ثملا بالسعادة مترنحا بالإرهاق . وعند قدميها تهاوى قرينا للوجد فريسة للتعب . وظل يرنو إليها فى طمأنينة حتى لعب النعاس بأجفانه .

الهاوية

قال الشيخ عبد ربه التائه :

حتى أنا شهدتنى حجرة الاستقبال وأنا أنتظر راجيا التوفيق .

ويدخل الأب وقورا ودودا ، ولكنه ينذر بالقيود والعواقب .

ودعانى صوت باطنى إلى الهرب .

ثم تجىء هى متعثرة فى الحياء فأسقط فى الهاوية .

الحياء

قال الشيخ عبد ربه التائه :

ما تجلى لعينى إلا نور الوجنات وعذوبة الحياء .

أكرر السؤال فتغوص فى الصمت أكثر .

تجود بكل ثمين ولكنها من الكلام تجفل .

الضيف

قال الشيخ عبد ربه التائه :
ـ كان بيتنا عامرا بالأحباب
وذات يوم نزل بنا ضيف لم أره من قبل
وحرصا على راحته أرسلنى أبى لألعب بعيدا .
ولما رجعت وجدت البيت خاليا ، فلا أثر للضيف ، ولا للأحباب .

حـزن الحيـاة

سئل الشيخ عبد ربه التائه : هل تحزن الحياة على أحد .
فأجاب :
ـ نعم . . إذا كان من عشاقها المخلصين . .

القبر الذهبى

قال الشيخ عبد ربه التائه :
رأيت فى المنام قبرا ذهبيا قائما تحت شجرة سامقة غاصة بالبلابل الشادية .
وعلى صورة نقشت بأحرف جميلة واضحة كلمات تقول :
هنيئا لمن عاش ومات فى بوتقة الهجران .

الكمـال

قال الشيخ عبد ربه التائه :
الكمال حلم يعيش فى الخيال ، ولو تحقق فى الوجود ما طابت الحياة لحى .

السحر

قال الشيخ عبد ربه التائه :

تبدو الحياة سلسلة من الصراعات والدموع والمخاوف ، ولكن لها سحر يفتن ويسكر .

الوفاء فى الملاح

قال الشيخ عبد ربه التائه :

آه من تلك المرأة الجميلة التى لا وفاء لها .

لا هى تشبع ، ولا عشاقها يتعظون .

طبيعتنا

قلت مرة للشيخ عبد ربه التائه :

قد أرحب بتعب عام متصل ولكنى أضيق بعطلة شهر واحد .

فقال :

طبعنا على حب الحياة وكره الموت

الكذب الصادق

قال الشيخ عبد ربه التائه :

بعض أكاذيب الحياة تتفجر صدقا .

المشيئة

قال الشيخ عبد ربه التائه :

فى الكون تسبح المشيئة ، وفى المشيئة يسبح الكون .

الحب المتبادل

قال الشيخ عبد ربه التائه :

إنهما اثنان ، بقوته خلق الأول الآخر ، وبضعفه خلق الآخر الأول .

العقل

قال الشيخ عبد ربه التائه :

لقد فتح باب اللانهاية عندما قال : «أفلا تعقلون؟» .

برقية

قال الشيخ عبد ربه التائه :

فى إحدى ليالى الكهف التى لا تنسى غلبنى السكر بعد أرق وحيرة . وإذا بذرة هائمة فى أعماق الكون تهمس فى وجدانى أن أطمئن .

لقاء فى الظلام

قال الشيخ عبد ربه التائه :

وأنا فى مطلع الشباب حلمت هذا الحلم :

رأيت الصحراء مترامية أمامى ، فأوغلت فيها ثملا بحريتى . ولما أدركنى المساء أردت أن أرجع ، ولكننى ضللت سبيلى ، وضعت فى الظلمة كنسمة هائمة . واستحوذ على الخوف واليأس ، ونظرت إلى السماء فلم تقل لى النجوم شيئا . وانتبهت على تردد أنفاس تلفح وجهى ، فجفلت وتساءلت

من هنا؟

فأجاب صوت هادئ .

ـ اتبع شبحى . .

فتبعته مسلما أمرى للمقادير . وكلما مر الوقت دون وقوع ما يريب اطمأننت . ودس الشبح فى يدى قارورة ، وطلب منى أن أشرب ، فشربت شربة روية سرى تأثيرها من الرأس إلى القدمين . وسألت :

ـ أى شراب هذا؟

فأجاب الشبح :

ـ خمر صنعتها فى بيتى .

وكدت أرتعب لو لا أن طارت بى النشوة فوق الهواجس .

وهلت بشائر الشروق ونحن نسير . ولمحت وجهه على ضوء أول شعاع ، فإذا به وجه امرأة لم أشهد لحسنها مثيلا من قبل .

ورجوتها أن تقف لحظة . وركعت أمامها فى خشوع . وأحطتها بذراعىّ .

شهيق زفير

قال الشيخ عبد ربه التائه :

مع شهيق الكون وزفيره تهيم جميع المسرات والآلام .

الحرية

قال الشيخ عبد ربه التائه :

أقرب ما يكون الإنسان إلى ربه، وهو يمارس حريته بالحق .

السر

ولم يكن الشيخ عبد ربه التائه يخفى ولعه بالنساء . وفى ذلك قال :

الحب مفتاح أسرار الوجود .

حديث الموت

قال الشيخ عبد ربه التائه :

رأيت الموت فى هيئة شيخ فان وهو يقول معاتبا «لو كففت عن عملى عاما واحدا لا نتزعت منكم الإقرار بفضلى» .

التفاؤل

سألت الشيخ عبد ربه التائه :

ـ لماذا يغلب عليك التفاؤل؟

فأجاب :

ـ لأننا مازلنا نعجب بالأقوال الجميلة، حتى وإن لم نعمل بها .

مـا تشـاء

أثار الشيخ عبد ربه التائه عجب بعض المريدين بإغراقه فى الحياة الدنيا، فقال لهم: «افعل ما تشاء بشرط ألا تنسى وظيفتك الأساسية وهى الخلافة».

المهزلة والمأسـاة

قال الشيخ عبد ربه التائه:

من خسر إيمانه خسر الحياة والموت.

السـرعـة

قال الشيخ عبد ربه التائه:

ما نكاد نفرغ من إعداد المنزل حتى يترامى إلينا لحن الرحيل.

المستـشـار

قال الشيخ عبد ربه التائه:

حبا فى الهداية قررت زيارة صاحبكم الذى ضجت الأرض من ظلمه وفساده؟ طلبت مقابلته فاستقبلنى مستشاره وقدم لى القهوة. والتقت عينانا لحظة فعرفت فيه إبليس متنكرا. ولما أحس بأننى عرفته ضحك قائلا:

خسرت هذه الجولة فالعب غيرها..

الخصم القـوى

قال الشيخ عبد ربه التائه :

يا من أيقظتن الفؤاد فى دار الفناء ، أشهد بأنكن خلقتن الخصم القوى الذى يتحدى الموت .

الاختيار

قال الشيخ عبد ربه التائه :

جاءتنى امرأة جميلة تسألنى الرأى فى مسألة تعنيها . ولما وافيتها بالجواب قرأت طالعها فى جبينها الوضاء .

وقلت لها :

«أمامك طريقان ، طريق العفة والسماء ، وطريق الحب والإنجاب . . ؟» .

فقالت بابتسام واحتشام :

«لقد أعدنى ذو الجلال للحب والإنجاب ، ولن أخالف له مشيئة . . » .

بحـــر

قال الشيخ عبد ربه التائه :

وجدتنى فى بحر تتلاطم فيه أمواج الأفراح والأكدار .

شــــكـر

قال الشيخ عبد ربه التائه :

الحمد لله الذى أنقذنا وجوده من العبث فى الدنيا ومن الفناء فى الآخرة .

خفقة

قال الشيخ عبد ربه التائه :

خفقة واحدة من قلب عاشق جديرة بطرد مائة من رواسب الأحزان .

أنا الحب

قال الشيخ عبد ربه التائه :

كنا فى الكهف نتناجى حين ارتفع صوت يقول :

«أنا الحب، لولاى لجف الماء، وفسد الهواء، وتمطى الموت فى كل ركن» .

الاقتحام

قال الشيخ عبد ربه التائه :

حاولت يوما العزلة، ولكن تنهدات البشر اقتحمت خلوتى .

الحب والحبيبة

قال الشيخ عبد ربه التائه :

قد تغيب الحبيبة عن الوجود، أما الحب فلا يغيب .

لا تلعن

قال الشيخ عبد ربه التائه :
لا تلعنوا الدنيا فهى تكاد ألا يكون لها شأن بما يقع فيها .

واجب العزاء

قال الشيخ عبد ربه التائه :
جاءنى رجل شاكيا ، فسألته عما به فقال :
- إنى غريق فى بحر المتع ولا أشبع !
فقلت له :
- سأزورك يوم تشبع ، لأقدم لك واجب العزاء .

الدنيا والآخرة

قال الشيخ عبد ربه التائه :
إذا أحببت الدنيا بصدق ، أحبتك الآخرة بجدارة .

بلا ترحيب

قال الشيخ عبد ربه التائه :
الصديق الذى يندر أن نرحب به ، هو الموت .

السـر

قال الشيخ عبد ربه التائه :
كما تحب تكون .

الوسـط

قال الشيخ عبد ربه التائه :
أناس شغلتهم الحياة ، وآخرون شغلهم الموت .
أما أنا فقد استقر موضعى فى الوسط .

الترنـح

قال الشيخ عبد ربه التائه :
كتب على الإنسان أن يسير مترنحا بين اللذة والألم .

الجـوهـران

قال الشيخ عبد ربه التائه :
جوهران موكلان بالباب الذهبى يقولان للطارق :
تقدم فلا مفر ، هما الحب والموت .

الدورة اليومية

قال الشيخ عبد ربه التائه :

استلقيت فوق الأرض الخضراء تحت ضوء القمر أهيم فى الرؤية ، فهمست الأرض فى أذنى شاكية :

«ينفسون على لقمتى اليومية . وما فعلت سوى أن استرددت ما سبق أن وهبت» .

سر وراء السر

قال الشيخ عبد ربه التائه :

قلت للحياة : حقا إنك سر من أسرار الوهاب .

فقالت بحياء : إن أبنائى يسألوننى ، فلا يجدون عندى إلا السؤال .

الوقت الأخير

قال الشيخ عبد ربه التائه : «كيف نتعامل مع وقت الرضا والسرور؟» .

فأجاب : اعتبره آخر ما تبقى لك من وقت .

انظر

قال الشيخ عبد ربه التائه :

إن مسك الشك فانظر فى مرآة نفسك مليا .

نسمة الحب

قال الشيخ عبد ربه التائه :

«نسمة حب تهب ساعة تكفّر عن سيئات رياح العمر كله .

خطبة الفجر

قال الشيخ عبد ربه التائه لسمار الكهف :

أسكت أنين الشكوى من الدنيا ، لا تبحث عن حكمة وراء المحير من فعالها ، وفر قواك لما ينفع ، وارض بما قسم ، وإذا راودك خاطر اكتئاب فعالجه بالحب والنغم .

الزمن

قال الشيخ عبد ربه التائه :

يحق للزمن أن يتصور أنه أقوى من أية قوة مدمرة ، ولكنه يحقق أهدافه دون أن يسمع له صوت .

الصراع الشامل

قال الشيخ عبد ربه التائه :

أشمل صراع فى الوجود هو الصراع بين الحب والموت .

الأصـل

قال الشيخ عبد ربه التائه :

أطبق الشر على الإنسان من جميع النواحى . فأبدع الإنسان الخير فى جميع المسالك .

الخـيال

قال الشيخ عبد ربه التائه : قد يدرك المعمر يوما أنه أطول عمرا من أجمل رموز الحياة!

الطـائر الأخضر

قال الشيخ عبد ربه التائه :

أحببت حتى الذروة ، وحلّقت بجناحى النجاح ، وأطربنى الغناء فى الليالى البدرية . وعند المغيب هبط الطائر الأخضر ، فغرد وأشجانى دون أن أفقه له معنى .

خفـقة قلب

قال الشيخ عبد ربه التائه :

ما بين كشـف النقاب عن وجه العروس وإسداله على جثتها إلا لحظة مثل خفقة قلب .

الحركة

قال الشيخ عبد ربه التائه :

جاءنى قوم وقالوا إنهم قرروا التوقف حتى يعرفوا معنى الحياة، فقلت لهم تحركوا دون إبطاء، فالمعنى كامن فى الحركة .

لا تندم

قال الشيخ عبد ربه التائه :

اخفق يا قلبى واعشق كل جميل وابك بدمع غزير إذا شئت ولكن لا تندم .

حسن الختام

قال الشيخ عبد ربه التائه :

ما أجمل أن تودعها وقد ازداد كل منكما بصاحبه رفعة .

عنوان

قال الشيخ عبد ربه التائه :

اقْترح تعليق لوحة فوق مدخل الكهف يكتب فيها : «الله يديم دولة حسنك» .

ما يملأ الفضاء

قال الشيخ عبد ربه التائه :

لولا همسات الأسرار الجميلة السابحة فى الفضاء . لانقضت الشهب على الأرض بلا رحمة .

اللهفة

قال الشيخ عبد ربه التائه :

كابدت من الشوق ما جعل حياتى لهفة مكنونة فى حنين .

الغباء

قال الشيخ عبد ربه التائه :

لا يوجد أغبى من المؤمن الغبى ، إلا الكافر الغبى .

الغناء

قال الشيخ عبد ربه التائه :

الغناء حوار القلوب العاشقة .

الآن

قال الشيخ عبد ربه التائه :
الحاضر نور يخفق بين ظلمتين .

الدين

قال الشيخ عبد ربه التائه :
الحياة دين ثقيل ، رحم الله من سدده .

الصفح

قال الشيخ عبد ربه التائه :
أقوى الأقوياء من يصفحون .

تذكرة

قال الشيخ عبد ربه التائه :
عندما يلم الموت بالآخر ، يذكرنا بأننا ما زلنا نمرح فى نعمة الحياة .

الواحة

قال الشيخ عبد ربه التائه :
فى الصحراء واحة هى أمل الضال .

الحديقـة

قال الشيخ عبد ربه التائه :

ما أجمل راحة البال فى حديقة الورد .

الفـرج

وفى ليلة الموسم جمعنا الكهف فلم يتخلف أحد .

فى الخارج عوت الرياح الباردة ، وزمجرت .

فى الداخل جاد كل صدر بحنينه حتى عمت نشوة شادية .

وقال الشيخ عبد ربه التائه :

ـ هنيئا لمن قام بواجبه فى السوق ، أو تحدى الكدر .

غضضنا الأبصار من الحياء ، وأصغينا إلى ناى الراعى القديم .

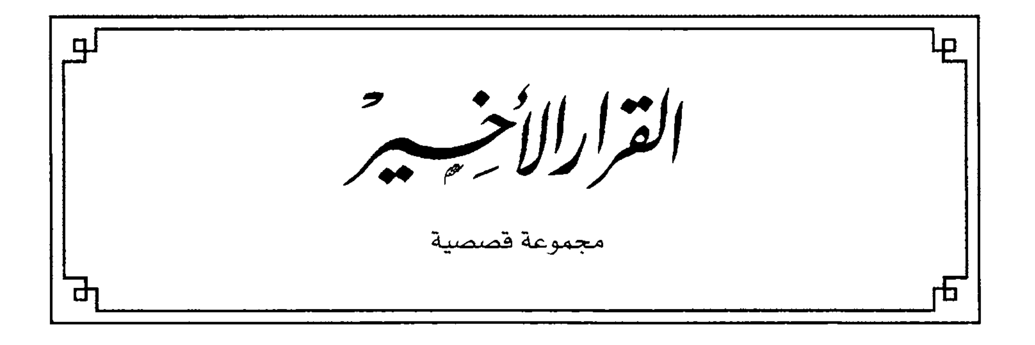
وقال الشيخ :

ـ انظروا إلى باب الكهف ، ولا تحولوا عنه الأبصار .

وخفقت القلوب حتى ارتعشت جذورها فى انتظار الفرج ،

وفى لهفتنا ، رأته البصيرة وسمعته السريرة .





المحتويـــات

المهـــد

فى حومة الهموم لا بأس من التماس الرحمة فى رحاب الأشياء التى أحبها القلب. هى أيضا حقيقة، غرست جذورها فى الوجود. ومن حق الحران أن يجفف عرقه ويبل ريقه.

* * *

المرح بين يد حنون وحضن حنون، الغفلة السعيدة عن الزمن، نيل المطالب بالتمنى، التمرغ فى بستان الحرية قبل الوعى بها، مسرة الوقفة والعثرة والضحكة، والأسئلة الكبيرة تنهمر اعتباطا. ما أكثر ما يعجب وما يسر! فى الانتظار سوارس والترام والترولّلى تخترق قضبانه النحيفة الحدائق. ومن الورق تصنع القوارب الصغيرة وتعوّم

فى الجداول لتمضى مع المياه الوانية إلى البلاد المجهولة. والهمس لأضرحة الأولياء بأعذب أمانى القلب، والاشتراك فى حشو الأسماك بالتوابل ودهنها بالدقيق الملتوت، وإذا سمع أذان الفجر فى هدوء الليل طرب القلب لاقتراب الصبح واللعب، وعلى الوسادة يرقد تمثال الرحالة المصنوع من الصفيح الملون فيسأله: هل بلغ بلاد الواق ورأى العجائب؟ والأحباب كثيرون من باعة جوالة وزفة السيرك ومواكب الفتوات والأقارب الريفيين وأساطيرهم عن العفاريت وقطاع الطرق، ولكن لكل حكاية نهاية سعيدة.

* * *

وأول العشق يوجد فى دنيا الأطعمة والحلوى بصفة خاصة. البيت يجود بالمهلبية والأرز باللبن والسخينة والحليب والشهد والعسل الأسود بالطحينة، ومن الفواكه: البطيخ والشمام والبرتقال والعنب والنبق والخوخ. أما الشارع فيختص بالدوم والتفاح المسكر وبراغيث الست والملبن والفطائر وفوق القمة البليلة والكسكسى. الحلوى فاتنة فى ذوبانها، ساحرة فى نشوتها وسريانها فى الحواس. وهى أول تدريب لعشق الجمال. ويمضى الصغير بملاليمه لا يشبع ولا يرتوى، يستقبل بفيه المشوق النهم ما لذ وطاب، ويتوج جهاده بالكنافة والبقلاوة والجاتوه والشيكولاتة.

* * *

وفى كلمة أو كلمتين نعرف سر الدنيا والآخرة. حقّا إن المخاوف كثيرة، الظلمات محدقة، ولكن الله رحمن رحيم، ينشر عنايته الإلهية فتحيط بكل شىء، وقد يسِّر لنا مفتاح الأمن والأمان، بالآية نتلوها، بالصلاة نقيمها، بالصوم نتقرب به إليه، فتصفو الدنيا وتحلو وتهب الخير والبركة، ويتقهقر إبليس وجيوشه وننتظر هناك الجنة ونعيمها. ولا بأس من أن نستزيد من الأمن والأمان بزيارة ولى، أو تعليق تميمة بالطاقية، أو بحرق قليل من البخور.

- ما أيسر السعادة فى الدارين لمن يشاء.

* * *

ودعوة للخروج فى صحبة الأب أو الوالدين هى عز المنى. فى بدلة بحار يسير تياها. يجلس الأب فى حلقة من الأصدقاء بمقهى الجندى بميدان الأوبرا، وينعزل هو وقدح الدندورمة فى الطرف. ينظر إلى الميدان وحديقة الأزبكية وتمثال إبراهيم باشا، وأحيانا يتابع أحاديث الصحاب ويستمع بانشراح إلى ضحكاتهم. لماذا يقهقهون وتتراقص شواربهم المجدولة الأطراف؟ لا يدرى، ولكن وجهه يجاملهم فيضحك. ويسمع أيضا أن فلانا طلق زوجته. وأن شارع الخليج كان يستقبل مياه الفيضان فى زمن مضى، ويتحول إلى ترعة تشق وسط القاهرة. ويسأل أباه:

ـ مثل الترعة التى فى لونابارك؟

فيقول الأب ضاحكا :

ـ أنت من يوم ما عرفت لونابارك والسينما حصلت فى دماغك لوثة . .

ورأى فى ميدان العتبة الخضراء موقف حمير وهما فى طريق العودة إلى الحى العتيق، فاقترح على أبيه أن يركبا حمارين بدلا من سوارس، ولكن الرجل سخر من رغبته قائلا :

ـ اللّه يخيّب ذوقك، لا فائدة من محاولة تمدينك .

ولكنه لم يضن عليه بشراء جهاز صغير خاص بصنع الدندورمة والجرانيتة، سهل الاستعمال، فكان يملأ وعاءه الداخلى باللبن المحلى حينا، أو بالليمونادة حينا آخر، ويلتهم الدندورمة والجرانيتة، ما يملأ حلّة متوسطة .

* * *

وسطح البيت مملكة تنعم بحرية مطلقة . سقفه سماء الفصول الأربعة بألوانها المتباينة . وفى الأفق قباب عديدة ومآذن مفردة ومزدوجة، تستوى بينها مئذنة الحسين كالعروس بقدها المشوق المنطلق . الكتاكيت تتجمع وتتلاصق تحت الشعاع كأنها خميلة متكاملة الألوان . نقيق الدجاج يترامى من وراء الباب الخشبى . رءوس الأرانب تبرز من أفواه البلاليص المائلة . وأنت تجمع البيض فى حجر جلبابك، وتقدم أعواد البرسيم للأرانب، وترمى الحب للكتاكيت . وثمة كرسى خيزران قديم نقول له كن سوارس أو كارو أو سيارة أو طيارة فيكون بقدرة الخيال الطموح . والطشت يملأ بالماء فيكون بحيرة، والسلم الخشبى ينام على الأرض فيصير قضيبا للترام . الوهم والحلم والحقيقة شىء واحد . وفى الصيف تنقل الأم الكانون والحلل إلى السطح تحت تكعيبة اللبلاب، فيشارك فى اللعبة الجديدة بما يحلو له، يغسل اللحمة، يدق التوابل فى الهاون، يخرط الملوخية، وفى المواسم يسهم فى نقش الكعك ولت العجين وتسمين خروف العيد . ومن فوق السطح رأى الطيارة وهى تمرق فى الفضاء وأزيزها يملأ الجو، ولمح سائقها فى حجم اللعبة الصفيح، ورأى القمر فى الليل، ورصد ظهور ليلة القدر ليكون من أهل الحظوة والسعادة . ورأى أيضا فتوات الحوارى وهم يتصارعون كالوحوش، كما رأى التاريخ فى مواكب ثواره وسمع هتافاتهم، وشاهد أعداءهم، وهم يطلقون الرصاص بلا رحمة . وفى الليالى الحلوة والنجوم تزهر، تفرش الأم فروة تحت اللبلابة فيتربع أمامها على ضوء مصباح يشتعل فوق الطبلية ليسمع حكايات الإنس والجان . ومع أن أكثر الوقت يمضى فى وحدة إلا أنه لا يمضى فى صمت . حواره متصل دائما مع الكتاكيت والدجاج والأرانب والنمل، ومع الجماد أيضا كالكرسى والطشت والسلم والتمثال الصفيح، ويتجاوز ذلك إلى الخيالات والأشباح . ولكن السطح أيضا كثيرا ما يكون ملتقى الأهل

والجيران، فيحلو السمر ويطيب الغناء، ويكثر اللعب مع الأقران من الذكور والإناث. وتلك العروس الصغيرة بنت أم على الداية التى قادتهما الغريزة الكامنة الغامضة إلى طريق اللهفة المحفوف بالنشوة والحذر.

* * *

وموسم القرافة من مواسم الأفراح! أليس موسم الفطائر والزهر والريحان؟ والمسيرة بصحبة الوالدين فى مهرجان حافل من النساء والرجال والأطفال؟ ويطالعك باب الحوش المفتوح على مصراعيه، فرش مدخله بالرمل ورش بالماء. يضعون السلال فى حجرة الرحمة ويهرعون إلى القبر ليغطوه بالأزهار. إنه قائم بشاهديه كما كان لا يتغير، غارق فى صمته وغموضه، مثيرللحيرة وحب الاستطلاع. يمعن النظر فى قاعدته لعله يطلع من منفذ عما فى جوفه. جدود وأقارب لم يرهم، يرقدون فى سلام، ويتلقون من الزيارة والتلاوة أنسا ورحمة. والوالدان يخاطبان القبر بكلام غريب وكأنهما يخاطبان أحياء يسمعون ويستجيبون. ويتلى القرآن، وتوزع الرحمة على الفقراء والشحاذين. ويتسلل إلى الخارج فيجد نفسه بين كثيرين من أقرانه فيتجاذبون أطراف الأساطير. كل شىء يدعو للفرح فلماذا تدمع العيون؟!

* * *

ولكن ما شأن هذه الجارة التى تلوح أحيانا فوق سطحها الملاصق لسطح بيتنا؟ تسقى الزرع أو تزقق الحمام. لها وجه أبيض منير، وشعر أسود غزير تضمه فى ضفيرة طويلة مسترسلة، نظرتها جذابة باسمة، وروحها خفيفة فاتنة. هى أكبر منه بزمن طويل، ولكن أمه تخاطبها كما تخاطب ابنة لها. تداعبه بأحلى الكلام، وتتحفه بين الحين والحين بالملبن ونبوت الغفير، وإذا زارت أمه بصحبة أمها رفعته بين يديها وقبّلته. وهو يخجل منها ويرغب فى المزيد منها. وكلما صفا له الوقت ملأت خياله. ومرة قالت له أمه بحضور أبيه:

ـ أنت تنظر إلى أبلة طول الوقت تريد أن تأكلها..

فقال:

ـ إنها جميلة.

ـ وماذا تريد منها؟

تحير قليلا، ثم قال:

ـ أن أتزوجها!

فضحك الأب وقال:

ـ خيبك الله . . انتظر حتى تعرف كيف تكتب اسمك دون أخطاء . .

❊ ❊ ❊

ويعشق القلب رمضان والعيدين ويحسب الأيام فى انتظارها . والكرار أول ما يبشرنا باقتراب شهر رمضان حين ترص بجنباته أجولة الياميش . وتهفو نفسه للصيام ، ولكن الأم تمتنع عن إيقاظه وقت السحور . وتسمح له بالصوم عدد الساعات التى يستطيعها ، فتدرب عليه رويدا حتى شرع فيه جادا فى السابعة ومعه الصلاة . وتلاشت آلام الصوم فى مسرات لا حصر لها . السحور والإفطار والفوانيس واللعب ما بين الميدان والحسين وترديد الأناشيد . فى الأيام الأخيرة من الشهر يمضى به أبوه إلى السكة الجديدة ، إلى محلى جاكويل وجوستر ، فيشترى له بدلة جديدة وحذاء جديدًا . يحفظهما لصباح العيد ، ويتفحصهما بحنان ، ويشمهما بوجد متلذذا برائحة الجلد والقماش الجديدين . وحلق الشعر والحمام وأخذ الزينة الكاملة والانطلاق إلى ميدان الأفراح والزمامير والأراجيح ، والكعك والغريبة والعيديات وزيارات الأقارب والأحباب . وسينما الكلوب المصرى وشارلى شابلن وماشست . أما عيد الأضحى فيشهد صداقة جديدة مع الخروف كما يشهد الغدر به فى فجر اليوم الموعود ، إفطاره شواء وغداؤه فتة ورقاق ، وفى تلك الأيام بدأ حب الله يطرق القلب الصغير مع حب الجارة المليحة واهبة القبلات والملبن . .

❊ ❊ ❊

ولذة الحواس أشمل من الطعام والحلوى . أول خضرة أطلت من تكعيبة اللبلاب وأصص القرنفل . والتروللى يشق طريقه فى حقول حدائق القبة يدفعه سائقه الحافى . الخضرة والأزهار تهب القلب فرحة طائرة ومناجاة عذبة والجداول توقظ ذكريات الروح . وروائحها الفاتنة عرفها أول ما عرفها عند تقطير ماء الزهر والورد من خزان المياه فى حمام البيت القديم . أما مسرة الأذن فحديثها يطول . تنهمر من الأفراح والليالى الملاح والفونوغراف مرددة تلاوة المقرئين وطقاطيق العوالم وأغانى عبد الحى حلمى والمنيلاوى وصالح ومنيرة والبنا وسيد درويش فيما سبق أم كلثوم وعبد الوهاب . ولكل مسرة موضع تعيش فيه وتبقى .

❊ ❊ ❊

وسينما الكلوب المصرى متى وكيف ملكت الفؤاد؟ كيف انضمت إلى رصيد الحب والأحباب حكايات الغرب الأمريكى ، وخفة شارلى شابلن ، وقوة ماشست وجمال مارى بكفورد؟ سحر وحلم . حسبته أول الأمر حقيقة وأنه يوجد فى مكان ما وراء الشاشة فى خان جعفر أو حارة الوطاويط . سلمت بعد ذلك بأنها صور ، ولكنها منقولة

عن وقائع حقيقية لا روايات خيالية. وددت لو أقضى العمر أمام الشاشة مع الأبطال. وعشقت مارى بكفورد، وأرضانى تشابه مراوغ بينها وبين جارتى المليحة. وصدقت بكل حماس أن وليم هارت اسمه الحقيقى على الديان، وأنه أصلا من باب الشعرية! وجىء لى بجهاز عرض صغير يدار باليد ويضاء بمصباح غازى ويزود بشرائط قصيرة منزوعة من الأفلام فى غفلة من أصحابها، فرحت أديره فى غرفة السطح الصغيرة التى أصبحت بفضله مرتادا لبنات الحى الصغيرات . . .

* * *

وتقليد التجارب المثيرة لذة أيضا. الأب أول من قلدت والأم أيضا. وقُبل ذلك فترة يسيرة ثم انقطع بالزجر. وسيدنا شيخ الكُتّاب ومقرعته، ألف المنديل حول رأسى كعمامة، أتربع على صندوق وتجلس الخادم على الأرض بين يدى، أحاكى صوته وألوح بالعصا، وألقى الدرس، وأسمّع وأعاقب آخذا ثأرى من كل ما لحقنى فى يومى الثقيل. أو أغطى الصندوق بملاءة فيكون قبرا، وأخاطبه كما يخاطب والداى القبر: «السلام عليك يا أبى والسلام عليك يا أمى»، وأتلو ما تيسر، وتنزعج أمى لذلك غاية الانزعاج وتنهال علىّ باللكمات. وأقلد الفتوات لاعبا بالعصا فى الهواء، وأقلد المتظاهرين هاتفا بحياة سعد وسقوط الحماية، وأقلد الباعة والعوالم وبعض الزائرات ذوات اللوازم الغريبة، وأحيانا أقلد «الردح» الذى يصدم سمعى فى الميدان، ويهزنى ما أثيره من سخط أو إعجاب تبعا للظروف والأحوال.

* * *

والجولات السعيدة فى مساكن الإخوة والأخوات. تنطلق بنا من الحى العتيق إلى أحياء جديدة كالحدائق والسكاكينى والظاهر وغمرة، فى مسكن ألقى رجلا غريبا، وفى آخر أجد امرأة غريبة، ولكننا نقابل عند الجميع بالحب والترحاب. وهناك المواليد الجدد، يرقدون فى المهد أو يحبون، وأنا بالقياس إليهم رجل بالغ الرشد. وتنهال علىّ القبلات والحلوى، وألاعب الصغار تحت رقابة مشددة. وتختلف درجات الحب بالنسبة إلىّ بين بيت وبيت، فبيت يتراءى لى وكأنه امتداد لبيتى فى ألفته وحرارته، وآخر لا يخلو من شىء من التحفظ الذى لا يشعر به سواى. ولكنها بصفة عامة أسرة متماسكة متوادة متحابة لا أذكر أن نبت فى أرضها الخضراء شوكة واحدة، وشد ما أحببتهم جميعا كما أحبونى.

* * *

ودنيا الآثار العجيبة طفت بأرجائها المترامية قبل أن ألتحق بأية مدرسة. وعندما عدت إليها فى الرحلات المدرسية كانت عودة إلى أرض العجائب التى نقشت رموزها فى القلب والخيال إلى الأبد. الخطوة الأولى بدأتها مع الأب، ثم وقعت الأم فى شباكها

فصارت من طقوس تقواها. الأضرحة والمساجد الأثرية وبعض الكنائس وتكايا الصوفية، والأهرام، ودار الآثار الفرعونية والإسلامية والقبطية، كم حركت من خيالى وأثارت من شجونى.. وحديث أبى عنها موجز جدّا وجاف. أما الأم فلا أدرى من أين جاءت بكل تلك الأساطير عنها. وأطول وقت قضيناه فى حجرة المومياوات المحنطة، تنحنى فوق التابوت متفحصة المومياء بخشوع وأسى. وأسألها:

ـ أهم أحياء؟

فتقول:

ـ أموات من زمن بعيد..

ـ هل أهلنا فى القبر مثلهم الآن؟

فتقول بجدية:

ـ الله أعلم بحالهم.

وأسأل باهتمام:

ـ هل كلنا سنموت؟

فتقول باسمة:

ـ بعد عمر طويل إن شاء الله.

ولعل جوابها طمأن قلبى!

* * *

والصداقة من نعم الحياة الكبرى. دائما وُجد الصديق، فوق السطح، فى الميدان، فى الحارة. ومنهم العابر والمقيم. من العابرين أقرباء ينزلون عندنا إذا جاءوا من الريف، ومن أبناء العم والعمة. نلعب معا فى البيت وخارجه، وأكون لهم مرشدا لحى الحسين فيسيرون ورائى كالسياح ـ ونحن نقزقز اللب ـ من بيت القاضى إلى خان جعفر إلى الحسين والسكة الجديدة والغورية والصاغة والنحاسين والوطاويط وقرمز والكبابجى وبين القصرين وحارة الشوام وقصر الشوق والسكرية ثم نتفرج على المجاذيب عند الباب الأخضر. أما المقيمون فكثرة ترهق الحصر، ولكن يتصفون باللطف والمسالمة فى أغلب الأحوال. يحبون السباق والجرى وراء عربات الرش، وحكى الحكايات والترنم بالأغانى الجماعية، يتميز بينهم بالأناقة أبناء دكتور العيون، والشيخ بشير والد فاتنتى. ولم يخل التجوال من لقاء من نطلق عليهم أبناء الشوارع، وهم رغم أسمالهم البالية وأقدامهم الحافية على قدر كبير من خفة الروح، أما خرقهم للتقاليد المرعية فلا حدود له، يرددون الأغانى الفاحشة فنشعر بالفطرة أنها ترشح من يحفظها للنار وبئس القرار. ويوم يمر دون لقاء مع أولئك أو هؤلاء لا يحسب من العمر..

حتى تلك السن المبكرة جدًا لـم تخلُ من الحومان حول الجنس الآخر، والانسياق مع جاذبية المغامرات الخاطفة، واكتشاف كنوز الفواكه المحرمة. تتم فى حذر يفضح الشعور بالإثم، والوعى لحد ما بالذنب. ودعك من فاتنتى التى تتخايل فى حصنها كالحلم، فهناك حجرة السطح وبئر السلم يشهدان حوادث مثيرة وغير نادرة، فضلا عن أن سحر النساء ينفث نداءاته الغامضة فى عمق وسرية وبلا انقطاع، وغير مفرق بين غريبة وقريبة، يافعة أو ناضجة. .

* * *

فترة خاطفة تبدو لعين الحالم خطوة أولى فى طريق بلا نهاية. خطوة تمهيد ليس إلا، ثم تتلوها المدرسة والمراهقة والشباب والنضج والشيخوخة، الحياة بكل أبعادها المتاحة.

لكن مهلا. . هى فترة قصيرة، ولكنها تحمل أجنة احتمالات لا تعد. تشهد مولد الأسئلة الخالدة، والحب، والجنس، والصداقة، والقيم، والحياة، والموت، فى رحاب ذى الجلال. ألحان أساسية تنمو وتتنوع مع العمر، تتلقى من البحر الثرى أمواجا متدافعة وآفاقا مترامية. توزعنا الأهواء والتأملات، الحلم والأفعال، الانكماش والاندفاع، ولا نتخلى عن الرغبة الأبدية فى الاهتداء إلى مصباح يضىء لنا طريق المصير. .

دخان الظلام

رأيتنى فى رحلة من رحلات الزمان الأول. يبدو أن اليوم من أيام الشتاء اللطيفة، فالسماء صافية والشمس حانية. توافدنا على الميدان كما تواعدنا على رغم الموت الذى فرق بيننا، بأيدينا حقائب صغيرة من الخوص المجدول الملون ملأى بالأطعمة والأشربة. زقزقت حناجرنا بالضحكات وعبرنا حدود الميدان الشرقية المفضية إلى الخلاء وعيون المياه وواحة النخيل والحناء. كالعادة يمضى النهار بصحبة الطعام والشراب والسمر والطرب حتى ينهكنا السرور، ثم نعود بالحقائب الخاوية إلى الميدان عند الأصيل. الآن الشمس تنحدر نحو الأفق، ولفحات من البرودة تهب، ولكن فى دماثة وعذوبة. تبادلنا تحيات الوداع، وتفرق الأحباب بين الطرقات المفضية إلى بيوتهم. تمهلت بعض الوقت مطمئنا إلى قرب بيتى من الميدان. وجدت نفسى شبه وحيد لندرة العابرين آخر النهار. واتجهت نحو طريقى التى تصب فى الميدان كسائر الطرق. سرت وأنا فى غاية من الشبع والرضا بين صفين من الأسواق والوكالات والورش، للبيع والشراء والصناعات والحرف، فيه تختلط أصوات العملاء بأزيز المواقد ودق المطارق. لا يسكت ضجيجه أو تتلاشى

حركته إلا بعد هبوط الليل وذهاب الحافلات واستقرار النقود فى الخزائن . هو الشارع الذى حلمت فيه بالنضج والعمل وأسعدنى كثيرا التجول فى جنباته . ولما شارفت نهايته دهمنى منظر سد من الأحجار أغلق مخرجه بإحكام . ذهلت وغضبت وتساءلت : متى قام هذا السد؟ ومن الذى أقامه؟ ولأى غاية صنعه؟ وتلفت حولى فلمحت عند زاوية السد اليمنى شخصا يجلس وراء مكتب خال إلا من تليفون . ولما استقر بصرى عليه تسمرت فى مكانى من هول ما رأيت . طالعنى وجه غليظ بصورة تتحدى أى خيال ، وفى موضع الأنف ينطلق خرطوم قصير على هيئة خرطوم الفيل ، تحت عين واحدة غائرة تستقر فى منتصف الجبين . تراجعت فزعا وأنا أتساءل : أهو إنسان أم حيوان؟ وأى نوع من الحيوان يكون؟ وأرى الناس منهمكين فى شئونهم لا يعيرونه التفاتًا ، فملكتنى الحيرة وداخلنى خوف من المكان كله . وطويت حيرتى فى صدرى وانحصر تفكيرى فى النجاة بنفسى من هذا الشارع الذى توهمت خطأ أنه سبيلى إلى بيتى . وجدتنى مرة أخرى فى الميدان فصادفنى عابر سبيل فاعترضت طريقه مستغيثا به . أشرت إلى الطريق المسدود وسألته :

ـ ماذا يجرى فى هذا الطريق؟

ولكنه حدجنى بحنق لاعتراضى سبيله ، وهتف بى :

ـ عن إذنك ، لا وقت عندى للكلام الفارغ!

ونحانى جانبا ومضى . وبدورى لم أعد أفكر إلا فى العودة إلى بيتى مؤجلا أى شىء إلى حينه . لا شك فى أن الرحلة أدارت رأسى فلعل طريقى هو التالى . أية دهشة ستدرك الأصدقاء عندما أروى لهم ما رأيت . وفى الحال ولجت مدخل الطريق الثانى . إنه أضيق من الأول . لم أستدل بملمح من ملامحه على أنه حقًا طريقى ، ولكنى لم أعدل عن السير لارتيابى الطارئ فى سلامة ذاكرتى ، وهو شبه خال أيضا . أجل تقوم على جانبيه مقاه صغيرة متباعدة ، ولكن لا يكاد يرى أحد فى ساحته . وسطعت من مقاهيه روائح غريبة نافذة ومؤثرة ، وتراءى الجالسون وكأنهم لا يسمعون ولا يرون ولا يشغلهم شاغل أو يربطهم بالحياة رابط . أوسعت الخطى هربًا من قلق زاحف . ولما دنوت من النهاية تسمرت قدماى للمرة الثانية . سرت الرعدة فى أوصالى ولم أصدق عينى . إنها جوقة من الهياكل العظمية ترقص رقصة جماعية شعبية . إنه الموت يرقص أمام عينى بلا موسيقى تصاحبه . عدت جريًا قبل أن يغمى علىّ . ماذا جرى للدنيا؟ وكيف أعثر فى هذا الضياع على شرطى لأستنجد به؟ لأذهبن إلى قسم الشرطة قبل ذهابى إلى بيتى إذا تخلصت من ورطتى الخانقة . ولم يخلُ الميدان من عابر أو عابرين ، ولكنى تذكرت الدرس القاسى الذى تلقيته على يد الرجل الأول ، بالإضافة إلى أننى لم أعد أثق بشىء . لم يعد لى من هدف أهم من الرجوع إلى بيتى . وهذا هو الطريق الثالث فلأجربه وأمرى لله . إنه على

أى حال طريق حى تتردد فيه أنفاس العشرات من البشر. ربما يكون طريقى الذى ضللته. منه تترامى نداءات الباعة على كل ما يؤكل أو يشرب. الزبائن يقبلون خفافا ويذهبون محملين بالقراطيس والأكياس واللفائف. سرت مسرعًا يشدنى شىء من الأمل. ولكن ماذا أرى يا ربى؟ من الزبائن من يذهب وهو يجفف دموعه. أو من يتلوى كالملسوع صارخًا. أو من يرمى بجمرة دست فى قرطاسه، ثم يمص أصابعه ليبترد. تألمت وتشاءمت ولكنى لم أتوقف. لم أتوقف حتى رأيت فى نهاية الطريق بياع لحمة رأس يرص على طبليته مجموعة من الرءوس الآدمية. ندت عنى صرخة فزع. انتبه البياع إلىّ وراح يحملق فى رأسى. ارتعدت أوصالى ووليت هاربا لا ألوى على شىء حتى وجدتنى فى الميدان. رباه.. هل جننت؟.. لم يبق إلا الطريق الرابع وهو الأخير، فما الحيلة إذا خاننى الحظ فيه أيضا؟ وهتفت بصوت جهير:

- ماذا حدث للدنيا؟

وإذا بصوت غاضب يصيح بى:

- أفزعتنى لا سامحك الله!

ونظرت نحو الرجل معتذراً، وأومأت إلى الطريق الأخير قائلا فى توسل:

- لا تؤاخذنى، إنى مرهق وفى حاجة إلى رفيق.

فنظر إلىّ بارتياب وقال:

- آسف، فتوكل على الله..

وابتعد عنى وهو يتلفت فى حذر. لم يبق إلا أن أجرب حظى. المغيب يهبط ولا راد له. والطريق ليس بطريقى ولكن بحسبه أن يوصلنى إلى العمران. وهو شارع كبير ومثير ويتسم بالفخامة والرونق. ويمكن أن تسميه بشارع المقاهى الفاخرة. وأسماء مقاهيه المرسومة بالمصابيح الكهربائية تنطق بالصراحة والصدق والتحدى. مقهى النشالين، مقهى النصابين، مقهى القوادين، مقهى الرشوة الوحيد. لأول مرة أبتسم. ليكن من أمرها ما يكون. المهم أن أرجع إلى بيتى، ولتذهب المقاهى بمن فيها وقحتها المعلنة بلا حياء إلى الجحيم. مضيت فى خطى تدفعها اللهفة والأمل. ولأول مرة أرى فى نهاية الشارع ما يطمئن القلب ويسكن الخاطر. رأيت قوة من رجال الأمن تحت قيادة رجل مهيب. لم يساورنى شك فى أننى بصدد هجمة حازمة هدفها التأديب والتطهير. وصحت فى جذل:

- ليحفظكم الله، هل علمتم بما يجرى فى الطرقات الأخرى؟

ولكننى تلقيت وابلا من نظرات باردة جافة منذرة بالويل والشر. وخُيّل إلىّ فى ذهولى المباغت أن ثمة تحفزاً لإلقاء القبض علىّ. وداخلنى شك فى هويتهم، فوليت

الأدبار جريا بغير توقف غير غافل عن أنه لم يبق لى منفذ جديد للخلاص. وبلغت الميدان والظلام ينتشر. غرقت فى مستنقع الحيرة ولا طوق نجاة معى. وليس الميدان خاليًا فيما بدا، ولكن شغلت جنباته أشباح وفيرة، وملأت جوه همهمات غامضة. ثم ندت عنها هتافات غاية فى التضارب والتناقض. غاضبة متوعدة متحفزة للقتال فى الظلام البهيم. استشعرت الخطر وما من سلاح معى سوى حقيبتى الخاوية. من أين جاء هؤلاء جميعا؟ وماذا يرومون؟ أهم أصدقاء أم أعداء؟ من الخلاء وفدوا أم من الشوارع الوحشية المعربدة؟ وتخلل الهتاف أصوات من نوع آخر. أغانى خليعة وأناشيد دينية وموسيقى عسكرية. وضاق صدرى ضيقا فأوشكت أن أختنق. وركبنى شعور بالضياع والخسران والقنوط. من شدة غيظى وجهت بجامع قبضتى ضربة إلى أم رأسى.

* * *

وفجأة تلاشى الجحيم فيما يشبه المعجزة. تلاشى فجأة وبلا تدرج. هبطت اليقظة من مملكتها الحرة بالسماء. . يقظة مضيئة مفعمة بالعذوبة والسلام والطمأنينة، مرحة، مريحة، سعيدة تنضج بالمودة والهناء. مددت بصرى نحو النافذة فرأيت الأفق يزدهر بحديقة الشمس المشرقة.

اليمامـــــة

ألعب تحت شجرة البلخ عند الأصيل. مغروسة فى موضعها من قبل أن يشيد بيتنا بزمن طويل. عندما تهب الريح يلاطم غصن من أغصانها مشربيتنا. وتطل أمى علىّ من حين لآخر كيلا أبتعد عن الميدان. لما أكون وحيدا أغنى أو ألاعب نفسى السيجة. ذات يوم تهبط علىّ غمغمة ممطوطة منغومة فيهتز لها قلبى. اليمامة تبعث لحنا، أعرف شدوها، وأحبها حبا جما. أرفع رأسى المغطاة بطاقية مزركشة فأراها مستقرة ناعمة البال عند أصل غصن. لها لون الدوم وفى وداعة النسمة ووحيدة مثلى، ولكنها لاهية عن حبى. أترنم فى شغفى:

يـمـــامـــة حلـــوة   ومنين أجـــيـــبـــهـــا
طـــارت يا نيـــنـــة   عند صـــاحـــبـــهـــا

إنها من أغانىّ المفضلة. ترى أأحب اليمامة لافتتانى بالأغنية أم أحب الأغنية إكراما لليمامة؟ أقول لها بتوسل:

ـ اهبطى . . لا تخافى . . عندى الأمان كل الأمان . . عندما أذهب إلى الكُتّاب، أودعك سريرى الصغير . .

يبدو أنها لا تعرف لغتى . سارحة فى دنياها الخضراء . ولسبب ما تطير بغتة فتقطع نصف الميدان، ثم تحط على سور الزاوية الصغيرة على كثب من قبة الضريح . أندفع جاريا تحتها بجلبابى المقلم وصندلى العتيق غير منتبه لما تحت قدمى . لا فكرة لدى عن صيد اليمام ولا يحركنى إلا الحب . أقف أسفل سور الزاوية على قيد أشبار من المدخل . أبتغى الوسيلة إلى بلوغ المرام بتلاوة الفاتحة . لكن من المؤكد أنها لا تأبه لى . أو أن الحذر يخالط هواجسها . لا تريد أن تمكث فوق السور حتى أسترد أنفاسى فتطير مرة أخرى . أجرى تحتها وأصوات خشنة تهتف بى : «يا ولد . . فتح عينك» .

وتحط اليمامة على حافة شرفة مدرسة خان جعفر . أقف تحت شرفة المدرسة . بصرى متعلق بها وأنسى تماما تعليمات أمى المشددة . وأتساءل :

ـ ماذا يخيفك منى؟

شد ما تحزننى لا مبالاتها . فضلاً عن أنها لا تريد أن تستقر على حال . فما هى إلا لحظات حتى نطير معًا، هى فى الفضاء وأنا فوق الأرض الغائبة عن بصرى .

وأستيقظ على فرقعة سوط فأنتبه إلى قدوم كارو أوشك أن أصطدم بها . أتفادى منها على عجل، وسباب السواق يلاحقنى . عيناى مشدودتان إلى محبوبتى حتى تهبط فوق غطاء دكان لبيع البقالة والسجائر والخمور . أقف وأنا ألهث غير ملق بالاً إلى الزبائن . ما أطول المسافة التى قطعتها! ولكن طولها نفسه يحرضنى على الاستمرار . ربما يساورنى شىء من الضيق والكدر، ولكن الأمل لا ينقطع . وأقول بعناد :

ـ وراك . . وراك . . مهما طال الزمن وراك . .

سوف تحاسبنى أمى على اختفائى، ولكن سرعان ما يتلاشى غضبها عندما ترى اليمامة فى حضنى . وهأنتذى تطيرين للمرة الرابعة يا قليلة الرحمة فأجرى أنا كالمجنون فى إثرك . أكاد أعثر هذه المرة بشىء فوق سطح الأرض ولكن اللّه سلم . أتبعها بإصرار حتى تهبط فوق حافة شباك المستشفى . الدنيا زحام، عشرات يدخلون وعشرات يخرجون . يختلط الدعاء بالشكر بالبكاء . أغرق فى تيار البشر، ولكن عينىّ لا تتحولان عنها . يُخيّل إلىّ أنها ترامقنى، إنها الآن تعرفنى أكثر من أى وقت مضى . وأسألها :

ـ ألم تشبعى من الطيران؟

لكنها تطير للمرة الخامسة دون أدنى اكتراث بى . أطلق ساقى فى عناد يقهر أى تعب . وفجأة تزل قدمى فى نقرة فأندلق على وجهى . أنهض مسرعا متوجعًا والدم ينز من ركبتى . يمزقنى ألم قاس، فأفحم فى البكاء كالأطفال . لكنى أنظر من خلال الدموع إلى

أعلى. أحس بعوج فى كاحلى يمنعنى من الجرى. وتجول عيناى فى الفضاء فلا ترى أثرا لمحبوبتى الهاربة. أنتبه إلى ما حولى فألمس العتمة فى الخلاء المحدق بالمدينة. تختفين بعد مشوار طويل مبلل بالعرق والدموع؟ ويتبين لى أن الخلاء ليس بالغريب علىّ، فطالما أقطعه حاملا الخوص بصحبة أمى ونحن فى طريقنا إلى المقابر. ولم أجد من الخلق إلا آحادا عابرين. وها هو ذا المساء يهبط بكل جلال.

القرار الأخير

رجل جاد لا موضع فيه للمرح. رجل يحب الكمال بإفراط مهلك. وقيل عنه أيضا إنه وحش، لم ينبض قلبه بنبضة رحمة واحدة ولو على سبيل الراحة. يوم مات انتشر الخبر فى الحى كالشعاع الحار مفجرا مزيجا من الدهشة والرهبة والارتياح. وثارت شكوك حول حقيقة موته، فتهامس جيران بأنه قتل. وتصاعد الهمس حتى شرحت الجثة قبل دفنها. وثبت أنه مات كما يموت كثيرون بنزيف فى المخ، وعلى رغم ذلك ألصقت بابنه تهمة قتله، واشتهر الشاب فى كل مكان يحل فيه بقاتل أبيه، وحلت به اللعنة فى هالة من عطف كبير. ويهتف الشاب:

ـ كل واحد يعرف أن التهمة كاذبة، ولكن كيف أدفع اللعنة؟!

ألم يلكم أباه فيطرحه أرضا؟ ماذا يهم بعد ذلك أن يموت الرجل من أثر اللكمة أو يموت حزنا وكمدا؟! وعلى ذهول الشاب وكآبته فإنه لم يعلن ندمه، وصارح كل مخلوق بأنه كره أباه حيًا وميتًا. كان رجلاً يستحق المقت. قيل إنه عشق الكمال، وأصر على أن يتحلى بالكمال كل من خرج من صلبه، فمن كان ذلك الرجل الذى هام بالكمال لحد الجنون؟ كاتب حكومى لا أكثر، الابتدائية غاية تحصيله، قرأ بعض كتب الرواد فراودته أحلام بأجنحة وبلا أقدام. أفلتت منه الفرص وذاب فى الزحام، فأراد أن يجعل منا ـ أنا وأخى الكبير وأختى ـ أمثلة حية للكمال البشرى. صدقونى لم يكن إلا مجنونا. لا خبرة له على الإطلاق بالتربية، ويؤمن بأن القوة هى الوسيلة السحرية لخلق المستحيل. كم من مرة صب زوبعة غاضبة على أمى؛ لأن طبق طعام بات دون غسيل، أو خصلة من شعرها الكستنائى تسربت من حافة المنديل. أخى الأكبر جلد بقسوة مرات؛ لأن ترتيبه تأخر عن الأول، وأختى الجميلة تعرضت لنفس العقوبة دون اعتبار لرقة أعضائها وتوفر نضجها. وهو يجلد إذا جلد بوحشية المتعطش للانتقام لا بحكمة المربى الزاجر. ولم يكن يبتسم، دائما يعلوه الحزن وكأنما يتوقع قدوم موت وشيك. عشنا فى رعب، عشنا بلا حب، نتبادل نظرات التشكى، وأمنا تتأوه باكية وتصيح:

ـ أنت تهلك الأولاد، ربنا لن يسامحك أبدا . .

فيرد عليها بصوت كالرعد :

ـ اسكتى يا داعية الانحلال .

وقالت له مرة :

ـ أنت أسوأ أب .

فصاح بها :

ـ ما أنت إلا امرأة سوء . . والموت عندى خير من الضياع .

وذاعت أخبار بيتنا بين البيوت . قالوا : إن فى بيتنا محكمة تفتيش منعقدة بصفة مستمرة . ولم يكن لديهم ما يأخذونه عليه كجار . فهو يشيع الأموات، ويعود المريض، ويبرق مهنئا فى الأفراح . لكنه لا يذهب إلى المقهى، ولا يوثق علاقة بأحد، ولا صديق له . يؤدى فريضة الجمعة فى المسجد، يتبادل بعض التحيات فى تحفظ، وسرعان ما يرجع إلى مسكنه . وتجرأ عليه جار يومًا فاعترض سبيله ليعترف له بأن صراخ أبنائه يكدر صفو حياته، وأن التربية تقوم على الحزم والرحمة معًا، ولكنه عبس ومضى مقاطعًا الحوار . وبلغ حزننا مداه عندما قبلت أختى زيجة غير متكافئة لا لشىء إلا أن تهرب من قبضة أبيها الحديدية . لا السن مناسبة ولا الشكل، ولكنها وجدت فى جواره الكئيب النجاة . وذهب أخى الأكبر ذات يوم ولم يعد . اختفى من حياتنا فلا هو حى ولا هو ميت . وتحطم قلب أمى . أما أبى فقد ثار غضبه طويلاً، ووجم أحيانًا، ودارى هزيمته بكلمة فظة انطلقت من فيه كالحجر، صاح :

ـ فى داهية!

هل يتغير سلوكه مع الابن الأصغر؟ لا يبشر وجهه بأى خير . والولد على صغره لم يسلم من الجلد . ولكنه استعد للدفاع بطريقة تلقائية . راح يدرب جسمه تدريبًا رياضيًا ويتمرن على الملاكمة . واتسع له المجال فى ذلك داخل المدرسة وخارجها . واصل استعداده لمواجهة يوم أسود أغبر .

والرجل رغم كهولته متين البنيان وتمده التقاليد بقوة متجددة . والولد من ناحيته حزين، على أمه وأخته وأخيه حزين . وعمل ألف حساب ليوم ظهور النتيجة، ولكنه انتظره بعضلات متوترة وقبضة متمرسة . كرهت بسببك العلم والحياة . أتخيلك تماما وأنت تنتظر قدومى . إليك بالأخبار . قلت دون تحية :

ـ سقطت . .

صمت وقتا ثقيلا، ثم تساءل :

ـ هل تعرف ماذا يعنى هذا؟

فقلت بنبرة حادة لم يسمعها من قبل :

- لا يهمنى أن أعرف !

هب قائماً أحمر البصر . أقبل نحوى بسرعة وبكل ثقله . تلقى أول لكمة فى حياته من حيث لا ينتظر . تهاوى وهو يشهق فيما يشبه الإغماء . أمى صوتت . لم أنبس بكلمة . غمرنى شعور باليأس والتحدى . جاءت أمى بقارورة كولونيا وجعلت تدلك وجهه . ساعدته على القيام ومضت به نحو الفراش وهى تصيح بى :

- أنت مجنون وملعون .

وانفجرت باكية . فكرت فى الاختفاء مثل أخى ، ولكن موته لم يمهلنى . وثبت أننى لم أقتله ، ولكننى قاتل أبيه فى نظر الجميع حتى المتعاطفين معنا . أورثنا موته هما لا يقل عن جنونه حدة . وطلقت أختى ، ورجع أخى دون أن يستقر فى عمل يليق به ، وماتت أمى ، وكنت الوحيد الذى أتم تعليمه وتوظف ، ولكنى أتعس الجميع .

الخنافس

أول ما ترددت الشكوى فى المنزل رقم ٤ . ومنه انتقلت إلى رقم ٩ ثم إلى رقم ٢٢ . ولم يكن يمضى أسبوع حتى انخرط الحى كله فى ترديد الشكوى . يعثر شخص على خنفساء ، ساكنة أو متحركة ، فيهرسها دون مبالاة . فى اليوم التالى يرى اثنتين وربما ثلاثًا . ما هذا الوافد الجديد؟ بل تصبح ظاهرة تثير الضيق والحيرة . ويشملها السمر فى المقاهى .

- لا خوف منها ، ولكن لم تظهر بكثرة على غير عادة؟

- ولا تنسوا ما يقال من أنها تجذب وراءها العقرب . .

تواصل القتل بلا هوادة ، سهرت أعين الرعاية حول الأطفال والصغار ، وباتت الخنافس الشغل الشاغل والحديث الغالب . واستمر تكاثرها ، وانتشر الخوف منها ومن العقارب . ورجع بياع جوال ذات مساء وقال :

- إنهم يحطمون الأحجار فوق الجبل بالديناميت ، ومن الجبل تنهال علينا هجرات سكان الجبل بادئة بالخنافس . .

ثم واصل بعد لحظة صمت :

- وتتبعها بعد حين العقارب والحيات !

إنه قضاء يتحدى الحى ولابد من دفاع من نوع ما. واتجهت الآمال أول ما اتجهت نحو المحافظة. وفى الحى موظفون ومتعلمون فما علينا إلا أن نجس النبض، والله المستعان. لكن الشكوى لقيت من المحافظة استخفافًا وسخرية، أتريدون أن تعطلوا المصلحة العامة خوفًا من خنفساء؟! أما ما يقال عن العقارب فما هو إلا خرافة من خرافات الأولين. هذا والخنافس تتكاثر والقتل يستفحل حتى حلف الحلاق أن جثث الخنافس جاوز بالأمس المائة فى مسكنه. وفازت غرف النوم بعناية مركزة، وعرضت للتفتيش الدقيق الحشيات والأغطية والوسائد، فما يحتمل أحد أن يستيقظ من نومه على زحف خنفساء فوق جبينه أو اندساسها بين شفتيه. وقال رجل:

- لولا أزمة المساكن ما بقيت هنا يومًا واحدًا.

وقال آخر:

- سكنى المقابر أفضل وآمن..

وراجت تجارة المبيدات، وانهالت الاستشارات على الصيادلة، أما جموع الخنافس فلم تتوقف أو يعتريها ضعف، وانتشر لونها فى مواقع فصبغتها بالسواد، إضافة إلى الرائحة الكريهة، وعندما تجيء العقارب فقل علينا السلام. وحل اكتئاب عام كأنه غبار تحمله الخماسين، فقد الناس المرح، واشتدت حساسيتهم لأقل سبب، يتشاجرون حتى مع أنفسهم، وفى البيوت توترت الأعصاب، وتعددت أسباب النزاع، وكثر الحلف بالطلاق، وضرب الصغار لأتفه الفعال. وكل شخص قال إن العقارب آتية لا ريب فيها.

يا إلهى! ما سر البلاء؟ أهو الديناميت؟! أهو سوء النية؟ أهو غضب الله؟ ولكن ما جدوى التخبط بين الفروض وها هو ذا ديناميت الحكومة لا يسكت دقيقة واحدة؟ الحكومة وراء الخنافس، وراء العقارب، لا تعانى مثلنا، ولا تبالى بنا، تقيم فى الأحياء الآمنة بعيدا عن الديناميت والجبل، وتتركنا لمصيرنا. أى حياة هذه؟ لا عمل لنا إلا قتل الخنافس فى ضجر وقرف. وشحن الصفائح بالجثث عمل أثقل، والتخلص منها أمر محير. كأننا لم نخلق إلا من أجل مقاومة الخنافس. واقترح رجل فاضل أن ينقل ميدان المعركة إلى الخلاء الفاصل بين سفح الجبل ومشارف المساكن. وتحمس كثيرون للفكرة، فانطلقوا إلى الخلاء حاملين العصى وانقضوا على الجموع الزاحفة بهمة وتصميم، وتواصل العمل حتى هبوط العتمة. ولكن ذلك كله لم يقلل من انتشار الخنافس فى البيوت، ولا خفف من مخاوف النساء والأطفال، بل راحت الخنافس تتسلل إلى الطرقات والمقاهى والدكاكين، ويعثر عليها مرات فى قوارير الخل والزيت والمرطبات أو مدفونة فى حشو العيش والطعمية. الحياة ضجر وقرف وترقب لخوف داهم. ودعا قوم للهجرة وليكن ما يكون. وحرّض آخرون على قتال طغاة الديناميت. وقال ولى صالح إنه لا نجاة لنا إلا بالبخور. وسعى من سعى إلى الهجرة. وخطط من خطط للقتال. ومال

كثيرون لفكرة البخور لسهولتها وسحرها. والبخور متوافر والمبخرة جاهزة، ولكن الولى اشترط الطهر والنقاء فيمن يقوم بالتبخير وإلا وقعت اللعنة وحلت العقارب والحيات مكان الخنافس. وكلما عرض الأمر على رجل مشهود له بالطيبة جفل وقال: الكمال للّه وحده. وبدا أسهل الحلول وكأنه أصعبها. حتى جىء بطفل فى الرابعة من عالم البراءة، فطوقوا وسطه بعلاقة المبخرة النحاسية، وحمله أبوه فطاف بالبيوت والأماكن. وكف الناس عن المقاومة أملا فى البخور، ولكن الخنافس تكاثرت لدرجة تعذرت معها المقاومة. وهجر الناس بيوتهم إلى الطرقات وهم فى كرب ما بعده كرب، وانهالت الاتهامات على البخور والولى، وحتى الطفل لم ينج من تهمة تناسبه. واختلطت الأمور وذهل الناس عن الحقيقة.

وازدادوا ذهولا والأيام تمر. ولا أحد من المعاصرين يدرى كيف انكشفت الغمة وتلاشى الكابوس. أجل قد رجع الناس إلى المساكن، ورجعت المساكن إلى الناس، ولكن كيف؟ يهمس قوم إنها الهجرة. ويشيد آخرون بقتال الأبطال. ويتغنى فريق بشذا البخور.

وراء العمود

بكافيتريا الفندق الكبير لذت فراراً من حر يتأجج فى الشوارع. ما أجمل الجو المكيف عقب احتراق وعرق! وثمة مكان خال وراء عمود ضخم مطعم بالمرايا والأصداف الملونة، فأسلمت نفسى لمقعد لين. يكاد يخلو المكان، سوى ذلك الركن الغربى تتهادى منه ضحكات رزينة وروائح السيجار. لمحتهم من ناحية العمود جالسين حول مائدة معدنية اصطفت فوقها أقداح المرطبات. عرفتهم على الرغم من أننى لم أرهم من قبل، يدل عليهم مظهرهم الرائع، وسمات مشتركة كاللغد الممتلئ والسيجار والنظرات الهابطة من عل. ورغم طفرة الزمن فهم يتنادون بسعادتك ومعاليك، وانعقد فوق هاماتهم نصر مؤكد. تجول عيناى فى أرجاء المكان تابعة الفتيات ذوات السترات الحمر وهن يؤدين الخدمة ثم يرجعن إلى الركن.

فوضح لى هذه المرة أن صاحبى «الأستاذ» مندس بينهم كأنه أحدهم. يقينا هو ليس منهم، ولكنه حائز لرضاهم. يكتب إذا كتب فى حياء، متناولا طرائف الشرق والغرب، ولكنه عند الحديث يضع الكلمة المناسبة فى المكان المناسب، فما من طائفة إلا وتظنه وليها. أراهن على أنه يروى نكتة، صوته غير مسموع وإشاراته دالة، وهم يصغون

باهتمام، ثم تتهادى الضحكات الرزينة. هم فى حاجة إليه وهو فى حاجة إليهم. ابتسمت لكثرة ما تذكرت. تلك الليالى الحافلة بالكلام والسمر. إنه الآن ينافق. يقوض أبنية ليداهن أحلامهم. أنا أيضا أجلس فى مجلسى الرطيب لأحلم. النوم العميق يجد فى الأحلام مفتاح الفرج. أما فى مجالسنا المرحة فقد استحق الأستاذ لقب مؤرخ العصر ومفشى الأسرار. لكنه صادق معنا وإلا، كانت تلك الأكدار التى تحيط بنا. إنه يحيل الشائعات إلى حقائق بمشاهداته وأسانيده وأخباره. مؤرخ خبير بالصفقات والسلب والنهب. بل لعله فى أعماقه متمرد أو ثائر، ولكنه يؤثر السلامة والربح. إنه يعلم أن ذلك الركب غاص بالموبقات، ولكنه آثر أن يتعلق بذيله ولو على كره. فى مجالسنا فقط ينطلق على سجيته ويكفر بالكلام عن سلوكه. يسأله أحدنا:

ـ حتى متى تمضى الأمور هكذا؟

فيقول بحماس عابر وحقيقى:

ـ حتى تلفظ السلبية أنفاسها.

ـ لكننا شهدنا أكثر من ثورة؟

فيقول ضاحكا:

ـ لى عمة لم يشف كبدها من أوجاعه حتى أجرت به ثلاث جراحات!

وأمد بصرى نحو ركنهم وعاصفة تموج فى صدرى. ألا يفكرون فى العواقب؟ أم هو قدر يحمل الجميع إلى غاية مرسومة؟ وأتسلى بالنظر فى قعر فنجان القهوة الفارغ كأنما أشوف البخت. أرى رسما فى راسب التنوة يشبه القاطرة.

أتذكر ما يقال عادة. «أمامك سكة سفر!». ورأيت الركن يتحول إلى حجرة هادئة للتدخين معزولة تماما عن الفندق مغلقة الباب، والسادة هائمون بين الاسترخاء والسمر. ولكن الباب فتح. وانسل منه شاب غريب. أغلق الباب، ولاه ظهره، وتوجه نحوهم فى توتر وتحد. نحيل طويل ذو سروال رمادى وقميص غامض اللون، معروق الوجه شاحبه، زائغ البصر. ترتفع نحوه الأبصار مستطلعة، ويسود صمت داهم. لا أحد من السادة يعرفه أو ينتظره، لعله جاء لمقابلة الأستاذ، المهم ألا تطول الزيارة. يدس الشاب يده فى جيب سرواله ثم يسدد نحوهم مسدسًا، يقول:

ـ حذار.. أى حركة ستجر وراءها الموت..

حملقت فيه العين. أى مفاجأة. كفوا عن التدخين. مجنون؟ ما أكثر المجانين فى هذه الأيام! لكن الحياة ليست باللعب. وتساءل أحدهم:

ـ أى شىء بيننا وبينك؟!

فهتف:

ـ كثير . . كثير . . للأسف ليس فى المسدس ما يكفى من رصاص . . فقال الرجل بحرارة :

ـ لماذا؟ تمهل وفكر . . أنت تهدر حياتك وأنت فى عز الشباب . .

ـ حياتى مهدرة . . الحياة مهدرة . .

استحوذ عليهم رعب شديد ، وقال صوت متهدج :

ـ فكر أنك قد تقتل بريئًا؟

صاح بعصبية :

ـ يا أوغاد . . يا أوغاد . .

ووجه الشاب بصره نحو الأستاذ وسأله :

ـ ألا يستحقون الموت؟

فخرج الأستاذ من جلده وقال :

ـ إنهم يستحقون الموت ، ولكنك لا تستحقه!

فتساءل متهكما :

ـ متى حظيت حياتى بكل ذلك الاهتمام؟

ثم واصل بإصرار نهائى :

ـ ما دمت لا أستطيع أن أقتلكم جميعًا فسأقتل أشدكم إجراما!

اعتقد كل واحد منهم أن حياته انقضت .

على غير توقع من أحد حوّل مسدسه نحو الأستاذ . وأطلق النار .

* * *

شعرت بإعياء . أشعلت سيجارة . ألقيت على الركن نظرة من جديد . الضحك لا يتوقف ولا السمر ، ولا الأحلام .

تيزة أم عزيز

ذات قامة طويلة ، متينة البنيان ، ووجه أسمر جذاب رغم طوله وحدة تقاطيعه ، وعينين سوداوين نافذتين ذاتى كحل ربانى ، وفى غمازة الذقن وشم . لا أذكر أنَّنى رأيتها فى أى فترة من العمر إلا مقبلة فى ضجة من المرح . كأنها محترفة المزاح فى ليالى السمر . أما بالنسبة إلىّ فهى دائما تيزة أم عزيز . لم تتغير . فى عينى لم تتغير قط . حتى بعد أن

تغير كل شىء فيها وحولها. الضاحكة، المبدعة من كل لفتة أو موقف صورة كاريكاتورية حية. حتى حين لم تعد تملك إلا الجلباب المرقع الذى يسترها ولا تصيب من غذاء الدنيا إلا اللقمة والدقة. أصلاً من رشيد جاءوا، بلد الاقتصاد والعمل والنكتة. بصحبة ابنها الكبير اختارت إقامتها. أما الابن الآخر المزارع هناك فقد ضاقت بها زوجته. أليس كل مكان ينبت العز طيبًا؟ ثم إنها صاحبة أرض، مستورة، إذا حلت بمكان جرت فيه البركة. وبكريها ما شاء الله موظف بالبكالوريا يسر الخاطر، يدخن ماتوسيان ويفسر القرآن وفى بعض ليالى السمر يشرب الويسكى ويغنى ولا يفوته فرض. من محاسن الصدف أن زوجته القاهرية كانت عاقلة مهذبة كسول فلم يحدث ما يكدر الصفو، وحصل تكامل بين العروس المحبة للراحة وتيزة أم عزيز المغرمة بالعمل وسبحان من يوفق بين الأضداد بحكمته ورحمته. بدا طويلا أن الحظ سيستقر فى بحيرة الطمأنينة حتى يرث الله الأرض ومن عليها، ولكن الابن الرشيدى ذكى وذو همة. ينظر فيما حوله فيلتقط لباب الأشياء. فكر ثم فكر، وشاور ودبر، ثم قرر أنه لم يخلق للعمل الروتينى البسيط، وأن حياته لا يمكن أن تضيع بين إشارة إلى كتابكم الرقيم وتفضلوا بقبول وافر الاحترام. كلا.. ما عليه إلا أن يبيع أرضه ويعمل بالتجارة، وخير التجارة البقالة. الناس قد تستغنى عن السلاح، ولكن هيهات أن تستغنى عن الجبن والزبد والعسل والزيتون، وقد فعل. وتيزة أم عزيز لم تعترض. بل تشجع وتحرض، وإذا تأففت الزوجة قومتها بالأمثال والنكت. تيزة لا تحب المرح وحده، ولكنها تقدس العمل والربح أيضا. وتتحسن الأحوال تحسنا جميلا فيتجدد الأثاث والمظاهر، وتدب حيوية جديدة فى مجال تيزة أم عزيز. تتجلى مواهبها المأثورة فى طهو الطواجن والضلمة والأسماك. وتعلو همتها فى الولائم يشهدها عملاء ابنها فيلتهمون الطعام ويثنون على صانعته داعين لها بطول العمر والعمار. كل شىء حسن ويبشر بما هو أحسن، ولكن ماذا أغراك بالقمار يا عزيز؟ ولم تستجيب لندائه الماكر بعد أن أنجبت من الذرية ستة؟ وكيف غاب عن سكرتك أنه مغامرة لا تصلح لأهل التجارة، أليس لكل شىء ميزان؟ وتمضى الليالى الصاخبة الحمراء بين الفول آس والكاريه والبلف، والضحك والوجوم والأرق، والأحلام لا تجدى والويسكى عابث خداع حتى وقعت الواقعة وتقوض البناء، والمكتوب على الجبين لازم تشوفه العين. يا له من موقف يستحق أن تنوح عليه الرباب! وتماسكت أم عزيز وقالت له بيقين:

- لا تنس أنه موجود، وأنه لا ينسى عباده..

وهو أيضا مؤمن بالرغم من معاصيه. وذو همة ونضال. سعى فى سبل شتى حتى عمل مدرسًا فى مدرسة ابتدائية أهلية بمرتب بسيط يصرف تبعًا للظروف والأحوال. وأقدمت تيزة على مغامرة جريئة فباعت أرضها لابنها الآخر، وأعطاها الثمن بعد أن حجز منه نصيبه الشرعى نظير إنفاق نصيبها على أبناء أخيه. ورصدت المال للإنفاق منه

عند الطوارئ. وظل الحال كذلك حتى نفد المليم الأخير والأولاد لا يتوقفون عن النمو. وتتعدد المطالب والكل يعيش من أجل الأولاد والمطالب. شد ما صبروا على ضنك وحرمان، أما تيزة أم عزيز فظلت تيزة أم عزيز. أو هكذا تبدت لعينى المرحة القوية المتحدية، والله أعلم بالسرائر. اليوم يا تيزة تعلمت أن المآسى قد تحكى فى كلمات، ولكنها تعاش على أنات الكدر وعذاب المعاناة وفى غيابات القهر. ولا أنسى حديث المتحاورين والمعلقين من بعيد:

ـ الله يسامحك يا عزيز، نسى أمه وأهملها، تأكل ما يعافه الخدم، وترتدى الرث المرقع، يا خسارتك يا أم عزيز..

ـ الرجل معذور يا أختى، طالما أنه لا توجد إلا لقمة واحدة فالأولاد أولى بها!

ـ ألم تبع أرضها من أجله؟

ـ هى الدنيا والحكم لله وحده..

كيف شقت تلك السفينة العارية المتهالكة طريقا فى خضم الأمواج الكاسحة؟ كيف عانى الرجل الذى لبث حياته كلها يدفع ثمن خطئه؟ ولكن رغم كل شىء أكرمه الله فأهدى إلى الحياة ستة من أروع الشباب المتفوق. لعلهم لا يذكرون عذاب الأب وهوان الجدة. وأشهد أننى ما رأيتك إلا باسمة حتى وجلبابك الرث يشف عن جسد جاف أعجف. وعجيب أننى لا أذكر رحيلك عن دنيانا التى تراقب الحوادث بعين واحدة. لعلك مرضت فلم يدر بمرضك أحد. ولعل الليل تلقى من شكواك ما ضننت به على البشر. أو لعل ذاكرتى أبت أن تحفظ من ذكراك إلا صورة السيدة القوية المرحة ذات العينين النافذتين والوشم المطل من غمازة الذقن. صورة الصبر الجميل والحب العميم.

حملة القماقم والمباخر

شهد شارعنا أروع جنازة فى تاريخه الطويل حينما توفيت ست بطة. انعطفت مقدمة الموكب إلى الشارع العمومى على حين لم تدب الحركة بعد فى ذيول المشيعين الواقفين داخل السرادق فى مؤخرة الشارع. تقدمتها فرقة موسيقى حسب الله تعزف لحن الموت الذى تنقبض الصدور لوقعه فيهرع الأحياء للفرجة وتطل رءوس النساء من النوافذ. وتبع الفرقة صفان متوازيان من حملة القماقم والمباخر، بدلهم السوداء بوجوه مغضنة كالحة. وتهادى النعش محمولاً على الأعناق يمشى وراءه مباشرة الأهل وعلية المعزين، يسبقهم الباشا ـ زوج الراحلة السابق ـ وأبناؤها الأربعة: منهم اثنان من وكلاء الوزارة، واثنان من

مديرى العموم، ورئى بين كبار المشيعين وزير الحربية وكثيرون من ضباط الجيش العظام ونفر من الشخصيات السياسية والاقتصادية المرموقة. بين هؤلاء جميعا سار على صريمة زوج المرحومة الجديد، كاتب حسابات الفرن الأفرنجى، ببدلته العتيقة، وطربوشه المنجرد، وحذائه الغليظ، وجسمه النحيل القصير، ووجهه الدميم مشهد مثير للخواطر مفجر للذكريات قضى بحكم واقعه أن تجمع الجنازة بين الصفوة والكادحين. تابعه المشاهدون على الصفين باهتمام، وحاروا غالبا فى تفسير قراره المذهل. شاهدنا الجنازة فيمن شهدها من الخلق. ثم مضينا بعد ذلك إلى المقهى. انطلقت الضحكات من حناجرنا بغير حساب، واندفعنا نفصح عن انفعالنا. من منا لا يعرف ست بطة؟ من منا لم يعجب بفخامة سراى الباشا؟ ومن منا لم يطلق لسانه على السراى وما يجرى فيها من أحداث؟ وسرعان ما تدفقت التعليقات ساحبة الذكريات بلا ضابط ولا نظام.

* * *

برافو صريمة تمكنت أخيرا من أن تتحرك بين الباشوات كأنك واحد منهم. لكن اليوم يوم ست بطة فهى صاحبة النصر. ما هى إلا جثة لا تميز بين الهزيمة والنصر. إنه يوم على صريمة ولو صفع بعد ذلك على القفا. يا سبحان اللّه يا إخوان. كانت يوما أجمل وأبهى امرأة فى الحى. وكانت السراى تحفة لا ينقصها إلا الحرس. والحنطور الأنيق وأول فورد يسير فى شارعنا. ما أحلاها وراء الياشمك كأنها الأميرة عين الحياة! والحقيقة أن الباشا هو المذنب. مهلاً، لا يخلو طريق الإنسان من أزمات وهى امتحان يكشف عن قوته كما يعرى ضعفه. وما وقع يقطع بأنها كانت امرأة مستهترة نزقة، وما أصابها إلا ما يصيب زوجات لا حصر لهن كل يوم. أنتم تطالبون المرأة بأن تكون قديسة.

أما الرجل فله أن يفعل ما يشاء. دعنا من آرائك الإفرنجية وبطة لم تكن مجرد امرأة. كانت أمّا لصبيان وبنات. لماذا يحق للباشا وهو فى الخمسين أن يتزوج من فتاة فى العشرين فيهجر أسرته وذريته ولا يجوز للمرأة أن تخطئ؟ تقاليدنا يا رجل. الأمومة مسئولية وقداسة. طلقت فى سن اليأس مهجورة وجريحة، وككل محسودة أرقها لهيب الشماتة فاجتاحها اليأس. هذا منطق قواد.. ها ها ها. دعه يدافع عن مامته ها ها ها. ووقع الانفجار وكان مفزعا. ولم يحرك الأبناء ساكنًا دفاعًا عن شرف أسرتهم. أليس ذلك بعجيب؟ كانت على أى حال أمهم، ولم يكونوا دونها سخطًا على أبيهم المتصابى. ولا تنس سطوتها عليهم. كانوا يقفون بين يديها كالخفراء أمام الباشا المدير بخلاف أبيهم الذى لم يكن له وزن يذكر. ما أكثر الضباط المهابين فى ثكناتهم! الوديعين فى بيوتهم. كاللواء حماد باشا مثلا! وربما كانت الحكايات مجرد شائعات! شائعات! لا لا، حتى الخدم كانوا يتغامزون، وعم مجاهد بعد طرده من السراى أقسم أنه ما من رجل تردد على

السراى لشأن ما إلا وكان له معها مغامرة، الخضرى. . الجزار. . الكواء. . حتى جاء الختام على يد على صريمة، صل على النبى ولا تقل شائعات. يا ناس لو كانت امرأة شبقة ألم تجد فى طبقتها من يرافقها؟ خانها الزمن يا بطل وللعمر أحكام، وفى أمثال تلك الظروف تقوم الطبقة الشعبية بالواجب. وفى الوقت المناسب شبت ثورة الأبناء. ألم تجئ متأخرة عن الوقت المناسب؟ الثورة لا تشب إلا فى الوقت المناسب. إنه يعنى أنهم بلغوا سن الرشد وتشمموا رائحة كريهة، فأحكموا إغلاق الأبواب وقالوا بلسان واحد: لا مهازل بعد اليوم. وماذا كانت النتيجة؟ نشبت ثورة مضادة، وقالت الهانم: أنا حرة وملعون أبوكم، وغادرت السراى مضحية بكل شىء فى سبيل شهوتها. ولكن لماذا كانت من نصيب على صريمة؟ إنه أقبح الجميع وجهًا وأحقرهم مظهرًا؟ يوجد شىء اسمه السر الباتع ها ها ها. زواج عجيب بين امرأة تشارف الستين ورجل فى الثلاثين. سلمت له نفسها بكل ما تملك من حلى، وعاشت راضية فى أصغر شقة فى شارعنا تغدق عليه الحب والمال. زواج متكافئ فيما أرى. هل رأيتموها فى أعوامها الأخيرة؟! منظر يثير الرثاء ويشهد للرجل بجميل الصبر. ما هو إلا ثعلب وكان على علاقة مع شمس بنت بياعة المنزول. له عذره. كل إنسان له عذره حتى الباشا نفسه. ما شاء اللّه وإذن فليحيا الملك وليحيا الاحتلال. ماتت فلم يصوّت عليها أحد. هُجرت وقوطعت كأنها لم تنجب بنتا ولا ولدا. ربنا لا يحكم عليك. أشهد أننى رأيت على صريمة دامع العينين. الثعْلب! القلوب أسرار. مثل أسرار الثورة العرابية. لكنه عرف كيف ينتقم من جميع من احتقروه. كيف واتته الجرأة على نشر هذا النعى الذى أورد جميع باشوات وبكوات الأسرة؟ ضربة معلم تعلم أصولها ولا شك فى الفرن. ولكنه جاملهم فوصف نفسه فى النعى أحمد صريمة من رجال الأعمال ها. . ها. كفاية، واذكروا حسنات موتاكم. هل وجدنا حسنة واحدة وسكتنا؟ أقول لكم لا يعلم الحقيقة إلا اللّه. ترى ماذا يدور بسرائر أبنائها وبناتها اليوم؟ حلمك. سينضح كل إناء بما فيه وتظل الحقيقة حيث هى. حكاية ست بطة تذكرنى بحكاية ست أوسة! وتذكرنى بامرأة العزيز. كفاية. . كفاية. . كفاية دعوها الآن بين يدى من لا يظلم.

الغد قادم أيضا

فيللاّ؟ لا واللّه إنها لسراى. تشغل حيزًا هائلاً فوق جبل المقطم. ويضفى عليها طرازها العربى مذاقًا خاصًا من الأبهة والعظمة. حديقتها زهراء مترامية تشمل ثلثى المساحة الكلية، وحمام السباحة فى الوسط علامة عز نادرة، جلسنا من حوله للعشاء،

ولسماع نخبة من المغنين والمغنيات يصبون الكلمات المصرية فى أوزان إفرنجية، تحت عناقيد المصابيح الكهربائية المغروسة فى الغصون. الداعى صديق قديم، هو اليوم نجم سينمائى يحظى بشهرة متطايرة ومحبة آسرة، أراد السميع العليم أن يمتعه وهو فى عز الرجولة والجمال.

واختصت مائدتنا بنفر من الرجال، لا يمتون للفن بصلة، ولكنهم يمثلون صداقة الصبا والزمان الأول. جلسنا فى شبه غربة نتهامس فى غمار صخب الوسط الفنى، ونتطلع إلى الوجوه فنقول هذا فلان وهذه فلانة وذاك بين بين، ولا نكف عن الأكل والسمر. الحق أن عريس الليلة الذى يحتفل بافتتاح مقامه الجديد أغدق علينا ألفة وأنسا بوفائه وتمسكه بأصول ماضيه على رغم انهماكه فى العمل المتصل ما بين السينما والمسرح والتلفزيون. وعمق من جذور الصلة القديمة أن أحدنا يعمل محاسبًا لضرائبه ومستشاراً ماليا له، وآخر تزوج من عمته فى الأيام الخالية.

رحت أراقبه وهو يتنقل بين الموائد مرحبا ضاحكًا مداعبًا مؤانسا، يكاد يتوهج تألقًا وجمالا وصحة وعافية. هى السعادة عندما تجود بنفسها بسخاء، وتجعل من الواقع حلمًا من أحلام اليقظة.

وقال أحدنا بحرارة:

- ربنا يديم عليه النعمة.

فقلنا آمين. وحل بعدها صمت مباغت كأنما لم يجئ مصادفة. وتجلى فى الأعين نظرة جادة كأنها لون الصمت. هل رحنا نتذكر تقلبات الدنيا وما حفظناه فى ذلك من الشعر والنثر؟! وتذكرت زملاء كانوا مثالا للوجاهة وكيف عصفت بهم الثورة وحوّلتهم إلى صعاليك تعاف النفس منظرهم. وليست الثورة وحدها التى تعبث بالمصائر، فلأى حشرة دور وربما لفحة هواء أو نزق النشوات. ما علينا، اللهم احفظنا واحفظ لنا صديقنا الوفى الكريم. وإذا بصديق يعبر الصمت متسائلاً:

- هل تتذكرون؟

نظرنا نحوه مستطلعين بقلوب خالية إلا من السرور، فابتسم مواصلاً:

- ليلة الشطرنج فى مقهى إيزيس!

وأكثر من صوت قال:

- عليك اللعنة.. ماذا ذكرك بها؟

وندت عنا ضحكات خافتة تناسب المقام، فعاد الصديق يقول:

- الذكرى مقيمة فى أعماق ذاكرتى.

ونحن أيضا مثله، ولكنها لا تكاد تخطر بالبال! إلا كل حين ومين. كان صاحبنا

يلاعبنى شخصيًا وسط حلقة من المشاهدين. بدأت بتحريك جنديين وانتظرت أن يبدأ. لكنه لم يبدأ. بل نظر فى وجوهنا نظرة غريبة وقال:

- سأغادر دنياكم بعد دقائق!

ظنناه يمزح، ولكن وضح لنا أن وجهه شديد الشحوب وأن نظرة خابية تطل من عينيه. مع ذلك قلت له مازحا:

- العب أو سلم!

سرعان ما انطرح جذعه إلى مسند الكرسى وشهق شهقة مخيفة ثم غاب عن الوجود. من ينسى ذلك المنظر؟ من ينسى ارتباكنا وفزعنا؟ من ينسى ضياعنا فى قصر العينى حتى صباح اليوم التالى؟ ما كان أبأسك يا صديقى فى تلك الأيام. ألم نطلق عليك بحق الشاكى الباكى؟ دائما تتشكى من عمك الوصى عليك كما تبكى حبك الخائب. ولكن ماذا؟ هل أفلتت منا بعض التفاصيل؟ يقول أحدنا:

- كان الحب وراء محاولة الانتحار.

فيؤكد آخر:

- بل عمه.. كان فظيعا حقًا وصدقًا.

لا أهمية الآن لذلك. المهم أن صديقنا الذى أرجعنا إلى الماضى تساءل:

- ألا يعنى ذلك أن الانتحار خدعة وخرافة؟!

وخضنا فى حديث الانتحار طويلا وهو ذو إحصائيات مثيرة وبخاصة إذا تعلق بالأمم الراقية. ولكن الجو الجميل الذى نتنفسه دفعنا إلى التهوين من شأنه ووحشيته.

- اليأس حال تمر وكأنه لم يكن.

- تصوروا لو لم تنقذه العناية فمن كان يحظى بالنجومية؟

ومن كان يشيد هذه السراى؟ ومن كان ينعم بهذه السعادة؟!

واقترح أحدنا أن نذكره بليلة الشطرنج، ولكنا رفضنا الاقتراح رفضا قاطعا. وإذا بالعريس يقبل نحونا، وجلس بيننا وهو يتساءل:

- هل ينقصكم شيء؟

فشكرنا وأثنينا عليه بما هو أهله، وقال أحدنا:

- لا مطلب لنا إلا أن يديم اللّه عليك نعمته..

فحمد اللّه. ودهمه صمت مريب. ثم قال بنبرة اعتراف:

- صدقونى، أشعر أحيانًا بأننى نلت فوق ما أتمنى، وأتمنى ولو للحظة عابرة أن يأخذنى اللّه من فوق قمة السعادة!

مــؤامـــــرة

الجو يقطر ظلامًا، ولكن الأشباح تترامق فى وجوم. السيد يتطاير غضبه شررًا، والأتباع بين يديه يقومون فى ذلة وكآبة! ويهدر السيد قائلا:

- يا لها من هزيمة لم تخطر لى على بال طيلة الأجيال المتعاقبة! ها نحن أولاء نتخبط فى مستنقع البطالة السافرة..

وسرت همهمة مليئة بالاكتئاب، حتى قال أحد الأتباع:

- ما قصرنا ولا أهملنا ولا ترددنا، عنى شخصيّا فقد تخيرت رجلا صالحا لا تقاربه الإشاعات، وموضع ضعفه لا يخفى على أحد، فهو ذو دخل محدود وأعباء ثقيلة، أغريته بالمال رشوة أو اختلاسًا، ولكنه أبى بصلابة عجيبة، عرضت عليه اقتراحًا براق المظهر، أن أقرضه مبلغًا محترمًا ليستثمره فى مصرف أو شركة، فتسد الفوائد القرض، ويبقى له بعد ذلك رزقًا حلالاً، فأعرض عنى فى استياء وكبرياء!

فتساءل السيد:

- ألم تذكره بما يجرى حوله؟

- إنه يعرف كل شىء، حتى الأسماء يحفظها عن ظهر قلب.

وتحول نظر السيد إلى التابع التالى فقال:

- انتقيت رجلاً يعتبر مثالاً فى التقوى والعفة، واستبشرت خيرًا بحيويته الدفاقة وقوته الموفورة، سلطت عليه امرأة يذوب الصخر فى دفء عينيها ورشاقة بنيانها، ولكنى لم أدر من أين واتته المناعة الراسخة..

فصاح السيد:

- لعل الخطة لم تكن محكمة، ألم يزلّ أبوهم وهو فى كنف ذى الجلال؟!

- صدقنى يا مولاى، تحدتنى صلابة تَفجر اليأس فى ينابيع الأمل..

وجاء دور التابع الثالث فقال:

- عثرت على أرملة جميلة وتعيسة تكرس حياتها لتربية أربعة من الأبناء، وتشقى بأكثر من عمل وبلا معين، اعتقدت أنها لقطة لمن يريد أن يغوى، وأننى خصصت بمهمة يسيرة، ولكنى وجدت الخيبة فى بيت الرجاء، رغم تعدد الوسائل وكثرة القوادين والشقق المفروشة، كأنها ليست من ذرية حواء!

فتفكر السيد مليّا وعيناه تتوهجان فى الظلمة، ثم قال:

ـ حسبنا ما سمعنا، لا نريد مزيدا من القرف، أنا نفسى منيت بالفشل، ولكن لا شيء يدعو لليأس، فالمسألة أنه إذا وجدت قلة صالحة فى محيط من الفساد فلابد أن تكون على درجة من المناعة يتعذر غزوها، فلندعهم فى سجنهم الاختيارى ولنلتفت إلى الفاسدين . .

فقال أحد الأتباع محذرا :

ـ ليسوا فى حاجة إلى إغواء، إنهم يسبقوننا إلى السقوط قبل أن تبدر منه حركة واحدة .

فضحك السيد بمرارة حتى تطاير الشرر من فيه وقال :

ـ هنا يكمن سر أزمتنا، لم يعد الشر بحاجة إلى مهارتنا، لذلك انضممنا إلى زمرة العاطلين، وعلينا أن ننقذ أنفسنا من شرك البطالة . .

تضمن حديثه دعوة إلى إبداء الرأى دون إفصاح، فقال تابع :

ـ لنعد الكرة بتصميم أشد .

فرمقه بازدراء نارى وقال :

ـ بل علينا أن نغير الخطة من جذورها . .

فتطلعوا إليه بانتباه مركز، فقال :

ـ لم يبق لنا إلا أن نرتدى أردية التقوى ونسير فى الأسواق لنوقظ الضمائر من جديد . .

وتبادلوا نظرات الذهول، فواصل السيد :

ـ للضرورة أحكام كما يقول بنو آدم . .

ـ ولكن لم نوقظ الضمائر الميتة؟

ـ كى يكثر الصالحون فيتسع مجال الإغواء أمامنا . .

فقال تابع بعد تردد :

ـ أفكار مولانا دائما صائبة، ولكننا لم ندرب على إيقاظ الضمائر!

ـ من السهل تعلمها بالاندساس فى الجوامع ومتابعة أجهزة الإعلام .

ـ يا سيدنا ومولانا لو أن للكلام أثره المجدى لما تردى الحال إلى ما تردى إليه .

ـ بقوة سحرى نحصل على نتائج مشجعة . .

وقال تابع :

ـ هل يكفى الكلام وحده؟ هناك سلسلة من الأزمات الاقتصادية والسياسية والاجتماعية تستل من أى كلام فعاليته؟

ـ أعلم ذلك، وأعلم ما لا تعلمون، دعوا الأزمات فقد تسندنا فيما بعد، وكما وجدت قلة صالحة فى مناخ فاسد لن يتعذر علينا مضاعفة أعدادها، انطلقوا فتعلموا الوعظ والإرشاد وبثوه بسحرى الذى لا يقاوم وسوف ترون . .

ـ يا له من جد! ولكنه بالمزاح أشبه .

فضحك السيد وقال :

ـ خير من اليأس والبطالة . . بادروا إلى عملكم دون إبطاء فالوقت من نار . .

* * *

بعد حين من الدهر جمع الظلام السيد وأتباعه على حال جديدة من الإشراق . وقال السيد فى شىء من المرح :

ـ هاتوا ما عندكم .

قال أكبر التابعين :

ـ الحق أننى وجدت صعوبة فى ممارسة دورى الجديد، ولولا تأييد مولاى وسحره ما ذقت طعم التوفيق، ولكننى درست الوعظ بهمة عالية، وانتفعت كثيراً بما ينشر فى صحف المعارضة، وما تلهج به الألسنة فى الشوارع، وكان فى المدينة رجل من ذوى المعاشات يقيم فى بيت قديم ذى فناء غير ذى زرع، له من الأبناء أربعة يشغلون مراكز مرموقة على الرغم من أنهم من ذوى الدخل المحدود، الرجل يا مولاى طيب أبيض الصفحة وذو دين ومبادئ، ولم يكن معاشه يكفيه أسبوعا أمام الغلاء الوحشى، ولكنه وجد فى بر أبنائه ما جنبه أسباب القلق، وفى ظل تلك الطمأنينة تزوج من أرملة تجاوره فى المسكن وتصغره بعشر سنوات، تسللت إليه فى مشرب عصير على كثب من مسكنه، واقتحمت خلوته قائلا بجرأة الدراويش :

ـ لدى ما أقوله لك . .

فنظر إلى جلبابى الأبيض وعمامتى الخضراء وابتسامتى الحنون وتساءل بفتور :

ـ من تكون يا حضرة؟

فقلت بهدوء وثقة :

ـ نادانى صوتك الحار وأنت تضرع إلى الله عقب صلاة العشاء : «ربى اكتب لى ولأبنائى الرضا فى الدارين» .

ودهش الرجل ودب فى عينيه الاهتمام ولم ينبس، فقلت :

ـ تأثرت لضراعتك وقلت هذا رجل طيب يندر وجوده فى هذا الزمان الكالح، والله لأزورنه . .

تمتم الرجل :

ـ إنك ولا شك من أولياء اللّه الصالحين!

ـ دعنا من إغداق الصفات، إنما جئت لأنقذك . .

ـ تنقذنى! ولكن الدنيا بخير . .

ـ ليست كما تبدو، كان يجب أن تسأل نفسك: من أين يجىء أبناؤك بالمال الذى يكرمونك به؟!

فقال الرجل مقطبا:

ـ إنهم يشغلون مراكز كبيرة كما لابد أن تعلم.

ـ فى زماننا هذا لا ينفع مرتب ولا بنون!

ـ ماذا تعنى؟

ـ كلامى واضح، أبناؤك منحرفون والانحراف مغبته وخيمة . .

فهتف الرجل:

ـ أعوذ باللّه من الشيطان الرجيم، أنا لا يداخلنى شك فى أبنائى . .

ـ من أجل ذلك جئتك ناصحًا . .

فقال الرجل بحرج:

ـ أنا لا يمكن أن أمس ذلك الجانب من حياتهم.

ـ أفهمك جيدا، ولن أطالبك إذا اجتمعوا عندك إلا بأن تدعو لهم بالنجاة من شر الزمان . .

فقال الرجل بارتياح عابر:

ـ هذا ما أفعله دائما . .

ـ ولكننى سأبثك قوة من عند اللّه قادرة على تحويل الصخر إلى ماء عذب.

وتناولت راحته بين يدى وضغطت عليها طويلاً.

وسأله السيد فى صمت من اهتمام التابعين:

ـ ولم لم تقصد الأبناء مباشرة؟

فقال التابع بزهو:

ـ اصطدت أربعة برمية واحدة!

فقهقه السيد قهقهة تطاير منها الشرر، وقال:

ـ أحسنت.

وواصل التابع حديثه فى ارتياح وطمأنينة:

ـ وتابعته من موقعى يا مولاى، لم يحلم العجوز الطيب بما لدعائه الجديد من أثر، ولا خطرت بباله العواقب المتوقعة، لم يدر أنه أصبح أبا لأربعة من التائبين المستغفرين، ولكنه شعر بمعاملة أخرى قوضت حصن سلامه السعيد، عجز الأبناء عن مواصلة البر به، تلقى أعذاراً وتأوهات كثيرة ونقودا قليلة لا تغنى ولا تجدى، ودب الشقاق فى بيوت الأبناء فشمل الزوجات والأبناء، أما العجوز فانقلبت حياته عناءً متصلا حتى ضاق بزوجته كما ضاقت به، ووجدت فى ذلك الكرب ما عزانى بعض الشىء لممارسة خير لم أخلق لممارسته، وسوف نجد فى ذلك المناخ المتوتر المشحون بالقنوط ما ينفعنا عندما نرتد إلى أداء رسالتنا الأصلية!

فهتف السيد:

ـ جميل.. جميل.. جميل..

وتقدم تابع ثان فقال:

ـ أما أنا فتبعت السيدة الجميلة حتى استقرت فى الشقة المفروشة، استعدت وأخذت تنتظر صاحب الحظ، فرأتنى أمامها فى زى عظيم من رجال الشرطة، فزعت فزعًا شديدًا حتى جحظت عيناها، استحلفتنى بأولادى أن أستر عرضها رحمة بأسرتها.. وتظاهرت بالتأثر وقلت لها:

ـ فى وسعى أن أسوقك إلى القسم لتنالى جزاءك ولتعترفى هناك بالدور الخسيس الذى يلعبه الوغد زوجك..

فاشتعلت حرارتها فى توسلات دامعة حتى خفت عليها الموت، وعندها دعوتها للتوبة وتقويم المعوج من سلوكها، ثم غادرت الشقة وهى لا تصدق، ما حدث بعد ذلك لم أتوقعه، فقد تمردت على زوجها ورمته بما يستحقه فنشب بينهما نزاع عنيف، وانساق الرجل مع غضبه فانهال عليها ضربا وركلاً حتى فارقت الحياة..

فصاح السيد:

ـ ما أنت إلا غبى، كان يجب أن تلقى الموعظة عليهما معًا فى آن، أما أن تقتل المرأة ويعاقب الرجل فقد ضيعت علينا فرصة عمل فريد.

فقال التابع بصوت متراجع النبرة والشعور:

ـ معذرة يا مولاى، ما أنا إلا مبتدئ عديم الخبرة فى طريق الخير..

وتحول عنه والشرر يتطاير من نوافذه إلى من يليه، فقال:

ـ ذهبت إلى رجل تحسبه فى حاجة إلى إغواء لا إلى موعظة، جذاب المظهر، نصف كلامه قرآن وحديث، حمال لا يفتر على الفساد والمنحرفين، متطوع كلما سنحت فرصة لإلقاء خطبة الجمعة، كثيرون يظنونه داعية رغم وظيفته المرموقة، هائم زوّار

للبقاع المقدسة، أما خطاياه فهو قواد لكبار الفاسقين، وشحاذ مداح فى رحاب الأمراء، وهو بعد ذلك خبير فى المناقصات، ولولا أننى ذهبت إليه فى زى خليجى لما أصغى إلىّ، ولكننى استطعت أن أهرّب إليه موعظتى، وتجلت أمام عينيه صورته الحقيقية البشعة فاقتحمه الاكتئاب وراح يتبرع بالأموال الطائلة حتى أحرج المستثمرين أموالهم فى الخارج.

فقال السيد بارتياح:

- إنجاز متقن.

وجاء دور الرابع فقال:

- وقع فى يدى رجل يدفع سيارة إلى الخلاء ليغتصب فتاة مغلوبة على أمرها ترتعد إلى جانبه. وجدانى أطل عليهما من المقعد الخلفى على هيئة رياضى مفتول العضلات، ذعر الرجل وتعلقت بى الفتاة، ولكنهما لم يلقيا منى إلا خيرا، كلمات طيبة مفعمة بالقوة الخفية عن الاستقامة والاحتشام والعفة والشهامة، ثم رجعنا إلى العمار بسلام وتفرقنا فى وئام، وهما الآن يا مولاى مثالان للأدب وموضوع طيب للعمل!

وتتابعت الحكايات عن تجار المخدرات والمدمنين والمهربين والعملاء ووحوش الغلاء والإرهابيين والمتطرفين واللصوص وقطاع الطرق.. وارتاح السيد لما سمع، ثم تساءل:

- هل لديكم أقوال أخرى؟

فقال تابع متحمس:

- توجد مجالات أخرى للعمل، فلا يخلو نشاط من أزمة يمكن حلها من جذورها أو تخفيف وطأتها، فلا بد من جولات بين المسئولين!

فقال السيد:

- اسكت يا قصير النظر، إن اقتراحك يفضى بنا إلى خلق مجتمع صالح ومناخ نقى يتعذر علينا فيه إغواء أحد من البشر إلا بطلوع الروح، لنترك القلة الصالحة فى صراعها مع الكثرة الفاسدة. ولندع الإصلاح فى مسيرته المتمهلة ففى ذلك عون لنا لا يصح أن نفقده..

وزفر بارتياح حتى ملأ الفراغ شرراً وقال:

- يمكننا الآن أن نقول إننا تغلبنا على مشكلة البطالة، فهلموا إلى العمل.

طبقات السعادة

مثال الرقة والعذوبة كان. زميلى على قمطر واحد على مدى خمس سنوات هى مدة دراستنا الثانوية. أبوه مدرس اللغة العربية شيخ مقتدر، قوى الشخصية، مهاب الجانب، يسود فصله النظام والقانون. أما ابنه فهو قدوة فى الأدب والحياء والسلوك السوى. بعيد كل البعد عن شقاوة الأقران، مسالم، فى حاله، لا يند عنه لفظ خشن أو يصدر عنه سلوك منحرف. ذكره دائما يفوح بأريج الطيبة والدماثة، ذلكم هو حلمى أبو هجار.

* * *

عند محط البكالوريا افترقنا. ولما لم يكن من حينا لم أعد أدرى عن مصيره شيئا. واصلت دراستى الجامعية وتوظفت فأنسيته تماما وتمزقت علائق الزمالة القديمة ساحبة وراءها جميع متعلقاتها.

* * *

ذات صباح، فى زمن لعله الأربعينيات، مررت أمام قسم الموسكى فى طريقى إلى دار الكتب للقراءة أو الاستعارة فرأيت الزميل القديم واقفا عند مدخل القسم وسط منظر درامى مؤثر. ضابط شرطة برتبة لم أعد أذكرها، يمثل أمامه مخبر قابضًا على رجل من أهل البلد من أعلى جلبابه. الزميل القديم يتفحص ابن البلد بحنق شديد، صارخا فى وجهه:

ـ رجعت إلى عادتك القديمة يا بن..

وانطلقت من فيه مجموعة وافية من أقذع الشتائم مخترقة حرمات الأم والأب والجدود، وهوى على وجهه بضربة هائلة، ثم أردفها بركلة نترته مترا. وصاح بالمخبر:

ـ ارمه فى الحبس حتى أرجع..

ذهلت ذهولا لا مزيد عليه. استوت الصورة الغليظة الوحشية الماثلة أمامى إلى جانب الصورة الوردية الملفوفة فى الحياء والعذوبة التى استدعاها الخيال من ظلمات الماضى - رددت بصرى بين الاثنتين وأنا لا أصدق. ومنعا للإحراج أردت أن أزوغ قبل أن يرانى، ولكنه لمحنى وهو يهبط سلم القسم فى خيلاء وثقة. ثبتت عيناه على قليلا وسرعان ما هتف:

ـ أنت!.. والله زمان!

تصافحنا فى حرارة. ولما عرف مقصدى قال:

- طريقنا واحد حتى دار الكتب .

سرنا جنبا إلى جنب كالزمان الأول . أخبرته بإيجاز عن دراستى ووظيفتى ، وإذا به يقهقه فجأة قائلا :

- لا شك فى أنك عجبت لما رأيت منى وسمعت؟

فقلت مرتبكا بعض الشىء :

- الحق أنى . . .

فقاطعنى قائلا :

- المهنة تخلق الإنسان خلقًا جديدًا .

فسألته :

- أليس فى القانون ما يكفى؟

- القانون! لا تجرنى إلى عالم النظريات ، القانون مفسدة لهؤلاء ، إنى بحكم عملى لا أتعامل غالبًا إلا مع الأوباش ، فلا مفر من استعمال لغتهم وتبنى سلوكهم . القانون؟!

وضحك ساخرًا ثم مضى فى حديثه :

- لو تعاملت معهم بما يرضى القانون واحترام الحقوق لاعتبروا الحكومة مهزلة وتمادوا فى شرهم إلى غير نهاية . .

فقلت متحديًا :

- ولكنكم تعاملون المتظاهرين نفس المعاملة وهم صفوة الشباب!

- لا . . لا . . هذه مسألة أخرى . . لا تمل بنا إلى السياسة . . للسياسة كما تعلم قوانينها الخاصة . . .

ثم مواصلاً بعد فترة صمت :

- الحياة الحقيقية فى الشارع لا فى دار الكتب ، السجن لا يعتبر عقوبة مناسبة مع هؤلاء ، شعبك غير الشعوب الأخرى . .

فتساءلت :

- أليسوا أناسًا مثل الآخرين؟

- كلا ، اعلم أن السجن يوفر لهم مأوى أفضل بكثير مما يتهيأ لهم فى حياتهم العادية وطعاما لا يظفرون بمثله فى غالبية أيام السنة ، فالسجن لا يعتبر عقوبة رادعة لهم . .

وهز رأسه فى ثقة من اطمأن إلى انتصار منطقه ، ثم قال :

ـ العقوبة الوحيدة المجدية هى ما قبل العقوبة الرسمية، أعنى الشتم والضرب والإهانة..

واسترسل ضاحكًا:

ـ لا تنزعج، ولكن عليك أن تصدقنى، منهم نفر إذا ضاق بهم الحال افتعلوا خناقة كيفما اتفق، لا لشىء إلا ليقبض عليهم فيعيشوا فى ضيافة الحكومة وعلى حسابها مدة ستة أشهر..

تفكرت قليلاً، ثم قلت:

ـ كنت أتصور أننى ملم بتعاسة شعبنا، ولكننى لم أعرف مداها إلا الساعة..

فقال لى مصدقا على قولى:

ـ فى ذلك لا خلاف بيننا على الإطلاق..

مسافر بحقيبة يد

فى الصباح المبكر تبدو المدينة هادئة، شبه خالية، نقية، تجود شمسها البازغة بدفقات من الحرارة تلطف من جو الشتاء. اجتمعت الأسرة فى الفيات، الأم تقود، وهو بجوارها تفصل بينهما حقيبة سفر يدوية، وفى المقعد الخلفى جلس الغلامان فى زى المدرسة الرسمى. نظر الرجل إلى الطريق بارتياح، وقال:

ـ شد ما يبدد الزحام من وقار الشوارع..

لم تعلق، ولكنها دفعت السيارة بشىء من السرعة حتى بلغت المدرسة فى ربع ساعة. وغادرها الغلامان مسرعين فهمس الرجل «إلى الصيدلية» فانطلقت المرأة بالسيارة نحو الصيدلية الواقعة على كثب فى الجانب الآخر من الطريق. مضى الرجل إلى الصيدلية وابتاع أدوية مختلفة له ولزوجه، ورجع إلى مجلسه وهو يقول:

ـ لا تهملى فى تعاطى الدواء من فضلك.

فساقت سيارتها وهى تقول باسمة:

ـ إلى البنك وهو الأهم.

الحركة الآن انفجرت فى الطريق. إنها لا تجىء تدريجيّا، ولكنها تنقض كزلزال. سيارات وباصات وشاحنات كأنما تندفع فى سباق. وقطعت الفيات طريقًا قصيرًا فى زمن طويل نسبيًا. وغادرها الرجل إلى البنك، فوجده شبه خال فأخذ من حسابه رزمة ودسها فى جيب بنطلونه ورجع مسرعا. ووضع الرزمة فى حقيبة زوجه قائلا:

ـ تصرفى فى نطاق وقتك ودعى الباقى لى .

ـ تعود غدًا؟

ـ أو بعد غد على الأكثر .

ومضت به نحو المحطة حيث وقفت أمام مدخلها الشرقى وسألته :

ـ هل أصحبك حتى يقوم القطار؟

فقال بسرعة :

ـ لا . . ما وراءك أهم، إلى اللقاء يا عزيزتى . .

يعجبه فى المحطة أنها لا يغمض لها جفن . هناك دائما من يدخل ومن يخرج، ملتقى دائم للغادين والراحلين . وتحت سقفها العالى تتضخم الأصوات وتتردد الأصداء، وتصدر عن القطارات الواقفة نفثات حارة صاخبة تحرك نوايا الوداع الكامنة . وخفق فؤاده رغم انشغاله بما خلف وراءه وبما ينتظره هناك . وتذكر رحلات ورحلات، ودموعا وبسمات، ثم علق بلسان خاطره : «سبحان من له الدوام» . وفدت نحوه جماعة من المسافرين، لمح وسطها امرأة فى سن النضج جذبت بصره بقوة . ذهل بعنف قبل أن يتمكن من استرداد توازنه . كان يظن أنها انتقلت إلى جوار الله من زمن غير قصير . لا يتذكر الآن كيف استقرت تلك المعلومة فى رأسه . ربما عن تشابه خاطئ فى الأسماء أو الخبر أساء فهمه . ولما اقتربت منه رأته بدورها فابتسمت . وتلقائيًا تصافحا . تمتم :

ـ مفاجاة سارة!

فقالت ضاحكة :

ـ كم مضى؟! إنه عمر . .

وتبادلا التمنيات الطيبة، ثم سارت فى سبيلها . ماج صدره بالانفعال . قال لنفسه : لو أننى رجل آخر لكان لى معها شأن كالأيام الخالية . وتقدم فى طريقه المحتوم نحو شباك التذاكر . ومضى نحو القطار المنتظر . هناك جماعة من المودعين، ولكن ما هذا؟! ثمة وجوه يعرفها، بل لا يوجد وجه غريب، فهم إما أقرباء أو جيران أو زملاء! وها هم أولاء يتجهون نحوه كأنهم ما جاءوا إلا لتوديعه . ما الحكاية؟ وما هى إلا رحلة يوم أو يومين لا يعلم بها أحد . وما اعتاد أن يودعه أحد حتى فى الرحلات الطويلة . وجرت المصافحة من يد إلى يد وهو يقول :

ـ أى مصادفة أن نسافر جميعا فى قطار واحد!

ولكن أكثر من صوت قال :

ـ نحن جئنا لتوديعك!

فقال ذاهلاً:

ـ من أدراكم بسفرى؟ وما هى إلا رحلة يوم!

لم يعبأ أحد بكلامه، وأحاطوا به بمودة ظاهرة، ودعوا له بالسلامة، فهتف ضاحكا:

ـ أمركم عجيب!

فقال له عمه، وكان أطعن الحاضرين فى السن:

ـ ليته كان فى الإمكان أن أسافر معك.

فقال بتأثر شديد:

ـ شكرا.. شكرا.. يؤسفنى إزعاجكم، والمسألة لا تستحق..

وسألته خالته:

ـ لم لَمْ تصطحب أمينة هانم معك؟

ـ أنا ذاهب لعمل وهى البيت لا يستغنى عنها.

ولم تكن الدهشة قد فارقته، فتساءل:

ـ ولكن كيف عرفتم بالخبر؟ ولماذا تجشمتم هذا العناء؟

وأكثر من صوت قال:

ـ أهذا كلام يقال؟!

وأطلق القطار صفارة كالنذير، فلوح لهم مودعا وصعد إلى المقطورة. وصعد معه بعضهم فوضع حقيبته فوق الرف ووقف بينهم يتبادلون كلمات طيبة. وغادروا المكان واحدا فى إثر واحد، وأغلق الباب، فتنهد فى ارتياح واتخذ مجلسه. وتبين له لأول مرة أنه وحيد فى العربة كلها وأنها خالية من الركاب. يا للغرابة! لم يحدث أن قام القطار فى الأعوام الأخيرة وبه مقعد واحد خال. ماذا حصل فى الدنيا؟ وكيف يستقل قطاراً خاليًا وكأنه الملك فى زمانه؟! حقًا إنه يوم حافل بالمذهلات. وتحرك القطار.. انساب على مهل مفارقًا المحطة والمودعين. وأخذت السرعة تزداد، والإيقاعات الرتيبة تهزج بلا انقطاع. سيجد وقتًا لتأمل جميع ما مر به وفهمه. وتنهد متسائلاً:

ـ ما معنى هذا كله؟!

رجل أفلس

غادر البيت الكبير ممتنا. توجه نحو الطريق الذى أشار إليه الوكيل عند حافة القرية. إنه طريق طويل ضيق يشق الخلاء بين ترعة تجرى إلى يمينه وحقول تترامى إلى يساره، ويفضى فى النهاية إلى البيت الصيفى حيث يخلو صاحبه إلى نفسه أو يجتمع بنفر من خاصته، الجو يعبق بحنان الصيف المولى وبشائر الخريف، والشمس على وشك الاختفاء وراء الأفق ماسية اللون رقيقة الحاشية. المشوار غير القصير، والأرض متربة، ولكنه سيلقى الصديق الكبير بعد أن سدت السبل فى وجهه واكفهر الجو. والفضل لعم محمد وكيل البك فى تيسير مهمته وإرشاده إلى مقر صديقه. قال:

- ما كنت أدل غيرك على مكانه.

فشكره منوها بمودتهما القديمة. سار على هدى الخط الذى رسمته عجلات سيارة البك فى الأديم المترب، والمساء يهبط وئيدا مجللا بهدوء عميق، يكدره نباح كلاب متقطع، والنخلات القليلة المبعثرة تذوب على مهل فى الظلام الزاحف. وتراءى لعينيه شبح يتقدمه لا يدرى من أين أتى. تباطأ فى سيره ليبتعد عنه، ولكن الشبح تباطأ أكثر فيما بدا حتى قصرت المسافة بينهما، فوضحت معالمه عن امرأة تلتف بثوب أسود من العنق حتى الكعبين، وتدس رأسها فى شال أسود كذلك، ولما التفتت نحوه طالعته بوجه ناضج فى أواسط العمر، مقبول المنظر فياضًا بالأنوثة. وتأخرت حتى حاذته فى مسيرته، وقالت:

- أنت ذاهب إلى لقاء جلال بك؟

فأجاب:

- نعم، هذا الطريق لا يوصل إلا إلى بيته الصيفى.

فقالت وهى تتنهد:

- وأنا كذلك، ولكننى لم أبلغه إلا بعد التحايل للفرار من أعين الرقباء..

فتساءل الشاب:

- ولكن لماذا يمنعونك من مقابلته؟

- إنه غاضب علىّ، وأنا مظلومة وأود أن تتاح لى فرصة للدفاع عن نفسى ليجرى على ما قطع من الرزق..

فقال الشاب صادقًا:

ـ الحق أنى لا أفهم شيئًا . .

ـ أنا أنتمى فى النهاية إلى أسرته، من الفقراء الذين كان يطولهم إحسانه، وبعد طلاقى أساءت إلى ألسنة السوء عنده، فقطع إحسانه عنى، وأصبحت أخشى أن ينالنى سوء أكثر . .

فقال الشاب :

ـ على أى حال فها أنت ذى فى الطريق إليه، وهو رجل معروف بالأخلاق الكريمة والرحمة الواسعة، وربنا معك . .

فقالت المرأة بقلق :

ـ لن يسمح لى الخفير بمقابلته . .

ـ لا تقدرى البلاء قبل وقوعه .

ـ أنا على يقين من تعاسة حظى . .

فصمت الشاب متضايقًا لا يحير جوابًا، فقالت المرأة برجاء :

ـ لعلك صديقه، فاذكرنى عنده بما يفتح لى باب الرجاء، قلبى يحدثنى بأننى لم أعثر عليك صدفة، ولكن الله أرسلك إلىّ لتفرج كربتى . .

كان الظلام قد أخفاهما تمامًا، فما يشعر إلا بيدها تخطف يده لتلثمها فى توسل حار. والتصقت به مستغيثة به. بتلك الحركة انتقل الشاب من حال إلى حال. طيلة الوقت وهو يتهرب من تأثيرها، ولكن التأثير استفحل فى الوحدة والظلام، وبلغ ذروته فى التلاصق. إنها صاحبة حاجة، وهو أيضا صاحب حاجة، تربطهما تعاسة من نوع ما، ورغبات خفية. وشده الطريق وتناسى هدفه إلى حين، فأسكرته الرغبة. ومد ذراعه فطوق خصرها فأشعل جنونه استسلامها. وجذبها إلى جانب الطريق فرأتهما النجوم التى بدأت تومض فى السماء الصافية. ورجعا إلى الإحساس بالظلام فى هدأة الصمت الثقيل. وهمست :

ـ لا تنسنى . .

فأجاب بفتور :

ـ من الأوفق أن تنتظرى هنا حتى أمهد لك السبيل .

فقالت برجاء :

ـ عين الصواب .

ومضى فى سبيله واجما حتى اعترضه الخفير تحت تكعيبة العنب المحيطة بالبيت الصغير، فذكر له اسمه، فغاب الرجل دقيقة ثم عاد ليدعوه إلى الدخول. رأى صديقه

على ديوان فى صدر الحجرة الشرقية تحت قنديل مضاء، وبين يديه طبق كبير فيه تفاح وجوافة وموز. قام جلال بك مرحبا به، فتعانقا، وأجلسه إلى جانبه وهو يقول:

- مضى وقت على آخر لقاء، كيف حالك؟

فأجاب الشاب:

- نحمده على كل حال.

- لكنك لا تبدو فى أحسن أحوالك.

وجاء الخفير بالشاى فراحا يحسوانه ويتناولان بعض الفاكهة، ويستحضران ذكريات من الأيام الماضية. وأخيراً قال جلال بك:

- حدثنى عن أحوالك.

فقال الشاب:

- الحق أنها سيئة جدّا..

- لماذا لا سمح الله..؟

- إنى على حافة الإفلاس.

- أعوذ بالله، ما أكثر ما تتردد هذه الكلمة فى أيامنا..

- السوق راكدة..

- والعمل؟

- تلزمنى سلفة ولابد لى من ضامن، هذه هى مشكلتى، وليس لى فى الدنيا سواك.

فابتسم جلال بك وقال:

- طالما وجدت فيك المثل الطيب للأخلاق النبيلة، وما عليك إلا أن تحضر غدا فى الدوار الكبير لتنهى المسألة مع المحامى..

أشرق وجه الشاب بنور الأمل وتمتم:

- أنت ملاذى دائمًا فى الشدائد..

فقال الرجل:

- إنك تستحق كل خير..

وساد صمت مريح، فتذكر الشاب المرأة المنتظرة، ولكنه خشى أن يتجاوز بطلبه حدود الذوق، أو أن يثير استياء صاحبه فقرر تجاهلها. ولما سأله صديقه:

- أى خدمات أخرى؟

أجاب بحماس:

ـ لم يبق إلا أن أدعو لك بطول العمر .

ولما همَّ بالذهاب قال له البك :

ـ سيارتى تحت أمرك فالطريق طويل والظلام شديد .

فرحب بذلك ليتفادى من لقاء المرأة المنتظرة .

وجاء فى عصر اليوم التالى لينهى الموضوع مع المحامى ، فقابله عم محمد وجلس معه فى الشرفة الكبيرة ، وسرعان ما لاحظ أن الرجل ليس على تلقائيته المألوفة . أخبره أنه جاء فى الميعاد المتفق عليه ليقابل المحامى ، فقال الوكيل :

ـ يؤسفنى أن أبلغك أن جلال بك عدل عن رأيه . .

نظر إليه نظرة بلهاء وتساءل :

ـ ماذا تعنى يا عم محمد؟

ـ لا محام ولا عقد ولا ضمان . .

فقال بذهول :

ـ ولكنه وعدنى ومنانى !

فقال الرجل بوجوم :

ـ الحق أنك خيبت أمله فيك . .

ـ مستحيل يا عم محمد . .

فقال الرجل مقطبًا :

ـ ما كان يتصور أن تفعل بامرأة من أسرته ما فعلت بشلباية فى الطريق الموصل إلى مقره وأنت ذاهب تطلب معونته !

فذهل الشاب وخرس ، فلم ينطق على حين واصل الرجل :

ـ ولا كان يتصور بعد ذلك أن تتخلى عن تعهدك لها عنده !

استمر خرسه وهو يتساءل فى باطنه عما فضحه عنده . هل فضحته المرأة اليائسة؟ هل له عيون فى كل مكان توافيه بالأسرار؟ وقال عم محمد :

ـ وقال لى البك : «أى إنسان فاسد ذلك الصديق الذى لم أعرفه على حقيقته من قبل ، لا عجب أن يفلس ، ولا عجب ألا يكون جديراً بأى ضمان!» .

وصمت الشاب وهو يتخبط فى يأس عميق ، ولكنه لم يجد أية بارقة أمل ، ولم يستطع أن يدافع عن موقفه المخزى بكلمة .

وأخيرا غادر القرية لآخر مرة . . .

لحظة عابرة

فرارا من حر لافح ورطوبة خانقة، لذت بكافتيريا الكوكب المكيفة الهواء. جميع الموائد مشغولة فى المحل الصغير الأنيق ذى الجدران المحلاة بالخشب والمرايا، والجو ساحر مريح كحلم. وقفت عند المدخل أجول بعينى مفتشا عن مكان خال ومشفقا من الاضطرار للعودة إلى الجحيم. جذبتنى عينان فى أقرب مائدة إلىّ. نظرت فتذكرت ولكننى ترددت. إنه ذلك الزميل القديم الذى يرى كثيرا فى هذا الموقع من المدينة والذى يعد من زبائن المحل. لم نتبادل تحية مذ فارقنا ترى ما زال يتذكرنى؟ منظره يقصيه بعيدا عن سكان كوكبنا، ولكن ما معنى نظرته نحوى؟ عجيب أن توجد ذاكرة سليمة فى رأس مختل فصلت صاحبها عن بقية البشر. لما التقت عينانا ابتسمت، فأشار إلى من يدعونى إلى مشاركته فى مائدته، فمضيت نحوه وجلست دون أن أخلو من خوف:

ـ أشكرك.

فقال بأريحية وبصوت متهدج تصاحبه صرخات عصبية فى الوجه واليدين:

ـ أنا الوحيد الذى يشغل مائدة بمفرده.

زالت مخاوفى. لو كان خطراً مع الآخرين ما ترك حُرا طوال ذلك الدهر.

قلت راجعا إلى الماضى المشترك:

ـ الجو فى الخارج لا يطاق، ولكنى لم أحلم بلقاء يعيد لى ذكريات الماضى الجميل.

فقال بازدراء واضح:

ـ الماضى؟! أنا ليس لى ماض على الإطلاق!

لم أدهش كثيرا. فنظرته تطل علىّ من عالم غريب عن عالمنا. حقيقته لا تخفى على إنسان من النظرة الأولى. ولكننى قلت:

ـ أعنى أيام شبابنا..

فقال بنفس الازدراء:

ـ أى شباب يا هذا؟ أنا لم أعرف حضرتك من قبل..

ثبت إلى الواقع قانعًا بالمجلس الذى فزت به. حصل ما حصل على عهد الشباب وبدء طريق العمل. كان بلا شك سليما، فقطع مراحل التعليم بنجاح واستقبل حياة العمل والأمل. وتميز عنا بدخل خاص وشىء من الجاه. ولم يتأخر عنا خطوة فى اهتمامه بالحياة

العامة. ولكن مضى يصدر عنه ما يعتبر شذوذا فى القول والسلوك. واستفحل الأمر حتى اضطر إلى الاختفاء. مأساة تذكر، وما أكثر المآسى! قال بثقة:

- لا أهمية للعلم الذى تعجبون به، يوجد حلم حقيقى واحد وهو مضنون به على غير أهله..

أدركت وأنا أستقبل الدندورمة التى طلبتها أن علىّ أن أجاريه بحكمة وحذر، فهززت رأسى هزة المقتنع. التفت نحوى متسائلا:

- ماذا تعمل؟

فقلت بأدب:

- من رجال التربية والتعليم..

فقال باستخفاف:

- طظ.

فضحكت، ولكنه تجهم قائلا:

- هذا إجرام!

فقلت كالمعتذر:

- الناس العاديون فى حاجة إلى ذلك.

- بهائم ضالة، وقعت فى الشرك وعميت عن النور الحقيقى!

فقلت ملاطفا:

- هذا النور لا يتطلع إليه إلا الخاصة..

- بل هو متاح لكل قادر على النجاة من السجن.

- السجن؟!

- أعنى مخزن القمامة الذى تسمونه العقل!

فقلت مداهنًا:

- صدقت..

ترى ألم ينتبه إلى الأحداث التى عاصرها؟ الحروب، المآسى، الغلاء، الديون، الفساد؟ تذكرت الأجيال. من اعتقل ومن شنق ومن هاجر ومن فسد ومن يتعذب. تذكرت ضحايا الأزمات القلبية والانفجارات المخية. أكان الأفضل أن يهيموا فى النور والملكوت؟ أهو جدير بالرثاء أم الحنق؟ وألح علىّ سؤال فسألته:

- أأنت راض عن حال بلدنا؟

فقال بغضب:

ـ كل شىء جميل إلا الناس .

فقلت كاظمًا غيظى :

ـ حدثت أمور خطيرة ، وكل يوم تحدث . .

ـ ما أنت إلا أسير للأشكال والألوان . .

وسكت ، فاستدرك :

ـ لم يحدث شىء على الإطلاق ، هذه هى المأساة!

لم أعد أجد فيه ما يثير اهتمامى . سرعان ما تجاهلنى سابحًا فى فضاء المحل ، وبصفة خاصة فى سقفه المزخرف بالتهاويل . وندت عنه إشارات كأنما يخاطب المجهول . قلت لنفسى : إنه الحى الميت أو الميت الحى ، ورغمًا عنى عقدت مقارنة بين غيبوبته السعيدة وأرقى المرهق ، فحسدته للحظة عابرة .

مجرد لحظة عابرة . . .

عودة القرين

وقفت المرسيدس السوداء أمام الكازينو . غادرتها الهانم بجمالها الملحوظ وعمرها الناضج ونظرتها المطمئنة ، وتبعها ولد فى الثامنة وبنت فى السادسة ، ثم تبعهم رب الأسرة . ذهبوا لتوهم إلى الحديقة الخلفية واتخذوا مجلسهم تحت شجرة وارفة يتلقون من الشمس دفقات متفرقة حسبما تسمح الأغصان المورقة بهبة طيبة يجود بها صباح خريفى رائع . وانطلق الطفلان نحو الجدول لمشاهدة الضفادع ومعابثتها . وتجرى الأمور كالعادة يوم عطلة الأسبوع حتى تناول الغداء ظهرا . ولعله اليوم الوحيد الذى ينسى فيه البك هموم مكتبه ودورة رأس المال وحساب الوارد والمنصرف . قال الرجل بحبور :

ـ يوم جميل .

فقالت الهانم :

ـ يجب أن نفكر فى السفر أيضًا .

ـ الأماكن الجميلة لا حصر لها .

ومضت الأسر السعيدة تجىء تباعا ، حتى علت أصوات الأطفال على أصوات العصافير . وهمست الهانم فى أذنه :

ـ ثمة رجل غريب ينظر نحوك كأنه يعرفك .

التفت نحو رجل يقف فى الشرفة المطلة على الحديقة، حسن الهيئة يوحى منظر وجهه الطويل النحيل بالعناء، بيده قارورة شراب، وسرعان ما تحول واختفى فى الداخل. عرفه من النظرة الأولى، فاخترقته موجة عاتية من الكآبة والتشاؤم بددت بهجته وطمأنينته. والظاهر أنه لم يحسن مداراة أثره، فسألته الهانم:

- هل عرفته؟

فأجاب متمالكًا نفسه:

- عميل لا أرتاح إليه ممن يعرضون لنا فى عملنا المتشعب..

ووجد الحل الأمثل فى الهروب من عينيها بتصفح الصحف التى جاء بها. لكن منظر الرجل لم يفارق مخيلته. ظنه شق طريقه مثله، وأن غيبته الطويلة تشى بنجاحه واستقراره. وهو لم ينسه، ولا فى وسعه أن ينساه، وكلما خطرت بباله الذكرى السوداء الدامية أطل عليه وجهه، وثمة أمور لا يمكن أن تنسى. المهم أن منظره يخفى وراءه نذير كارثة. ويقينًا لقد رجع إلى العدم، وراح يحوم من حوله، وعما قليل يطالعه بوجهه الكالح ويمارس يأسه معه.

وفى ضحى اليوم التالى جاء مكتبه واستأذن فى مقابلته. لم يجد مناصًا من استقباله كصديق قديم. دخل حجرته جريئًا باسمًا كأنما تسوقه المودة والأشواق وفتح ذراعيه قائلا:

- بالأحضان!

وتعانقا، ثم دعاه إلى الجلوس، وقال:

- أهلاً.. أهلاً، غيبة طويلة، ولكنها مبررة ومفهومة..

فقال الآخر باسمًا:

- طبعا.. شق حياة وبناء مستقبل..

- لعلك بخير..

- ولىّ الخير إلى غير رجعة..

هذا ما توقعه، وعليه أن ينتظر الأسوأ فالأسوأ. وسأله:

- لم لا سمح الله؟

فضحك الرجل ضحكة لا سرور فيها، وقال:

- أنت رجل عاقل متفوق، اعترفنا لك بذلك، أخذت نصيبك لتجعل منه ركيزة عمل عظيم، حتى صرت من الشخصيات المرموقة. أنا لا أملك مواهبك، أحرزت نجاحًا محدودًا، وتهاونت مع الاستقامة، وتستطيع أن تستنتج الباقى، ضاع كل شىء، وما جاء من الحرام ففى الحرام ضاع...

يا له من تذكير بالماضي وقح، ووعيد مضمر، وتمهيد سافر. اشتد امتعاضه، ولكنه تجاهل تلميحاته، وتظاهر بالأسف متمتمًا:

ـ أنباء مؤسفة!

ـ في مأزقي ذكرتك فأنت نعم الصديق!

إنه يائس. وعلى قدر يأسه تكون خطورته. ولا بد مما ليس منه بد. وقال بنبرة جديدة حاضة على الصراحة:

ـ حدثني عن حاجتك؟

فقال الآخر جادا:

ـ يلزمني مال لأبدأ المحاولة من جديد، ولكنها ستكون محاولة مسبوقة بدرس قاس لا ينسى..

لم يخدع بأسلوبه الوعظي وتكاثفت كآبته الباطنة، فسأله:

ـ كم؟

فقال بجرأة مثيرة:

ـ عشرة آلاف..

هتف الرجل:

ـ عشرة آلاف؟!

ـ هي نصيبي في مشروع ناجح، إن نقصت عن ذلك جنيهًا واحدًا صارت كعدمها..

ـ لكنه مبلغ ضخم جدًا..

ـ لا حيلة لي، اعتبره قرضا يرد بعد فترة سماح.

المسألة واضحة. لا يستطيع أن يرفض ولا أن يتعلل بالعلل، فلينه هذا الموقف الكريه. وحرر له شيكًا وهو متجهم. وأعطاه له، فتناوله باسمًا، وقام وهو يقول:

ـ عوفيت من صديق كريم.

فقال بلهجة ذات مغزى:

ـ إنه الأول والأخير!

فانحنى الرجل شاكرا، وغادر الحجرة بخطى ثابتة.

حدثه قلبه بأن اللعبة ستتكرر، وأن الابتزاز لن يقف عند حد. الماضي لا يموت. قد شيد قصراً من الرمال على أرض من السراب. ولكن الأسرة البريئة التي كونها لا يجوز أن يمسها سوء. فليقتله إن ضيق عليه، ولينتحر بعد ذلك. إن الجثة التي ووريت في تراب

الخلاء تهب الآن للتنكيل بقاتليها . وشرد طويلاً فى غم وكآبة ، ثم قال وكأنما يخاطب الآخر :

ـ عد وقتما تشاء ، ستعود ـ إذا عدت ـ إلى المصير الذى يستحقه كلانا . .

الرجل الوحيد

أقدم إليكم نفسى . أنا إبليس . لا حاجة بى إلى مزيد . حكايتى معروفة لديكم من قديم . رسالتى فى الحياة مشهورة كالشمس إلى يوم الدين . غمرتنى الدهشة ولفتنى الحيرة مذ تناهى إلىّ أنه يوجد رجل شريف فى بلدكم على رغم كل ما قيل ويقال . وتفاديا من سوء الفهم أصارحكم بأنه لا فضل لى ألبتة فى تفجر طوفان الشر الذى أغرق الجميع . تكفلت بذلك كله بدع جديدة لم تخطر ببالى قديمًا وأنا أذعن لقدرى فأتحدى ثم أستمهل . فعلت هذه البدع فى جيل ما أعجز عن فعله فى أجيال وأجيال . كان إغواء رجل أو امرأة يقتضينى بذل الجهد وتجريب شتى الحيل . لكنى شهدت الناس يندفعون بجنون نحو الهاوية ، ويتساقطون جماعات وطوائف دون أن تنبس شفتاى بكلمة ، أو تند عنى حركة . انغمس الجميع فى الوحل وأنا أنظر مبهوتًا مذهولاً ضاربًا كفا على كف . أعترف بأنه عهد عظيم حقًا ، ونصر مبين بلا جدال ، وكم تمنيت أن أكون علته ومحركه وصاحب الفضل فيه ، ما هذا الذى يجرى؟ من أين جاء هذا الفساد كله؟ أعترف مرة أخرى بأن الزمن قد تغير ، وأنه يجىء كل يوم بالعجيب والمبهر ، علىّ من الآن فصاعدًا أن أدرس الاقتصاد والسياسة ، وأتمرس بالخطابة والتصريحات ، وألمّ بالعلوم والتكنولوجيا والمقاولات والعمولات ووسائل الهروب إلى الخارج . يجب أن أوسع من مجالى الثقافى وأغير وسائلى العتيقة ، وإلا غلبت على أمرى ، وفقدت مسوغ وجودى ، وانطوى عصيانى الخالد بلا ثمرة أو أثر . وإذ أنا على تلك الحال من الكآبة والحيرة أبلغتنى العيون بأنه يوجد رجل شريف فى البلد . قالوا :

ـ اسمه محمد زين ، مهنته قاض ، مسكنه رقم ١٥ بشارع زين العابدين .

وفى الحال راقبته بعناية . مسكنه بيت قديم لا يليق بوظيفته . نشأ فيه مع الأسرة ثم بقى له وحده بعد رحيل من رحل ، فاعتبره سترا من الله فى زمن السكنى فى المقابر والخيام . متزوج ، له ابن فى الجامعة وابن وابنة فى المرحلة الثانوية . يذهب إلى المحكمة مستقلا الباص ، فيغادره قبل محطة المحكمة بمحطة حتى لا يرى وهو يتملص من زحمة الركاب متأبطا حقيبته . يفتتح الجلسة فى ميعادها المعلن عنه ، ويتابع مناقشات النيابة والدفاع

والشهود بعناية وتركيز عجيبين. عدا ذلك فهو لا يكاد يغادر بيته إلا حين الضرورة، ليواصل دراسة القضايا من ناحية، وتوفيراً للإنفاق من ناحية أخرى. يبث روح العمل والتقشف فى أولاده، فلا يتميزون بشىء عن أولاد الفقراء. عمومًا البيت تغلفه البساطة القصوى فى مظهره وملبسه وطعامه. وزوجته تتصبر فى امتعاض، وتروح عن نفسها بالتشكى حينًا، وبلعن الزمن حينا آخر. لكنه يقول لها:

- مرتبى كله بين يديك، لا أستطيع أن أحول المعادن الخسيسة إلى ذهب، ولا أسأل عن الغلاء الضارى، وأخيرا فإننى أعيش فى رحاب الله وأصون ذاتى عن التلف حتى النفس الأخير..

رجل كبير ومسكين معا. تحدق به المغريات من كل جانب كالماء والهواء. إن عز علىّ الاقتحام فأمامى الزوجة والأبناء. ثم إنها أسرة واعية تماما بما يدور حولها. إليك حديثا دار على انفراد بين الرجل وامرأته. تقول:

- أى أرض هذه الأرض! أيكتب علينا كل هذا العناء لا لشىء إلا لأننا شرفاء!

فيقول بحزم قاطع:

- هذا نصيب الشرفاء فى الزمن الجهنمى..

- الجميع لصوص، أنت تعرف ذلك جيدا.

- أى نعم، الجميع لصوص.

- والنهاية؟

- لا أملك إلا الصبر..

إنه اعتراض على ما يجرى واحتجاج على الشرف فى آن. الابنة نفسها تسمع الكثير، وتقرأ الصحيفة، وتقف طويلا أمام الحوادث. تتساءل: هل يتيسر الزواج فى هذه الظروف القاسية؟ لن يتعذر علىّ أن أسوق إليها شابّا غاويا، أو زميلة ذات خبرة بالشقق المفروشة. ولكن الشابين يقفان على حافة التمرد:

- اللصوص آمنون، يعبثون فوق القانون، القانون مسكين ولا يطبق إلا على المساكين..

- الأبواب مفتحة لأبنائهم، ولهم وحدهم الفرص الطيبة.

- ولنا المعاناة والكلمات الكاذبة المعسولة..

- أبونا رجل شريف، وقاض شريف أضعف من مجرم غنى..

سررت بما سمعت وتحفزت للعمل. كل شىء يتم فى دنياى فى ثوان. وبدت مهمتى غاية فى السهولة. استحسنت أن أتجاوز الرجل إلى أبنائه، على من يريد أن يقتحم حصنًا

أن يبحث عن موضع ضعف فى سوره. فى هذا ضمان لمأساة أفجع وأشد. واندلعت فى قلبى النشوة التى تسبق العمل. لكنها ارتطمت بشىء ما. يا للسرعة! ويا للغرابة! شىء ما كرائحة مجهولة المصدر. تراجعت النشوة كالموجة المتقهقرة عن الساحل وسقطت فى الفتور. فتور كأنه الإحباط وكأنما أخجل من نفسى لأول مرة فى تاريخى العريق. ترددت ولم أكن أتردد قط. أحجمت ولم أكن أحجم قط. ما لذتى فى معركة، النصر فيها جالب للسخرية والهزيمة محققة للعار. كلا يا إبليس. ما هو بالفتور فقط، ولكنه الزهد. لم أصادف تجربة كهذه من قبل. سأتركك يا سيد محمد لشأنك وظروفك أنت وأسرتك المعذبة. لست سعيداً فتحسد ولا أنت متحد فتستفز. لا أحد يحبك. لا أحد يعطف عليك. يضمرون لك الشر ويبيتون لك أسوأ النوايا. إنى تاركك. سأتابع أخبارك من بعيد. ستظل فى حياتى نقطة سوداء، وإذا سئلت يوماً عنك أجبت:

ـ هذا الرجل زهّد إبليس فى القيام بواجبه.

العـــــودة

أى عالم هذا؟!

ينظر فيما حوله بعجب. كأن القيامة قد قامت. تغيرت معالم الطرق وتبدلت حالا بعد حال. هذه العمائر الضخمة متى حلت محل البيوت العتيقة المتهاوية. والسيارات المنتظرة على الجانبين، والمركبات المنطلقة كالقلاع. والزحام.. الزحام.. الزحام. متى ولد كل هؤلاء؟ متى نموا وتربعوا على عرش الشباب؟ ها هم أولاء يضربون الأرض بأقدامهم محدثين ضجة كبرى. هل حدث ذلك كله على مدى خمسة وعشرين عاما؟! المساجين المستجدون جاءوه فى السجن بمعلومات جديدة، ولكنه لم يصدق أو لم يستطع أن يتخيل الواقع، ولكن ما يراه اليوم يذهل الإنسان عن عقله. ويتساءل بقلق: ترى ما شأن الحارة؟ قد تحتفظ الحارة بطابعها وتتحدى الزمان. سيجدها كما تركها منذ ربع قرن. وسيجد رجاله فى انتظاره، وسيتطلع إليه الناس بانبهار وسرور، ويستقبلونه بالزغاريد، ويتبادلون التهانى لعودة فتوتهم. أجل، طعن الرجل فى السن، ولم تبق فى رأسه شعرة واحدة، وتخلت عنه قوته، ولكن الفتونة هيبة ومقام وشجاعة. فى سبيل الدفاع عن كرامتهم فقد عينه اليسرى، وقضى فى السجن تأبيدة، فأى إنسان يمكن أن ينسى ذلك؟ لم يعد له أهل فى مصر، وماتت زوجته منذ خمسة عشر عاما، فانقطع ما بينه وبين الأهل، ولم يبق له إلا رجاله. فى الأيام الغابرة كانت تتبعه الأبصار أينما حل ويحدق به

الرجال الأشداء، وعندما يهل على الحارة وينتبه الناس إلى عودة الغائب ستنقلب الحارة رأسا على عقب ويرجع كل شيء إلى أصله فتحلو الأيام وتصفو.

واخترق الميدان وجاز عتبة الحارة. انتفخ وشملها بنظرة جامعة. هي هي والحمد لله ببيوتها العتيقة الصغيرة المتلاصقة. بيت واحد هدم وقامت مقامه عمارة نحيفة مثل العمود. الكتّاب القديم باق، ولكن سقفه تهدم وبابه نزع. لكنه لم يعثر على وجه واحد من الوجوه القديمة، لا بين المارة أو العاملين فى الدكاكين. محل كواء مكان محل عم سليمان بياع الطعمية. المقهى فى مكانه، ولكن يديره شاب ببنطلون وقميص، وأعدت كراسيه صفوفًا لتشاهد مباراة كرة القدم فى التليفزيون. لا يعرف أحدا ولا أحد يعرفه. أين الرجال؟.. أين الاستقبال؟ تلاشت كما تلاشت أيام العمر. سار فى الحارة من أولها لآخرها ومن آخرها لأولها ولا حياة لمن تنادى. ودق كثيرا من الأبواب سائلا عن أصحابها فأجابه قوم أغراب لا يعرفونه ولم يسمعوا عمن يسأل عنهم. كأنه لم يكن فتوة الحارة وسيدها وحاميها، بل ولا واحدا من سكانها. لقد انساق إلى المعركة المشئومة دفاعا عن أحد أبناء الحارة حين تعرض للأذى فى حارة مجاورة. أين رجاله؟ أين التجار الذين حماهم بقوته وجبروته؟ كيف لا يذكرهم أحد، أو يفيده بنبأ عن أحدهم؟ وشعر بضياع لم يشعر بمثله فى السجن نفسه. وقال لنفسه: «ما أنا إلا ميت». ودنا فى تخبطه من زاوية سيدى الصبان، فلمح خادمها جالسا على بابها، غيّره الزمن، ولكنه لم يمح معالمه، فاستخفه الفرح وهرع إليه قائلاً:

- يا شيخ..

وتبين له أنه نسى اسمه فارتبك، ولكنه دارى ارتباكه بأن احتضنه وقبّله وهو يسأله:

- ألا تتذكرنى؟

فتفحصه الرجل بعينيه الذابلتين، ثم هتف:

- المعلم زيد؟!..

- جزاك الله كل خير. أنا المعلم زيد.

فتمتم الرجل:

- إن مع العسر يسرًا.

فسأله بحرارة:

- أين الرجال والجيران فإنى لم أجد منهم أحدا؟

- الرجال والجيران! سبحان من له الدوام.

وجلسا معا على باب الزاوية، وراح يسأل والآخر يجيب. البقية فى حياتك، ربح أموالاً طائلة، وهاجر إلى حيث لا نعلم، لا أدرى عنه شيئا، البقية فى حياتك.

أما عن أعوانه القدامى فقال الرجل :

ـ بعد المعركة إياها ضيقت الشرطة عليهم ، فتفرقوا إيثاراً للسلامة والله أعلم بهم .

فتساءل الرجل بصوت حالم :

ـ ألا يمكن الاهتداء إليهم بالسؤال والبحث؟

ـ فيم تفكر يا معلم زيد؟

ـ غريب بلا مأوى ولا رزق يبحث عن رجاله!

ـ يا معلم ، الدنيا غير الدنيا ، والزمان غير الزمان ، غيّر أفكارك ، لا فتونة اليوم ولا فتوة ، حسبك أنك قضيت زهرة عمرك فى السجن . .

ـ وكيف أعيش يا مولانا؟

ـ أى عمل يصلح لك فى هذه السن؟ . . ومن يمنح ثقته لخارج من تأبيدة؟

وتفكر الشيخ مليا ، ثم واصل حديثه :

ـ أتريد رأيى حقّا؟ طيب ، توجد مهنة وحيدة ، شريفة وميسرة للرزق . .

فتساءل الرجل بلهفة :

ـ ما هى؟

ـ مسح الأحذية ولا مؤاخذة!

فهتف الرجل :

ـ الأحذية؟!

ـ حلمك ، الغضب لا يحل المشاكل ، الأدوات رخيصة ، وإتقانها يسير ، ولا يوجد شخص اليوم بغير حذاء ، والمسحة بالشىء الفلانى . .

ـ أنا . . أنا زيد . .

ـ اعقل ووحد الله ، لا أحد اليوم يعرف زيد ، العمل يناسب سنك وصحتك ، ولن يتعذر عليك مهما تقدم بك العمر . . ماذا قلت؟

فقال بامتعاض :

ـ يلزمنى وقت للتفكير .

فقال الرجل بوضوح :

ـ لا تبدد وقتك ، الزمن لا يرحم .

ندت عن الرجل ضحكة جافة مباغتة كالعطسة ، ووازن فى صمت حزين بين السيادة التى حلم بممارستها على الحارة وبين مسح أحذية أبنائها . ولكنه لم يرفض ، وقال الشيخ بأسى :

ـ لو خمنت هذا المصير من قبل لارتكبت أى جناية فى السجن لأضمن بقائى إلى نهاية العمر . .

بيت المستشار

أعرف بيوت الشارع كلها . هى من الخارج واضحة مميزة كالوجوه البشرية ، ومن الداخل فهى غير محجوبة عنا ولا موصدة فى وجوهنا . نذهب ونجىء ونلعب بين صفين منها ، وبحكم حداثة سننا فتحت لنا أبوابها دون حرج ، رأينا الحريم ، عشقنا من بعيد البنات الصغيرات ، ونعمنا بقبلات الهوانم . إلا هذا البيت الذى يطل مباشرة على شارع العباسية ، بطابقه الواحد الكبير وحديقته المحيطة بأركانه ونوافذه المغلقة غالبا أو تفتح إحداها دون أن يلوح فيها إنسى . ونسأل : بيت من هذا؟ فتسمع أنه بيت المستشار ، لا أذكر أننى رأيته ، ولا رأيت أحدًا من ذويه . ترى أهو وحيد ، أهو صاحب أسرة؟ وفهمنا بطريقة ما أن رجال القضاء من طينة أخرى غير طينة البشر ، فبحكم عملهم الخطير لا يختلطون بالناس ، ولا يترددون على المقاهى ، ولا يقيمون وزنا للجيرة . والحق أن البيت وصاحبه وما عرف عنه ملأ نفوسنا هيبة ورهبة للقضاء ورجاله ، فاعتبرناهم نوعًا خاصّا ممتازًا يحتل منزلة خاصة فوق البشر . وصاحبنا ذلك الشعور ونما مع الزمن ، حتى صارت كلمة المستشار تعادل فى درجتها الأمير أو الوزير أو الزعيم أو تتفوق عليها جميعا . ويومًا قال لنا صديقنا سليمان :

ـ أختى هيام خطبت . .

فباركنا له ، وتذكرنا البنت الصغيرة التى منعت من اللعب معنا منذ سنوات . آية فى الجمال وصورة طبق الأصل من أمها الشركسية ، فأحيانًا كنا نلمحها فى السيارة الكبيرة التى تحملها إلى مدرسة سان جوزيف . وتساءل صديقنا :

ـ أتعرفون من يكون خطيبها؟

فلم نحر جوابا ، فقال بفخار :

ـ المستشار !

وبدهشة قلنا :

ـ صاحب البيت إياه؟ !

ـ دون غيره .

ـ ما عمره؟

ـ ليس شابا، يماثل بابا فى السن تقريبًا .

ـ وشكله؟

ـ نحيف، قصير القامة، غليظ الشارب، أشيب الشعر، وذو نظارة كحلية . .

ـ ووالدك وافق طبعا؟

ـ طبعًا، ولكن أختى لم توافق .

ولم نخف دهشتنا، فقال :

ـ أخيرًا أذعنت لمشيئة بابا وماما . .

حسدناه على الحظ الذى خص به . سيألف صديقنا المستشار وسيألفه المستشار . وسيفتح له البيت الغامض أبوابه . ولكن صورة المستشار اهتزت بعض الشىء فى وجدانى . ها هو ذا يخرج من عزلته المقدسة، ويسعى إلى بيت صديقنا الذى لا يختلف عن بيت أى واحد منا . ويتودد إلى أبيه الموظف الصغير مثل أبى، ويطلب منه القرب مبتسما فى حياء وأدب . بل رفضته العروس أول الأمر، فلم يعجبها سنه ولا منظره . وإذن فهو بشر مثلنا، يجرى عليه ما يجرى علينا، وإن يكن فى سلطته أن يرسل أيّا منا إلى المشنقة . ورأيناه بأعيننا يوم كتب الكتاب وهو فى الغاية من الأناقة والوقار . ولأول مرة تسيل جدران البيت الغامض بالأنوار، ويجىء المدعوون أشكالا وألوانا، ولأول مرة تلعلع الزغاريد، ويترامى إلينا صوت صالح عبد الحى وهو يغرد : «افرض حبيبك هجر» . فترتفع آهات الاستحسان من حناجر حررتها الخمر من حيائها . واهتزت الصورة مرة أخرى، فقلت إن المستشار عريس لا يختلف عن بقية العرسان . يضحك ويشرب ويطرب، وتخيلته فى مخدع الزفاف مثل كل الرجال . سيضطر مع الزمن إلى التعامل مع زوجته كما يتعامل مع نصوص القانون المقدسة، فيذعن لمشيئتها ويغضى عن نزواتها . وحدثت ثورة فى كيان البيت، فتحت نوافذه نهارًا لتستقبل الهواء والنور، وأضاءت ليلاً لترحب بالزوار من الجنسين . وكثيرًا ما تظهر هيام فى النافذة لتتشمس أو تجلس فى الشرفة . وكان يجلس معها فى العصارى فرأيناه، فى الجلباب والروب . أو تحملها الفورد إلى نزهة أو زيارة . ولكن الاستقرار لم يدم طويلا . حمل إلينا الهمس أن هيام رجعت إلى بيت أبيها غاضبة معلنة تمردها . ولكن المستشار لحق بها مصرا على الصلح . قال سليمان :

ـ لاطفها بكل حيلة حتى رق قلبى له .

واستأنفا حياتهما الزوجية كما كانت .

وتساءلنا :

ـ إذا كانت هذه هى البداية فكيف تكون النهاية؟

ولم نكن نملك من التجارب إلا ما تمدنا به السينما، فتخايلت لأعيننا المأساة قبل أن تقع.

واهتزت الصورة الاهتزازة الأخيرة. بت أرثى للرجل الذى ألفت يوما أن أرمق بيته بإجلال لا يكون إلا لأماكن العبادة.

الرجل القوى

اعتقد السيد طيب المهدى ساعة من الزمان أن مهمته فى هذه الدنيا قد انتهت، وغمغم فى ارتياح عميق وأسى خفيف: «الحمد لله رب العالمين». تسلم تأمينا حسنا، ومعاشا لا بأس به، وهو يقيم فى شقة تمليك بمدينة نصر فاز بها جائزة عن خدمة غير قصيرة فى الخارج، وتزوجت بناته الأربع، ولم يبق له إلا السمر مع زوجته ومؤانسة التلفزيون وقراءة الصحف وسماع القرآن فى إذاعته الخاصة، فأى غرابة فى أن يعتقد أنه أدى رسالته فى الحياة على أحسن وجه؟ لكنه لم يدر شيئا مما تخبئه له الأيام، فرأى ذات ليلة فيما يرى النائم رجلاً بهى الطلعة، فائض الأنوار، يرفل فى ثوب ناصع البياض ويقول له فى حنان:

ـ من هذه الساعة وحتى يشاء الله تستطيع أن تقول للشىء كن فيكون، فافعل ما يحلو لك.

وتساءل لما صحا من نومه عن تأويل حلمه، ولكنه سرعان ما نسيه كما تنسى الأحلام. العجيب أن الحلم تكرر بحذافيره فى الليلة التالية والليالى الأخريات، حتى شعر بأن فى الأمر سرّا، ورأى من الحكمة أن يحتفظ به لنفسه، فلم يبح به ولا لست هنية رفيقة عمره. وفى الوقت نفسه تلقى دفقة قوية من طاقة ملأته ثقة وإلهامًا وحبوراً. لم لا؟ إنه رجل طيب، أخطاؤه هفوات تغتفر، ورع متدين، محب للخير، عاش حياته ورغم تواضع شأنه وكأنه يحمل هموم الدنيا والناس. ومن شدة إلحاح الحلم عليه ومطاردته له قرر أن يجرب قوته سرّا. فذات مساء وهو يتابع مناقشة فى القناة الأولى للتلفزيون، وست هنية فى المطبخ، طلب أن ينتقل الإرسال إلى القناة الثانية، وفى الحال ودون أن يبرح مجلسه اختفت القناة الأولى وظهرت القناة الثانية عارضة فيلما أجنبيا. ارتعد الرجل من عنف ذهوله واجتاحته عواطف متناقضة من الخوف والفرح. أراد أن يتأكد من قوته فراح يجربها بين القنوات، وفى رفع بعض المقاعد فى الفراغ وإعادتها إلى مواقعها الأصلية، حتى اطمأن إلى المعجزة التى أوتيها. وسلم أن مغزاها فوق مداركه، ولكنه أدرك أن مهمته فى الدنيا لم تنته، وأنها لم تبدأ بعد. تذكر أحلامه

الطيبة لوطنه والدنيا التى كانت تضىء وتتلاشى فى ثوان، الآن آن لها أن تتحقق، وسيتم إصلاح الوجود على يديه، دون جزاء واعتراف بفضله، ولكن حسبه أن يلبى هواتف قلبه التى واكبت عمره الطويل، وأرقت نومه وصحوه. وفى ميعاد ذهابه إلى قهوته، ارتدى ملابسه، وغادر مسكنه كالعادة، طاويا بين جوانحه قوته الجديدة، متوكلاً على الله. أشار إلى تاكسى ليحمله إلى قلب المدينة، ولكن السائق لوح له بيد رافضة متعجرفة، وواصل سيره غير مبال به. ومع أنها لم تكن المرة الأولى إلا أن غضبه هذه المرة كان أشد. مال لحظة إلى أن يصعقه فى حادثة من حوادث الطريق، ولكنه جمح غضبه وقال لنفسه: «من يوهب قوة مثل قوتى فعليه أن يوجهها للخير». وركز بصره على إطارى السيارة الخلفيتين فانفجرا دفعة واحدة مثل قنبلة. وركن السائق السيارة، وراح ينقل عينيه بين الإطارين ويضرب كفّا بكف متشكيا «الاثنين فى وقت واحد». شعر بأنه أدبه ولقنه درسًا، ولكن هل يمر الدرس كأنه لقيط المصادفة؟! ومر بالرجل وألقى عليه نظرة ذات معنى وسأله: «أيمكن أن أعاونك؟»، ولكن الرجل أعرض عنه حانقًا حاقدًا. وبلغ محطة الباص فوقف تحت مظلتها. وجاء الباص مكتظّا بالخلق، فرأى صراعا ناشبًا بين سيدة ورجل يقف وراءها. لم يسمع ما يدور بينهما، ولكنه درس أبعاد الموقف. وما يدرى إلا والرجل يلطم المرأة على وجهها فى تهور فاق كل تصور. واستفزه الحدث فسلط غضبه على معدة الرجل فأصابها مغص شديد حاد مباغت جعله ينحنى من شدة الألم ويتأوه صارخًا، فلم يتحرك الباص حتى حُمل خارجه حتى تجيئه الإسعاف. وأكثر من صوت ارتفع قائلا: «يستاهل.. جزاء سوء أدبه ووقاحته». وراقب طيب المهدى المنظر بارتياح مطمئنًا إلى أنه يؤدى واجبه على خير وجه. وفى طريقه إلى المقهى قدم خدمات تذكر، صادف مطبّا غائرًا فسواه، وأحكم إغلاق صندوق كهربائى، ورفع كوما من القمامة وجفف عطفة من مياه المجارى حتى آمن كثيرون بأن صحوة حقيقية تسرى فى أعصاب الدولة، أو أنها انتقلت من الصحوة إلى النهضة. واتخذ مجلسه فى القهوة ليتحف رأسه بفنجان قهوة. وانتبه إلى ما يذيعه الراديو، وإذا بمتحدث يستعرض جملة من الإنجازات الموعودة للمستقبل. امتعض السيد طيب وناوشته وعود مماثلة وتصريحات أسعدته زمنًا، ثم لم تخلف إلا الإحباط، فضاق صدره بالحديث وقال مخاطبًا الرجل عن بعد: «تكلم عما تم إنجازه لا عما سينجز»، وقال لنفسه: إن هذ الرجل لن يوقفه عن الكلام إلا العطس. وعطس المتحدث عطسة مباغتة قطعت حديثه فصمت. لعله كان يجفف بمنديله فاه وأنفه. وهمَّ بمواصلة الحديث فقطعته عطسة أشد من الأولى. ولم يستطع بعد ذلك أن ينطق بجملة مفيدة واحدة، فالعطسة تقف له بالمرصاد حتى اضطر إلى الاعتقاد بمرض طارئ، فغير المذيع البرنامج مذيعًا أغنية طوف وشوف. وسكر الرجل بنشوة الارتياح والنصر. سيطهر الإذاعة السمعية والمرئية مما لا

يليق برسالتها الحقة. وسيوقف أى كلام لا يعجبه بالعطس والزغطة والإسهال المباغت ويكون الرقيب الشعبى الصادق على جهاز الإعلام الخطير. عند ذاك لمح المدعو سليمان بك الحملاوى وسط مريديه ومماليكه غير بعيد من مجلسه، يتقربون إليه بالملق والنفاق فيتيه كبرا وخيلاء. إنه ثرى من أثرياء الانفتاح، ولكنه محسوب على محدودى الدخل أمام مصلحة الضرائب. عظيم.. عظيم.. يا سليمان بك، اذهب من فورك إلى مأمورية الضرائب تائبا نادما وأدِّ ما فى ذمتك من ضرائب تبلغ الملايين. وفجأة قام الرجل إلى سيارته فى الخارج. فرك السيد طيب يديه حبورا. سيكون الرجل غدا حديث الصحف تضربه مثلا ليقظة الضمير، وعندما يرجع إلى فيللته سيتساءل عما دهاه ويضرب رأسه فى الجدار.

وجرب معجزاته بقية اليوم والأيام التالية فى أماكن متفرقة كيفما اتفق، فطاف بمستشفى ولادة وجمعية استهلاكية ومصنع للأدوات الكهربائية وغيرها وغيرها، فكان بلاء ونقمة على فريق ورحمة للكثرة من الخلق. وحيثما حل خلف وراءه دهشة وحيرة للفريقين، وتساءل كثيرون: كيف يتغير الناس من النقيض إلى النقيض؟ وماذا حدث فى الدنيا؟ هل يمكن أن تستقيم الأمور فى هذا الوقت القصير ودون مقدمات؟! غير أنه شعر فى الوقت نفسه بأن الأمور لا يصح أن تسير بلا تخطيط واع. واقتنى دليل المصالح الحكومية والمصانع والشركات، ومضى به إلى حديقة الشاى بحديقة الحيوان ليرسم خطة شاملة. المصالح الحكومية وكر البيروقراطية، ومراكز الإنتاج والخدمات، مجلس الشعب، السجون وما يقال عنها، الصحف، الأسواق، الأحزاب، المدارس، الجامعات. كل خطوة يجب أن تتم بتؤدة، كل اعوجاج يجب أن يقوم، كل انحراف يجب أن يردع، وعندما يفرغ من وطنه يلتفت بحماسة إلى العالم. المهمة المضطلع بها ثقيلة ومتشعبة، ولكن القوة التى يملكها هى معجزة الدهر. وشىء جذب انتباهه فى مدخل الحديقة فرأى امرأة قادمة لتجلس إلى المائدة التى تليه مباشرة. جميلة وجذابة ونسخة من أحلام شبابه الدابر. اقتحمه شعور بالرضا، وثار انفعاله لدرجة لم يجدها قط منذ تزوج من ست هنية، فضلا عن الزهد الذى خشيه مذ طرق باب الشيخوخة. وعجب لانجذابه غير المتوقع. حقًا إنه انجذاب غير عادى لا يتفق وانشغاله بمهمة تنوء بها الجبال. إنها لم تنتبه إليه ألبتة، وسرحت بعينيها النجلاوين فوق سطح البحيرة الخضراء والبط السابح، فهل يخطر ببالها أنه يستطيع أن يسيطر عليها فى ثوان فيقلبها ظهرا لبطن؟ وتردد طويلاً قبل أن يبعث إليها برسالته الخفية. فى الحال تطلعت إليه وبنظرة مستجيبة توشك أن تنطق. وتحول انجذابه إلى نشوة فاستسلم على رغمه. هل من ضير لمن يرغب فى إصلاح الدنيا أن يهتم أيضا بإصلاح ذاته؟ ومن خلال ابتسامة متبادلة نسى دينه ودنياه، فأغلق دفتره وقاما معًا مسلمين لقدرهما.

وعندما رجع إلى بيته مساء كان قد ثاب إلى رشده وأدرك أنه أخطأ . ولاحظت ست هنية أنه ليس فى مرحه المألوف فزعم أن نزلة برد ألمت به . ومع أنه لم يفكر قط فى معاودة الخطإ إلا أن الكدر لم يفارقه . الأدهى من ذلك أنه لم يعد يحظى بالثقة الباطنية التى أسكرته طويلا . وأراد أن يجرب نفسه ـ انتظر حتى غابت ست هنية لبعض شأنها وتوجه إلى التلفزيون كما فعل مراراً .

لم يستجب التلفزيون له ومضى فى سبيله .

جن جنونه .

أعاد التجريب فلم يلق إلا الخيبة .

تلاشت المعجزة كحلم .

الندم لا ينفع ، الحسرة لا تفيد ، التوسل لا يجدى .

يركبه حزن ثقيل لن يفارقه حتى الموت .

البهـــــــــــو

إنه عيد الميلاد . عيد الحياة المتجددة . يجمعنا البهو الكبير فتدفئه عواطفنا فى عز الشتاء حول كل ما لذ وطاب من مأكل ومشرب وعذب الألحان . نجىء فرادى وأزواجًا وجماعات . يسوقنا الحب ، وتربطنا المعاشرة الطيبة ، ويؤلف بين قلوبنا تقارب الأمزجة . لسنا فى حاجة إلى مطربين أو راقصات ، ففينا من يحسن الغناء ومن يجيد الرقص . ما هى إلا انطلاقة تعبير عن فرحتنا بالحياة . أما عن السمر والمزاح فحدث ولا حرج . ويضوع المكان على سعته بشذا الأزهار ويتألق بالسرور والرضا . وتمتد السهرات حتى مطلع الفجر ثم نمضى فى الانصراف كما تتابعنا فى الحضور ، بجفون أثقلها الشبع ، وحناجر أرهقها الصخب ، وأحلام تحن إلى النوم السعيد .

ـ نقسم ألا يفرقنا إلا هادم اللذات . وهو بعيد فيما يبدو ، ويوشك أن يضفى علينا الأمان . أجل بمضى الأيام ينكمش العدد وتختفى وجوه . للعمر حكمه وللظروف حكمها ، وهل دائم إلا الدائم؟ وفى غمرة السرور وحرارته نتناسى الخسائر ، ونرضى بما قسم لنا ، مع شىء لا مفر منه من الحسرات :

ـ ذلك الوجه الجميل الساحر !

ـ وصديقتها التى لم تكن تكف عن الضحك .

ـ وصاحب الهمة العالية الذى نصب نفسه مايسترو لكل حفل .

ونتفلسف ونقول إنها الحياة، وعلينا أن نقبلها كما هى. منذ عهد آدم وهى تتعامل مع الناس هكذا، فما معنى الدهشة؟

ولكن انتهى الجدل بأن فرغ البهو من أبطاله. اليوم لا يجىء أحد. لا رجل ولا امرأة. وأنتظر وأنتظر لعل وعسى، ولكن بلا فائدة. ضقت بوحدتى كما ضاقت بى. ولا علم لى بما يجرى وراء مجال البصر. لم تبق إلا خيالات محنطة فى توابيت الذاكرة. أحيانا أصدق وأحيانا لا أصدق. ليس فى القلب إلا كدمات وجروح. وعطف على ذلك الذى يقيم فى داخلى، فسألنى:

ـ هل أخبرك بالحقيقة؟

فقلت:

ـ تفضل.

قال:

ـ قبض عليهم جميعا، الحارس يؤدى واجبه، وأنت بذلك عليم.

ـ ولكنهم مختلفون فكيف يقبض عليهم بلا تفرقة؟

ـ إنه لا يبالى بالفوارق.

فتساءلت فى امتعاض شديد:

ـ ترى متى يفرج عنهم؟

فأجاب بصوت حاسم بارد:

ـ لن يفرج على أحد.

آه! إنه يعنى ما يقول. لن يفرج عن أحد منهم. وها هو ذا زمن الوحدة يخيم ويستطيل. ولم يقف الأمر عند ذلك الحد. الحركة دائمة لا تتوقف. وكنت أراقب فراشة تدور حول مصباحى حين همس فى أذنى:

ـ حذار.. إنهم يتحرون عنك!

حقّا؟! لابد من صنع شىء وإن طال السفر. ولم يمسنى الجزع كما كان يفعل قديمًا. وأصغيت إلى همسه وهو يقول:

ـ ثمة فرصة للنجاة؟

أصغيت بلا مبالاة. إنه يحرضنى على المستحيل، وكثيراً ما يعابثنى. ولم أشعر بأى خوف أو احتجاج. ولم أخل من سرور غريب. قلت:

ـ لا..

ومضيت أعد حقيبتى..

وأراوح بين إعداد الحقيبة وبين التسلى بمشاهدة الرائح والغادى. ألتف فى روبى اتقاء لبرد الشتاء، أقف وراء زجاج النافذة، الأرض لامعة مظللة بغصون الأشجار، والسماء متدثرة بالسحب، وعيناى تترقبان. أكثر من مرة أراه وهو يعبر الطريق بقامته الفارعة التى لم يحنها الكبر، ولكنه لم يقصد بيتى بعد. فى صباى خدعت بصداقة أبى له وثنائه عليه، ثم ماذا كانت النتيجة؟! ذلك الرجل العجيب. فى فترة انخداعى بما بين أبى وبينه صادفته فى الطريق قريبا من بيتنا. وبكل براءة دعوته لزيارتنا كما يقضى الأدب فابتسم قائلاً:

- ليس اليوم، شكراً لك يا بنى..

طالما تحير الناس بين سمعته الطيبة وفعاله القاسية. وفى حديث صحافى سألته الصحافية عما يوجه إليه من اتهامات، فأجاب:

- إنى أؤدى واجبى على أكمل وجه.

فأشارت إلى ما يقع من ظلم أحيانًا، فقال:

- عملى يتسم بالعدل المطلق.

- ألم تؤد واجبك مرة وأنت كاره؟

- نعم، إنى أنفذ قانونا كامل العدل.

- ثمة حوادث تستحق التفسير؟

- لو دخلنا فى التفاصيل الفقهية فلن يستطيع القراء معى صبرا!

وختمت الصحافية الحديث بالتنويه بطمأنينته الكاملة. ذلك الرجل الذى ينفخ اسمه الرعب فى الأفئدة. الذى قال مرة جهراً:

- أنا لا أذهب إلى الناس لألقى القبض عليهم، ولكنهم هم فى الحقيقة الذين يجيئون إلىَّ بأنفسهم.

كما أنكر بشدة جميع ما يقال عن التعذيب الذى يمارس فى السجون.

* * *

ها أنا ذا أقف وراء زجاج النافذة أترقب، فى الدقائق القصار التى أستريح فيها من إعداد الحقيبة..

ذوو الدخل المحدود

دهمنا الانفتاح كالطوفان. أناس طفوا فوق سطح الماء الهادر، وآخرون مضوا يغطسون نحو القاع. بادئ الأمر فرحنا لانهزام الانغلاق. قلنا: ولت أيام الحصول على علبة ثقاب بالطابور والبطاقة وتسول الأدوية من المحسنين. ولكن رويداً رويداً تحرك القلق جارا وراءه الخوف، وأخذت تكاليف الحياة تتجهم وتكشر عن أنيابها. ولأول مرة عرفت اسم طبقتى الجديدة فى العهد الجديد، وهو ذوو الدخل المحدود. قبل ذلك دعينا بالبرجوازية أو الطبقة الوسطى، وقالوا عنا إننا العقبة الكئود فى طريق البروليتاريا المبشرة بالغد. اليوم البروليتاريا تصعد، وذوو الدخل المحدود يرددون فى نفس واحد: عشانا عليك يارب.

وأذهب ذات صباح لأحلق شعرى فأجد المحل مغلقا، ثم يخبرنى أهل العلم بأن صاحبه باعه بثمن خيالى وأنه يعد الآن ليكون بوتيكا. فى عام واحد ترددت فى ثلاثة شوارع رئيسية على حلاقين سرعان ما يختفون كالأول، حتى تساءلت: ترى كيف تعيش مدينة بلا حلاقين؟ وما الحيلة لو تبعهم الحانوتية والترابية؟ وساءنى الانفتاح أكثر فى المكتبات التى كنت أغازل الكتب فى معارضها الخارجية، فقد كتب عليها نفس المصير وتحول غير قليل منها إلى محال أحذية، حتى قهوتى المفضلة انقلبت مطعماً. هكذا تحسنت أحوال البروليتاريا وأصبحت طبقة جديدة ذات شأن، وتدهورت الوسطى فى منحدر التقشف وراحت تفكر فى وسائل دفاعية جديدة تناسب العصر وتقتدى فى حدودها برجاله العظام.

وفرح من فرح، وحزن من حزن، وكان عم محمود العجوز من المحزونين. إنه صاحب محل صغير لتصليح الأحذية وتلميعها. يجلس فى عمق دكانه المستطيل وراء ماكينة الخياطة، ويعاونه ثلاثة شبان لمسح الأحذية يجلسون صفّاً أسفل الكراسى المتحركة. وبما أنه فى طريقى اليومى فإنى زبونه من قديم. وذات يوم غاب أحد العمال، ولما طال غيابه سألت عنه فأجابنى العجوز بصوت لا يكون إلا لأصحاب الأفواه الخالية:

ـ سافر إلى الخليج لتحسين الأحوال.

ـ وهل هم فى حاجة إلى ماسح أحذية؟

ـ الأعمال كثيرة والأرزاق على الله.

وعقب مرور شهر اختفى العامل الثانى جريا وراء الهدف نفسه. وبطبيعة الحال

انصرف زبائن كثيرون عن المحل، وجعلت أنتظر دورى لمسح الحذاء كأننى فى طابور جمعية استهلاكية. ثم ما لبث الثالث أن لحق بزميليه، فاضطر عم محمد العجوز إلى هجر ماكينة الخياطة والجلوس لمسح الأحذية. سألته مرة:

ـ لماذا لا تستخدم عمالاً جدداً؟

ـ أين أجدهم؟.. العثور على شغالة اليوم أصعب من العثور على وزير!

ومضت الأيام. وحطت هموم جديدة على الحلاقة ومسح الحذاء ومغازلة الكتب والذهاب إلى المقهى. جاءت هموم الخيار والطماطم واللحوم والملابس والتيارات المنحرفة والمخدرات. وعم محمد يتقدم فى السن ويمسح الأحذية بيد مرتعشة. وسرقنا الزمن حتى قال لى ذات صباح:

ـ هل تذكر عمالى الثلاثة؟

ولما أجبت بالإيجاب قال:

ـ رجعوا على أحسن حال، وجاءونى يعرضون علىّ خلوا لترك المحل!

سألته بقلق:

ـ وافقت؟

ـ المبلغ قيم ويكفينى حتى آخر العمر.

أدركت أن مسح الحذاء سيجشمنى إرهاقا جديدا مثل حلاقة الشعر ومثل كل شيء، وتساءلت: ألا يوجد وسط بين الانغلاق والانفتاح؟.. ألا توجد استراحة لذوى الدخل المحدود؟

الحزن له أجنحة

استحال صديقى شخصاً آخر عندما ماتت زوجته. كانت زوجته الثانية، والشقيقة الكبرى لزوجته الأولى التى رحلت مخلفة له ولداً وبنتاً. لم يبدأ التفكير فى الزيجة الثانية مدفوعا بقوة الحب، وإن بادلها الاستلطاف من بدء مصاهرته لأسرتها. بدأ الأمر بدراسة وتأمل ووزن للجدوى الاقتصادية. فهى قد جاوزت سن الحبل غالباً، وهى أرملة لم تنجب، وهى تحب الولد والبنت حبا صادقاً، فتطوعت لتنقلهما إلى مسكنها ليلقيا الرعاية والحب. نشأت الفكرة والدراسة، وهمس بها أهل الخير، فوجدت ترحيباً من الطرفين، وتم الزواج بيسر وبأقل التكاليف. واستحال صديقى شخصاً آخر. قال لى:

ـ لم أتصور قط أن الحياة الزوجية يمكن أن تجود بهذه السعادة كلها. تماثله فى سن الأربعين، ولا يزيد جمالها عن درجة مقبول، غاية فى اللباقة والذكاء وخفة الدم، وتحب الولد والبنت حبا صادقًا.

وعند المناسبة يقول:

ـ أخاف أن أحسد نفسى، الولية دكتوراه فى كل شىء طيب.

ويتقدم الزمن وتتغير أشياء كثيرة، وتستمر تلك السعادة الغريبة أو تتزايد، حتى تساءلت فى حيرة: أى امرأة تكون تلك المرأة العجيبة؟!

وتزوجت البنت، وتخرج الولد ضابطًا فى البحرية، وأقبل على الزوجين عصر الشيخوخة، ولكنهما تمتعا بصحة جيدة ومحافظة غير عادية على مظاهر الشباب، ويظل صديقى الزوج السعيد. حتى يدهم ذات صباح بوفاة القرينة إثر أزمة قلبية مباغتة. ما زلت أذكر العناء الذى بذله ليحافظ على توازنه، كى يؤدى واجبه نحو الراحلة. ولما جاء دورى لأقول له شد حيلك همس لى بتسليم حاسم:

ـ أنا انتهيت..

وكرجل ذى خبرة بالحياة لم آبه لقوله. عرفت الأفراح والأحزان والزمن، ولم تعد تؤثر فىّ كثيرا الأقوال الساخنة التى تصدر فى الظروف الساخنة. نعم سنتسامر قريبًا، ونحن نقهقه، وربما كلفنى يومًا بالبحث عن زوجة ثالثة. ولكن الحزن طال كليل الشتاء، ورسخ وتغلغل وكأنه أزمن. الحسرة تكاد تقتله، ولا عزاء له إلا فى تذكر العشرة الجميلة المولية. كيف أمكن ذلك الحب أن ينجو من افتراس الزمن ومكر العادة وسم الضجر؟!

ـ لا طعم لشىء بعدها..

الحق أقول إنه رغم شدة ارتباطنا لم أخل من ضيق لثباته على كآبته وتكراره لحديث واحد لا يتغير. مللت الشكوى والنبرة الباكية وسيرة الراحلة وذكرياتها. ولكن سيناريو الأحداث لم يتوقف. ماتت ابنته وهى تلد! يا للداهية، هل يتحمل الرجل هذه بعد تلك؟! ووقفنا نسنده. وهو والحق يقال يحسن التماسك أمام الناس.

وتأثرت للحدث مرتين، مرة من أجل صديقى، وأخرى من أجل الراحلة العزيزة. ويوما ونحن نتناجى أذهلنى بقوله:

ـ تصدق بالله؟! لقد احترق قلبى لموت عزيزة، ولكن حزنى عليها لا يعد شيئا بالقياس إلى حزنى على المرحومة!

أذهلنى حقّا. جعلت أسترق إليه النظر باستغراب. ألم يمض من الوقت ما يكفى للتعزى عن المرحومة؟ كيف يكشف عن ذلك الاعتراف عقب دفن كريمته بأسبوعين؟

وداخلنى شعور بأنه شخص غير طبيعى . أو أن الحزن شتت اتزانه القديم . وانصرفت عن مراجعته رثاء لحاله . ولم تتوقف الضربات المنهالة عليه ، فبلغت ذروتها عندما قتل ابنه فى الحرب . أداء واجب العزاء يشق على النفس أحيانًا ويتجاوز الطاقة . وساورنى وأنا مقبل عليه ما يشبه الشعور بالذنب . ولكن شد ما وجدته هادئا ساكنًا كأن الأمر لا يعنيه . وحافظ على ثباته الغريب طيلة وقت الجنازة والمأتم . توقعت أن تحدث أمور أو ردود فعل تعيسة . لم يحدث شىء على الإطلاق . حتى قال لى يومًا :

ـ ما رأيك؟ . . تضاربت الأحزان فهلكت جميعا . .

فأردت أن أقول شيئا عن الرحمة الإلهية ، ولكنه قاطعنى :

ـ صدقنى ، أنا لا أشعر بأى حزن ، لا نحو المرحومة ولا الابنة ولا الابن ، لا أدرى كيف حل هذا السلام كله . . ثم بلهجة حكيم :

ـ صدقنى ، لا شىء يستحق الحزن ، دع الحزن للحمقى ، أنا الآن مثل طير لا تربطه علاقة بالأرض ، إنى أيضا أتذوق الطعام وأحبه ، وأسمع الأغانى الحلوة حتى الثمالة ، ويُخيّل إلىّ أننى لم أعرف السعادة من قبل كما أعرفها الآن . .

تساءلت فى نفسى : أهى حال من الحزن المفرط؟!

كلا . صديقى سعيد حقًا . صحته فى أحسن أحوالها ، استرد لونه الطيب وابتسامته . يجلس نهاره فى مقهى أصحاب المعاشات يتسلى بالحديث والنرد . ويمضى أماسيه أمام التلفزيون أو فى سماع أغانيه المفضلة . إنه يحظى بحرية لا يعرفها إلا قلة من البشر .

العود والنارجيلة

إن ما يثير الطفل وهو مقبل على ذلك البيت ، التمساح المحنط المعلق بالجدار فوق هامة الباب . تبع أمه وهى تدخل ، ثم وهى تميل إلى الحجرة على يسار الداخل . حيت المرأة . وجلست على كنبة جاذبة ابنها للجلوس إلى جانبها . ترتدى ملاءة لف وبرقعًا ذا عروس مذهبة ، والطفل يرتدى جلبابا وجاكتة وطاقية وصندلا . قالت بعد أن نزعت برقعها :

ـ إن شاء الله تكون أحسن .

ووقفت قاطعة المسافة القصيرة بين الكنبة والفراش المقابل لها فى خطوتين لتضع لفة تحملها ، ثم تمتمت وهى ترجع إلى مجلسها :

ـ جئتك بالفطائر والبرتقال .

أجاب فى إعياء الرجل الراقد فوق الفراش :

ـ ربنا لا يحرمنى منك يا امرأة خالى . .

الحجرة صغيرة ، مغطاة أرضها بكليم مزركش قديم ، الفراش ذو أعمدة نحاسية ، إلى اليمين دولاب تستقر على سطحه نارجيلة وعود . الطفل معجب دائما بالنارجيلة وزجاج قارورتها الملون ، كما يذكره العود بالألحان فهو يحب الغناء على حداثة سنه . وثمة نافذة نصف مفتوحة تطل على الطريق الضيق ومن خلالها تُرى رءوس المارة . لم يخف على المرأة تدهور صحة الرجل ، تجلت عظام وجهه وشحب لونه وتوارى شبابه وراء غمامة كئيبة . سأل الراقد :

ـ كيف حالكم يا امرأة خالى؟

ـ نحمده ، شد حيلك أنت .

فأسدل جفنيه قائلا :

ـ لا أمل فى الشفاء يا امرأة خالى .

ـ ربك كبير ، ويأمر إذا أمر بالشفاء فلا راد لأمره ، وأم عبده . . ألا تواظب على المجىء؟

ـ تنظف الحجرة وتعد اللقمة ثم تتركنى لوحدتى ، أما أبى فنادرا ما يزورنى غفر الله له ، استعبدته المرأة وما كان كان ، البركة فى خالى وامرأته وأولاده .

وانطلق الطفل يقول بصوته المسرسع :

ـ كنت تزورنا وتضرب على العود وتغنى ، متى تزورنا ؟

فتر ثغر المريض عن ابتسامة أخفى من السر ، وقالت المرأة :

ـ إن شاء الله ترجع الأيام الطيبة .

حتى الطفل لم يغب عنه الفارق الكبير بين الراقد أمامه وبين القديم بشبابه ورونقه وضحكته العالية ، وصوته وهو يغنى :

يا ريت زمانى مرة

وحط الصمت فترة ، والمرأة تتلو فى باطنها آيات من القرآن الكريم ، حتى قال المريض :

ـ ما زالت المرأة القاسية تتسلل من حين لآخر إلى النافذة لتلقى على نظرة متلهفة على موتى!

وهتفت المرأة :

ـ لا حول ولا قوة إلا بالله، ولكن الحق على والدك، وربك كبير ورحمته فوق كيد الكائدين . .

واستغرق الطفل فى أفكاره، فسأله :

ـ متى تزورنا وتغنى يا ريت زمانى مرة؟!

لقاء خاطف

مضيت أهبط درجات السلم العريض نحو الطريق مخلفًا ورائى العمارة الشاهقة. اعترض سبيلى عند نهاية السلم فتى فى الثلاثين من عمره، حدق فى وجهى باسمًا. دهشت لغريب يستوقفنى، ولكنه لم يكتف بذلك. فمد يده مصافحًا وقال :

ـ نحن أقارب!

ابتسمت بدورى وقلت :

ـ حقًا؟ . . الذنب ذنب زماننا الغريب . .

فقال برقة :

ـ أنا محمد بن زينب صفوت!

غزتنى فرحة طاغية كادت تهتك ستر الماضى العذب، شددت على يده بحرارة، وتلقيت سيلاً من الذكريات الناعمة، وهتفت :

ـ أهلاً بك، فرصة سعيدة حقًا . .

وفارقنى كما فارقته، ولكن لم تفارقنى الذكريات.



صدى النسيان

مجموعة قصصية

المحتويات

حديقة الورد

حدث ذلك فى زمن مضى. ومما يذكر أن شيخ الحارة حكاه لى ونحن جلوس فى حديقة الورد. فقد عثر على حمزة قنديل بعد اختفاء طويل وهو جثة هامدة فى الخلاء.

وجد مطعونًا فى عنقه بآلة حادة، مخضب الجلباب والعباءة بالدم المتجمد، عمامته مطروحة على مبعدة يسيرة من الجثة، أما ساعته ونقوده فلم تمس، مما يقطع بأن الجريمة لم ترتكب من أجل السرقة. وتولت الجهات الرسمية الفحص والتحقيق، وانفجر الخبر فى الحارة وذاع بسرعة النار فى نشارة الخشب.

وترامى الصوات من بيته، وجاوبته الجارات بالمشاركة الواجبة وتبادل الناس النظرات، وساد جو من التوتر والرهبة، ولم تخل بعض السرائر من ارتياح خفى،

وأيضًا مما يشبه الشعور بالذنب، وأفصح عن شىء من ذلك عم دكرورى بياع اللبن حين همس لإمام الزاوية:

ـ القتل أكبر مما يتوقعه أحد، رغم عناده وثقل دمه!

فقال الإمام:

ـ يفعل الله ما يشاء.

وسألت النيابة عن أعدائه، فكشف السؤال عن جو متحفظ غامض. أرملته قالت: إنها لا تعرف شيئًا عن علاقاته فى الخارج. ولم يشهد أحد بوجود عداوة بين القتيل وبين أحد من أهل حارته. بل لم يُدْل أحد بشهادة نافعة. ونظر المأمور إلى شيخ الحارة متسائلا فقال:

ـ كل ما لاحظته أنه لم يكن له أصدقاء!

ولما سئل عن أسباب ذلك قال:

ـ كانوا يستثقلون دمه ولم أهتم بمعرفة السبب.

ودلت التحريات على أن الخلاء كان طريق ذهابه إلى عمله فى التربيعة وعودته منه. ولم يكن يصحبه أحد فى ذهابه أو إيابه. وأمام السؤال التقليدى عما إذا كانوا يشكون فى أحد أجابوا بالنفى القاطع، ولم يكن أحد يصدق أحدًا، ولكن هكذا جرت الأمور. ولكن لماذا لم يكن لحمزة قنديل صديق فى الحارة؟.. وهو ما يرجح بأنها كانت تضمر له العداء؟ قال شيخ الحارة: إنه كان ممن سبقوا إلى شىء من التعليم، فكان يجلس فى المقهى يحدث الناس عن عجائب الدنيا التى يطلع عليها فى الصحف فيثير الدهشة ويجذب الانتباه. هكذا صار قعر كل مجلس يكون فيه، واحتل مركزًا لا يراه الناس لائقا إلا برجال الحكومة أو الفتوات، فحنقوا عليه وتابعوه بقلوب مليئة بالسخط والحسد. وبلغ الأمر نهايته من التوتر عندما تكلم ذات يوم عن القرافة كلامًا عُدَّ خارجًا عن حدود العقل. وذلك عندما قال فى أثناء حديث له:

ـ انظروا إلى القرافة، إنها تقع فى أجمل موضع فى حينا!

وتساءل الناس عما يريد فقال:

ـ تصوّروا شمالها حيًا سكنيًا، وجنوبها حديقة!

وغضب الناس غضبًا لم يغضبوه من قبل. وانهالوا عليه لوما وتعنيفًا، وذكروه بكرامة الأموات وواجب الولاء لهم، وكان بيومى زلط على رأس الهائجين فحذره من العودة إلى حديث القرافة وصرخ قائلاً:

ـ نحن نعيش فى بيوتنا سنين معدودة ونلبث فى قبورنا إلى يوم يبعثون!

وتساءل قنديل :

ـ والناس أليس من حقهم أيضًا . . .

ولكن زلط قاطعه هائجًا :

ـ حرمة الأموات من حرمة الدين :

بذلك أفتى زلط الذى لم يعرف كلمة واحدة عن الدين . ولم تكد المعركة تهدأ بعض الشىء حتى حمل شيخ الحارة فى ذلك الوقت قرارًا من المحافظة ينذر بإزالة القرافة بعد مهلة معينة داعيًا الناس لإقامة مقابر جديدة فى عمق الخلاء . . لم يكن ثمة علاقة بين كلام قنديل والقرار ، ولكن البعض ظن ـ وبعض الظن إثم ـ والأكثرية قالت : إن قنديل أهون من أن يؤثر فى الحكومة ، ولكنه شؤم على أى حال . ورغم ذلك حمله الجميع تبعة ما حدث . وهو من ناحيته لم يخف سروره بالقرار . فضاعف من غيظ الناس وحنقهم ، وتجمعوا أمام شيخ الحارة : بين صياح الرجال وعويل النسوة وطالبوه بأن يبلغ الحكام بأن قرار الحكومة باطل وحرام وضد الدين وضد كرامة الأموات . وقال لهم شيخ الحارة إنه لا يقل عنهم غيرة على كرامة الأموات ، ولكنهم سينقلون من مكان إلى مكان مع المحافظة الكاملة على الحرمة والكرامة ، فقالوا فى إصرار : إن هذا يعنى أن اللعنة ستحيق بالحارة ومن فيها . وصارحهم الرجل بأن قرار الحكومة نهائى وأن الأولى بهم أن يتأهبوا للتنفيذ . وانصرف عنهم وزلط يقول بصوت كالنهيق :

ـ ما سمعنا عن شىء مثل ذلك منذ عهد الكفار !

واختلط السخط على الحكومة بالسخط على قنديل فصار سخطًا واحدًا . ورجع بيومى زلط من سهرة ذات ليلة مخترقًا طريق المقابر . وعند السبيل الصغير برز له هيكل عظمى متلفعًا بكفن ، فتسمر زلط وطار ما فى دماغه من دماغه .

قال الهيكل :

ـ الويل لمن ينسى موتاه أو يتهاون فى أثمن ما يملك وهو القبر .

ورجع زلط إلى الحارة وقد امتلأ بهمسات الموت . والحق أنه لم يخف على أحد أنه قاتل قنديل . لم يبح بسره أحد خوفًا وانحيازًا . وقيل : إن تلك الحقيقة ترامت إلى مأمور القسم ، ولكنه كان أيضًا ضد نقل القرافة المدفون فيها أجداده ، وقيدت القضية ضد مجهول وراح دم قنديل هدرًا .

ختم شيخ الحارة حديثه معى بنغمة آسفة ونحن جلوس فى حديقة الورد التى كانت ذات يوم قرافة حينا العتيق .

صدى النسيان

كانوا يحلفون باليوم الذى شهد مولده الجديد، والساعة التى وقع فيها تغيره وانقلابه الحاسمان، غادر عنبر بيته عند الأصيل وصار مزهوا فى عباءته السوداء مرسلاً من خطاه الثقيلة نُذُر الرهبة والخوف. وفيما هو يمر أمام كشك الحنفية العمومية توقف كأن مجهولا اعترضه أو صدّه. . أحنى رأسه دقيقتين ثم رفعها فطالع الناس بوجه جديد. . انحلت عقد وجهه ولانت عضلات صدغيه وتلاشى بريق العزم من عينيه فحلّ محله هدوء حائر. . وراح يقلب ناظريه فى الناس والأشياء كأنه يبحث عن شىء أو لا يدرى شيئا. . وتحرك فى الحارة تحركا عشوائيا فى هدوء وذهول لم ير معهما من قبل.

وكان الناس يحيُّونه فلا يردّ، ويلقون إليه أهازيج الملق فلا يتأثر. حدث شىء خطير ولا شك ولكن ما هو؟ وتجمع الناس بعيدا عنه وهم على أشد حال من القلق والتوقع، وجاء فيمن جاء إمام الزاوية وشيخ الحارة. . وتساءل شيخ الحارة:

ـ ماذا يجرى فى حارتنا؟

فأجاب الإمام:

ـ أمر الله ولكل أمر حكمة.

فقالت امرأة أحد أعوان عنبر:

ـ إنه عفريت النسيان، إن مس أحدًا نسى الناس ونسى نفسه. تمنى الناس أن تصدق. وأن يذوب عنبر فى النسيان إلى الأبد. وراقبوه بحذر وهو يهيم هادئًا ذاهلا. . حتى صار هدوءه مألوفا. . وانخفضت حرارة الخوف عامة. واطمأن من كان يتوقع أذى. وتجول عنبر فى أنحاء الحى كلما حلا له ذلك. وكثيرا ما ضلّ سبيله فيرجعه أحد أعوانه وهو لا يعرفه. . وذاع فى كل مكان أن عنبر مسه عفريت النسيان، وإن شخصا جديدا طيبا حلى فيه مكان الآخر. واعتبر ذلك من عجائب النوادر كما عد منه من الملك الوهاب. وعاد إلى الحارة بعض الذين طردهم سخطه منها فى عهد بطشه وقوته، وحتى ألمظية التى هربت من شغبه وسوء خلقه رجعت إلى حارتها، فرجع معها السرور والطرب وترددت من جديد الأنغام العذبة التى طال حنين الناس إليها ورأى عنبر خصومه السابقين فلم يعرف أحدا منهم وحتى ألمظية لم توقظ وعيه أو تحرك ساكنه. ارتاحت الحارة جميعا إلا أعوانه الذين تنكر لهم الزمان، وجعل شيخ الحارة يحذرهم قائلا:

ـ الزمان تغير ولن أسمح بأى انحراف.

وكانوا أضعف من أن يتحدُّوا أهل الحارة فتعلقت آمالهم بأن يعود صاحبهم إلى وعيه فجأة كما فقده فجأة أو يقع ما ليس فى الحسبان .

وعقب صلاة الفجر قال إمام الزاوية لشيخ الحارة :

ـ لأول مرة يتردد عنبر على الزاوية .

فتساءل شيخ الحارة بدهشة :

ـ أهو ميل مفاجئ للهداية؟

ـ لعله .

فقال الشيخ مشجعا :

ـ املأ قلبه بالدين كيلا يجد فراغا للشر إذا استرد وعيه يوما .

وعرف أن المرأة التى اكتشفت داءه تسعى لدى أهل العلم بالنجوم والسحر والعفاريت ليشفوه من المس ، وأقلق ذلك الناس وطالبوها بأن تكف عن سعيها ، وأنذروها بالشر إذا لم ترجع ، وبدا أنهم يرفضون العودة للهوان مرة أخرى . وعاد الإمام يقول لشيخ الحارة :

ـ اتباع الرجل السابقون يتبعونه فى الهداية .

فقال الشيخ راضيا :

ـ أخبار طيبة حقا!

ـ لم يسمع عن شىء مثل هذا منذ زمن السلف الصالح .

وبشر شيخ الحارة الناس بذلك فرحب بالأخبار من رحب ، وأعلن أناس بأنهم على تمام الاستعداد للدفاع عن أنفسهم ضد أى تسلط .

ولم يتغير مظهر عنبر فى جملته ، وذهب وجاء كرجل من عباد الله الطيبين . لم يؤذ أحدا بفعل أو قول حتى بنظرة . وآمن كثيرون بأنه لن يعود إلى أصله أبدا . . وظل أناس على حذر يتشاورون ، ثم توارى عن أعين الناس هو وأعوانه فترة غير قصيرة حتى تضاربت الأقوال وثارت الخواطر .

وفى يوم السوق وقف الإمام يؤذن لصلاة الظهر فمضى الناس فى هدوء نحو الزاوية ، وإذا برجل يصيح :

ـ انظروا .

فاتجهت الأبصار إلى حيث يشير . . فرأوا عنبر ورجاله قادمين ، تغير المنظر جملة وتفصيلا . تقدمهم عنبر وتبعوه كالزمان الأول فى الجلابيب والعمائم قابضين على نبابيتهم . وارتد وجه عنبر إلى الصورة القديمة بالنظرة الصارمة والعقد البارزة والعضلات المشدودة . هل رجعنا إلى أيام الطغيان والإتاوات والسيطرة؟

وساد الصمت حتى لم يعد يسمع إلا وقع أقدامهم الثقيلة . وعند الزاوية وقفوا وضرب عنبر الأرض بنبوته وصاح بصوت كالرعد : «الله أكبر» فردد الرجال وراءه فى هتاف يزلزل القلوب : «الله أكبر»!!

الهتـــــــــــاف

ذات صباح رجع أبو عبده إلى حارته . عرفه كثيرون رغم طلاء الأبهة ، رغم العباءة والعمامة والعصا والمركوب . . يا للغرابة يا أبو عبده ، ماذا أرجعك؟ عاش فى الركن الذى كان يقيم فيه بين أسرته وتلفت حوله فى حيرة . واتجه نحو دكان شيخ الحارة الذى كان يراقبه بامتعاض وحيّاه وسأله عن أهله . وسأله شيخ الحارة بخشونة :

ـ ما معنى هذه العودة؟

فقال أبو عبده الذى لم يكن يتوقع استقبالا أفضل :

ـ جئت لزيارة الأهل . .

فقال الرجل بغلظة :

ـ مات من مات ورحل من رحل هربا من كلام الناس .

ثم بعد فترة صمت مشحون باللوم :

ـ وأنت أدرى بالحكاية وأصلها . .

فقال أبو عبده بلهجة لم تخلُ من تحدّ :

ـ ها أنا أعود يا شيخ حارتنا ، وسوف ترانى سيدا يعيش بين السادة . .

فقال شيخ الحارة بضيق :

ـ اختر لنفسك ما يحلو ، أما أنا فلا يهمنى إلا الأمن العام .

وسرى الخبر فى الحارة مثيرا أكبر قدر من الاشمئزاز . وبأكبر سرعة ممكنة راحت خرابة تتحول إلى سراى لينزل به ذلك الرجل الذى غادر الحارة إلى أطراف الحى وجمع ثروة ضخمة من أحط السبل وأحملها للعار حتى صار مضغة للأفواه ومرغ اسم حارته فى التراب .

وسأل إمام الزاوية شيخ الحارة :

ـ ألم يجد فى الدنيا الواسعة مكانا لمسكنه بعيدا عن الحارة؟

فقال شيخ الحارة :

ـ إنه يؤمن بأن نقوده تستطيع أن تفعل المستحيل .

وتلهف أبو عبده مع إعداد السراى ليبدأ ممارسة سيادته . ولكن طوال مدة العمل لم يعن أحد بالنظر إليه . كان يشعر بالاحتقار كظله والكراهية مع أنفاسه .

وتساءل فى توجس : ترى هل أقيم لنفسى سجنا وأنا لا أدرى؟

ونصحه شيخ الحارة قائلا :

ـ إنه مشروع فاشل .

فقال بإصرار :

ـ بل سوف تلمس نجاحه وتنوه مع الآخرين بأعمالى الخيرية .

فضحك شيخ الحارة رغما عنه ، فقال أبو عبده :

ـ وسأستعين بك فى مشروعى الخيرى .

فرمقه بريبة فقال :

ـ أنت تعرف متبولى الأعمى . . كنت مقترضا منه خمسة قروش حين غادرت الحارة فانصحه بأن يذكرنى بها . .

فأدرك شيخ الحارة مقصده ، لم يتحمس ولم يرفض . وقال لإمام الزاوية :

ـ إذا أراد أن يكفر عن منكره فليكفر . .

فقال الإمام :

ـ إن الأعمال بالنيات وهو ذو نية سوداء دائما .

غير أن سعى شيخ الحارة باء بالإخفاق وقال لـ «أبو عبده» :

ـ متبولى يرفض المطالبة بدينه القديم . .

وانزعج أبو عبده . لكنه لم ييأس . صمم على أن يجعل من واقعة رد الدين لمتبولى حادثا يسيل له لعاب الفقراء فى الحارة فيكسب جبهتهم بضربة واحدة .

وانتظر صابرا كظيما يوم السوق . وارتدى فاخر الثياب إيمانا منه بولع أهل حارته بالمظاهر . وذهب بقدمين ثابتتين يشق طريقه فى الزحام إلى حيث يقرفص عم متبولى أمام مقطفه . قال بصوت جهير :

ـ أحيى صديق العهد القديم . .

فرفع متبولى إليه عينيه الضعيفتين وتحركت شفتاه دون أن يصدر عنهما صوت . وانتبه إليه أناس فتابعوا ما سيحدث باهتمام ودون أن يفارق الفتور وجوههم . وهمس إمام الزاوية فى أذن شيخ الحارة :

ـ أدعو الله أن يمر اليوم على خير .

أما أبو عبده فقال :

ـ لك دين فى عنقى وجئتك الآن لأسدده .

وأخرج من عبّه رزمة أوراق مالية لا ترى فى الحارة إلاّ كل حين ومين ووضعها بين يدى الرجل لضيق مقطفه . وساد صمت ثقيل ، وتركزت على الرزمة الأبصار . . حتى همس شيخ الحارة فى أذن الإمام :

ـ اذكر هذه اللحظة التعسة فقد تكون بدء تاريخ طويل من الفساد فى حارتنا الطيبة . .

وابتسم أبو عبده فى إغراء ، ولما ترامى الزمن دون حركة تحولت الابتسامة إلى توسل ، ولكن متبولى أزاح النقود بمقطفه نحو صاحبها وصاح بصوت سمعه الجميع :

ـ خذ نقودك يا قذر . .

عند ذاك هتف الجميع بصوت واحد : الله أكبر . . وليحيا الجدعان . .

الطاحونـــــــة

كانوا ثلاثة قيل إنهم خرجوا إلى الدنيا فى يوم واحد . وحديث الأعمار يبوح بأسراره فى حارتنا عند الحوار بين الأمهات والجارات فى شتى المناسبات ، ولعبوا معا عند مشارف الميدان حتى بلغوا السادسة . عند ذاك حجزت البنت لتصبح خفية وراء الجدران واستمر الصديقان فى اللعب والتذكر . أما رزق فيتذكرها كلما احتاجوا إلى ثالث فى لعبة من الألعاب ، وأما عبده فحتما منذ تلك السن المبكرة كان يشعر بها حبيبة للقلب على نحو ما . ومنذ تلك السن المبكرة أيضا أدرك أن عليه أن ينتظر عشر سنوات قبل أن يحقق أمله المشروع .

وكان عبده من الذين يملكون ، أما رزق فممن لا يملكون . وتزاملا فى الكتاب كما تزاملا فى اللعب . وانقطع رزق عن التعليم بحكم فقره وواصله عبده حتى نال الابتدائية . ومنذ ذاك الزمن البعيد ورزق يتشكل فى وجدان عبده مثالا فائقا فى القوة والجرأة والمهارة فاحترمه وأعجب به وتبعه رغم فارق الغنى والفقر .

ولما مات والد عبده حل الفتى محل أبيه فى مطحن البن الذى ورثه . وكان الأب قد درَّبه ، كما أن العمال القدامى أخلصوا له أيَّما إخلاص ، ولكنه سرعان ما ضمَّ صديقه رزق إلى المطحن كمعاون له ، وكان كل ما حصله كل منهما من التعليم كافيا له فى عمله ، وتجلت ألمعيّة رزق فى متابعة العمل من شرائه كـ «بُنٍّ» أخضر إلى تحميصه وطحنه وتعبئته وتوزيعه . وقال لأسرته مفسرا قراره بتعيين رزق :

ـ أنا لا أجد الطمأنينة إلا معه .

ذلك حق . لم يتخل عن خدمته قط . يدفع أى أذى الصبية . يسارع إلى نجدته كلما احتاج إلى نجدة . يسعفه بالرأى والمشورة . ولما ضمه إلى المحل قال له :

ـ كن فى العمل ما كنته فى الحارة ، عينى وأذنى ويدى . .

وفى وقت قصير استحق أن يلقب بالوكيل . إنه الرقيب بين العمال ، الدائب على رعاية الطاحونة ، وأنشط من قام بتوزيع البن فى الدكاكين والمقاهى . يا له من طاقة لا تخمد! وأصبح هو لا يدرى كبيرة أو صغيرة من محله إلا عن طريقه . بالمقارنة أصبح هو لا شىء والآخر كل شىء .

وكان ارتياحه لذلك أضعاف ضيقه به لما طبع عليه من كسل وحب الحياة اليسيرة والميل إلى الاستمتاع بالسهر كل ليلة فى المقهى أو الغرزة . وكان العملاء يقصدون رزق لعقد الصفقات وكأنه مالك كل شىء . ولاحظ خال عبده ذلك وهو فى غاية من الاستياء ولكن الشاب قال له :

ـ بكلمة واحدة منى يتغير كل شىء ، أريد أن تجرى الأمور على ما تجرى عليه ، وأنا يا خالى أحب المال ولا أحب العمل ، ورزق أمين ، وهو هدية ربنا إلىّ . .

ومضت الأمور فى طريقها المرسوم حتى قال عبده لرزق يوما :

ـ آن لى أن أفكر فى الزواج قبل أن يسرقنا الوقت .

ولم يبد على رزق أنه فوجئ وسأله :

ـ هل فاتحت أحدًا فى الموضوع؟

ـ أنت أول من أفاتحه فيما يهمنى . .

ـ أحسنت ، فالطريق المعتاد إلى الزواج هو أردأ الطرق ، فدعنى أتحرى بأسلوبى الخاص والله يهدينا سواء السبيل . .

هكذا سلّمه شئون قلبه ضمن اختصاصاته ، ولم يكن رأى ظريفة طيلة السنين إلا مرات معدودة ، ولكنه لم يحب من جنس النساء سواها ، غير أنه قال كالمعترض :

ـ أسرتها طيبة وحسنة السمعة ولا حاجة بنا إلى التحريات .

ـ هذا كلام الناس الطيبين ولكننا لن نخسر بالسؤال شيئا . .

وانتظر عبده وهو يزداد قلقا وتوترا ، ويتساءل فى حنق : متى تنتهى تلك التحريات المشئومة . والتقت عيناه بعينى صاحبه إذ هما فى المقهى فقرأ فيهما ما أثار خواطره وسأله :

ـ ماذا وراءك؟

فقال بحزن شديد :

ـ ليس خيرا .

فهتف :

ـ يا خبر أسود ، ماذا قلت؟

ـ هى الحقيقة للأسف . .

ـ لكن ظريفة ملاك .

ـ إنها ليست ملاكا .

فغمغم بعد تردد :

ـ أنا أريد البنت .

فقال الآخر بادى الامتعاض :

ـ أنت حر .

وانطوى على نفسه يفكر ويفكر . ويتردد بين الإقدام والإحجام ، وضاعف من تعاسته أن رزق اعتكف فى بيته لمرض طارئ . وذات أصيل وهو منفرد بنفسه فى المطحن ترامت إلى أذنه زغرودة . وجاءه عامل يخبره بأن رزق كتب على ظريفة فى حفل خاص ونفر من الأهل .

وثار عبده ثورة جعلته يبدو بين عماله كالمجنون حقيقة لا مجازا . وزاره قريب لرزق يحمل إليه اعتذاره وقوله إنه فعل ما فعل لينقذه من شر كبير كان حتما سيقع فيه . وضاعف الاعتذار من جنونه وأعلن طرده من المطحن وتوعده بشر من ذلك .

ولكن الذى حدث غير ذلك . وقال لى شيخ الحارة ـ وهو راوى قصة عبده ورزق وظريفة ـ إن عبده عاد مع الأيام إلى رشده . وغرق فى عمله لا يدرى ماذا يفعل فاقتنع بأنه لا غنى عن رزق . وعفا عنه وأعاده إلى مركزه السابق .

والأعجب من ذلك كله أنه فاجأنا ذات يوم بالزواج من أم ظريفة!

الصعود إلى القمر

تم الهدم وبقيت الأنقاض . تجلت أرض البيت القديم مساحة شبه مربعة فى الفضاء خالية من أى معنى وبلا رموز . وقلت للمهندس وهو أيضا صديقى :

ـ انظر كم هى صغيرة .

فقال وهو يتأملها متفكرًا :

ـ كان فيها الكفاية لإيواء أسرة ما شاء الله كبيرة .

واستغرق فى تأملاته ثم استطرد :

ـ لا جدوى اقتصادية من بناء مسكن أو عمارة صغيرة . .

ـ قلت لك : إننى لا أفكر فى ذلك .

ـ لكن ما تفكر فيه خيال خارق ، إليك مشروعًا طريفًا ومفيدًا ، أن نبنى مشربًا لبيع العصائر والحلوى ، وسوف يكون تحته فى هذا المكان الأثرى ، وألف من يتقدم لاستئجاره إذا عرض للإيجار فى الوقت القريب .

فابتسمت قائلا :

ـ فكرة طيبة ولكنى لم أقصدك إلا لتنفيذ ما فى رأسى . .

ـ إنه خيال أشبه باللعب . .

فقلت بإصرار :

ـ أريد أن أعيد البيت القديم كما كان أول مرة دون أدنى تغيير حاذفًا الزمن من الوجود .

وخلوت إليه فى مكتبه . وأصغى إلىّ بعناية ويده لا تكف عن الرسم والتخطيط . ودار نقاش مرات فعندما وصفت له المدخل والسلم قال :

ـ أسلوب فج . ويصدم القادم بوجوده دون أى تمهيد ، دعنى . .

فقاطعته بإصرار :

ـ ما أريد إلا أن يرجع البيت إلى أصله . .

وفى لحظة أخرى قال :

ـ المسكن لن يزيد عن حجرتين أكبرهما صغيرة . .

ـ أنا عارف .

ـ وتضيع نصف المساحة لبناء حمام يتسع لخزان لتطهير الزهر والورد ، وبناء فرن بلدى ، أى زهر وورد وخبز . . !

ـ هذا ما أريد ، ولا تنس السطح ، فيه حجرة صغيرة صيفية ، وحجرات لتربية الكتاكيت والأرانب .

وضحك صديقى طويلاً ولكن يده لم تكف عن التخطيط . إنه يعلم جيدًا أننى لا أفكر فى الاستثمار . وكان مرجوى أن أقيم استراحة شعبية لبناتها الذكريات والأحلام ، وتنفع مهربا من هموم الحياة وضغوطها ، وعندما يتم تأثيثه وتزيينه من محال خان الخليلى

سيكون تحفة، ولكن بمعنى آخر غير ما قصده صديقى المهندس من بناء المشرب وإعداده للسياح والأهالى. ولعله أساء الظن.. حذرنى قائلا:

- ستكون فى قلب حى عريق فحذار من تجاوز التقاليد.

فضحكت وقلت له:

- لو فكرت فى شىء مما تعنى لوجدت سبيلى دون حاجة إلى هدم وبناء! وتم بناء البيت أو إعادة بنائه على ما اتفقنا عليه. وكنت أتابع خطوات البناء الأولى ثم انقطعت عنه لاستمتع برؤية جدته[1] وكأنها مفاجأة سعيدة. وقال لى المهندس:

- تم كل شىء كما تريد فأرجو ألا تندم..

وذهبت معه لإلقاء نظرة أخيرة والتسلم. وعندما أقبلت من أقصى الطريق تراءت المشربيتان كما كانتا تتراءيان فى الزمن القديم. وكعينين ترمقان دعتانى للدخول، قام البيت بين البيوت القديمة على ناحيتيه التى بقيت على حالها دون أى تغيير خارجى، أما سكانها القدامى - جيران الزمان الأول - فقد تلاشوا فى غياهب المدينة ولم يتردد لأحد منهم ذكر إلا فى صفحة الوفيات، وجعل قلبى يخفق. ورأيت المطرقة معلقة بالباب فرأيت الأيدى العزيزة تقبض عليها. وقال المهندس كالمعتذر:

- كان علىَّ أن أتخذ الاستعدادات لإدخال المياه والكهرباء.

فقلت له:

- فى نيتى أن أستعمل المصباح الغازى..

- ستكون جاهزة إذا احتجت إليها عندما تفيق من الخيال.

ولكنى أمعنت فى الخيال وأنا أرتقى فى السلم العالى. وحال بلوغى الطابق المعد جذبت إلى الوراء البعيد بشدة. غاب عنى صوت المهندس، كدت أنساه تمامًا. ها هو الفرن. لكن أين حرارة الدفء واللهب والمجلس السعيد؟ وتقت إلى عبق الخبيز. وها هو الحمام بمنوره المزركش وخزانه العريض والحوض المفعم بالزهر والورد. وها هى أنابيب التقطير تكاد تسيل بالرائحة الذكية، وجلست أراقب اليدين فى نشاطهما العذب وأستمع إلى التلاوة. واندفعت أجرى فى الدهليز بين الحجرتين تطوقنى الأصوات المحذرة. واختلط التهديد بالضحكات العالية، واعترضنى الذى يضع على وجهه قناعًا من الكرتون رسمت عليه صورة الشيطان، وجاء صوت معاتبًا: «لا ترعبه فالرعب لا يزول»، وصعدت إلى السطح فهالنى أن أجد الحجرة الصيفية خالية من غطاء اللبلاب والياسمين، وأن أرض السطح خالية من السلم الخشبى وحبال الغسيل، وجذبنى صياح

(١) شكله الجديد.

الديك إلى حجرة الدجاج فهرعت إليها، وفردت جلبابى وأمسكت بطرفه لأجمع فيه البيض.

وصحت فيمن يرافقنى: «انظر» وأشرت إلى لون المساء الهابط على الحى من خلف القباب والمآذن. وطلع البدر فى خيلاء من وراء البيوت العتيقة فتطلعت إليه بشغف. عند ذاك رفعت فوق الكتف وهمس لى الصوت الحنون: «خذه إن قدرت»، فمددت يدى بمنتهى الحب والأمل إلى البدر الساطع.

معركة فى الحصن القديم

عاد إلى الحارة فى أول إجازة بعد فترة غياب غير قصيرة. وهمست امرأة «ذهب يوم الكشف بجلبابه، وها هو يعود بالبدلة الكاكى، ما أجمله فى البدلة الكاكى». وحذاؤه الأسود الضخم لم يخف على أحد ولا طربوشه الطويل. أجل نَحُفَ ولكن عوده اشتد وصلب. اكتست بشرته بسمرة غميقة من شمس الصحراء. وقال عجوز سبق تجنيده:

ـ أمامه خمس سنوات سخرة كسائر الجنود المساكين.

يوم دعى للتجنيد كان من أيام الحارة الحزينة. هرعت أمه إلى شيخ الحارة وقالت له فى ضراعة: «نحن فى عرضك». فقال لها الرجل: «قوانين الحكومة لا تجدى معها الشفاعة» وأوصاها أن تذهب به إلى رجل مشهود له بالمهارة فيضمن له عاهة تعفيه من القبول يوم الكشف، ولكن الشاب رفض الفكرة وقال لأمه: إنه يفضل خدمة الجيش خمس سنوات عن عاهة تلتصق به طوال الحياة. هكذا قبل جنديا بلا زغاريد.

ويوم المحمل احتفلت به الحارة كلها. احتل الرجال قطاعًا من الطريق فيما يلى حى الشوام، وتكأكأت النسوة فيما بين الحمام والجامع. وخفتت ضجة الجماهير حين ترامت أنغام الموسيقى النحاسية، ثم أقبلت فرقة من المشاة تتقدم الموكب، تسير أربعة أربعة واضعة البنادق على المناكب. وظهر الشاب بين الجنود، جادا جدًا بخلاف ما ألفوه. ولما مر صفه أمام أهل الحارة من الجانبين تعالى الهتاف والزغاريد. ورفعوا أمه فوق عربة كارو وقفت عند جانب الطريق، وخفقت القلوب بالأفراح.

وعاد الشاب إلى حارته فى الإجازة ليستمتع بشىء من الحرية والراحة. وعزمت أمه على ألا تضن عليه بشىء ولو باعت آخر أسورة فى معصمها. وقال لأمه وهو يخلع ملابسه:

ـ حياة القشلاق فوق طاقة البشر.

فدعت له بالقوة والصبر ثم قالت متشكية بدورها:

ـ وحياتنا فى الحارة أصبحت مثل حياة القشلاق وأسوأ، ألم تسمع بما حصل؟

ـ بلى قد سمع كلمات متناثرة ولكنه لم يدرك أبعاد الحكاية، فواصلت أمه قائلة:

ـ لم يكن ينقصنا إلا العفاريت، ألم يكن فى الناس الكفاية؟

الواقع أدرك الشاب أن الحارة تمر بمحنة. قدر رهيب حرك الشر فى قلوب ساكنى الحصن الذى يوجد بابه المغلق تحت القبو. وعلى غير عادة جاوزوا حدودهم فى العبث فقطعوا الطريق على كل من انفردوا به ليلا، وملأوه رعبا فسقط منهم جرحى وهم يفرون من الهول. استمع الجندى إلى حكايات الضحايا وعاين الجراح والكسور ثم قال بامتعاض شديد:

ـ ما يصح أن تعبث العفاريت بحارة مؤمنة..

فأيده جميع السامعين وقال صوت:

ـ نحن فى حاجة إلى بطل..

فهز الحماس الشاب وقال:

ـ أنا لها!

فثارت ضجة وهتاف، وتحمس كل شخص باستثناء أمه فأسكره الحماس وصاح متحديًا:

ـ أنا لها!

وانتظروا المغيب وقد تعلقت به الآمال، وانزوت أمه تبكى، وهبط المساء ذلك اليوم فى هالة من التهاويل والأخيلة الخارقة. ووقف الجندى ممسكًا بعصا أهداها إليه فتوة متقاعد. وتقدم من القبو يشق طريقه فى زحمة الخلق فعلت الضوضاء حتى غطت على تحذيرات أمه الباكية. وفى صوت قوى واحد صاحوا «أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، بسم الله الرحمن الرحيم» وفى ثبات ظاهر مرق الجندى من باب الحصن القديم. وأنصتوا بقلوب راجفة ودفنوا الهمسات فى الصدور. ومال شيخ الحارة نحو الإمام وسأله:

ـ كيف تنتهى المعركة؟

فأجاب الإمام:

ـ الله يؤتى النصر من يشاء.

وندت من الداخل حركات عنيفة ارتعدت لها القلوب، ثم كان انفجار، تبعه صوت كالرعد، وانتشرت فى جوف القبو أصوات دق وكسر وتمزق وزمجرة ودار همس حار مع الأنفاس المضطربة: «الدقيقة بعام كامل، لو انهزم الحق علينا أن نرحل عن الحارة. لولا حكمة ربنا ما أقدم الشاب على المعركة».

وساد الصمت فجأة وفتح باب الحصن مرة أخرى فاقتحم صريره سكون الليل . وأمر شيخ الحارة بإشعال فوانيس الطوارئ فاشتعلت وتراءت على أضوائها الوجوه الشاحبة ولاح الجندى فى الباب فهتف الناس بجنون «الله الله» وتقدم نحو الحارة يسير فى مشية عسكرية فأوسعوا له . وإذا بطابور من الأشباح يتبعه بنفس المشية يسيرون أربعة أربعة . ذهل الناس وهم يرون الطابور وهو يشغل سطح الحارة من القبو حتى مخرج الميدان . وتوقف الجندى فتوقفوا وهم يتحركون محلك سر . ظلوا يتحركون هكذا حتى لم يجد الناس مكانا إلا لصق الجدران .

وألف الناس الفرحة وأفاقوا من سكرتها ، وحل محل ذلك تساؤل ودهشة وقشعريرة خوف . وسأل رجل شيخ الحارة :

ـ عم أسفرت المعركة؟

فقال الرجل بضيق وسرعة :

ـ ألا ترى ما أمامك يا أعمى . . ؟!

وأصرت الأم على إطلاق تحذيراتها حتى رميت بالجنون . ولم يعد يسمع فى الليل إلا وقع الأقدام الثقيلة!

العشق فى الظلام

عندما يغلق باب المقهى لا يبقى ساهرا فوق أرض الحارة إلا الخفير . لتفقد أقفال أبواب الدكاكين ، يذهب ويجيء ما بين الميدان وممر القرافة سائرا فى ظلام دامس متلمسا طريقه بغريزته المكتسبة من العمل ومعلقا بندقيته بمنكبه وبين حين وآخر يطلق نذيره الحلقى الذى يشق الظلمة .

أطلق عليه منذ بدء خدمته : «أبو الهول» بما يرمز له الاسم فى الذاكرة الشعبية من الجلال والرهبة ، الواقع أنه ذو طول مؤثر وعرض لا يتناسب مع ذلك الطول ، أما شاربه فيقف عليه الصقر ، وأما رأسه فصغير وقلبه طيب لا يتوافق مع أغراض وظيفته ، والحق أنه مضى يهزل وبرق وتتجمع فى عينيه سحابة حزن ، وتساءلت القلة التى تراه وهو يبدأ عمله الليلى عن السر . وتجرأ أحدهم فقال له :

ـ لست على ما يرام يا خفير بندق .

فأجاب بغموض قائلا :

ـ هى الدنيا يا معلم .

إنه يعاشر الظلام، ولا يعرف من أهل الحارة إلا الراجعين قبيل الفجر من الحشاشين والسكيرين والخباصين، ولعله لا تصل إلى مسمعيه فى صمت الليل إلا الأنات الشاكية، وقيل إنه سيهزل ويهزل حتى تعجز الأعين عن رؤيته.

ولكن الأنات الشاكية لم تكن الأصوات الوحيدة التى تزحم أذنيه. هناك الصوت الذى يتسلل من نافذة بدروم البيت القائم أمام السبيل، أسمعه أنين الحب وأنغامه. كل ليلة عقب عودة النجار من سهرته، يترنح ويدندن ثم يهبط إلى مسكنه، وبعد فترة وجيزة تتسلل الأنغام من منافذ النافذة، كل ما استطاع أن يعرفه أن البدروم مسكن للنجار وامرأته ست بطة، ولكنه لم يرها أبدا. إنها تقضى شئونها فى غرفتها. عرفها من صوتها آخر الليل، ولم يكن من أهل الحارة ولكنه عشق الصوت، وهام به هياما حتى نبض فى قلبه. وتردد فى أنفاسه. يسمعه ليلة بعد أخرى ويتشربه ساعة بعد أخرى ويخلق من ترنيماته وتهويماته صورة جامعة لمحاسن نساء الريف والمدن، يناجيه فى سهرته الطويلة ويستغيث به فى وحدته، وتجسد له مرات فحاوره ودعاه وقال له لا يعرف الألم الدفين إلا خالقه ولا يغيظه شىء كما يغيظه دندنة النجار وهو عائد مترنحا. وخطر له أنه لو أعياه السطول ليلة فسقط لحمله إلى الداخل ليرى ست بطة. ورن صوته فى القبو مرة وهو يغنى:

باسمع نغم بالليل عشق الحبايب هدنى الحيل.

وأعجبه صدى صوته داخل القبو فأعاد الغناء وفاض به الحنين فتساءل: «وإيش بعد الغناء يا بندق؟».

وجاءه صوت من وراء باب الحصن الأثرى:

ـ ما بعد الغناء إلا العمل..

فارتعد متذكرا ما يقوله أهل الحارة عن سكان القبو. ولكنه تشجع ضاغطا بذراعه على بندقيته وسأل بلهجة ميرى:

ـ مين أنت؟.. كيف دخلت الحصن؟

فأجاب بصوت باسم:

ـ أنا شيطان يا خفير بندق، ولولا الشيطان ما كان الإنسان.

وسرى الصوت فى كيانه بقوة فلم يشك فى أنه بحضرة شيطان حقيقى. حاول أن يتلو سورة ولكن رأسه أفرغت من محفوظاتها القليلة، وسأله مستسلما:

ـ ماذا تريد؟

ـ ماذا تريد أنت؟

ـ ما أريد إلا أداء واجبى.

ـ أنت كذاب.

وترامت إليه دندنة النجار وهو راجع فخفق قلبه وقال الصوت من وراء الباب المغلق :
ـ أعطني بندقيتك . .
لم يذعن ولم يرفض ولكنه شعر بالبندقية تنزع من حول منكبه . وفجأة دوت طلقة نارية فمزقت مخالبها ستار الليل ، نام ثوان فحلم ثم صحا . ولما صحا رأى شفافية الضياء الباكر تهبط فى مركبة سماوية ورأى لمة تحيط بجثة يتدفق الدم من فيها وانكبت فوق الجثة امرأة وهى تصرخ وتبكى وتندب أبا العيال .
وندت عنه حركة فاتجهت إليه الأبصار وأكثر من صوت سأل :
ـ من قتل الرجل يا خفير بندق؟
فتراجع حتى استند إلى شرفة السبيل وهو يحدق فيهم .
ـ لا بد أنك رأيت كل شىء . . فمن قتل الرجل؟
فأجاب بذهول :
ـ قتله الشيطان . . !
وكان يرى ست بطة لأول مرة ، ولآخر مرة .

ذاكرة الجيران

فى ليلة وقفة رمضان لعام من الأعوام البعيدة الماضية قامت خناقة مالها إلا النبى بين أسرتى : برغوث وعميرة . وكالمألوف فى تلك الظروف اضطرب استقرار الحارة فأغلقت الدكاكين وصوَّتت النساء وزاطت الصبية ، ووقف إمام الزاوية وهو يصيح بأعلى صوته :
ـ وحّدوا الله . . ما هكذا يُستَقبل الشهر الفضيل . .
ولكن لم يتمكن أهل الخير من التخليص بين الأسرتين قبل أن يصاب منهما رجلان مهمان هما : محمود برغوث والناصح عميرة . وساءت حالتهما وتدهورت ففارقا الحياة فى يومين متعاقبين ، وهل رمضان فى جو من الوجوم والأسى وقال الناس إن هذا لا يرضى الله ولا خلقه ، وإنه يجب وضع حد لتلك العداوة المتوارثة ، خاصة بعد أن اندفع تيارها فى مجرى جديد لم يعد يقنع بالجرحى ولكنه سجل أول ضحيتين له من الموتى . وقالوا إنه على كل صاحب نفوذ أن يتدخل وأن يبذل ما يملك من قوة لإقرار الصلح بين المتخاصمين منذ الزمن السحيق . وبناء على بلاغة إمام الزاوية وضغوط الأهالى قرر شيخ الحارة أن يتحرك . دعا إلى دكانه كبيرى الأسرتين : على برغوث وخليل عميرة . وقدم لهما القهوة وطلب منهما أن يقرءا الفاتحة ويصليا على النبى .

ـ لنطرد الشيطان عن مجلسنا . .

وقلّب عينيه بين الرجلين ثم قال :

ـ ما بينكما قديم ، وضحاياه من الجرحى لا يحصون على المدى الطويل ، ولكن بالأمس القريب مات رجلان ولا كل الرجال ، والموت يدفع إلى الموت والمسألة لم تعد محتملة والجميع يريدون لها أن تنتهى ، فلنحتكم إلى العقل والدين لنصفى الحساب القديم ونبدأ حياة جديدة . . فتوارى كل منهما وراء صمته وعكست الأعين صلابة وضيقا ، فقال الشيخ :

ـ لنطرح أسباب الخصام أمامنا ، وإن لزمت دية دُفعت أو كانت خطيئة كُفّر عنها . . لا داء بلا علاج . . ولا بد للشر من نهاية . .

ولما آنس منهما رفضا وعنادا راح يصارحهما بأن أسرتيهما صارتا تسلية الماجنين من أهل حارتنا ، يضربون بهما المثل فيقولون لبرغوث وعميرة كما يقال عن القط والفأر . يتقبل الكهلان الوقوران منكم فيتبادلان الشتائم ، تتراءى المرأتان فيدور الردح والتشليق ، أما لقاء الشباب فالعنف والدم . ومن عجب أننى لم أعثر على شخص فى حارتنا يعرف لخصومتكما سببا ، أكان زواجا أو طلاقا أو صفقة خاسرة أو جريمة؟ الظاهر أن السبب ذاب فى مخزن التاريخ . وبقيت العداوة وحدها . .

ـ ولكنكما كبيرا الأسرتين ولا بد أنكما تعرفان السر ، فلنطرح السبب بيننا ، وإن لزمت دية دفعت ، أو كانت خطيئة كفر عنها .

ظل جدار الصمت قائما بينهما وبينه فهدهد غيظه وتساءل :

ـ يا معلم على . . ماذا تريد لترضى؟ وأنت يا معلم خليل . . ماذا تريد لترضى؟

وبإزاء استمرار الصمت هتف : «يا صبر أيوب» . . ثم وجّه خطابه لهما :

ـ اكشفا لى عن سبب الخصام .

ثم بعد فترة يسيرة قال برجاء :

ـ حلّفتكما بالحسين أن تتكلما .

لكنهما لم ينبِسا بكلمة ، وفى الوقت نفسه قلقت نظرة حيرة فى أعينهما فاسترد نبرته الحازمة وقال :

ـ لا بد من الكلام ، وإلا دعوت الشرطة والنيابة للتدخل فى الشئون التى تعودنا أن نعالجها بأنفسنا .

ولما قرأ الإعياء فى وجهيهما فض الاجتماع وهو يتمتم : «لنا عودة» .

ومرت بشيخ الحارة فترة بحث وتقصٍّ فسأل الكثيرين من أفراد الأسرتين عن سبب

الخصام ولكنه لم يظفر بجواب، بل وضح له أنهم يجهلون السبب تماما، وكما قال لإمام الزاوية فإنهم يذكرون العداوة جيدا ولكنهم لا يعرفون علة لها. وركبه التصميم فقرر أن يزور الدفتر خانة ثم دعا إلى دكانه كبيرى الأسرتين: على برغوث وخليل عميرة. وقال لهما بثقة هذه المرة:

ـ لا أحد يعرف السبب سواكما، وإن كنتما تجهلانه كالآخرين فإنى على أتم الاستعداد لكشفه لكما..

فسأله المعلم على بحدَّة:

ـ من أين لك تلك المعرفة؟

فأجاب بهدوء الواثق:

ـ فتشت عن ذلك فى دفاتر شيوخ الحارة المعاصرين للأجداد وقرأت فى دفتر أحدهما.. ووقع نزاع فاضح بين برغوث وعميرة..

عند ذاك صرخ المعلم خليل:

ـ كفى.

فسكت شيخ الحارة قليلاً ثم قال:

ـ لم يكن الأمر فاضحا بهذه الدرجة فى الزمن القديم ولكن جرى الزمن وتغيرت القيم فأصبح سبب النزاع مما يوجب الستر، فأجمع المتخاصمون على إغفاله حتى نسى وبقيت الخصومة وحدها تتوارثها الأجيال. وابتسم فى وجهيهما ليخفف من وقع حديثه وقال برقة:

ـ معذرة.. إن هدفى الوحيد هو الكف عن الأذى والعودة إلى حياة الجيران.

مـــــــدد

عرف عبدين يومًا بحكايته التى جرت على كل لسان، ورث دكان العطارة الصغيرة عن أبيه، فيسَّرت له رزقًا موفوراً، وعاش مع أمه بعد زواج إخوته فى بيتهم القائم أمام الزاوية، وتميز بين شباب الحارة برشاقة القوام ووداعة القسمات، ودماثة الخلق وحسن العلاقات مع المعارف والأصدقاء، أما أول ما اشتهر به من الطبائع وألصقها بعقله وقلبه فهو إيمانه بالعرافين وولعه بزيارة أضرحة الأولياء، ولم يكن يخطو خطوة حتى يستخبر أهل الذكر، ويستعطف القدر، وكان لعبدين جيران، صاروا لطول الجيرة وحسن السيرة وكأنهم من صميم الأهل، وكانت لهم بنت تدعى شمائل ولدت بعد عبدين بعامين،

فعرفها منذ كانا يلعبان فى الحارة، أو تجمعهما زفة الفوانيس فى رمضان، وعرفت شمائل بإشراق الوجه وحسن التكوين، وجمال الأدب، أتقنت منذ فترة شئون البيت، وما يلزم ربة البيت من ضرورات وكماليات، وحتى الخط كانت تفكه، فتكتب اسمها كما تكتب باسم الله الرحمن الرحيم.

وكان من المتفق عليه والمعروف فى الحارة أن شمائل هى عروس عبدين، وأن عبدين هو عريس شمائل، وفضلا عن ذلك فقد ربط الحب بينهما، ومهدت البسمات لمعجزة اليوم الموعود.

ولما اقترب الوقت المناسب تحرك طبع الفتى الدفين، وقال: كيف لا يفوتنى سؤال الشيخ لدى كل حركة عادية أو تافهة ولا أقصده فى مصير حياتى، وأخذ بعضه وذهب إلى شيخه العارف بالله الشنوانى بحجرته بأم الغلام، وطرح سؤاله والآخر يقبض على يده ويشم عرقه، ثم قال له الشيخ: اذهب الآن إلى حارتك وانتظر عند مدخلها، وسلِّم أمرك لأول بنت تخرج منها، هى التى تحمل لك سعادتك المقسومة لك فى هذه الدنيا، ولن تحظى بخير منها إلا فى الآخرة.

ورجع إلى حارته وهو فى غاية من التوقع والتوتر، وكان على شبه يقين من البنت التى سيراها، ولكن أين تذهب شمائل فى ساعة الغروب؟ وكان سرحان الأعمى أول من خرج من الحارة، وتلاه غلام يسوق الطوق ويغنى «على باب حارتنا حسن القهوجى»، واشتد قلق عبدين فقال فى سره: «سلمت إليك أمرى يا رب العالمين»، وإذا بصوت ينادى «عال الجوافةو وظهرت عربة يد فوقها هرم من الجوافة تدفعها حليمة، ذهل، لم يحول عينيه عنها، وضحكت هى لما رأته وقالت مداعبة: «واقف مثل غفير الدرك»، ومضت نحو الميدان، سار وهو يقول لنفسه: «يا رب لطفك ورحمتك»، أيعنى الشيخ حقا حليمة بنت أم حليمة بياعة المخلل وابنة المرحوم أحمد المكارى؟ لا أحد فى حارتنا يجهل حليمة، وهى أيضًا تتعامل مع الجميع، ولكنه كما تقول أمها مفاخرة: «رجل بين الرجال»، رغم رشاقة عودها وثرائه. وكانت مقبولة الوجه وجذابة أيضًا رغم قوة نظرتها النافذة، وخلا عبدين إلى نفسه ليتفرغ للحيرة، ويذهب مع خياله ويجىء بين شمائل وحليمة، وشكا سره إلى صديقه الذهبى فقال له:

- أى وجه للمقارنة بين شمائل وحليمة! وأنت عرفت شمائل من خلال الجيرة والمعاملة وشهادة المعارف والجيران، أما كلام الأولياء فليس منزلاً من السماء، ولكن إيمان عبدين بقول الولى كان فوق أى مناقشة، وانتشرت رائحة الخبر رويدًا رويدًا، فأثارت الدهشة والضحك كما بعثت الدموع فى أعين كثيرة، وحصل كلام ونزاع وصراع، ولكن عبدين صمد لكل معارضة بقوة إيمان لا يتزعزع، وفى ساعة العصرية، وقبل أن تتحرك حليمة بالعربة ذهب عبدين إلى حجرتها، بربع الزاوى

وطلب يدها من أمها، وأخذ الخيال يتحول إلى حقيقة، وسمع حمودة فى إحدى الليالى يقول فى الغرزة على مسمع من جميع المساطيل: «المجنونة الجشعة ما أحبت أحداً سواى، ولكن أعمتها صورة دكان العطارة».

وذهبت العروس إلى الحمام لتزيل عن جسدها الممشوق عرق الأعوام وغبار الحارة وفلّت شعرها المسكون، فتبدت فى صورة لامعة وزفت إلى الفتى العطار فأقام معها فى شقة أمام السيرجة، ودعا ربه أن يهبه السعادة التى ضحى فى سبيلها بقلبه وبكل اعتبار.

وكانت أياماً صافية، وانغمس عبدين فى هواه الجديد ليغطى على أصداء حبه الأول ويدفن هواجسه، وفقدت الحكاية جدتها ودهشتها فلم يعد يتندّر بها أحد، وكان يمارس الحياة ويلاحظها بانتباه حتى لا يفوته سر من أسرار السعادة، ومنذ بدأ المعاشرة شعر بقوتها وصلابتها وبأنه يضعف أمام نظرتها النافذة. والحق أنه توقع أكثر مما كان ولكنه أقنع نفسه بأن السعادة الموعودة ليست هبة بسيطة أو إحساساً سهلاً يجود بذاته منذ اللحظة الأولى، إنها حياة عميقة ذات سراديب فلينتظر، أما حليمة فلم تنتظر، سرعان ما ضاقت بحياتها فى البيت، ولم تعد تخفى ضجرها، ولا تمردها على سجنها، وتحير عبدين أمام ظاهرة غير مألوفة فى دنيا النساء. ولكنها قالت له بصراحة وجرأة:

ـ دعنى أعمل فقد خلقت لذلك.

وذهل عبدين، وأخرسه الذهول فاستطردت:

ـ لا يهمك كلام الناس، متى سكتوا عنا؟

وكانت تصر وتصمد وكان ينفعل ويتراجع، ولم تكن تهمه الحوادث، باعتبارها مقدمات لسعادة لا مفر منها، ألم يقل الشيخ الشنوانى كلمته؟

وشهدت الحارة حليمة وهى تشارك زوجها فى دكانه، ورجع الاتصال بينها وبين زبائنها القدامى، فى معاملات العطارة، ورجع حمودة أيضاً بين الغمز واللمز، وكثر اللغط والضوضاء حتى سأله صديقه الذهبى:

ـ أتعجبك هذه السعادة؟

ولكن عبدين بدا صامداً مؤمنا فقال له:

ـ الصبر طيب والنصر قريب.

ولكن حليمة اختفت فجأة، استولت على ما اعتبرته حقها من النقود المودعة فى الدكان واختفت، وبعثت إليه رسولا يعتذر إليه ويطلب الطلاق، كبر كل شىء على عبدين، وقوض الزلزال صبره فبكى، ولما رأى صديقه الذهبى مقبلاً تعانقا بحرارة، وفى أثناء العناق استرد الكثير من روحه الضائعة، وقال لصديقه:

ـ سأطلقها فى الحال.

فلم يخف صديقه فرحه، ونظر عبدين إليه طويلاً فى فترة صمت ثم قال:

ـ إنها ستجرب حظها بعيداً ولكنها ستعود تائبة!

وتنهد ثم قال لصديقه الذاهل:

ـ كلمة الشيخ الشنوانى لا تكذب..

على لـــــوز

شباب البنت سفرجل فترات متعاقبة من الزيجات الباهرة. زفة وقناديل، ورياحين، ومزامير وطبل ورقص، وكمائن للغدر تسيل عندها الدماء وترتطم النبابيت، ثم ليلة زفاف مفعمة بالعربدة، والتأوهات. تكرر ذلك خمس مرات استنفدت شباب سفرجل كله، انحدرت بها إلى طلائع الشيب والكرب، خمس فتوات من عمالقة الحارة، هيأوا لها ـ كلّ على طريقته ـ حياة عز وجاه وسلطنة. وانتهوا جميعا. كل فى موعده. يسقط الرجل قتيلا، أمام فتوة آخر أو حملة من الشرطة أو فى السجن، ويُنهب بيته، وتجد سفرجل نفسها شبه عارية وعلى الحديدة، تبحث عن مأوى حتى يهب لنجدتها أحد أهل التقوى والكرم.

وعقب دفن الزوج الخامس زارت جامع الإمام ووقفت أمام ضريحه، وباحت بمكنون قلبها المكلوم: «أعاهد الله أمام ضريحك على ألا أتزوج من فتوة أبدا بعد اليوم».. وهمست لنفسها: «أعوذ بالله من الفتونة والعنطزة والدم المسفوك».. ولم يكن الضيق بالحياة المضطربة وحده هو ما دفعها إلى ذلك التعهد، ولكنها كانت قد فقدت الشباب والنضارة، وأخذ الشيب يطل من مفرقها وذؤاباتها، فلم يبق لها من جمالها القديم إلا مسحة توارت فى استحياء تحت قناع الكدر والهموم، ولم يعد يعدها الغد إلا بالمزيد من الشيخوخة والفقر. فعزمت عزمة صادقة على مواجهة الحياة بإصرار واستسلام معا رافضة أى إحسان أو صدقة. وكان من ضمن ما أتقنته صنع حلوى «على لوز».. فعملت على إعداد صينية كبيرة منها كل يوم تسرح بها فى الحى فى جولة ثم تجلس بقية يومها عند طرف سلم السبيل حيث يجلس عند الطرف الآخر شحاذ الحارة الضرير، واختارت حجرة فى بدروم بيت قديم مسكنا لها. هكذا رضيت بحياة غاية فى البساطة والقناعة أملا فى الاستقرار والطمأنينة.

وبخلاف الجميع ظلت أم شاور الخاطبة تؤمن بأن حظ سفرجل لم يقل كلمته الأخيرة بعد، وتبادلت معها الحديث يومًا فشرَّقت وغرَّبت، ثم إذا بها تسألها:

ـ عندى فتوة من حارة أخرى معروف بحب العتاقى!

فهتفت سفرجل بحدة:

ـ أعوذ بالله.

وغابت عنها مدة دون أن تقطع منها الأمل. ورجعت لتقول لها:

ـ لن أتركك للتراب، لدىَّ هذه المرة شىء مناسب.

فراحت سفرجل تنادى على «على لوز»، وهى تلحظ أم شاور بحذر حتى أفصحت هذه عما لديها فقالت:

ـ شيال الحمول!

فقالت سفرجل بعتاب:

ـ قلت لك أعوذ بالله من الفتوات وسيرتهم!

ـ شيال الحمول أبعد ما يكون عن الفتونة.

وكانت شهرة شيال الحمول قد ذاعت لطاقته الخارقة على تحمل الضرب فاستعمله بعض الفتوات درعا يحمى ظهره من الضربات الغادرة.. وقالت أم شاور مؤكدة ذلك:

ـ لا قدرة له على القتال، أو هو كما وصفوه جسم فيل وقلب عصفور، فهو عز الطلب.

فقالت سفرجل بحزم:

ـ من أجل علاقته بالفتوات والمعارك أقول حد الله بينى وبينه..

وذهبت أم شاور يائسة تاركة إياها فى دوامة من الانفعال، وإذا بصوت يتسلل إليها قائلا:

ـ أحسنت. ابعدى عن الشر وغنى له..

فنظرت نحو الشحاذ الضرير بدهشة وهتفت:

ـ تسترق السمع!

واقترب الرجل منها، ومد لها يده بقطعة نقود قائلا:

ـ هاتى ما قسم من على لوز.

لم يكن ذلك بأول حوار يدور بينهما ولكنه كان أول حوار ذى معنى. وكان الضرير معلما ثابتا من معالم حياتها. وهو رجل يلفت النظر بعماه وصبره وقوة جسده، وبما ينشده من مقاطع لمدائح نبوية تقربا من المحسنين. ورمقته وهو يمضغ الحلوى باسما فى ارتياح وتمتم:

ـ حلوة من يد جميلة..

فقالت سفرجل ساخرة :

ـ شهادة زور .

ـ بل إننى أرى بأذنى .

فسألته دون مناسبة ظاهرة :

ـ ولماذا تشحذ وأنت رجل قوى؟

فقال محتجا :

ـ أشحذ ! . . أعوذ بالله . . ما أنا إلا مطرب يسترزق بإنشاد المدائح النبوية والإلهية .

وتنحنح ثم أنشد بصوته الجهير :

شربنا الحب كاسا بعد كاس

فما نفد الشراب وما رويت

فضحكت من قلبها أول ضحكة صافية منذ عهد بعيد . واهتمت بمراقبته فى الأيام التالية فأدهشها أن تلاحظ أن دخله يفوق دخلها أضعافا مضاعفة ، ولم تشك فى أنه يكنز النقود حول بطنه فيما ظنته كرشا كبيرة . وأصبحا يتبادلان التحيات والكلام ويتعلل بشراء «على لوز» ليبث فى الاتصال مودة وحرارة . . حتى تشجعت يوما وقالت بإغراء :

ـ غيّر عملك . . هذا أفضل .

ولكنه دافع عن عمله بحماس كالعادة فقالت :

ـ فتح دكان للحلوى أفضل .

فتفكر قليلا ثم تساءل بمكر :

ـ ألا يحتاج ذلك إلى شريك؟

فقالت ضاحكة :

ـ لدىّ شريك جاهز ، فاعزم وتوكل على الله .

قمـــــــر

وذات يوم فتحت البوابة فند عنها صرير هائل ونفض الغبار عن أركان الدار ونوافذها وأبوابها .

وحمل إلى الخارج نفايات الحديقة والأعشاب والغصون الجافة . وذهل الناس ومضوا نحو الدار من البيوت والدكاكين ، يشاهدون الخدم العاملين ويتساءلون . ألفنا على مدى

العمر منظر حارتنا وفى الوسط منها تقوم دار مغلقة نشير إليها عند اللزوم فنقول دار قمر دون أن نفقه للاسم أى معنى، كما نقول أم الغلام وأرض المماليك. ها هى الدار تعد من جديد للحياة، وها هم الخدم يذهبون ويجيئون، وها هو الحنطور يقدم وئيدا حاملا امرأة عجوزا منقبة، وأحاط الناس بالحنطور وارتفع صياح الغلمان، ولما ظهرت العجوز مستندة إلى خادمتين تطايرت كلمات مستهزئة فغضبت المرأة ونظرت نحو الهازئين وصاحت بصوت خلخلته الشيخوخة:

ـ يا غجر.. أنا قمر..

عند ذاك اختفت الأسطورة ورجع التاريخ إلى مجراه، وراح نفر من الباقين من الزمان الأول يروون ما احتفظت به الذاكرة من الحوادث الماضية وينتشلونها من بحيرة النسيان. كانت دار الحاج قمر أفخم دار فى حارتنا، ولكنها تطالع الأعين بسور عال حجرى تلوح من فوقه رءوس نخيل. وكان الحاج قمر أغنى أغنياء الحارة، وملك تجار المسابح والعصى والنشوق المفتخر، واشتهر الحاج بحب زوجته ورعايتها، وهذه بدورها أنجبت له أجمل طفلة فى الوجود أسماها باسمه «قمر»، ولم ينجب غيرها لمرض أصابه فازداد تعلقه بالصغيرة الجميلة، وكانت الطفلة ترى وهى تلعب أمام الدار وهى مستقلة الدوكار مع أبيها، وكان لون بشرتها الأبيض الصافى وسواد عينيها وشعرها من أفتن مفاتنها، وظلت بهجة الأعين وزاد الخيال حتى سرى إليها دفء الأنوثة فحجزها أبوها خلف السور العالى وتوارى نورها عن الأبصار. ويذهب الناس ويجيئون أمام البوابة القائمة تحت التمساح المحنط وهم يحنون شوقا إلى الوجه الصبيح، ويتخيلون صاحبته وهى تنضج، وتستوى على عرش الجمال والأبهة. وتأملت أم حسين الخاطبة الحال ولخصت الموقف فى جملة قائلة: «عشاقها بالمئات أما خطابها الصالحون فواحد أو اثنان»، وحصل كلام من أكبر تاجر ليمون مزكيا ابنه زين للزواج من قمر، فلم يرفض الحاج قمر العرض ولكنه أجل إعلانه حتى تبلغ قمر الثامنة عشرة من عمرها السعيد. وعرف زين بالعريس الموعود، ولم يستطع أحد من عشاقها ذوى الدخل المحدود أن يقلل من شأنه فسلموا للمقادير. لكن ظهر فى الحارة فى ذلك الوقت شاب غريب لفت الأنظار بقامته المتينة وجلبابه الفضفاض ولاسته المزركشة وعصاه الغليظة. لم تربكه الغربة فشق طريقه بثبات إلى المقهى، وجلس إلى مائدة كأنما يجلس فى داره، ولما رأى تطلع الأعين إليه متسائلة قال بهدوء:

ـ محسوبكم عنتر ابن المعلم كفتة..

وسرى اسم أبيه فى الأعصاب مثل قشعريرة الحمى، هو رجل من أطراف الحى ذو سطوة قادرة وسمعة سيئة. وتساءل الناس عما جاء به، وظهر أنه كان ينتظر عودة الحاج قمر إلى داره، فلما عاد نهض من مجلسه وسار نحو الدار فى ثبات للقائه.

لم يعرف أحد ما دار بين عنتر وقمر ولكنهم خمنوا السبب .

وانتشر القلق بين أهل الحارة مثل وجع الأسنان . هل طلب عنتر قمر؟ . . هل تنتقل قمر من دار العز إلى بؤرة الفساد والشر؟ وقلق أيضا شيخ الحارة المسئول عن أمن الحارة وراحة أهلها . وقابل الحاج قمر وسأله عما يجرى فقال الحاج :

ـ طلب عنتر القرب منى فأجبته بوضوح أن فاتحتها مقروءة وأنى لا أرجع عن كلمة أعطيتها . . وبقدر ما ارتاح شيخ الحارة تضاعف قلقه . وقرأ الحاج ذلك فى وجهه فقال :

ـ إنى أعرف أنى رفضت ابن كفتة ولكنى قدها . .

ومرت حارتنا بفترة من التوجس والقلق ، وكل إنسان أدرك أن زفة العروس ستشهد معركة دامية . ولكن من ذا يقف أمام كفتة ورجاله؟

وأجاب الحاج قمر إجابة ملموسة : أؤجر فتى من فتيان أرض المماليك عرف بشدة البأس .

فجاء لحراسة الدار هو وعدد من عصابته . وأيقن أهل حارتنا أنهم سيشهدون معركة حامية بين كفتة وعرجون ، وتمنوا النصر لعرجون إكرامًا لحارتهم وحبا فى الجميلة التى علمتهم الحب .

وأعلن الحاج عن يوم الفرح ومهد له بالمقرئين يتلون القرآن الكريم والمدائح النبوية . وكثرت الحركة وعمّ النشاط واقترب يوم الهنا والدم . ولكن النشاط باخ وهمد وفترت الهمة .

وهمس إمام الزاوية فى أذن شيخ الحارة «فى الجو غيم» .

اختفى صنف العمال ، وسكتت التلاوة ، واختفى الحراس الجدد وفى مقدمتهم عرجون ، والحاج قمر لم يعد يرى ، وخلا مقعده فى الوكالة . وإذا بصيوان ينبئ عن موت ربة البيت . ولم يظهر الحاج لا فى الجنازة ولا فى المأتم وذاع أنه مريض لا يغادر الفراش .

ولم يمض أسبوع حتى لحق الرجل بزوجته .

أهو المرض الذى دهم الأسرة وفرحها؟

وكيف تواجه الجميلة قمر الحياة بمفردها؟

ـ ولكن الدار أغلقت ، وتركت مهجورة خالية لا يخدمها أحد .

ثم عرفت الحكاية دون أن يعرف مصدرها . عرفت الحارة حقيقة مأساتها وهى أن الجميلة المعبودة اختفت فجأة فلم يقف أحد على أثر لها . اختفت فى نفس اليوم الذى اختفى فيه عرجون الذى جىء به لحراستها ليلة زفافها .

واجتاح الحارة غضب وحزن وقنوط لم تشعر بمثله من قبل، قالوا محال أن تكون أحبته أو هربت معه مختارة، لعله خطفها، أو لعله عمل لها السحر والشبشبة.

وشعرنا مع الغضب والحزن والقنوط بالعار، وراحت نخبة من عشاقها تبحث عنها وتتابع أخبارها وتفكر فى إنقاذها ما وجدوا الحيلة إلى ذلك. وعرف أن عرجون استخلص لها حقها فى الميراث بالمحكمة وأنه استولى عليه، وأنه أساء معاملتها، وجرح مشاعرها بالجنايات التى احترف ارتكابها. وقيل إن بعض عشاقها من أهل حارتها حاولوا الهروب بها ولكنهم لم يوفقوا ولم يسمع عنهم بعد ذلك.

ودخل الزمن فى المأساة كما يدخل فى كل شىء فمضت حرارتها فى الانخفاض التدريجى، حتى اعتاد الناس اختفاءها وألفوا تعاسة مصيرها. وأخذت تنسى ويكبر عشاقها ويموتون حتى جاء جيل لا يكاد يعرف عنها شيئا. جيل يعيش أمام دارها المغلقة دون أن تثير فيه أى عاطفة أو تدعوه إلى أى تأمل.. وأصبح مثوى الجميلة أثرا ميتا يدعونه «دار قمر» كأنها كلمة واحدة خالية من أى معنى.

وذات يوم دبت الحياة فى الدار وما حولها. فتحت البوابة. ونفض الغبار عن أركان الدار ونوافذها، وظهرت أرض حديقتها من الأعشاب والغصون الجافة والنفايات، وأقبل الناس من البيوت والدكاكين يتساءلون. وأفعمت أعين القلة المخضرمة بالحنين. وأقبل الحنطور يتهادى حتى وقف أمام الدار. وفى بطء شديد غادرته عجوز منقبة معتمدة على منكبى امرأتين. أحدقت بها الأبصار بين صمت وهمهمة. وارتفعت أصوات الغلمان فى سخرية واستهانة. وبدا أن المرأة غضبت فنظرت نحو مصدر السخرية وصاحت بصوت خلخلته الشيخوخة:

ـ يا غجر.. أنا قمر..!

الزفة الميرى

حارتنا فى شبه عزلة، ويندر أن يمر بها غريب، وأهلها يعرف بعضهم البعض كأنهم أسرة واحدة فإذا وفد عليهم غريب بسبب طارئ كان وفوده علامة من علامات الزمن تؤرخ بها الأحداث، من أولئك شيخ معمَّم اخترق الحارة حال عودته من زيارة المقابر عادلا عن الطريق العام، وفسر ذلك بما تلاه من حوادث عندما أصهر إلى أسرة «شلبية» ومنهم آخر أفندى طرق الحارة كالغائب وجلس فى المقهى ليشرب العديد من فناجين القهوة، وقيل إنه ضل سبيله، والثالث خواجا جاء ليلتقط بعض الصور الفوتوغرافية محاولا التقرب منا بلغة ركيكة مفككة فلم يتم أى تفهم مفيد.

وددنا أن تسير بنا الأمور بعيدا عن أى كدر أو قلق، ولكن فى يوم من الأيام التى تضاربت الأقوال فى تحديده أقبلت علينا جماعة من الأغراب تتقدم فى خطوات ثابتة ثم توقفت فى منتصف الحارة لتتبادل كلمات خافتة. وكانوا تشكيلة غريبة متنافرة. منهم نفر من الأفندية، وشيخان معممان، وفيهم أيضا خواجا يغطى رأسه بقبعة عالية. توقف كل إنسان عن عمله لينظر، وامتلأت النوافذ بالضفائر، وخرج شيخ الحارة من مكتبه ومد إليهم بصره فى توجس وحذر، وتحركت الجماعة ذهابا وإيابا ما بين مدخل الحارة المفتوح على الميدان ومخرجها المفضى إلى طريق المقابر، وجعلنا نتابعهم ونتوقع ما ليس فى الحسبان، واتجهت الأبصار إلى شيخ الحارة فأشار إلينا بالصمت والصبر، أما الجماعة فواصلت مهمتها بفحص الجدران، والسبيل والكُتّاب وحوض مياه الدواب وكشك الحَنفية والقبو. . واهتموا بالأرض المبلطة بالأحجار اهتماما خاصا، ثم رجعوا إلى وقفتهم فى الوسط يتناجون. وارتفعت الهمهمة حتى شعر شيخ الحارة بالحرج، فاقترب منهم فى حذر رافعا يده بالتحية، غير أن أحدهم قال له بلهجة آمرة قبل أن يفتح فاه:

ـ انتظر فى مكتبك.

فرجع الرجل إلى موقفه الأول منطوى القسمات من الخجل والإحراج، واستمرت الجماعة فى المناجاة، وكانوا يشيرون إلى جهات مختلفة أحيانا، كما ندت عن أحدهم ضحكة ثم يتحركون نحو مخرج الحارة، وعبروه إلى الممر الموصل للقرافة واختفوا عن الأنظار، وضجت الحارة بالأصوات وعبر كل عما جال بخاطره:

ـ من يكونون؟

ـ الله أعلم ولكنهم من الحكومة على أى حال.

ـ ولماذا صبحونا بوجوههم العكرة؟

ـ ستخبرنا الأيام فلا تتعجل.

ـ رئيسهم الأفندى الذى يتقدمهم.

ـ وربما كان الخواجا رغم أنه يسير فى الذيل.

وتراوحت التوقعات بين التفاؤل والتشاؤم، وأطلقنا على الجماعة فى أحاديثنا اسم «الزفة الميرى» وقبل أن يفتر الحديث عنا أخبرنا شيخ الحارة أن وزارة الأوقاف قررت تجديد السبيل وإعادة تشغيله، وفسرنا ذلك بأنه أول ثمرة لزيارة الزفة الميرى، وسرعان ما جاء العمال والمهندس ومندوب الوزارة وبدأ العمل، وارتفعت موجة التفاؤل، قلنا إنه ليس من المعقول أن تزورنا زفة طويلة عريضة من أجل تجديد السبيل وحده، وسوف تكشف الأيام عن أعمال أجل، وإذا بشيخ الحارة يبشرنا بأن الحكومة ستقيم سقفا جديدا للكُتّاب، مكان السقف الذى أودت به العاصفة فى الشتاء الأسبق، وقلنا يا لها من زفة

ميرى مباركة! وإن زمن الخيرات هلّ ملوحا بألويته، وبنفس الهمة رم حوض مياه الدواب، كما قيل إن مفاوضات تجرى لتحويل بيت إلى مستوصف، عظيم.. عظيم.. أيتها الزفة.. حقا لقد فقدت الحارة هدوءها، فعمَّها الضجيج، وكثرت المشاجرات، وامتلأت الأركان بالنفايات، وجاء أهل المزاج فأعدوا تحت القبو غرزة، وبوظة للعمال والشباب. وتسللت إليها رموز الدعارة وفاحت الرائحة، فانزعج الناس ودعوا شيخ الحارة لتطهير الحارة مما دهمها على غير توقع، وبسبب ما، لم ينجح الشيخ فى مهمته وقال كالمعتذر:

ـ الضرورات تبيح المحظورات.

وقال إمام الزاوية:

ـ الخير والشر متلازمان كالنهار والليل، ولا خوف على مؤمن.

وانتشر قول بلا أى دليل وهو أن أحد أعضاء الزفة وراء مجمع الفساد تحت القبو.

وثارت اتهامات كثيرة، وأرجعوا كل شىء إلى الزفة الميرى، وغشى الحزن القلوب.

واشتد الشتاء وقسا أكثر من أى عام مضى، وتهكم كثيرون فقالوا: إنه شتاء الزفة الميرى، وإنه يجب أن يحمل طابعها المشئوم، وتوارت الشمس وراء ركام السحب، وهب هواء مزمجر فعصف بكل شىء فانقلبت عربة اليد وطار ما عليها من الفاكهة والخضراوات وانهمرت الأمطار كالفيضان واستمرت بلا هوادة فأغلقت الدكاكين وهرب الناس من بيوتهم، وانفضت تلك الغضبة الكونية ففتكت بما فوق الأسطح من طير وحيوان وكراكيب، وانهار السبيل وتهدم كشك الحنفية وسقط سقف الكُتّاب، وصاح إمام الزاوية من وراء بابها المغلق: «قامت القيامة ولله الأمر!».

ويقول الرواة: إن العاصفة والأمطار استمرت النهار والليل، ولم تسكن ثورة الكون، إلا صباح اليوم التالى.

وراح شيخ الحارة يتفقد الأحوال متوقعا فى كل خطوة شيئا، وعندما اطلع على الممر المفضى إلى المقابر وجده غارقا فى الماء ورأى فوق سطحه بعض الجثث والهياكل العظمية تنحدر بها المياه نحو الحارة.

ورجع الرجل وهو يصرخ بأعلى صوته: كفاكم حديثا عن الحظ والقدر والزفة الميرى، وهبّوا إلى العمل، وإلا اجتاحت الأموات بيوتكم!

ليلة الزفاف

طلعت الأردوازى من الأوائل السابقين إلى ارتداء بدلة الأفندية فى عمارتنا وليلة زفافه تذكر فى الليالى بفضل المنيلاوى الذى أحياها حتى مطلع الفجر.

وجاءوه برجل مبارك ليقرأ طالعه فنظر فى مفرق شعره وتابع خطوط كفه وقال: «من يد واحدة يسيل العسل والسم».

واكتأب العريس مما سمع فطالبه بالمزيد من الإيضاح ولكن الرجل لم ينبس. ونظر العريس فى وجوه الحاضرين وسأل:

ـ ما رأيكم فى نبوءات قراء الطالع؟

فقال صاحب حكيم:

ـ كذب المنجمون ولو صدقوا..

وأسلم الشاب جسده إلى موجة الفرح العالية فغمرته وغسلت ما علق به من كدر وشك.

ولما تجلت نظرة الكراهية السامة بعد ذلك بأعوام طوال، ثم وقعت الواقعة تذكر أناس من جديد نبوءة قارئ الطالع. وثار العجب مرة أخرى وأقبلت الحيرة. لكن ما وقع كان قد وقع.

السعـــــــادة

ـ لماذا قتلته؟

ـ لم أقصد قتله، ضربته بعصاى على رأسه.

ـ كانت الضربة شديدة فقتلته..

ـ قتله أجله.

ـ ولكن بضربة عصاك الشديدة.. والغريب أن الشهود أجمعوا على أنه لم يقع بينكما ما يدعو إلى أى خصام.

ـ لم يقع بيننا شىء، كنا نجلس بركننا المختار فى المقهى لنتسامر كالعادة.

ـ وفجأة ضربته بلا سبب .

ـ ذلك فى الظاهر . أما الحقيقة فهى أننى ضربته احتجاجا على سعادته . .

ـ سعادته؟!

ـ لم أنس بعد وجهه المستدير الممتلئ وعينيه الباسمتين وصحته الصارخة والسرور الدائم الذى يطفر من خديه المتوردين .

وعض على شفته لحظة ثم واصل حديثه :

ـ لم ير فى الدنيا إلا ما يسرُّ، ولا يكف عن الضحك، ويحول بمهارة واستهانة المآسى إلى مهازل، حتى مأساة الموظف المسكين الذى قذف من النافذة هربًا من مصروف البيت . .

وسكت لحظة أخرى ثم قال :

ـ طالما استفزتنى سعادته فكان لابد أن أسوى حسابى معها .

نذير من بعيد

و«حسبو» الذى أنذرنا بخطر لم يقع لنا فى حسبان . كان يبيع الروائح العطرية برزق محدود، أما ثروته من قلوب الناس فلا حدود لها، وأبرز سجاياه كانت الصدق والوفاء . وعرف أنه فى أوقات فراغه يداعب الغناء ويعشق السمر ولا تحلو له الجوزة إلا فيما وراء المقابر .

وعاد يوما من سهرته صباحا شاحب الوجه شارد اللب، وفى وسط الأصدقاء بالمقهى حكى كيف نودى وهو راجع فى الظلام، وكيف وجد نفسه بين أشباح غاضبة، عرف فى سياق حديثها أنها هياكل أموات أهل الحارة السابقين، وأنهم لا يوافقون على ما يرتكب فى حارتهم من فعال منكرة، وطالبوه بأن يكون نذيرهم إلى أهل حارته بأنه إذا لم ترشد أمورهم وتستقم فسوف تزحف عليهم جيوش الهياكل العظمية لتطهر الحارة من الانحراف والمنحرفين .

وضحك البعض . وانخرط البعض فى المزاح، غير أنهم وجموا حيال حزنه الشديد ونظراته الدامعة المنكسرة :

ـ أأنت جاد يا حسبو؟!

ـ ما عرفناك كاذبًا قط .

ـ لكن ما تقول هو المستحيل بعينه .

فقال بصوت متهدج :

ـ جلت قدرته . . يقول للشىء : كن فيكون .

ومن عجب أن بقى أثر من حديث حسبو فى نفوس كثيرة . ردد قوم ما يقال عن سنن الله التى لا تبديل لها ، وانحاز آخرون إلى مقولة قدرته التى لا تعرف الحدود وخاض فى ذلك العقلاء والعامة والسفهاء أيضًا حتى كادت تنشب فتنة . واضطر شيخ الحارة أن يتدخل فصاح فيهم يوم السوق .

ـ ما لكم ولهذه المسائل العويصة ! هل فرغتم من همومكم اليومية !

واستعان بإمام الزاوية ولكن الجدل تواصل واستفحل ، وتبودلت شتائم وحصل اشتباك بالأيدى .

وفى أثناء ذلك كانوا يشيرون إلى نذير الأموات وكأنه حقيقة لا شك فيها . ودون أن يقلل ذلك من الانحرافات التى ترتكب كل يوم وكأنه لا علاقة بين الاثنين .

أما حسبو فقد انسحب من حياة حارته ، وانجذب بكل قواه نحو عالم الغيب ، وتقطعت العلائق بينه وبين الناس والأشياء فانتهى إلى الجلباب الأبيض والعمامة الخضراء والكلمات المبهمة . وكان يقضى أكثر وقته عند طرف القبور متطلعًا إلى الخلاء منتظرًا ما يجىء به الوقت .

الأرض

فى ساعة هدوء وخمول وطمأنينة انفجر الرعب من الأعماق ، واجتاح القلوب وغدر بالآمال فلم يبق إلا المجهول ومادت الأرض ورقصت رقصة الموت فدعا كل لسان بريق جاف أن ينتهى ذلك الزلزال .

وانتهى الزلزال بعد ثلاثين ثانية من الزمن وألف عام من العذاب . وتطلع شيخ الحارة فيمن حوله فرأى الحارة تموج بأهلها من النساء والرجال والصغار ومسحة الرعب لم تنحسر عن وجوههم بعد . واختلطت الأصوات أيما اختلاط . ضحك وبكاء وصراخ . الكل يتكلم ولا أحد يسمع أما الغبار فلم تنقشع سحبه بعد . ومسح شيخ الحارة عينيه بمنديله الكبير المقلم وصاح :

ـ وحدوا الله . . فى يومنا هذا يمتحن الله عباده .

واستبقت إليه الأصوات من كل جانب :

ـ أهلى تحت الأنقاض . . إلىّ برجال الإنقاذ . .

ـ لدىّ جرحى ونريد الإسعاف .
ـ جثث . . هذه جثث ويجب أن تدفن .
ـ أصبحنا ولا مأوى لنا . .
فصاح شيخ الحارة :
ـ أبلغت السلطة وطلبت اللازم . لابد من الصبر لأن الطلبات كثيرة . . تعاونوا ما أمكنكم وليكن اعتمادكم على الله وعلى أنفسكم حتى يجيء الفرج .
وقامت ضجة عند الزاوية المطلة على الميدان . وصوت صرخ :
ـ فضيحة يا شيخ الحارة . .

وشيخ الحارة ذهب صوب الصوت فوجد نفسه أمام عمارة الزنفلى التى سقط نصفها الأمامى تاركا نصفها الداخلى أمام الناظرين . وفى الدور الثالث لم تستطع ست سوسن أن تجد مكانا تخفى فيه جسدها العارى وبالتالى لم تستطع أن تخفى الرجل العارى معها الذى عرض ظهره للأعين ودفن وجهه فى الجدار ، رغم ذلك عرفوه وأكثر من صوت هتف :
ـ المعلم طلبة .
ـ أهلك قادمون ليشهدوا بأعينهم فضيحتك .
ـ الزلزال عقاب وعبرة .
وتساءل شيخ الحارة مغيظًا محنقًا :
ـ أكانت تنقصنى هذه الجريمة فى هذا اليوم الأغبر !
وإذا بإمام الزاوية يحمل طفلة باكية فى السادسة أو دون ذلك فقال لشيخ الحارة :
ـ المسكينة فقدت أسرتها وعلينا أن نجد من يتبناها ، وتنهد شيخ الحارة وغمغم :
ـ فى غمضة عين ليس إلا . . سبحان الله العظيم .

أم الذهب

ضبط شيخ الحارة بنفسه يونس القفا وهو يغوى رجلا حال خروجه من الزاوية لقضاء سهرة هوى . وقال له شيخ الحارة غاضبًا :
ـ جريمتك مضاعفة ، فأنت تقود إلى الفساد ، ولا تكتفى بذلك بل تختار ضحاياك من أهل الصلاة والتقوى . . فقال الرجل بخوف وقهر :

ـ فعلت ما أمرت به .

ـ أجبنى فوراً عند من تشتغل؟

ـ عند ست ربيبة المشهورة بأم الذهب .

كـان بيتهـا خـارج القبو عند حافة القرافة . وكـانت جميلة وافيـة المعالـم . . ولأنهـا تُرى فى الطريـق بوجـه وفى البيت بوجه وفى النهار بوجه وفى الليل بوجه فلم يستطع أحد الجزم بعمرها .

وراقب شيخ الحارة بيتها حتى كبسه فى الوقت المناسب . سقطت المرأة بعد حمل سرى طويل . وقال شيخ الحارة لأم الذهب .

ـ إنى أفهم كل صغيرة وكبيرة فى عملك ولكن يحيرنى أمر واحد ، كيف وجهت خادمك أخيراً لاصطياد المترددين على الزاوية؟

فقالت المرأة بجدية :

ـ عانيت من الآخرين القهر والنهب والعربدة فقلت أجرب الناس الطيبين .

ولم يتمالك شيخ الحارة نفسه من الضحك ولكن المرأة لم تضحك .

تحت العمامة عريس

عائلة الشيخ توكل هى أعجب عائلة فى حارتنا . بها قارئ قرآن ضرير مجدور الوجه يلفت الأنظار بقصر قامته وضخامة رأسه . وربّتها سيدة أقرب إلى البدانة تسيء للناظرين بتشوه قسماتها فهى تحجب وجهها حتى فى بيتها ، أما الذرية فتتكون من شابين وسيمين وبنت كالقمر فى تمامه تسحر اللب والخاطر ، وكل من يرى الأسرة لأول مرة يتساءل كيف حدث هذا؟ كيف تنبثق الأزهار من غياهب البوص؟ !

يقول الرواة إن منيرة كانت حديث الحارة وفتنتها . الأب كان حلوانيًا بسيطًا من سكان الربع وكان يقول : «جمال منيرة لا مثيل له فلنسأل الله السلامة» ولكن الكثيرين تنبأوا بالمتاعب ، وكل واحد تكلم ، وكان الشيخ توكل من السامعين ، وكان له رأيه أيضًا فقال يومًا :

ـ هذه مسألة لا يحلها إلا شيخ الحارة .

فقال له أحد الجالسين فى المقهى :

ـ إنه امتحان خلقه الخالق يمتحن به عباده . .

كانوا يتحدثون عن جمالها وحلو أوصافها وسعادة من يفوز بها . ويشتد النقاش ويحتدم وينذر بالخطر . أما معانيه وأخيلته فتستقر فى قلب الشيخ توكل فيتذوقها فى هدوء رجل قضى عليه بأن يبقى خارج حلبة السباق . ومن كثرة ما سمع خاطب نفسه متأثراً قائلاً : «لا عزاء يا توكل . . ما أنت إلا عاشق صمت» وراح يتلو فى سره سورة يوسف .

وكان يختم تلاوته بالزاوية عندما سمع شيخ الحارة يقول للإمام :

ـ أكان ينقصنى الغرام لأحمله مع بقية الواجبات؟

فقال له الإمام :

ـ استدع عم حسنين أباها وشجعه على أن يزوجها فى الحال .

ـ المشكلة أن جميع شباب الحارة لها خاطبون!

فصاح الإمام غاضبا :

ـ لا يصح أن يزعزع لعب العيال أمن الحارة . .

وخاطب الشيخ توكل نفسه قائلاً : «ما أنت إلا عاشق مهجور ملقى فى الخارج» . وفى تلك اللحظة من الزمان الحزين ألقى ماء النار على الوجه الجميل فى العتمة وصاحبته خارجة من بيت أبيها ذاهبة إلى بيت الجيران . .

وخفق للمأساة كل قلب وانصبت اللعنات على الجانى المجهول الجبان . .

وغاب وجه القمر تحت غيم لا يريم ولا ينقشع . ولكنه ظل هو بكل بهائه وفى قلب الشيخ توكل ، وغمغم مسحوراً «هكذا تجىء الملائكة بالمعجزات» . وقبل أن يتمادى الحزن فى بيت عم حسنين ويفعل فعله ذهب إليه الشيخ توكل مهتديا بعصا وضغط على يده بحنان وقال :

ـ جئتك يا عم حسنين طالبًا القرب . .

القلوب الطائرة

اعتلى منبر الزاوية رجل غريب . . وقبل أن ينال موافقة الإمام على إلقائه الخطبة هتف بصوت جهير : «أيها الناس . . بسم الله الرحمن الرحيم» .

وانطلق يهدر بخطبة لم يسمع الناس مثلها من قبل . لا لأنها أبلغ الخطب ، ولا لأنها أحكم الخطب ، ولكنها كانت أعظم الخطب إثارة وتهييجا ، وصمت المصلون ليتطلعوا

صامتين وملأوا قلوبهم بكلماته النارية ـ أو قل إنها امتلأت تلقائيًا وبغير إرادة ـ وذهل الإمام مع الذاهلين وهمس لنفسه :

«أتوقع عواقب لم تكن فى الحسبان» ولم يتنبه شيخ الحارة لخطورة الحدث إلا حين ترامت إليه تعليقات الناس ، فلما أرسل بصره نحو المنبر ليرى الرجل الذى هيج تلك الزوبعة لم يجد له أثرًا .

وسأل شيخ الحارة الإمام :

ـ أتعرف الرجل؟

ـ أبدا .

ـ كيف سمحت له بالخطابة؟

ـ كما يتفق لبعض الناس فلم أتوقع ما كان يخفى .

ـ وأين ذهب؟

ـ اختفى كأن الأرض ابتلعته . .

على أن الحارة لم تعرف الراحة منذ خاطبها ذلك الصوت . . تحمس له أناس ، واتهمه كثيرون وثار الجدل ، وانقلب فى أحيان كثيرة إلى مشاجرات وسالت فيها الدماء . كل ذلك دون أن يظهر للرجل أثر . ولم يشهد واحد ممن سمعوه أو رأوه أنه من أهل الحارة ، أو سبق أن رئى فى ربوعها أو مقهاها ، حتى قالت امرأة هالها الشجار والدم :

ـ إنه عفريت جاء ليعبث بنا ثم رجع إلى مخبئه . .

وحاول الإمام أن يدعو الناس للكف عن الجدل والخناق ، وحاول شيخ الحارة ، ولكن الجدل كان يزداد والخناق يتضاعف .

وكثرت الأقاويل بلا دليل ، قائل يقول : «كنت راجعا إلى بيتى عند منتصف الليل حين ظهر لى وقال لى . وآخر يقول . . وهكذا . . حتى دخلت الأقاويل فى الأساطير والخرافات وازداد الأمر شدة وارتعب الإمام إذ تصور نفسه يسأل فى وزارة الأوقاف .

وارتعب شيخ الحارة إذ خاف يوم يسأل فى الداخلية . ولم يبق من الواقعة الأصلية إلا صورة باهتة تروى عادة فى صور مختلفة ، كذلك محيت الخطبة المثيرة أو كادت ، ولكن الخصام استمر واشتد وأنذر بعواقب لا تسر أحدًا .

ولم تخف حيرة الحائرين إلا حين وقف أحد المجاذيب على سلم السبيل فى يوم السوق وقال من خلال ريقه السائل : سيجىء الفرج بلا دليل ، كما جاء الهرج بلا نذير .

زغـــــــــرودة

دقت طبول الزفاف وطارت زغرودة إلى السماء. قال زهران بأسى: إنه زفاف ياسمين ومهران. ونظر إلى صديقه مهران بين الورود والأصحاب وقال بدهشة: وها هو العريس يتبختر والحظ يبتسم والدنيا حظوظ.

وقالت له أم إسماعيل:

ـ لا تحزن على ما فاتك، الغيب مليء بالحسان.

ولكن هذه المرأة لا تعرف كل شيء، لا تعرف أننى ومهران بدأنا العمل فى يوم واحد بوكالة القللى. وأحببنا ياسمين حب الجار للجارة فى عام واحد. وراح هو يدَّخر الفائض من مرتبه، أما أنا فظننت أن أى ادخار لن يكفى ثمنا لمهرها فرُحت ألهو وأقتنى دواوين العشاق. حتى انتبهت ذات يوم على خبر يجرى ما بين القبو والميدان معلنا خطبة ياسمين ومهران.

ـ يا أم إسماعيل، خسرتها لأننى عرفت قيمتها الحقيقية..

فضحكت المرأة لتهون عليه وقالت:

ـ أو لأنك لم تعرف قيمتها، وسوف آتيك بأحسن منها.

الشحـــــــاذة

وكعادتها سألت نفسها: ما الحل يا أمونة؟

وجالت فى عوالم خبرتها المحدودة ثم قررت أن تعمل شحاذة. ولم تخف قرارها عن ابنتها الوحيدة. وفزعت الشابة ولكنها لم تجد ما تقوله. فالمشكلة هى مشكلة أطفالها الأربعة الذين مات أبوهم قبل الأوان تاركًا الزوجة والأبناء للضياع. وقالت الزوجة بأسى شديد: «كان أبوهم موظفًا وكان يرجو أن يسير أبناؤه فى طريقه، لا كما يسير أبناء الشوارع» فقالت أمونة الجدة بإصرار لا يناسب عمرها المتقدم: «سيسير الأولاد فى الطريق المرجو» واتخذت قرارها.

وكلما جاء الليل التفت فى جلباب أسود ومضت إلى الأطراف البعيدة من الحى. تسدل النقاب على وجهها النحيل الجاف وتمد يدها.

وخطب تاجر ميسور الأرملة الشابة فشجعتها أمها على الموافقة قائلة:

«مازلت شابة ولابد لك من رجل» وذهبت الأم مع زوجها وبقيت الجدة ترعى وتربى وتشحذ فتجمع رزقا وفيرا.

لكن الوقائع لا تتوافق دائمًا مع الرغائب. انكشف السر فى أحد الموالد وحمله غواة الأذى إلى كل مكان. وتداوله ناس كفضيحة ما بعدها فضيحة وعبث به آخرون فجرى مجرى المزاح والمجون.

ولم يحتمل بيت أم الأولاد الخبر فسرعان ما طلقها زوجها، فرجعت إلى أمها مقهورة باكية حتى صاحت بها أمها: «لا حيلة لك إلا البكاء، وهل فعلت ما فعلت إلاَّ دفاعا عن أولادك؟!».

وجالت العجوز فى عوالم خبرتها المحدودة ثم قررت الهجرة إلى مكان لا يعرفهم فيه أحد لتكمل فيه رسالتها.

القانـــــون

غادر حافظ السيد السجن بعد تأبيدة التهمت من عمره ربع قرن بلغت به الخامسة والأربعين. رجع إلى الحارة بقلب ملؤه الشوق والحذر ولكنه لم يكن يعرف أحدًا ولم يعرفه أحد. وجد الحارة مشغولة بالبيع والشراء والضحك والحزن والصخب. وبدت ناسية تمامًا لعهد البطولة والأبطال. ترى هل ضاعت التضحية هباء؟.. وها هى عينه الحائرة تستقر على لافتة فى أعلى وكالة كبيرة سجل عليها «الرمامى وأولاده» وراح يتذكر القدر وهو يلعب بالبطولة والخيانة ويوزع الأبطال والخونة ما بين السجون والمتاجر.

ودعاه شيخ الحارة إلى مقابلته فى دكانه فمضى إليه.

دعاه للجلوس وقال:

ـ أهلا بك فى حارتك مرة أخرى.

فغمغم الرجل بشكر الله فقال شيخ الحارة:

ـ يجب أن تعمل.. فى السوق متسع وأنت متعلم.

ـ تلزمنى فترة قصيرة للراحة والتفكير.

فقال الشيخ بقوة:

ـ احذر الفراغ فإنه رفيق سوء.

ـ فترة قصيرة فقط . .

فقطب شيخ الحارة متسائلا :

ـ أترغب فى الحياة حقا أو رجع الشيطان يساومك؟

فقال بعجلة :

ـ انتهى الماضى بخيره وشره . بأبطاله وخونته!

فقال شيخ الحارة بحدة :

ـ لا تعد إلى تلك الأوصاف، ولا تذكر ثانية الأبطال والخونة، الأمور نسبية ولا تنس أننى صوت القانون ويده فى هذه الحارة .

فأشار حافظ السيد إلى الوكالة وقال :

ـ هذه الوكالة فتحت بالمال المدفوع ثمنًا لخيانتنا، فكانت الوكالة فى ناحية والسجن والمشنقة فى الناحية الأخرى، وأنت رجل على أى حال من أبناء حارتنا فهل ترضيك هذه القسمة؟

فقال شيخ الحارة بحزم :

ـ يرضينى ما أجد القانون عنه راضيًا، وطبعًا أنت تعرف أنك مراقب، وأنا لا أحب أن أراك فى الحديد مرة أخرى وحسبك ما ضاع من عمرك .

ومد له يده قائلاً :

ـ اذهب بسلام .





فتوة العطوف

مجموعة قصصية

المحتويـــات

أول إبريـــل

فى منتصف الساعة السابعة صباحا وصل على أفندى خليفة إلى المدرسة التى هو سكرتيرها، كعادته منذ خمسة عشر عاما، وباشر أعماله بالأسلوب الذى تعوده وألفه وصار قطعة من صميم حياته؛ إذ إن كل ساعة من حياته الحكومية كانت تسير على وتيرة واحدة لا تتبدل ولا تتغير: يدخل إلى «حجرة السكرتارية» فيحيى زملاءه - الكاتب والضابطين - تحية الصباح، ويجلس إلى مكتبه ثم يحضر عم خليل بالقهوة والماء المثلج، فيمضى فى احتسائها وهو يتحدث إلى القاعدين أو يستمع إليهم، ثم يأخذ فى فتح الدفاتر ويراجع ويكتب. ثم تخلو الحجرة حين يذهب الآخرون إلى فناء المدرسة لمراقبة التلاميذ وتنظيم صفوفهم، ثم يخف بعد ساعة من الزمن إلى لقاء الناظر لعرض الأوراق واستشارته فى بعض الأمور وتلقى الأوامر والإرشادات. وإذا جاء اليوم الأول من الشهر ازدحمت حجرته بالمدرسين والموظفين وامتلأت يده بالأوراق المالية، فلا يزال يوزعها حتى لا يبقى إلا وريقات معدودة يودعها جيبه ساعة ريثما يوزعها بدوره أشتاتا على صاحب البيت والقصاب والبدال.

هكذا تدور عجلة حياته، فتبدأ من نقطة وتعود إليها، ثم تبدأ وتعود بحيث لو شذت عن الخط المرسوم بمقدار ذرة - كأن يتأخر عم خليل بالقهوة دقيقة أو يدق الجرس فيبطئ الضابط لحظة فى مغادرة الحجرة - قلق واضطرب واهتز رأسه يمنة ويسرة مثله مثل النائم

فى ظل ساقية دائرة إذا وقف الثور لعلة انتفض مستيقظا منزعجا! إلا أن طارئا من الحدثين نزل بساحته أخيرا فبدل طمأنينته رعبا وسكينته قلقا وتفاؤله تشاؤما. وكان الكاتب يعلم بخبيئته من دون الآخرين لأنه كان أحب الناس إليه وأقربهم مودة إلى قلبه، فلما رآه هذا الصباح دنا منه وفنجان قهوته فى يده وسأله همسا:

ـ كيف حالك. . ؟

فأجابه بصوت تمزقه نبرات اليأس:

ـ يسير من سيئ إلى أسوأ.

ـ ألا يوجد بصيص أمل. . ؟

ـ أبدا. . أبدا. . لا بيع ولا شراء. . الحركة راكدة. . والديون متراكمة. . والتجار يطالبون ويلحون ولا يعذرون، وبات شبح الإفلاس منى قاب قوسين أو أدنى. . فإذا وقع ـ ولا مرد له ـ خربت خرابا تاما ودمرت حياتى وحياة أولادى تدميرا وهويت إلى أعماق السجون.

فتنهد على أفندى من قلب مكلوم وقال بصوت خافت:

ـ لا أمل فى النجاة.

فسكت الرجل محزونا، ثم ذكر أمرا فسأله:

ـ وعمتك. . ؟

ـ أف. . أف. . لا رحمها الله فى دنيا ولا آخرة. . إنها تود لو تفقد ذاكرتها كيلا أخطر لها على بال. . ولقد انقطعت عن زيارتها مضطرا منذ حين لأنها لا ترانى حتى تصيح فى وجهى: «ماذا جئت تصنع؟! أنا لم أمت بعد!». والمرأة تتبرع كل يوم بمئات الجنيهات للجمعيات الخيرية لا حبا فى الخير ولكن كيلا تخلف لى مالا بعد موتها المتوقع يوما بعد يوم.

فهز الرجل رأسه أسفا وقال:

ـ ليتك يا على لم ترم بنفسك فى ميدان التجارة غير المأمون. .

ـ هذا هو الكلام الذى لا جدوى منه. . ومع هذا هل تنكر أن هذه التجارة هى التى يسرت علىَّ أمرى وجعلت عيشى رغدا. . وأعانتنى على تربية ستة من الأبناء؟

* * *

قبل ثلاثين عاما كان على أفندى تلميذا بالمدرسة الابتدائية يجتهد فى أن يفوز بشهادتها، وقد جرب حظه مرات فى سنين متتابعة، فخاب مسعاه فيها جميعا، حتى نفد صبره وذوى أمله. ورأى أبوه أن يفتح له حانوت عطارة فى الغورية، لبث فيه عامين يناضل فى معترك الحياة، ولكن لم يكن حظه فى حانوته بأسعد منه فى مدرسته، فاضطر

إلى إغلاق الدكان ورجع خائبا إلى بيت أبيه . وهناك فكر فى أمر مستقبله طويلا فوجد أن خير طريقة ، أو أن الطريقة الوحيدة الباقية لديه هى أن يعود إلى نبش كتبه التى نسج عليها العنكبوت ، وأن يجرب حظه مرة أخرى كتلميذ مجتهد وإن تقدم به العمر . وفعل ونجح ، ووظف كاتبا فى وزارة المعارف ، واطمأن إلى الحياة بعد أن أشرف على اليأس والقنوط ، وغبط نفسه على عمله المضمون الرزق ، وأحس فى أعماق نفسه بفخار الرجولة ونشوة الاستقلال . ولما كان عرضة للنقل إلى أقاصى الوطن ، آثر ـ عن حكمة ـ أن يتزوج . وقد جاب مختلف البلدان فى مصر العليا والسفلى إلى أن انتهى به المطاف رجلا فى ذروة الرجولة إلى مدرسته الحالية فتقلب فى وظائفها جميعا حتى رقى إلى وظيفة السكرتير .

وكان على خليفة مثالا للرجل العادى الذى لا يخرج عن المألوف ، وأنموذجا صادقا للأخلاق المصطلح عليها والعادات والتقاليد التى يجرى بها العرف ، لا يشذ إلى اليسار ولا يجنح إلى اليمين . وجد كل شىء جاهزا فهش له وآمن به واتبعه ، معتقدا مع المعتقدين ، مستحسنا مع المستحسنين ، ساخطا مع الساخطين . فإن عرفت جيله فقد عرفته بغير مخالطة ، وإن خبرته فقد خبرت جيلا أو ـ وهو الأقرب إلى الحقيقة ـ خبرت الشطر الجامد من الجيل الذى يفتحه التاريخ إلى ما وراءه من الأحداث التى تخلق التاريخ . ولما تزوج استولت عليه الحياة الجديدة ، واستبدت به ، وتكشفت له حقيقته ، فإذا به «رجل بيت» بكل معانى الكلمة . فالبيت مأواه ولذته ، لا مقهى ولا ملهى ولا سينما ولا حانة ولا أصدقاء ولا هوية ولا أى شىء فى الوجود بقادر على أن ينتزعه من أحضان بيته . وحين كان يعيش منفردا مع زوجة كانت حبيبة وأنيسة وجليسة ، فلما انبثت ذريته ـ بنين وبنات ـ حابية ساعية مشرفة على أنحاء البيت كان له منها الحبيب والهوية والمأوى يسكن إليه .

وكانت الحياة تسير فى بادئ الأمر هنيئة جميلة ممتعة ، لا يكدر صفوها مكدر ، ولا يظلل صفحتها البيضاء ظل من الحزن أو الفكر ، ولكنها لم تلبث أن فرضت عليه ضريبتها التى لا تعفى منها أحدا من بنى الإنسان ، حتى صارت عنوانا عليها ورمزا لها ، وباتت الشكوى منها إنكارا للحياة نفسها وجهلا فاضحا بأمرها ، فمات أبوه ونما أطفاله صبيانا وغلمانا وهجروا عشهم سعيا إلى المدارس الأولية والابتدائية ثم الثانوية ، وتعددت حوائجهم ، وتشعبت مطالبهم وتضاعفت نفقاتهم يوما بعد يوم ، فانقلب يسر الحياة عسرًا ، وراحتها تعبا ، وابتسامتها تجهما ، وانسابت الهموم إلى جانب من قلبه ، وطفق يردد لنفسه أن كل شىء يهون إلا أن يشقى أو يشكو هؤلاء الأبناء الأعزة .

وتذكر أن له عمة أرملة غنية تعيش بمفردها فى بيت كبير تحت رعاية ممرضة ، وكان يتجافاها وينفر منها من طول ما بث أبوه فى نفسه ، ففكر فى أن يقصد إليها مضطرا .

وكانت عمته امرأة فى السبعين، مات عنها زوجها - قبل أربعين عاما - وهما فى زهرة العمر وميعة الشباب وخلف لها ثروة طائلة وطفلا وحيدا، وقد ترك موت الزوج فى نفس المرأة آثارا عميقة مروعة تعلغلت فى صميم حياتها، ولم تعف مع كر الأعوام ودوران السنين. وأقبلت على العزاء الوحيد الذى بقى لها فى دنياها تمنحه كل ما فى قلبها الحنون من عطف وحدب وتضحية، حتى شب طفلا جميلا، ونما شابا رقيقا نحيلا. وبدأت تفكر فى أمر زواجه، كى تراه رب أسرة وتسعد بمشاهدة ذريته، إلا أن الأقدار فاجأتها بما لا يقع لها فى حسبان، فتردى الابن كما تردى أبوه العزيز من قبل مصدورا ميئوسا منه، وقضى بين السعال من جانبه والتنهد والبكاء من جانبها.

انتهى كل شىء وأقفرت الدنيا من الأمل والعزاء، وماتت حية ودفنت مع ولدها الحبيب كل ما ميزها الله به عن الأحجار الجامدة، وصدق عليها كل ما وصفها به أخوها من قبل وما يصفها به ابنه الآن. فهى المرأة العجوز القاسية المجنونة التى تكره الخلق وعلى رأسهم أقاربها، وتسىء الظن بكل من يتقرب إليها وتخال أى زائر طامعا فى أموالها، وتقضى حياة الكبر طريحة الفراش مريضة القلب تسهر عليها ممرضة فى بيتها المهجور كأنها مومياء فى أحد معابد الكرنك الحزينة.

هذه هى عمته التى قصد إليها بعد أن اشتدت وطأة الحاجة عليه، وقد استقبلته استقبالا باردا جافا فلم يأنس فى نفسه الشجاعة أن يفاتحها فيما جاء من أجله، وبرح بيتها أشد بؤسا مما طرقه.

وقلب مسألته على جميع الوجوه فلاح له أن يشتغل بالتجارة، وهو حل لا بأس به ولكنه شديد الخطورة بالنسبة لموظف حكومى. ولكنه لم ييأس واستعان بالكتمان والخفاء وبخبرته التجارية التى اكتسبها فى أول عهده بالحياة العملية. فاتجر فى العطارة ونجحت تجارته، وأقبلت عليه الحياة رغدة. ولكن حال النجاح لم تدم؛ فساءت الأمور وركدت السوق النافقة، فجزع واشتد جزعه، ولعبت يداه فى الدفاتر بغير الحق، ولم ينفعه تلاعبه شيئا، وسارت الأمور من سيئ إلى أسوأ، واضطر - تحت تأثير الخسران - إلى زيارة عمته مرات وفاتحها - على رغم تردده - فى طلب المعونة ولكنها كانت أشد عليه من حظه ومن الأقدار جميعا، فرفضت أن تمد له يدا أو أن تعيره أذنا صاغية.

وفى ذلك الوقت بلغت الأمور شدة الفيضان الذى لا يكون وراءه إلا الانفجار والهلاك. فالعمة فى أشد حالات الشذوذ وسوء الطبع والمرض، وعلى أفندى على شفا جرف هار من الخراب والدمار، والتجار متذمرون جزعون، يطالبون ويلحفون ويطبعون على آذانهم فلا يسمعون، وقد عينوا له أول إبريل كآخر منزع فى قوس صبرهم، فإن لم يسدد دينه ويسو حالته أشهر إفلاسه، وليكن ما يكون بعد ذلك من رفته من وظيفته أو

إيداعه السجن . . كل هذا ينتظره فى أول إبريل . . ! وما بينه وبين أول إبريل إلا أيام معدودات! . . وقد نفدت حيلته وسدت فى وجهه المنافذ! . . ثم ماذا يكون من أمر هذه الأسرة التى هى ثمرة حياته ومحيا آماله؟! هذه الأسرة التى تعيش سعيدة مطمئنة غافلة عما يهددها من الشقاء والبأساء، اللهم إلا ربتها الصابرة القانتة التى تشارك الزوج أحزانه وتبادله همومه وتكتم فى قلبها الكبير ما لو أطلقته لأحرق الدنيا بأسرها من شدة ما به من هول، ولأحرق أول ما يحرق هؤلاء الأبناء السعداء الذين يمرحون سادرين كالأفراخ اللاعبة الغافلة عن القط الرابض لها من قريب . .

وذكر فى شدة حزنه أبناءه، فهرعوا إلى مخيلته فى صورة تفيض حياة وجمالا . وكان حسين ومحمد فى المدرسة الثانوية فتيين ناميين يحملان طلعة والدهما ورقة أمهما، وهمام وحافظ وياسين فى المدرسة الابتدائية وهم حياة البيت يحيا ويمتلئ هرجا ومرجا ما داموا فيه، ويسكن سكون المقابر إذا غابوا عنه، وزينب أو زوزو فى المدرسة الأولية هواية الأسرة ولعبتها، صبوحة الوجه، سوداء العينين، مرسلة الشعر . كانت بنتا بين ستة ذكور كالياسمينة وسط باقة من الورد الندى، حبيبة إلى كل قلب، عزيزة على كل نفس، حتى لكأن هذه الأسرة لم يتزاوج فيها الوالدان ويولد الأبناء إلا ليهيئوا المقام لزوزو حيث كانت حسن الختام ونقطة الانسجام .

فماذا يكون من أمرهذه الأسرة من بعده . . ؟ بعد أن يرفت من وظيفته ويزج به فى السجن . . ؟ أواه! دون ذلك ويمكن المستحيل وتقع المعجزات والخوارق . . ! !

ولم يجد مناصا من أن يذهب مرة أخرى إلى عمته علها تلين بعد طول التصلب والصلف والقسوة، فسار فى طريقه إليها ـ وكانت تقيم على مدى منه قريب فى شارع محمد على ـ مهموما متضايقا يعمل ألف حساب لتلك الزيارة الاضطرارية الثقيلة .

يا لله من هذه المرأة . . ! ما لها لا تموت . . ؟ إن حياتها فرض ثقيل عليها وعليه، وإنها كالبنيان المتهدم ينعق فيه ناعق الخراب والمرض، ورغم هذا فذيول الحياة لا تزال متشبثة بها . إن سعادة نفوس عزيزة رهن بموتها فلم يبق الله عليها؟ والمضحك المؤلم أنها قد تموت فجأة بداء قلبها بعد اليوم الأول من إبريل بساعات معدودات أو بعد القضاء عليه وعلى أسرته القضاء المبرم . وقد ينفذ هذا القضاء العجيب كما ينفذ أمثاله كل يوم وكل حين مما تحتار فى تعليله العقول . وقديما وقف موسى الكليم حياله جزعا لا يستطيع معه صبرا! وطرق الباب ودخل حيث قابلته المرضة بابتسامة صفراء ذات معنى، فسألها :

ـ كيف حالها؟

فأجابته ببرود :

ـ بخير .

ووصل إلى مسمعه صوت رفيع مبحوح دلت بشاعته على أنه يخرج من فم خرب يسأل :

ـ من الذى تكلمين يا عائشة؟

فارتجف جسمه وسرت فيه قشعريرة مثل مس الكهرباء ، وتردد ، وجمد ، ثم كز على أسنانه ودخل إلى الحجرة وهو يقول :

ـ أنا على . . كيف حالك يا عمتى؟

فدمدمت وقالت بتأفف وتبرم :

ـ على؟!

فحنى رأسه ووقف صامتا وعادت هى إلى سؤاله قائلة :

ـ هل جئت حقا لتطمئن على صحتى؟!

ـ نعم .

ـ وهل يهمك أمر صحتى؟

ـ طبعا .

ـ إذن لِمَ تخلط السؤال عنها بسؤال شىء آخر؟!

فضرب كفا بكف وقال بصوت حزين :

ـ لا تظنى بى الظنون . فقد عشت دهراً لا أسألك شيئًا ثم . . .

ـ ولم تكن ترينى وجهك بتاتا . . ولم تكن صحتى أمرا يهمك السؤال عنه . .

ـ بالله أعيرينى أذنا صاغية . . لقد شرحت لك أحوالى . . أنا مهدد بالخراب بين لحظة وأخرى . اصرفينى عن ذهنك واذكرى أبنائى البؤساء وما ينتظرهم من شقاء . .

ـ لم أر أبناءك طول حياتى

فآلمته لهجتها التهكمية وحمى رأسه بنار الغضب ، ولكنه لم يكن فى حال يأذن له بإعلان ما يبطن ، فنظر إليها نظرة النمر الواقع فى الشرك وقال وهو يجهد أن يجعل صوته هادئا :

ـ إذا منعت عنى يدك دمرت لا محالة .

وهنا هبت قاعدة فى فراشها وصاحت فى وجهه :

ـ فى داهية!

ـ عمتى . .

ـ لست عمة لأحد .

ـ لا تكونى هكذا.

ـ هكذا أنا.. اغرب عنى. ولا ترنى وجهك مرة أخرى.

وحاول أن يقول شيئا ولكن لم يسعفه الكلام فجمد لحظة حيث هو ملتهب العينين، محمى الرأس، مرتعش الأطراف، ثم غاب عن ناظريها.. ولقى فى الخارج الممرضة واقفة تنصت، فقابلته بنفس الابتسامة وقالت:

ـ ككل مرة؟!

فهز رأسه غاضبا وقال:

ـ إنها شر ما فى الوجود.. إننى أعجب كيف يؤاتيك الصبر على معاشرتها؟

ـ إنى أقوم بواجبى.. وهى على كل حال لا تعاملنى نفس المعاملة..

وتوقف لحظة لا يدرى ما ينبغى أن يفعل، فلاحت منه التفاتة إلى مائدة صغيرة رصت عليها زجاجات الدواء، فتنهد وقال بغير وعى:

ـ لو يتأخر عنها الدواء دقيقة!

ولم تكن المرة الأولى التى تسمعه فيها الممرضة يقول هذا القول فارتاعت لتكراره ورددت قوله مرتعبة:

ـ لو يتأخر عنها الدواء دقيقة؟!

فنظر إليها بسرعة مرتجفا والتقت عيناهما لحظة فلمع بينهما ما يشبه البرق، ثم خرج مهرولا وهو ينتفض من هول ما خطر على باله، وهبط السلم مسرعا كأنما يفر فرارا..

* * *

وجاء اليوم الأول من إبريل، والأيام تسير فى دائرتها المفرغة غير عابئة بما تحمل للناس من مسرات وأهوال لا اختلاف فى هذا بين يوم التطير أو يوم التفاؤل، ولم يكن هذا اليوم جديدا فى العام ولا جديدا فى حياة على أفندى، ولكن خيل إليه هذا الصباح أنه يستقبله لأول مرة فى حياته، بل عجب كيف أمكن أن يوجد كبقية الأيام، وكيف أمكن أن يأخذ مكانه الطبيعى بين أيام السنة وهو يحمل له نذير الخراب ولأسرته الشقاء والفناء!..

أواه! إن موعده مع التجار أصيل هذا اليوم، ولدى هذا الأصيل يتقرر مصيره. وإنه ليعلم علم اليقين أى طريق هو موليها بعد حين قليل.. بعد ساعات سريعة الجريان..

ومع هذا فها هو ذا يجلس إلى مكتبه يرتشف القهوة ويقلب الأوراق ويشترك فى الحديث مع هذا وذاك، وكل من حوله منصرف إلى عمله، والتلاميذ فى الفناء يضحجون ويلعبون، والحجرة هى هى، والمدرسة هى هى، والدنيا هى هى، كأن شيئا لن يحدث وكأن دمارا مروعا لا يوشك أن ينزل بحياة أسرة كبيرة فيذروها ذر الرياح!

والمضحك بعد هذا أن يقال إن الإنسان حيوان عاقل، وهل يستطيع إنسان أن يرد بنور عقله قضاء يعجز الحيوان عن رده لانعدام عقله؟ ها هو ذا لا يستطيع أن يصرف عن نفسه دمارا يعلم به قبل وقوعه، وكم غير هذا الدمار - مما يجهل - قريب لا يستطيع حياله تصريفا. حقا إن الحياة مأساة مؤلمة مضحكة، ما الذى ينبغى أن يفعل؟ . . إنه يطرح على نفسه هذا السؤال للمرة المائة والألف ولا يملك إلا تكراره وترديده كالمخبول. . وقد سمع فجأة صوتا يقول:

- حان الميعاد. .

فارتجف جسمه وانخلع قلبه فى صدره. . الميعاد. . إنه لا يفكر إلا فى ميعاد واحد، ولكن الصوت استطرد مرة أخرى ضاحكا:

- الساعة تدور فى الحادية عشرة، فهيا إلى الوزارة لإحضار المرتبات. .

حقا إن اليوم يوم المرتبات، ينتظره آلاف غيره بفارغ الصبر، فكيف ينسى هذا؟ وخرج متثاقلا مهموما يولى وجهه شطر الوزارة. وعلى حين فجأة وبغير تمهيد واع اصطدم فكره الشارد المتوزع فى محيط الشقاء بفكرة وامضة، فتنبهت حواسه، وشع من عينيه بريق خاطف، وأحاط به الرعب الذى مسه حين التقت عيناه بعينى الممرضة فى بيت عمته بالأمس القريب. لاحت له هذه الفكرة فى لحظة سريعة جنونية، رآها كمن يفتح عينين ناعستين فى الظلام فتلمحان على غير توقع شبح شيطان نارى، يهدد ثانية ثم يختفى تاركا خلفه الصرع والجنون. وقد جن بغير شك، واستولت عليه الفكرة بقوة مارد مستبد. أى رعب، أى شر، أى مصيبة، أى اتجاه، أى فكرة نيرة، أى خلاص، أى دمار، أى هول!! إنها تحمل جميع هذه المتناقضات إلى نفسه المضطربة المريضة، وإن من اليأس ما يعجز عن قلقلة ذرة من الرمال، ومنه ما يزحزح الجبال.

وقد جرى منطقه المحموم فى طريق ذى عوج: إذا سرق كان جزاؤه المحتوم الرفت والسجن، ولكن إذا لم يسرق لم ينج لا من الرفت ولا من السجن. . إلا أن النتيجة مع السرقة تختلف، فهو بها يستطيع أن يكسب التجار وينقذ تجارته فيضمن لأسرته - وأسرته هى قطب تفكيره - حياة رغدة سعيدة. بل إنه ينوى ما هو شر من هذا وأعظم رعبا، إنه ينوى أن يراود الممرضة - بسلطان المال - على. . ! حقا إن هذا فظيع مخيف. . ولكن تأخير الدواء لحظة كفيل بالقضاء على تلك المرأة الشريرة، التى تقع من حياته موقع الزائدة الدودية الملتهبة. . حقا إنها جريمة نكراء ولكنها مضمونة العاقبة وعادلة من الوجهة الإنسانية. . ونفاذها يضمن لأسرته أرغد العيش وأطيبه. وهب أن الممرضة أبت عليه تحقيق غرضه فلن يضيره إباؤها شيئا، وتبقى بعد هذا تجارته، وهذا شىء مؤكد. نعم إن السجن لا مفر منه ولكنها سنوات سوف يقضيها - مع الاطمئنان على أسرته - صابرا

ويخرج بعدها كى يتمتع بعيشة هانئة ثرية فى مكان سحيق . . كل هذا واضح بين ولابد من تنفيذه بدقائقه، وليكن بعده ما يكون . .

واستلم المال واستقل «تاكسى» وقال للسائق بصوت حاول ما استطاع أن يجعله هادئا : إلى شارع محمد على . نعم إلى البيت لا إلى المدرسة حيث يجد متسعا للتفكير والتدبير . كم هو مرتعب خائف! إن أسنانه تصطك، وأطرافه تنتفض، وأجفان عينيه تتصلب، وريقه يجف، وأنفاسه تبطئ وتثقل كأن يدا جبارة تخنقه . .

ووصلت السيارة إلى شارع محمد على . ود لو لم تصل إليه قط . وكان قد دبر الأمر كله فى عقله، ولكنه شعر فى تلك اللحظة بأنه فى حاجة إلى معاودة التفكير مرة أخرى من مبدئه، كأنه لم يطرقه بعد . وهنا اعترضت الطريق عربة كبيرة عرقلت حركة المرور فاضطر السائق إلى إيقاف السيارة، فنظر إلى الأمام ليستطلع ما هنالك فرأى العربة وإلى جانبها شرطى يهدد سائقها . رباه! لقد أرعبه مشهد الشرطى وأثلج دمه فى عروقه، وهمَّ أن يأمر السائق بالرجوع . . وعلى حين فجأة سمع صوتا يناديه قائلا :

- بابا . .

فالتفت مذعورا، فرأى زوزو واقفة على سلم السيارة، ووجهها الجميل قريب منه، وكانت تمسك بحقيبتها فى يد وتعالج بالأخرى الباب لتدخل إلى أمها . فلما كان لها ما أرادت جرت إليه فرحة مسرورة، فمنعها بيده وسألها بسرعة ولهجة جافة :

- لم أنت هنا؟

- أنا آتية من البيت حيث كنت أتناول غدائى وذاهبة إلى المدرسة .

- حسن . . حسن . . هيا إلى المدرسة بسرعة لئلا تتأخرى .

- انتظر، عندى لك خبر سار . . هل تشترى لى شيكولاته نسلة إذا قلته لك؟

- ليس الآن . . هيا . . هيا . .

- عمتك . .

- فجمد لسانه فى فمه ونظر إليها نظرة غريبة ففرحت البنت لأنها لفتت انتباهه إليها وقالت :

- ماتت .

- ماتت عمتى؟!!

فرت هذه العبارة من فمه فى صراخ مدو . . فازداد فرح الفتاة وقالت :

- نعم . . هذا ما قالته لى حميدة «الخادمة» لما سألتها عن تغيب ماما على غير عادتها .

وصرف زوزو بعد أن وعدها خيرا، وأمر السائق وهو يلهث بالذهاب إلى المدرسة،

نعم إلى المدرسة ليسلم بدوره الأمانة إلى مستحقيها . لقد أتاه الفرج دفعة واحدة . لقد أنقذ بعد أن تدلى جسمه فى الهاوية . أنقذ من الإفلاس والخراب والسرقة والجريمة والسجن . رباه! إنه لم يقدر هذا ولم يحلم به أبدا ، وما كان فى مكنة مخلوق مهما رسخ إيمانه أن يقدر هذه النهاية أو يحلم بها . . فالحمد لله . . الحمد لله . .

وانصرف من المدرسة سريعا قاصدا بيت «المرحومة» ووجده كما تعود أن يراه هادئا ساكنا لا صوت ولا نحيب . . فطرق الباب ثم دخل . وقابلته الممرضة وكانت محافظة ـ برغم كل شىء ـ على هدوئها ، وقد سألته منكرة :

ـ أجئت مرة أخرى؟ !

فنظر إليها دهشًا وقال :

ـ ما أغرب سؤالك! . . ألست على كل حال ابن أخيها؟ !

واجتاز بها مسرعا إلى حجرة المتوفاة . . فرآها مستلقية على ظهرها ورأسها مائل نحوه ، مفتحة العينين . بل رآها ـ وهو الأدهى ـ تنتصب قاعدة وتشير إليه بيدها الضعيفة مهددة وتصيح فى وجهه :

ـ كيف تجرؤ؟ كيف تتجاسر؟ ألم أطردك طردا؟ اخرج . . اغرب عن وجهى . .

والظاهر أن المرأة تأثرت من الغضب الذى تملكها فجأة ، فسقطت على المخدة من الإعياء والجهد وصدرها يرتفع وينخفض . ووقف أمامها مبهوتا جامدا كالتمثال ، ذاهلا لا يستطيع كلاما ولا حركة كأنه ينظر إلى شبح مرعب لا إلى امرأة عجوز منهوكة القوى . وما أحس إلا يد الممرضة تسحبه إلى الخارج ، فاستسلم لها طائعا وغادر البيت دون أن ينبس ببنت شفة .

وقطع الطريق إلى بيته والذهول مستول عليه . وكان البيت يخيم عليه السكون ـ كعادته ـ إذ الأولاد فى المدرسة . فظنت زوجه لأول وهلة أنه آيب من مكان عمله كعادته اليومية ، ولكنها ما لبثت أن طالعت ما يكسو وجهه من آيات التجهم والذهول فتملكها الروع والذعر وظنت أن ما تشفق من حدوثه وترجو الله آناء الليل وأطراف النهار دفعه قد وقع ، وفزعت إلى سؤاله وهى أكره ما تكون للسؤال :

ـ ما بالك؟

فسألها بدوره بامتعاض :

ـ أين زوزو؟

ـ لعلها فى الطريق إلى البيت . .

فصاح بغضب :

- هذه الطفلة الشريرة؟
- زوزو شريرة؟
قابلتنى فى الطريق منذ ساعتين وكذبت علىّ الشيطانة قائلة إن عمتى ماتت.
فضربت المرأة صدرها بيدها وقالت بدهشة:
- كيف تجرؤ؟ من أين لها هذا الكذب؟ هذا أمر عجيب.. بل إنه أعجب شيء أسمعه فى حياتى.. لعل البنت وهى تسمعنا دائما نتمنى على الله موت عمتك أرادت..
ولم تتم حديثها إذ دق الباب ودخلت زوزو. وما أن رأت والدها حتى رمت حقيبتها وجرت نحوه ضاحكة وقفزت إلى حجره وأحاطت بيدها عنقه، ثم قالت وهى لا تسكت عن الضحك:
- هل اشتريت لى الشيكولاتة كما وعدت؟
فنزع يدها الصغيرة عن رقبته بشيء من العنف، وحدجها بنظرة قاسية ثم سألها بخشونة وهو يدفعها عن حجره:
- كيف تكذبين على؟
قالت وهى لا تكف عن الضحك، وإن بدأت تدرك صعوبة الاستيلاء على الشيكولاتة:
- فى أى يوم نحن؟
- إنى أسالك كيف تكذبين على؟
- اليوم أول إبريل.. وقد علمت أنه يجب على الناس أن يكذبوا فيه.. وهكذا قالت لى بثينة، وقد سألت «أبله» فأمنت على ما قالت بثينة، ولكنها نبهت على أن أختار كذبة سارة كى لا أوذى أحدا.. وقد اخترت لك أحسن كذبة!
فقطب وجهه وقال لها بشدة:
- لعنة الله عليك وعلى أول إبريل.. هل يصدق الناس طول العام كى يلهوا بالكذب فى أول إبريل؟!
وهنا فقط أدركت زوزو أنها أخطأت وأن والدها غاضب عليها حقا، وأنها فقدت كل الأمل فى الشيكولاتة، فكفت عن الضحك وعلا محياها الارتباك، واحمرت وجنتاها من الخجل، ونظرت إلى أمها تستغيث بها. أما أبوها فقد قام متثاقلا ودلف إلى حجرته حزينا كئيبا ينوء بالهم والفكر. ولحقت به زوجه وانتبذت ركنا من الحجرة فى صمت ووجوم ووقفت ترمقه بعينين كئيبتين وقلبها يحدثها بدنو شر مستطير، ولكنها لم تجرؤ على تمزيق هذا الصمت الغليظ. انتهى الأمر وخابت المحاولة الأخيرة وآذن الخراب بالوقوع.

هل ينتحر ويضع حدا لهذه الحياة القلقة المنغصة؟ فقد اضطرب عقله بهذه الفكرة الهائلة لحظة، ولكنه تغلب عليها وفندها قائلا لنفسه: «إذا انتحرت فمن للأولاد؟ . . ». ولم يجد أمامه سوى الاستسلام والنزول عند حكم المقادير.

وظل الصمت مخيما يزهق النفوس، والمرأة واقفة حيث هى، وهو قاعد على الكنبة مسندا رأسه إلى كفيه، وقد ظهر رأس زوزو من الباب لحظة ولاحت عيناها تدوران بين والديها، ثم ارتدت مسرعة، فارة مضطربة.

ولبثا على حالهما لا يشعران بفوات الوقت حتى تيقظا فجأة على طرق الباب ووصلت إلى مسمعيهما أصوات الأولاد وهم يدخلون واحدا واحدا يتقدمهم ضجيجهم وجلبتهم، وقد دبت الحياة فى البيت وتحول فى ثانية إلى سوق، وعلا صياح من هنا وصراخ من هناك وسمعت أصوات تنادى، وأخرى تسب وتلعن، وثالثة تنشد بعض الأناشيد المدرسية، ورابعة تسأل عن ماما وبابا.

ثم طرق الباب مرة أخرى بعنف، ودخل شخص ما، وساد صمت عجيب. ترى من القادم؟ لقد دق قلب الرجل بعنف واعتدل فى جلسته، وعيناه تتساءلان، ونظر إلى الباب كأنه يتوقع سقوط صاعقة. . ورأى حسينا يدخل مسرعا وسمعه يقول باضطراب:

- بابا . . يقولون إن عمتك توفيت . .

فقام الرجل كالمجنون وحدج ابنه بنظرة هائلة فقال الابن:

- حضرت الممرضة الآن حاملة هذا الخبر . . وها هى ذى واقفة تسأل عنك . . تفضلى إلى هنا يا سيدتى.

* * *

فى ساعة متأخرة من ليل ذاك اليوم - يوم أول إبريل - جلس على أفندى إلى جانب زوجه وكانت لا تزال فى ثوب الحداد وقد آوى الأبناء إلى الفراش وخيم السكون على البيت.

كانت المرأة صامتة ولكن كان وجهها راضيا مطمئنا وبالها مستريحا وقد ولى عنها الذعر الذى لازمها أياما خالتها دهرا طويلا.

وكان على أفندى يشعر شعور إنسان خطا قدما بغير وعى، وإذا به يرى صاعقة تنقض على المكان الذى كان يشغل . . قد كان السجن والرفت والدمار منه قاب قوسين أو أدنى وها هو ذا يطمئن إلى مجلسه بين أسرته آمنا بمنجاة من كل دمار، يستقبل من الغد حياة رغدة مترفة، فكم بالحياة من معجزات!

وعلى الرغم من كل هذا لم يكن سعيدا تمام السعادة، ولم يصف ذهنه كل الصفاء واستمر فى تأملات عميقة. لقد عاش طول عمره حياة راكدة راتبة، أما الساعات القلائل

ـ القلائل ! ! ـ الأخيرة فقد ابتلى فيها بما لم يبتل به فى عمره الطويل المديد، إذ أثارت نفسه وعقله وجعلت من بحيرة نفسه الآسنة محيطا مضطربا عاصفا.

لقد خلصه الله من العذاب، ولكن هل يستحق الخلاص وهو الآثم الشرير الذى هم أن يقارف السرقة والقتل؟ ثم عمته المرحومة؟ إنه يدرك حالتها الآن بغير العقل الذى كان يصورها له ويعطف عليها بعد أن أمسى عطفه وقسوته لديها سيئين، فقد عاشت بائسة حزينة تجتر الهموم والآلام، وكانت حياتها فرضا ثقيلا عليها وعلى الآخرين. نعم كانت قاسية شديدة، فوق كل احتمال، ومع هذا فكيف كان يمكن أن تكون غير ما كانت؟ ومن يخلو من جانب بل من جوانب كريهة؟ أليس هو فى أعماقه قاتلا سارقا مدلسا؟ وما هو إلا صورة تتكاثر وتتعدد فتكون عالم الناس.. ومع هذا فلا يجوز أن ينسى أن هذا الشر غالبا ما ينكشف عن ضعف وجهل وبؤس، كما انكشف شذوذ عمته عن ترمل وثكل، وكما ينكشف تخبطه وسوء نواياه عن محبة فائقة لأبنائه الأبرياء، وقد أذن الله فعالج الشر والبؤس برحمته، والرحمة أسمى حلم فى الوجود، ولكنه لا يستطيع أن ينسى أيضًا أنها سُبقت هنا بكذبة ابنته وبموت عمته، فكيف يكون الموت والكذب من ممهدات الرحمة؟!

حقا إنه مهما ادعى التأمل فسيبقى أمامه ما يعجز عقله ويربكه. وإذا كان أمر الدنيا على هذا النحو فلن يمنع الدمع الذى تبعثه مآسيها إلى العين الابتسام من اعتلاء الشفتين، ولقد ضاق صدره وأرقه السهاد فهتف من أعماقه:

ـ من لى بزوزوالآن؟.. فإن ابتسامتها العذبة ونظرتها الطاهرة ويدها الصغيرة لحقيقة بأن تصرف عنى أفكار هذا الليل وتسكب فى قلبى الطمأنينة والسلام..

ثمن زوجة

جلس ينظر إلى صورته فى المرآة الكبيرة، ويتابع بعينيه يد الحلاق وهى تقص شعره بخفة ومهارة، وكانت آى الهدوء والغبطة تبدو عليه كما ينبغى لشاب مثله فى أسبوعه الثالث من شهر العسل.

ولا عجب فشهر العسل فى حياة الأزواج كالشباب الناضر فى الآجال المعمرة. وقد حبته الطبيعة ألذ المتع ودفعته مهرا لحياة الزوجية التى يستأديها الذكور من جميع الأنواع. وكان حضرة الفاضل حمدى أفندى المهندس واحدًا من ذكور أسمى الأنواع كلها، وقد تزوج من ابنة أحد زملائه وأساتذته المهندسين، وهى فتاة جميلة مهذبة سمع عنها ورأى

فيها ما علقه بها ورغبه فيها، وهو الآن يستمتع بلذة اللذاذات التى تجزى بها الطبيعة الصادعين بأمرها الداخلين فى طاعتها.

ولاحظ المهندس فى جلسته الهادئة المغتبطة أن «الأوسطى» لم يكن كعادته ذلك اليوم. رآه واجما والعهد به ضحوكا، ووجده صامتا والعادة أن يكون ثرثارا لا يسكن له لسان. فعجب لشأنه، ولكنه لم تؤاته الشجاعة على سؤاله عن حاله، ولاذ بالفرصة الجميلة التى كفته مشقة ثرثرته وشقشقة لسانه، وتغاضى عن شذوذه حتى انتهى من عمله، فقام واقفا، ولم ير حرجا فى إبداء ملاحظاته فسأله قائلا وهو يعقد رباط رقبته:

- «مالك صامتا واجما كأنك لا تجد ما تقوله؟».

وبدا على الرجل الارتياح لمفاتحة المهندس له بذلك السؤال وكان يرغب فى الكلام حقا، وتلح عليه الرغبة إلحاحا شديدا، ولكنه لا يدرى كيف يلج الموضوع، ورأى زبونه يكاد ينتهى من ارتداء ملابسه فأشفق من ضياع الفرصة وقال:

- « الحق يا سيدى أن لدى كلمة أريد أن أقولها، ولكن . . ».

وتوقف عن الحديث فازداد عجب الشاب وسأله باهتمام:

- «ولكن ماذا؟!».

- «إن بعض الظن إثم، وكثيرا ما يخطئ الإنسان فى تقديره. والحق أنى أدمت التفكير طويلا وقلبت المسألة على جميع وجوهها. فرأيت أن الواجب يقضى على بمصارحتك بظنونى مهما كانت الاحتمالات والعواقب».

وكان الشاب قد انتهى من عقد رباط رقبته وارتداء جاكتته وطربوشه، فدنا من الحلاق وحدجه بنظرة اهتمام وانشغال وقال:

- «إن كنت ترى حقا أن الواجب يقضى عليك بمصارحتى فما معنى التردد والتلعثم؟».

فتنهد الرجل وقال:

- «حسن يا سيدى . . اعلم أنى لاحظت أمورا . .».

- «. . . ؟».

- «منذ أسبوعين أرى شابا يتردد على العمارة التى تسكن فيها كل صباح بعد الساعة الثامنة مباشرة».

فزوى الرجل ما بين حاجبيه وقال باستهانة:

- «نعم . . . ؟».

- «لقد لفت نظرى إليه بهيئته ومواظبته فشغلت فراغ الصباح بمراقبته، ولاحظت أنه

يحضر من شارع عاصم حوالى الساعة السابعة ويأخذ مكانه فى مقهى النجمة، حتى إذا غادرت البيت وذهبت إلى الوزارة يدفع ثمن قهوته ويترك المقهى إلى العمارة رأسا». .

وكان المهندس - على شبابه - رزينا ثابتا بمنجى أمين من الرعونة والطيش، فعض على شفته السفلى كعادته كلما ارتبك أو أخذ، وكأنما أراد أن يغالب القلق الزاحف عليه، فسأله بلهجة الغاضب:

- «ما الذى تعنى؟».

فاصفر وجه الحلاق وندم على خوض هذا الحديث الأليم، ولكنه لم ير بدا من الاستمرار فقال:

- «إنى أرجو أن أكون مخطئا يا سيدى، بل إنى لا أتمنى على الله أكثر من أن يكشف عن وجه الخطإ فى جميع ظنونى. ولقد ترددت طويلا قبل أن أبثك هذا الحديث، ولكنى رأيت أن المصارحة مع ما تنذر به أفضل عندى من التستر على العيب مع السلامة. . وقد كان مما أيقظ الشك فى نفسى أنى رأيته مرات يلاحظك خلسة وأنت سائر فى طريقك، ويرمقك بنظرات لم يرتح إليها قلبى حتى إذا غيبك منحنى الطريق قام بسرعة وانسل إلى داخل العمارة». .

- «ألم تره خارجا منها؟».

- «رأيته مرات وقد لبث فى الداخل ساعتين أو يزيد. .».

- «ما شكله؟».

- «هو شاب فى مقتبل العمر، حسن الهندام، مخنث الهيئة، لولا تسكعه فى الصباح لقلت إنه طالب». .

ورأى الحلاق المهندس واجما صامتا تصرح سرائره بما يقهر نفسه من الاضطراب والقلق فقال بتألم:

- «لا تأخذ بظنى يا سيدى واسلك سبيل الحكماء فتحقق الأمر بنفسك، والحق أنى غير آسف على قول ما قلت ولكنى ألعن الظروف».

فسأله المهندس وكأنه لم يسمع قوله:

- «هل حضر هذا الصباح كعادته؟».

- «نعم يا سيدى».

- «ألا ينقطع عن الحضور أحيانا؟».

- «يوم الجمعة».

فعض الشاب مرة أخرى على شفته ولم يزد على أن قال وهو يغادر الصالون:

ـ «إنى أشكر لك مروءتك وأرجو أن تفتح عينيك حتى أعود إليك صباح الغد».

وكان البيت قريبا على قيد خطوات ولكنه لم يشخص إليه ـ مع أن الوقت كان ظهرا ـ وأحس فى نفسه برغبة طاغية فى المشى، فهام على وجهه بغير هدف معين.

كان حمدى شابا فى الثلاثين من عمره، يلفت الأنظار إليه لضآلة حجمه ورقة أعضائه وشحوب لونه، ولكن نظرة تدل على حدة الذكاء كانت تلتمع فى عينيه، وكانت ذقنه تلتوى التواءة يُعرف بها ذوو الإرادات الحديدية، وكان أخص ما يعرف به الهدوء والرزانة والبرود فلا يذكر أحد من معارفه أنه رآه مرة منفعلا أو متهيجا لحزن أو لفرح، ولكن لم يكن طبعه هذا ضعفا أو جبنا، فإنه يغضب إذا انبغى له الغضب ولكن على طريقته فى الغضب، فلا هياج ولا سب ولا شجار وإنما عقاب صارم أو انتقام مهول، هكذا يتقدم فى حياته «كوابور الزلط» بطيئا رصينا ولكنه لا يقاوم ولا يبقى ولا يذر..

وقد قال لنفسه وهو يسير على غير هدى: يلمح الرجل إلى خيانة زوجية، خيانة زوجية فى شهر العسل؟! لا شك فى أنها أول خيانة من نوعها، هى كالإجهاض سواء بسواء الذى يهلك الجنين قبل أن يكتمل.. كيف يستطيع أن يصدق هذا؟!.. بل كيف يمكن وقوعه؟! كيف استطاع ذلك الشاب أن يشق طريقا إلى بيت عرسه؟ هل كان يعرف زوجه من قبل أن يعرفها هو؟ مهما كان الواقع فهو أمر بعيد عن التصديق.. وذكر حياته الزوجية القصيرة فذكر بها سعادة وصفاء ومتعا لا تحصى ولا توصف، فلم يشك فى أنه سيكشف فى غده خطأ مضحكا لن ينفك يضحك كلما ذكره ما امتد به العمر..

ومع هذا...

ومع هذا فهو لا يستطيع أن يخدع نفسه عن العاطفة الذميمة التى تقاتل فى قلبه.. عاطفة الشك المعذبة. وها هى ذى تتشبث ببعض الذكريات التى مر بها مر الكرام فتعرضها من جديد على مخيلته فى إطار أسود مخيف لا يملك إلا أن يتأملها متحيرا متفكرا. فهو يذكر كيف كانت زوجه تلقاه ـ على أيام خطبتهما ـ بجمود ووجوم كأنها تلقى جدا لا خطيبا، وكيف أنها لم تحاول قط أن تفاتحه بحديث أو تشترك فى أحاديثه بحماس، وكيف أنها كانت تقنع بالإجابات الضرورية فتلفظها فى اختصار ساسة الإنجليز..

لقد حمل ذلك كله على محمل حسن وقال فخورا إنه حياء جميل. ويجوز أن يكون قوله حقا، ولكن يجوز أيضا أن يكون وهما وأن يكون الباعث شيئا غير الحياء، من يعلم؟! ربما كان نفورا وكراهية وكان ينبغى له أن يدقق ويتحقق!..

ويذكر أيضا أن الحال لم تتغير بعد الزواج، فلا تزال محافظة على رزانتها وتحفظها أو برودها، ولم يجر ذكر هذه الكلمة على لسانه من قبل. وكم تمنى لو كانت عروسه لعوبا

طروبا، أما الآن فمن يدريه أنها ليست كذلك وأنها لا تصطنع البرود إلا فى حضرته؟ وا أسفاه. أى شقاء؟! وأى تعاسة؟!

ولم يكن حمدى خبيرا بالنساء ولا ذا حظوة لديهن، فاضطر ـ فى عزوبته ـ إلى الاستقامة والزهد وقضى تلك الأيام محزونا مفعم الثقة بنفسه، وقد ظن أن الزواج دواؤه ونجاته فاستغاث به واطمأن إليه وحمد الله على نعمته، ولكن ها هو ذا يوشك أن يخيب فى زواجه فيفقد الأمل الوحيد فى السعادة والحياة المطمئنة، وها هى ذى الزوجة تكاد تتكشف عن امرأة ككل النساء اللاتى لم يفز منهن بحظوة. . فأى شقاء؟! وأى تعاسة؟!

على أنه لم يستسلم للتشاؤم كل الاستسلام ولم ينغمس فى اليأس كل الانغماس، وتعلق بالأمل الباقى له وهو أن يكون الأمر غير ما قدر والظن غير ما أساء. . وتمنى لو يستطيع أن يبدد هذه السحابة القاتمة الغاشية على قلبه وأن يسترد بعض ما كان له من الصفاء والغبطة. .

على هذا النحو كانت تؤاتيه القدرة على تحليل أحزانه وأفراحه، ولكنه كان إذا انتهى إلى عزم عرف كيف ينفذه بحذافيره ولا يرده عن غرضه راد.

وكان قد قطع شوطا كبيرا وبدأ يشعر بالتعب فعاد أدراجه إلى مسكنه مُحْمَى الرأس ملتهب العواطف، ودخل إلى شقته وهو يتكلف الابتسام والهدوء فرأى عروسه جالسة إلى المائدة، والغداء جاهزا، والأطباق مصفوفة وسمعها تقوله له عاتبة:

ـ «تأخرت عن موعدك».

فنظر إلى وجهها نظرة سريعة لأنه خشى أن تقرأ فى عينيه ما يدعوها إلى التساؤل، وجلس إلى جانبها، بل وقبَّلها أيضا كما ينتظر من شاب مثله فى شهر العسل، ثم قال معتذرا:

ـ «مررت فى طريقى بالحلاق وكان الصالون مزدحما. . ».

* * *

وفى صباح الغد خرج فى موعده المعتاد وسار فى طريقه المعهود ولدى مروره بمقهى النجمة قاوم رغبة شديدة نازعته إلى تصفح وجوه الجالسين بها وخيل إليه أن عينين براقتين ترقبانه بحذر وسخرية، فغلا الدم فى رأسه وخضب وجهه الشاحب باحمرار الخجل والعار. ولم يذهب إلى وزارته ولكن دار دورة فى الشوارع القريبة، وكان يخرج ساعته من آن وينظر إليها جزعا مضطربا، فلما دارت فى منتصف الثامنة عاد أدراجه حذرا متيقظا حتى انتهى إلى صالون الحلاق وانسل داخلا، وكان خاليا إلا من صاحبه الذى حياه تحية الصباح، وابتدره قائلا:

ـ «جاء كعادته وغاب داخل العمارة منذ ربع ساعة. . ».

وجمد الشاب فى مكانه هنيهة لأنه أحس بأنه مقبل على دقيقة فاصلة فى حياته ستقرر حتما مصير سعادته وكرامته، فخان الهدوء أعصابه على رغم صلابتها وقوتها وشعر باضمحلال مخيف وسمع الحلاق يقول له:

ـ «أتريد أن أصحبك؟».

فآلمته عبارة الرجل وقال بحدة:

ـ «كلا».

وغادر المكان بسرعة وقد محا الغضب دبيب الاضطراب الزاحف على نفسه، ودخل إلى العمارة وصعد السلم بخطوات ثقيلة. وجعل يرمق باب الشقة الذى يدنو منه بعينين جامدتين، وقد شل عقله عن التفكير ما يتجاذبه من الأفكار والخواطر التى تطفو على سطحه بسرعة وتغيب بأسرع مما ظهرت غير تاركة من أثر سوى الذهول فى النفس والحرارة فى الدماغ. ووجد نفسه واقفا بإزاء الباب. . وكان يلهث كمن جرى شوطا كبيرا وقلبه يخفق بعنف ويدفع الدم إلى رأسه فيدوى فى أذنيه.

وكأنه خشى على إرادته من التردد فدس يده فى جيبه وأخرج المفتاح وأولجه فى الباب وأداره بخفة وحذر ودفعه على مهل، وأدخل رأسه ليلقى نظرة على الردهة ثم دخل وهو يكتم أنفاسه ورد الباب بلا إغلاق كيلا يحدث صوتا.

وكانت الردهة خالية وجميع الحجرات مغلقة. . ترى أين الخادمة الصغيرة؟ وانصرف نظره إلى حجرة النوم وخلع حذاءه ودنا منها على أطراف أصابعه حتى صار بإزاء بابها المغلق، وانحنى قليلا ووضع أذنه على ثقب الباب وأرهف سمعه فخيل إليه أنه يسمع غمغمة خافتة وأصواتا أخرى. ذهب الشك بعذابه وآماله وسفرت أمامه الحقيقة الأليمة المخزية، وقد انطفأ نور بصره ثوانى من شدة الغضب ولم يعد يحتمل الجمود فتراجع خطوتين وثنى ساقه وشد عليها بقوة جنونية ثم أطلقها بعنف فى الباب فارتج ارتجاجا شديدا وانفتح بحالة تشنجية. وخطا خطوتين فاجتاز عتبة الحجرة، ودوت فى الحجرة صرخة جنونية وقفز من الفراش جسمان عاريان: الزوجة وذاك الشاب. . .

وكانت المرأة فى حالة جنونية من الرعب، فجسدها يرتجف ووجهها يصفر وعيناها تتسعان، وقد سحبت اللحاف على جسمها بحركة عكسية ولبثت تنظر إلى زوجها كأنما تنظر إلى شيطان رهيب. . أما الشاب فهم بالجرى إلى ثيابه الموضوعة على «الشيزلنج» ولكن قدميه تسمرتا فى الأرض فجمد فى مكانه، وجعل ينظر إلى الزوج نظرة ذعر ويأس مميتين، ومد يده بتوسل وقال بصوت مرتجف كأصوات الأطفال المنتحبين:

ـ «فى عرضك!».

من العجيب حقا أن الزوج لم يغشه الجنون ولم يندفع إلى الانتقام كما يحدث عادة، بل هبط عليه جمود غريب وتلبسه هدوء غامض شبيه بنكهة الخمر التى ترد المنتشى الهائج

إلى ثقل النوم، فلبث واقفا مكانه وجعل يقلب عينيه بين العاشقين فى هدوء قاس كأنه يشاهد منظرا بعيدا عن مشاركة وجدانه ومشاعره.

ورأى يد زوجه وهى تسحب اللحاف على جسمها، فسألها ببرود قائلا:

ـ «أتخجلين من الظهور أمامى عارية؟».

وتحول إلى الشاب، فصاح به هذا بصوته المرتعش المحموم:

ـ «الرحمة!.. دعنى أرتدى ثيابى وافعل بى ما تشاء».

فقال له ساخرا:

ـ «هل يروقك أن تموت فى ثيابك؟».

فصاح الشاب مولولا:

ـ «الرحمة.. أنا فى عرضك!».

فقال بلهجة رقيقة:

ـ «ارتد ثيابك أيها الشاب ولا تخش أذى!».

فلم يطمئن العاشق إلى قوله وتوسل إليه بصوته الباكى المرتعب:

ـ «ارحمنى..».

فقال له يطمئنه ويشجعه:

ـ «ارتد ثيابك أيها الشاب ولا تخش أذى... تقدم، إنى أعنى ما أقول».

ولكنه لم يتحرك من مكانه واشتدت الرجفة بجسمه حتى خاله سيصعق صعقا، فسار بنفسه إلى الشيزلنج وأتى له بثيابه وقدمها إليه قائلا بسخرية:

ـ «أتحب أن أساعدك على ارتدائها؟».

فأسرع فى دفعة يحشر جسمه حشرا فى ثيابه، فانتهى فى ثوان. كان شكله زريا مضحكا، فشعر رأسه المدهون بالفازلين يبرز مبعثرا من حافة الطربوش، وأزرار البنطلون مفككة والقميص يتدلى من بينها، والحذاء لم يعقد رباطه. ولكنه كان فى غيبوبة ذاهلة، فنظر إلى الزوج نظرة تسليم ويأس وقال له:

ـ «أنا تحت أمرك».

وهز الرجل كتفيه استهانة وقال:

ـ «وماذا أصنع بك؟ لا فائدة لى فيك.. استأذن الهانم.. فإذا أذنت لك انصرف مصحوبا بالسلامة».

فألقى إليه الشاب بنظرة كأنها تقول: لم التعذيب؟.. اقتلنى إن شئت ولكن بسرعة. وقد فهم معناها فهز كتفيه مرة أخرى بهزء وقال:

ـ «ألا تريد أن تذهب؟ ألم تسمع بعد؟ ألا تزال لك رغبة فيها؟» .

فاشتد الارتباك بالشاب ، ورأى الزوج يوسع له الطريق فتحرك بخطوات بطيئة وهو لا يصدق ما يسمع وما يرى . ولما صار بإزائه أحس بيده توضع على كتفه فانتفض رعبا وتوقع شرا ولكن الرجل بادره قائلا :

ـ «لا تخف . . ستذهب كما تشاء ولكن أين؟ . .» .

قال هذا وبسط إليه كفه فنظر إليه العاشق مرتبكا متسائلا . . فقال :

ـ «الثمن ! !» .

فظل الشاب ينظر إليه صامتا ، فقال الزوج بلهجة جدية :

ـ «مالك؟ ! ألم تحظ بوصال هذه المرأة؟ فلم لا تدفع الثمن؟ هل تظن أن الوصال هنا بلا ثمن؟ .

ـ «سيدى . .» .

ـ «يالك من عاشق بخيل ! ألا تريد أن تجود بشىء؟ بكم تثمن هذه المرأة؟ هه؟ إنها تستأهل ريالا فما رأيك؟» .

ولما يئس من الشاب فتش جيوبه بنفسه حتى عثر على حافظة نقوده ، واستخرج منها ريالا ثم ردها إليه وهو يقول :

ـ «تفضل الآن فاذهب إلى حيث تشاء! . . .» .

وانفلت الشاب خارجا لا يصدق أنه فاز بالنجاة ، والتفت الزوج إلى زوجه فقال لها :

ـ «ارتدى ثيابك يا سيدتى واطردى عنك الرعب فلا خوف عليك ولا أنت تحزنين» .

* * *

كيف استطاع أن يسيطر على عواطفه؟ كيف أمكن أن تطيعه أعصابه تلك الطاعة العمياء؟ هذا سر من أسرار الطبيعة يعجز عن إيضاحه البيان . وعلى كل حال فقد انقضى ذلك اليوم كما ينقضى الكابوس الأليم . ولم يشر إليه ـ بعد انقضائه بتلميح أو تصريح ـ ولا ذكره بخير أو شر ، ولا أجرى بسببه تحقيقا ولا أثار عنه سؤالا وطالعها بوجه هادئ طبيعى كأنه شخص آخر غير الزوج المطعون . ولم ينقطع عن عمله أو يغير من عاداته ولا كف عن أحاديثه أو فتر عن مداعباته . وكان يذهب ويعود ويعمل ويستريح ويأكل ويشرب وينام ويقوم وكأنه زوج سعيد يعاشر زوجه الحبيبة أو رب بيت مطمئن يسهر على بيته وأسرته دون أن ينغص حياته منغص أو يكدر صفوها مكدر .

وكانت المرأة فى أول عهدها بالفضيحة كالمجنونة من شدة ما يعذب نفسها من الخوف والرعب والعذاب . وقد توسلت إليه ضارعة وهى تبكى أن يطلقها ويستر عليها ، ولكنه قال وكأنما فقد ذاكرته :

ـ «أطلقك؟! لم؟ أمجنونة أنت يا عزيزتى؟».

وأسقط فى يدها ولبثت حائرة مذعورة معذبة تخشاه وتتوجس منه خيفة. ويغلق عليها أمره فلا هو يطلقها ولا هو ينتقم منها والأعجب من هذا جميعه سلوكه نحو عاشقها فى ذلك اليوم الأسود..

ومضت الأيام طويلة ثقيلة فلم تتحقق مخاوفها ولم تصدق هواجسها وأخذت تخف عليها وطأة الخوف وتتناسى همومها فيما تقوم به من الواجبات البيتية، ووجدت نفسها ـ وهى لا تدرى ـ تتفانى فى خدمته والسهر على بيته وتوفير الراحة له بحماسة الخاطئ الذى يعالج جرح ضميره بالتكفير والتعذيب. على أنها لم تطمئن إلى دعته كل الاطمئنان، وكانت تسأل نفسها حيرى: ترى هل نسى وغفر؟ أم هو يتناسى ويتعزى؟ أو ما الذى تنطوى عليه حياته المبهمة وابتسامته الغامضة من النيات؟..

ولبثا على حالهما والأيام تحث السير وكل منهما متظاهر بالألفة والاطمئنان ويجتر أفكاره فيما بينه وبين نفسه، حتى كان يوم دعا فيه الزوج جميع أهله وأهل زوجه إلى مأدبة غداء، وبذل لإعدادها فوق ما تحتمل قدرته حبا وكرامة. وأم بيته ذلك اليوم جميع أفراد الأسرتين نساء ورجالا، فتيات وفتيانا، وعلى رأسهم حماه وحماته، فضاق البيت بالمدعوين وضج جوه بأحاديثهم وضحكاتهم وازداد سعادة بما شملهم من ود عائلى جميل.. وتشعب الحديث شعبا مختلفة فطرق موضوعات السمنة والنحافة والزواج والعزوبة وبنات الأمس وبنات اليوم، ومن السياسة حينا والدرجات والعلاوات والأطفال أحيانا كثيرة.. وشارك المهندس فى الأحاديث بشهية عظيمة، وكان بادى المسرة والبهجة عظيم الإقبال على مجاملة ضيوفه والترحيب بهم.

وقد توقف عن الكلام بغتة كأنما تذكر أمرًا مهما، ثم دس يده فى جيبه فأخرج ريالا، جعل يقلبه فى يده ثم أعطاه حماه وهو يقول:

ـ «انظر إلى هذا الريال يا عماه.. أتراه مزيفا؟».

فأخذه الرجل وجعل يقلبه بين يديه وقد اتجهت إليه الأنظار من كل صوب ثم قال:

ـ «كلا يا بنى إنه صحيح لا شك فيه.. هل رفضه أحد؟».

واختلس الزوج نظرة إلى زوجه فرأى وجهها مصفرا يحاكى وجوه الموتى فابتسم ابتسامة وقال:

ـ «لم يرفضه أحد يا سيدى، ولكنى أردت أن أطمئن عليه لأنه محور قصة عجيبة قد يروقكم جميعا سماعها».

فازداد اهتمام الحاضرين ودل تطلعهم إليه على شوقهم إلى سماع قصته، فطلب إلى حميه أن يعطى الريال زوجه، ثم قال:

ـ «إن شوشو تعرف قصة هذا الريال خيرا منى، وسأتنازل لها عن حق روايتها. . هيا يا شوشو قصى عليهم القصة العجيبة وهى حقيقة تفتح شهيتهم للطعام!».

وانصرفت الوجوه إلى الزوجة وقد تضاعف اهتمام الجميع وتوقعوا جميعا قصة شائقة. أما شوشو فكانت فى حالة يرثى لها من الذعر والارتباك، وقد جمعت قوتها المشتتة وقامت واقفة وشقت طريقا بين الجالسين إلى باب الحجرة، فاحتجوا على قيامها وحاول بعضهم منعها ولكنها قاومت الأيدى وهى تقول بصوت خافت مضطرب.

ـ «انتظروا دقيقة. . سأعود فى الحال». .

وولت خارجة وعينا زوجها تتبعانها بنظرة قاسية.

* * *

يستطيع القارئ أن يستنبط الخاتمة المروعة، فإنه لا شك يقرأ كثيرا فى الصحف عن اللاتى يرمين بأنفسهن من النوافذ العالية فيسقطن مهشمات مشوهات، ولعله إذ يقرأ هذه الأخبار المقتضبة يتساءل عن أسبابها الخفية ويذهب به الحدس كل مذهب. فهذا سر واحدة من أولئك المنتحرات. وإنه ليؤسفنى أن تنتهى القصة إلى هذه النهاية المحزنة، ولكن ما حيلتى وقد بدأت بتلك البداية الأسيفة؟

والحق لا تقع علىّ تبعة بدايتها ولا نهايتها، فهكذا يرويها بطلها المحزون الذى غدا لا يفارق الحانة ليل نهار. وكم تمنيت لو كان كاتبها كما كان راويها، لأنى وا أسفاه لا أستطيع مهما أحاول أن أبلغ بعض ما يبلغ من صدق الرواية وقوة التعبير.

الذكـــــرى

إذا لاحت فى الأفق القريب بشائر عيد الفطر خفت وطأة رمضان عن النفوس، وهون الفرح الموعود من جفاف شهر الصوم واهتزت صرامة التقشف فى الصدور تحت موجة طرب آن انطلاقها. هناك تجد ربات البيوت أنفسهن فى مكانة الساحر، يتطلع إليهن الصغار بأعينهم الحالمة هاتفة بهن أن يبدعن آيات الكعك اللذيذ وأن يخلقن من العجين كهيئة العرائس والحيوان والطير.

أما جماعة الموظفين الذين تقضى عليهم أشغالهم بالتغرب فى أقاصى القطر، فلا يشغلهم فى تلك الأيام مثل إعداد الحقائب والتأهب للسفر إلى بلدانهم حيث يسعدون بالعيد بين أهليهم، وحيث تتحقق للأطفال ولهم أحلامهم.

وكان من هؤلاء الأستاذ يوسف زينهم المدرس بمدرسة أسيوط الثانوية وأسرته المكونة

من زوجة وابنتيه الصغيرتين. فما أتى يوم الوقفة حتى كان الأستاذ وأسرته فى القاهرة، بل فى القاهرة المعزية حيث يقع بيت المرحوم والده فى الدراسة قريبا من مسجد الحسين. وكان البيت من البيوت القديمة، باهت الجدران رث الهيئة، يصعد إليه الصاعد على سلم ضيق متهدم الدرجات بغير درابزين، حلزونى الشكل كسلم المآذن. ويتكون البيت من طابق واحد ذى ثلاث حجرات صغيرة الحجم. ولكنها كانت سفرة سعيدة، ودواعى لذتها متوافرة من التنقل واستقبال العيد ورؤية الأهل والأحباب.

ومهما يكن أمر البيت من التفاهة والضعة، فما كاد يوسف يطأ بقدمه أول درجة من سلمه حتى يرفرف قلبه فى صدره وتمتلئ عيناه بالأحلام وقلبه بالحنين، ويذكر لفوره ذلك الطفل الصغير ذا الجلباب والطاقية الذى كان يقفز على هذا السلم صاعدا هابطا كل يوم حافى القدمين..

أى ذكرى؟ وأى أيام..؟

وكان كل مكان فيه يحفظ لقلبه ذكرى تنعش النفس وتشرح الصدر، سواء أكان ما تحمل نوعا من مسرات الصبا أو لونا من متاعبه وهمومه. وكثير من آلام الصغر التى يضيق بها الأطفال يجدونها إذا كروا إليها فى الكبر متعة ولذة وتفكهة، فكان لهذا يطوف بحجرات البيت حالما متذكرا كأنما يطوف بضريح ولى من أولياء الله ثم يستقر مدة إقامته فى أعزها عليه وأحبها إلى قلبه: فى الحجرة التى عاش فيها من عمره اثنين وعشرين عاما بين عبث الطفولة وأحلام الصبا وآمال الشباب.

والذى يقيم فيها الآن أخوه سامى وهو ابن عشر ويختم فى هذا العام دراسته الابتدائية. ويخيل إليه - أى إلى يوسف - كما شاهده أنه يعيد تمثيل الحياة التى حييها مرة أخرى، وأن الحجرة تشهد للمرة الثانية نفس فصول الرواية، ولعلها بدأت تبسم وتسخر وتسأم.. وكان سامى يتخلى عن حجرته سعيدا مغتبطا لأخيه الأكبر الذى ينزل من نفسه منزلة الأب ويتولى من بعده جميع أموره ويتعهده بالتربية والمحبة.

وقد لاحظ يوسف أن أخاه غيَّر من نظام الحجرة، وأنه نقل المكتب القديم إلى غير موضعه الأصلى وكان يحب أن تبقى الحجرة محتفظة بصورتها القديمة، فسأله عن هذا، وأجابه الغلام:

- إنى جعلت المكتب بحيث إذا جلست للمذاكرة جاء نور النافذة من الجهة اليسرى كما أوصانا مدرس علم الصحة.

فابتسم يوسف وقال:

- ما أسعد حظكم يا تلاميذ اليوم، فإن لكم من مدرسيكم آباء رحماء يودون لكم الصحة والعافية ويشفقون عليكم من الأذى. أما على أيامنا فكان الحال غير الحال

والمدرسون غير المدرسين. وإنى لأذكر العنت الذى كان يصيبنا ـ فى نفس مدرستك خليل أغا ـ وما كانوا يلزموننا من حفظ البلدان والثغور والجزر والحاصلات. وكم من مرة مددنا على الأرض وألهبت العصى القاسية ظهورنا وبطون أقدامنا. . . تلك أيام خلت. . . أما أيامكم. . ؟!

ثم استلقى الأستاذ على كنبة واستسلم لتيار التذكر العذب التسلسل تاركا زوجه وأمه تتحادثان ما شاء لهما الحديث، وسامى يجالس ميمى وفيفى الصغيرتين ويلاعبهما.

ولم تنس أمه أن تأتى بمدفأة وتضعها فى ركن من الحجرة لأن الشهر كان ديسمبر والجو شديد البرودة يزيد من شدة قساوته الصيام، وكأن السماء أشفقت من البرد فتلفعت بأردية من السحب، أضاء بعضها عن لون أبيض ناصع بهيج، وأظلم البعض عن كتل دكناء كالجبال عند الغروب، فانكمش جسده، وتحفزت روحه للوثوب وحلقت على رأسه الأحلام. وسرعان ما كرت نفسه راجعة عشرين عاما فى خط الزمن غير المتنامى، وذكر عهد هذه الحجرة أيام كانت رفيقة صباه وشبابه وشريكة أحلامه وأهوائه، وشاهدة أفراحه وأحزانه، ومستسرة خباياه ومرجع نجواه. رباه. . إنه ليدير عينيه فى أنحائها طمعا فى أن ينفذ إلى تضاعيف جوها الخفى ويقرأ ما خط من حياته وما سجل من نوازع قلبه وعقله ووجدانه. . ولقد تأتى عليه أوقات يغمره تيار الحياة وتكتنفه متاعبها فينسى ذكريات الماضى فى هموم الحاضر، ويخيل إليه أن ذاك الصبى الذى عاش وفرح وتأمل وأمل ويئس شخص غريب عنه لا تربطه به رابطة ألم أو أمل. وقد تأتى عليه ساعات أخر يثوب فيها إلى نفسه فينسى حاضره هارعا إلى الماضى البعيد، وتقدم إليه حافظته الثائرة أزاهر الذكريات واحدة فواحدة حتى يخال أنه لم يعبر الماضى إلا منذ ساعات قلائل، وأنه لم يحى إلا به وله.

وها هو ذا الآن تغشاه ساعة من تلك الساعات الحالمة فتحلق روحه فى آفاق بعيدة كالذاهل فى غيبوبة مغناطيسية، وتتدفق عليه الصور الحالمة فى غير ترتيب زمانى، فيذكر كيف كان يستيقظ ـ فى نفس الحجرة ـ منذ الفجر، ويدلف إلى النافذة يشاهد بهاء الفجر المشتمل الكون بثوبه الأزرق، والنجوم من فيض الحياة بها تكاد أن تتكلم بأحاديث الأزل، ويرى البيوت كالأشباح القائمة، ومئذنة سيدنا الحسين فى المكان الأوسط منها كالحارس الحفيظ، ويستمع إلى صياح الديكة المنتشية ببشائر النور وقطر الندى، حتى يشق الفضاء صوت المؤذن داعيا «الله أكبر»، فيهبط على القلوب هبوط الصحة والطمأنينة فيملؤها نشوة وبهجة وحنينا، ثم يصلى الفجر فإذا انتهى أشعل المصباح وقعد يذاكر ويحل تمرينات الحساب ومسائل الهندسة.

وإنه ليذكر لهذه المناسبة عهد التلمذة الغريب، الذى كان يرسف فى أغلاله كالسجين، أو الأسير المعذب، يجهد عبثا أن يقوم بما يفرضه عليه البرنامج الثقيل

المرهق، وتضطرب أعصابه خوفا ورعبا من المدرسين وعصيهم الذين كان يكفى تذكرهم لتجميد الدم فى العروق أو قطع الأنفاس فى الصدور. ولا عجب فقد كانت القسوة هى السياسة المرسومة لتربية التلاميذ، وكان يظن أنها الطريقة المثلى لخلق الرجال الفضلاء، فكان عهد التلمذة عهد رعب وإرهاب وعنت. وإنه إذا جاز له الآن أن يشبه المعلم بالفنان يحاول أن يبدع من مادته أجمل الآيات وأمتعها فلا يستطيع أن يشبه مدرسيه القدماء إلا بمحصلى الضرائب الأتراك.. ولكنه بالرغم من هذا لا يذكر ذاك العهد حتى يعلوه الابتسام ويغمره الفرح، كأن ما فيه من مسرة فهو له وما فيه من ألم فهو لغيره، يراه كما يرى المشاهد الرواية التمثيلية الحزينة فيتمتع بأثرها الجميل.

وفيما هو سابح فى بحر أحلامه انتبه فجأة على يد ابنته الصغيرة ميمى وهى تهزه، فالتفت إليها متبرما وصاح بها منتهرا:

- إيه يا بنت؟..

وهى تشير إلى حائط الحجرة..

فسألته بصوتها الرفيع المتقطع:

- هل حقا أنت الذى رسمت هذه الصورة يا بابا؟

وتتبع ناظره إصبعها إلى هدفها من الحائط فى المكان الذى كان يشغله المكتب قبل أن ينقله سامى، فرأى صورة طفلة صغيرة فى نصف الحجم الطبيعى سرعان ما تذكرها عقله وقلبه، وذكر بعض الظروف التى دفعته إلى رسمها منذ عشرات السنين.. وتعجب كيف شاءت المصادفة أن تنبهه ابنته إليها ساعة تهيم روحه فى سماوات عهدها الحلو المنطوى، فكأنما سخرت الصورة للطفلة الصغيرة لتذكير أبيها الغافل.

قال سامى:

- لا شك فى أنك أنت يا أخى يوسف الذى رسمتها، فأنت صاحب الحجرة القديم وأنت الذى تستطيع أن تجيد الرسم..

وقالت ميمى مرة أخرى:

- بابا.. اشتر لى عروسة مثلها..

ودلف يوسف إلى قريب من الصورة وتأملها بعين لو رأت زوجه نظرتها المشوقة لسألت باهتمام عن الصورة وتاريخ رسمها وأجرت فى ذلك تحقيقا عسيرا، وكان ما يبقى منها ظل خفيف طمست منه بعض معالم الوجه، ولكن بقى منها محافظا على وضوحه مفرق الشعر الغزير المرسل فى عبث فتان، وما يبين عن جمال الأنف الصغير الدقيق. فالشكر لله أنه كان يجيد الرسم منذ الصغر. وإلى جانب الصورة كانت هذه الأبيات مكتوبة:

أفق قـد أفـاق العـاشـقـون وفـارقـوا الـ
ـهـوى واسـتـمـرت بالرجـال المرائر
دع النـفس واسـتـبق الحـيـاة فـإنما
تبـاعـد أو تـدنى الـرغـاب المقـادر
أمت حـبـهـا واجـعـل قـديم وصـالهـا
وعـشـرتـهـا مـثـل التى لا تـعـاشـر
وهبـهـا كـشـىء لم يـكن أو كـنازح
بـه الـدار أو من غـيـبـتـه المقـابر

إن للصورة والشعر قصة قديمة كانت حياة قلب ناشئ اصطرع من جرأتها فيه الأمل والألم، وتيقظت بسببها عواطف شتى وغرائز نائمة، إن عفت آثار تلك الحياة من قلبه الآن كأنما فاضت من غير منبعه واصطخبت فى غير ميدانه. وإنه لمن المؤلم المضحك أن يكون الحائط الحجرى أحفظ للود وأرعى للذكريات الجميلة من قلب الإنسان العاقل. . وإن تلك الصورة وهذه الأبيات الشعرية لتذكره بأجمل ما وهبت حياته المنطوية، بل أجمل ما تهب الحياة لبنيها، تذكره بوهم الحب الطاهر، الحب الذى يفيض من قلب طاهر لم تعركه التجارب، ويخبئ أغراضه المرسومة منذ الأزل خلف وجه ملاك سام ويخفى أنات الأرض وراء لحن سماوى ساحر، ويغشى على الطين ستارا كثيفا من السحاب الأبيض الجميل.

نعم لا يكاد يذكر التفاصيل ولا يحضره الترتيب الزمانى، ولكن تندلع فى قلبه ألسنة من اللهب بين الحين والحين فيكشف نورها المتقطع عن صور عزيزة فاتنة من الماضى.

* * *

كان المرحوم والده طاهى الوجيه سليم بك عامر - من سراة القاهرة وأعيانها المبرزين - وكان يوسف يتردد عليه أحيانا كثيرة، ولا يزال يذكر القصر العامر بحديقته الغناء وجدرانه الشاهقة وأبوابه العالية ونوافذه ذات الستائر المختلفة الألوان، كما يذكر البناء الصغير المنعزل فى ركن من الحديقة ذات المدخنة الطويلة حيث كان أبوه يباشر عمله. وكان إذا زار أباه يجلس فى ركن المطبخ يشاهد عملية الطهى الغريبة، وفن تحويل الخضراوات والطماطم والطيور إلى أصناف شهية بهيجة اللون لذيذة الطعم، ويلتهم ما يعطيه من اللحم والحلوى ويسمع فى دهشة الخدم وهم ينادون أباه بقولهم: «يا عم زينهم». وما كان يظن أن شخصا كوالده العظيم الذى يمتلئ قلبه رهبة منه والذى تقف له أمه وإخوته كلما جاء أو ذهب يمكن أن ينادى بمثل هذا النداء الذى يخاطب به باعة الفول السودانى «وغزل البنات». . ولكنه ما لبث أن اعتادته مسامعه وألفته نفسه، وطفق يدرك

شيئا فشيئا مكانة والده من القصر العظيم، وتبين البون الشاسع الذى يفصل بين واحد مثله وبين أهل ذاك القصر الذين لا يدرى على أى وجه من الحياة يعيشون خلف تلك الجدران الهائلة.

وهو لا يكاد يذكر تاريخ أول لقاء على وجه التحديد، ولكنه يرجح أنه وقع لأول عهده بزيارة قصر سليم بك وهو فى الثانية عشرة من عمره. وكان مطمئنا إلى مكانه المختار من المطبخ وفى يده قطعة «البقلاوة». وعلى حين فجأة دخلت إلى المكان طفلة فى مثل عمره لم ير مثلها من قبل، كانت مستديرة الوجه، مليحة القسمات، خمرية اللون، رشيقة القامة، ينتثر شعرها الأسود الحالك خصلات على كتفيها ويلتقى وسط الرأس فى «فيونكة» حمراء، ثم تنزل منه شعرات رفيعة مستقيمة على الجبين كرذاذ النافورة، وترتدى فستانا أبيض شفافًا ذا منطقة حمراء يكشف عن ركبتيها الصغيرتين، فأثاره منظرها، وجمدت عيناه عليها فى إعجاب ورهبة بعد أن أخفت يده بحركة غريزية قطعة «البقلاوة». وانتبه أبوه إليها فانحنى باحترام وهو يقول مبتسما:

ـ أهلا وسهلا بسوسن هانم.

ولاحظ الرجل أنها تنظر إلى ابنه نظرة غريبة فقال يقدمه إليها:

ـ هذا خادمك يوسف.. ابنى.

فدارت عيناها الجميلتان بينه وبين أبيه فى صمت وسكون، ثم ولت مسرعة فى خفة أخاذة، وأسرع يوسف وراءها زحفا على يديه وقدميه كالضفدع، فلما بلغ باب المطبخ أرسل بناظريه خلفها يشاهدها وهى تجرى فى الحديقة حتى أخفتها عن عينيه طرقاتها الملتوية. إنه يذكر هذا المنظر على توغله فى الماضى كأنما لمس حواسه بالأمس القريب، ولا ينسى كيف أنه أيقظ نفسه وقلبه وخياله وبدل موتها حياة حارة وركودها ثورة هائجة. فما أن رجع إلى البيت ورقد ـ ربما حيث يرقد الآن ـ استحضر صورتها وخلا إليها واستغرق فى حسنها وبهائها.. أى حسن؟! وأى بهاء؟!.. رباه.. هل تحوى الدنيا مثل هذه الفتنة وهذه النظافة؟!.. لقد عاشر من جنسها كثيرات، منهن أمه وأربع أخوات ـ تفرقن الآن فى بيوت أزواجهن ـ شتان ما بينها وبينهن، إنهن من طين وهى من نور، وما كان يظن أن لها لحما ودما كلحمهن ودمهن، أو أن يكون بداخلها معدة وأمعاء كبقية الإنس، فنزهها عن هذا وعن غيره، ونزلت من نفسه منزلة الملائكة فى نفوس العابدين..

وكان يوسف رقيق العواطف متوثب الخيال دقيق الحس كجميع هواة الرسم والفنون، وكانت غريزته لا تزال راقدة فى سباتها الذى فطرها الله عليه فدبت فيها الحياة بعد أن نفخت فيها صورة سوسن من روحها العذب، وغاب عنه حينذاك أنه يمثل فصلا من

رواية تكررت مشاهدها آلاف السنين، وأنه يقع فى الأحبولة المنصوبة منذ الأزل لبنى الإنسان، فظن أنه يكشف عالما روحيا جديدا يطير إليه على جناحى الحب. إنه ليذكر هذا الآن فيتعجب لهذا الحب الغريب، الحب الذى هو فلسفة الشباب الشاملة، والذى يتسامى إلى معارج التصوف والتجلى، وينحط إلى مهاوى القسوة والأنانية والقذارة، وتكمن خلف جميع أوجهه تلك الغريزة التى هى أمضى سلاح فى يد الحياة.. واقتطفت ذاكرته صورة أخرى من الماضى الجميل لا يحسن معرفة موقعها من حوادث تلك الأيام، ولكنه يذكر جيدا أنه بعد اللقاء الأول غير مجلسه من المطبخ إلى مكان قريب من الباب، بحيث يستطيع أن يشاهد منه الحديقة طمعا فى أن يرى العروسة الصغيرة التى استبدت بأحلامه وأمانيه، وأنه كان يراها فى صحبة أخوين لها فى مثل عمرها يركبون الدراجة أو يلعبون «بالبلى» أو يستبقون فى ممرات الحديقة الرملية!

ففى جولة من جولاتهم عثروا به، فلفت منظره الغريب أنظارهم إليه وتساءل عنه الصغيران فأجابتهما سوسن بأنه «ابن عم زينهم» فدنوا منه وأنعموا فيه النظر: فى جلبابه الباهت، وطاقيته السوداء، وقبقابه الصغير فجفل قلبه وهم أن يولى فرارا لولا أن صاحت به سوسن بصوتها العذب:

- لا تخف.. ولتبق حيث أنت فلن يؤذيك أحد.

وسأله أحد الصبيين: وقد نسى اسميهما:

- هل أنت ابن عم زينهم؟..

فأحنى يوسف رأسه أن نعم. فسأله الثانى وعلى فمه ابتسامة:

- هل أنت تلميذ؟..

فأحنى رأسه مرة أخرى أن نعم، مما أثار دهشة بين الثلاثة، فسأله الأول:

- وما مدرستك؟..

- خليل أغا.

- فى سنة إيه؟..

- فى السنة الرابعة.

ثم سكت يوسف لحظة يغالب رغبة فى الحديث حتى غلبته، فسأل الأخوين قائلا:

- وما مدرستكما؟..

- الناصرية.

- ولم لم تدخلا خليل أغا وهى قريبة من البيت؟..

فبدت فى عينى الشقيقين نظرة إنكار، وقال أكبرهما:

- الناصرية مدرسة الأغنياء.

وقال الآخر وكان أشد صلفا:

- أما خليل أغا فهى مدرسة الفقراء.

وقالت سوسن:

- ماذا يهم بعد المدرسة إذا كانا يذهبان إليها فى السيارة؟! . .

فردد يوسف عينيه بينهما وقد غلب على أمره واستخذى خجلا ومهانة، وكرهت نفسه الهزيمة فقال بدون داع ولا مناسبة وبصوت يدل على التحدى:

- أنا أول فرقتى . . وأجيد الرسم إجادة فائقة . . إلىّ بورقة وقلم! . .

فنظر إليه الأخ الأكبر بعين الهزء، وأخرج من جيب بنطلونه ورقة وقلما وقال له:

- إليك ما تريد . .

وزاد اهتمام سوسن فاقتربت خطوة منه وقالت:

- إن كنت شاطرا حقا فارسم كلبا.

فبسط الصبى الورقة أمامه بثقة واطمئنان وجرت يده بالقلم فى ثبات وخفة ومهارة فصورت كلبا لا بأس به. ولما انتهى منه نظر إليهم نظرة فوز وظفر، ونظر إليه الأخوان باحتقار وغيظ. أما سوسن فقالت وعلى فمها ابتسامة رقيقة:

- الكلب موضوع سهل . . إن كنت شاطرا حقا فارسم إوزة . .

ولكنه لم يقهر أيضا وذاق لذة الفوز مرة أخرى، فقال الأخ الأصغر:

- الرسم مادة تافهة.

- ولكنى الأول فى جميع العلوم.

- وهذا أمر تافه . .

فقال يوسف بحدة:

- إذن فما المهم؟

فوضع الصبى الآخر يديه فى جيبى البنطلون وقال وهو ينظر إليه من عل:

- المهم أن تكون ابن بك . . وأن يكون لك مثل هذا القصر . . .

هذا ما يذكره من تلك المنافرة الصبيانية، ويذكر فوق هذا أنه عاد إلى بيته ذاك اليوم ينتفض من الغضب والحقد ويمتلئ كراهية للصبيين. أما سوسن فلم يكره منها قولا أو فعلا إذ كانت حبيبة عزيزة جميلة وكان حبيبا عزيزا جميلا كلله الحب بتاجه . .

وكان مستعدا فى أعماقه أن يكرهها منذ صغره إن وجد منها كرها له أو احتقارا، ولا يحب الشر ويعظمه إن آنس منها له حبا وتعظيما، إذ كانت تتبوأ من نفسه مكانة المثل

الأعلى فى كل شىء، فالخير خير بالإضافة إلى أفعالها، والجميل جميل على قدر مشابهته لصورتها.

إنه يذكر تلك اللوثة الهيامية كالمستفيق الذى يتذكر فعاله حين السكر الشديد. ولم يتصل الحديث بينه وبين الأخوين بعد تلك المعركة الكلامية، ولم يرهما إلا قليلا. وكانا إذا مرّا به مرا مقتحمين كأنهما لا يريانه. أما سوسن فكان يراها كثيرا.. ولم تكن متكبرة قاسية كأخويها فكانت إذا التقت عيناها بعينيه ابتسمت إليه أو بادلته كلمة تافهة كانت لديه ألذ من الصحة والعافية.

وكان مرة جالسا القرفصاء وكانت تلعب فى الحديقة على بعد قريب منه، قافزة على حبل تديره خادمتان من طرفيه، فلبث يراقبها بعينين مشتاقتين ويعد قفزاتها على دقات قلبه الولهان. وحدث أن ذهبت إحدى الخادمتين لبعض الشئون، فنادته أن يحل محل الخادمة، ولبى مسرعا سعيدا مغتبطا ظافرا، وود من قلبه لو لم تنته تلك الساعة السعيدة أبدا، ولكن الصغيرة تعبت فتوقفت تستريح، وخشى يوسف أن تنتهى سعادته ويعود إلى مكانه. وكان شديد الرغبة فى أن يحادثها وأن يستمع إلى صوتها العذب الذى يفعل به فعل التعويذة بالمسحور، فسألها:

- هل تذهبين إلى المدرسة؟

وكان يخشى ألا تتنازل وترد عليه ولكنه سمعها تقول:

- نعم..

- أى مدرسة؟..

- لامير دى دييه.

- إنه اسم غريب.

فافتر ثغرها عن ابتسامة ظريفة يرى وميضها الآن منيرا فى ظلام السنين المنطوية وقالت:

- إنها مدرسة فرنسية.

- ألا تتعلمين اللغة العربية؟

فضربت بقدميها الأرض وقالت:

- بلى.. يدرسها لنا شيخ.. هى ثقيلة كريهة.. هل تحبها أنت؟..

- إنى أذاكرها برغم صعوبتها وأحفظ النحو حفظا جيدا.. وأحب الشعر.. لماذا تكرهينها؟

- هى ثقيلة جدا، وقلما تستطيع ذاكرتى أن تحفظ شيئا من قواعدها، ومدرسها رجل ثقيل الدم يضع على رأسه عمامة مضحكة...

فاضطرب وصعد الدم إلى وجهه وذكر طاقيته السوداء وما عسى أن تقول عنها، ثم قال:

- كثيرون يؤثرون العمامة على غيرها.

- هى فى نظرى على كل حال مضحكة... ثم إن هذا الشيخ قذر... لمحت مرة يده فرأيت أظافره سوداء كالطين.

وهنا قبض يديه وود لو يخفيهما.

ومن ذاك اليوم كان إذا نوى الذهاب إلى القصر قص أظافره وخلع طاقيته ولبس الحذاء بدلا من القبقاب. ومضت الأيام وهو على تلك الحال، يرنو بالنظر، ويسعد بالحديث الذى لا يمس الهوى، ويعانى حبا مكتومًا ينمو يوما بعد يوم، وكانت سوسن تستأثر بحياته جميعا، الظاهرة والباطنة، اليقظة والغافلة، فكانت مثار أحلامه حين العمل وحين اللعب، ولدى اللقاء ولدى الغياب، وأوقات الفرح وأوقات الحزن، وعند الصحة وعند المرض. وكانت آخر فكر مودع عند النوم، وأول خاطر مرحب عند الاستيقاظ، وكان حبه طاهرا ساميا ارتفع به من العالم الصاخب إلى حيث يطلع على العالمين كما تطلع الآلهة على المخلوقات، إلا أنه لم يخل من الألم واليأس، بل الحقيقة أن الألم واليأس كانا من مقوماته الأولية لأنه لم يغفل لحظة عما يفرق بين طبقتيهما، ولم ينس الحقيقة المرة التى جعلت أباه يقدمه لسوسن فيقول: «هذا خادمك يوسف»، فهو خادمها ما فى ذلك من شك، وهو وأهله من المحسوبين عليها والعائشين على فتات مائدتها.

حقا إن الحب من دوافع النشاط والاجتهاد والتطلع إلى المجد، ولكنه شك فى قدرة الحب على خلق معجزة عظيمة مثل ربط آنسة جميلة كسوسن بابن خادمها البائس يوسف بن زينهم...

كانت تلك الأفكار السوداء تعصر قلبه عصرا وتسكب السم فى دمه والمرارة فى ريقه، وبلغ به الحزن أنه كان يرمق أباه أحيانا بنظرات الغضب والسخط لأنه كان القضاء الذى حكم عليه بالضعة وأنزله حيث هو من الذل والهوان..

ولكن كانت السعادة تمسه فى لحظات أخرى فيسأل نفسه: لم ترضى بالحديث معى؟ لم تداعبنى وتسألنى؟ لماذا لا تتعالى عن مصاحبتى؟ لماذا تبسم فى وجهى تلك الابتسامة المشرقة التى تقتل اليأس وتهلك الأحزان؟ أليست هى على كل حال إنسانة قبل أن تكون سوسن ربيبة المجد والشرف؟ أليست تخضع لسنن الحياة المستبدة الغامضة التى لا تميز بين كبير وصغير؟

ويغريه بالأمل أنه الصبى الوحيد الغريب الذى تراه مرات فى الأسبوع، وأنه وسيم الطلعة جميل القسمات على رغم فقره وضعته..

ولكن هذه اللحظات السريعة كانت تمر به مرور النشوة بالسكران وتتركه سريعا إلى الحقائق المحزنة . وهكذا فأغلب ما يذكر عن تلك الفترة كان خليطا من الهيام والتسامى والألم واليأس ولحظات قصيرة من السعادة والطمأنينة . وإلى جانب هذه تبرز له من غياهب الماضى واقعة مسلية يذكرها بتفاصيلها جميعا . وكان فى السنة الأولى أو الثانية من المدارس الثانوية ويبلغ الخامسة عشرة من عمره على وجه التقريب . كان ينتظر مقدمها فى مكانه المعهود إذ جاءته وعلى فمها الابتسامة الملائكية وفى يدها كراسة تقبضها وتبسطها فى ارتباك ظاهر ، فأقبل نحوها منتشيا بالفرح والبهجة وكأنه أراد أن يخلق أسبابا للحديث فسألها :

ـ ما هذا الكراسة؟

ـ كراسة العربى . . .

ـ دائما العربى . . . العربى . . .

فتنهدت وقالت :

ـ أعوذ بالله من هذه اللغة . . أتعلم أنه لا يكدرنى فى الدنيا شيء إلا هم حفظها . . فلا الفرنسى ولا الحساب ولا التاريخ بالعلوم التى تعجزنى ، فجميعها كوم والعربى كوم . . .

ثم فتحت الكراسة وأنشأت تقلب فى صفحاتها وهى تقول :

ـ أملى علينا الشيخ سؤالا صعبا . . .

ـ ما هو؟ . . .

فكان جوابها أن طلبت إليه أن يتبعها إلى أريكة فى بعض منحنيات الحديقة ، ثم جلسا جنبا إلى جنب لأول مرة وقرأت السؤال قائلة :

ـ اشرح ما يأتى وأعرب ما تحته خط :

أشــوقــا ولما يـمض لـى غـيــر ليلة

فـكيـف إذا خـب المطى بـنـا عــشــرا؟!

وظن يوسف أن السؤال غاية فى السهولة وأن فى استطاعته أن يجيب عنه فى غمضة عين فقال :

ـ إنه سؤال بسيط وهذا البيت موجود بنصه فى كتاب قواعد اللغة . . .

فهزت كتفيها استهانة وقالت :

ـ لا علم لى بكتاب قواعد لغتك هذا . . أما ما يهمنى فهو أن تملى على مهل الإعراب والشرح . . .

ثم استعدت للكتابة . . . فاعتدل فى جلسته وقطب جبينه استحضارا لفكره الشارد ثم أنشأ يقول :

ـ لما حرف جزم . . ويمض فعل مضارع مجزوم بلما وعلامة جزمه حذف آخره . . .

ثم سكت لحظة يختار ديباجة الشرح ، ثم استطرد :

ـ أشوقا ، ولما يمض لى غير ليلة . . يقول الشاعر :

أأشتاق ولم يمض لى غير ليلة على الفراق . . .

واضطر إلى قطع الشرح لأنه اكتشف فجأة أنه يجهل معنى خب والمطى ، فنادى ذاكرته ولكنها لم تسعفه ، فاضطرب وارتبك واشتد به الخجل وكاد الدم يتفجر من خديه . ولحظت سوسن صمته واضطرابه فسألته وقد قل صبرها :

ـ والشطر الثانى؟

فاشتد به الاضطراب والارتباك والخجل ، وأشفق من أن يفقد مفخرته الوحيدة فى الدنيا وهى ما يزعم من التفوق على الأقران ، فآثر الكذب والتحايل على التسليم بالجهل فقال :

ـ خب بمعنى طال . . والمطى هو الفراق . . معنى الشطر كله كيف إذا طال الفراق عشر ليال لا ليلة واحدة؟

وأغلقت سوسن الكراسة فى ارتياح وطمأنينة ونظرت إليه ممتنة شاكرة ، فأغضى أمام نظراتها الساحرة خجلا وخزيا ، متألم الضمير من تضليله لها وعبثه بثقتها به ، وذكر فى رعب مفاجأتها المتوقعة أمام الشيخ حين يشطب بقلمه الأحمر على شرح الشطر الثانى . . فما عسى أن يكون رأيها فيه أو شعورها نحوه؟

وكاد يغرق فى أفكاره لولا أن سمعها تقول بصوت هادئ عذب :

ـ أأشتاق ولم يمض لى غير ليلة ، فكيف إذا طال الفراق عشرا؟!

ثم ضحكت وسألته؟

ـ لمن قيل هذا البيت؟

وكان قد سرى عنه الهم سماع صوتها وضحكتها ، فقال :

ـ الذى يُفهم أن الشاعر يخاطب حبيبته .

وكانت هذه أول مرة يجرى بينهما فيها ذكر لإحدى اشتقاقات الحب ، فنظر إليها مرتبكا وهاله أن يرى حمرة فى خديها وارتباكا فى عينيها . . ؟ . . لم؟ . .

وكانت الابتسامة لا تزال متعلقة بشفتيها الجميلتين المفترتين عن در نضيد ، وخصلات شعرها مبعثرة على الجبين والخدين ، كلما هب النسيم حملها من حسن إلى حسن ،

فنسى الوجود، وما عاد يرى الأشجار والأزهار ولا يحس بهبات النسيم ولا يشعر بهمومه وتأنيب ضميره، وما عاد يذكر من هو ولا من هى، واستقر وجدانه فى هالة من النور تشع من وجهها الجميل، فأنعم فيها نظرا وهياما.

ولم تقو على نظراته فأسبلت جفونها وتدفق الدم إلى خديها كأن تلك الكلمة الساحرة التى أفلتت من لسانه عن غير قصد أروتها فأنبتت هاتين الوردتين، فلج بها الهيام. واستثاره ما تدل عليه هيئتها من الاستسلام، فمال بهامته حتى مس جبينه خصلة من شعرها وأسكره أريج أنفاسها... وتردد لحظة... ثم لثم فاها... وعلى حين فجأة، انتفضت الصبية فى جلستها كمن يستيقظ على ضربة فى أم رأسه، وقد اتسعت عيناها، وصرخت فيهما الدهشة والذعر، ثم انتصبت واقفة وفرت هاربة...

- رباه... ما الذى أفزعها؟!... ولماذا فرت على تلك الحال؟ وما عسى أن تفعل بعد ذلك؟

وامتلأ قلبه رعبا، فقام من فوره واندفع جاريا فى اضطراب شديد إلى باب القصر ثم ترك قدميه للريح، لا يلوى على شىء حتى انتهى إلى حجرته.

هل يمكن أن تشكوه سوسن إلى أبيها؟ كم كان أعمى مجنونا! كيف آتته الجرأة؟! يا ويحه فقد خدع فظن عطفها محبة وعبثه ودا، وإذا فضحته عند أبيها فماذا يكون مصيره؟ بل ماذا يكون مصير والده نفسه؟ ولكن أباه رجع إلى البيت كعادته ومرت أيام دون أن يوجه إليه أى تهمة أو يتعرض للفصل من عمله، فهدأت نفس يوسف وعاودته العواطف التى غاصت فى قلبه لحظات خوفا وذعرا، ونازعه الشوق إلى الوجه الجميل وصاحبته، ورأى أن ما يمكن أن يصيبه من ذهابه لن يعدل ما هو فيه من ألم الشوق مهما ساء وغلا. فحمل نفسه إلى القصر بعد احتجابه تلك الأيام وانتظر ونفسه حيرى. وجاءته الصبية تسعى، ولما وقع نظرها عليه بدا على مخايلها الغضب، فتقدمت منه خطوات ووقفت متحدية، فأغضى أمام نظراتها خجلا وألما، وانتظر فى يأس الكلمة القاضية، واشتد عليه الحال فقال بصوت تمزقه نبرات الألم:

- كانت غلطة شنيعة... هل أنت غاضبة؟

فأجابته بلهجة حادة:

- طبعا... ماذا كنت تنتظر؟

- اعفى عنى...

- لن أعفو...

وهنا رفع رأسه بحركة سريعة وقد تبدل وجهه من حال إلى حال، لأنه خيل إليه أنها

فاهت بالعبارة الأخيرة بلهجة رقيقة وهى تغالب ضحكة. فلما وقع عليها بصره وجدها تبسم إليه بثغر فتان غفور رحيم . . .

وهم أن يتقدم منها خطوة ففرت منه هاربة!

كانت تلك الأيام أسعد أيام حياته على الإطلاق، لا يذكر أنه سعد سعادتها من قبل ولا من بعد على رغم تنوع الظروف واطراد التجارب. وبعد تلك القبلة وذاك الرضا لم تعد تقابله فى علانية وسذاجة، بل اقتصر التبادل الروحى بينهما على النظرات والهمسات أو اللقاء المختلس تحت الخمائل أو خلف جماعات الشجر، وستر عليهما تعارفهما ترامى أطراف الحديقة وعدم إمكان تسرب الشك إلى قلب من يراهما معا، فعاشا زمنا سعيدا فى غفلة من الناس والدهر حتى وقع ما قضى عليه بالخروج من جنته مقهورا مغلوبا على أمره:

كانا جالسين على الأريكة التى قبلها عليها لأول مرة وقد انساق الحديث إلى المستقبل، قال يوسف:

ـ هل يمكن أن تنسينى فيما يقبل من الأيام؟

فنظرت إليه نظرة إنكار وقالت:

ـ أنا؟! . . مستحيل . . .

ـ ولكنى أخشى أن يبدد أهلك أحلامنا . . . فتنهار آمالى وأفقد سعادتى.

فردت عليه وقد كشرت عن أنفة وكبرياء:

ـ أبدا . . . لن أسمح بهذا ما حييت . . .

فصمت يوسف لحظة يمتع نفسه بحماسها الفاتن، لكن لم يطل به الصمت السعيد لأنه تذكر العقبات الأوابد التى تسد عليه الطريق، فتنهد وقال كأنما يحدث نفسه:

ـ ترى هل أبلغ أمنيتى يوما فأتزوج منك؟

وكانت تلك هى المرة الأولى التى ينطق فيها بتلك الكلمة الخطيرة، ولذا أنكرتها أذنه وخيل إليه أن قائلها غريب عنه. أما سوسن فقد ارتجفت شفتاها عن اضطراب وتدفق الدم إلى وجهها فصار كالجمان . . . ولم يكن يطمع أن تجيبه بأكثر من هذا . . . وبعد هنيهة ذهبت فى التفكير والأحلام فسألته:

ـ أى مستقبل تبتغى . . . ؟!

فأجاب:

ـ أنا مازلت فى مستهل الطريق ومبتدإ العمر . . . وكل صعب يسير مع الجهد والعزيمة الصادقة، فعليك الاختيار وعلى الاجتهاد . .

ففكرت لحظة تختار لزوج المستقبل ما تحب من المهن والأعمال، ثم قالت:

ـ ألا تستطيع أن تكون من الأعيان؟ إننى أسمعهم دائما يقولون عن بابا إنه من الأعيان، فلم لا تكون مثله . . . ؟

ـ من الأعيان . . ولكنها ليست وظيفة ولا مهنة . . الوظائف التى أعنى مثل المهندس والمدرس والضابط والطبيب . . .

وعادت مرة أخرى إلى التفكير والمفاضلة، وكانت عيناه لا تفارقان وجهها، فرآه تضيق عيناه وتنفرج شفتاه من الذهاب مع التفكير، ففتنه منظره وأنساه نفسه كما فعل به فى المرة الأولى، فاقترب منها وهوى برأسه يريد أن ينال منها قبلة . . . ولكنه أحس بغتة . . . نعم بغتة بشىء يصيب رأسه وسمع صوتا يصرخ به :

ـ أتجرؤ يا كلب؟! . . .

والتفت مذعورا فرأى أخا الآنسة الأصغر ينهال عليه لكما وضربا . وأراد دفع السوء عن نفسه فأمسك بتلابيبه، فتضاعف غضب الأخ وضاعف له الضرب . . . ووقفت سوسن على بعد قريب تشاهد ما يقع بعينين محملقتين ووجه شاحب كوجوه المرضى .

ولا يدرى كيف نمى الخبر إلى أبيه، فجاء يجرى مضطربا فأمسك بيوسف بعيدا عن الصبى الآخر وسأله بصوت ملؤه الاحترام :

ـ لماذا تجد عليه يا سيدى؟ ماذا فعل . . ؟

فأجاب بصوت عال مغيظ :

ـ رأيته يحاول أن يغتصب . . . قبلة من سوسن بالقوة!! . .

فصرخ الرجل :

ـ يا للفظاعة! . . هل حقا يا سيدتى؟

وكانت سوسن لا تزال ملازمة الحالة المباغتة التى استولت عليها . . فلما سمعت سؤال الرجل اضطربت ثانية . . . ثم بلعت ريقها وقالت بصوت خافت :

ـ نعم . .

وفرت هاربة من الواقفين ومن عينى يوسف بخاصة .

بعد هذا شد الرجل على يد ابنه وساقه أمامه . . وقد هم يوسف أن يتكلم فما أحس إلا بيد أبيه تصيب مؤخرة رأسه فيقع على وجهه بين الإعياء الشديد والإغماء . .

وهكذا كان ختام حديث الحب والمستقبل . . وهكذا كانت نهاية مغامرته فى قصر سليم بك عامر . لقد بدا له تصرفها أول الأمر غدرا وخيانة . ولكنه لم يلبث أن انتحل له الأعذار . . . وما كان الغضب ولا الموجدة ولا الاعتقاد فى غدرها بمستطيعة أن تزحزح الحب عن قلبه قيد أنملة، فانزوى فى حجرته يعانى الحرمان والألم واليأس المميت شهرا

بعد شهر وعاما بعد عام. حقا لقد كان حبا عجيبا رهيبا . . . وإنه لن ينسى ما عاش تلك الأعوام التى شهدت أيامها وساعاتها ودقائقها معاناته الألم الشديد واليأس والحب الخائب. وفى بعض ساعات اليأس والشوق رسم صورتها على حائط حجرته التى شهدت آلامه جميعا وكتب إلى جانبها تلك الأبيات الشعرية، وجعل يرددها كل حين عله ينسى ويتعزى.

وما كان يستطيع أن يتصور أنه ينسى . . .

ولكن للأيام أحكامها، وقد تسرب النسيان إلى طيات قلبه نقطة نقطة حتى برئ وشفى وعفا من قلبه الهوى. ثم تقدم به العمر ووظف ثم تزوج وخلف وضاق بالحب . . .

وكم سخر من حياته ومن دنياه . . إلا ذكرى واحدة إذا زارته انبسطت أسارير وجهه ولاحت فى عينيه الأحلام . . . وبعد فحسبه أن تذكر . . . لأن التذكر للقلب كالحفر فى باطن الأرض يفجر الماء فياضا غزيرا . . .

مفترق الطرق

زماننا عاثر الحظ أو نحن به عاثرو الحظ، فأينما تول وجهك تسمع تنهد شكوى أو تر تجهم كدر. ولن تعدم قائلا يقول: إن هذا الزمان أضيق رزقا وأنضب حياء وأفسد خلقا وأقل سعادة وأنسا من الزمان الماضى. ويجوز أن نكون لزماننا ظالمين، وأننا نتحامل عليه لا لعيب اختص به دون غيره من الأزمنة، ولكن تبرما بقساوة الحياة وفرارا من جفاف الواقع ولياذا بظلام الماضى الذى يشبه ظلام المستقبل بعث أمل وطب آلام. ومهما يكن من أمر هذا السخط، فما من شك فى أن جلال أفندى رغيب كان على حق فى شكواه التى يرددها بغير انقطاع. كان مراجع حسابات فى وزارة المعارف وفى السادسة والأربعين من عمره، قد وسع الله له فى إحدى زينتى الحياة الدنيا وقتر عليه فى الأخرى، فرزق ستة أبناء يسعون ما بين حجر الأم والسنة الرابعة الثانوية. وأما مرتبه فسبعة عشر جنيها، فناء بأثقال العيش ومتاعب الحياة، وقصمت ظهره المصاريف المدرسية.

وكان كثيرا ما يقول متبرما حانقا كلما آن موعد قسط أو اقترب موسم من المواسم:

- رجل مثلى - أب لستة ذكور، اثنين فى المدرسة الثانوية، واثنين فى المدرسة الابتدائية، وواحد فى المدرسة الأولية، وواحد فى البيت، غير زوجة وأم - لا تراه

الوزارة حقيقا بإعفاء واحد من أبنائه من المصاريف . . فمتى إذن تجوز المجانية؟! . . ولمن تجوز؟

وكان كغالبية أهل هذا البلد يائسا من العدالة قانطا من الخير، يعتقد اعتقادا كالإيمان الراسخ أنهما لا يصيبان إلا المجدودين من ذوى القربى والأصهار والأصدقاء، فرأى أن ليس أمامه سوى الكفاح الشاق، ومعاناة الشدة عاما بعد عام، والتصبر على مرارة الحياة. ولبث على حاله لا يطمع فى رجاء حتى تولى وزارة المعارف معالى حامد بك شامل، فطرق أذنيه اسم الوزير الجديد، وجذبت عينيه صورته المنشورة فى الصحف، فومض فى أفقه المظلم بارق أمل جديد، وانتعشت نفسه برجاء لا عهد له به، وقال لنفسه:

ـ ينبغى أن أقابله . . وأن أشكو إليه . . هل يرفض رجائى؟ . . لا أظن.

وقصد يوما إلى سكرتير الوزير وكتب حاجته على رقعة ليوصلها إليه، فمضى الشاب بها وتركه فى حالة من القلق والإشفاق لا توصف، وعاد مسرعا يقول لجلال أفندى:

ـ معالى الباشا مشغول جدا اليوم فلتتفضل بالمجىء ضحى الغد.

فعاد إلى حجرته مسرعا واجدا متألما، وكان ألف طوال مدة خدمته خيلاء الرؤساء وانتهار المديرين، ولكن انشغال الوزير آلمه أكثر من أى شىء. وجعل يتساءل: ترى هل يذكرنى؟ . . ولم يكن شىء ليصده عن هذا الباب، فذهب ضحى الغد كما قال له السكرتير وانتظر طويلا حتى قال له الشاب:

ـ تفضل!

فقام مسرعا خافق الفؤاد، وفتح له الباب المحروس فاجتازه إلى الحجرة ذات السجاجيد والزخارف، ونظر إلى صدر المكان فرأى معالى الباشا كما يدعونه يطالع فى شىء بين يديه، فلما أن شعر بوجوده رفع إليه عينيه ومد له يده وعلى فمه شبه ابتسامة وقال:

ـ أهو أنت؟! . . لقد اشتبه على الاسم . . أو ما تزال حيا؟

فسر جلال للمداعبة الأخيرة واطمأنت نفسه وقال بخضوع وإجلال:

ـ نعم يا صاحب المعالى ما أزال أكابد حظى فى الدنيا.

فنظر إليه نظرة استفهام، ومال إلى الوراء قليلا وهو يتمتم:

ـ أفندم! . .

فقال جلال:

ـ يا معالى الباشا قصدت إلى معاليك لأشكو إليك ما أشكوه من عنت الدهر وشقاء الأيام. لى أسرة كبيرة وأبناء كثيرون ومرتبى صغير، ولست طامعا فى علاوة أو درجة، ولكنى أضرع إلى معاليكم أن تعفى ابنين لى فى مدرسة شبرا الثانوية من المصروفات.

ـ الاثنين معا؟!

ـ نعم يا معالى الوزير، إن آمالى مشرقة بمعاليكم، لقد جاورت معاليكم عهدا طويلا من سنى الدراسة، وينبغى لمن حظى بذاك الجوار أن يربو حظه على حظوظ الناس جميعا، خصوصا إذا علمتم أن لى غيرهما أربعة آخرين.

فقال له الوزير باقتضاب:

ـ قدم لى مذكرة.

وكان الرجل محتاطا لذلك، فأخرج من جيبه التماسا أعده لهذه الساعة وقدمه إلى الوزير، فجرت عليه عيناه بسرعة، ثم أمسك قلمه ووقع عليه بكلمة، وقال للرجل:

ـ اطمئن...

فانحنى جلال أفندى تحية، فتكرم الآخر بمد يده له، ثم غادر الحجرة مغتبطا مثلج الصدر. ولكنه ما كاد يعود إلى مكتبه بالوزارة، حتى قال لنفسه متعجبا:

ـ لم يتغير «حامد شامل» ألبتة، ولا تقدم به العمر، وكأنه فى ريعان الشباب... هل يصدق إنسان أن كلينا ابن خمس وأربعين؟.. تالله إنى لأبدو لعين الناظر فى سن والده!..

وقضى وقته يفكر فى الوزير، فى حاضره وماضيه، وفى صلته القديمة به.. ثم اضطجع بعد تناول غدائه فى بيته، وأشعل سيجارة، واستسلم إلى أحلام الذكريات.. فألوت به إلى عهود الماضى المنطوى.. إلى الوقت الذى كان يجلس فيه إلى يسار التلميذ «حامد شامل» على مقعد واحد، لا يكاد يفرق بينهما فارق جوهرى.. وكان التلميذ «حامد شامل» يلفت الأنظار إليه ببياض بشرته واحمرار شعره، بملازمة عبد متهدم طويل يرتدى بذلة سوداء له فى الطريق إلى المدرسة، وفى طريق العودة، يتبعه كالظل إذا مشى، ويطمئن إلى مكانه إلى جانب حوذى العربة إذا ركب. ولذلك كان يحلو لرفاقه أن يداعبوه فدعوه «حامد أغا».

على أنه عجب غاية العجب كيف كانت المنافسة تحتد بينه وبين وزير اليوم وتلميذ الأمس كأنهما أخوا حظ واحد.. والأعجب من هذا أنهما جريا معا وراء تلك العاطفة ـ التى تهيج الجد والنشاط ولا تتسامى عن المرارة والألم ـ منذ أول عهد تجاورهما، وكانا فى كفاحهما كأنهما يعيشان منفردين فى فصل واحد، فكانت الغاية التى يهدف إليها كل

منهما أن يتفوق على قرينه بغير مبالاة الآخرين. وعلى الرغم من استعانة حامد بالدروس الخصوصية يتلقاها على أنبه مدرسى المدرسة، فقد كانت الغلبة بينهما سجالا، وكانت كفة جلال الراجحة.. وكانا فى ملعب كرة القدم مثلهما فى الفصل لا يريحان ولا يستريحان.. وكان كلاهما يزعم أنه أحق من صاحبه بقلب الدفاع.. فكان مدرس الألعاب يعاقب بينهما فيه، حتى بدا تفوق جلال للجميع فاستأثر به، فكان آخر عهد الآخر بلعب الكرة.

يالله!.. كانا يستبقان كأنما الدنيا تضيق عنهما معا، وكأنما كان مستقبلها ينذر بحرب مستعرة تشمل ميادينها الجد واللعب والإدارة والوزارة. فكيف شالت كفته بعد ذلك؟! كيف سقط من عيون الغربال وضاع فى الحثالة؟... كيف صار رفيقا المقعد الواحد أحدهما وزيراً والآخر مراجعا بالحسابات ينوء صدره بآلام الحاضر ووساوس المستقبل؟!

ثم تمتم قائلا وهو يطفىء سيجارته ويرمى بالعقب إلى المنفضة:

- تالله ما يستحق أن يكون وزيرا ولا وكيل وزارة ولا شيئا من هذا!

وخشى أن يكون متجنيا عليه أو مائلا مع عواطفه القديمة، فتساءل باهتمام وجد كأنما يزمع كتابة ترجمة له: كيف اعتلى كرسى الوزارة؟.. لقد انفصلا فى نهاية الدراسة الثانوية فاضطر هو لأسباب إذا ذكرها جرت المرارة فى فمه، إلى الانقطاع عن الدراسة والتحق صاحبه بمدرسة الحقوق، ثم حصل على الليسانس، وكان أبوه محمد باشا شامل وزيرا للحقانية فعينه سكرتيرا له فى الدرجة الخامسة، فكانت القفزة الموفقة الأولى. وقرأ بعد ذلك فى الصحف أنه اختير لبعثة فى فرنسا لا يعلم كم أمضى بها ولا ما حصل عليه فيها من الإجازات، ولكن كثيرين يعلمون بزواجه بعد ذلك بسنوات من كريمة المرحوم حامد باشا حامد الذى تولى الوزارة مرات، فارتقى فجأة إلى الدرجة الثالثة مديرا لإدارة التشريع. وانقطعت عنه أخباره فترة وجيزة حتى علم بتوليته مديرية أسوان، ثم بترقيته محافظا للقناة بعد ذلك بقليل، ثم باختياره وزيرا للمعارف. ومضى على توليته الوزارة أسابيع والمجلات لا تكف عن الإشادة بمواهبه القانونية ومقدرته الإدارية ومشروعاته عن إصلاح التعليم. وكاد جلال أفندى أن يصدق ما يقال لو لا أنه قرأ مقالا عن تفوق الوزير فى عهد الدراسة - فى العلم والرياضة البدنية معا - وكيف أن مفتشا من مفتشى الوزارة تنبأ له على أثر مناقشته بأنه سيكون يوما وزيرا، فأغرق الرجل فى الضحك، وقال ساخرا:

- الآن فهمت سر المواهب القانونية والإدارية.

وتنهد جلال أفندى رغيب وتمتم قائلا: «دنيا!». وأراد أن يريح نفسه من أفكاره فتناول مجلة يقلب صفحاتها المصورة. والظاهر أن ذكريات الوزير كانت تأبى أن تفارقه، فرأى صفحة من المجلة مخصصة للوزير تتوسطها صورة كبيرة، ما إن بصر بها حتى صاح

فى دهشة وغرابة: «رباه هذه صورة فصلنا القديم». وألقى عليها نظرة سريعة فثبت بصره على صورته وكان يقف فى الصف الأول وراء المدرسين مباشرة إلى يمين الوزير ينظر إلى عدسة المصور فى ابتسام وثقة، وكان الوزير كالعابس وعلى حاجبه الأيمن ذبابة، فضحك جلال طويلا وذكر قصة الذبابة، وقد كانت فى الأصل من نصيبه هو، وتنبه لها والمصور يهم بالتقاط الصورة فهشها بسرعة فطارت عنه إلى حاجب قرينه وحطت عليه، وقد أحس أسفا لذنب الذبابة فلعلها كانت ذبابة الحظ السعيد سكنت إلى وجه الوزير المدخر.

ورنا إلى الصورة بعينين حالمتين فهامت روحه فى آفاق الماضى حتى شعر بأن روح الطفولة تحل فيه مرة أخرى، وأن شعيرات قذاله البيضاء تسود، وتجاعيد جبينه وما حول فمه تلين، ونظرة عينيه تصفو وترق، ويمسح على ما فيها من هم وبلبال.. أحس قلبه يخفق مرة أخرى بالأمل والطمأنينة، وجرى بصره على الوجوه الصغيرة وهو يتساءل: ترى كيف سار هؤلاء جميعا؟.. وعاين أول صورة فى الصف الأخير فعرف صاحبها بوضوح غريب، وذكر اسمه «عبد الملك حنا»، وذكر كيف كانت نوبات الصرع تنتابه فى الفصل حتى انقطع عن المدرسة.. أما بقية الصف فتذكر وجوههم وغابت عنه أسماؤهم ومصايرهم. وعرف فى الصف الثانى وجها كأنما تركه بالأمس. كان ابنا لأحد كبار المستشارين فكان يتمتع لذلك بنفوذ وصولة فيحييه الناظر إذا بصر به ويلاطفه المدرسون، وقد علم فيما بعد أنه عين وكيلا للنيابة وترقى قاضيا، ولعله يتأثر الآن خطى أبيه الكبير. أما من يليه من الصغار فجلهم من المغمورين وبعضهم معه فى المعارف وهو يعرفهم حق المعرفة، وأما آخر هذا الصف ـ الذى ينظر إلى المصور بتحد غريب ويشبك ذراعيه على صدره ـ فكان من أشقياء التلاميذ المولعين بالشجار والتصادم، وقد طرد من المدرسة لاعتدائه على أحد المدرسين، ومن العجيب أنه احترف فيما بعد «البلطجة»، وطاف بالسجن مرات.

وألقى نظرة أخيرة على الوجوه الأخرى فلم يعرف عنها شيئا إلا الدكتور المعروف «حنا عبد السيد»، وإلا هذا الذى يتوسط الصف الأول، كان أنبغ التلاميذ جميعا، وكان أول الابتدائية، ثم أول البكالوريا والتحق بمدرسة الحقوق كبير الهمة سخى المواهب، ولكنه أصيب أول عهده بها بداء الصدر فاضطر إلى ترك المدرسة والكف عن التحصيل، واشتغل بعد ذلك بعامين كاتبا فى الصحة.. فلا يقل حظه شذوذا عن حظ الوزير نفسه.

نال كل منهم نصيبه وخضع لحكم حظه وسعيه. كانت جدران واحدة تجمع بينهم، ولا يكاد إنسان يتميز وراءها إلا بجده وخلقه، ففرقت بينهم الحياة، فرفعت وخفضت، وأحيت وأماتت، وأذاقت الفقر، ومتعت بكرسى الوزارة، وكل بما قسم له غير راض ولا قانع...

ونظر جلال أفندى عند ذاك فى الساعة فوجدها تدور فى الرابعة، فعلم أن موعد الصغار آن واقترب، وأنهم عما قليل يملئون البيت حياة وقلبه نورا، فرمى بالمجلة بعيدا وطرد من عقله الوسواس ليستقبلهم أجمل استقبال، وقال لنفسه متعزيا :

ـ من الخطإ أن يفكر الإنسان فى شئون الناس ما دام هذا لا يورث إلاّ الضيق، وحسبى أن معاليه قال لى : «اطمئن».

التطوع للعذاب

انتهى الأستاذ حسان جلال (وهو محام تحت التمرين) من كتابة المذكرة القضائية ـ التى شرع ينشئها منذ الصباح الباكر ـ فى تمام الساعة الثانية عشرة. وكان الجهد قد نال منه كل منال فاستند إلى ظهر كرسيه فى إعياء ونصب. ومد يده إلى فنجال قهوة وارتشفه وهو ينظر إلى الأمام بعينين يوشك أن يلتقى جفناهما. ودخل الخادم عند ذاك فأقبل على سيده وبصَّره بخطاب كان تركه على المكتب قبل ساعة والشاب مستغرق فى عمله. فألقى عليه نظرة فاترة، وتناوله بغير اكتراث، ولكنه حين وقع بصره على الخط المكتوب به العنوان حدثت فى وجدانه صدمة عنيفة مباغتة أرهفت حواسه وأثارت انفعاله وأقلقت باله، فالتمعت عيناه بنور خاطف وبدا شخصا جديداً. عرف الخط من أول نظرة فتأمله بدهشة وكأنما ينظر إلى وجه كاتبه فى ضوء النهار، فلم ير خطا ولكن رأى وجها مستديرا كالبدر، خمرى اللون، تدل قسماته الدقيقة على الأناقة والملاحة.

وغشيه الانفعال ساعة لا يدرى من أمره شيئا، ثم جذبه الخطاب من العالم الداخلى الغارق فيه، ولكنه لم يطع لأول وهلة الدواعى الدفينة التى تهتف به أن يفض الغلاف، وأبقاه على يده وجعل يديم النظر إليه فى شغف ولذة وارتباك وخوف. وقد فرح به وحزن، ورضى عنه وغضب. وتساءل فى حيرة : أيصح أن يطلع على ما فيه أم الأولى له أن يطرحه فى سلة المهملات؟ . . على أنه كان يتساءل ويداه تفضان الغلاف بسرعة وتبسطان الخطاب. وما لبث أن قرأ مطلع الكتاب، وهو «عزيزى حسان»، فلم يستطع أن يستمر فى القراءة واستولت عليه خواطر وشجون، وأحس بخيبة لم يهون من شأنها أنه كان يتوقعها. كانت إذا كتبت إليه فيما مضى تبدأ خطابها فتقول : «حبيبى حسان»، أما اليوم فإنها تتجنب هذه الكلمة الساحرة، ولعله دار بخاطرها ما يدور بخاطره الآن حين همت بالكتابة إليه فليس إبدال عزيزى بحبيبى بالشىء الهين، وإنما هو حدث من الأحداث وفجيعة من الفواجع . .

رباه. لماذا تراسله وتجذب أفكاره إلى واديها فتنكأ جرحا فى فؤاده أوشك أن يلتئم

وتثير بركانا كاد يخمد بين جوانحه؟ وتنهد من أعماق صدره وكر بعينيه الحالمتين إلى صفحة الخطاب، وألقى عليها نظرة عامة، فأدرك إيجازها «التلغرافى» وأحس لذلك بكآبة الكلمات:

«سأنتظر أصيل اليوم فى مكاننا المعهود بالحديقة الأندلسية، فإن أنت أتيت لكى نصفى الحساب (أى حساب يا ترى؟) رحبت بك، وإن أنت أصررت على الجفاء فيكون هذا آخر ما بيننا إلى الأبد».

ويلى ذلك الإمضاء المحبوب: إحسان ج. وكان أول ما فاه به بعد تلاوة هذه الكلمات أن قال باضطراب: «أصيل اليوم فى مكاننا المعهود». وأحس بدنو الموعد فاهتاج شعوره واضطرم صدره، ثم استقر بصره على هذه العبارة: «فسيكون هذا آخر ما بيننا إلى الأبد». فجفل منها وذعر، وانقبض صدره. ألم يجعل فراق سنة هذه العبارة حقيقة واقعة؟! أوَلَم يكن يظن أنه نفض منها يديه إلى الأبد؟!... بلى، ولكن ذاك الخطاب رده إلى ماضيه بسرعة، فانبعثت فيه حرارة كما تنبعث الكهرباء فى المصباح بعد سريان التيار إليه. وضاق عند ذاك بمقعده وبالمكان، فاعتزم مغادرة المكتب الذى يتمرن فيه وطوى الخطاب وارتدى طربوشه ومشى إلى الخارج. وفى الطريق ارتد خياله إلى الماضى يتعقب حوادث الأمس المنطوى..

لا يدرى بالضبط متى تعرف بإحسان وإن كان يشعر بأنها تملأ ماضيه جميعا، ذلك أنه لم يعتد مطلقا عادة كتابة المذكرات، فسجلت ذاكرته الحادثات بنسبة تأثرها بها لا على حقيقة وقوعها، ولكنه يذكر بغير ريب أنه فى صيف العام الماضى سكنت أسرة إحسان فى عمارة رقم ١٠ بشارع البستان بالسكاكينى، وأنه تعرف بالفتاة قبل أن يمضى شهر على نزولها بالحى الجديد. وقد جعلت المقادير حجرة نومها تجاه حجرة نومه، فتهيأت لكل منهما الفرص لتذوق صاحبه وتقدير مزاياه. وجذبته بادئ الأمر ملاحتها وأناقة قسماتها، فانجذب إليها ينشد الحب واللهو والعبث، وما يدرى إلا وقد بهره ذكاؤها ورقة روحها وأنوثتها الناضجة، فأحبها الحب الصادق، وتعاهدا مخلصين أن يكون لها وأن تكون له ما امتد بهما العمر.

وشاركا المحبين حياتهم الهنيئة التى تطرد فى هدوء بين المناجاة واللقاءات والوعود والآمال كأنها جدول صاف يشقّ حقلا من بدائع الورد والرياحين. إلى أن كان يوما عادت أمه فيه من إحدى الزيارات تكيل الذم لفتاة التقت بها لأول مرة فى بيت جارتها. فدفعه حب الاستطلاع إلى السؤال والتحرى فإذا بالفتاة فتاته دون غيرها، وإذا بأسباب غضب أمه عليها أنه دار حديث بين السيدات عن أعمارهن. ولما سئلت أمه عن سنها قالت: «كنت ابنة عشرين أيام الحرب»، وكانت تعنى الحرب الكبرى. ولكن إحسان تساءلت بخبث تعقب

على قول السيدة (وهى تجهل أنها أم حبيبها) : «حرب عرابى يا تيزة؟!» . وضحكت السيدات طويلا وضحكت إحسان كذلك ولم تكن قالت ما قالت إلا بدافع الميل إلى الفكاهة، ولكن أمه لم تحتمل هذه الفتاة، وأحست بطعنة أليمة نغصت عليها صفوها. واستمع حسان إلى قصة والدته باستياء وغيظ وأسف وكان ينوى قبيل ذلك أن يعلن خطبته فاضطر إلى التريث مغلوبا على أمره، وعهد بإسكان ذاك الغضب إلى الزمن.

ولما ظن أن ما كان من الأمر قد نسى وعفا أثره تقدم إلى والدته يحادثها فى أعز أمانى قلبه، ولكنه وجد منها ازورارا وإباء، وكبر عليها جدا أن تستأثر بابنها غدا التى أهانتها بالأمس. فرفضت الإصغاء إليه وأصرت على أن مثل تلك الفتاة غير جديرة به ولا كفء له. وذهبت كل محاولاته وتوسلاته لاسترضائها أدراج الرياح. وعجب حسان لغضب أمه : أكان حقا لتلك الدعابة المرة، أم لإشفاقها من احتمال تحول قلب ابنها الوحيد عنها إلى امرأة أخرى؟ أم كان لهذين معا؟ . . ومهما يكن من الأمر فقد أسقط فى يده وتوزع قلبه ألما وحزنا بين أمه وحبيبته، وكابد فترة من الحياة مليئة بالقلق والعذاب، موزعة بين الألم والضجر واليأس والحنق.

ثم أعلن ما كان سرا وافتضح ما كان خافيا، فصار عداوة صريحة بين أمه وخطيبته تحدثت بها ألسنة الحى جميعا. وإنها لعلى شدتها وقوتها إذ أحست أمه بالمرض فجأة فلزمت الفراش ثلاثة أيام ثم انتقلت إلى جوار ربها فى اليوم الرابع، ووقع عليه الخبر بعنف وشدة، ففزع وهلع وتقطع قلبه ألما. كان يحب أمه حبا كبيرا، وقد هاج الفراق الأبدى الحب المتغلغل فاختنق بالعبرات وأظلمت الدنيا فى عينيه . . .

ووسوس له قلبه بخاطر زاد من ألمه. قال عسى أن تفرح إحسان لموت أمه وقد كانت تعدها حجر عثرة فى سبيل سعادتها، فما من شك فى أنها سعيدة مغتبطة وإن تظاهرت بمشاركته حزنه. وآلمه هذا الخاطر ألما عميقا وزاد من وقعه أن سمع من حوله يتهامسون به فانطوى على الحزن والغضب ورأى قبر أمه العزيزة يقوم حائلا منيعا بينه وبين الفتاة . .

فهجرها فجأة وامتنع عن الرد على رسائلها وانغمس فى الكآبة والأحزان ومكابدة الآلام والأشواق زائغ البصر بين ذكرى أمه وذكرى سعادته حتى تعود على الألم وألف التصبر والتجلد، وظن أنه يتناسى الماضى بهمومه وآلامه أو أنه نسيه بالفعل.

ازدحمت هذه الذكريات برأسه فى طريق العودة إلى البيت ولكنها لم تصحب بعواطف فى مثل مرارتها وحزنها، إذ كانت الذكريات تمر برأسه أخيلة مجردة عن عواطفها وإحساساتها. أما وجدانه فكان كله مستغرقا فى أثر الخطاب والموعد. لذلك انصرفت نفسه عن الغداء، وعز النوم على جفنيه وحامت أفكاره حول فتاته فتمثلها أمامه بقدها الممشوق ووجهها البدرى وكأنه كان يسمع رنة صوتها، ويشم رائحة «سوار دى

بارى» التى تتعطر بها، فانفعل انفعالا شديدا نبا به عن الطمأنينة . ولم يكن قر رأيه على شيء ولا بت فى المسألة برأى، بل كان يحاذر من مواجهتها مواجهة حتى لا يقطع فيها برأى ينغص عليه أحلامه أو يميل بها إلى حل يثير كوامن أحزانه.

حتى إذا وافى الأصيل وجد نفسه يغادر البيت ويقصد إلى قصر النيل مستسلما لتيار عنيف لا يتنكب عن طريقه ويأبى أن يقر بالاستسلام. ولكنه ألفى نفسه أمام ما يحاذره حين عبر الجسر، وطالعته الحديقة الأندليسية بخمائلها المعشوشبة ومدرجاتها السندسية، هنالك أحجم عن التقدم وانعطف إلى يمينه يساير النيل مضطربا حتى حجبه سورها الحجرى ثم استند إليه متريثا وقد لفته الحيرة والاضطراب ولبث فى جمود تام. وكانت أفكاره تنجذب بشدة نحو تلك التى لا يفصلها عنه سور السور الحجرى. وسرى فى ملمسه من الحجر البارد تيار حار متدفق، فخفق قلبه بعنف وكاد يتحول إلى الباب مندفعا. وفى تلك اللحظة الفاصلة ارتد خياله ـ فجأة ـ إلى بعض حقائق الماضى الأليمة، فبردت حماسته وهبطت حرارته وانتكس انتكاسا غريبا أحس من جرائه بخجل واستحياء وألم فجعل يتساءل مغيظا محنقا: كيف حملتنى قدماى إلى هنا؟! ولم يلبث أن احتدم بقلبه الغضب وخال أن إقدامه على الذهاب إلى هناك عيب حقيق بأن يجعله ضحكة للضاحكين والشامتين وهز منكبيه باستهانة وانحدر فى الطريق الضيق مبتعدا عن الحديقة. ولم يعتوره التردد سوى مرة واحدة وقف عندها قليلا والتفت وراءه ثم استأنف المسير بعزم ويأس، ولم يكن يملأ فراغ خياله حينذاك سوى صورة أمه..

وهكذا خان عهد سعادته ليكون وفيا لذكرى أمه، وكثيرون هم الذين يعانون الآلام والمتاعب فى سبيل ما يتمثل فى نفوسهم من الأوهام.

القىء

كان سعادة سعيد باشا كامل يقول كثيراً لخاصته إن رجلا مثله ألفت نفسه العمل والنشاط لأحرى أن تقعده حياة المعاش مقاعد المرضى المنهوكين. وصدقت نبوءته، فما كاد يحال على المعاش حتى سارع إليه ذبول الشيخوخة واعتوره الإعياء والخمول. ولذلك فإنه حين أصيب بالأنفلونزا لم يعمد كعادته إلى قهرها بالعناد والإيحاء الطيب والمثابرة، ولكنه رقد على فراش المرض عشرين يوماً قانعا من لذيذ المأكل والمشرب بعصير البرتقال وماء الليمون. على أنه فى فترة النقاهة اعتاض عن تصبره لذة لم يكن له عهد بها؛ كان الصيام قد صفى بطنه وطهر قلبه وأسكت نوازع جسده الصارخة، وطرد أشباح نفسه المفزعة، فأضاء عقله بسنا نور بهيج، واستنارت بصيرته بالصفاء والتجلى، وتبدت له الأمور على غير ما كان يرى.

تراءت له الدنيا كومة من تراب، وكأنه يعتلى قمة السماء التى تظلها، وانكشفت له الحقيقة بغير قناع، فكأنما انجلت غشاوة الغرور عن ناظريه، فأحس أن بنفسه كنزا يغنيه عن الدنيا وما فيها، وشعر بالسلام والطمأنينة يتدفقان من ينابيع صدره فذاق سعادة الجنان، وما كان ليفيق منهما لولا أن كر به الخيال إلى الوراء يتيه فى غياهب الماضى وينبش قبور المنطوى من الزمان، وينشر الرم والعظام من الذكريات . .

كيف اختار أن يدعو الماضى ليتطفل على سعادته الراهنة؟ كيف رضى أن يغفل عن لذة الصفاء ليعانى ضراوة الأفكار؟ فى الحق أنه لم يرغب فى ذلك مختاراً ولا راضيا، ولكنه وجد الذكريات تطرق باب قلبه بإلحاح وعناد وعنف، فلم يملك إلا أن يفتح لها كارها وأن يستقبلها ساخطا متبرما وأن يجترها بتقزز ونفور. ولم تكن المرة الأولى التى تزوره فيها ولكنها لم تكن تبدو له مخيفة ولا محزنة، أما فى ساعة الصفو والتجلى فقد آلمته وأحزنته لأنه استقبلها بقلبه الجديد.

رجع به الخيال إلى عهد كان سعيد أفندى كامل كاتبا بالأرشيف فى الدرجة الثامنة المخفضة! وكان يقيم فى منزل قديم بعطفة الجلاد بباب الشعرية يعانى الأمرين من بساطة حاله وكثرة تبعاته وطموح قلبه وتعالى همته. وكان يقول لنفسه دائما إن الله وهبه ذكاء عاليا ولكن حظه السيئ ران عليه فصدئ وخبا؛ ولكنه كان معروفا بين الجيران لجمال زوجته الحسناء، وكانت أمينة من أصل تركى عاجية البشرة سوداء الشعر والعينين فاتنة القسمات، فكان أهل الحى يدعونها بالأميرة وكانوا يضربون بجمالها المثال.

وفى يوم من الأيام صدر قرار وزارى بنقله إلى أسيوط فأسقط فى يده، لأنه كان يعول والديه وإخوة صغاراً ولا يقوم مرتبه بالإنفاق على بيتين؛ وبدا له ـ فى يأسه ـ أن يوجه زوجه إلى قصر «سليمان باشا سليمان» السكرتير العام لوزارته، لتستعطف أمه أو زوجه لكى يبقيه الباشا فى الإدارة العامة بالقاهرة. وراقت الفكرة لأميرة عطفة الجلاد بباب الشعرية، فذهبت إلى قصر الباشا وسألت عن أم الباشا فقيل لها إنها ماتت من عهد طويل معه، فسألت عن زوجه فقيل لها إن الباشا أعزب، فأوشكت أن يلحقها القنوط وأن تهم بالعودة من حيث أتت. ولكن صادف ذلك خروج الباشا من قصره فاستوقف بصره منظر السيدة الجميلة التى تحادث البواب فسأله عنها، فاستجمعت الشابة شجاعتها الموزعة وحدثت الباشا عما جاءت من أجله؛ ورق الباشا لجمالها فدعاها إلى صالون الاستقبال واستمع إلى شكاتها باهتمام وشغف. كانت عيناه تنظران أكثر مما تسمع أذناه، وكان كلفا بالحسان ينسى فى مجلسهن دينه ودنياه، فتحلّب ريقه واحترق صدره، وابتسم لها ابتسامة حلوة وربت منكبها بحنو وقال لها:

ـ سأنظر فى طلبك بعين العطف يا حسناء.

وكانت أمينة قادرة على قراءة العيون فتولتها الدهشة، ونظرت للباشا نظرة ملؤها

الشك والارتياب ففتنته النظرة؛ فمد يده ـ كما تعود وكما ألف ـ فعبث بذقنها الصغير فقطبت جبينها وجفلت منه. فلم يدركه اليأس وما كان يدركه اليأس أبدًا، وقال لها برقة:

ـ كلانا له رجاء عند صاحبه فاقض رجائى أقض رجاءك.

وعادت المرأة إلى زوجها وقصت عليه ما لقيت من الباشا فانزعج الشاب انزعاجا كبيرا. وأرادت أمينة أن تشاركه عواطفه فبكت وإن لم تخل من زهو وفخار. وأزمع الشاب يأسا وقال لنفسه: «ليكن سفر والأمر لله». ولكن فى صباح اليوم الثانى استدعاه مدير الأرشيف فذهب إليه مبلبل النفس مضطرب القلب يظن أنه مبلغه أمر النقل لينفذه، ولكن الرجل قال له:

ـ مبارك يا سعيد أفندى لقد ألغى أمر نقلك.

فشكره الرجل متحيرا وهو بالرجوع، ولكن المدير قال له:

ـ ومبارك أيضا فقد رشحت لوظيفة من الدرجة السابعة بمكتب السكرتير العام.

آه كم رنت الدرجة السابعة فى أذنيه رنينا بديعًا. لقد اضطرب وغضب وسخط وتحير وتردد وقارن ووازن، ولكن رنين الدرجة ابتلع كل صوت حتى صوت ضميره وعفته، وتيقظت أطماعه وجمع طموحه فاستسلم. وكانت أمينة التركية الجميلة ذات غرور وطموح أيضا فاتفقا على أن السوأة شىء يدارى، أما الفرصة المواتية فشىء لا يعوض.. وهويا معًا..

وعزم على ألا تكون تضحيته عبثًا، فدرس فى بيته حتى حصل على ليسانس الحقوق ورقى سكرتيرا للسكرتير العام. وما زال يصعد مدارج الرقى مستعينا بهمته وذكائه وجمال زوجه. فلما اختير سليمان باشا سليمان وزيرا جعله مدير مكتبه. وقامت زوجه بنشر الدعوة له فى الأوساط العالية وقدمته إلى كبار الرجال، فتبوأ بفضلها مركز السكرتير العام، وصار سعيد باشا كامل، وصارت هى حرم الباشا المصون.. وكان قد تعود المهانة كما يتعود الأنف الرائحة النتنة...

وفى يوم من الأيام أعلن الباشا أنه مسافر إلى بورسعيد فى رحلة تفتيشية تستغرق عشرة أيام. وبلغ المدينة وشرع فى العمل بما عرف عنه من النشاط وعلو الهمة، ولكن اعتوره تعب فجائى اضطر معه إلى قطع رحلته والعودة إلى ا القاهرة، وانتهى إلى قصره مع المساء وكانت عودة غير متوقعة، فاستقبله البواب بدهشة لم تخف عن عينيه على ندرة اندهاش النوبيين. والتقى الباشا بالسفرجى فى الردهة التحتانية، فتولى الرجل الانزعاج ولم يستطع أن يخفى تأثره، فغضب الباشا وسأله:

ـ أين الهانم؟

ولم يجب الرجل كأنه لم يسمع فقال له بحدة:

- أين الهانم يا أحمق؟!

فارتعب الخادم وقال بتعلثم:

- فوق يا سعادة الباشا.. فوق.

فصعد السلم الخشبى المفروش بالبساط الأحمر المخملى وهو يتساءل: ماذا هنالك؟! وبلغ الصالة فى ثوان، فرأى وصيفة زوجه تنسق باقة زهر ناضرة.. فلما رأته حملقت فى وجهه بذهول وجمدت عن الحركة لحظة كأنها فأرة جذبت عيناها إلى عينى هر.. ثم هرعت إلى حجرة النوم ونقرت على بابها المغلق وهى تقول:

- سيدى.. الباشا هنا..

فساوره القلق والاضطراب ودنا من الباب ووضع يده على الأكرة وهو يعجب كيف لم تسارع الهانم إلى فتح الباب واستقباله، ثم أدارها فلم ينفتح الباب، فالتفت ناحية الوصيفة فلم ير لها أثرا فنقر الباب وهو يقول بصوت متهدج:

- يا هانم.. لماذا تغلقين الباب؟

فلم ترد جوابًا فأدنى رأسه من الباب فسمع حركة صوت اصطدام شىء صلب بالأرض.. فاهتاجه الغضب.. فضرب الباب بعصاه وصاح قائلاً:

- يا هانم.. ألا تسمعيننى؟.. أمينة هانم..

ثم مضى يدفع الباب بعنف، فسمع صوت الهانم تقول:

- انتظر من فضلك فى المكتبة حتى ألحق بك!

فقال بحدة:

- افتحى الباب.

فردت عليه بهدوء وإصرار:

- انتظرنى فى المكتبة من فضلك.

- هذا سلوك غريب.. ما هذه الحركة بداخل الحجرة؟!

- اذهب إلى المكتبة من فضلك.

- لن أتنحى عن الباب حتى يفتح لى.

فسكتت المرأة هنيهة ثم قالت بحدة وغضب:

- معى شخص ينبغى أن يخرج بسلام.

ثم مضى يدفع الباب بعنف، فسمع صوت الهانم تقول:

- انتظر من فضلك فى المكتبة حتى ألحق بك!

وخذلته أعضاؤه المنهوكة فأحس خورًا وذهولاً، وجمودًا ثقيلا ران على قلبه وتنفسه،

ولبث دقائق لا يبدى حراكا. ثم مضى بخطى ثقيلة إلى المكتبة وارتمى على مقعد ترتعش يداه من الانفعال والحنق، وقال بصوت كالمختنق:

- يا عجبا. . إنها لا تكلف نفسها مؤونة التستر على فضيحتها، فالخدم يعلمون بغير ريب. .

واهتاجه الغضب ولكنه لم يستطع أن يفعل شيئا، وما كانت إرادته تقدر على أن تصطدم بإرادتها بحال. فتصاعد غضبه دخانا كتم أنفاسه وسد مسالك صدره. . وقال بلهجة هستيرية:

- هل يكون هذا المنتهك حرمة فراشى إلا تلميذا شريراً أو متعطلا متسكعًا؟!

وانتظر أن تلحق به فلم تفعل؛ فقام مرة أخرى وقصد إلى حجرة النوم يسير بخطى مضطربة فوجدها جالسة على الشيزلنج منكسة الرأس، فلما أحست به بادرته قائلة:

- إنى أغادر البيت فى الحال إذا كان هذا يروقك.

فلوح بعصاه غاضبا وقال بحنق:

- ما هذه الفضائح؟!. . ما هذه القذارة؟

وأصابت العصا ساقها دون قصد منه. فرفعت إليه بصرها وحدجته بنظرة باردة قاسية كان لها فى نفسه وقع شديد وقالت له:

- أتضرب الساق التى رفعتك إلى أعلى المناصب؟!

لقد كانت تلك الكلمة أليمة موجعة، ولكن ذكراها التى تعاوده الآن أنكى وأمر.

وشعر عند ذلك بغمز موجع فى صدره، فاتكأ على يديه الضعيفتين وهم جالسًا فى الفراش وثنى مخدة واستند إليها متنهداً من الأعماق، وبدا كالمستغيث من أفكاره، ولكن ذاكرته لم ترحمه ولم ترق لحاله فاستحضرت أمام ناظريه حادثة أخرى ليست دون سابقتها بشاعة وقبحًا. . وكان ذلك وهو فى أوج مجده الحكومى وكان يترأس حفلة بمدرسة الجيزة الثانوية فألقى كلمة استقبلت بالتصفيق والتقدير، ووزع الجوائز على المتفوقين، وغادر المنصة مودعًا من كبار الموظفين إلى سيارته. وانطلقت به السيارة وقد أخذ الظلام يغشى الطرق والحقول؛ وعند منعطف الطريق انبرى له شاب - ولعله كان تلميذاً - وصاح به بأعلى صوته:

- كيف تضرب الساق التى رفعتك إلى أعلى المناصب؟!

وعرته رجفة شديدة، وتشنج جسمه فلم يلتفت نحو القاذف الخبيث وشعر بانهيار وتفكك فتفصد جبينه عرقًا بارداً ثم غلى دمه، وعجب كيف ذاعت هذه الجملة الآثمة حتى بلغت هذا الشاب. لقد غدا قصره مورداً لفضائح غير مستورة ينهل منها المتطوعون

لإذاعة المخازى . على أنه كان فى تلك الأيام قويًا مستهترًا يهضم ضميره القتيل الفضائح بغير مبالاة ، فهدأ روعه وقال باستهانة وحنق :

ـ قولوا ما يحلو لكم قوله ، فسأظل ـ وأنوفكم فى الرغام ـ السيد المطاع والرئيس المرتجى .

أما الآن فى ظل النقاء والطهارة فقد امتعض وحزن وشعر بالذكريات تصليه لهيبا جهنميا . . ودخلت عند ذاك أمينة هانم فسألته برقة :

ـ كيف حالك يا باشا؟

ثم جلست على مقعد وثير ، فنظر إليها بعينيه الذابلتين نظرة غريبة لم تفهم معناها الحقيقى ؛ وعجب الرجل كيف تحافظ على حسنها وشبابها حتى ليخال الناظر إليها أنها فى منتصف عمرها ، مع أنه لا يكبرها بأكثر من ثمانية أعوام . . ثم قال لنفسه دهشا :

ـ رباه . . كأنى كلما زدت عامًا نقصت عامًا . . فمتى تذبل وتذوى وتجفل من النظر إلى المرآة؟ !

الهذيـــــان

أوشك الفجر أن يطلع ، وتصايحت الديكة إيذانا بطلائع النور ، فأخلدت الحجرة إلى السكون والصمت ، كأنما أسلمها أنين المرض الموجع وتأوه الإشفاق الأليم إلى الهموم . كانت امرأة شابة ترقد على الفراش يبدو من اصفرار وجهها وذبول خديها وشفتيها وتضعضع كيانها أنها تعانى وبال مرض يهتصر شبابها . وعلى فراش قريب رقد شاب فى مقتبل العمر يثقل جفنيه السهاد ويأبى القلق أن تلتقى أهدابهما ، يطالع وجه المريضة فى حزن ، ثم يعطف رأسه إلى مهد جديد فيجرى الحنان فى عينيه الذابلتين ويتمتم فى رجاء صادق :

ـ اللهم صن حياة الأم المسكينة . . وطفلتنا البريئة .

وكان الشاب من ذوى القلوب الرقيقة والنفوس الندية بالرحمة والعطف . وكان على عهد صباه يلذ لرفاقه أن يدعوه رجل البيت ، لما طبع عليه من النفور من المجتمعات والأندية ، والاشتراك فى المظاهرات التى تستهوى أفئدة أقرانه ، والانجذاب نحو البيت بسبب وبغير سبب ، فكان يقضى نهاره فى الحديقة يسقى أشجار البرتقال والليمون ، أو فى السطح بين الدجاج والحمام ، فإذا كان الخميس أعطى ذراعه لشقيقته ومضيا معًا إلى السينما . .

ولذلك أخذ يفكر فى الزواج تفكيرا جدّيا منذ اليوم الذى عُيِّن فيه مهندسا بمصلحة الأشغال العسكرية. وراح يقتصد من مرتبه ما يقوم بنفقات الزواج من مهر وشبكة وهدايا وفرح كما كان يفعل شباب الجيل الماضى. فلم يكد يمضى عليه عامان خارج المدرسة حتى تزوج، ولم يدهش أحدا أن تنعطف هكذا سريعا إلى الزواج هذه النفس المطمئنة إلى الحياة البيتية منذ نعومة الصبا. ولكنه كان سيئ الحظ، فما كاد يستدير عام ويستقبل طفلة حتى أصيبت زوجه بحمى النفاس، فزلزل بيته الهادئ المطمئن وارتجت حياته السعيدة. وقد عرف منذ اليوم الأول للمرض ما الخوف وما الإشفاق وما الجزع. واندفع إلى استدعاء أعظم الإخصائيين من الأطباء حملة الباشوية والبيكوية غير مبق على مال أو ضان بثمين، حتى اضطر إلى بيع المذياع وساعته الذهبية، ولو طلب إليه أن ينقل دمه إليها لأداه إلى آخر قطرة...

وبالغ فى ذلك فطلب من مصلحته إجازة كيلا يفارق المريضة، وكان يراقب أعين الفاحصين من الأطباء ويسألهم. ويطالع وجه زوجه ساعة بعد ساعة، ويسأل العرافين ويزور أضرحة الأولياء ويفسر الأحلام، ملتمسا الطمأنينة فى مظانها جميعا..

وهل ينسى الليالى التى قضاها مسهدا قلقا لا يغمض له جفن، ينظر ببصر حائر إلى الوجه الشاحب على ضوء المصباح الأحمر الخافت؟ وكانت هى مسكينة تستحق الرثاء، تضطرب بين النوم القلق واليقظة الحائرة، وبين النزاع والهذيان. وما هذا الهذيان؟! إنه ظاهرة عجيبة تدل على أن الإنسان قد يخون نفسه كما يخون الآخرين. كان يصغى إليها وهى تذكر بلسان متقطع أسماء أناس وأماكن وحوادث كثيرة، وكان شاركها شهود بعضها، فجرى الابتسام على فيه، وترطب التهاب عينيه المحمرتين بنظرة حنان.

وفى ذات ليلة سمعها تناديه بصوت واضح قائلة:

ـ صابر.

فهرع إليها متسائلا:

ـ نعيمة.. هل تحتاجين إلى شىء؟

ولكنه أدرك أنه خدع لأنها كانت مغمضة العينين يابسة الفم كما يبدو من ازدراد ريقها بصعوبة، فعلم أنها ماضية فى هذيانها الذى لا ينتهى فعاد إلى سريره، وما كاد يرقد مرة أخرى حتى سمعها تقول وكأنها تحادثه:

ـ صابر.. أنا متألمة خجلة.

فهز رأسه المثقل المتعب وقال لنفسه:

ـ أنت متألمة بغير شك. أعانك الله على ما أنت فيه. ولكن م تخجلين؟! إن هذا الابتلاء لا يخجل أحدا وإن كان يحزننا جميعا.

وظن أنها تألم لما يتكلفه من حولها من العناء والسهر، فرمقها بنظرة حنان ورجا أن يكون هذا الشعور من آى اليقظة والشفاء. واستدركت المرأة تقول:

ـ زوجى أحسن الأزواج، أما أنا فشقية. لست أهلا لوفائه.

فتنهد الشاب حزنا وتمتم قائلا بصوت غير مسموع:

ـ أنت أهل لكل خير.

وأراد أن يناديها لعله ينتشلها من تيار أفكارها المحمومة، ولكنها حركت رأسها بعنف على الوسادة وقالت بحنق:

ـ راشد.. كفى وابتعد عنى.. ابتعد ودعنى..

وكان يهم بمناداتها، فاحتبس الكلام فى فيه وحملقت عيناه المسهدتان وبدا على وجهه الذهول والإنكار. وجلس فى فراشه وهو يتساءل:

ـ راشد! من راشد هذا؟

وكان يشعر شعوراً باطنيا بأنه لا يسمع هذا الاسم لأول مرة، وكأنما سبق أن آذى مشاعره. وأسند جبينه إلى كفه وأغمض عينيه، وكأن صاحب هذا الاسم يعيش فى الظلام فقد رآه وعرفه، وأحس لذلك رجفة تسرى فى مفاصله.. راشد أمين أو أمين راشد ـ لا يذكر ـ شاب نافسه فى طلب يدها على عهد خطبته لها، ولولا أن والدها فضله هو واختاره لكان قد تزوج منها. وقد تذكر أنه رآه مرة وإن كان لا يحفظ من صورته أى أثر.

ورفع رأسه مرة أخرى، ونظر إليها بعينين مرتابتين لا تصدقان؛ ورغب رغبة حارة فى أن يستزيدها ويستوضحها، ولكنه لم يدر كيف يحثها على الكلام، ورأى شفتيها تتحركان فى ضعف؛ فدنا من حافة سريرها وأرهف السمع وكتم أنفاسه وهو يعانى جزعًا مجنونًا، فسمع صوتها يقول فيما يشبه الأنين:

ـ من يقول هذا؟!.. أف والخيانة... راشد... صابر... الخيانة شىء قذر...

فشبك كفيه وشدهما على صدره بحالة عصبية كأنما يضرع إلى شىء مجهول أن يمنع كارثة على وشك الوقوع. وحول بصره من طول الجمود على وجهها، فغاب عنه ما حوله، وكبر الوجه فى وهمه حتى ملأ الفراغ الذى أمامه فثقل عليه وسمج. ودوى صدى صوتها فى أذنيه فصار كطنين لا ينقطع، وثقل تنفسه ويبس حلقه...

ما هذا الذى تتكلم عنه؟! ما هذه الخيانة التى أطلق الهذيان عقدة كتمانها فانطلقت خبيثة منكرة أنكى من الحمى؟! هل يكذب الهذيان؟ كيف يكذب الهذيان؟! ولكن كيف يصدق أذنيه وما بذل زوج لزوجه عشر ما بذل من الرقه والمودة، وما بذلت زوجة لزوجها عشر ما كانت تبذله له من الصفاء والإخلاص؟ فكيف انطوى هذا على أقذر ما تبتلى به

الضمائر والنفوس؟ رباه . . . إنها تقول إن الخيانة شيء قذر، وإنها لكذلك، ولكن لا يفزع فى هذيانه من قذارتها إلا من انغمس فى بؤرتها. رباه . . لقد ظن أن ما ابتلى به من مرض زوجه أقسى ما ابتلى به إنسان، فإذا به بلاء هين عابر لا يقاس بما هتك الهذيان أستاره، وأحس اليأس يحبس أنفاسه.

وكان صابر دمث الأخلاق لين الجانب رقيق الحاشية، لا يدفعه الغضب إلى الانفعال الشديد والعدوان، ولكنه يشل حركته ويعطف اندفاع أعصابه إلى صميم نفسه فيجعله كسيارة يدفعها محركها وتقيد الفرملة عجلاتها. ولكنه بالرغم من هذا، تحول رأسه حركة عصبية إلى سرير الطفلة، وبرح فراشه فى سكون ودنا من السرير وأزاح ستاره، وألقى نظرة غريبة على الوجه الصغير المدمج القسمات وأدام إليه النظر، والشك والألم يأكلان قلبه بقسوة. ثم تحول عنه إلى وجه زوجه كأنه يسألها ويستوضحها. ودنا من فراشها كالسائر فى نومه حتى التصق به. وكانت مغمضة العينين بادية الاصفرار والخور، تقلب رأسها ذات اليمين وذات الشمال، فألقى عليها نظرة جامدة جرى فيها بريق القسوة جريان البرق فى السحاب الداكن. وكان قبل لحظات إذا وقف موقفه هذا اضطرب جسمه من الحنان والرحمة ودمعت عيناه، ولكن قلبه تحجر هذه المرة فمال عليها حتى نسمت عليها أنفاسه وسألها:

ـ نعيمة . . نعيمة . . ماذا فعل راشد؟

فلم تنتبه إليه ولم تصح. فرفع صوته وناداها وهو لا يدرى:

ـ نعيمة.

فبلغ صوته مسمعى أمها فى الحجرة القريبة. وقامت المرأة من فراشها مضطربة وهى تظن الظنون وهرعت إليه متسائلة:

ـ ما لها؟ . . هل أعطيتها الدواء؟

ولم يكن أعطاها شيئا، وكان يريد استبقاء حالة الهذيان التى تعانيها ليستنطقها ما يريد. فكذب عليها قائلا فى استهانة وقسوة:

ـ نعم وهى بخير والحمد الله.

وعاد إلى فراشه وأسند رأسه المثخن بالجراح إلى الوسادة ليتخلص من حماته. ولبثت حماته قليلاً، وفى أثناء ذلك أخلدت المريضة إلى الهدوء والسكينة كأنما راحت فى نوم عميق، فبرحت المرأة الغرفة وكان يتشوف إلى إيقاظها ولكنه خشى التى فى الخارج. قضى بقية الليل مفتوح العينين محموم الرأس بالأخيلة الشيطانية وعيناه زائغتان ما بين فراش المريضة ومهد الطفلة.

وحين سفور الصباح عاودت اليقظة المريضة، وبدا عليها أنها لا تحس شيئا حتى اهتدت عيناها إليه فدبت فيها حياة ضعيفة، وقالت بصوت غدا من وهنه كالصفير:

- ما الذى أيقظك؟ لماذا ترهق نفسك هكذا؟

فرد عليها بنظرة جامدة، وكانت تبدو ذاك الصباح أشد هزالا وشحوبا، ولاحت فى عينيها نظرة الوداع المخيفة. وكان يشغل باله شىء واحد أسهده الليل ولم يجهل أن إثارته خطر يهدد بالقضاء عليها، ولكنه لم يحس سواه ولم يبال غيره، وكان يشعر نحوها عندئذ بحنق وكراهية ورغبة فى الانتقام، فقال بلهجة جافة:

- تكلمت الليلة الماضية كثيراً، فشرقت وغربت، وأجرى الهذيان على لسانك كلامًا يحتاج إلى إيضاح.

فلم تفهم شيئا ونظرت إليه بعينين لا تعبران عن شىء سوى الذهول المطلق، وأراد أن يسترسل ولكنه منعه عن الاسترسال صراخ الطفلة فجأة، فما لبث أن هرعت إلى الحجرة حماته والمرضعة فنكص على عقبيه مغضبا وهو يقول لنفسه:

- الطفلة الملعونة تدارى فضيحة أمها وأبيها!

وغادر البيت يهيم على وجهه ومضى يحدث نفسه:

- كان ينبغى أن أعلم كل شىء وقد أتيحت لى فرص، لماذا أفر من صراخ الطفلة؟ أو من ظهور جدتها؟ الحقيقة أنى ضعيف.. ضعيف.. دائما يندى قلبى بالحنان وبالعطف، فما كان أجدر بى أن أكون ممرضة... أما رجلا فلا.. لست رجلا ولست زوجًا.. فأمثالى نساء كاملات، أو رجال مغفلون.. ومع هذا هل أنا فى حاجة إلى دليل جديد؟ دمرت حياتى وانتهى كل شىء.

وقضى النهار ضالا لا يقر، يتردد الألم فى صدره مع أنفاسه. وعاد مع الأصيل إلى البيت فوجدها أسوأ حالاً وأشد هزالا، وأقبلت عليه حماته تسأله أين كان وتقص عليه ما قاله الطبيب، فلم ينفذ من قولها شىء إلى صدره وعاف الرد عليها بتاتا، بل لذ له أن تقول إن الحالة سيئة. فلتتألم كما يتألم، ولكن كيف يفهمها أنه يعلم كل شىء؟ كيف يحادثها فى هذا الموضوع الخطير وأمها لا ترضى بمفارقتها فى مثل تلك الحالة الخطيرة؟...

واشتد به الحنق فاعتزم أن يمنع عنها الدواء ليعاودها الهذيان سريعا فيسمع منه ما امتنع عنه سماعه فى اليقظة؟ وملأ الفنجان ماء خالصًا ووضعه على فم المريضة فازدردته بامتعاض.. وعاد إلى فراشه يرقب الفرصة. ولكن زوجه لم تنم فى تلك الليلة ولم تهذ واشتد عليها الألم الموجع فباتت تئن وتشكو وتضطرب. واستدعى الطبيب عند منتصف الليل فعاينها ولكنه لم ينصح بشىء، وهمس فى أذنه بأن الحالة جد خطيرة.. وبعد هذا التصريح بنصف ساعة احتضرت المريضة وفاضت روحها.

وخلا إلى نفسه وكان الذهول مطبقا على حواسه جميعا؛ لأن الموت والخيانة الزوجية انتظما تجاربه الشخصية معا فى ساعة واحدة دون عهد سابق بهما. وماتت نعيمة ولم

يحزن لموتها ولكن حادثة الموت أذهلت نفسه الرقيقة المرهفة؛ على أن الحقيقة لم تغب عنه فقال:

- لم تمت كما يظنون. . . أنا قتلتها. . . قتلتها لأنى منعت عنها الدواء ليلتين متواليتين هما أشد ليالى المرض. . فأنا قتلتها. .

وجعل يردد «أنا قتلتها». فكان يشعر لها بوقع غريب فى نفسه يمتزج فيه الخوف بالارتياح. ثم قال مرة أخرى:

- وقتلتنى هى حيا، وألصقت اسمى قسراً بطفلة إنسان سواى. . ولكنى قاتل فلست إذن مغفلا.

وأسند رأسه إلى يده وراح فى تأمل طويل وقد سرت فى جسده قشعريرة البرد والخوف.

كيف انقضت الأيام التى أعقبت الوفاة؟. . انقضت فى ألم وقلق ومخاوف لا يمكن أن تتمثل لعقل إنسان. ثم أعلن عن رغبته فجأة فى السفر إلى لبنان انتجاعًا للصحة والراحة، وكان فى الحق يفر من أفكاره وطفلته. ومضى إلى الإسكندرية واستقل السفينة. والظاهر أن نفسه الرقيقة تعرضت فى البحر لأزمة عنيفة هدت كيانها وأتلفت أعصابه، فاستشعر اليأس من الدنيا جميعا. . . وألقى نفسه فى اليم خلاصا من عذابه وآلامه، محتفظا بأسراره لقلبه ولبطون الأسماك. . .

وكان يترحم عليه المترحمون فيقولون:

- ما رأينا إنسانا يحب زوجه كالمرحوم صابر، فلا هو صبر على فقدانها ولا احتمل الدنيا بعدها، فقضى على نفسه بعد موتها بأيام. . . رحمهما الله!

فتوة العطوف

عند هبوط المساء غادر المعلم «بيومى» الفوال نقطة بوليس الحسينية يحمل «إنذار التشرد»، يكاد صدره يتصدع من الغضب والغيظ. وكان يرغى ويزبد ويتمتم ويدمدم بأصوات كالخوار، خشنة مبهمة، ما زالت تعلو وتتميز كلما باعدت الخطا بينه وبين نقطة البوليس، حتى صارت فى ميدان فاروق لعنا وسبابا وقذفًا وصريخًا مخيفًا عنيفًا. وجعل يهز قبضة يده الغليظة فى الهواء مهدداً متوعداً، ويدير فى الفضاء عينين يتطاير منهما الشرر صيرهما الغضب كجمرتين ملتهبتين. فوقع بصره على «تاكسى» واقف بالميدان، فقصد إليه. ورآه السائق - وكان يعرفه - ففتح له الباب، فاندفع إلى الداخل وارتمى إلى

جانبه. وأحس السائق بالثورة المضطرمة فى صدر صاحبه، فسأله عما يقلقه، ووجد المعلم فى السؤال متنفسا عن صدره فرمى إليه بالإنذار وهو يصيح غاضبا:

ـ انظر كيف تعاملنى الحكومة السنية!

وشبك يديه على صدره وقال بلهجة تدل على السخرية والحنق:

ـ ألا ترى أنه يتحتم على أن أجد عملاً فى ظرف عشرين يومًا، أو يزج بى فى السجن مرة أخرى؟ ما شاء الله!

واشتد اكفهرار وجهه، وأرسل من تحت حاجبيه الكثيفين نظرة شريرة، وكان صاحبه ساهما متفكراً يردد ناظريه بين وجه المعلم المكفهر والإنذار المبسوط بين يديه.

وكانت هيئة المعلم بيومى من الهيئات التى لا يمكن أن تقتحمها العين، أو تمر بها دون التفات إليها، لأن صورته كانت حافلة بآى القوة والجسارة. نعم كان مظهره الرث وملابسه البالية القذرة تنطق بما هو عليه من فقر وبؤس، ولكن هيكله الصلب وصدره العريض وعضلاته المفتولة دلت على القوة والبأس، ونظرة عينيه وإيماءاته توحى بالكبرياء والعنف، وتلك الندوب تكتنف وجهه وجبينه، وآثار من طعن سكين فى صفحة عنقه تثبت أنه خاض معارك عنيفة شديدة الهول، ولذلك أحاط به فى غضبه صمت رهيب ألزم ألسنة الأقربين من سائقى «التاكسى» الجمود الثقيل.

وقد التفت إلى صاحبه وقال فى غيظ وحنق:

ـ أنا... أنا بيومى الفوال، تتنكر لى الدنيا إلى هذا الحد؟!

وكبر عليه الأمر فجعل يضرب كفا بكف ولسانه لا يكف عن القذف والتهديد، وأكثر من القذف والتهديد. وقليلا ما كان يحرك لسانه ساعة الغضب فيما مضى من زمانه. فكان إذا غضب انطوى على الغضب حتى ينزل عقابه الصارم بعدوه، ولكن لم يبق له من ماضيه ذاك إلا ذكريات تطوف بين الحين والحين برأسه المثقل فتنشر فى ظلماته ضياء منيراً مقتبسا من عز الماضى ومجده وسلطانه.

كانت نشأة المعلم بيومى فى العطوف. وقد شهد صباه الأول على جسارته الطبيعية، فكان من خيرة صبيان الأعور «فتوة» العطوف الذى أرهب السكان وأعجز رجال الأمن. يجلس بين يديه يستمع إلى قصص مغامراته ويشهد مشاجراته ويخرج فى مؤخرة عصابته إذا نفرت لقتال عصابات الدراسة أو الحسينية عند سفح المقطم، يحمل فى حجره «الزلط وقطع الزجاج» يمد بها المتعاركين من قومه ويلاحظ فنون قتالهم عن كثب ويمتلئ حماسة القتال وأعمال الجرأة. فما شارف الثامنة عشرة حتى اشتد ساعده وانفتلت عضلاته، ومهر مهارة عجيبة فى الضرب «بالروسية» والعصا والسكين والكرسى؛ واشترك فى معارك فردية وجماعية فأبلى فيها أحسن البلاء..

ذاع أمره كمتعارك شديد المراس، يقدم على مقاتلة عشرات الرجال بقلب لا يهاب الموت، ويدمر مقهى كاملا إذا حدثت النادل نفسه بمطالبته بثمن مشروب. وأكبر الأعور فيه هذه الصفات فاصطفاه وآخاه وجعله ساعده الأيمن، وقاسمه الغنائم والأسلاب. ومات الأعور فخلفه على أريكة «الفتونة» دون شريك. وأبى طموحه عليه الهدوء والراحة، فتحدى فتوة الحسينية وظهر عليه، وقاتل فتوة الدراسة فهزمه، وخرج بجموعه إلى الوايلية فأذل كبيرها ومزق جموعه شر ممزق. ودوى اسمه فى تلك الأحياء دوى نذير الغارات، واستكانت له نفوس الفتوات، وأفاد من سلطانه فائدة رمقتها عيون الحسد جيلا طويلا، فجعل مركزه قهوة غزال بالخرنفش حيث يجتمع بأنصاره وصبيانه. وفرض الإتاوة على كبار الأغنياء والتجار والقهوجية وشركة سوارس يؤدونها إليه صاغرين، ومن يتردد عن دفع ما يطلب منه عرض نفسه وما يملك للهلاك المبين. هذا غير ما كان يؤجر له من أعمال الانتقام والتهديد وحماية بعض النسوة من أهل الهوى. وتنافس كثيرون فى التودد إليه بإهدائه الهدايا الثمينة، فكان يتقبلها تقبل الزاهد فيها وهو من غير الشاكرين.

وعاش المعلم بيومى فى ظل سلطانه عيشة راضية فى بلهنية ونعيم، يلبس الجلباب الحرير والعباءة من وبر الجمل، ويتلفع بالشال الكشمير الفاخر، ويركب الدوكر تجره الجياد المطهمة.. ثم عشق «عالمة» فتزوج منها وكان فرحه فرح أهل الجمالية والعطوف والدراسة جميعا، وانتظمت «زفته» الفتوات من جميع الأحياء وعددا عديدا من أصحاب «السوابق» وحاملى الإنذارات والمترددين على السجون... وأحيا ليالى العرس الشيخ ندا وعبد اللطيف البنا وبمبه كشر. ثم مازال يعلو يوما بعد يوم حتى تسنم ذورة المجد فى الانتخابات الأولى عام ١٩٢٤. فقد أقر بنفوذه كثير من رجالات السياسة فى مصر وسعوا إليه يرجون نصرته لهم ويساومون على شراء أصوات أنصاره وأتباعه. وشهدت قهوة غزال محضر باشوات وبيكوات يجلسون إلى المعلم بيومى الفوال متوددين متحادثين. وكان المعلم يصغى لهم ويستولى على نقودهم، ولكنه فى يوم الانتخابات ذهب هو وصحبه إلى أقسام البوليس يعطون أصواتهم لمرشحى سعد زغلول.

ومنذ ذاك العهد وهو يسمى أولئك الباشوات والبيكوات «بالكروديات». على أنه كان يباهى باتصالاته بهم فى أحايين كثيرة فيقول فى أثناء حديثه:

ـ وقال لى الباشا كيت وكيت، وقلت للباشا وكيت وكيت.

تلك أيام خلت.. وخلفت وراءها دهرا قاسيا شديد الظلمات فما يدرى أولئك الفتوات إلا والبوليس يضيق بهم ذرعا ويشمر للقضاء على أعمالهم. وكان من سياسته أن قذف الحسينية بضابط شاب لم تشهد الداخلية له من قبل نظيرا، سواء فى قوته أم فى

شجاعته وشدة عناده. وكان يعلم أن هدفه الأول هو المعلم بيومى الفوال، فلم يحد عنه، ولم ينتظر الأدلة القانونية لأنه كان يعلم أن أحدا من الناس لن تواتيه شجاعته على الشهادة ضده. فهاجمه بجنوده بغتة وقاده إلى النقطة وأمر الجنود بضربه ضربا مبرحا.

وأصيب المعلم بذهول شديد لذاك العدوان الجرىء. فما كان من الضابط إلا أن أعاد الكرة مرة ومرتين حتى كسر شوكته. ثم جعل يسوقه أمامه محاطا بجموع الجند الشاكى السلاح يصفعونه فى كل منعطف طريق، ويركلونه أمام كل قهوة، وينزلون بمن يظهر لهم من فتيانه أشد العقاب. فأفاق الناس من غشيتهم وانحلت عقدة الذعر الممسكة بألسنتهم فهرعوا إلى رجل الأمن يشكون ويستعدون، ووجد الرجل الدليل الذى يطلبه، وزج بالمعلم فى غيابات السجون يذوق أشد الأهوال والآلام.

وهكذا أخذ المعلم بالإرهاب الذى أخذ به الناس جميعا. وقضى فى السجن بضع سنين. ولما فارقه لم يجد أحدا من الفتوات فى استقباله يهنئه ويقول له: «السجن للجدعان»، فقد لاذ كل منهم بسبيله، منهم من سجن، ومنهم من هجر الحسينية، ومنهم من راض نفسه على العمل كما يعمل الناس جميعا سعيا وراء الرزق. فألفى المعلم عالمه مهجورا كئيبا، ومجده ذكرى أليمة لا يترحم عليها إنسان، حتى زوجه ضاقت بفقره وتسوله فهجرته وعادت إلى بنات فنها فى شارع محمد على. وطحنت الآلام تلك النفس الجبارة العاتية، وترنح صاحبها تحت أثقال الهموم لا يستطيع أن يجأر بصوت الشكوى خشية عيون البوليس المحدقة به من كل جانب، وظل على حزنه وألمه حتى تلقى إنذار التشرد الذى يخيره بين العمل أو السجن.

طافت برأسه - فى ساعة بؤسه تلك - صور من أيام مجده تراءت راقصة أمام ناظريه خلل أغشية الحزن والألم. وكان صاحبه السائق فى تلك الأثناء يراقبه بطرف خفى وأصابعه تعبث بالإنذار الذى أحدث كل ذاك الغضب. وكان يدير أمرًا مهما فى عقله. فلما قلبه على أوجهه المحتملة التفت إلى المعلم وسأله:

- ماذا تقول يا معلم لو عرض عليك عمل يدفع عنك غائلة البوليس؟ . . .

وحدجه المعلم بنظرة غريبة من دون أن يفوه بكلمة، وتشجع السائق بصمته فاستدرك قائلاً:

- سبق أن علمتك قيادة السيارة، وهى صنعة فى اليد تعمر بيوتا، وما من شك فى أنك خبير بالطرق والمواصلات، وأستطيع أن أدلك على عمل فى «الجراج» الذى أعمل فيه على شرط أن تتنازل وترضى. . فما رأيك يا معلم؟

ولم يسارع المعلم إلى الفرح كما ينبغى لأى رجل فى مكانه، لأن العمل كان التجربة الوحيدة التى لم يعرفها. وهو لم يكن شيئا عظيما قط فى نظر الفتوات المحترفين،

فتوجس منه خيفة، ولكنه لم يكن فى حالة يستطيع معها رفض ما يعرض عليه ما دام العمل هو المنقذ الوحيد له من السجن. فقال لصاحبه بلهجة لم تخل من الامتعاض:

ـ وهل من الممكن أن ألحق بهذا العمل قبل مضى العشرين يوما؟

ـ بغير شك ولا ينقصك إلا شىء واحد.

فتساءل المعلم قائلا:

ـ وما هو؟ . . .

ـ بدلة يا معلم، لأنه لا يمكن أن تكون «شوفيرا» بغير بدلة. اشتر بدلة أو أجرها أو استعرها كيفما اتفق. ولكن لابد من بدلة.

ومال إلى التفكير فى الأمر تفكيرا جديا، ووجد نفسه يحاول حل مسألة العثور على بدلة. ولكنه لم يدر له بخلد أن يجد ضالته عند صاحبه السائق أو عند أحد من أقرانه، لأنه كان يعلم أنهم لا يملكون سوى البدلة التى يلبسونها. على أنه لم ييأس لذلك من العثور على بدلة. فعليه بالأفندية الذين كانوا إلى عهد قريب يتقون أذاه ويرجون خيره، فلا يمكن أن يضنوا عليه ببدلة قديمة ناءت الأقدار باقتنائها قوام حياته. واعترض على أولئك الأفندية سبلهم وطرق أبوابهم ورجاهم بلهجة غير التى ألفوا أن يسمعوها منه أن يتنازلوا له عن بدلة قديمة، ولكنهم ردوا عليه بأوجه من الأعذار لا تنفد، فقال فريق إنهم لا يملكون سوى بدلة واحدة غير التى يلبسونها، واعتذر فريق آخر بسوء الحال وكثرة العيال ووطأة الأزمة. وقال واحد بقحة إن خادمه أحق ببدلته القديمة. وعجب المعلم لأولئك اللؤماء واهتاجه الغضب اهتياجا شديدا وقال لنفسه بإصرار وعناد:

ـ ما دامت البدلة تنقذنى من السجن فسأحصل عليها مهما كلفنى ذلك من العناد.

وكان يتخبط فى الطريق على غير هدى حين وجد نفسه اتفاقا أمام دكان كواء عند مبتدإ شارع السبيل، فألقى عليها نظرة سريعة لصقت بالبدلة المعلقة، فتراخت ساقاه عن المشى وأسند ظهره إلى شجرة قريبة ومضى يتفرس فى البدل المتراصة تفرس الجائع المنهوم فى فرن الحاتى الملىء بالشواء من اللحوم، ثم عاين المكان فرأى الدكان قائما إلى جانب جراج تحدهما من الخلف صحراء العيون. و دارت برأسه خواطر محمومة عنيفة وعزم عزمًا أكيدًا.

وأصبح الصباح وجاء الكواء يفتح دكانه، فما راعه إلا أن رأى فى ظهرها ثغرة فانخلع قلبه وهرع إلى ثياب زبائنه، ووجدها كاملة عدا بدلة واحدة. . فكانت دهشته قدر انزعاجه!

وصار المعلم بيومى سائق تاكسى، ولم يعد لضابط نقطة الحسينية من سلطان عليه، ولأمر ما اختار الجيزة ميدانا لعمله فارا بالبدلة التى لم تهده الحيلة إلى صبغها أو قلبها كما

كان ينبغى أن يفعل اللص الماهر . وما كان يصبر على نظام العمل لولا أن السجن كان عوده على ما هو أشد إيلاما ومقتا ، فرضى كارها أن يلبى النداء ويحمل الراكبين ، ويبدى احترامه لمن كان بالأمس ينظر إليهم شزراً ويدعوهم «بالكرديات» .

ولم تخل حياته فى ذاك المهجر من حوادث ، ففى ذات أصيل ، وكان مضى عليه ما يقارب الشهر فى عمله ، وكان ينتظر فى موقفه ، برز رجل وجيه من باب الفانتزيو وناداه ولبى المعلم مسرعا وترك مقعده ليفتح الباب للسيد الوجيه . ومضت دقيقة وهو ينتظر والرجل لا يتحرك ، فعجب المعلم للأمر ونظر إلى الرجل فرآه ينظر إليه بإنكار ، بل رآه ينعم النظر فى بدلته . وخفق قلب المعلم واضطرب وأحس كمن وقع فى فخ ، وهم بالتحرك ولكن الرجل دنا منه وأمسك بالياقة بسرعة وثناها ليقرأ اسم الطرزى ثم قبض على ذراع المعلم وصاح به بغضب :

ـ قف يا لص . . . من أين لك هذه البدلة؟

ونادى الشرطى بصوت عال ، فحدجه المعلم بنظرة نارية ، وكان يستطيع بغير شك أن يبطش به لو أراد ، ولكنه استشعر يأسا غريبا خرج به عن وعيه فما يدرى إلا والشرطى يقبض عليه . . . والظاهر أن الحظ الذى حالفه قديما تخلى عنه إلى الأبد ، وإنه ليعانى الآن آلام السجن ، والله وحده يعلم ما هو صانع به بعد ذلك .

حلم ساعة

من عجيب الأمور أننا قد نحيا حياة سعيدة نخالها طويلة فى حلم قصير الأجل . وما تعتم أن تطرق اليقظة مغلق الأجفان ، فينتقل النائم من عالم الأحلام المخدرة إلى دنيا حقائق شديدة الجفاء ، وما يجد يده قابضة إلا على هواء . على هذا المثال مضى ذلك اليوم من حياته . كان يوما أو بعض يوم ، ولكن قلبه ذاق فيه سعادة وغبطة ، وحلق فى آفاق بعيدة من أحلام المنى ، وخفق خفقة فرح سماوى جاز به عالم الزمان والمكان . ثم أدركته يقظة منكرة اغتصبته من عالمه الحنون السعيد ، على نحو بالغ فى القسوة والوحشية . .

كيف كان ذلك؟! . . .

كان اليوم السعيد يوم الخميس ، وكان الأستاذ «بهاء الدين علما» عائدا من سماع محاضرة علمية فى الجمعية الجغرافية الملكية عن الغدد الصماء ، وكان يسير فى ميدان الإسماعيلية متفكرا فى تلك الأدوات الإنسانية العجيبة المسيطرة على الفرد أيما تسيطر ، وكيف يزعم العلماء أنهم بالتحكم فى إفرازاتها يستطيعون أن يحولوا الطيب إلى شرير ،

والشرير إلى طيب، والشاعر إلى رياضى، والرياضى إلى شاعر. وكيف يفسرون أخيلة جيته وأحلام شيلى بعصاراتها المتدفقة فى الدم؟ . . . وكان رأسه لا يكاد يخلو من أمثال هذه الأفكار فهى مادة عمله ومادة حياته معا. وفى الواقع يندر أن تجد بين الشباب المعيدين بكلية العلوم من يناظر الأستاذ بهاء الدين فى حبه العلم وحرصه على تحصيله.

وكأنما أرهقه القعود والسكون ـ فى أثناء إلقاء المحاضرة ـ فأحس بارتياح إلى المشى واعتزم السير على قدميه إلى شارع فؤاد الأول، واتجه إلى شارع قصر النيل فى خطى وئيدة يدخن لفافة من التبغ ويجتر أفكاره وتأملاته فى لذة ويسر. وصادف بلوغه مدخل المكتبة الفرنسية بروز فتاة منها تندفع فيما يشبه العدو، فتوقف بحذر ووجل وتراجع خطوة على عجل، وتوقفت مثله وتراجعت، والتفت نحوها فرآها ترمقه بنظرة ارتباك واعتذار، ثم مضت فى سبيلها حتى إذا ما حاذته عطفت رأسها إليه بغتة وقد بدا على وجهها التساؤل والحيرة وكأنها تحاول تذكره ولا تدرى كيف. ثم أدركت ما فى نظرها إليه هكذا من الغرابة، فأدارت رأسها عنه وما روت غلة. وقصدت إلى سيارة تنتظر إلى جانب الطريق، فأدرك من أول وهلة أن صورته اشتبهت عليها، وعلت لذلك فمه ابتسامة، وأراد أن يستوثق من رأيه فألقى بنظرة إلى السيارة ـ وكان جاوزها بأمتار ـ فرآها تتابعه بنظرتها تعلو وجهها آى الحيرة والغرابة ـ فغمرته موجة انفعال مضطرب لذيذ وتعثر بأذيال الارتباك والحيرة. ثم تحركت السيارة مندفعة فى الاتجاه الذى يسير فيه وما تزال صاحبتها ترنو إليه خلل زجاج النافذة بنظرة تحير بماذا يصفها . . . ودية حنون؟ . . . حتى باعدت بينهما المسافة . .

وعجب الأستاذ أيما عجب. على أن عجبه كان شيئا يسيرا إلى ما أحس به ساعتئذ من ثورة الوجدان. وكانت الفتاة شابة حسناء مدمجة الخلق، مرتوية الساقين، فاتنة القسمات، يزين وجهها عينان زرقاوان لنظرتهما وقع السحر فى الحواس والقلب والأعصاب، فانبعث فى قلبه خفقان واضطراب، وشعر بنشوة رائعة. ثم لسعته حسرة أليمة، حسرة محروم طال عهده بالحرمان. وكانت حياته فى الواقع خالية من الحب مثل كهف رطب لا تزوره الشمس، لأن تفانيه فى طلب العلم لم يدع له وقتا لشىء سواه. ولعيبين طبيعيين كبرا فى وهمه واشتدّا على نفسه، إذ كان يترامى إلى أذنيه أنه ثقيل الظل، وكان إلى هذا عييّا حصوراً لا يكاد يبين، فلم يكن فى وسعه قط أن يحسن خطاب فتاة فضلا عن أن يغازلها. ودعاه هذا وذاك إلى النفور من الحسان وإلى ما يشبه الخوف منهن.

وحز لذلك الألم فى نفسه وسكب فى قلبه امتعاضا ومرارة، فتبدى عليه الجفاء والوحشة، واضطرب عهدا طويلا يائسا بين الرغبة فى الحب والخوف من المرأة، والتشوف إلى النساء والحقد عليهن. فكانت تلك النظرة الحلوة أول نسمة تهب عليه من

دنيا الوجدان فترتوى بها نفسه الظمآنة ويندى بها قلبه الجاف . ولكنه ارتواء كالظمإ وندى أشد حرقة من الجفاف ، فتحير وتعجل وتساءل وهو يقلب كفيه . . ترى ما خطب هذه الفتاة؟ . . . وما معنى هذه النظرة الفاتنة التى أذابت الوجد والهيام والحنو المتجمدة فى قرارة نفسه؟ . . إنه لا يعرفها على وجه اليقين ولا يذكر أنه رآها من قبل ، وهى بغير ريب لا تعرفه أيضا ، فلا هى قريبة ولا جارة ولا طالبة بكلية العلوم ، ولعله التبس عليها شبهه ، ولكن كيف طال بها الشك تلك المدة السعيدة التى أدامت فيها النظر إليه؟! . .

ومضى يتفكر تنقله الحيرة من فرض إلى فرض ، وقد انشغل عن الغدد والكيمياء جميعا . وكان فى عزمه أول الأمر أن يعود إلى بيته فيستمع إلى المذياع ساعة ويطالع ساعة قبل النوم ، ولكن نفسه عافت ذلك ، ومضى يضرب فى الأرض على غير هدى تاركا محرك خياله للخواطر السعيدة والأحلام اللذيذة والأوهام المخدرة حتى أعياه التعب وتعناه المشى . وكان سرى عنه بعض الشىء وأخذ يفيق من أثر النظرة ، فاتجه إلى قهوة روجينا وجالس بعض صحبه حتى شارفت الساعة التاسعة ، ثم خطر له أن يقضى سهرة المساء فى سينما رويال ، وكان قليلا ما يجذبه مزاجه إلى ذلك . فسار بلا تردد إلى السينما وابتاع التذكرة وكان يكره الانتظار جالسا فدلف إلى الصور المعلقة بالردهة الخارجية وقلب فيها عينيه ، ثم أولاها ظهره ملالاً وأرسل بناظريه إلى مدخل السينما يشاهد جمهور الداخلين ، فرأى سيارة فخمة تقف أمام مدخل السينما وفتح بابها ونزلت منها سيدة بدينة بادية النعمة والثراء ، تبعتها على الأثر فتاة حسناء انخلع لرؤيتها قلبه فى صدره ، وأحس بفرح عجيب تمازجه دهشة ، فلم تتحول عنها عيناه . وفاته فى ذهول أن يرى ضابط بوليس شاب يبرز من الباب الثانى للسيارة ويدور حولها بسرعة ويلحق بالسيدة والفتاة .

وانعطف رأس الفتاة إليه ـ وكانت فتاته من دون سواها ـ كأنما جذبتها قوة بصره المشوق فالتقت أعينهما ، ولاح على محياها الجميل الاهتمام والدهشة ورقت نظرتها بالحنان الذى حيره وفتنه منذ حين ، فتبعها فى خطى مضطربة ملبيا نداء قوة عاتية . وصعدت الفتاة مع الصاعدين إلى الطابق الثانى فوقف فى الردهة يتابعها بعينيه ، ورآها قبل أن يغيبها عن ناظريه منعطف السلم تلقى عليه نظرة أخرى . . يا لها من نظرة . . فاستخفه طرب جنونى عذب لا يتأتى لغير الموسيقى وصفه . واندفع إلى الداخل لا يلوى على شىء . فلما اطمأن به مقعده مضى يصعد نظره فى «الألواج والبناوير» باحثا عن الوجه الحبيب ذى النظرة الفاتنة الحنون حتى وجد ضالته فى «البنوار» رقم ٣ ، وكانت تتقدم السيدة بقامتها الهيفاء ، والتقت نظرتها بوجهه هذه المرة واتجهت نحو السيدة البدينة ـ التى تدل الظواهر على أنها أمها ـ ورآها تهمس فى أذنها ، ثم شاهد السيدة تنظر إلى أسفل

باحثة بعينيها حتى استقرتا عليه . . . فارتبك وتعجب وتساءل ترى لماذا تدل أمها عليه؟ . . .

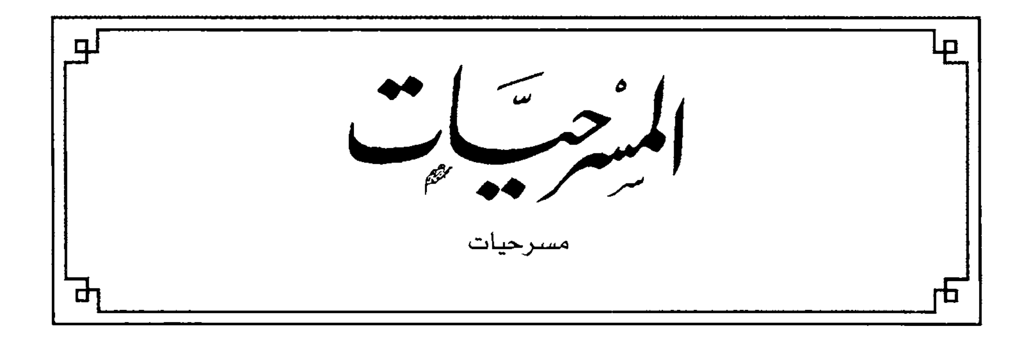
على أن عجبه ازداد إلى غير حد لأنه رآها تعطف رأسها إلى الوراء وتحادث شخصا لا يرى سوى أعلى طربوشه، ومال هذا الشخص إلى الأمام ونظر صوبه وكان ضابط البوليس، فلم يستطع أن يديم النظر إلى أعلى وأدار رأسه إلى الأمام، ولكنه تذكر هذا الضابط، وذكر أنه كان من زملاء فرقته فى الخديوية، وأنه كان يدعى على سالم وأنه كان مبرزا فى الألعاب الرياضية، وظن أنه أخو الفتاة، ولكنه تحير فى فهم الدواعى التى بعثتها إلى توجيه الانتباه إليه بكل جسارة، وفيما عسى أن تكون حدثتهما به عنه. . وغلبه الشوق وحب الاستطلاع فرفع بصره إلى «البنوار» مرة أخرى فرأى الوجوه الثلاثة محدقة فيه. وخيل إليه أن زميله القديم يحييه، فلم يصدق بصره وظل جامدا لا يتحرك، فأعاد الضابط تحيته برفع يده إلى رأسه ورد عليه الأستاذ التحية مرتبكا، وشاهده يدعوه إلى أن يصعد إليه، فخفق قلبه خفقة عنيفة وقام واقفا وقد لفته الدهشة والارتباك. وغادر المكان فى ذهول شديد، وصعد السلم والتقى بصاحبه عند مدخل «البنوار» واستقبله هذا استقبالا وديا وشد على يده بحرارة ـ ولعله فعل ذلك ليطرد عنه الدهشة والارتباك ـ ثم أوسع له وهو يقول هامسا :

ـ تعال أقدمك إلى أهلى .

ووجد نفسه فى البنوار أمام السيدة والفتاة الجميلة، وقال الضابط يقدمها له وهو يشير بيده :

ـ حرم الأميرالاى محمد جبر بك. الآنسة زينب كريمتها وخطيبتى .

ثم التفت إليه وقدمه لهما مكتفيا بذكر اسمه وزمالته القديمة لأنه يجهل حاضره. . . ودوت كلمة «خطيبتى» فى أذنيه دويا مزعجا أطفأ نشوة الفرح فى حواسه جميعا وسكب مكانها خيبة مرة. فجلس كما طلب إليه ذاهلا مرتبكا قانطا عاجزا العجز كله عن حصر انتباهه فيما حوله. وكانت السيدة ترحب به وتشارك الضابط فى التودد إليه ومجاملته ولكنه لم يدر مما قالا شيئا، واكتفى بانتزاع ابتسامة مغتصبة من شفتيه يرد بها عليهم ردًا صامتا كئيبًا. وكان يتخبط فى حيرة.



المحتويـــات

يميت ويحيى

المسرح منقسم إلى قسمين. قسم أمامى وهو حوالى ثلثى المساحة وهو مضاء واضح المعالم. فى وسطه نخلة مغروسة، وفى جانب منه ساقية صامتة، القسم الخلفى مرتفع الدرجات على هيئة مصطبة، تغشاه الظلمة، وتلوح به أشباح راقدة، نيام أو موتى. الطابع طابع تجريدى.

يُرفع الستار. على المسرح فتاة جميلة تسير ذهابا وجيئة بين النخلة والساقية. ثوبها يناسب الجو التجريدى حيث يصعب تحديده على أساس جغرافى وكذلك ثياب جميع من سيظهرون على المسرح.

ومع ارتفاع الستار تترامى أصوات معركة بين اثنين آتية من ناحية اليسار. شتائم وتهديدات وأصوات ضرب.

الفـتـاة : يارب السماوات . . متى تختفى هذه الأصوات من الوجود؟ . . متى تشرق شمسك على أرض ناعمة البال، قريرة العين؟

(تصغى إلى الأصوات بقلق متزايد ثم تقول)

ترى هل أكفر عن ذنب قديم؟ أو إنه بلاء مركب فى دمى؟ أو إنها أخطاء تقع فلا تلقى إرادة صادقة لإصلاحها؟

(يتقهقر شخص مندفعا بعنف، نتيجة لدفعة قوية تلقاها فى الخارج، ثم يسقط

تحت النخلة مغمى عليه. الفتاة تنحنى فوقه باهتمام وتربت على خده بحنان. يفتح عينيه. ينظر إليها ثم يغمض عينيه مرة أخرى مغمغما)

الفتى : أبى!

(تربت على خده بحنان، يفتح عينيه لحظات ثم يغمضهما مغمغما)

: أمى!

(تربت على خده بحنان، يفتح عينيه لحظات ثم يغمضهما مغمغما)

: زوجتى!

الفتاة : شد حيلك.

(تدلك خديه. يفتح عينيه مفيقا. ينظر إليها طويلا ثم يتمتم)

الفتى : أنت!

الفتاة : حمدا لله.. قم.. اعتمد على ذراعى..

(تقيمه.. تمسح بمنديل جبينه وتسوى له شعره.. وهو يأخذ فى التماسك شيئا فشيئا)

: لعلك أحسن..

(الفتى لا يرد ولكنه يعاود حالته الطبيعية)

: تنفس بعمق فالجو اليوم طيب.

الفتى : لا شىء طيب على الإطلاق.

الفتاة : الجو طيب على الأقل، هدئ خاطرك.

الفتى : هيهات أن يطيب بعد اليوم جو أو خاطر.

(تشده برقة إليها فى دلال).

الفتاة : تعال إلىّ، أنا لا أعرف اليأس.

(تحتد فى عينى الفتى نظرة ولكنه يتراجع فى حياء أمام نظراتها الحنونة).

الفتى : لست على حال أهنأ معها بعطفك، معذرة.

الفتاة : ليتك تقنع بصدرى ملاذا لك من متاعب الدنيا.

الفتى : ليت ذلك فى الإمكان.

الفتاة : إنه ممكن إذا أردته.

الفتى : **(متحسسا رأسه وعنقه فى تألم)** إنه مستحيل أردت أم لم أرد.

الفتاة : إنها اللعنة القديمة التى تطارد التعساء.

الفتى : الحق إنها تطارد الأحياء.

الفتاة : وعلى الأحياء أن يحذروها، إنى أدعوك إلى السعادة الحقيقة فى الوجود.

الفتى : حتى السعادة تنقلب أحيانا بين أيدينا ترابا وخجلا .

الفتاة : يا لك من جاحد!

الفتى : لا أنكر عهدك، ولكنى أخشاه، أخشاه فى لحظة اندحارى الراهنة، وأراه من موقفى الدامى ذا جاذبية مخيفة تعمى البصر .

الفتاة : أهذا شعورك نحو تفتح القلب وتألق الأزهار وجنى الثمر ؟!

الفتى : بل إنى أذكر مع الأسى ثقل الجنون، وترهل العضلات واسترخاء الهمم .

الفتاة : دعنى أكرر أن ليتك تقنع بصدرى ملاذا لك من متاعب الدنيا .

الفتى : يا له من جمال دافئ قهار . أقوى من الموت نفسه، ولكن تلاشت فى أحضانه أحلامى .

الفتاة : إنه أنفع من أحلامك .

الفتى : سيظل الجبن أكبر منغص لصفو الرجال .

الفتاة : من عجب أن تحن إلى فظاظة الخلاء!

الفتى : أحن حقا إلى توهج مصباح الحياة على حافة هاوية الخطر الداهم .

الفتاة : والدم والتشرد والغبار .

الفتى : بل قوة الاعتداد المسخرة للرياح .

الفتاة : ولدى زلة قدم يهال التراب على رجل من الرجال .

الفتى : والصرخات المدوية تتوارى فى أعقابها الفئران فى الجحور، ولذة التساؤل المفعم بالقلق أمام احتمالات الحياة والموت .

الفتاة : ووجهك الملطخ بالدماء المثير للرعب .

الفتى : ونبض القلب بزهو النصر المؤسس على الحق والكرامة .

الفتاة : أنت أنانى، زهدت فىّ بعد شبع . وشاقتك رائحة الدماء .

الفتى : إنى أحبك ولكنى أكره أن أتمرغ فى التراب .

الفتاة : هذا يعنى أنك لا تحبنى .

(الفتى يشير إلى المصطبة المسربلة فى الظلام حاملة الرقود من الأشباح)

الفتى : ليكن لى قدوة فى الغابرين .

الفتاة : لا أحب النظر نحو الموتى .

الفتى : لكنهم أحياء ما دمنا أحياء .

الفتاة : فراغ وراءك وفراغ أمامك، ولا حقيقة فى الوجود سواى!

الفتى : كم استنمت إلى هذا الكلام الآسر حتى داستنى الأقدام .

الفتــاة : لقد أشعلت غضبه بمزاحك .
الفتــى : المزاح من آداب حياتنا فكيف يكون جزائى ضربا أليما موجعا!
الفتــاة : طالما حذرتك من المغالاة فيه .
الفتــى : ولما أردت الدفاع عن نفسى خذلتنى يداى .
الفتــاة : الرجل المهذب خير عندى من الرجل القوى .
الفتــى : صدقت حتى وهنت منى القبضة .
الفتــاة : كان علىّ أن أنتشلك من حياة التشرد فى الخلاء .
الفتــى : وهكذا هزمنى وهو يسخر من ضعفى .
الفتــاة : لا تمزق عشرتنا بالكبرياء .
الفتــى : إنها تتمزق بالمهانة كما تتمزق بالموت .
الفتــاة : لا شىء كالموت .
الفتــى : إنه ليس شر ما فى الحياة .
الفتــاة : صدقنى فإنه العدو الأول للحياة .
الفتــى : أيسرك أن أرضى بالهزيمة؟
الفتــاة : ارض بأى شىء إلا الموت .
الفتــى : وأعود إلى اللعب السعيد وقلبى يحترق بنار الهزيمة؟
الفتــاة : للزمن بلسم يشفى كل شىء إلا الموت .
الفتــى : (مشيرا إلى المصطبة) تعامل أجدادنا مع الموت بعقيدة أخرى فوهبوا الخلود .
الفتــاة : لقد ماتوا وشبعوا موتا .
الفتــى : (مخاطبا المصطبة وأهلها) قولوا إنكم خالدون .
(صوت من المصطبة كالصدى) : إنكم خالدون .
الفتــاة : لا تخاطب الفراغ كالمجانين .
الفتــى : ألا تسمعين؟
الفتــاة : إنك تصرخ فى الأموات تبريرا لسفك الدماء .
الفتــى : يا له من صوت رهيب!
الفتــاة : متى كان للتراب صوت .
الفتــى : (مخاطبا المصطبة) هل تسمعون ما يقال؟
الصوت ـ الصدى : (بعد قليل) هل تسمعون ما يقال؟
الفتــى : ماذا فعلتم بالموت وماذا فعل بكم؟

الصوت ـ الصدى : ماذا فعلتم بالموت وماذا فعل بكم؟

الفتى : **(لا يزال متطلعا إلى المصطبة وكأنما يخاطب نفسه)**

إنهم يرددون قولي . . أجل . . ولهذا معنى عميق لا يخفى على لبيب . . وها هم يتحركون . **(يظلون رقودا طيلة الوقت ودون حركة)** . . إنهم يهدون إليّ صورة عزيزة غابرة . . ها هو القتال يحتدم . . الشهداء يسقطون . . الجنود يتسلقون جدار الحصن كالنمل . . ها قد سقط الحصن . . وهذا هتاف النصر يدوى مخترقا جدار المئين من السنين **(ثم ملتفتا نحو الفتاة)** . . أرأيت . . أسمعت؟

الفتاة : لا شيء يرى ولا يسمع!

الفتى : لقد زلزلنى هتاف النصر فوق جثث الشهداء .

الفتاة : ما هى إلا هواجس رغباتك الجامحة فى القتل .

الفتى : سحقا للخمول فى خمائل الورد .

الفتاة : يا حسرتاه على حكمة الأيام الناعمة!

الفتى : **(مشيرا إلى المصطبة)** لقد لفحتنى أنفاسهم المحترقة حزنا علىّ .

الفتاة : ليس للأموات أنفاس تحترق .

الفتى : إذا مات الأموات أدرك الفناء كل شيء .

الفتاة : إذا أردت الحياة حقا فلا تنظر إلى الوراء .

الفتى : ولكن الوراء هو الأمام!

الفتاة : ولا تنظر إلى الأمام . .

الفتى : **(يقطب محتجا حائرا)** .

الفتاة : فلتغرق فى عينى توهب خلودا بين الظلمتين!

(قهقهة ساخرة وحشية تترامى من ناحية اليسار) .

الفتى : أتسمعين استفزازه الساخر؟!

الفتاة : ريح هوجاء يعربد خلالها الشقاء .

الفتى : إنه يتحدانى!

الفتاة : سأغنى لك أغنية ترقص لها الحمائم فاستمع لى أنا!

الفتى : فلتطرب العصافير .

الفتاة : فلتهنأ بك شهوة الدماء .

الفتى : إن قهقهته الساخرة تحيل الهواء فى صدرى ترابا .

الفتاة : خير ما تفعل أن تصم أذنيك .

الفتى : ولكنى خلقت بأذنين .

الفتاة : لتسمع بهما مناجاتى الدافئة .

الفتى : يا لها من مناجاة أجهضت همتى . . الوداع . .

الفتاة : لن تستغنى عنى أبدا .

الفتى : فلتكونى الأمل المؤجل حتى يطيب كل شىء .

الفتاة : لن يطيب شىء بعيدا عن ذراعى .

(القهقهة الساخرة تترامى من بعيد).

الفتى : الوداع .

الفتاة : انعم بالنوم رغم الضوضاء .

الفتى : بل أقضى على الضوضاء قبل أن أنعم بالنوم .

الفتاة : كلمة أخرى . . لا أريد أن يدركنى اليأس .

(الفتى يضع أصبعيه فى أذنيه. تنظر إليه مليا ثم تمضى إلى الجهة اليمنى).

(الفتى ينظر نحو المصطبة).

الفتى : لا يمكن أن يدلنى على حقيقة الحياة إلا شخص أدركه الموت!

الصوت ـ الصدى : الموت .

الفتى : ذهبت . . ولكنها لن تذهب بعيدا . . محال أن أتحرر منها كلية . . ولا رغبة لى فى ذلك . . ولا قدرة لى عليه . . ولكنى أريد الحقيقة . .

الصوت ـ الصدى : الحقيقة .

الفتى : أفصحوا . . لا تتكلموا كما تتكلم الصخور .

الصوت ـ الصدى : الصخور .

الفتى : حدثونى عن الموت والحياة .

الصدى : الحياة .

الفتى : من هو البطل؟

الصدى : البطل .

الفتى : أهو المحارب؟

الصدى : المحارب .

الفتى : أهو المسالم؟

الصدى : المسالم .

الفتى : اللعنة . . اللعنة . . اللعنة . .

(يتحول الفتى عن المصطبة)

: (صائحا) عليّ أن أستعد . . إليّ بالطبيب . . أيها الطبيب .

(يدخل الطبيب.. بنفس الثياب التجريدية.. ولكنه ذو لحية.. وبيده حقيبة).

الطبيب : لا تصرخ اتقاء للمضاعفات .

الفتى : وهل تأكدت من مرضى حتى تحذرنى من المضاعفات؟

الطبيب : إننا لا ندعى للأفراح .

الفتى : بل يبدو لى أنى مريض .

الطبيب : إننى أعمل يومين فى اليوم الواحد .

الفتى : يـاه!

الطبيب : إنه الوباء . .

الفتى : هل يوجد وباء؟

الطبيب : كأنك تعيش فى قمقم .

الفتى : قمقم من الغم .

الطبيب : وهو ينتشر رغم المقاومة الفنية المنتظمة .

الفتى : لعلكم ازددتم به ثراء على ثراء .

الطبيب : نحن نثرى بفضل الأمراض لا الأوبئة .

الفتى : لكن الوباء ما هو إلا مرض كبير .

الطبيب : الوباء ينتشر انتشارا أعمى فيهدد كبار رجال الدولة ولذلك فهم يسخرون الأطباء لمقاومته فلا نفيد من ورائه خيرا يذكر .

الفتى : أمر يدعو للأسف ، ولكننا ندفع ثمن إهمالنا للبيئات الفقيرة القذرة .

الطبيب : الوباء وفد من الخارج كالعادة دائما .

الفتى : ربما ولكنه يستفحل فى البيئات الفقيرة .

الطبيب : استفحل هذه المرة فى البيئات الراقية!

الفتى : ظاهرة غريبة تستحق الدراسة .

الطبيب : لكنك استدعيتنى لأمر أهم من التزود من الثقافة الصحية العامة .

الفتى : عندك حق . إنى أعتقد أنى مريض .

الطبيب : إنى مصغ إليك يا سيدى .

الفتى : لا أعراض خاصة تستحق الذكر .

الطبيب : لعلك ترغب فى إجراء كشف عام؟

الفتى : تقريبـا .

الطبيب : إما أنك تريد أو لا تريد فما معنى قولك «تقريبا»؟

الفـــتى : لا مؤاخذة فهذا ما قصدته بالدقة .

الطبـــيب : ولمَ لَم تذكر ما تقصد بالدقة من أول الأمر ؟

الفـــتى : لاَ تشتد فى محاسبتى على أسلوبى فى الكلام .

الطبـــيب : هل يجرى كلامك على هذا النحو القلق عادة؟

الفـــتى : تقريبـــا !

الطبـــيب : عدنا إلى تقريبا !

الفـــتى : فلنفترض أن الجواب بالإيجاب .

الطبـــيب : فلنفترض ! . . ألا تستطيع أن تعبر عما تريد بدقة؟

الفـــتى : طيب ، إنى أرغب فى إجراء كشف عام .

الطبـــيب : أسلوبك فى الكلام لا يخلو من دلالة مريبة .

الفـــتى : عدنا إلى الأسلوب .

الطبـــيب : إنه أول عرض .

الفـــتى : عـــرض؟ !

الطبـــيب : إنك تحاور وتداور ، ولا تقصد إلى هدفك رأسا .

الفـــتى : معـــذرة .

الطبـــيب : وهذا هو أول أعراض الوباء .

الفـــتى : الوبـــاء !

الطبـــيب : أما بقية الأعراض فيمكن استنتاجها .

الفـــتى : لا أفهم شيئا .

الطبـــيب : غيـــر مهـــم .

الفـــتى : ولكنه مرضى أنا .

الطبـــيب : إنه وباء فهو ملكية عامة .

الفـــتى : فليكن ، علينا أن نفهمه على أى حال .

الطبـــيب : بل عليك أن تتداوى منه .

الفـــتى : حسن ، فلتحدثنى عن بقية الأعراض .

الطبـــيب : بل عليك أن تحدثنى أنت .

الفـــتى : ولكنك قلت إن بقية الأعراض يمكن استنتاجها .

الطبـــيب : أتريد أن ترسم لى خطتى فى العلاج؟

الفـــتى : أنا تحت أمرك .

الطبـــيب : هذا هو العرض الثانى !

الفـــتى : أين هو؟

الطبيب : بعد المحاورة والمداورة تصدر جملة واضحة محددة وهى «أنا تحت أمرك».

الفتى : ولكنها مجرد مجاملة!

الطبيب : هذا ما يخيل إليك، أما الواقع فإنه العرض الثانى!

الفتى : بهذه الطريقة يمكن أن نعتبر أى عبارة عرضا من أعراض الوباء.

الطبيب : قولك هذا يقطع بعدم ثقتك فى العلم.

الفتى : ولكنى من المتحمسين للعلم..

الطبيب : **(يهز رأسه فى شك وهو صامت)**

الفتى : **(وهو يشير نحو المصطبة المسربلة بالظلام)** إنى من أصل عريق كان أول من أحرز فى ميدان العلم نصرا.

الطبيب : الإشارة نحو الظلام مقرونة بالمباهاة عرض ثالث من أعراض الوباء.

الفتى : لست من هؤلاء.. إنى بصفة عامة متعصب للعصر الحديث..

الطبيب : متعصب؟!

الفتى : أقصد أننى متحمس للعصر الحديث، ولا ألتفت نحو الأسلاف إلا تحت ضغط ضرورة ملحة!

الطبيب : وهاك عرضا من أعراض الوباء.

الفتى : إذن فأين يقع السلوك الصحيح؟

الطبيب : إنك لا تدرى عنه شيئا فيما أرى!

الفتى : إنى أجد دوارا فى رأسى!

الطبيب : الصراحة تحدث لك دوارا؟.. عرض خامس!

الفتى : لعلى بالغت فى التعبير.

الطبيب : من الدوار إلى المبالغة.. عرض سادس!

الفتى : خير ما أفعل أن ألزم الصمت.

الطبيب : من الدوار إلى المبالغة إلى الصمت.. عرض سابع!

الفتى : ها.. ها.. ها..

الطبيب : دوار، مبالغة، صمت، ضحك بلا سبب.. عرض ثامن..

الفتى : ها.. ها.. ها.. ها.. ها..

الطبيب : إغراق فى الضحك رغم التأكد من أعراض الوباء.. عرض تاسع!

الفتى : **(يخفى وجهه بين كفيه)**

الطبيب : وتخفى وجهك ولكن أعراض الوباء لا تختفى.

الفتى : وماذا يمكن أن أفعل؟

الطبيب : وهذا هو التساؤل الذى يمثل أخطر أعراض الوباء.

الفتى : الحق أنك لا تشخص مرضا ولكنك مصمم على إثبات وجود الوباء.

الطبيب : ها أنت تبدأ بالتهجم على، ومعنى ذلك أنك تهادن من يتحرش بك وتتحرش بمن يحسن معاملتك.. وهذا هو العرض العاشر.

الفتى : إنك تثير غضبى.

الطبيب : وتغضب حيث يجب الحلم.. العرض الحادى عشر.

الفتى : (هازئا) لو لى لا بم.

الطبيب : هذيان لفظى.. العرض الثانى عشر.

الفتى : سيدى الطبيب، ألم تعالج فى حياتك رجلا من أصحاب النفوذ؟

الطبيب : حصل.

الفتى : وهل صارحته بما تصارحنى به الآن؟

الطبيب : كلا.

الفتى : وكيف تصرفت معه؟

الطبيب : تجنبت ذكر أى عرض يسىء إليه.

الفتى : ولكنك عرضت حياته للخطر؟

الطبيب : هذا على أى حال خير من تعريض حياتى للخطر!

الفتى : أليس ذلك بعرض من أعراض الوباء؟

الطبيب : بلى!!

الفتى : إذن فأنت مصاب أيضا.

الطبيب : طبعا لم يسلم من الوباء أحد!

الفتى : ألا تتداوى من الداء؟

الطبيب : بنفس الدواء الذى سأصفه لك.

الفتى : وهو؟

الطبيب : إنه دواء واحد لا بديل له، وهو أن تسير إذا سرت على يديك، أن تسمع بعينيك، أن ترى بأذنيك، أن تتذكر بعقلك، وأن تعقل بذاكرتك.

الفتى : يا له من دواء غريب وشاق!

الطبيب : ولكنه ناجح وفعال ومجرب!

الفتى : شكرا لك.

الطبيب : عفوا آن لى أن أذهب.

الفتى : مصحوبا بالسلامة.

(الطبيب يتجه نحو الناحية اليسرى. صوت القهقهة الساخرة يرتفع، الطبيب يتوقف عن السير. يستدير ذاهبا إلى الناحية التى جاء منها ويختفى)

الفتى : آن لهذا الصوت الكريه أن يخمد، ولا حل إلا أن أؤدبه..

صوت من الجهة اليمنى: بل يوجد حل آخر.

(يدخل رجل عملاق بادى الاعتداد بالنفس مبتسما بمودة)

الفتى : من أنت؟

العملاق : صديق.

الفتى : ولكنى لا أعرفك.

العملاق : نحن فى عالم لا نعرف إلا أعداءنا.

الفتى : ولكنى لم أرك من قبل.

العملاق : ها أنت ترانى، وفى هذا الكفاية.

الفتى : لا حول ولا قوة إلا بالله.

العملاق : تذكر هذه اللحظة جيدا فسوف تؤرخ بها السعادة فى عمرك.

الفتى : وماذا تريد؟

العملاق : أن أساعدك.

الفتى : فى أى شىء؟

العملاق : فى قهر عدوك.

الفتى : ولكنى لم أطلب مساعدة أحد.

العملاق : وهذا يجعل من تقدمى إليك سلوكا جديرا حقا بالصداقة!

الفتى : ومن الذى أرسلك؟

العملاق : قل إنها العناية الإلهية.

الفتى : هذه إجابة عامة ولا تشفى.

العملاق : إذن اعتبر أننى جئتك بحكم وظيفتى.

الفتى : وما وظيفتك؟

العملاق : أن أقيم ميزان العدالة.

الفتى : ومن قلدك هذه الوظيفة؟

العملاق : الفرد هو الذى يختار الوظيفة التى تناسبه.

الفتى : ولكننى لم أسألك المعونة.

العملاق : ربما لأنك لم تكن تعلم بوجودى على كثب منك. وربما..

الفتى : وربما؟

العملاق : وربما لأنك تبالغ فى تقدير قوتك.

الفتى : هذا شأنى على أى حال.

العملاق : كلا.

الفتى : كلا؟!

العملاق : إنه يدخل ضمن اختصاص وظيفتى، علىّ أن أنقذك ولو من نفسك.

الفتى : ولكن مرجع الأمر فى النهاية إلىّ أنا.

العملاق : ويرجع إلىّ بحكم وظيفتى.

الفتى : إنى أشكرك، أرجو ألا تغالى فى اختصاص وظيفتك. ثمة رجل وقح اعتدى علىّ، ولا مفر من أن أؤدبه بنفسى..

العملاق : ولكنه يفوقك قوة، ولا دافع لشره سواى..

الفتى : لست فى حاجة إلى مساعدتك.

العملاق : بل إنك فى مسيس الحاجة إليها:

الفتى : أكرر الشكر، ولكننى لا أعرفك ولا تربطنى بك صلة حقيقية.

العملاق : إنى جزء لا يتجزأ من المكان، لى فيه رزق وصهر، وتربط أسرتى بأجدادك أواصر مودة قديمة.

الفتى : أجدادى؟!.. إنى أشك فى ذلك.

العملاق : من أين لك هذا الشك؟

الفتى : إنى أعرف من كانوا على صلة بهم..

العملاق : لابد أن تفوتك معرفة البعض، وأسرتى كانت ضمن ذلك البعض.

الفتى : حتى لو صح ذلك فإننى لا أعتبره ملزما لى بقبول مساعدتك.

العملاق : إنى أذكر ذلك التاريخ باعتباره مسوغا للقبول لا ملزما له!

الفتى : إذن لا إلزام هناك..

العملاق : أما الإلزام فيجىء من طبيعة وظيفتى.

الفتى : إنى أرفض مبدأ الإلزام..

العملاق : عجيب أن تقف هذا الموقف العنيد من مساعدة تهبط عليك من السماء..

الفتى : أنا الذى تلقيت الضربة وأنا الذى علىّ ردها.

العملاق : لن تستطيع ذلك وحدك.

الفتى : هذا لا يعنيك فى شىء.

العملاق : بل هو كل شيء عندى، هو وظيفتى فى الحياة.

الفتى : لا شأن لى بوظيفتك.

العملاق : لا تجعلنى أشك فى قواك العقلية.

الفتى : انصرف من فضلك ودعنى أتصرف كما أشاء.

العملاق : فكر.. فكر طويلا.. لا ترفض هبة العناية الإلهية.

الفتى : أنا الذى تلقيت الضربة وأنا الذى علىّ ردها.

(الفتاة ترجع وتتخذ مكانها بين الرجلين)

(العملاق يحنى لها رأسه فترد التحية)

العملاق : لى عظيم الشرف بلقاء ربة الدار.

الفتاة : شكرا يا سيدى.

العملاق : كنت أذكره بالصلة القديمة التى ربطت بين أسرتى وأجداده.

الفتاة : سمعت كل شيء!

العملاق : إنه ينكر تلك الصلة.

الفتاة : لا يمكن إنكار أى صلة قديمة أو حديثة.

العملاق : مرحبا بصوت الحكمة.

الفتاة : كن رفيقا به فهو غاضب.

العملاق : ألا يحق لى أن أتمسك بأداء وظيفتى؟

الفتاة : مباركة الوظيفة التى تصون الحياة..

العملاق : مرحبا بصوت الحكمة.

الفتى : **(مخاطبا الفتاة)**.. مؤامرة!

الفتاة : معاذ الله.

الفتى : مؤامرة.

الفتاة : افتح له صدرك.

العملاق : أشكرك يا صوت العقل.

الفتى : **(للفتاة)** إنى أطالبك بالاحترام.

الفتاة : قلبى ملئه الاحترام والحب.

العملاق : لم تعاند محبيك؟

الفتى : الحب قد يدفع إلى الهلاك.

الفتاة : الحب لا يتعامل إلا مع الحياة.

الفتى : إنى أطالبك بالانسحاب.

العملاق : غريب أن تعامل الجمال والحكمة بهذه الفظاظة.

الفتى : (للعملاق) لا تتدخل فى شئونى الخاصة.

العملاق : سمعا وطاعة.

الفتاة : إنى ذاهبة ما دمت ترغب فى ذلك، ولكنى أتوسل إليك أن تفتح له صدرك.

(الفتاة تذهب)

(فترة صمت يتبادل فيها الرجلان النظرات، العملاق باسما والفتى غاضبا).

العملاق : الجو أصبح أصلح للمناقشة.

الفتى : ألم تستنفد المناقشة؟

العملاق : كلا بعد، افتح لى صدرك، واتخذ بعد ذلك قرارك.

الفتى : **(يتنهد صامتا)**.

العملاق : أريد أن أساعدك.

الفتى : خبرنى صراحة عما تريد ثمنا لذلك؟

العملاق : إنى صديق ولست بتاجر.

الفتى : حدثنى عما تريد.

العملاق : لا شىء ألبتة.

الفتى : ألبتة؟

العملاق : إلا ما تتطلبه ظروف العمل طبعا.

الفتى : ظروف العمل؟

العملاق : لكى أؤدب عدوك فلابد من استدراجه إلى هنا.

الفتى : إلى مكانى هذا؟

العملاق : نعم.

الفتى : لا يجوز أن يدنس مقامى بقدمه.

العملاق : لا تعط المكان أهمية أكثر مما يستحق.

الفتى : **(مشيرا إلى المصطبة)** إنه مقامى مذ كان مقاما لهؤلاء.

العملاق : ولا تعط للأموات أهمية أكثر مما يستحقون.

الفتى : إذن هذا هو رأيك عن الأجداد؟

العملاق : إن باطن الأرض ملىء بالعظام وهيهات أن تعرف أين عظام أجدادك بينها.

الفتى : هذا رأى من لا أصل له.

العملاق : لا تغضب . . ما أردته هو أن أبين لك خطتي في العمل .

الفتى : ولم لا تذهب إليه حيث يقهقه؟

العملاق : إني أعرف ما أريد .

الفتى : سأجاريك في أفكارك فهل إذا وافقت على رأيك تشرع في العمل؟

العملاق : ولكن ليس هذا بكل شيء .

الفتى : ثمة شروط أخرى؟

العملاق : لا تردد كلمة «شروط» فما أبغضها في مقام الصداقة .

الفتى : طيب . . ماذا تريد أيضا؟

العملاق : في فترة التأهب للمعركة أحتاج لرعاية خاصة .

الفتى : مثال ذلك؟

العملاق : تقدم لي الطعام والشراب والترفيه الضروري .

الفتى : جميل، ولكن يخيل إلى أن مطالبك لم تنته بعد؟

العملاق : ما أجمل أن تدعو الفتاة الجليلة لمجالستنا!

الفتى : فتاتي؟

العملاق : إنها قلب كبير يتسع للجميع . .

الفتى : ولعله يتسع أيضا لعدونا المشترك؟

العملاق : أعني أنني في حاجة إلى الحنان قبل المعركة .

الفتى : وماذا أيضا؟

العملاق : بما أنني سأكون يدك عند الحاجة فمن الإنصاف ألا تتورط في فعل قبل مشاورتي . .

الفتى : منطق سديد!

العملاق : ولا أن تصادق شخصا قبل موافقتي فقد يكون لي عدوا .

الفتى : واحد وواحد يساويان اثنين .

العملاق : ولا أن تعادي شخصا قبل الرجوع إليّ فقد يكون لي صديقا .

الفتى : من يجادل في ذلك؟

العملاق : هل نبدأ؟

الفتى : أود أن أسألك سؤالا، هل يمكن أن يفعل بي عدوي أكثر من ذلك؟

العملاق : (مستنكرا) ولكن الفعل يتغير معناه بتغير فاعله .

الفتى : فاعله؟!

العملاق : قبلة من زوجك غير قبلة من بنت هوى، وصفعة من والدك غير صفعة من غريب!

الفتى : وأنت تعتبر نفسك الوالد والزوجة لى؟

العملاق : بدأنا نتفاهم فيما أعتقد.

الفتى : (غاضبا) اغرب عن وجهى.

العملاق : ماذا جرى لك؟

الفتى : اذهب.. اذهب بلا تردد.

العملاق : أين أذهب؟

الفتى : ابعد عن مقامى.

العملاق : ولكنه مقامى أنا أيضا.

الفتى : ماذا قلت؟

العملاق : يا سيدى، مضى وقت طويل ونحن نتبادل الحديث، وقت يعطينى الحق فى الإقامة، وبالإضافة إلى ذلك نشأت علاقة إنسانية صميمة مع فتاتك الحكيمة، بل مع هؤلاء الأجداد أنفسهم..

الفتى : أنت بلطجى..

العملاق : فليسامحك الله.

الفتى : اذهب بعيدا، لا أريد مساعدتك، وسألقى عدوى وحدى..

العملاق : عليك فى هذه الحال أن تقاتل اثنين!

الفتى : كيف؟

العملاق : إنك تناصبنى العداء وسأضطر إلى الدفاع عن نفسى..

الفتى : تهاجمنى لأننى أرفض مساعدتك؟

العملاق : لأنك تريد أن تطردنى من مقامى وتعطل وظيفتى الأساسية فى الحياة.

الفتى : لا تستهن بى، لست عملاقا مثلك، ولكننى مصمم على منازلة الموت نفسه.

العملاق : ما دمت تريد الموت فلتمت.

الفتى : سأموت إذا مت وأنا أقاتل.

العملاق : إذن فلتقاتل ولتمت.

(تعود الفتاة مسرعة)

الفتاة : أردت أن تفتح صدرك للتفاهم لا للموت.

الفتى : إنه شر من الآخر.

العملاق : إنه أحمق.

الفتى : إنه من النوع الآخر ولكنه شر منه.

الفتاة : يا للأسف.

الفتى : لا منفذ إلى حياة طيبة مع وجودهما.

الفتاة : متى أسمع كلمة جميلة تتردد؟

الفتى : عندما يختفيان هما وأمثالهما.

الفتاة : كلام قديم معاد.

الفتى : ولكنه حق.

الفتاة : متى أسمع كلمة جميلة تتردد؟

العملاق : إنى أردد هذه الكلمة المنشودة ولا من سميع.

الفتاة : (للعملاق) ألا يمكن أن تقيم ميزان العدالة بلا شروط؟

العملاق : إنى أبغض كلمة «شروط».

الفتاة : ألا يمكن أن تقيم ميزان العدالة دون أن تطالب بشىء؟

العملاق : لن يكون هذا من العدل فى شىء..

الفتاة : متى أسمع كلمة جميلة تتردد..

(صوت القهقهة الهازئة يترامى من بعيد)

(العملاق ينصت إلى الصوت باهتمام ودهشة)

العملاق : رباه.. إنى أعرف هذا الصوت.

الفتاة : إنه صوت عدوه.

العملاق : عدوه!

الفتاة : نعم.

العملاق : يا لعجائب المصادفات!

الفتاة : هذا هو الرجل الذى قصدت بتقديم مساعدتك القضاء عليه.

العملاق : ها.. ها.. ها.

الفتاة : ماذا يضحكك؟

العملاق : إنه قريبى من ناحية الأم!

الفتاة : قريبك؟!

العملاق : نعم. يا لذكريات الطفولة السعيدة التى لا تنسى!

الفتى : ظننتك تعرف العدو الذى جئت متطوعا لضربه.

العملاق : ها.. ها.. ها.

الفتى : ألا زلت عند رأيك فى مساعدتك؟

العملاق : ولكنك رفضت مساعدتى!

الفتى : هبنى قبلتها فهل تقدمها؟
العملاق : مع كافة الشروط التى اشترطتها؟
الفتى : لكنك تبغض كلمة «شروط»؟
العملاق : نعم أم لا؟
الفتى : نعم.
العملاق : فى هذه الحال ألعب دور رسول السلام بينكما.
الفتى : رسول السلام؟
العملاق : إكراما لهذه الفتاة الحكيمة، ولك.
الفتى : وتعهداتك السابقة؟
العملاق : للقربى حقوق، وإنى لا أوفيها حقها الكامل بموقفى هذا..
الفتى : ولكنه هو المعتدى؟
العملاق : ولو!
الفتى : وهو فى الأصل قاطع طرق ليس إلا؟
العملاق : ولو!
الفتى : إنه وحش ذميم.
العملاق : إنك لا تراه على حقيقته.
الفتى : ألم تسمع قهقهته الساخرة؟
العملاق : هذه هى طريقته فى المزاح، يا له من شاب خفيف الروح حقا!
الفتى : ولكنى أعرفه حق المعرفة، من خلال المعاملة والجوار والصراع عرفته.
العملاق : صدقنى إنه لا يكشف عن مكنون كنوزه إلا لمن يحبه ويفهمه.
الفتى : بل لا تلين عريكته إلا لمن يشكمه بالتأديب والضرب.
العملاق : أحمد الله على أنك لم تتمكن من ضربه.
الفتى : ولم؟
العملاق : كنت سأهرع إلى نجدته.
الفتى : ها أنت تهددنى.
العملاق : للقرابة حقوق.
الفتى : تجلت الحقيقة، فما أنت إلا بلطجى كقريبك.
العملاق : يا له من تفكير خليق بأن يقود إلى الهلاك.
الفتى : لا تضيع وقتى هباء.
العملاق : تصرف بوقتك كما تشاء.

الفتى : سأسوى حسابى بنفسى.

العملاق : أنت تعلم أن هذا الكلام لا معنى له، وقد وضحت لك أهداف وظيفتى..

الفتى : اللعنة!

العملاق : إنى صديقك أردت أم لم ترد، وإنى قريبه قبلت ذلك أم لم تقبله، وأنا أكبر منكما سنا وأعظم قوة، فواجبى أن أجمع بين ثلاثتنا بعهد صداقة دائمة جديرة بهذا المكان الذى يؤاخى الأحياء والأموات أنفسهم.

الفتى : كلام طيب ونية لئيمة وفعل غشوم..

العملاق : (مخاطبا الفتاة).. تكلمى أنت.

الفتاة : لم يعد عندى من جديد أقوله.

الفتى : اعترفى بأننى على حق.

الفتاة : أعترف بأنه لا يهمنى فى هذا الوجود إلا الحب.

العملاق : كم أنك حكيمة!

الفتى : كم أنك أنانية.

الفتاة : الحب عطاء بلا حدود ولا نهاية.

الفتى : الوحش يأخذ ولكنه لا يعرف العطاء.

الفتاة : ليتك تؤمن بالحب.

الفتى : لا حياة للحب بين الوحوش.

الفتاة : الحب أقوى قوة فى الوجود بيد أنه سلاح لا يسلس إلا لمن يؤمن به.

الفتى : للوحوش لغة أخرى.

الفتاة : أخشى أن تنقلب وحشا مثلهم.

الفتى : الكرامة أهم من الحياة نفسها.

الفتاة : الفضائل الحقيقية ثمار لا تنبت إلا فوق شجرة الحب..

العملاق : (مخاطبا الفتى).. من المؤسف أنك تحب الموت أكثر مما تحب فتاتك الجميلة الحكيمة.

الفتى : الموت أحب إلىّ من الخضوع لإرادتك.

(القهقهة الساخرة تترامى من بعيد).

العملاق : يا له من فتى ضحوك، يحب المزاح بقدر ما يحب الحياة الآمنة!

الفتى : إنك لئيم بقدر ما أنت قوى.

العملاق : أمامك عملاقان، ووراءك حياة طيبة، فارجع إلى الوراء.

الفتى : إلى الأمام.

العملاق : (للفتاة) أقترح أن ندعه لنفسه ليفكر بهدوء فإن الجدل يغريه بالعناد والمكابرة.

(العملاق والفتاة يخرجان من بابين متقاربين فى الناحية اليمنى)..

(الفتى يتفكر قليلا.. ينظر ناحية المصطبة المسربلة فى الظلام).

الفتى : آن لكم أن تنطقوا.

الصدى : تنطقوا.

(الفتى يلوح بيده غاضبا.. يذهب ويجىء متفكرا.. يدخل رجل أعمى يتحسس طريقه بعكاز، يتصنت مائلا برأسه نحو الفتى)

الشحاذ : هل يوجد أحد هنا؟

الفتى : نعم.

الشحاذ : أنت الذى ناديتنى؟

الفتى : كلا.

الشحاذ : لكنه صوتك وأذنى لا تخطئ.

الفتى : خبرنى عما تريد.

الشحاذ : ماذا تريد أنت؟

الفتى : ألست شحاذا؟

الشحاذ : بلى.

الفتى : لعلك تريد إحسانا؟

الشحاذ : رزقت اليوم بما فيه الكفاية، فماذا تريد أنت؟

الفتى : لا أريد شيئا.

الشحاذ : كذب!

الفتى : شحاذ ووقح.

الشحاذ : لم تشتمنى؟

الفتى : كيف تجرؤ على رميى بالكذب؟

الشحاذ : لأنك كذاب!

(الفتى يرفع يده ليضربه ولكنه يتراجع أمام عجزه)

الفتى : اذهب قبل أن أكسر رأسك.

الشحاذ : لا أذهب حتى أعرف لماذا ناديتنى؟ وماذا تريد منى؟

الفتى : اذهب أحسن لك.

الشحاذ : ليس قبل أن أعرف ماذا تريد.

الفتى : (ساخرا) وهل عندك ما تعطيه؟

الشحاذ : اطلب ما تشاء.

الفتى : (ضاحكا رغما عنه) إنى مدين لك بأول ضحكة فى يومى.

الشحاذ : هذا قليل من كثير مما عندى.

الفتى : يخيل إلىّ أنك غنى.

الشحاذ : جدا.

الفتى : ماذا تملك؟

الشحاذ : عالم الظلام الذى لا نهاية له.

الفتى : أنت خفيف الروح رغم سلاطة لسانك، وكان ينبغى أن تجد ملجأ يؤويك.

الشحاذ : التحقت ذات يوم بملجأ.

الفتى : ولم تركته؟

الشحاذ : رُفتُّ!

الفتى : (ضاحكا) أسمع أول مرة عن رفت الشحاذين!

الشحاذ : كان ناظر الملجأ فظا غليظا ولصا لا حياء له.

الفتى : وتوقع أن تسبحوا بحمده على أى حال؟

الشحاذ : ولكن بعضنا تمرد وكنت على رأس المتمردين!

الفتى : وفضلت أن تهيم على وجهك بلا مأوى؟

الشحاذ : نعم.

الفتى : ولكن أليس الملجأ بكل عيوبه أفضل من التسول والتشرد؟

الشحاذ : الحرية أفضل من الأمن نفسه!

الفتى : يخيل إلى أنك شحاذ مثقف!!

الشحاذ : أعرف أشياء كثيرة.

الفتى : مثل ماذا؟

الشحاذ : أن أرى بأذنى.

الفتى : وماذا أيضا؟

الشحاذ : وأن أسير على يدى!

الفتى : أنت ترى بأذنيك وتسير على يديك!

الشحاذ : وصادفنى فى تجوالى بعض الرسميين فقادونى مرة أخرى إلى الملجأ.

الفتى : إلى الوحش؟

الشحاذ : كلا، كان قد خلفه ناظر جديد عادل وأمين ورحيم . .

الفتى : وكيف تركته بعد ذلك؟

الشحاذ : هربت!

الفتى : غير معقول .

الشحاذ : كان عادلا وأمينا ورحيما ولكنه مغرم بالنظام لدرجة الهوس، ويطبقه بدقة فلكية، ولا يقبل مراجعة . .

الفتى : ولكنك نعمت بالغذاء والكساء والراحة والنظافة . .

الشحاذ : الأكل بميعاد والشرب بميعاد و«ولا مؤاخذة» بميعاد والنوم بميعاد، فكدت أن أجن . .

الفتى : وتمردت مرة أخرى؟

الشحاذ : حتى التمرد حرمت منه فلم يطاوعنى ضميرى على التمرد على رجل عادل أمين رحيم .

الفتى : كان عليك أن ترضى . .

الشحاذ : حتى التمرد حرمت منه!

الفتى : التمرد ليس خيرا فى ذاته .

الشحاذ : ولكنه خير من أن تكون حجرا .

الفتى : وهكذا هربت؟

الشحاذ : هكذا هربت .

الفتى : إلى التراب والحشرات واللقمة العفنة!

الشحاذ : إلى سعادتى الحقيقية .

الفتى : حديثك مثير وعجيب .

الشحاذ : فتك بعافية .

(الشحاذ يتحرك)

الفتى : انتظر . .

(الشحاذ يستمر فى سيره)

الفتى : ألا تريد أن تسمعنى؟

(يمضى الشحاذ حتى يختفى)

(يعود العملاق.. تعود الفتاة)

الفتاة : قلبى طيلة الوقت معك .

العملاق : لعلك اقتنعت برأيى .

الفتى : أيها السيد الذى يحب الشر، ويحب الخير أحيانا لحساب الشر.
أيتها السيدة التى تحب الخير، وتحب الشر أحيانا لحساب الخير.
إليكما رأيى النهائى.
سأصون كرامتى حتى الموت.

الفتاة : **(تخفى وجهها بين يديها وستظل كذلك إلى ما قبل النهاية)**

العملاق : شعار الوباء الذى فتك بملايين الحمقى..

الفتى : ينابيع الحياة الحقة مهددة بالجفاف، أشواق القلب الخالدة يساومها الضياع، سحقا للوحشة التى تذبل فيها معانى الأشياء، إنى ذاهب..

(القهقهة الساخرة ترتفع)

(الفتى يتحول نحوها فى تصميم ويتقدم. العملاق يثب نحوه. الفتى يدفعه. العملاق يقبض على كتفيه ويدفع به نحو المصطبة. الفتى يندفع حتى يغيب فى الظلمة، الفتى يرتد كأنه كرة ارتطمت بجدار منقلبا على وجهه ثم يقف مترنحا. وكأن حركته أيقظت الرقود وشدتهم من رقادهم. يتدحرج أولهم حتى يصل إلى مقدم المسرح وينهض فى تثاقل كمن يقوم من نوم. يتبعه آخر مكررا نفس الحركة. ويتتابع كثيرون. رجالا ونساء مكررين نفس الحركات حتى يكتظ بهم المسرح.

العملاق يتزحزح رويدا رويدا حتى يغيب فى المدخل المفضى إلى القهقهة الساخرة.

تتم يقظة الجميع. تنتصب قامتهم. يرتسم العزم فى وجوههم. يجرى ذلك فى تمثيل صامت. يسير الفتى نحو ناحية عدوه وهو يضرب الأرض ضربات مسموعة منتظمة. يمضون خلفه فى عزم صلب حتى يختفوا جميعا. ضربات أقدامهم ما زالت تترامى)

الفتاة : **(ترفع يديها عن وجهها.. تصغى بحزن.. وترمى بنظرها إلى بعيد).**

التركة

(حجرة انتظار فى بيت ولى الله)

(حجرة ذات طابع عتيق. فى الصدر كونصول. باب إلى اليمين وآخر إلى اليسار، تصطف بجوانبها كنبات تفصل بينها كراسى. ثمة حصُر مزركشة معلقة على الجدران فى مواضع محددة)

(يدخل فتى وفتاة. يتفحصان الحجرة باستطلاع من يراها لأول مرة، ثم يقفان فى الوسط)

* * *

الفتى : البيت صامت كأنه قبر.

الفتاة : صفق لتشعرهم بوجودك.

الفتى : إنه يكره ذلك، مازلت أذكر طبعه.

(صمت قصير)

الفتاة : بيتكم قديم، والحوارى المفضية إليه شقت فيما يبدو من عهد نوح.

الفتى : لا تنسى أصلك وأنت تتكلمين عن الحوارى كسائحة.

الفتاة : تأدب، المفروض أننا مهذبون.

(صمت قصير)

الفتى : لمَ دعانى يا ترى؟

الفتاة : هَو أبوك مهما يكن من أمر.

الفتى : ظننت أن الماضى لن يعود.

الفتاة : الحاضر يمضى والماضى يعود، ولا ينبغى لرجل مذنب أن ييأس فأى ذنب يغفر ما دام المذنب رجلا.

الفتى : ألم تحلمى يوما بأن يدعوك أبوك ليغفر لك؟

الفتاة : لو رآنى ساعة احتضاره لغالب الموت حتى يفتك بى. **(الفتى يبتسم من خلال ثوان من الصمت)**

الفتى : ترى لماذا دعانى بعد ذلك الفراق الطويل؟

الفتاة : إنك وحيده وللقلب حنينه، ومن يدرى فلعلك...

الفتى : لعلى؟

الفتاة : لعلك تذهب مكرما بثروة لم تخطر لك على بال.

الفتى : طردنى يافعا ولا مليم فى جيبى.

الفتاة : ماذا كنت تتوقع جزاء لسلوكك المشين؟

الفتى : تشردت وجعت ولولا...

الفتاة : ولولا فجورك لمت جوعا.

الفتى : اقطعى لسانك يا بنت الأبالسة.

الفتاة : ولأنك رجل فكل ذنب مغفور لك.

الفتى : ولأنك امرأة فكل ذنب مرجعه إليك.

الفتاة : أنت صعلوك ولكن تخافه الشياطين.

الفــــتى : فلنتأدب ولو ساعة من الزمان.

الفــتــاة : حتى تضحك على الرجل.

الفــــتى : العبى دور الزوجة بإتقان.

الفــتــاة : كان عليك أن تجيء وحدك وتتركنى فى سلام.

الفــــتى : لئن أتقدم إليه مصحوبا بزوجتى خير من الحضور وحدى كرجل أعزب محوط بشبهات العزّاب.

الفــتــاة : لعله يعرف عنك أكثر مما تتصور.

الفــــتى : لو صح ذلك لما دعانى بإعلان فى الجرائد.

الفــتــاة : ولكنه ولى من أولياء الله فكيف لم يعرف أنك صاحب خمارة وأنك مغامر؟!

الفــــتى : على أى حال فإنه لم يدخل السجن فهو خير من أبيك المرحوم.

الفــتــاة : تدفعنى إلى استعمال حذائى فى هذه الحجرة العتيقة المباركة.

الفــــتى : استعمليه، وسأرد بكسر رأسك، ونقدم بذلك الدليل على صدق علاقتنا الزوجية.

(صــمت)

الفــتــاة : آه لو يتحقق حلم الثروة!

الفــــتى : وتتحول الخمارة الصغيرة إلى ملهى ليلى عالمى.

الفــتــاة : والمغامر الهاوى إلى قواد دولى!

(يكور لها قبضة يده مهددا فتتراجع خطوة وهى تضحك دون إحداث صوت)

الفــتــاة : الحق أن أباك ذو سمعة طيبة كرائحة الورد.

الفــــتى : أجــل.

الفــتــاة : ما سألنا أحدا عن بيته إلا ولهج بالثناء عليه.

الفــــتى : أناس هذه الأحياء طيبون!

الفــتــاة : ولكنهم يؤكدون خوارقه.

الفــــتى : إنهم يرون فى الحاوى معجزة.

الفــتــاة : وينوهون بالطمأنينة التى يزرعها فى القلب.

الفــــتى : جميع هؤلاء يجيئون إلى هنا ويجودون بنقودهم عن طيب خاطر.

الفــتــاة : ربما لأنهم يأخذون ما هو أقيم مما يعطون.

الفــــتى : إن قلبك لا يخلو من موطن للخرافة رغم اكتنازه بالشر الباهر.

الفــتــاة : وأنت، ألا تذكر يوم تأزمت بالمغص الكلوى؟

الفــــتى : كفى عن الثرثرة، الرجل مليونير ما فى ذلك من شك.

الفتاة : لندع الله أن يكون ذلك صحيحا.

الفتى : هنا.. هنا ثروة طائلة!

الفتاة : هنا؟

الفتى : أولياء الله لا يتعاملون مع البنوك.

الفتاة : وعند حلول الأجل يمكن استخلاص التركة بعيدا عن قبضة الضرائب.

الفتى : ولكن ثمة خطرا أفظع من الضرائب.

الفتاة : ماذا تعنى؟

الفتى : أعنى من يقومون بخدمته.

الفتاة : من يخدم أولياء الله؟

الفتى : الشياطين!

الفتاة : هل تعنى ما تقول؟

الفتى : أعنى شياطين الأرض.

الفتاة : من حسن الحظ أنك شيطان وبوسعك أن تتعامل مع الشياطين، هل لك امرأة أب؟

الفتى : ماتت من زمن بعيد.

الفتاة : أهو طاعن فى السن؟

الفتى : جدا.

الفتاة : هذا يبشر بالخير!

الفتى : لا تحلمى، ماتت أجيال وهو حى يمارس عمله.

الفتاة : لم تعد أعصابى تتحمل الصبر أكثر من ذلك، عليك أن تقابله.

الفتى : بل علينا أن ننتظر، إنى أعرف طبعه.

(صمت. يمشيان ذهابا وجيئة)

(يفتح الباب إلى اليسار. يدخل غلام حاملا مبخرة. غلام جميل يلبس جلبابا وطاقية ومركوبا. يدور فى الحجرة حارقا البخور دون أن يلتفت إلى الفتى والفتاة ودون أن ينبس بكلمة. يقف الفتى والفتاة جنبا لجنب وهما يتابعانه بعينيهما)

الفتى : يا غلام.

(الغلام يكف عن الدوران ويقف قبالتهما)

الغلام : هل أنت من يقوم على خدمة الشيخ؟

الفتى : الناس جميعا يقومون على خدمته.

الغلام : وماذا تفعل أنت؟
الفتى : إنى خادم البيت .
الغلام : أنا ابن مولاك .
الفتى : أعرف ذلك يا سيدى .
الغلام : وكيف عرفتنى؟
(الغلام لا يجيب)
الفتى : لمَ لا تجيب؟
الغلام : لَقد أجبت يا سيدى .
الفتى : (باسما) طيب . . لقد جئت ملبيا دعوته .
الغلام : أعرف ذلك يا سيدى .
الفتى : ألا تدرى متى يدعونى إلى لقائه؟
الغلام : لقد كلفنى مولاى أن أخبرك . . .
الفتى : (مقاطعا) إنى أسألك متى يلقانى؟
الغلام : لقد ذهب .
الفتى : أين؟ . . ومتى؟
الغلام : غادر البيت عقب صلاة الفجر .
الفتى : ومتى يعود؟
الغلام : لن يعود .
الفتى : أنت تهذى يا غلام .
الغلام : سامحك الله يا سيدى .
الفتاة : ولمَ لن يعود؟
الغلام : (محنيا رأسه من الحزن) لقد ذهب إلى لقاء ربه .
الفتى : (جزعة) ماذا تعنى يا شاطر؟
الغلام : قال إنه يشعر بدنو الأجل ثم ذهب .
الفتى : ولمَ لم يبق فى فراشه؟
الغلام : نذَر من قديم أن يلقى ربه فى الخلاء .
الفتى : ولكنك تعرف مكانه؟
الغلام : كلا .
الفتى : ولماذا دعانى؟
الغلام : دعاك لتعود إلى بيتك القديم .

الفتى : وهل حملك رسالة إلىّ؟

الغلام : قال: دنا الأجل، آن لى أن أدعو ابنى الضال لعله يصلح لأن يرث التركة.

الفتى : التركة؟!

الغلام : أمرنى أن أسلمك التركة لعلك تثوب إلى رشدك.

الفتى : ليرحمه الله.. أعنى ليمد الله فى عمره.

الفتاة : وأين التركة يا شاطر؟

الغلام : قال سيجىء غارقا فى الضلال صاحبا معه قرينة سوء.

(صمت مع تبادل نظرات)

الفتاة : هذا يعنى أنها أيضا فى حاجة إلى نصيب من تركته.

الفتى : ومتى تسلمنا التركة؟

(الغلام يشير إلى حصيرة معلقة على الحائط إلى يمين الكونصول)

الغلام : التركة فى خزانة وراء الحصيرة.. هاك المفتاح يا سيدى.

(يتناول الفتى المفتاح ويمضى إلى الحصيرة. يهم الغلام بمغادرة الحجرة. الفتاة تهرع إليه فتقبض على يده)

الفتاة : ابق حتى نتسلم التركة.

(الفتى يزيح الحصيرة. يفتح الخزانة. يأخذ فى إخراج كتب صفراء. ويقرأ بعض العناوين وهو يخرجها ويرصها فوق الكنبة)

الفتى : الحق.. مدارج الروح.. سلام القلب.

(يستمر فى إخراج الكتب التى تتراكم فوق الكنبة ويتهاوى بعضها على الأرض)

الفتى : أين التركة؟

الفتاة : (للغلام) أنت سرقتها!

الغلام : سامحك الله.

الفتى : (مواصلا إخراج الكتب) أين التركة؟

الغلام : لا علم لى بما فى الخزانة.

الفتى : كان المفتاح معك.

الغلام : أعطانيه قبل أن يغادر البيت.

(الفتى يواصل إخراج الكتب ثم يصيح بفرح جنونى)

الفتى : التركة!

(يخرج رزما من الأوراق المالية ويرصها فوق خوان)

الفتاة : ثروة طائلة.

الفتى : ما أكرمك يا أبى وما أبرك!

الغلام : إنه يوصيك بألا تنفق منها مليما واحدا قبل أن تستوعب ما فى هذه الكتب.

الفتاة : الأوفق أن نبدأ باستيعاب هذه النقود.

الغلام : تلك كانت وصيته.

الفتى : شكرا يا غلام، يمكنك أن تنصرف إذا شئت.

الغلام : والتركة؟

الفتى : هل ثمة تركة أخرى؟

الغلام : (مشيرا إلى الكتب) إنما أعنى هذه التركة.

الفتى : ستنفذ الوصية بأمانة.

(الفتاة فى سيرها تدوس على بعض الكتب)

الغلام : ارفعى قدمك.

الفتاة : تفضل بسلام وكف عن إلقاء الأوامر.

الغلام : فلأعيدها إلى الخزانة إذا لم تكن بكما من حاجة إليها.

الفتى : خير ما تفعل أيها الغلام الأمين.

(الغلام يعيد الكتب إلى الخزانة. يحملها باحترام وهو يبكى صامتا. ولما ينتهى يقول بنبرة حزينة)

الغلام : إنى ذاهب.

الفتى : مصحوبا بالسلامة.

(ثم مستدركا)

: انتظر، أنت غلام طيب، تحب أن تشتغل عندى؟

الغلام : أى شغلة يا سيدى؟

الفتى : أدربك لتعمل جرسونا ماهرا.

الغلام : فى مقهى.

الفتى : خمارة، وهى أربح للجرسون من عشر مقاه.

الغلام : إنى ذاهب يا سيدى.

الفتاة : مع السلامة.

(الغلام يذهب)

الفتاة : ألا ترى أن نفتشه قبل أن يرحل؟

الفتى : لو كان لصا لما أخبرنا عن التركة.

الفتاة : علينا أن نجد حقيبة لنضع فيها النقود.

الفتى : سنجد حقيبة أو بقجة فى هذا البيت العتيق.

الفتاة : وعليك أن تفكر فى استغلاله.

الفتى : الأفضل بيعه، إنه قديم حقا ولكنه يدر ذهبا لو بيع أرضا.

الفتاة : واشتر بالثمن عمارة، ولنبع الخمارة أيضا لنعيش أحرارًا كأبناء الذوات.

الفتى : أفكار طائشة، سوف أنشئ ملهى ليليا يضاهى الأوبرج..

(يظهر رجل عند الباب الأيمن. يلبس جلبابا ومعطفا وهو ذو قامة ضخمة، وطابع رسمى كالمخبرين. يتقدم خطوات حتى يصير على مبعدة قصيرة من الفتى والفتاة اللذين يطالعانه بدهشة. يجيل فى المكان نظرة فاحصة، ويرى النقود المكدسة ثم يعود لينظر إلى الفتى والفتاة)

الفتى : من حضرتك؟

الرجل : هل أنت ابن ولى الله؟

الفتى : نعم ولكن من حضرتك؟

الرجل : مخبر من قوات الشرطة.

الفتى : أكنت على موعد مع الشيخ؟

الرجل : الشيخ يرقد الآن إلى جوار ربه.

الفتى : كيف عرفت ذلك؟

الرجل : أسلم الروح فى الخلاء، فيما وراء مسكنى، فى الموضع الذى كان يتعبد فيه.

الفتى : وأين جثمانه؟

الرجل : فى المثوى الذى سنمضى إليه جميعا، لم يعد فى حاجة إلى عنايتك، ويبدو أنك مشغول عنه بما هو أهم عندك.

الفتى : وماذا تريد حضرتك؟

الرجل : جئت لأذهب بك إلى القسم.

الفتى : لماذا؟

الرجل : أنت متهم بقتل أبيك.

الفتى : دعابة ولكنها ثقيلة.

الفتاة : إنه لم يره منذ عمر مديد.

الرجل : أنت متهم بقتل أبيك.

الفتى : كف عن ترديد هذا السخف.

الرجل : شهدته وهو يحتضر، وأنا أعرفه منذ قديم، صرح لى قبل صعود روحه بأنك قتلته!

الفتى : محض افتراء وهذيان.

الرجل : الميت لا يكذب، وهو ولى من أولياء الله.

الفتى : لعلك لم تسمعه بوضوح أو لم تفهم ما يريد قوله.

الرجل : قال «إنى أموت مطعونا بيد ابنى الوحيد».

الفتاة : كان يعرب عن حزنه لفراق ابنه الطويل له.

الفتى : هل وجدت فى جسده طعنة واحدة؟

الرجل : لنترك ذلك إلى التحقيق.

الفتى : أى تحقيق يا رجل؟ إنى لم أره منذ عشرات السنين.

الرجل : وكيف سولت لك نفسك أن تنهب أمواله قبل أن تراه؟

الفتى : المال ميراثى الشرعى.

الرجل : هل علمت بوفاته؟

الفتى : كلا.

الرجل : فكيف تمد يدك إلى ماله وهو حى فى ظنك؟

الفتى : وهبه لى قبل مغادرته البيت كما أخبرنى غلامه.

الرجل : أين غلامه؟

الفتاة : ذهب.

الرجل : استدعه ليدلى بأقواله.

الفتى : لا أدرى أين ذهب.

الرجل : هلم معى إلى القسم.

الفتى : لا جريمة هناك ألبتة.

الرجل : قتلت أباك وسرقت الدولة.

الفتى : الدولة؟

الرجل : ألا تعلم أنه لا يجوز التصرف فى هذا المال حتى تأخذ الدولة حصتها منه؟

الفتى : لم يكن فى نيتى أن أتصرف فى مليم قبل أن تأخذ الدولة حصتها كاملة والله على ما أقول شهيد!

الرجل : براعتك فى التنكيت تفوق براعتك فى القتل والنهب.

الفتى : أؤكد لك أن التحقيق سيسفر عن براءتى.

الرجل : ولكن سيسبق ذلك القبض عليك والتحفظ على المال.

الفتاة : أهكذا تعامل شخصا يوم وفاة أبيه؟

الفتى : الشيخ الطيب الذى طالما ثبت القلوب بالطمأنينة!

الرجل : إنك رجل شرير.

الفتى : أنت متحامل وسيئ الظن.

الرجل : كلفت بمهام كثيرة فى مواطن الشبهات فعرفت الكثيرين من أمثالك.

الفتى : أنا تاجر شريف.

الرجل : هلم معى ولا تدفعنى إلى الضحك فى بيت ميت.

الفتاة : كن لطيفا ودعه فى حاله.

الرجل : إنك تدافعين عنه كأنك بعيدة عن التهمة!

الفتاة : أنـا؟!

الرجل : أنت شريكته فى الجريمتين.

الفتى : أنا برىء (**يتناول رزمة من النقود ويضعها فى يد الرجل**) وهذا المال مالى.

الرجل : أترشونى يا رجل مرتكبا بذلك جريمة ثالثة؟

الفتى : معاذ الله، ولكننى أؤدى حق الدولة علىّ.

الرجل : حق الدولة يمثل ربع التركة.

(الفتى يعطيه رزمة أخرى)

الفتى : إليك رزمة أخرى دون تعرض لمناقشة المقدار المستحق.

الرجل : والقضية وتكاليفها؟.. والتحفظ على المال وتعرضه للضياع؟

الفتى : أعتقد أننى أعطيت ما فيه الكفاية.

الرجل : أتعاب المحاماة؟.. الرسوم؟.. سجنك؟.. تعرض عملك الذى ترتزق منه للخسران؟

(الفتى يعطيه رزمة ثالثة)

الفتى : تذكر أننى أعطيتك ثروة.

الرجل : لعل هذا يكفى بالنسبة لك..

(صمت وتبادل نظرات حائرة)

الرجل : ولكن هذه السيدة لم تدفع مليما بعد؟

الفتاة : إنى زوجتـه.

الرجل : قلت إننى عملت طويلا فى مواطن السوء فلا تحاولى الضحك على ذقنى.

الفتى : لقد أعطيت فدية لكلينا.
الرجل : بل فدية لك وحدك!
الفتى : ماذا تريد؟
الرجل : الأتعاب الخاصة بالسيدة.

(يعطيه رزمة رابعة)

الفتى : هاك رزمة رابعة.
الرجل : كن كريما كسائر القتلة واللصوص.
الفتى : أتريد أن تستولى على نصف التركة؟
الرجل : الأمر يتوقف على مدى تقديرك لحريتك.

(يقطب الفتى فى قهر ثم يسلمه رزمة جديدة)

الفتى : تفضل مصحوبا بالسلامة.

(الرجل يدير ظهره ليذهب. الفتى يسل من ملابسه مطواة فيفتح نصلها ويهجم على الرجل. الرجل حذر وكان يتوقع حركة غادرة فيتفادى من الطعنة ويقبض على معصمه فيلويه ثم يلكمه فيسقط على الأرض. يجيء بكرسى فيجلسه عليه ويخرج من ملابسه حبلا ويكبله بمهارة قبل أن يفيق من اللكمة، وهو يهدد الفتاة بأنها إذا ندت عنها حركة أو صوت فسوف يساقان إلى القسم. ثم يجيء بكرسى آخر ويأمر الفتاة بالجلوس مهددا ويكبلها بحبل آخر. يتجه نحو النقود على الخوان فيستولى عليها ثم يلفها فى الحصيرة. يلقى عليهما نظرة ثم يذهب).

(الفتى يفيق من أثر اللكمة. ينظر فيما حوله. يتذكر ما وقع. يحاول تخليص نفسه ولكن عبثا)

الفتى : ذهب؟
الفتاة : بعد أن استولى على النقود كلها...
الفتى : (غاضبا) لمَ لَم تصوتى؟.. كان يجب أن تصوتى بأعلى صوتك.
الفتاة : خفت أنَ يرجع فيضربنا أو يقتلنا.

(يحاول تخليص نفسه مرة ثانية دون فائدة)

الفتى : سأقتله ولو اختفى فى بلاد الواق.
الفتاة : تهورك هو المسئول عما حل بنا، لمَ حاولت الهجوم عليه؟
الفتى : ليس من مبادئى أن أسمح لإنسانَ باستغفالى.
الفتاة : ها هو قد ذهب بالثروة كلها.

الفتى : سيكون التنكيل به هو هدفى الأول فى الحياة .
الفتاة : وقد تحقق هدفك ولكن الحلم السعيد تبدد .
الفتى : سأقبض على عنقه عاجلا أو آجلا .
الفتاة : ولا شاهد أو دليل لدينا عما حصل .
الفتى : المهم الآن أن نتحرر من قيدنا .
الفتاة : نحن مقيدان فى بيت مغلق النوافذ والأبواب .
الفتى : ويعز على أن أتصور أن الثروة حقا ضاعت .
الفتاة : هى الحقيقة الأليمة ، وربما تقتله ولكنك لن تسترد مليما من ثروتك .
الفتى : لم يعبث بى أحد من قبل .
الفتاة : ها قد عبث بك كأنك لا شىء .
الفتى : أين المفر؟ . . إنه يعمل فى دائرة هذا القسم .
الفتاة : إذا كان حقا مخبرا .
الفتى : ولمَ لا يكون مخبرا؟
الفتاة : كاَن يجب أن تطالبه بإبراز بطاقته الشخصية .
الفتى : أعترف بأننى لم أحسن التفكير ولا التدبير .
الفتاة : أنت مغرور ، تتوهم أنك إله ثم تقع كالرطل .
الفتى : كيف أصدق ما حصل؟
الفتاة : قلبى يحدثنى بأنه ليس مخبرا .
الفتى : هو مجرم محترف على أى حال .
الفتاة : ويخيل إلىّ . . ربما لم يكن إنسانا أيضا !
الفتى : ماذا تعنين؟
الفتاة : أعنى أننا فى بيت ولى : وهو وكر للأرواح والشياطين .
الفتى : أنت حمقاء ، لا يسرق النقود إلا إنسان عاقل .
الفتاة : تذكر كيف اقتحم علينا المكان وكيف ذهب .
الفتى : جاء كما يجىء المجرم وذهب بما يذهب به المجرمون .
الفتاة : أنت لا تحسن الرؤيا عند الانفعال .
الفتى : أنت حمقاء ، هذه حقيقة مفروغ منها .
الفتاة : لنفكر فى حالنا ، نحن مقيدان بطريقة جهنمية ، البيت محاط بفناء واسع يعزله عن الحارة فلن يسمع صوتنا أحد ، الجو هنا لا أرتاح إليه . فثمة روح ميت لعله لم يدفن بعد ، وثمة أرواح كثيرة لا علم لنا بها ولا سيطرة لنا عليها .

الفـتى : يا مجنونة، يا مخرفة، ما هذا الهذيان؟

الفـتاة : أنا خائفة.

الفـتى : عهدتك دائما عربيدة ساخرة فكيف خانتك جرأتك الداعرة؟

الفـتاة : إنه بيت مهجور ألا تدرك ذلك؟ جثة أبيك الآن فى المشرحة وستدفن كجثة رجل مجهول، ولم ينبس المخبر - إذا كان حقا مخبرا - بكلمة، وسيظل البيت مغلقا مهجورا زمنا غير قصير، ولكنه يكفى لقتلنا جوعا وعطشا، وهناك الأرواح.

الفـتى : الأرواح!

الفـتاة : أنا خائفة..

الفـتى : كيف قيدنا بهذا الإحكام؟.. لقد جاء مبيتا النية على فعل ما فعل.

الفـتاة : وقد يرجع للإجهاز علينا.

الفـتى : فليرجع.

(صمت تتخلله محاولة منه يائسة لفك قيده ولكن دون جدوى)

الفـتاة : كأننا فى حلم.

الفـتى : ولكنه أسخف من الحقيقة.

الفـتاة : أحيانا يكاد يغلبنى الضحك.

الفـتى : اضحكى إن استطعت.

الفـتاة : حتى حياتنا المألوفة بين المغامرين والمنافسين والأعداء أخف وطأة من هذا السجن فى بيت أبيك.

الفـتى : ليرحمه الله.

الفـتاة : ادعه أن ينقذنا.

الفـتى : (ساخرا) أبانا الذى فى المشرحة.. أنقذ ابنك الوحيد.

الفـتاة : ماذا كان رأيك فى أبيك؟

الفـتى : كان دجالا كوحيده.

الفـتاة : حدثونا فى كل موضع عن كراماته.

الفـتى : حارة مخبولة مسطولة.

الفـتاة : لكن الطمأنينة التى بثها فى القلوب حقيقية.

الفـتى : ردى إلىّ ثروتى وأنا أغرقك فى بحر من الطمأنينة.

الفـتاة : لم نكن فقراء، ولكننا لم نعرف الطمأنينة.

الفـتى : وما سبيل الطمأنينة إلى خمارة هى ملتقى للمغامرين، واقعة بين عشرات

من الخمارات المنافسة، فى حى مكتظ بالأعداء، ووراء ذلك كله إحساس ثابت بالمطاردة؟!.. كنا سنرتفع بالثروة فوق ذلك كله.

(دقيقة صمت)

الفتاة : سيجىء الظلام ونحن مكبلون بالحبال فى هذا البيت المسكون.

الفتى : لا فرق بين النور والظلام.

الفتاة : كيف نخرج من هذا المأزق؟

الفتى : اصرخى.. صوتك أحد من الرصاصة.

الفتاة : لن يسمعنا أحد.

الفتى : علينا أن ننتظر حتى يجىء إنقاذ من حيث لا ننتظر أو يجىء الموت.

(صمت تتخلله محاولات فاشلة لفك القيود)

الفتاة : لِمَ دعاك أبوك؟

الفتى : مَات سره معه.

الفتاة : ماذا ظننت؟

الفتى : قلت لعله حنين قلب عجوز.

الفتاة : لم تقل كل الحق.

الفتى : وحلمت بثروة!

الفتاة : وقد وهبك ثروة.

الفتى : وضاعت.

الفتاة : ولكنه أراد أن ترث عمله.

الفتى : فكرة سخيفة.

الفتاة : كان يجب أن تجاريه ولو فى الظاهر.

الفتى : لم يكن ليغير من الأمر شيئا.

الفتاة : ربما لم يكن حدث الذى حدث.

الفتى : أراهن على أنك فقدت عقلك.

الفتاة : هل حاول أن يلقنك سره وأنت صغير؟

الفتى : نعم.

الفتاة : ولكنك عصيته؟

الفتى : لو أطعته ما صادفتنى فى طريقك أبدا.

الفتاة : **(تضحك.. ولا تنبس)**

الفتى : حاول معى كثيرا، لم أفهم كلمة من كلماته، واتخذت من سلوكى المشين سبيلا لتحديه حتى طردنى...

الفتاة : واحترفت المغامرة بدلا من الطمأنينة .

الفتى : ورثت عنه الدجل لأستثمره فى مجاله الطبيعى .

الفتاة : لم أسمع أحدا يثنى عليه مثلك .

الفتى : إنى أعاشر مغامرين وكان يعاشر مغفلين .

الفتاة : رأسى يدور .

الفتى : الحياة الحقة نقيض الراحة ، والرجوع إلى الخرافة تفكير مضحك ، لعله ينقصنا شىء ولكن لابد من مواصلة حياتنا ، ماذا تريدين؟

الفتاة : أن أخرج من هنا سالمة .

الفتى : سنخرج عاجلا أو آجلا .

الفتاة : عما قليل سيجىء الظلام .

الفتى : فليجىء الظلام .

الفتاة : أنت المسئول عما وقع .

الفتى : أنت جبانة .

الفتاة : وأنت وغد .

الفتى : فلنتسل بتبادل الشتائم حتى تنكشف عنا هذه الغمة .

الفتاة : أو حتى يحل بنا الموت .

الفتى : أو حتى يحل بنا الموت .

(الفتاة تبكى من القهر. وهو يضحك ضحكة عصبية).

الفتاة : إنه يؤدبك .

الفتى : مـن؟

الفتاة : أبـوك .

الفتى : لم يستطع أن يؤدبنى وهو حى ، وهو أعجز عن ذلك وهو ميت .

الفتاة : بين حدث وحدث توجد أسباب خفية .

الفتى : بين حدث وحدث لا يوجد شىء .

الفتاة : وها قد وقعنا فى الفخ .

الفتى : فخ لم ينصبه أحد ولكنا وقعنا بسوء تصرفنا .

(النور ينخفض منذرا باقتراب المساء. لحظات من الصمت ومحاولات فاشلة لفك القيد)

الفتاة : بدأ الليل يهبط . .

الفتى : ليس فى وسع شىء أن يمنعه .

الفتاة : كان فى وسعنا على الأقل . . .
الفتى : **(مقاطعا فى تهكم)** كان يا ما كان . .
الفتاة : أكره الظلام، أكره الأغلال، وسوف أجن .
الفتى : جربى الجنون فهو أكرم من الشعوذة على أى حال .
الفتاة : يا لك من وغد قاس كأنك لم تنعم عمرا بحبى!
الفتى : عودى إلى توازنك لنتفاهم كما تفاهمنا دائما .
الفتاة : حتى حبك ما هو إلا حب مغامر، نوبة من نوبات الأعصاب بلا قاعدة ثابتة .
الفتى : لم يكن ثمة فردوس فى الماضى، ولن يكون ثمة فردوس فى المستقبل، علينا أن نتقبل الحياة كما هى .
الفتاة : الظلام يتمادى فى الاقتراب .
الفتى : فليأت الظلام .
الفتاة : إنك تدارى خوفك باللعب بالألفاظ .
الفتى : اللعنة . . فى هذا الوقت من اليوم يبدأ النشاط فى الخمارة .
الفتاة : يا لها من نهاية رخيصة!

(يستمر انخفاض النور حتى يحتوى الظلام الحجرة ويختفى الفتى والفتاة. الفتاة تصرخ مستغيثة ثم يسود الصمت)

الفتاة : ألا تحفظ تلاوة ندفع بها الشياطين بعيدا؟
الفتى : لا أحفظ شيئا .
الفتاة : إنى خائفة .
الفتى : لا يوجد هنا سبب حقيقى يبرر الخوف .
الفتاة : ولكنى خائفة .
الفتى : أنا قريب منك .
الفتاة : ولكنى لا أراك .
الفتى : فلنغن أغنية بذيئة لنهزأ بالظلام .

(الفتاة تصرخ. صمت يتخلله بكاء خافت. ضوء يتسرب إلى الحجرة آتيا من شراعة الباب إلى اليسار)

الفتاة : ألا ترى؟ . . نور فى الداخل، يوجد شخص، البيت مسكون!
الفتى : **(بصوت مرتفع)** من بالداخل؟
الفتاة : مفاصلى سابت .

الـفـــتـى : من بالداخل؟

(يفتح البـاب. يظهر الغلام وبيـده مصباح. يتـقدم ثم يتوقف عندمـا يرى الفتى والفتاة!

: أنت! . . أكنت بالداخل طيلة الوقت؟

الـغـــلام : ظننت أنكما ذهبتما.

الفـــتـــاة : ألا ترانا مكبلين بالحبال؟

الـغـــلام : ولم فعلتما ذلك بنفسيكما؟

الفـــتـــاة : هل تسخر منا يا غلام؟!

الـفـــتـى : أكنت موجودا بالداخل؟ . . أعنى ألم تغادر البيت؟

الـغـــلام : رجعت مع المساء لأشعل المصابيح.

الـفـــتـى : لمـــاذا؟

الـغـــلام : إكراما لروح الشيخ يوم وفاته.

الـفـــتـى : ضع المصباح وتقدم لحل عقدتنا.

(الغلام يمضى إلى الكونصول فيضع المصباح ويتجه راجعا نحو الباب)

: يا غـــلام.

(الغلام يتوقف)

: تعـــال.

الـغـــلام : ماذا تريد يا سيدى؟

الـفـــتـى : كيف لا تدرى ماذا نريد؟

الـغـــلام : أمرنى الشيخ قبل ذهابه بألا أقدم لك أية مساعدة إذا أهملت تركته.

الـفـــتـى : ولكنه غير معقول أن تتركنا على هذه الحال.

الـغـــلام : لا أستطيع أن أخالف لمولاى أمرا.

الفـــتـــاة : لا يمكن أن تعنى ما تقول، إنك غلام طيب ونبيل.

الـفـــتـى : وأنا ابن مـولاك يا شـاطر ولا يرضيك أن تتركنا فى هذا المأزق.

الـغـــلام : لن أعصى لمولاى أمرا.

الـفـــتـى : مولاك لم يتصور أننا سنقع فى هذه الورطة.

الـغـــلام : سامحك الله.

الفـــتـــاة : لص أثيم نهب ثروة مولاك وكبلنا بالحبال.

الـغـــلام : علىّ أن أذهب.

الـفـــتـى : لا تغضب مولاك فى قبره.

الغــلام : مولاى ارتفع إلى السماء .

الفــتى : لا تغضب مولاك فى سمائه .

الغــلام : ما دمت لا أعصيه فلن يغضب .

الفــتى : أتعتقد أنه يرضيه أن نترك هكذا بدون مساعدة؟

الغــلام : لا أدرى .

الفــتى : أؤكد لك أن ذلك سيحزنه غاية الحزن .

الغــلام : لا أدرى .

الفــتى : أقدم ولا تخف .

الغــلام : لن أعصى لمولاى أمرا .

الفــتاة : من أجل خاطرى ، لا يمكن أن تمتنع عن مساعدة امرأة .

الغــلام : إنى ذاهــب .

الفــتى : انتظر ، . . ألا ترى ، إنى أريد تركة أبى الحقيقية .

الغــلام : أنت تعلم بمكانها .

الفــتى : ولكنى لا أستطيع الانتقال إليها .

الغــلام : سبق أن نبذتها .

الفــتى : أنا نادم على ذلك!

الغــلام : لن أعصى لمولاى أمرا .

(الغلام يستأنف السير)

الفــتاة : على الأقل بلغ الأمر إلى الشرطة .

(الغلام يواصل السير دون مبالاة)

الفــتى : هل ستبلغ الشرطة؟

الغــلام : كــلا .

(الغلام يختفى ثم يغلق الباب)

الفــتى : ملعون ابن معلون . .

(الفتاة تعاود البكاء)

الفــتى : كفى . . كفى وإلا . .

الفــتاة : قضى علينا بالهلاك .

الفــتى : لقد رجع الغلام ، وربما رجع مرة أخرى ، ولعل غيره يجىء .

(صمت قصير ثم يواصل حديثه)

الفــتى : يخيل إلىّ أن العجوز استدرجنى إلى بيته لينكل بى . الطيبة كانت حرفته

لا طبيعته، وآى ذلك أننى منحدر من صلبه، غير معقول أن تكون أمى مسئولة وحدها عن دمى العربيد، ولبيت نداءه وأنا فى غفلة من مكره فتتابعت الأخطاء.

الفتاة : كفاك قذفا فالبيت مسكون!

الفتى : مسكون بأرواح أسرتنا العريقة فى الشر.

الفتاة : ليس الغلام غلاما ولا المخبر مخبرا . . وسوف تقع كوارث ليست فى الحسبان.

الفتى : فلتقع الكوارث بغير حساب.

(صمت.. ثم تنزل الستار)

*   *   *

ترفع الستار . ضوء النهار يملأ الغرفة رغم أن المصباح مازال مشتعلا. الفتى والفتاة نائمان ورأساهما مطروحان على مسندى الكرسيين.

يسمع صوت الباب الخارجى وهو يفتح ثم وهو يغلق.

يدخل رجل ضخم أنيق الملبس ولكنا نعرف فيه المخبر فى ملبس جديد وهيئة جديدة يتبعه سكرتير وضابط من الشرطة.

الفتى والفتاة يستيقظان. يبدو عليهما الإرهاق. ينظران إلى القادمين بذهول فلا يعرفان حقيقة الشخص الفخم.

الضابط : من أنتما؟ . . من فعل بكما ذلك؟

الفتى : من حضرتك؟

الضابط : ضابط النقطة.

الفتاة : أنقذنا من فضلك.

(الضابط يحل وثاقهما. يقفان وهما يتأوهان. يحركان أعضاءهما ليستعيدا توازنهما)

الضابط : من أنتما؟

الفتى : أنا ابن صاحب البيت أعنى ولى الله المتوفى.

الفتاة : وأنا الزوجة.

الضابط : ماذا حدث لكما؟

الفتى : هاجمنا مجرم غدرا ثم سرقنا وذهب.

الضابط : سأفتح لكما محضر تحقيق بعد قليل.

الفتى : هل أبلغك الغلام عنا؟

الضـــابط : أى غــلام؟

الـفــتى : غلام الشيخ المتوفى.

الضـــابط : كلا، لقد جئت فى صحبة المهندس لمعاينة البيت الذى يرغب فى شرائه ظنا منا بأنه بيت خال ولا وريث له!

(الفتى والفتاة ينتبهان لأول مرة للمهندس فتلوح فى وجهيهما الدهشة والانزعاج. يتبادلان النظرات ثم يحدقان فى المهندس بذهول)

الضـــابط : مـالك؟

المهـندس : لماذا تنظران إلىَّ هكذا؟

الـفــتى : أنت!

الفــتاة : هو.. جسمه وصوته ووجهه.

المهـندس : ماذا تعنيان؟

الـفــتى : أنت دون غيرك، أيها المجرم!

(ينقض عليه ولكن الضابط والسكرتير يحولان بينهما. المهندس يتراجع دهشا مستنكرا)

الضـــابط : أى مجرم تعنى؟.. المهندس أكبر مقاول فى الجمهورية.

الـفــتى : هو المخبر.. هو اللص.. هو الذى سرقنا..

(المهندس والسكرتير والضابط يضحكون)

الضـــابط : اضبط لسانك.

السكـرتيـر : يا لها من نكتة!

الفــتاة : هو المخــبر.

الـفــتى : هو المجـرم

الضـــابط : كفى هذيانا!

المهـندس : ترفق بهما يا حضرة الضابط، تذكر كيف قضيا ليلتهما فى هذا البيت.

الـفــتى : لا تحـاول خـداعى.

الضـــابط : إنك تهين رجلا ولا كل الرجال، رجل أدى لوطنه أجل الخدمات فى ميدان الهندسة.

(الفتى والفتاة يتبادلان النظرات الحائرة)

الـفــتى : خبرنى يا حضرة الضابط هل عندك مخبر يشبهه؟

الضـــابط : كلا على وجه اليقين.

المهـندس : تمالك نفسك من فضلك، لقد عانيت ليلة غاية فى السوء، وغير بعيد أن

المجرم الذى اعتدى عليكما يماثلنى فى بعض الصفات والخصائص، وأنت نفسك تماثل المرحوم أباك فى بعض ملامحه رغم تناقض منهجكما فى الحياة فيما يبدو لى، وسوف يقبض الضابط على المجرم ويرد إليك مالك، هل فقدت مالا كثيرا؟

الفتى : أنت أدرى بمقداره.

الضابط : رجع إلى الهلوسة مرة أخرى!

الفتى : أؤكد لك أن هذا الرجل هو المجرم الذى اعتدى علينا.

الضابط : كف عن هذيانك، من صالحك أن تكف عنه.

السكرتير : ثمة أحقاد غريبة تستقر فى نفوس الشباب، فإذا تعرض أحدهم لهزة نفسية استمد من حقده الدفين آراء هدامة وراح يرمى بها كبار ذوى النشاط الناجح من الرجال الممتازين فى المجتمع.

الضابط : هل أنت من هؤلاء الشبان؟

الفتى : إنى ضحية وقد حللت بنفسك وثاقى.

الضابط : ولكنك لم تسترد عقلك بعد.

المهندس : يجب أن تسترد عقلك سريعا لأتمكن من إنجاز مهمتى.

(صمت قصير)

الفتاة : وما مهمتك؟

المهندس : إنى أرغب فى شراء هذا البيت القديم لأقيم مكانه مصنعا للأجهزة الإلكترونية.

الفتاة : ألم تحاول الاتفاق مع صاحبه قبل وفاته؟

المهندس : حاولت وعرضت عليه بيتا جديدا فى مطلع الحى، ولكن كان لكل منا لغة يستعصى على الآخر فهمها!

الفتى : إذن فأنت تعرف البيت وكنت تعرف صاحبه؟

المهندس : وكان أبى رحمه الله من مريديه أيضا!

الفتى : أنت إذن . .

(الفتاة تجذبه من ذراعه مانعة إياه من تكملة كلامه، وتنتحى به جانبا)

الفتاة : تمالك نفسك

الفتى : لكنه هو عينه.

الفتاة : لندع ذلك للتحقيق، المهم الآن بيع البيت.

الفتى : سيشترى بمالى.

الفتاة : لا يجوز أن تخرج من المولد بلا حمص.

الفتى : الجن الأحمر نفسه لا يستطيع خداعى!

الفتاة : انس شطارتك الآن وأجل مشروعاتك.

(يعودان إلى الجماعة)

الفتاة : اغفر له تهوره يا سيدى المهندس إكراما لذكرى أبيه الطيب!

المهندس : ليرحمه الله رحمة واسعة.

الفتى : أكنت تؤمن به؟

المهندس : كنت أحبه.

الفتى : هل شهدت احتضاره؟

المهندس : لكننى مشيت فى جنازته، أين كنت أنت؟

الفتى : كنت موثقا بحبال المجرم الأثيم.

المهندس : حضرة الضابط كفيل باسترداد ثروتك الضائعة، وما عليك الآن إلا أن تتقبل وضعك بالطمأنينة التى بشر بها أبوك.

الفتى : ولكنك لم تؤمن به؟

المهندس : **(ضاحكا)** كان يقول لى «الطمأنينة هى هدف النفس البشرية» فأقول له «بل التقدم يا مولانا ولو بالجهد والقلق».

الفتى : ولو بالاعتداء والنهب!

الفتاة : لنعد إلى مشروع المصنع.

المهندس : ثبت الآن أن للبيت وريثا، وعليه فلابد من انتظار الإجراءات الخاصة بإثبات الوراثة.

الفتاة : إنه بيت كبير وذو موضع ممتاز على مشارف الصحراء، ولا تنس أثاثه القديم النادر!

المهندس : لا حاجة بى إلى الأثاث.

الفتاة : والكتب التى صنعت المعجزات؟!

المهندس : لدى ما أحتاج من كتب ومعجزات!

الفتاة : أظن آن لنا أن نتكلم عن الثمن.

المهندس : لن أبخسكم حقكم، وسنتكلم عن ذلك فى حينه.

(المهندس يستأذن فى الانصراف. وقبل أن يذهب يلتفت إلى الفتى ويسأله)

: وأنت.. ما مهنتك؟

الفتى : صاحب خمارة.

المهندس : (ضاحكا) لست مقطوع الصلة بأبيك، فالناس يقصدون الخمارة طلبا للطمأنينة أيضا.

(المهندس وسكرتيره يذهبان)

(يقترب الضابط من الفتى والفتاة قائلا)

الضابط : آن لنا أن نبدأ التحقيق

ستار

النجاة

(حجرة جلوس. فى الوسط مدفأة حائط مشتعلة. إلى اليمين من المدفأة باب حجرة النوم وإلى اليسار منها باب حجرة المكتب. فى نهاية الجانب الأيمن لحجرة الجلوس باب هو باب الشقة. إلى اليسار يوجد بار وتليفزيون. رجل يجلس على مقعد كبير أمام المدفأة، يرتدى روبا. ويطالع فى كتاب)

(جرس الباب الخارجى يرن بغتة رنينا متواصلا)

(يقوم الرجل إلى الباب، يفتحه، تندفع إلى الداخل امرأة جميلة مرتدية معطفا وبيدها حقيبة. تندفع وكأنها تجرى ثم تقف وهى تلهث. الرجل ينظر إليها بدهشة ودون أن يغلق الباب. واضح من نظراته أنه لا يعرفها ولم يكن ينتظرها)

الرجل : (بتردد وارتباك) ولا مؤاخذة.. حضرتك؟

المرأة : (بلهفة) أغلق الباب، من فضلك أغلق الباب.

(الرجل يغلق الباب بذهول)

الرجل : وحدك؟

المرأة : نعم.

(يقفان وهما يتبادلان النظرات)

المرأة : إنى مرهقة، تسمح لى بالجلوس؟

الرجل : تفضلى.

(يجلسان على مقعدين متقاربين أمام المدفأة. تسند المرأة رأسها إلى يدها فى إعياء. يعلو صدرها وينخفض بشكل محسوس. الرجل يتفحصها بدهشة، ويبدو ـ رغم غرابة الموقف ـ أن محاسنها أثرت فيه بعض الشىء).

الرجل : أنا وحدى، ذهبت الخادمة عقب إعداد العشاء. ولكنى سأجيئك بكوب ماء.

(يقوم إلى البار فيملأ كوبا من دورق ثم يقدمه إليها. المرأة تشرب نصفه ثم تضعه على خوان بين المقعدين)

المرأة : آسفة جدا لإزعاجك.

الرجل : أنا فى خدمتك.

المرأة : شكراً.

الرجل : يلزمنى شىء؟

المرأة : أكرر الأسف، الواقع أننى لا أدرى ماذا أقول.

(صمت)

: سلوكى يتطلب تفسيرا ولكنى لا أدرى ماذا أقول.

الرجل : استردى أنفاسك أولا.

المرأة : ماذا أقول؟ مهما يكن فإنى أتوسل إليك أن تكرمنى.

الرجل : وهل فى ذلك شك؟

المرأة : أعنى أن تعاملنى معاملة تليق بامرأة فى أشد حاجة إلى..

الرجل : إلى؟

المرأة : الحماية!

الرجل : ماذا يهددك؟

(صمت)

: (مستدركا) لكنى لم أتشرف بعد؟

المرأة : لا يهم هذا على الإطلاق.

الرجل : ولكنه ضرورى فيما أعتقد.

المرأة : كلا، لن يقدم ولن يؤخر!

الرجل : لن أضايقك، ولكن ثمة سؤال آخر، هل قصدتنى بالذات؟.. هل تعرفيننى؟

المرأة : بابك أول باب فتح لى، هذا كل ما هنالك.

الرجل : هل طرقت أكثر من باب؟

المرأة : نعم.

الرجل : ماذا يهددك؟

المرأة : أكرمنى بألا تخبر أى طارق عنى!

الـــرجـــل : (بقلق) هل يتوقع مجىء من يتعقبك؟
المـــــــرأة : نعـــــم.
الـــرجـــل : رجل أم امرأة؟
المـــــــرأة : رجـــل!
الـــرجـــل : (بعد تردد) زوجك؟
المـــــــرأة : كـــلا.
الـــرجـــل : صديق؟.. قريب؟
المـــــــرأة : ألا تتكرم بحمايتى دون تحقيق؟
الـــرجـــل : ولكـــن...
المـــــــرأة : (مقاطعة) لعلك تعمل حساب أهل بيتك؟
الـــرجـــل : لا يوجد فى البيت سواى.
المـــــــرأة : ولكن عما قليل سترجع زوجتك؟
الـــرجـــل : لست متزوجا.
المـــــــرأة : تنتظر ولا شك أحدا ممن يقيم معك؟
الـــرجـــل : إنى أقيم هنا بمفردى.
المـــــــرأة : عظيم، ستكون المهمة سهلة لو تكرمت بالموافقة.
الـــرجـــل : ولكن يلزمنى بصيص نور.
المـــــــرأة : لن يمسك سوء!
الـــرجـــل : ولكنى أود أن أعرف المسئولية التى سأتحملها!
المـــــــرأة : لن تمضى ساعات حتى أغادر مسكنك إلى الأبد كأنى شىء لم يكن.
الـــرجـــل : (مداريا ارتباكه بابتسامة) ستظلين شيئا لا يمكن نسيانه.
المـــــــرأة : غزل أم تحقيق؟
الـــرجـــل : كنت أفضل أن يكون غزلا خالصا.

(صمت)

: إذا شرفتنى وقتا ثم ذهبت دون أن يعلم أحد فلا حرج، ولكن إذا جاء أحدهم يتعقبك فيلزمنى بصيص نور قبل أن أنكر وجودك.

المـــــــرأة : لن تقع عليك مسئولية ما.
الـــرجـــل : بل قد أجر إلى متاعب لا تخطر ببال!
المـــــــرأة : لا تهول.
الـــرجـــل : لا تتركينى فى ظلام.

(صمت)

: أرجوك، لا تضطريني إلى . .

المــــــرأة : إلى تسليمي لأول طارق!

الــرجـــل : أرجوك أن تفهمي موقفي جيدا .

المــــــرأة : إني أتعلق بأمل وحيد، ببقية من الشهامة البطولية القــديمة .

الــرجـــل : من المؤسف أن عهد الفروسية والملاحم قد ولى .

المــــــرأة : في حالة اليأس يفزع القلب إلى زمن الأساطير!

الــرجـــل : أنا يا سيدتي رجل لا أسطورة .

(صمت)

: فكري من فضلك وأجيبي .

المــــــرأة : لكني عاجزة تماما .

الــرجـــل : قبل أن تفوت الفرصة .

المــــــرأة : كن كريما إلى النهاية .

الــرجـــل : (غاضبا) إني أشم رائحة مقلقة للأعصاب .

المــــــرأة : أي رائحة؟

الــرجـــل : جريمة ما!

المــــــرأة : لا تدفعني إلى الانتحار!

الــرجـــل : ماذا فعلت؟

(جرس الباب يرن. المرأة تقف فزعة. تهرع إلى باب حجرة النوم. تدخل ثم تغلق الباب من الداخل. الرجل يحاول فتح الباب فلا يستطيع. الجرس يرن مرة أخرى)

: افتحــي .

المــــــرأة : كــن كريمــا .

الــرجـــل : لا تجريني إلى مأزق .

المــــــرأة : كن رحيمــا .

الــرجـــل : سأتصرف كما ينبغي لي .

المــــــرأة : إذا اعترفت بوجودي هنا رميت بنفسي من النافذة .

الــرجـــل : أنت مجنونة!

المــــــرأة : أنا عاقلة جدا .

الــرجـــل : إنك تجازينني خير جزاء .

المــــــرأة : إني آسفة ولكنني مضطرة!

الرجل : انتظرى . . لا تتعجلى .

(يذهب إلى الباب لاعنا متسخطا. يفتح الباب. يدخل رجل ضاحكا ثم يرد الباب)

الصديق : كنت نائما؟

الرجل : أنت عليك اللعنة!

الصديق : يا له من استقبال .

(يتجهان نحو المدفأة)

: ماذا حدث فى العمارة؟

الرجل : لا شىء!

الصديق : وأنا قادم إلى زيارتك وجدت الشرطة تحاصر العمارة . لم أستطع المرور إلا بعد س و ج .

الرجل : حقا! . . ماذا حدث؟

الصديق : لم أفهم شيئا ، لم يرد على أسئلتى أحد ، ولكن ثمة حادث أو جريمة ، والأمر المؤكد أنهم يبحثون عن امرأة هاربة .

الرجل : أين؟

الصديق : فى مكان ما بالعمارة ، العمارة محتلة بالقوات ، ألم تشعر بشىء؟

الرجل : أبدا .

(يجلسان. الصديق يجلس فى مكان المرأة. يتشمم الجو بدهشة)

الصديق : رائحة امرأة!

الرجل : ترى أى جريمة وأى امرأة؟

الصديق : لا تشغل بالك ، ستعرف كل شىء صباح الغد ، ولكنى أقول إنه توجد رائحة امرأة .

الرجل : رائحة امرأة؟

الصديق : رائحة ذكية ، هل عندك حبوبة؟

الرجل : كلا .

الصديق : وهذه الرائحة؟

الرجل : كان ثمة صديقة تزورنى .

الصديق : مبارك عليك ، ولكن مالك؟

الرجل : على خير ما يرام .

الصديق : كلا ، لست كعادتك .

الـــرجـــل : لعله البرد.

الصـــديق : (مشيرا إلى المدفأة) إنك تنعم بفردوس فى هذا الشتاء القاسى.

(صمت)

: أهى ممن أعرفهن؟

الـــرجـــل : مـن تعـنى؟

الصـــديق : المرأة التى كانت هنا.

الـــرجـــل : كـــلا.

الصـــديق : ولمَ انصرفت مبكرة؟

الـــرجـــل : يكَفى تحقيق واحد فى العمارة.

الصـــديق : ذكرتنى، ترى ماذا حدث؟

الـــرجـــل : أجل ماذا حدث؟

الصـــديق : إنك تعرف عن فيتنام أكثر مما تعرف عن شقة مجاورة فى عمارة حديثة.

الـــرجـــل : أى جريمة؟.. وأين اختفت المرأة؟

الصـــديق : لا تشغل بالك، الجرائم وجبات يومية.

الـــرجـــل : والمـــرأة؟

الصـــديق : قاتلة.. شريكة فى جريمة قتل.. سر جريمة ما.

الـــرجـــل : وأين يمكن أن تختفى؟

الصـــديق : لعلهم عثروا عليها، إلا إذا كانت أصلا من سكان العمارة.

الـــرجـــل : فكـــرة.

الصـــديق : أو تكون لجأت إلى شقة ما.

الـــرجـــل : لا أحد فى اعتقادى إلا إذا كان له ضلع فى الحكاية. **(الرجل يقوم، يبتعد إلى جناح الحجرة البعيدة عن حجرة النوم. يشير إلى صاحبه أن يتبعه فيلحق به)**

الـــرجـــل : (هامسا) أنا واقع فى مشكلة.

الصـــديق : أى مشكلة؟

(جرس الباب يرن)

: هل تنتظر أحدا؟

(الرجل يمضى إلى الباب بعد تردد. يفتح)

صوت من الخارج : تسمح لى بالدخول؟

الـــرجـــل : تفضـــــل.

(يدخل ضابط. يقدم نفسه)

الضـــابط : نحن نبحث عن امرأة هاربة فى العمارة .

(الرجل يتظاهر بالدهشة ويتساءل)

الــرجــل : أية امــرأة؟

الضـــابط : امرأة هاربة، ويهم الأمن العام القبض عليها .

الــرجــل : لم يلجأ إلى شقتى أحد .

الضـــابط : حضرتك رب الأسرة؟

الــرجــل : إنى أقيم بمفردى هنا ، **(ثم مشيرا إلى صديقه)** هذا صديق زائر .

الضـــابط : تسمح بالبطاقة الشخصية .

(الرجل يذهب إلى حجرة المكتب ثم يعود بالبطاقة. الضـابط يقرأها بعناية. ثم يقدم له ورقة مكتوبة ويقول)

: هذا إقرار بأن المرأة لم تلجأ إلى شقتك هذا المساء ، وقعه بإمضائك ، وأود أن أذكرك بخطورة الأمر إذا ثبت ما يخالفه .

(الرجل يوقع الإقرار. الضابط يتناوله. وينصرف. الرجل يغلق الباب. يعود إلى صديقه حيث كان يقف فى وسط الحجرة)

الصـــديق : الظاهر أن الجريمة أخطر مما نتصور .

الــرجــل : ليست إلا إجراءات روتينية .

الصـــديق : لا تشغل بالك ، كنت تتحدث عن مشكلة .

الــرجــل : مشكلة؟ !

الصـــديق : الضابط شتت عقلك .

الــرجــل : ربمـــا .

الصـــديق : لنعد إلى مشكلتك .

(صـــمت)

: ألا تريد أن تحدثنى عن مشكلتك؟

الــرجــل : جد ما هو أهم .

الصـــديق : لا تشغل بالك بهموم لا تخصك .

الــرجــل : أليس من الجائز أن تستصدر الشرطة أمرا بالتفتيش العام إذا لم تعثر على المرأة؟

الصـــديق : جـــائـز .

الــرجــل : وقد يفتشون شقتى !

الصـــديق : إنه احتمال ضعيف على أى حال .

الرجل : ولكنه جائز.

الصديق : عندك فرصة للتخلص من الأشياء المحرجة.

الرجل : كيف؟

الصديق : النافذة.

الرجل : العمارة محاصرة.

الصديق : النار.

الرجل : ليست جميع الأشياء قابلة للاحتراق.

الصديق : أنت مجنون، طالما حذرتك، ولكن احتمال التفتيش احتمال ضعيف، إنها امرأة وليست إبرة وسيعثرون عليها عاجلا.

الرجل : تستطيع أن تقدم لى خدمة.

الصديق : اسمع، أنت تعلم أنه لا شأن لى بهذه الأمور الخطرة، دع صداقتنا فى المنطقة البريئة.

الرجل : نحن فى زمن الخوف من الشرطة، أما شهامة الأساطير فقد ولى زمانها!

الصديق : الخوف من شيء حقيقى، أما الأساطير!

(صمت)

: أود أن أطمئن عليك.

الرجل : دون أن تقدم خدمة ما.

الصديق : كلانا يعرف الحدود التى يتحرك فيها الآخر.

الرجل : إنى فى حاجة إلى الانفراد بنفسى وكل ما أطلبه منك أن توافينى بأية معلومات جديدة بالتليفون.

الصديق : بمجرد عودتى إلى مسكنى.

(يتصافحان. يوصله حتى الباب الخارجى. يغلق الباب ثم يعود مسرعا إلى باب حجرة النوم).

الرجل : سيدتى.. تعالى.. لا أحد بالشقة سواى.

(تفتح الباب. تخرج. يقفان وجها لوجه)

: إنك تلقين بيأسك فوق رأسى.

المرأة : جئت باندفاع لا اختيار فيه ثم وقعت فى فخ.

الرجل : سيعودون للتفتيش.

المرأة : لا تهتم بى فإنى أعرف كيف أتصرف.

الرجل : إنى لا أهتم إلا بنفسى فى الواقع.

المـــــرأة : هذا حقك وإنى آسفة لحد الموت .

الـــرجـــل : إنك تخلفين لى مشاكل ومضاعفات .

المـــــرأة : لم تعد بيدى حيلة .

الـــرجـــل : لِمَ تبحث الشرطة عنك؟

(صمت)

: لِمَ تبحث الشرطة عنك؟

المـــــرأة : إنهم يبحثون عن كثيرين . . . !

الـــرجـــل : شـــركائك؟!

المـــــرأة : وغيـــرهم .

الـــرجـــل : (محتدا) ماذا تعنين؟

المـــــرأة : (باسمة) سمعت ما دار بينك وبين صديقك .

(صمت وهو ينظر إليها غاضبا)

الـــرجـــل : تهددينني؟!

المـــــرأة : ربما كنا فى الهوى سوا .

الـــرجـــل : افتـــراء .

المـــــرأة : آســـفة .

الـــرجـــل : أنا رجل محترم .

المـــــرأة : وأنا امرأة محترمة .

الـــرجـــل : هذا يتوقف على مضمون الاحترام عند كلينا .

المـــــرأة : بمعنى آخر فكلانا غير محترم .

الـــرجـــل : هل نمضى الوقت فى جدل وسمر؟

المـــــرأة : إنى آسفة وحزينة .

الـــرجـــل : فاتنى أن أعترف للضابط بالحقيقة .

المـــــرأة : لم لَم تفعل؟

الـــرجـــل : أعترف بأننى لم أحسن التصرف .

المـــــرأة : بل أحسنت التصرف وإلا لأثرت الشبهة فى وجود علاقة بينك وبين المرأة المنتحرة .

الـــرجـــل : كانت الحقيقة ستظهر على أى حال .

المـــــرأة : ربما ، ولكن بعد تفتيش غير مرغوب فيه ، ترى ماذا تحوى شقتك الأنيقة من أسرار خطيرة؟

الرجل : سخريتك تقطع بأنك معتادة للإجرام.

المرأة : أو غاية من اليأس.

الرجل : ماذا ارتكبت؟

المرأة : محض فعل مألوف فى التاريخ، ولكن الشرطة تصفه بأنه جريمة، وأنت؟

الرجل : لا أسمح بالتحقيق معى، ولكن خبرينى أى جريمة ارتكبت؟

المرأة : ما أهمية ذلك؟.. أى تحسن يمكن أن يضيفه إلى موقفنا؟

الرجل : هل عرفوا شخصك؟

المرأة : محتمل جدا.

الرجل : ليس مؤكدا؟

المرأة : لا يوجد فى هذه الليلة شىء مؤكد.

الرجل : جربى أن تغادرى شقتى بوصفك امرأة أخرى.

المرأة : لن يدعونى أمر دون تحقيق، وغالبا يوجد مخبر فى الطرقة الخارجية، وسيجرونك للتحقيق، وسوف تنكشف الحقيقة.

الرجل : أية حقيقة؟

المرأة : حقيقتى وحقيقتك.

الرجل : (غاضبا) لا تدفعينى للخروج عن حدود اللياقة.

المرأة : معذرة.

الرجل : أنت تؤجلين الخطر ليس إلا.

المرأة : لا حيلة لى.

الرجل : لو كنت مكانك!

المرأة : لو كنت مكانى؟

الرجل : لسلمت نفسى إلى الشرطة.

المرأة : هذا حل طبيعى ومعقول لمشكلتك...

الرجل : ولمشكلتك أيضا ما داموا سيجيئون فى النهاية حتما.

المرأة : ليس حتما!

الرجل : (غاضبا) ولكنك تراهنين بحياتى!

المرأة : أمر مؤسف حقا ولكننى أفضل الانتحار على التسليم.

الرجل : افعلى بنفسك ما تشائين ولكن بعيدا عنى..

المرأة : ليته ممكن!

الــــرجـــــل : أى قدر قذفنى بك .

المـــــــرأة : هو الذى رمانى إليك .

(تضحك ضحكة عصبية)

الــــرجـــــل : تمزحين كما لو كنت فى حفل استقبال .

المـــــــرأة : إذا انقطع الأمل فعلينا أن نعاشر اليأس معاشرة حسنة .

الــــرجـــــل : ولكن الأمل لم ينقطع بعد .

المـــــــرأة : حقـــا؟

الــــرجـــــل : أستطيع أن أطردك .

المـــــــرأة : سأحاول الانتحار كآخر وسيلة دفاع فى يدى .

الــــرجـــــل : تهـــددينني؟

المـــــــرأة : موقف مؤسف مخجل ولكننى لم أخلقه بإرادتى .

الــــرجـــــل : أنت مجرمة بالسليقة .

المـــــــرأة : (باسمة) لعلنا من سليقة واحدة .

الــــرجـــــل : (ثائرا) لتنشق الأرض وتبلعك .

المـــــــرأة : أول مرة يعاملنى رجل بهذه المعاملة .

(الرجل ينقض عليها فاقدا أعصابه ليشدها ناحية الباب. هى تقاوم بيأس. يقوم بينهما شد وجذب.

يختل توازنه فيقعان على ديوان ويستمر الصراع بينهما. وبالاستمرار لا تكاد تختلف حركاتهما عن مبادلات العشق. ويتغير مذاق الصراع وحدته. ويخلق جو جديد لم يكن فى الحسبان فتستغله الأعصاب المتوترة اليائسة. وإذا به يضمها بين ذراعيه وينهال عليها تقبيلا.

ينخفض الضوء رويدا حتى يسود الظلام.

ثم يعود رويدا رويدا حتى يبلغ حاله الأولى.

الآن كلاهما يجلس على مقعد كما كانا أول الأمر.

هى تنظر إلى السقف وهو يرنو إلى نيران المدفأة)

الــــرجـــــل : ترى ماذا يحدث فى الخارج الآن؟

(صمت)

: ترى ماذا يحدث فى الخارج؟

المـــــــرأة : كما يحدث فى الداخل .

الــــرجـــــل : ماذا تعنين؟!

المـــــرأة : جرائم ترتكب باهتمام وجنس يمارس بلا اهتمام .
الــرجـــل : وبلا حب؟
المـــــرأة : لحظات عناق تنتزع من بين الكلمات ولى الأذرع .

(صمت)

الــرجـــل : والعمل؟
المـــــرأة : هل تحاول طردى مرة أخرى؟

(صمت)

الــرجـــل : وما جريمتك؟
المـــــرأة : وما جريمتك؟
الــرجـــل : من حقى أن أسألك وليس ذلك من حقك .
المـــــرأة : من واجبى ألا أتكلم .
الــرجـــل : لست على أى حال من الشرطة .
المـــــرأة : على سكوتى تتوقف سلامة آخرين .
الــرجـــل : تزييف نقود؟ . . مخدرات؟ . . دعارة؟ . . سياسة؟
المـــــرأة : جميعها ظاهرات اجتماعية .

(صمت)

الــرجـــل : متزوجـــة؟
المـــــرأة : لا أجيب عن هذا السؤال بعد ما كان .
الــرجـــل : هل كانت أول مرة تخونينه؟
المـــــرأة : ألا ترى أننى أفضل الموت على الخيانة؟
الــرجـــل : إذن سلمت حبا وكرامة؟
المـــــرأة : حالة هستيرية ليس إلا .
الــرجـــل : نـادمـة؟
المـــــرأة : لا وقت للندم .
الــرجـــل : هبينى دعوتك مرة أخرى؟
المـــــرأة : مرت فترة كافية لبلوغ سن الرشد .
الــرجـــل : هل نفترق كغريبين؟
المـــــرأة : كما التقينـــا !
الــرجـــل : لا شيء يجمعنا؟
المـــــرأة : الجريمة هى ما يجمعنا .

(صمت)

: هل أنت أعزب؟

الرجل : نعم.

المرأة : لم لَم تتزوج؟

الرجل : لَم أطعن فى السن بعد.

المرأة : ومتى تطعن فى السن؟

الرجل : لعلى أنتظر أن تجرفنى امرأة إلى الزواج، ولكن ألا ترين أننا نسمر كأننا نستمتع بسهرة طيبة؟

المرأة : هو خير من الصمت.

الرجل : الأغلال تقترب من أعناقنا.

المرأة : لا تذكرنى بذنبى حيالك.

الرجل : ثمة فرصة لتجربة الحظ.

المرأة : وهى؟

الرجل : أن تخاطرى بالذهاب.

المرأة : لو كان الأمر يتعلق بى وحدى لفعلت.

الرجل : تدوسيننى فى طريقك بلا رحمة.

المرأة : كما داسنى آخرون.

الرجل : مالى أنا وذلك كله!

(يتملكه غضب مباغت. ينهض قائما بعنف. يقبض على ساعدها ليشدها ولكنها تخلص ساعدها بهدوء)

المرأة : كلا.. لا يتكرر شىء واحد مرتين بطريقة واحدة.

الرجل : أنت.. أنت..

(جرس التليفون يرن. ينتقل إليه حيث يوجد على حامل قرب البار)

الرجل : آلو.

: ....

الرجل : تأخرت.. أين كنت؟

: ....

الرجل : ماذا تقول؟

: ....

الرجل : غير معقول، ألم تعرف السبب؟

الرجل : شىء عجيب حقا.

: ....

الرجل : بخير كما تركتنى.

: ....

الرجل : لست وحدى.. أقصد أننى منفرد بهمومى!

: ....

الرجل : أبدا أبدا.. وحدى كما تركتنى.

: ....

الرجل : أنت مجنون.. أى أفكار جنونية تساورك؟

: ....

الرجل : لا موجب لإساءة الظن، إلى اللقاء..

(يضع السماعة ثم يعود إلى مقعده. يتبادل مع المرأة نظرات حائرة)

الرجل : إنه الصديق الذى كان هنا.

المرأة : وماذا قال لك؟

الرجل : ماذا حصل للدنيا؟.. الشوارع المحيطة بنا غاصة بالجنود!.. من أنت؟!

المرأة : لست إلا امرأة سيئة الحظ كما ترى.

الرجل : بيدك حل هذا اللغز.

المرأة : يستوى لدينا أن يضرب الحصار حول العمارة أو حول الحى كله.

الرجل : ولكن لا يجمعهم بهذه القوة إلا شىء خطير.

المرأة : لست هذا الشىء.

الرجل : لعلك الخيط الذى يوصل إليه.

المرأة : جنبنا مناقشة عقيمة.

الرجل : لن أسمح لك بالقضاء علىّ.

المرأة : ضيعت فرصة الاعتراف بالحقيقة وهى غلطتك.

الرجل : لن أضيع بسبب غلطة.

المرأة : لماذا تعود إلى الغضب ولم يجد جديد على الموقف؟

الرجل : الهلاك بات أقرب مما نتصور.

المرأة : نحن مقامرون، والمقامر العاقل يجب أن يوطن نفسه على الهلاك.

الرجل : أنت امرأة مقامرة.

المرأة : وأنت أيضا، لا سبيل إلى النكران.

الـــرجـــل : لم أتوقع أبدا أن أضيع بمثل هذه الطريقة السخيفة .
المـــــرأة : جميع طرق الضياع سخيفة .
الـــرجـــل : أود أن أقتلك ولو اضطررت إلى قتل نفسى .
المـــــرأة : هاك طريقة سخيفة أخرى .
الـــرجـــل : كل هـذا وأنا لا أعـرف من أنت ولا أدرك شـيئا مما يقع حولى .
المـــــرأة : لا أهمية للتفاصيل ، حسبك أن تعرف أننا مطاردون ، وأن حولنا وفوقنا وتحتنا أعداء مصممون!

(صمت)

: **(وهى تبتسم متوددة)** لا تضخم سوء الحظ بالغضب .

(صمت)

: عندى اقتراح .

(ينظر نحوها بامتعاض ودون أن ينبس)

: نحن فى حاجة إلى ترفيه .
الـــرجـــل : ترفيـــه؟!
المـــــرأة : لم لا؟ . . إنهم يسألون المحكوم عليه بالإعدام عن رغبته الأخيرة .
الـــرجـــل : أنت مجنـــونة .
المـــــرأة : لنشرب كأسين .
الـــرجـــل : وما حولنا وفوقنا وتحتنا؟
المـــــرأة : أنا أعتبر نفسى منتهية ، وأعترف لك بكل أمانة أن جانبا منى راض كل الرضا ، ويخيل إلىّ أنك تماثلنى إلى حد كبير ، وأمامنا وقت غير محدود ، فإما أن نقضيه فى تبادل السباب وإما أن نرفه عن أنفسنا ، ما رأيك؟
الـــرجـــل : كيف تتحمل أعصابك الترفيه وهى تتوقع الموت بين لحظة وأخرى؟
المـــــرأة : هى حال الإنسان بصفة عامة مع فارق بسيط هو أننا أعظم وعيا بالنهاية .

(صمت)

: فلنجـــرب . .

(المرأة تقوم إلى البار فتجىء بزجاجة وكأسين. تملأ الكأسين. ترفع إحداهما إلى فم الرجل وتمسك بالأخرى)

: صحة لقائنا دون تعارف سابق .

(تشرب وتدفع بالشراب إلى فيه فيتقبله بفتور، ثم تملأ الكأسين مرة ثانية)

: صحة افتراقنا القريب بعد تعارف عميق!

(تشرب. تنظر إليه بتوسل حتى يشرب كأسه أيضا. ثم تملأ الكأسين للمرة الثالثة)

: صحة أسباب الهلاك التى لا حصر لها .

(تشرب. يشرب. تملأ الكأسين للمرة الرابعة)

: صحة الأحلام التى تقود إلى الهلاك .

(تشرب. يشرب. تنبسط أساريرهما بتأثير الخمر. يملأ هو الكأسين للمرة الخامسة)

: صحة الجنس الذى يمارس وسط العنف والشجار .

(تشرب. يشرب. يتأكد أثر الخمر. يملأ الكأسين للمرة السادسة)

الرجل : صحة الشرطة عدوة الأحلام .

(تشرب. يشرب. يتأكد أثر الخمر. يملأ الكأسين للمرة السابعة)

المرأة : صحة أول من اخترع حروف الهجاء .

(تشرب. يشرب. يتضح أثر السكر فى الحركة والصوت. يملأ الكأسين للمرة الثامنة)

الرجل : صحة أول رجل اخترع آلة للزينة .

(تشرب. يشرب. يملأ الكأسين للمرة التاسعة)

المرأة : صحة أول من كتب رسالة غرامية .

(تشرب. يشرب. يملأ الكأسين للمرة العاشرة)

الرجل : صحة الحلقة المفقودة .

المرأة : صحة المخبر الواقف بالطرقة خارج الشقة .

الرجل : صحتك .

المرأة : صحتك .

(يغرقان فى الضحك. يقفان وهما يترنحان)

الرجل : لننس العمر الذى عشناه فينتهى كل شىء .

المرأة : انتهى كل شىء .

الرجل : ولكنى لن أنسى أول أمنية داعبت فؤادى وأنا طفل .

المرأة : ما هى؟

الرجل : أن أكون بياع كسكسى!

(يغرقان فى الضحك)

المرأة : لنستمتع بشىء من الفن . . .

الــرجــل : فكـــرة .

(يذهب إلى التليفزيون.. يديره. يظهـر موقف من فيلم رعاة بقر يشتـد فيه تبادل إطلاق النار. المرأة تصرخ متراجعة محتجة فيطفئ الرجل التليفزيون)

الــرجــل : هـلمى نرقـص .

(يرقصان بلا موسيقى. يتعمـد ضمها إلى صدره. يقبلها من آن لآن. يتوقف عن الرقص ويرفـعهـا بين يديه ليـمـضى بها ولكن توازنـه يختل فـيسقطان وهمـا يضحكان. ينطرحـان جنبا لجنب وهما يـضحكان. وهو يقبلهـا كلما سكت عن الضحك. لا مقاومـة من ناحيتها ولكنها تزحف قليلا وتمد يدها فتـتناول سماعة التليفون. تطلب رقما، وفى أثناء الحديث يتابعها الرجل بانتباه قليل لشدة سكره ولا يكف عن تقبيلها)

المــــرأة : آلـــو .

: . . . .

المــــرأة : مساء الخير ، أنت قلق طبعا ، آسفة . . .

: . . . .

المــــرأة : شربت كأسين تحت ظروف اضطرارية .

: . . . .

المــــرأة : لا وقت للإجابة ، ليس الظرف مناسبا ، ستعرف كل شىء من الصحف .

: . . . .

المــــرأة : لا تنتظرنى . . ولكن ثق من إخلاصى . . حتى آخر لحظة . . أستودعك الله .

(تغـلق السـكة)

الــرجــل : تخونيننى جهارا؟

المــــرأة : الماضى يستحق أن نودعه .

الــرجــل : عفـــريتة . .

المــــرأة : سأكون لك إلى الأبد!

الــرجــل : حـتى المـوت .

المــــرأة : حـتى المـوت .

الــرجــل : ولو امتد بنا العمر ساعة كاملة؟

المــــرأة : ولو امتد ساعة وربعا!

(جرس الباب يرن. ينظران نحو الباب بانزعاج رغم سكرهما. ينهضان بصعوبة وتعثر. تمضى نحو المقعد حيث تركت حقيبتها)

المـــــرأة : سيجدوننى جثة هامدة منتصرة.

الـــرجـــل : لن أفتح الباب.

المـــــرأة : سيكسرونه.

الـــرجـــل : فلنتفق على الاعتراف بأننا زوجان.

المـــــرأة : قلت للضابط خلاف ذلك.

الـــرجـــل : نعترف بأننا تزوجنا عقب ذهابه!

المـــــرأة : هذه فترة كافية لموتنا، أما الزواج فيستغرق عاما على الأقل.

(الجرس يرن متقطعا ولكن فى إصرار)

(الرجل يلتفت نحو الباب موليا المرأة ظهره.

المرأة تتناول من الحقيبة أنبوبة. تستخرج منها حبة. تزدردها ببقية كأسها. تترنح ثم تسقط فوق الديوان منكفئة على وجهها، جثة هامدة. الرجل لم ينتبه إلى ما حدث. يتردد بين الوقوف وبين الذهاب إلى الباب. ينظر وراءه فيرى المرأة منكفئة على وجهها)

الـــرجـــل : غلبك السكر؟.. نمت؟

(يتأملها دون مبالاة بجرس الباب)

: يالك من شابة جميلة حقا!

(الجرس يرن)

: أضعنا فى الخصام وقتا لا يعوض..

(الجرس يرن)

: استريحى.. تخاصمنا كغرباء على حين تجمعنا طبيعة واحدة.

(يقترب منها، يميل فوقها كأنما ليقبلها وإذا بصوت صديقه ينادى من وراء الباب صائحا «افتح» يمضى مسرعا نحو الباب فيفتحه ضاحكا. الصديق يدخل ويغلق الباب وراءه)

الـــرجـــل : سيبت ركبنا، عليك اللعنة.

الصـــديق : من المرأة التى عندك؟

الـــرجـــل : الغيرة رجعت بك رغم الحصار.. يا لك من أحمق ما فكرت فى خيانتك قط!

(الصديق ينظر إلى المرأة ويضحك عاليا)

الصـــديق : بعض الظن إثم .
الـــرجـــل : أنت أحمق .
الصـــديق : متى جاءت هذه المحبوبة؟
الـــرجـــل : كانت هنا من قبل زيارتك الأولى .
الصـــديق : ولمَ أخفيتها عنى؟
الـــرجـــل : إنهَا المرأة التى تبحث عنها الشرطة .
الصـــديق : كم كأسا شربت؟
الـــرجـــل : لم أفكر فى حصرها .
الصـــديق : وهل المحبوبة نائمة؟
الـــرجـــل : من السكر والتعب . . ولكن ما حال الحصار؟
الصـــديق : القيامة قائمة .
الـــرجـــل : وحبيبتى نائمة .
الصـــديق : إنها جميلة . . من هى؟
الـــرجـــل : المرأة التى قامت القيامة من أجلها .
الصـــديق : أنت سكران .
الـــرجـــل : السكران لا يكذب .

(صمت)

الصـــديق : لـو صـح هـذا .
الـــرجـــل : تعاهدنا على الحب إلى الأبد .
الصـــديق : كنت تعرفها؟
الـــرجـــل : عرفتها منذ ساعة هجرية!
الصـــديق : وما جريمتها؟
الـــرجـــل : جريمة قامت لها القيامة .
الصـــديق : قتل . . مؤامرة . . ؟
الـــرجـــل : سألتها فاعترفت لى بحبها . . .
الصـــديق : لعنة الله على البار الأمريكانى . . خبرنى من هى؟
الـــرجـــل : امـــرأة .
الصـــديق : اسمها ، أسرتها ، مهنتها؟ . . .
الـــرجـــل : لا اسم ولا أسرة ولا مهنة لها .
الصـــديق : ألا تعرف عنها أى شىء؟

الرجل : عرفنا أهم شيء وهو أننا سنموت بعد ساعة أو ساعتين!

الصديق : إنك مضجر ولا خير فيك.

الرجل : نحن ننتظر الشرطة فلا تفسد علينا ساعة الانتظار.

الصديق : لا سبيل إلى التفاهم معك، سأذهب، أستودعك الله.

الرجل : مع ألف سلامة.

(يتحرك الصديق للذهاب. جرس الباب يرن رنينا متواصلا)

: أخيرا...

الصديق : (فى اضطراب) ماذا أنت فاعل؟

الرجل : سأفتح الباب قبل أن يحطموه.

(أصوات من الخارج تصيح «افتح.. افتح».

الرجل يذهب إلى الباب. يفتحه. تندفع إلى الداخل قوة من الشرطة المسلحة على رأسها ضابط غير الضابط الأول)

الضابط : أين الحجرة المطلة على الطريق العمومى؟

(الرجل يشير إلى حجرة النوم. الضابط والقوة يهرعون إلى الحجرة ويختفون داخلها)

الصديق : ما معنى هذا؟

الرجل : علىّ اللعنة إن كنت أفهم حرفا مما يقع حولى.

الصديق : يستحسن أن توقظ المرأة، أى نوم هذا؟

الرجل : رد فعل طبيعى للإنهاك والاضطراب والسكر، دعها تنعم بآخر هدوء يتاح لها فى حياتها!

(فجأة تترامى من الحجرة أصوات طلقات نارية كثيرة، تستمر وتتزايد. الرجلان ينحطان على ركبتيهما بحركة قاسية وهما فى غاية من الذعر)

الصديق : إنها معركة.

الرجل : إنها معركة بكل معنى الكلمة...

الصديق : هل العدو فى الطريق؟

الرجل : ولكنك رأيت الطريق محاصرا!

الصديق : لعله فى العمارة القائمة على الجانب الآخر.

الرجل : لا أفهم شيئا.

الصديق : يجب أن نغادر الشقة فورا قبل أن نصرع بالرصاص.

(الصديق يزحف على أربع حتى يغادر الشقة. الضابط يظهر فى باب الحجرة. يرى المرأة لأول مرة)

الضابط : هل أصيبت السيدة؟

الرجل : كلا . . إنها . . إنها مريضة . .

الضابط : الشقة معرضة للخطر . . غادرها بلا تردد .

(الضابط يرجع إلى الحجرة. الضرب فى تصاعد مستمر. رصاصة تصيب المصباح الكهربائى فيسود الظلام. شبح الرجل يزحف نحو المرأة. يهزها ليوقظها)

الرجل : استيقظى . . يجب أن تستيقظى . . .

(يهزها بشىء من الشدة)

: سأحملك بين يدى وأمرى لله . .

(يحملها بين يديه ويمضى بها نحو الباب بتعثر ومشقة وبطء)

: لم يجيئوا للقبض عليك ولا للتفتيش . . لقد نجوت يا حبيبتى . . ونجوت أنا أيضا . . نجونا معا . سيمسى اليأس فى خبر كان . . نجوت ونجوت . . وستكونين لى إلى الأبد .

(يغادر الشقة بحمله. الضرب مستمر)

مشروع للمناقشة

(حجرة الإدارة بمسرح. فى الجانب الأوسط من الحجرة يوجد مكتب. أمام المكتب مقعدان كبيران متقابلان. إلى اليسار مكتبة، وباب مغلق يؤدى إلى الخارج. فى الجانب الأيمن كنبة ومقعدان وخوان. على الكنبة يجلس الممثل والممثلة. على المقعدين يجلس المخرج والناقد.. الجميع فى أواسط العمر مع تفاوت).

المخرج : يجب أن نفتتح الموسم بعمل باهر .

الممثلة : (متنهدة) الحق أن الفن جمال وعذاب .

الممثل : (ناظرا فى ساعة يده) متى يحضر الأستاذ؟

الناقد : إنه فى الطريق إلينا .

المخرج : كثرت المسارح واشتدت المنافسة بينها لدرجة الوحشية .

الممثل : وعلينا يقع عبء المحافظة على القمة .

الممثلة : هذا ما قصدته بالعذاب .

الناقد : ترى هل انتهى الأستاذ من كتابة المسرحية؟

المخرج : لا أظن، ولكنه سيحدثنا عن الفكرة العامة .

الممثلة : لن يبدأ الموسم قبل أشهر .

(يفتح الباب إلى اليسار ويدخل السكرتير)

السكرتير : الأستاذ .

(يدخل المؤلف. يخرج السكرتير ويغلق الباب. المؤلف متقدم فى السن ولكنه من النوع الذى يتعذر تحديد سنه. وهو أنيق المظهر وبادى الصحة والعافية رغم تقدمه فى السن. ينهض المخرج والناقد والممثل لمصافحته. يذهب لمصافحة الممثلة فى مجلسها. يمضى إلى المكتب فيقف مستندا إلى مقدمته. ينتقل المخرج والناقد إلى المقعدين المتقابلين أمام المكتب. يعود الممثل إلى مجلسه إلى جانب الممثلة)

الناقد : **(للمؤلف)** صحتك عال .

المؤلف : شكرا .

المخرج : الجو فظيع ولكن ضاحيتك مرتفعة الموقع ومعتدلة الجو .

المؤلف : التفكير من شأنه أن يرفع الحرارة .

الناقد : إلى أى حد يمكن أن نقول إن عملك اكتمل؟

المؤلف : سينتهى على أى حال فى موعده .

الناقد : إذا أردنا أن نحدد روايتك الجديدة فأى اسم يمكن أن نطلقه عليها؟

المؤلف : إنك ناقد لا تخلو من داء النقاد فى غرامهم بالأسماء، أنا لا تهمنى الأسماء، إنما أبدأ من انفعال معين ثم أترك الاسترسال لوحى القلم .

الناقد : ولكن المسرحية بناء، ولا يسع البناء أن يضرب فى الأساس ضربة واحدة ما لم تكن الصورة النهائية متبلورة بشكل ما!

الممثل : **(فى شىء من العصبية)** سنصل فى نقاش غير محدود، أريد أن أطمئن إلى وجود بطولة حقيقية .

الممثلة : وأضيف إلى قول زميلى أن خير دور تمثله المرأة هو الحب . **(ثم موجهة الحديث إلى المخرج)** تكلم فأنت المخرج . . .

المخرج : لكل رواية أسلوب خاص لإخراجها .

الممثلة : ولكن الحب ضرورة لا غنى عنها .

المخــرج : إنه ضرورة حقا ولكن لا يمكن فرضه على المؤلف .

المــؤلــف : هذا كرم منك إذا تذكرنا محاولاتك السابقة للوثوب فوق رأسى .

المخــرج : (ضاحكا) أنت تؤلف وأنا أفسر ، فأنت حر فى تأليفك وأنا حر فى تفسيرى .

المــؤلــف : ولكنى أعرف ما أريد قوله .

المخــرج : بل إنى أعتبر ذلك من اختصاصى .

الناقــد : الأمر يتوقف على نوع العمل ، ثمة عمل لا يختلف فى تفسيره أحد ، وآخر تتعدد فى تفسيره وجهات النظر .

الممــثل : ما يهمنى حقا هو دور البطولة ، أريد أن أكون بطلا لا مهرجا .

المخــرج : ولكن المهرج يمكن أن يكون بطلا أيضا .

الممــثل : إنى أرفض ذلك كل الرفض .

المخــرج : ثمة زمن يخلق الأبطال وآخر يخلق المهرجين .

الممــثل : مهرجون لا أبطال .

المخــرج : المسألة نسبية .

الممــثلة : سنضل فى متاهة الآراء ، حددوا أفكاركم .

الممــثل : حسن ، أريد بطولة بالمعنى التقليدى .

الممــثلة : وأريد أن ألعب دور حب لا ينسى .

الناقــد : ويلزمنى الوضوح الذى يمكننى من نقد العمل وتقديمه .

المخــرج : أطالب بالحرية الكاملة للتفسير .

المــؤلــف : ماذا يبقى لى أنا؟

الممــثل : أن تحقق لنا مطالبنا الفنية العادلة فى صيغة ناجحة تستحوذ على إعجاب الجمهور .

المــؤلــف : إنكم بحاجة إلى سكرتير لا إلى مؤلف .

الممــثلة : بل نريد تفاهما وتعاونا .

(المؤلف يغادر موقفه متمشيا حتى منتصف الحجرة وهو مقطب ثم يعود إلى موقفه مستندا إلى مقدم المكتب)

المــؤلــف : إنى أحب الصراحة ، والحق أقول لكم إنه لا وجود لكم قبل أن توجد الفكرة التى تنجزونها .

الممــثل : (فى حدة) بل نحن موجودون قبل أى فكرة .

المــؤلــف : إذا لم توجد القصة فأنتم مجرد أشخاص لا معنى فنى لهم .

الناقـــد : ألا يؤثر فى خيالك وأنت تؤلف أشخاص الممثلين مثلا؟

المؤلـف : كلا ، إنى أستغرق فى عملية الخلق فحسب ، ثم يختار العمل بعد ذلك ممثلوه ومخرجه!

الناقـــد : هذا فرض مثالى ، ولكن الواقع أن المؤلف إنما يتعامل مع زمان ومكان وجمهور وممثلين وممثلات ومخرجين ونقاد أيضا!

المؤلـف : (ضاحكا فى سخرية) يا لها من أفكار غريبة عن عملية الخلق!

الناقـــد : لا يمكن أن تترك لخيالك العنان ما دمت مرتبطا بمسرح ما وجمهور ما وإمكانيات فنية محدودة .

المؤلـف : أو فى كلمة واحدة هى فبركة بلا زيادة .

الناقـــد : إنها محاولة صادقة للتوفيق بين خيالك الخلاق والضرورات بفبركة لا محيص عنها لتقول فى النهاية ما تريد قوله وما يتطلبه الزمان والمكان وما يود الناس أن نقوله!

المؤلـف : (بلهجة مزدرية) أصدق وصف للفن التجارى .

الناقـــد : الفن معاملة ، والمعاملة نوع من التجارة ، والنجاح وجه من وجوه المعاملة .

المؤلـف : هذا يعنى أنكم المؤلف لا أنا .

الناقـــد : التأليف جماعى وإن بدا فرديا .

الممثـل : لذلك أطالب ببطولة تقليدية وهو طلب عادل .

الممثـلة : وأطالب بالحب وهو مطلب طبيعى .

المخـرج : وأطالب بالحرية ليتم لعملك الكمال المنشود .

المؤلـف : (غاضبا) تمرد سخيف مضحك ، ولولاى لما كنتم شيئا مذكورا .

الناقـــد : (بلطف) ولولانا ما كنت مؤلفا على الإطلاق .

المؤلـف : أستطيع أن أكتب مسرحية لنفسى!

الناقـــد : محض كلام ، كيف يثبت أنها مسرحية إذا لم يقيض لها مخرج وممثلون وجمهور ونقاد؟!

المؤلـف : (غاضبا) إن مهنتى الخلق لا الجدل ، الجدل مهنة العاجزين عن الخلق .

الممثـلة : إنى أكره الجدل وأخاف عواقبه ، وسوف ينتهى بنا إلى خصام مرير بدلا من عرض مسرحى رائع .

الممثـل : ولكن لا خير فى مصالحة تجىء على حسابنا .

المؤلـف : من الضرورى أن أكتب مسرحيتى بلا قيد أو شرط .

الناقد : لا يجوز أن تهمل الاعتبارات التى عددتها .

المؤلف : إنى ملزم باحترام الخلق الفنى وحده .

الممثل : والبطولة؟

الممثلة : والحب؟

المخرج : بعض الهدوء ، إنه لم يحدثنا بعد عن قصته!

(صمت)

: أستاذنا العزيز ، حدثنا عن قصتك .

المؤلف : إنها مجرد مشروع وخطوط عامة .

المخرج : ليكن .

المؤلف : إنها قصة رجل وامرأة .

الممثل : ثمة مجال لبطولة .

الممثلة : ومكان أرجح للحب .

المؤلف : يلتقيان فى غابة .

الناقد : غابة؟

المؤلف : يلتقيان فى غابة .

الناقد : ولم غابة؟

المؤلف : (محتدا) أنا حر .

المخرج : أنا الحر .

الناقد : أخشى أن ترجع بنا إلى عهد الرومانسية البائد؟

الممثلة : هو مكان ظريف على أى حال ، والعرى فيه لا يمكن أن يتهم بالافتعال .

الناقد : اللقاء اليوم فى الشارع ، فى البص ، فى ملهى ليلى .

المخرج : ربما أراد من الغابة أن تهيىء له جوا موحشا حافلا بأخطار الإنسان والحيوان .

الناقد : المدينة أحفل بكل ذلك من أى غابة .

المؤلف : (ضاربا الأرض بقدمه) يلتقيان فى غابة .

الممثلة : بعض الحلم حتى يتم صورته .

المؤلف : فى الغابة أخطار لا حصر لها فهما يبحثان عن مأوى يحميهما .

الممثل : ليس فى ذلك شىء من البطولة .

الممثلة : ولكنه مجال طيب للحب .

الممثل : لا حب بلا بطولة .

الممثلة : الحب فى ذاته بطولة .

المـمـثـل : ليست هى ما أبحث عنه .
المخـرج : إنه يريد أن يقاتل ، يقاتل الوحوش ، يقاتل المجهول .
المـمـثـل : أحسـنت .
المخـرج : ومن ثم يوجد الصراع وهو أساس الدراما .
المـمـثـل : أما مجرد البحث عن مأوى!
المـمـثـلة : لعله يكتب قصة حب؟
المـمـثـل : الحب لا يكفى وحده موضوعا لمسرحية .
المخـرج : وأى مجال يترك لحريتى فى مسرحية بحث عن مأوى؟
المـؤلـف : أنا لا أعترف بحريتك المزعومة .
المخـرج : أنا أفسر فأنا حر .
المـؤلـف : هل تستطيع بحريتك أن تغير النهاية؟
المخـرج : صدقنى فإن حرية المخرج هى زينة العرض المسرحى .
المـؤلـف : هل تستطيع أن تغير النهاية؟
المخـرج : لم تحدثنا عن النهاية .
المـؤلـف : يجدان مأوى على درجة من الأمان .
المـمـثـلة : أراهن على أن الحب سيبدأ دوره الخالد .
المـؤلـف : يحصنانه ضد أهوال لا حصر لها ولا عد .
المـمـثـلة : أكمل . . إنى منتظرة .
المـؤلـف : يمضيان أوقات الراحة فى عناق حار .
المـمـثـلة : (**تقف من الانفعال وتنتقل إلى جنب المؤلف**) ألم أقل لكم؟
المـؤلـف : وفى لحظة من لحظات العناق الحار يسقطان جثتين هامدتين!

(صمت)

(يتبادلان النظرات. تمضى الممثلة إلى المكتبة على اليسار وتستند إليها مغمضة العينين)

الـنـاقـد : جثتين هامدتين؟!
المـؤلـف : نعم .
الـنـاقـد : وهى النهاية؟
المـؤلـف : ماذا تتوقع بعد ذلك؟
الـنـاقـد : ولكن ما أسباب الموت؟
المـؤلـف : أى سبب تفترضه ، لنقل إنه العناق نفسه!

المـــــثلة : (متقدمة خطوات) الحق أنى لم أفهم شيئا .

المخــــرج : وماذا عن الأخطار المحدقة بهما؟

المـــؤلـــف : لم أتم دراستى لها بعد، ولكن يمكن القول بأنهما قد ينجحان فى تحصين مأواهما .

الـناقــــد : ستكون نهاية متشائمة .

المـــــثل : وبلا بطولة تخفف من وقعها .

المـــــثلة : دور الحب غنى، ولكن النهاية . . . ؟

المخــــرج : من حسن الحظ أنه لم ينته من دراسته، وأنه لابد أن تسبق النهاية سلسلة من صراعات شائقة . . .

المـــؤلـــف : (متهكما) ربما تكون حرا فى كيفية الوصول إلى النهاية التى أختارها ولكن لا حرية لك فى تغييرها .

المخــــرج : (فى شبه ثورة) يمكن أن أسدل الستار عند لحظة من لحظات النصر .

المـــؤلـــف : فى تلك الحال لن يزعم أحد بأن الرواية روايتى .

المـــــثل : (وهو يهب واقفا) أنا البطل، أنا الجمهور، وإنى أرفض الأدوار الهابطة!

المـــؤلـــف : قدر للسانك قبل النطق موضعه من اللباقة .

المـــــثل : إنى ممثل قديم، لعبت أدوارا خالدة، صارعت القدر، صارعت الأبطال، صارعت المجتمع، اليوم يراد منى أن ألعب دور الهارب، وأن أموت مستهلكا فى عناق حار، خبرنى بالله أى نوع من الدراما تكون، تراجيديا؟ ملهاة؟

الـناقــــد : أجل . . النوع المسرحى غير واضح .

المـــؤلـــف : أنا أقدم مسرحيات لا أسماء .

الـناقــــد : ولكنها تنكبت سبيل الجلال الحق .

المـــؤلـــف : الجلال الحق، مازلتم تحنون إلى القدر والأبطال الخرافيين وأسطورة المجتمع، ولكن القدر لم يعد إلا موضة بالية، والبطولة الخرافية مراهقة، وهل يتمخض المجتمع إلا عن لعبة يعبث بها أطفال شريرون لم تحسن تربيتهم؟! إنى أعرف عملى تماما .

المـــــثل : إنى أرفض مسرحيتك .

المـــــثلة : لكنها مازالت قصة حب .

المـــــثل : إنك مخطئة يا عزيزتى، تصورى أن نلتقى فى غابة وأن نلوذ بمأوى! لا مجال للمناجاة أو الحب الحقيقى، ستكون أعصابنا متوترة طوال الوقت .

الحب لا ينمو فى هذا الجو، مجرد عناق عصبى، يروح عن نفسه بالشهوة، ثم نقع جثتين، ستكونين طيلة الوقت محدقة فى فزع، مرتعشة الأطراف، مضطربة الأمعاء، دميمة الوجه، مجرد لبؤة ثائرة ثم جثة هامدة.

الممثلة : كلا.. كلا..

الممثل : ولن يبقى لنا من الحوار إلا كلمات متشنجة، واستغاثات معربدة، وهذيان طويل عن الأخطار المحدقة بنا، ثم نقع جثتين هامدتين!

المؤلف : (محتدا) لست إلا ممثلا فلا تجاوز حدك.

الممثل : (فى غضب وعجرفة) أنا المسرح. أنا الجمهور..

المؤلف : لست إلا ممثلا.

الممثل : (وغضبه فى تصاعد) وما أنت؟!.. كم من الجمهور رأوك؟.. وكم ممن يرونك يعرفون من أنت؟!

المؤلف : يا لها من وقاحة!

(الممثل يرمى المؤلف بنظرة متوعدة. الممثلة تقترب منه بسرعة فتضع يدها على ذراعه ملاطفة)

الممثلة : لا يليق بكما الخصام.

الناقد : ترى هل تحل بمسرحنا اللعنة؟!

المؤلف : ليلتزم كل بحدوده.

المخرج : الحلم والهدوء، لا تدفعونى إلى اليأس.

الممثلة : عليك بالتماسك وإلا فشلنا وأعرض عنا الجمهور.

الممثل : إن من يسلبنى مجدى إنما يسلبنى كرامتى وحياتى.

المؤلف : لكل زمان مجده الخاص به.

الممثل : العبث ببطولتى التى عشقها الجمهور محاولة لقتلى.

المؤلف : مجدك الحق أن تلعب دورك بمهارة أيا كان دورك.

الممثل : ولو كان الهرب والموت بين أحضان امرأة؟

المؤلف : ولو كان.

الممثل : سينصرف عنكم الجمهور ولن ينفع الندم.

المؤلف : الجمهور يود أن يرى نفسه.

الممثل : لا كما هى ولكن كما يجب أن تكون.

المؤلف : على أساس من واقعها الحقيقى.

المـــــثل : أهذه هى الكلمة الأخيرة فى البطولة؟
المـــؤلـــف : لا يمكن التنبؤ بالمسرحية التالية .
المـــــثل : إذا تجهمنى زمانى فعلى أن أعتزل .
المـــؤلـــف : (متهكما) ها أنت تفكر فى الهروب فى حياتك رغم ثورتك عليها فوق خشبة المسرح .
المـــــثل : إنى أرفض مسرحيتك .
الـنـاقــــد : (للمؤلف) فكرتها طيبة ولكن أعد النظر فى النهاية .
المـــؤلـــف : (بكبرياء) كلام لا يليق أن يوجه إلى مؤلف .
الـنـاقــــد : هـل نسـيت تاريخـك القـديم؟ . . هـل نسيت روائعك؟
المـــؤلـــف : آخر مسرحية خير ما ألفت حتى اليوم .
المـــــثل : حتى هذه المسرحية الشاذة؟
المـــؤلـــف : ستكون خير ما ألفت حتى اليوم .
المـــــثل : (صائحا فى غضب وموجها كلامه للجميع) إنه يضمحل وهو لا يدرى .
المـــؤلـــف : (فى غضب) لست أهلا لمناقشتى .

(الممثل يرميه بنظرة غاضبة متوعدة مرة أخرى ولكن الممثلة تأخذه من ذراعه إلى مجلسها السابق فوق الكنبة)

(صمت)

: **(محادثا نفسه)** تعب وعذاب وها هى النهاية ، من يدرى بمتاعب الخلق إلا من يعانيه؟ ثم لا يكفيه ذلك فتتمرد عليه مخلوقاته ، وأى تمرد! تعيب خلقه ، تعيبه بكل جهل وقحـة ، تذكـره بعمله القديم كأنه عـاجز عن تكرار نفسه ، تتهمـه بالكسل وهى الخامة العاجزة عن تفهم الجديد ، وتبين مزاياه ، هل يكمل الخلق إذا جاء على هوى المخلوق؟ وقد تدرجت معهم من البسيط إلى المعقد وها هم ينعتون البسيط بالجلال والمعقد بالتفاهة ، عقول قاصرة فكيف يمكن أن يتموا الرحلة الطويلة معى؟ !

المـــــثل : **(مخاطبا نفسه أيضا تجنبا للخصام)** الخلق شىء عظيم أما الغرور فلا عظمة له ، لسنا مـخلوقـات ولكننا شـركـاء ، هو يعـرف ذلك وإن أنكره حين الغـضب ، المسـرحـيـة لا تحـيـا وحـدها ، يلزمـهـا مـخـرج وممثلون ونقـاد وجمهور ، ما قيمة النصر بغير هؤلاء؟ هل تبقى الرواية هى هى إذا تغير الممثلون؟ هل تبقى هى هى إذا تغير المخرج؟ الحق أننا خالقون أيضا ، وهو مخلوق لنا بمعنى من المعانى ، وجميعنا معذبون بالخلق ، والجزاء ليس

عادلا، إننا نعيش فترة ثم نختفى كالفقاعات، أما كلماته فتبقى على مدى الأيام . .

(صمت)

الناقد : نريد أن نصفى الجو، وبالاحترام المتبادل نصفيه لا بالتفاخر.

الممثل : (آتيا بحركة تدل على الحسرة) إنى أبكى الأيام السعيدة الماضية، أخاف ألا تعود مرة أخرى، كنت أخطر على خشبة المسرح رمزا للإنسان فى ذروة نبله ونضاله، وعلى المسرح كانت تتواجه قوى الخير والشر وبينهما تقوم الإرادة الحرة المتوثبة، والخير لم يكن ينهزم وإن حاقت به هزيمة والشر لا ينتصر وإن أحرز نصرا، ذلك أن خشبة المسرح لم تكن تخلو من إله عادل.

الممثلة : (تتأثر فتقوم لتتمشى وهى تتكلم) أجل، المرأة كانت وحيا، الحب كان دينا، النور يهزم جيوش الظلام بنصله اللامع، الأمومة مقدسة، الوفاء مقدس. الرذيلة شيطان، لا شيء لهو ولعب.

الممثل : أين الآلهة؟ أين البطولة؟ أين الحب؟ أين الأمل؟ لم تبق إلا غابة مليئة بالوحوش، وآدميان هاربان لائذان بكهف، لم يبق إلا الخوف والتوجس والهستيريا والموت، أى دور هذا؟

(الممثل يقف منفعلا ثم يهتف بصوت مرتفع)

: إنى أرفض مسرحيتك.

المؤلف : لا تتخط حدودك.

الممثل : لم أتخط حدودى.

المؤلف : لا تحلم كالمراهقين.

الممثل : لا تتخط حدود اللياقة.

(صمت)

المؤلف : هذا هو مشروع روايتى الجديدة، وإنى مقتنع به.

الممثل : إنى أرفضها.

الممثلة : (بصوت منخفض) على العين والرأس ولكن . . .

المخرج : عملى يبدأ بعد انتهاء عملك.

الناقد : لا أدرى هل يبكى المشاهد أو يضحك؟

المؤلف : لم يكن أحد يجادلنى فيما مضى.

الممثل : كان العمل رائعا.

المؤلف : المؤلف الحق يطالب بالطاعة والإعجاب .

الممثل : (متهكما) الطاعة والإعجاب؟!

المؤلف : (منفعلا بالغضب) وإلا هدمت المسرح على من فيه .

الممثل : إنى أشهدكم على ما يقول .

المؤلف : من حقى أن أقول ما أعتقده .

الممثل : تحت شرط ألا تمس كرامة الآخرين .

المؤلف : لقد خلقت منكم نجوما وكواكب ولن يعجزنى أن أخلق غيركم .

الممثل : الحق أننا نحن الذين خلقناك .

المؤلف : لو تخليت عنك لتسولت حتى الموت .

الممثل : لولاى لما نجحت لك رواية واحدة ولبثت مؤلفا ناشئا! **(الممثل يتقدم إلى الممثلة فيأخذ بيدها متجها فى تحد إلى المؤلف)**

: هل نسيت فضل هذه الفنانة؟ أو حسبت أن الجمهور يتدفق علينا من أجلك؟!

المخرج : **(للمؤلف ممتعضا)** وأنا يا أستاذ؟ هل نسيت عروضى الرائعة؟

الناقد : **(للمؤلف أيضا)** سامحك الله، وقلمى الذى كرسته للإشادة بعبقريتك؟ إن الناس لا تثنى عليك إلا بكلماتى . .

الممثل : **(غاضبا)** نحن الذين خلقناك .

المؤلف : سأعهد بعملى إلى آخرين، اغربوا عن وجهى .

الناقد : لكل مسرح رجاله، ونحن رجال هذا المسرح .

المؤلف : إذن لن تقدم به مسرحيات بعد اليوم .

المخرج : سيغلقه الظلام ويدركه العدم .

المؤلف : لن أتضور جوعا، إنى رجل لم تغره الحياة الدنيا مثلكم، ولكنكم ستتسولون فى مجرى عام .

الممثل : ولكن لن تخلق، وهو ألعن من التسول .

المؤلف : حسن، فليمض كل إلى سبيله .

(صمت)

الناقد : لقد حلت اللعنة بمسرحنا .

الممثلة : قلبى يتمزق .

المؤلف : أنتم المسئولون عن ذلك .

الممثل : أنت وحدك المسئول .

المخرج : مسرح عريق فى القدم والنجاح .

المـمثـلة : يئس من اللحاق به الأعداء.

المـؤلـف : وبطرت نعمته أصحابه.

الناقـد : لا أصدق، لن يهون أمره على أحد منا (ثم موجها الخطاب للمؤلف) وأنت على وجه الخصوص، ليس أول مرة يعصف بك الغضب..

المـؤلـف : (مشيرا إلى الممثل) جاوز حدود اللياقة باستهانة لا تغتفر.

الناقـد : ما تزال قابلة للغفران.

المخـرج : لن يدرك مسرحنا العدم ولو اضطررنا إلى إعادة تقديم الروايات القديمة.

المـؤلـف : هذا هو الإفلاس، ولن يخفى على أحد.

(صمت)

الناقـد : لنكن إيجابيين فى حوارنا، أصغوا إلىّ، يمكن استخلاص عنصر صراع بطولى من مجرى الرواية.

المـمثـلة : (بلهفة) كيف؟

الناقـد : الرواية مازالت مشروعا، وقد قال الأستاذ إن الرجل والمرأة سيلوذان بكهف، أليس كذلك؟

المـمثـلة : بلى.

الناقـد : إنه كهف كبير، لاذ به كثيرون..

(ينظرون إلى المؤلف مستطلعين فلا يعترض)

: لدينا كهف وسط غابة مليئة بالوحوش والأخطار المجهولة، وهو فى الوقت نفسه مكتظ بالناس، ثمة فرصة لقيام صراع ما بين بطلنا وبين أحد أو أكثر من الآخرين..

المـمثـل : صراع سخيف؟! غير بطولى، إذا كانت الأخطار تحدق بالكهف من كل جانب، فكيف يجوز أن يقوم صراع بينهم؟!

المـمثـلة : وكيف يطيب الحب فى مثل ذلك الجو؟!

الناقـد : قد يكون صراعا غير منطقى ولكنه ممكن إذا قيس بمقاييس الطبيعة البشرية، وبخاصة إذا توفرت أسبابه...

المـمثـلة : أسبابه؟

الناقـد : المرأة، عدم وفرة الماء والغذاء..

المـمثـل : الصراع الحق هو ما قام بين البطل والوحوش، أو بينه وبين المجهول.

(ينظرون جميعا إلى المؤلف مستطلعين)

المـؤلـف : (بفتور) ثمة مجال لصراع فى الداخل وآخر فى الخارج.

الناقد : يسعدنى أن نعود إلى المناقشة . .

المؤلف : لم أفرغ من عملى بعد .

الناقد : المناقشة تفتح الأبواب .

المؤلف : ولكنها تفسح المجال للرغبات الشخصية التى لا تمت إلى الفن بصلة .

الممثل : رغباتى فنية وليست شخصية .

الممثلة : (فى رقة متناهية) النهاية مهمة جدا .

المؤلف : المؤلف يكتب مسرحيات متتابعة ، لكل مسرحية شخصيتها المستقلة ، ولكنها فى مجموعها مسرحية كبرى ذات نهايات متكاملة .

الممثل : ما يهمنا الآن هى مسرحية الافتتاح .

المؤلف : لم أفرغ من عملى بعد .

الممثلة : ليكن صراع من أى نوع كان ولكن يجب أن ينتهى بانتصار الحب .

المخرج : كيف يمكن استخلاص إيقاع غرامى من ضجيج الغابة الموحشة؟!

الممثلة : (بحدة) إذن الأفضل ألا يكون للمرأة دور!

الممثل : ما أجمل أن ينتهى الصراع فى الداخل إلى القضاء على أسبابه ، ومن ثم يتجهون جميعا نحو الخارج . .

الناقد : وماذا يقع فى الخارج؟

الممثل : صراع جديد فنصر جديد .

الممثلة : وحب طيلة الوقت!

الناقد : حلم جميل ولكن الجمهور لم يعد يستسلم للأحلام طويلا . .

المخرج : ثمة مشروع مضاد وهو أن يقضى الصراع على اللائذين بالكهف ثم تقتحمه الوحوش فتلتهم الأحياء والجثث .

الناقد : كئيب أكثر مما تحتمله الأعصاب . .

المخرج : لم يبق إلا أن يستمر الصراع بالداخل والتهديد فى الخارج!

النقاد : نهاية مفتوحة تدعو للبلبلة . .

الممثلة : (محتجة) تتكلمون عن الصراع ولا تذكرون الحب بكلمة .

المخرج : أيا كان الحال فسوف تتخلله لحظات حب وغناء ورقص . .

الناقد : ولكن هل يتفق ذلك مع مرارة الصراع؟

المخرج : هكذا تمضى الحياة ، وبذلك نرضى جميع الأذواق .

(ينظرون إلى المؤلف مستطلعين)

المؤلف : لم أفرغ من عملى بعد .

الناقد : ما رأيك فى الاقتراحات التى عرضت؟

المـؤلـف : لا رأى لى الآن.

الناقـد : ولكننا استعرضنا كافة الاقتراحات المحتملة.

المـؤلـف : لا حصر للاحتمالات الممكنة.

الممـثل : عدنا على الأقل بصراع بطولى من أى نوع كان؟

الممـثلة : وبحب يستحق هذا الاسم!

المـؤلـف : لا أعـد بشـىء.

الممـثل : ولكنك حر وبوسعك أن تعد وأن تفى بما تعد.

المـؤلـف : لا تتحدث عنى بخير أو شر.

الناقـد : حذار أن يعاودنا الخصام.

المخـرج : نحن فى حاجة إلى استراحة قصيرة، بنا إلى البوفيه لنتناول بعض المرطبات.

(ويذهب الناقد والمخرج والممثل. الممثلة تقف ولكنها لا تبرح مكانها. المؤلف يغادر موقفه عند المكتب ليتمشى ذهابا وجيئة. ثم يعود إلى موقفه مستندا إلى مكتبه، والممثلة تتابعه بعينيها طوال الوقت)

المـؤلـف : **(كأنما يسأل نفسه)** هل حقا حلت اللعنة بمسرحنا؟

الممـثلة : لن تحل بنا إلا إذا قررت أنت ذلك.

المـؤلـف : ولكنه بمعنى ما مسرحى، إنه جزء من نفسى لا يتجزأ.

الممـثلة : ونحن عناصره التى لا تقوم إلا بها.

المـؤلـف : عمل واحد وهدف واحد.

الممـثلة : بالحق نطقت.

المـؤلـف : فيم الخلاف إذن؟

الممـثلة : لا خلاف حقيقى ولكنه الخوف، لقد أفسدت المنافسة المريرة أعصابنا.

المـؤلـف : بالتالى ضقت بهم ذرعا.

الممـثلة : ليتسع لهم صدرك.

(صمت)

: هل يضايقك وجودى؟

المـؤلـف : بل يسـعدنى.

الممـثلة : **(فى شىء من التردد)** أود أن أخلو إليك بعض الوقت.

المـؤلـف : بكل سرور، فرصة طيبة.

الممـثلة : لا قيمة لأكليشهات المجاملة لمن يتطلع للعاطفة الحقيقية!

(ينظر إليها فى تساؤل ودهشة)

: لم الآن؟ لم أختار هذه اللحظة لأفضى إليك بأسرار قديمة؟ ربما لأننى شعرت لأول مرة بأنك تهددنا حقا بالفراق الأبدى . .

المؤلف : أعترف بأننى ضقت بالعناء والمكابرة .

الممثلة : عدنى بألا تقرر الفراق مهما يكن من عنادهم ومكابرتهم .

المؤلف : كيف يمكن أن أعد بذلك؟

الممثلة : عدنى بلا قيد أو شرط؟

المؤلف : بلا قيد أو شرط؟

الممثلة : بلا قيد أو شرط .

المؤلف : إنى أشكر لك عواطفك ولكنه طلب غير عادل .

الممثلة : لأنه مسرحك، لأنه مسرحنا، لأننا أسرتك، ولأننى . .

المؤلف : ولأنك؟

الممثلة : ولأننى . . ولأننى . . ولأننى لولاك ما عرفت طريقى إلى المسرح .

المؤلف : حقا؟!

الممثلة : نعم .

المؤلف : لم تحدثينى عن ذلك من قبل .

الممثلة : لم أحدثك عن نفسى قط .

(صمت يتبادلان نظرات صامتة)

: ألا تذكر أيام زمان؟

المؤلف : بلى، حينما كنت طفلة . .

الممثلة : حينما كنت فتاة صغيرة لا طفلة . .

المؤلف : كنت ألمحك فى الطريق أحيانا .

الممثلة : أكنت ترانى حقا؟

المؤلف : من حى واحد كنا، إنى أذكر تلك الأيام .

الممثلة : اعتقدت أنك لم ترنى قط .

المؤلف : فى الشرفة رأيتك وأمام باب البيت .

الممثلة : وقلت لنفسى إما أنه إله أو أنه صخر .

المؤلف : صخر؟!

الممثلة : ذلك أنك لم تعرف سهر الليالى ولا الوسائد المبللة بالدموع .

(يتبادلان نظرة طويلة، هى تلقيها إليه بثبات، وهو بدهشة)

: وصممت على أن أكبر نفسى لعلى ألفت نظرك. انتعلت حذاء بكعب عال، غيرت التسريحة، ضيقت أعلى الفستان لأبرز صدرى، ولكنك لم ترنى..

المؤلف : (باسما) آسف جدا، كنت صغيرة وكنت كبيرا.

الممثلة : المسألة أنك لم تحبنى..

(صمت)

: ولحبك أحببت المسرح، أحببت مسرحك، غيرت مجرى حياتى رغم معارضة أهلى الشديدة..

المؤلف : إنى أغبط نفسى على الخدمة التى قدمتها للمسرح دون تخطيط.

الممثلة : ومضى حبى ينمو بلا حدود، ولما تخرجت فى المعهد اتصلت بك تليفونيا، طالبة ناشئة تعرض نفسها على المؤلف الكبير..

المؤلف : متى كان ذلك؟ إنى لا أذكره..

الممثلة : طبعا فهو حديث يتكرر يوميا عشرات المرات.

المؤلف : أكرر الأسف.

الممثلة : وسد سكرتيرك الطريق فى وجهى، ومن ناحية أخرى لم تكن تبرح صاحيتك أغلب الوقت، ولا تزور المسرح إلا فى أوقات نادرة وفى ظروف مجهولة لى، وهكذا وجدت بابك مغلقا بعد طريق طويل شققته بالجهاد والعناء والصبر.

المؤلف : حكاية مؤسفة حقا.

الممثلة : ما مضى قد مضى.

المؤلف : ولكنك عرفت بالإصرار طريقك إلى مسرحنا.

الممثلة : سلمت بتوجيه السكرتير فذهبت إلى المخرج.

المؤلف : وسيلة ناجعة فيما يبدو.

الممثلة : قابلته واقترحت عليه أن يختبرنى فى مكتبه ولكنه..

المؤلف : ولكنه؟

الممثلة : اعتذر بضيق الوقت وكثرة الأعمال ثم دعانى إلى مسكنه الخلوى!

(المؤلف يبتسم. الممثلة تقطب)

: غادرته متحدية، وغالبت ترددى حيالك حتى غلبته، فكتبت لك رسالة مطوية اعترفت لك فيها بحبى الذى أسرنى منذ صباى.

(صمت)

: لا تتذكر شيئا؟

المؤلف : الحق.

الممثلة : (مقاطعة) الحق أنك تتلقى مئات الرسائل مثلها!

المؤلف : لم تكن لى ثقة كبيرة فى الرسائل.

الممثلة : ذهبت إلى المسكن الخلوى.

(صمت)

: كثيرا ما يدفع الحب الخائب إلى المساكن الخلوية.

المؤلف : الحياة سلسلة من التجارب المتناقضة.

الممثلة : هكذا انضممت إلى مسرحك.

المؤلف : مهما يكن من أمر فقد كسب بك نجمة لامعة.

الممثلة : وعندما قدمت لك لأول مرة وضح لى أنك لا تتذكرنى.

المؤلف : ولكن سرعان ما تذكرتك.

الممثلة : وثبت لدى أن حبك سراب مستحيل فلذت بصمت الكبرياء.

(صمت)

: ودفعنى حبك المستحيل من بيت خلوى إلى بيت خلوى.

المؤلف : الحق أنك اشتهرت فى الوسط بكثرة العشق!

الممثلة : على حين أنى لم أعرف من الحب إلا حبك!

المؤلف : فنانة كبيرة وقلب كبير.

الممثلة : تصورنى الرسوم الكاريكاتورية امرأة شهوانية بينا أننى أعاف فى أعماقى الشهوة والفساد.

المؤلف : إنى أصدقك.

الممثلة : ولكننى أعبر من خلال علاقاتى العابرة بالآخرين عن تشوفى الخالد إليك.

المؤلف : إنى أحترم عاطفتك وأفهم سلوكك.

الممثلة : ولكنك لا تحبنى؟

المؤلف : أحبك بقدر ما يستطيع شخص فى سنى أن يحب امرأة فى سنك.

الممثلة : إنك من الذين يتعذر تقدير أعمارهم حتى قيل عنك إنك فى سياحاتك الموسمية حول العالم تجدد شبابك وتنفق فى ذلك عن سعة؟

(المؤلف يغرق فى الضحك وهى لا تحول عنه عينيها)

المؤلف : هل تؤمنين بالأساطير؟

الممثلة : نعم .
المؤلف : أعترف أن حبك سيجدد شبابى .
الممثلة : إنك تتكلم من بعيد، ولا ألومك فلا حق لى عليك، ولكن لِم لَم تتزوج؟
المؤلف : لم يكن الزواج من أهدافى أبدا .
الممثلة : عدو للمرأة؟!
المؤلف : لعلى لم أتزوج لشدة حبى للمرأة .
الممثلة : لا خبرة لى بالمغالطات اللفظية .
المؤلف : أعترف بأننى شيء غير مهضوم من وجهة نظر الطبيعة البشرية .
الممثلة : على كل حال ما مضى قد مضى، وما يهمنى الآن هو ألا تفكر فى هجر مسرحنا .

(صمت)

: طالما أنت على رأسه فإنى أشعر بأنى أعمل فى بيتى وبأن حياتى رغم تمزقها وضياعها لم تفقد كل معنى لها، وبأنى إذا كنت أخفقت فى أن أكون خليلتك أو زوجك فإنى على الأقل نجمة مسرحياتك .
المؤلف : النجمة التى ساقت إلىّ الملايين .
الممثلة : ولا تنس أن الحب هو الدور الذى خلدنى .
المؤلف : وشارك فى تخليد أعمالى .
الممثلة : وإننى أشعر وأنا أقوم به بأننى أمارس حبك الكبير الذى استحال علىّ خارج المسرح .
المؤلف : إنى مدين لك بالكثير .
الممثلة : عدنى إذن ألا تهجرنا مهما يكن من أمر .

(صمت)

: ألا تريد أن تعدنى؟
المؤلف : بدا التفاهم اليوم مستحيلا .
الممثلة : إنهم يحبونك أيضا . صدقنى إنهم يحبونك أيضا، المسألة أنهم خائفون، المنافسة مرة ومزلزلة للأعصاب، وهم من طول ما مارسوا البغضاء فى نزاعهم مع المسارح المحيطة بنا انطبعت البغضاء فى أساريرهم وسلوكهم ونوازعهم، كأنما قد فقدوا القدرة على الحب، وألفوا التحدى والوقاحة والتهور، تصوروا فى غضبهم أنه يمكن أن يوجد هذا المسرح بدونك،

محض خيال مريض، تخيلوه بأخيلة هزيلة مريضة، ولو ضننت عليهم بوجودك لتقوضت الجدران فوق رءوسهم، وتلاشت فرص الندم.

المؤلف : لا أوافق على أن أكرر نفسى بحال.

الممثلة : سيدى.. هل حقا لم يبق للفن إلا غابة وكهف ورجل وامرأة يموتان فى حومة هذيان؟

المؤلف : إننى أعرف ما أصنع.

الممثلة : ولكننا لم نعرفه بعد.

المؤلف : علينا أن نواجه الحقائق، هذه مواجهة وليست هروبا.

الممثلة : هبنى قدرا من الحب ليستقيم دورى، ووفر له نصيبا من البطولة!

المؤلف : ممثل متعجرف!.. أهو آخر عشاقك؟

الممثلة : نعـم.

المؤلف : أيعاملك ببطولة؟

الممثلة : (ضاحكة فى امتعاض) معاملته لى تتم وراء جدران لا أمام الجمهور.

المؤلف : إنه برمجى نساء كما هو معروف.

الممثلة : ربمـا.

المؤلف : لماذا ارتضيته عاشقا؟

الممثلة : ليس أسوأ من غيره.

المؤلف : إنه لا يمارس البطولة إلا فوق خشبة المسرح.

الممثلة : والحب الحقيقى أين يمارس إلا فوق خشبة مسرحك؟

المؤلف : إنهم يكرهون مشروعى الجديد لأنه يعكس بصدق خبايا نفوسهم.

الممثلة : كنت رفيقا بهم فى الزمان الأول.

المؤلف : كانت دنيا أخرى، وكانوا ناشئين مبتدئين.

الممثلة : أولهم بعض الاحترام الذى نعموا به قديما.

المؤلف : أعترف لك بأننى أعاملهم دائما باحترام.

الممثلة : حقا؟

المؤلف : وروايتى الجديدة أكبر دليل على ذلك!

الممثلة : لا أفهمك يا حبيبى.

المؤلف : عليك أن تفهمينى يا حبيبتى.

الممثلة : ما أحلى هذا الحديث، نتحدث كما لو كنا حبيبين حقا.

المؤلف : نحن كذلك.

الممثلة : حقـــا؟

المؤلف : كل بطريقته.

الممثلة : ليس للحب إلا طريقة واحدة.

المؤلف : بل له طرق كثيرة.

الممثلة : وما طريقتك فى الحب؟

المؤلف : العمـــل.

(تقترب منه خطوة، تمعن فيه النظر)

الممثلة : ألم تحب بطريقتى البسيطة؟

المؤلف : ربما، ولكن بعيدا عن الوسط الفنى.

الممثلة : (متنهدة) تصور أننى لم أدخل الوسط الفنى إلا سعيا وراء حبك.

(صمت)

: والآن هل تعدنى؟

المؤلف : أرجو أن تسير الأمور سيرا حسنا.

الممثلة : شـــكرا.

المؤلف : عفـــوا.

الممثلة : (بعد تردد) أود أن أقبلك ولو قبلة واحدة.

(الممثلة تقترب منه. يتعانقـان متبادلين قبلة طويلة. فى ذات اللحظة يدخل الممثل وفى أعقابه المخرج والناقد. المؤلف والممثلة يفترقان فى كثير من الارتباك. الممثل يذهل لحظة. ثم يحاول الهجوم علـى المؤلف ولكن المخرج والناقد يحولان دون ذلك)

الممثل : (صائحا) داعرة محترفة وعجوز منحل.. سأحطم رأسك...

الممثلة : اخرس.. لا تتكلم بغير فهم.

الناقد : ما رأيناه لا يجوز أن نسىء فهمه، ما هو إلا عناق أبوى!

الممثل : أبوى!!.. أنت لا تعرف شيئا عن تدهور الشيوخ!

المؤلف : تـأدب..

الممثل : سأحطم رأسك، لن تفلت من قبضتى...

الممثلة : اخرس، قلت لك ألا تتكلم بغير فهم.

الممثل : إنى خير من يفهمك يا خنزيرة!

الممثلة : ما أنت إلا حيوان غبى.

الممثل : لا زلت بغيا تنتقلين من فراش إلى فراش.

المـمـثـلـة : تأدب وإلا أسكتك بالحذاء .

المـمـثـل : ولكنك تنتقلين هذه المرة إلى نعش .

المـمـثـلـة : (للآخرين) أسكتوا هذا الحيوان الأعمى .

الـنـاقـد : (ضاربا جبينه بيده) لقد حلت بمسرحنا اللعنة .

المـمـثـلـة : (بصوت مرتفع) لن تحل بمسرحنا اللعنة .

المـخـرج : سوء فهم واضح ، واضح البراءة .

الـنـاقـد : (مخاطبا المؤلف) بوسعك أن تحسم سوء الظن بكلمة .

(المؤلف يلزم الصمت فى كبرياء)

المـخـرج : (للممثلة) لديك بلا شك ما تدافعين به عن نفسك .

المـمـثـلـة : إنى أرفض أن أقف موقف الاتهام .

المـمـثـل : لقد رأيناهما متلبسين!

المـخـرج : يجب أن تخجل من نفسك .

الـنـاقـد : حتى إن سوء الظن أمر مخجل .

المـخـرج : (للمؤلف) تكلم يا أستاذ (ثم للممثلة) تكلمى أنت ، علينا أن ننتهى من سوء التفاهم ونصفيه بسرعة لنستأنف مناقشة المشروع الجديد .

المـمـثـل : (للمخرج) يا للغرابة ، إنك تتكلم عن أعمق العلاقات البشرية كما لو كانت عبث أطفال . . .

المـخـرج : (للممثل) لقد وجدتنى ذات يوم فى مثل موقفك ، وكنت حيال خيانة حقيقية لا مجرد سوء تفاهم برىء ، وكان غريمى وقتذاك صديقنا الناقد ، كيف تصرفت؟ كظمت غضبى وواصلت تدريباتى للمسرحية الجديدة .

المـمـثـل : أنت جبان .

المـخـرج : أنت حيوان .

(الممثل يوجه لكمة لرأس المخرج. المخرج يترنح واضعا يده على موضع الضربة. يمضى إلى الكنبة ويرتمى عليها. يسند رأسه إلى مسندها ويمد ساقيه فى إعياء.

الممثلة تثور وتلطم الممثل على خده فيعميه الغضب ويوجه لطمة إلى رأسها فتقع إلى جانب المخرج. الناقد يسرع إلى إجلاسها، ويهجم على الممثل. يتبادلان الضرب حتى يسقطا متتابعين. يقومان مترنحين ويلوذ كل منهما بمقعد حول الكنبة.

الأربعة جالسون متقاربين وفى حالة إعياء شديد تقارب الإغماء. وطيلة الوقت لزم المؤلف موقفه وهو يراقب ما يحدث ببرود)

(صمت)

(يفتح الباب فيدخل السكرتير، يتجه نحو المؤلف دون أن ينتبه إلى الآخرين)

السكرتير : مندوب مجلة إيزيس.

(يدخل مندوب المجلة. السكرتير يغادر الحجرة.

المندوب يمضى إلى المؤلف فيصافحه. يتحول إلى الجالسين ولكنه يتوقف فى ذهول. يردد بصره بينهم وبين المؤلف. يتراجع إلى قريب من المؤلف)

المندوب : آسف على مجيئى دون موعد سابق.

المؤلف : إنها مفاجأة ولكنها سارة.

المندوب : **(مشيرا إلى الجالسين)** ماذا حصل لهم؟

المؤلف : فرغوا لتوهم من تدريبات الرواية الجديدة.

المندوب : حقا! . . مجرد تدريبات؟!

المؤلف : مجرد تدريبات.

المندوب : إنها رواية عنيفة فيما أرى؟

المؤلف : لا تخلو من عنف.

المندوب : إنى أرى آثار كدمات: وألمس إعياء واضحا على وجوههم، كأنما هى رواية من روايات رعاة البقر!

المؤلف : لا تخلو من حيوانات.

المندوب : حتى فنانتنا الكبيرة تطرح رأسها فى شبه إغماء، إنه لأمر غير معقول.

المؤلف : لا تخلو من جنون

المندوب : إن عرض مسرحية بذاك العنف شهورا متواصلة يجب أن يعد معجزة!

المؤلف : وهى لا تخلو من معجزات.

المندوب : **(مشيرا إلى الممثلة)** هل أصيبت وهى تدافع عن شرفها؟

المؤلف : أصيبت وهى تدافع عن شرف البطل.

المندوب : ولكن المعتاد أن البطل يزود عن شرف الآخرين بالإضافة إلى شرفه هو؟

المؤلف : هى لا تخلو من طرافة وجدة!

المندوب : لعل المسرحية تميل إلى التشاؤم؟

المؤلف : لا تخلو من تشاؤم.

المندوب : ولكن موقف البطلة يدعو للتفاؤل فيما أعتقد؟

المؤلف : لا يخلو من تفاؤل.

المندوب : كيف تجمع مسرحية بين التشاؤم والتفاؤل وهما نقيضان؟

المؤلف : لا تخلو من تناقض.

المندوب : معذرة يا عميد المؤلفين ألا يعتبر ذلك ضعفا؟

المؤلف : لا تخلو من ضعف.

المندوب : ولم لَم تبلغ بها الكمال المعهود منك؟

المؤلف : الكَمال للموت وحده.

(المندوب يضحك عاليا. ثم يعقب ذلك صمت)

المندوب : جميع المسارح تتساءل عن عرضكم القادم، وقد بلغت المنافسة بينها ذروة المرارة، المؤامرات تدبر فى الظلام، المرتزقة يستأجرون لإحداث الشغب، ألا يمكن أن يسود السلام بين المسارح؟

(صمت)

: كثيرون من العقلاء يعقدون عليك الآمال بوصفك عميد المؤلفين لتقوم بخطوة حاسمة فى هذا السبيل؟

المؤلف : لا وقت عندى إلا للعمل.

المندوب : هلا كرست لذلك يوم راحتك الأسبوعى؟

المؤلف : يوم الراحة للراحة.

المندوب : إنهم يحلمون بأن تجمع المسارح فى وحدة متعاونة يسودها السلام الذى يسود مسرحك!!

المؤلف : لن أجد فى سنى هذه من يمكنه التفاهم معى..

(المندوب يبتسم وهو يشد على ذراع المؤلف إعجابا وتقديرا)

المندوب : أعلم أنك لا تحب الحديث عن رواية جديدة قبل عرضها ولكن لدى بعض أسئلة تقليدية يتابعها الجمهور عادة بشغف.

(المؤلف يهز رأسه بالموافقة صامتا)

: كم من الوقت استغرقت فى كتابتها؟

المؤلف : **(حاسرا كم الجاكتة عن معصمه اليسرى)** أنا لا أستعمل الساعات.

المندوب : م استلهمت فكرتها العامة؟

المؤلف : شرعت فى كتابتها عقب تفكير طويل فى المغص.

المندوب : **(ضاحكا)** هل يمكن إرجاعها إلى تجربة شخصية مرت بك فى حياتك العامرة؟

المؤلف : ربما أمكن إرجاعها إلى علاقة قديمة قد قامت بينى وبين مطرب أخرس.

المنـدوب : مطرب أخرس؟

المـؤلـف : نعـم .

المنـدوب : وكيف أمكنك معرفة تطريبه؟

المـؤلـف : هذا ما ستجيب عنه المسرحية .

(المندوب يضحك عاليا. يصافح المؤلف. يذهب. المؤلف يلقى نظرة على الجالسين. يسوى ربطة عنقه ومنديل جيب الصدر تأهبا للذهاب.

الممثلة تنظر نحوه. تقاوم ضعفها فتعتدل فى جلستها)

الممـثلة : انتظـر .

(تدلك رأسها. تقوم بصعوبة. تمضى إلى أقرب المقعدين المتقابلين أمام المكتب لتعتمد عليه)

: متى نجتمع لنقرأ النص الجديد؟

(صمت)

: لا تهجرنا .

(صمت)

: لقد وعدت بألا تهجرنا .

(صمت)

: (مشيرة إلى الجالسين) ما وقع بيننا ليس الأول من نوعه ولن يكون الأخير .

(صمت)

: سوف تعود المياه إلى مجاريها .

(صمت)

: (مشيرة إلى الممثل) سيكون أول من يعتذر ، إنى خير من يعرفه .

(صمت)

(يتبادلان نظرة طويلة. هى متطلعة فى لهفة وهو لا ينم وجهه عن شىء. فيتصافحان ثم يمضى على مهل إلى الخارج ويرد الباب وراءه. الممثلة تتابعه بعينيها ثم تظل رانية إلى الباب)

المهمّـــــة

(بقعة صحـراوية خالية. تقوم فى وسطها هضـبة صخرية. أمام الهضبـة يتمشى شاب جيـئة وذهابا وهو ينظر فى ساعته من آن لآن. الـوقت أصيل. الشاب أنيق بدرجة ملحوظة. والجو يوحى بأنه ينتظر موعدا غراميا.

يترامى مـن الخارج وقع أقدام ثقـيلة. الشاب يرهف الـسمع فى قلق، وباقـتراب الأقدام يتجهم وجهه ويتوقف عن المشى فيلزم مكانه أمام الهضبة.

يدخل رجل فى الخمـسين، مهمـل الهندام، ولكنه قوى البنية يـلقى على الشاب نظرة عابرة ثم يمضى إلى يسار الهضبة فيقف متطلعا إلى الخلاء.

الشاب ينظر صوب الرجل مـقطبا ولكن الآخر يبدو وكأنه لا يشـعر له بوجود. يقترب منه خطوة).

الشـــــاب : (مخاطبا الرجل بصوت مرتفع لا يخلو من تحد وغضب)

: ماذا تريد؟

(يظل الرجل رانيا إلى الخلاء كأنما يسمع صوتا)

: (بصوت أشد ارتفاعا) إنى أسألك عما تريد.

(الرجل يبدو مستغرقا فى الأفق، ويترنم مغنيا)

والله زمان زمان والله..

: (بحدة حانقة) لمـاذا تتبعـنى؟

(الرجـل يواصـل ترنمه فى هيمان)

: إننى أخاطبـك وأنت تعـلم ذلك، لا أحد سوانا فى هذا الخلاء.

الـــرجـــل : (ملتفتا فى دهشة) حضرتك تخاطبنى؟

الشـــــاب : دون سـواك.

الـــرجـــل : معذرة، ماذا قلت؟

الشـــــاب : إنى أسألك عما تريد منى.

الـــرجـــل : (متظاهرا بالدهشة) أنا؟!

الشـــــاب : أنت، أنت دون سواك.

الـــرجـــل : عجيب سؤالك يا سيدى، أنا لا أريد منك أى شىء.

الشـــــاب : لم إذن تتبعنى بإصرار؟

الرجل : أتبعك، إنى أراك لأول مرة فى حياتى!
الشاب : **(بعناد)** إنك تتبعنى منذ الصباح الباكر، ولم تكف عن تتبعى حتى هذه اللحظة من الأصيل
الرجل : أنت مخطئ فى ظنك فأنا لم أرك وبالتالى لم أتبعك.
الشاب : لم أذهب إلى مكان إلا رأيتك قادما فى أثرى.
الرجل : لا يحق لى أن أكذبك ولكنى لم أرك ولم أتبعك.
الشاب : **(بنبرة لا تخلو من تهكم)** أهى مجرد مصادفة؟
الرجل : سمها كيفما شئت.

(صمت. يعود الرجل إلى النظر صوب الأفق أما الشاب فلا يبرح مكانه ولا يكف عن النظر إليه).

الشاب : هل تتفضل بإخبارى عن الجهة التى تنوى الذهاب إليها بعد هذه الوقفة؟
الرجل : **(ملتفتا نحوه فى دهشة)** بأى حق تسألنى هذا السؤال الغريب؟!
الشاب : معذرة، أود التخلص من فكرة اتباعك لى.
الرجل : أنا لا أعرفك، لم أتبعك، وفى هذا الكفاية.
الشاب : ألم توجد فى ميدان القلعة صباحا؟
الرجل : بلى.
الشاب : ألم تتناول فطورك فى مطعم.. فلافل.. بشارع محمد على؟
الرجل : بلى.
الشاب : ألم تذهب بعد ذلك إلى مقهى الشمس؟
الرجل : بلى.
الشاب : ألم تقم بزيارة قصيرة لدار الآثار؟
الرجل : بلى.
الشاب : ألم تشهد مزادا بصالة المعروضات بالدقى؟
الرجل : بلى.
الشاب : ألم تذهب بعد ذلك إلى عيادة الدكتور عرنوسى طبيب الأسنان؟
الرجل : بلى.
الشاب : ألم...
الرجل : **(مقاطعا)** أكنت تتبعنى يا سيدى؟
الشاب : **(ضاحكا ضحكة جافة)** أنا؟!
الرجل : أليس من الغريب أن تعرف تحركاتى طيلة اليوم بهذه الدقة؟!

الشـــاب : ولكنك كنت، لا مؤاخذة، كأنك كنت تتبعنى !

الـرجـل : لقد شغلت نفسك بى أكثر مما يتصور.

الشـــاب : فى كل مكان رأيتك قادما فى أثرى، حتى فى هذه المنطقة النائية الخالية!

الـرجـل : عجيب أننى لم أرك ولا مرة واحدة.

الشـــاب : الحق أن عينينا التقتا أكثر من مرة.

الـرجـل : لا يرى الإنسان جميع ما تقع عليه عيناه من أشياء.

الشـــاب : إذن فأنت لا تتبعنى؟

الـرجـل : ولم أتبعك؟

الشـــاب : لعلك تعذرنى.

الـرجـل : لـك العـذر.

الشـــاب : مصادفة عجيبة.

الـرجـل : هى بالقياس إلى لا شىء.

(الشاب يضحك ضحكة عصبية ثم يسود الصمت. وعندما يهم الشاب بالابتعاد يتكلم الرجل)

: آسف جدا لأنى أزعجتك بغير قصد.

الشـــاب : أن تصدق أن شخصا ما يتبعك أمر مزعج حقا.

الـرجـل : ليس فى جميع الأحوال.

الشـــاب : أعنى إذا كنت تجهله وتجهل مقصده بالتالى.

الـرجـل : ولكنك شاب مهذب برىء الساحة.

الشـــاب : لا يكفى هـذا لإسكات وساوسك ما دمت تجهله وتجهل مقصده.

الـرجـل : (باسما) أيهما أبعث على الخوف.. المجهول أم المعروف؟

الشـــاب : الأمر يتوقف على السبب وعلاقته بنا.

الـرجـل : الحق أننا نخاف أكثر مما ينبغى.

(الشاب يصمت متجهما)

: أكـرر الأسـف.

الشـــاب : (بعصبية) الحق أنك أفسدت علىَّ يومى كله.

الـرجـل : عجيب أن نرتكب جريمة ونحن لا ندرى.

الشـــاب : وجئت إلى هذه البقعة الخالية النائية لأكتشفك وأحرجك!

الـرجـل : لعل مجيئى يقطع ببراءتى.

الشـــاب : ترى ما الذى دعاك إلى المجىء إلى هنا؟

الرجل : إنها أحد الأماكن المختارة التى أشهد فيها الغروب .

الشاب : أتحب الغروب؟

الرجل : إنه أحب ساعات اليوم إلى نفسى .

الشاب : ألم يزعجك أن تجدنى هنا؟

الرجل : أنا أحب الناس .

الشاب : **(بعد تردد واضح)** هلا أخبرتنى عن خطواتك التالية؟

الرجل : أما زلت على ريب منى؟

الشاب : كلا ، ولكنى أود أن أمتحن دهاء المصادفة .

الرجل : الواقع أنى سرت طيلة اليوم على غير هدى وبلا خطة موضوعة ، إنه يوم عطلتى .

الشاب : لابد من فكرة تقودك فى يوم عطلتك .

الرجل : من طول خضوعى للتخطيط على مدى الأسبوع فإنى أتحرر يوم العطلة من أى قيد .

الشاب : أما أنا فسأبقى هنا بعض الوقت ثم أذهب إلى حانة «الأحمر والأبيض» .

الرجل : **(بحماس مفاجئ)** حانة النبيذ الفاخر والسلطة الخضراء! . . ما أجملها!

الشاب : هل تقرر الذهاب إليها؟

الرجل : أعترف بأنك ذكرتنى بمكان أحب الجلوس فيه!

الشاب : وبعد ذلك سأمضى إلى بيتى!

الرجل : من يدرى ، ربما توثقت العلاقة بيننا فى «الأحمر والأبيض» فنمضى إلى البيت معا .

(يضحكان معا، ثم يسود الصمت. يلتفت الشاب إلى الناحية الأخرى فيعود الرجل إلى التطلع صوب الأفق. الشاب يتمشى غير خال من القلق. يختلس إلى ظهر الرجل النظرات، ينظر فى ساعته، يتضاعف قلقه. تدخل فتاة جميلة متأنقة. ما إن ترى الشاب حتى تهرع نحوه متهللة ولكنها تنتبه إلى وجود رجل غريب فتتمالك مشاعرها وتلوح فى وجهها خيبة. الشاب يمضى بها إلى يمين الهضبة. يتبادلان قبلة)

الشاب : لسنا وحدنا .

الفتاة : ماذا يفعل؟

الشاب : ينتظر الغروب!

الفتاة : الغروب؟!

الشـــــاب : (متهكما) أحب ساعات اليوم إليه .

الفـــتـــاة : هل تعرفه؟

الشـــــاب : كـــلا .

الفـــتـــاة : هل حادثته؟

الشـــــاب : نعـــم .

الفـــتـــاة : لـــمَ؟

الشـــــاب : الَواقع أنه لم يفارقنى منذ الصباح الباكر .

الفـــتـــاة : (بدهشة) كيف؟

الشـــــاب : ظننته يتبعنى .

الفـــتـــاة : ما دام لم يفارقك طوال اليوم .

الشـــــاب : ولكنه أكد لى أنه لم يرنى .

الفـــتـــاة : وهل صدقته؟

الشـــــاب : لـــم أكـــذبه .

الفـــتـــاة : ألا ترى أنه يحسن بنا أن نذهب؟

الشـــــاب : إنى ضنين باللقاء .

الفـــتـــاة : ولكن قلبى غير مطمئن .

الشـــــاب : لعله ينتظر صديقة .

الفـــتـــاة : ليتها تجىء لتحل المشكلة من أساسها .

(يتبادلان قبلة طويلة)

: **(مشيرة إلى الناحية الأخرى من الهضبة)** لم يفارقك طوال اليوم؟

الشـــــاب : بـــلى .

الفـــتـــاة : لنـــذهب .

الشـــــاب : لماذا يتبعنى؟

الفـــتـــاة : (بقلق واضح) ترى هل يتعلق الأمر بى؟

الشـــــاب : هل سبق لك أن رأيته .

الفـــتـــاة : لا لم ألمح إلا ظهـره، وبسرعة عابرة، لم يذكرنى بأحد أعرفه .

الشـــــاب : لا داعى لكثرة الظنون .

الفـــتـــاة : أرى أنه يحسن بنا أن نذهب .

الشـــــاب : لننتظر فإنى ضنين باللقاء .

الفـــتـــاة : أعترف بأننى بت أكرهه بقدر ما أخافه .

الشـــاب : كيف تخافينه وأنت لم ترى إلا ظهره!
الفـتــاة : إنه ذو قصة مريبة تدعو للانزعاج.
الشـــاب : بوسعنا أن ننساه تماما ونعبث بنواياه.
الفـتــاة : نوايـــاه؟!
الشـــاب : أعنى إن كان ثمة نوايا يضمرها حقا.
الفـتــاة : ولكن كيف؟
الشـــاب : **(وهو يجذبها نحو صدره)** هكذا.

(يتعانقان وهما يتبادلان قبلة طويلة. يواصلان العناق والقبل كأنما قد نسيا الآخر تماما. فى أثناء ذلك يجلس الآخر على الأرض كأنما أتعبته الوقفة، يمد ساقيه ويسند رأسه إلى حافة الهضبة. صوت غراب ينعق. الشاب والفتاة يفيقان من سكرة الحب. يتبادلان النظر فى دهشة)

الفـتــاة : كم مضى من الوقت؟
الشـــاب : لا أدرى، ولن أنظر فى الساعة فما أحب أن أكدر صفونا بالزمن.
الفـتــاة : **(مشيرة إلى الناحية الأخرى)** ترى هل ذهب؟
الشـــاب : سيان عندى أن يذهب أو أن يبقى.
: لا يند عنه صوت.
: لعله مات.

(صمت يتخلله تبادل قبل)

: من الحماقة أن أخافه.
الفـتــاة : ولكنك تجهله.
الشـــاب : هو على أى حال كهل وبوسعى أن أصرعه بلكمة واحدة.
الفـتــاة : ولكنى وجدتك قلقا لدى حضورى.
الشـــاب : لم أكن أفقت من فكرة مطاردته لى.
الفـتــاة : لعـــله..

(وقبل أن تتم كلامها يترامى إليهما شخير منتظم من ناحية الرجل. يتبادلان نظرة ذاهلة)

: نـــام؟
الشـــاب : لعله شخير رجل آخر.

(الشاب يمضى فى حذر شديد نحو الرجل. تتبعه الفتاة. يلقيان عليه نظرة داهشة. الرجل يستيقظ لدى وقوع نظرتهما عليه كأنما رمى بطوبة. ينهض بسرعة ويحدق فيهما بانزعاج وتحد معا)

الـــرجـــل : (متجهما) من أنتما؟ . . ماذا تبغيان؟

الشـــــاب : لا مؤاخذة لم نقصد إزعاجك.

الـــرجـــل : (مستعيدا تذكره وهدوءه) آه . . أنت . .

(صمت وارتباك والرجل يردد بصره بينهما)

: (باسما) وقعت أحداث جديدة فى أثناء غفوتى!

الشـــــاب : أى أحـــداث؟

الـــرجـــل : (ناظرا إلى الفتاة) كنت وحدك فيما أذكر!

الشـــــاب : ثم لحقت بى خطيبتى!

الـــرجـــل : (مبديا دهشة سمجة) خطيبتك!

الشـــــاب : (بحدة) نعم خطيبتى!

الـــرجـــل : (بقحة) وكيف تجىء بخطيبتك إلى هذه البقعة النائية المهجورة؟

الشـــــاب : (غاضبا) بأى حق تحاسبنى على ما أفعل؟

الـــرجـــل : (متراجعا) معذرة. لم أسترد تفكيرى السليم بعد . . **(يهمّ الفتى والفتاة بالذهاب ولكن الرجل يسارع باعتراض سبيلهما)**

الـــرجـــل : متى نذهب إلى حانة «الأحمر والأبيض»؟

الشـــــاب : نذهـــب؟

الـــرجـــل : ألم نتفق على ذلك؟

الشـــــاب : كلا . . قلت لك إنى ذاهب لا إننا ذاهبان، وقد عدلت عن قرارى.

الـــرجـــل : يا للخســـارة!

الشـــــاب : اذهب أنت إذا شئت . . .

الـــرجـــل : لعلك ضحكت علىّ حين كنت تنتظر خطيبتك؟

الشـــــاب : لا داعى للأخذ والرد.

الـــرجـــل : إذن فلم تقصد هذا المكان لتحرجنى كما قلت؟

الشـــــاب : لننه حديثا لا جدوى منه.

الـــرجـــل : ولكننا وصلنا فى الحديث إلى حافة الصداقة.

الشـــــاب : لندع ذلك إلى فرصة أخرى.

الـــرجـــل : (راجعا إلى مكانه الأول) أتمنى لكما وقتا طيبا.

(الرجل يعود إلى موقفه الأول ليرنو من جديد إلى الأفق. يعود الشاب بالفتاة إلى موقفهما إلى يمين الهضبة).

الشـــــاب : ها قد عدنا إلى الجنة.

الفتاة : ليتنا لم نغادرها.

الشاب : لعنة الله على الفضول.

الفتاة : دعني أذهب . .

(يضمها إلى صدره ويقبلها فتستسلم دون استجابة)

الشاب : ابتسمي.

الفتاة : يا له من رجل كريه!

الشاب : لنلق به في النسيان.

(يتعانقان حتى يغيبا عن الوجود. في أثناء ذلك يتسلل الرجل من موقفه حتى يقف قبالتهما ويبدو سعيدا بمشاهدتهما. ينتبهان إليه. ينفصلان في ارتباك وانزعاج. الشاب يرميه بنظرة غاضبة)

الرجل : ما أجمل هذا!

الشاب : وقاحة.

الرجل : استمرا في لعبكما الظريف.

الشاب : **(محتدا)** ماذا جاء بك؟

الرجل : بالله لا تغضب.

الشاب : وقح.

الرجل : إنك لا تقدر وقع كلمة قاسية على رجل يحب الناس.

الشاب : ماذا جاء بك؟

الرجل : أحب أن أرى الأشياء الظريفة.

الشاب : احذر أن تدفع ثمن قحتك.

الرجل : لقد تسللتما لتلقيا علىّ نظرة وأنا نائم وها أنا أرد التحية.

الفتاة : **(وهي تهم بالذهاب فيمسك الشاب بها)** إني ذاهبة.

الرجل : **(للفتاة)** لا تذهبي، لم أقصد إزعاجك.

الشاب : هذا سلوك غير لائق.

الرجل : بل هو طبيعي وجميل.

الشاب : اذهب.

الرجل : ألا ترى أني أعرض مودتي بغير حساب؟

الشاب : اذهب وإلا . .

الرجل : يجدر بك ألا تهددني.

الشاب : سأفعل أكثر من التهديد.

الرجل : كلا، لا تدفعنا إلى عواقب غير محمودة.
الشاب : لك.
الرجل : ولك أيضا.
الشاب : لا تحملنى على تأديبك وأنت فى سن أب.
الرجل : لا تغتر بفوارق السن.
الفتاة : دعنى أذهب.
الرجل : (للفتاة) محال أن تكدرى صفوك بسببى.
الفتاة : إذن فابتعد عنا.
الرجل : إنها فرصة نادرة لمشاهدة الحب.
الشاب : أأنت مجنون؟
الرجل : أنا رجل يحب مشاهدة الطرائف، جرب ذلك بنفسك إذا شئت.
الشاب : ماذا تعنى؟
الرجل : (حانيا رأسه بأدب) دعنى أحل محلك وتفضل بمشاهدتنا أنت لتحكم بنفسك.

(الفتاة تلطمه. الرجل يتلقى اللطمة باسما)

(صمت)

الفتاة : (هامسة للشاب) دعنى أذهب.
الشاب : (بعناد وكبرياء) كلا.
الفتاة : بل يجب أن أذهب فى الحال.
الشاب : (بإصرار) لن تذهبى.

(الرجل يبتعد خطوات، يتحسس خده مكان اللطمة وهو ما يزال يبتسم)

الرجل : (مخاطبا الخلاء) بنوايا طيبة أسير، ولكنى أتلقى اللطمات، وكلمات أقسى من اللطمات، لماذا؟ لماذا يصر الناس على الوهم والحماقة؟ لم لا يقفون على أرض الواقع؟ كيف لا يفرقون بين العدو والصديق؟
الفتاة : (للشاب) لا تكن عنيدا.
الشاب : لن تذهبى.
الفتاة : لا فائدة.
الشاب : ولكنك لن تذهبى.
الرجل : (مستمرا فى مخاطبة الخلاء) المتعلم والأمى فى الجهالة سواء، لمَ يسيئون الظن بى؟ ماذا عليهم لو استمروا فى لهوهم أمام وجودى البرىء؟ أحب مشاهدة الأفراح، ولا عدو لى إلا الحماقة والأنانية.

الفتـــاة : (للشاب) إنه مجنون.

الشـــاب : ليكـــن.

الفتـــاة : إنى خائفة.

الشـــاب : لست عاجزا عن حمايتك.

الـــرجـــل : (مخاطبا الخلاء أيضا) يخلقون المتاعب من لا شىء ثم يلقون بها فى وجهى، أهيم على وجهى باحثا عن أشياء ثمينة فلا ألقى إلا الصد، الخلاء يشهد بأننى ذو شأن ولكن اللعنة على الحماقة.

الفتـــاة : إنه مجنون، لن أبقى دقيقة أخرى.

(الفتاة تمضى نحو الخارج. الشاب يلحق بها فيمسك بيدها)

: لابـد من ذهـابى.

الشـــاب : ولكـــن...

الفتـــاة : لا تُكرهنى على البقاء.

الشـــاب : إذن فلأوصلك.

الفتـــاة : **(مانعة إياه بيدها)** ابق هنا حتى لا يتبعنا.

(يتصافحان. تغادر المكان. الشاب يتبعها بعينيه. الرجل يقترب منه ولكنه يتجاهله)

الـــرجـــل : أقدم لك اعتذارى بقلب ملؤه الأسف.

(الشاب يصر على تجاهله)

: أى نحس يفسد علىّ مطالبى البريئة؟!

(الشاب يتمشى والرجل يتبعه كظله)

: أكرر الأسف من كل قلبى.

الشـــاب : **(متوقفا عن المشى فى مواجهته)** ألا تخجل من نفسك؟

الـــرجـــل : انظر إلى جزاء من يسعى إلى حب الناس!

الشـــاب : أتسـخر منى؟

الـــرجـــل : صدقنى فيما أقول، بيد أنى رجل سيئ الحظ.

الشـــاب : لقد ضيعت علىّ ثمرة يومى المرهق الطويل بلا حياء.

الـــرجـــل : أنـــا؟

الشـــاب : دون غيرك.

الـــرجـــل : كلما سعيت إلى إنسان بقلب مفتوح رُميت بهذه التهمـــة.

الشـــاب : يخيل إلىّ أنك ذو تاريخ قديم فى النحس.

الـــرجـــل : لا ذنب لى على الإطلاق.

(الشاب يغادره إلى يسار الهضبة فيتبعه على الأثر)

: أود أن تؤمن ببراءتى.

الشـــــاب : أمن الضرورى أن تلاحقنى لتحدثنى عن نحسك؟

الـــرجـــل : فرصة طيبة للحديث والتعارف.

(الشاب يقطب ثم يسود صمت)

: افتح لى صدرك.

الشـــــاب : أكنت تتبعنى منذ الصباح كما ظننت؟

الـــرجـــل : (باسما) بصراحة نعم.

الشـــــاب : إذن كذبت علىّ؟

الـــرجـــل : بسبب نحسى المزمن أصبح الكذب وسيلتى المفضلة للدفاع عن النفس.

الشـــــاب : أكنت تعرفنى؟

الـــرجـــل : كـــلا.

الشـــــاب : لم تبعتنى؟

الـــرجـــل : إنى أهيم على وجهى من مطلع الصبح فأتبع أول من يصادفنى.

الشـــــاب : أيـا كـان؟

الـــرجـــل : أيـا كـان.

الشـــــاب : كـل يـوم؟

الـــرجـــل : كـل يـوم.

الشـــــاب : أليس لك عمل فى الحياة؟

الـــرجـــل : ليس لى عمل.

الشـــــاب : ثـــرىّ؟

الـــرجـــل : موفور الإيراد.

الشـــــاب : ما قصدك من مطاردتى؟

الـــرجـــل : أتصيد لحظة للتعارف.

الشـــــاب : أليس لك أصدقاء؟

(صمت)

الـــرجـــل : وآمل من وراء التعارف أن أحطم أسطورة النحس!

الشـــــاب : (**ضاحكا ضحكة مكفهرة**) الآن وقفت على سر الحظ العاثر الذى لازمنى طيلة يومى.

الرجل : لا تكن كالآخرين .
الشاب : فى ميدان القلعة زلّت قدمى فوقعت على ركبتى .
الرجل : (باسما) كنت تنظر إلى امرأة فى نافذة!
الشاب : وفى المطعم شرقت حتى قذفت بما فى معدتى .
الرجل : كنت تأكل بسرعة كأنك فى سباق!
الشاب : وفى مقهى الشمس خسرت نقودى .
الرجل : كنت تبلف باستمرار حتى كشف ورقك .
الشاب : وفى دار الآثار وقعت على ركبتى المصابة للمرة الثانية .
الرجل : كنت شارد اللب وتحادث نفسك .
الشاب : وأخيرا أفسدت علىّ أجمل ثمرة فى يومى .
الرجل : ألم توقظنى من النوم بنفسك؟

(الشاب يعاود ضحكته المكفهرة ثم يسود الصمت)

الشاب : أليس لك أصدقاء؟
الرجل : **(متنهدا)** كلا .
الشاب : ألست رب أسرة؟
الرجل : جربت حظى مرات ولكنى لم أوفق!
الشاب : **(يضحك رغما عنه)** لا مؤاخذة .
الرجل : العفو .
الشاب : أظن آن لى أن أذهب
الرجل : **(يتوسل)** كلا .
الشاب : ليس ثمة ما يدعونى إلى البقاء .
الرجل : فلنشهد الغروب معا .
الشاب : لا أحب الغروب .
الرجل : ثم نذهب إلى حانة «الأحمر والأبيض» .
الشاب : لن أذهب .
الرجل : إذا كنت مفلسا فلا يهمك .
الشاب : لن أذهب .
الرجل : تكره مرافقتى؟
الشاب : نعم .
الرجل : لا تجعل للخرافة سيطرة عليك .

الشـــاب : (محتدا) إنك وراء ما فقدت من صحة ومال وحب!
الـــرجـــل : أقلع عن الخرافات.
الشـــاب : أقلع أنت عن نحسك.
الـــرجـــل : أتوسل إليك أن تبقى ولو حتى ساعة الغروب فحسب.
الشـــاب : وداعـــا.

(الشاب يمضى صوب الخارج بعزم وصرامة. الآخر ينظر إليه بأسف. عند منتصف المسافة يتوقف الشاب فجأة ويعلو صوته بالتأوه ثم ينحنى قابضا بيديه على ركبته. الرجل يلحق به متسائلا)

الـــرجـــل : مـــالك؟
الشـــاب : ركـــبتى!
الـــرجـــل : مد ساقك، دلكها.
الشـــاب : نار.. نار موقدة..

(يثب راجعا على قدمه الأخرى حتى يجلس فى أسفل الهضبة. يمد ساقه السليمة ويثنى الأخرى ثم يتأوه من الأعماق)

الـــرجـــل : ماذا حدث؟.. كنت فى غاية الصحة.
الشـــاب : الحق أنها لم تعد إلى حالتها الطبيعية أبدا...
الـــرجـــل : لكنك لم تشكُ طيلة الوقت.
الشـــاب : كان يعاودنى ألم خفيف فظننته عابراً.
الـــرجـــل : حالة طارئة لا تلبث أن تزول.
الشـــاب : لعـــل وعسى.
الـــرجـــل : من المفيد أن تدلكها.
الشـــاب : لا أستطيع لمسها.
الـــرجـــل : حال بسيطة فيما أعتقد.
الشـــاب : (متأوها) قلبى يحدثنى بأن الأمر أخطر مما تتصور.
الـــرجـــل : لا تعتمد كثيرا على حديث قلبك.
الشـــاب : صدقنى فإن الحال خطيرة حقا.
الـــرجـــل : أرجو أن تكون واهما...
الشـــاب : أريد إسعافا عاجلا...
الـــرجـــل : سأذهب لاستدعاء الإسعاف.
الشـــاب : وتعود بسرعة من فضلك!

الرجل : لا أظن فإن أقرب تليفون يقع على مسيرة غير قصيرة.
الشاب : (بقلق) لا تتركنى وحدى طويلا.
الرجل : ماذا تخاف؟
الشاب : المساء قريب، وهذه بقعة غير مأمونة لإنسان عاجز.
الرجل : وما الحل؟
الشاب : هل يمكن أن أسير معتمدا عليك؟
الرجل : سأضطر إلى حملك وهو ما أعجز عنه، جرب أن تسير على مهل.
الشاب : الحال أخطر مما تتصور.
الرجل : لابد من حل وبخاصة أننى لن أبقى بعد الغروب!
الشاب : ولكنك لن تتركنى وحدى!
الرجل : أخشى أن أضطر إلى ذلك إذا لم تسعفنى بحل.

(صمت وتأوه)

الشاب : ولكنك لن تفعل ذلك.
الرجل : لا يمكن أن أبقى هنا إلى ما شاء الله ولكنى سأتلفن للإسعاف فى طريق العودة.

(الشاب يرمقه بنظرة صامتة متألمة)

: سأفعل من أجلك ما لا تنتظره من رجل لا تعرفه ولا يعرفك.
الشاب : **(بحياء)** حدثتنى عن رغبتك فى الصداقة وأمامك فرصة لربطنا برباط المودة إلى الأبد.
الرجل : **(بشيء من الجفاء)** ولكنك رفضت يدى!
الشاب : اغفر لى غضبى الأحمق!
الرجل : الحق أنك كرهتنى طوال الوقت.
الشاب : الإنسان عدو ما يجهله ولكنى سأعرفك من خلال سلوكك النبيل.
الرجل : **(بنبرة لم يعد بها أثر من الرقة القديمة)** لا أقبل اصطياد صداقة تحت وطأة ظروف قاهرة.
الشاب : **(بضراعة)** ولكنك إنسان كبير القلب.
الرجل : أول كلمة طيبة أسمعها منك.

(صمت)

الشاب : ماذا تنوى أن تفعل؟
الرجل : سأشاهد المغيب ثم أذهب.

الشـــاب : وتتركنى عاجزا للخلاء والليل؟
الــرجــل : لا حيلة لى فى ذلك .
الشـــاب : سيكون سلوكك غير إنسانى .
الــرجــل : لم ألق من السير وراء الناس إلا الصد والاتهام واللعنة!

(الشاب يتأوه)

: أأنا الذى خلقت النحس حقا؟

(الشاب يتأوه)

: كـيف تعـاملون التـربى؟ . . . إنه يوارى جثثكم فى التـراب، يصـون كرامتكم، يعرض نفسه لألوان شتى من المخاطر، ويستحق فى أحاديثكم التقليدية الجنة بغير حساب، ولكنه لا يسعد فى حياته بصديق واحد، ويمضى وحيدا كالوباء . . .

الشـــاب : الوقت يمر والحال تزداد سوءا .
الــرجــل : كم صددتنى، كم أهنتنى، ولم تصدق أننى إنسان إلا بعد إصابتك وقبيل الغروب .
الشـــاب : يا لسوء حظى!
الــرجــل : ها أنت تعود إلى اتهامى .
الشـــاب : لم أقصد هذا ألبتة .
الــرجــل : ألست النحس الذى سلبك المال والحب والصحة؟
الشـــاب : ســـيدى!
الــرجــل : أين فتـــاتك؟
الشـــاب : لا سبيل إليها الآن .
الــرجــل : أليست هى أولى بتمريضك منى؟
الشـــاب : إنها لا تعلم بما حل بى .
الــرجــل : زهدت لوجودى فى وصالك نفسه .
الشـــاب : (متأوها) أريد إسعافا .
الــرجــل : سأتلفن للإسعاف فى طريق العودة .
الشـــاب : لا تتـــركنى .
الــرجــل : (متأففا) إنك مزعج فى مرضك كما كنت مزعجا فى صحتك .
الشـــاب : ألا ترى كم أنهكنى المرض؟
الــرجــل : ألا ترى كم أنهكنى السير؟

(صمت)

الشـــاب : أليس لك خبرة بالإسعافات الأولية؟

الـرجــل : لا خبرة لى بشىء .

الشـــاب : ولكنك فى سن الحكمة والخبرة .

الـرجــل : أعرف كيف أسير على غير هدى ، وأعرف كيف أسير فى أعقاب إنسان أحمق ، وأعرف كيف آمل دواما فى علاقة لا تتحقق أبدا .

الشـــاب : (بضراعة متأوهة) لا تذهب .

الـرجــل : سأذهب عندما يجب الذهاب .

الشـــاب : لا تذهـــب .

الـرجــل : اعتدت أن يقال لى اذهب عندما أرغب فى البقاء وأن يقال لى لا تذهب عندما يجب الذهاب .

(الشاب بتأوه. جو المغيب يهبط فيغطى الخلاء. الرجل يمضى إلى يسار الهضبة ليتطلع إلى الشمس الغاربة)

الشـــاب : لا تبتعد عن إنسان يتألم لتشاهد شمسا تغرب .

الـرجــل : صه ، لا تكدر صفو الساعة ، الساعة الفريدة ، الوحيدة التى تلمس فيها حركة الشمس ، الوحيدة التى تنظر فيها إلى الشمس دون أن تُصاب بالعمى ، الوحيدة التى يُرى فيها الظلام وهو يزحف ، الوحيدة التى أسمع فيها التوسلات بدلا من اللعنات ، ها هى الشمس تختفى تماما . . .

(الرجل يتحول عن موقفه متجها نحو الشاب ويرنو إليه دقيقة).

الـرجــل : الـــوداع .

(ثم يسير على مهل نحو الخارج)

الشـــاب : لا تذهـــب .

(يواصل السير غير ملتفت إليه)

: أستحلفك بالله .

(يواصل سيره)

: انتظر . . انتظر . . .

(الرجل يختفى)

: عليك اللعنة .

(الشاب ينظر فيما حوله بخوف. الظلام يهبط رويدا رويدا حتى يختفى كل شىء... تمر فترة قصيرة على تلك الحال، ثم تترامى أضواء من وراء الهضبة. ويسمع وقع أقدام قادمة. من يمين الهضبة ومن يسارها يجىء رجلان حاملين

مشعلين، يرتدى كل منهما سروالا وصدارا أحمرين. يقفان على مبعدة من الشاب إلى اليمين وإلى اليسار ويلازمان الصمت طوال الوقت. يبدو الشاب على ضوء المشعلين مستغرقا فى النوم. ثم يتبعهما رجلان فى أردية سوداء يحمل كل منهما سوطا وحبلا معقودا. يقفان عن يمين الشاب ويساره وهما يحملقان فى وجهه. يوثقان يديه وقدميه بإحكام ثم يعودان إلى وقفتهما ممعنين فيه النظر. الشاب يفتح عينيه. ينظر إلى الأمام فى ذهول. يهم بالحركة فيدرك أنه مكبل بالحبال. ثم ينتبه إلى وجود الرجال الأربعة. يردد عينيه بينهم فى دهشة ووجل)

الشاب : من أنتم؟ . . وماذا تريدون؟

الرجل ١ : **(للرجل رقم ٢ فى تهكم)** إنه لا يعرفنا!

الرجل ٢ : **(فى تهكم أيضا)** طبعا . . إنه يرانا لأول مرة.

الرجل ١ : **(للشاب)** أليس كذلك أيها المخادع المارق!

الرجل ٢ : أنت لا تعرفنا، هه؟

الشاب : آسف، لم أكن أفقت من النوم بعد.

(يركلانه بقدميهما فيصرخ)

: الرحمة . . .

الرجل ١ : **(ضاحكا)** ابن الأبالسة يطلب الرحمة!

الشاب : لا تحكموا علىّ بالظواهر، أنا برىء . . .

الرجل ٢ : نفس الكلمات، لا جديد، نفس الأكاذيب العفنة!

الشاب : كنت دائما حسن النية ولكن الزمن عنيد.

الرجل ١ : الزمن، الزمن، ذلك المتهم الوهمى.

الشاب : الرحمة.

الرجل ٢ : الرحمة؟!

الشاب : العدل.

الرجل ١ : لا يدرى ماذا يطلب.

الشاب : الرحمة والعدل.

الرجل ٢ : قلت الرحمة ثم العدل فماذا تطلب الرحمة أم العدل؟

الشاب : الرحمة والعدل.

الرجل ١ : لا تكن طماعا.

الرجل ٢ : نحن لا نعطى عادة إلا الموت.

الرجل ١ : والرحمة والعدل لا يجتمعان.

الشاب : ولمَ لا يجتمعان؟

(يركلانه مرة ثانية فيصرخ)

الرجل ١ : هذا التأديب عدل لأنك تستحقه فكيف يمكن أن تعامل بالرحمة فى الوقت نفسه؟!

الرجل ٢ : حدد أفكارك عما تريد، العدل أم الرحمة؟

الرجل ١ : (بحدة) العدل أم الرحمة؟

الشاب : الرحمة، لعلّ الرحمة هى ما أريد...

الرجل ١ : ألست على يقين مما تريد؟

الشاب : لست على يقين من شىء، لقد أنهكنى التعب.

الرجل ٢ : ألم تبدد الوقت بغير حساب؟

الشاب : يلزمنى شىء من الراحة لأحسن الإجابة، فكوا قيودى لأحظى ببعض الحرية.

الرجل ١ : (ضاحكا) ها هو ينادى بالحرية كمطلب جديد!

الرجل ٢ : الحرية بعد العدل والرحمة!

الشاب : أليست جميعها أخوات لا يفترقن؟

الرجل ١ : ابن الأبالسة عقد بينها أواصر القربى ليطالب بالدنيا والآخرة!

الرجل ٢ : استمر فى الطلب إلى غير نهاية، وبلا حياء، ماذا تريد أيضا؟.. ثروة؟.. صحة؟.. جاه؟.. ما رأيك فى الحب؟.. الذرية؟.. طاقية الاختفاء؟ جناحين للطيران؟ هرمونات لتجديد الشباب؟ مهضمات وملينات ومسهلات؟ فاتحات شهية؟ جواز سفر إلى جميع البلدان؟ ماذا تريد أيضا؟

الشاب : بعض الرفق، نحن إخوة!

الرجل ١ : إخوة!، من ناحية الأب أم من ناحية الأم؟

الشاب : أعنى أننا جميعا بشر.

الرجل ١ : تريد أن تستغلنا باسم البشرية، هه؟ ولأنك تتكون من نفس العناصر التى يتكون منها الكون فسوف تحاول استغفال الكون كله، ماذا تريد أيضا؟

الشاب : إنى متألم فكوا قيودى.

الرجل ٢ : تريد الحرية؟

الرجل ١ : إن كنت تريد الحرية فاختر بنفسك الوسيلة التى نقتلك بها.

الشـــاب : لا تسخروا منى، لا تعارض يا سادة بين الحرية والعدل والرحمة!

الرجـل ١ : كذبت، كل واحدة منها تُستورد من بلد غير البلد التى تُستورد منه الأخرى.

الرجـل ٢ : ويؤدى ثمنها الباهظ بالعملة الصعبة.

الشـــاب : إنى متألم لحد العجز.

الرجـل ١ : الحرية أم العدل أم الرحمة؟

الرجـل ٢ : نريد جوابا صريحا غير متردد.

الرجـل ١ : جواب صريح لا رجعة فيه.

الرجـل ٢ : إن أردت الرحمة قتلناك بلا تحقيق، وإن أردت العدل قتلناك بعد تحقيق، وإن أردت الحرية فاقتل نفسك بالوسيلة التى تفضلها!

الرجـل ١ : ماذا تريد؟.. تكلم بوضوح وصراحة، العدل أم هرمونات تجديد الشباب؟ الرحمة أم جواز سفر إلى جميع البلدان؟ الحرية أم أملاح الفواكه الفوارة؟ ما طريقة القتل المفضلة لديك؟ ألك وصية بما يتعلق بجثتك؟.. أترغب فى دفنها؟.. فى حرقها؟.. فى تركها فى الخلاء؟.. فى شحنها إلى بلد معين؟

الرجـل ٢ : ماذا تريدنا على أن نفعل بالذرات التى يتكون منها جسدك؟.. أن نتركها للديدان؟.. أن نهبها للجمعية الطبية؟.. أن نصنع منها قنابل مدمرة؟

الشـــاب : لا سبيل إلى التفاهم فيما بيننا.

(يركلانه فيصرخ)

الرجـل ١ : لقد بددت وقتنا سدى، ألهذا أرسلناك؟

الشـــاب : أرسلتمونى؟!.. متى كان ذلك؟.. لم يرسلنى أحد!

الرجـل ٢ : يا لك من كذاب مخادع!

(يركلانه فيصرخ)

الرجـل ١ : أحقا لم يرسلك أحد؟

الشـــاب : معذرة، ضعفت ذاكرتى من المرض والإنهاك، معذرة.

الرجـل ٢ : أم تريد أن تتنصل من المهمة التى كُلّفت بها؟

الشـــاب : المهمـــة؟!

الرجـل ٢ : المهمة التى كُلّفت بها!

الشـــاب : أى مهمـــة؟

الرجـل ٢ : يا لك من كذاب مخادع!

(يضربه بالسوط.. الشاب يصرخ)

الرجل ١ : وإلا فلماذا أرسلناك؟

الشاب : أنتم صادقون وأنا معذور، الزحام هناك شديد، والأصوات مزعجة، وعملى اليومى استغرق جلّ وقتى.

الرجل ١ : وما عملك اليومى؟

الشاب : مدرس تاريخ.

الرجل ٢ : حدثنا عن دروسك، ماذا فعل الإنسان القديم؟

الشاب : اكتشف الزراعة، صنع التقويم، بنى الأهرام، هزم وانهزم...

الرجل ١ : ألم يذكرك شىء من ذلك بمهمتك؟

الشاب : كنت مستغرقا طوال الوقت.

الرجل ١ : ألم تخطر بذاكرتك ولو كالهمس؟

(الشاب يصمت. الرجل ١ يضربه بالسوط فيصرخ متوجعا)

الرجل ٢ : اعترفْ..

الشاب : اللعنة على ذاكرة لا تسعف صاحبها بما يحب أن تتذكره.

الرجل ١ : كذاب.

الرجل ٢ : اعترف بأنك تجنبت ذكر ما يجر عليك المتاعب.

الرجل ١ : مخادع جبان.

الشاب : جربونى مرة أخرى!

الرجل ١ : لتعبث بنا مرة أخرى.

الشاب : أعطونى رسالة مكتوبة كيلا أنسى.

الرجل ٢ : وكيف نحيط بالظروف المتقلبة التى تواجهك؟

الشاب : الزحام هناك شديد وهو خليق بأن يشتت الذاكرة.

(الرجل ٢ يضربه بالسوط. الشاب يصرخ)

الرجل ١ : ماذا فعلت بيومك الطويل؟.. لِمَ قصدت ميدان القلعة؟

الشاب : كنت أسير على غير هدى.

الرجل ١ : تسير على غير هدى وأنت لم ترسَل إلى هناك إلا لمهمة؟

الشاب : كان اليوم عطلة.

الرجل ٢ : ألم تقل لك القلعة شيئا يذكرك بمهمتك؟

الشاب : زلّت قدمى فوقعت على ركبتى.

(الرجل ٢ يضربه بالسوط فيصرخ الشاب)

الرجل ٢ : ألم يوح المطعم لك بشىء؟ . . ولا المقهى؟ . . ولا دار الآثار؟ . . ولا صالة المزاد؟ . . ولا عيادة الطبيب؟

(الشاب يصمت فى يأس)

: وماذا جاء بك إلى الخلاء؟

الشاب : فتاة .

الرجل ٢ : ولمَ اخترت للّقاء مكانا هو أصلح لدفن الموتى؟ (صمت)

: لمَ يذكرك اللقاء بشىء عن مهمتك؟

الشاب : ثمة رجل كريه كان يتبعنى طول الوقت فشتت فكرى .

الرجل ١ : حتى ذلك الرجل لم يذكّرك بشىء!

الشاب : هو النحس نفسه، وقد أفسد كل شىء .

(الرجل ١ يضربه بالسوط فيصرخ الشاب)

الرجل ١ : ضيعت وقتك ووقتنا يا جبان .

الرجل ٢ : وكانت الفرص تناديك من كل جانب يا أعمى .

الرجل ١ : ولم نبخل عليك بالتحذير تلو التحذير .

الشاب : ما تلقيت تحذيرا قط .

الرجل ١ : كذاب غبى أعمى .

الشاب : الرحمة!

الرجل ٢ : الرحمة أم العدل أم الحرية؟

الرجل ١ : أم فاتحات الشهية أم هرمونات الشباب؟

(يضربانه معا بالسوط وهو يصرخ متوجعا.

الرجل ١ يشير إشارة خاصة إلى الرجلين حاملى المشعلين. الرجل ١ والرجل ٢ يذهبان إلى مكانهما الأول وراء الهضبة)

حامل المشعل : **(مخاطبا الشاب)** لمَ تحن أسراب الطيور المهاجرة إلى أعشاشها التى تركتها فى الجبل؟

(يحمل الشاب بين يديه ثم يقول له)

: تذكر أن الطفل يبكى حين تنحيه أمه عن ثديها الأيمن ولكنه يجد فى اللحظة التالية سلوه فى ثديها الأيسر .

(يمضى حامل المشعلين فى مشية متمهلة والآخر يتبعه حاملا الشاب بين يديه)

(ستار)

المطـــــــاردة

١

(المسرح خـال تماما. يدخل شابان فى ميـعة الصبا. يرتدى أولهـما قميـصا أبيض وبنطلونا رماديا قصيرا وحذاء من المطاط، ويرتدى الآخر قميصـا أحمر وبنطلونا أزرق وحذاء من المطاط. سنطلق على الأول «الأبيض» نسبة إلى قـميصه والآخر الأحمر نسبة إلى قميصه أيضا. ينظران فيما حولهما باستطلاع واهتمام).

الأبـيـض : مكان مناسب وبه كل ما نحتاج إليه.

الأحـمـر : إنه مكان على أى حال ونحن فى حاجة إلى مكان.

الأبـيـض : (كمن يتذكر) يخيل إلىّ أننا لعبنا فيه من قبل.

الأحـمـر : (هازئا) دائما تقول ذلك.

الأبـيـض : أو لعله قريب الشبه منه.

الأحـمـر : المهم أنه مكان صالح للعب.

الأبـيـض : هذا هو المهم حقا.

الأحـمـر : وهو بعيد فلن يهتدى إليه.

الأبـيـض : أرجو ذلك.

الأحـمـر : لعله يجد ما يشغله عنا.

الأبـيـض : لعله.

الأحـمـر : كأنه لا هم له إلا التطفل علينا.

الأبـيـض : لو نوفق إلى تجاهله!

الأحـمـر : كيف وهو لا يتركنا لحالنا؟

الأبـيـض : فلنلعب.

الأحـمـر : فلنلعب.

الأبـيـض : لنلعب لعبة الأحلام.

الأحـمـر : إنها مضجرة وخير منها الملاكمة.

الأبـيـض : الملاكمة رياضة عنيفة فلنجر فى الهواء الطلق.

الأحـمـر : (ساخرا) أنت جبان.

الأبيض : (باسما) أنت حيوان.

(يتوثبان لبعضهما فى تحد ـ يتراجعان وهما يرهفان السمع فى قلق).

الأبيض : ماذا هناك؟

(الأحمر يشير إليه بالسكوت ويرهف السمع)

الأبيض : سمعت شيئاً؟

الأحمر : وقع أقدام!

الأبيض : حقا؟!

الأحمر : اسمع ولا تتكلم.

الأبيض : (مرهفا السمع. وقع الأقدام يتضح) وقع أقدام حقا.

الأحمر : هو؟

الأبيض : أو أى ذى قدمين.

الأحمر : لا تتظاهر بعدم الاهتمام.

الأبيض : أنا لا أحسن التظاهر ولا أحبه.

الأحمر : ألا يزعجك حقا؟

الأبيض : بلى، ولو لدرجة ما.

(تقترب الأقدام. يدخل رجل متين البنيان، قوى بصورة واضحة، يرتدى قميصا أسود وبنطلونا أسود وبيده سوط. رغم قوته وشباب ملامحه فإنه لا توجد شعرة سوداء واحدة فى رأسه الأبيض.

تنحى الشابان جانبا وهما ينظران إليه فى حذر. أما هو فوقف منتصب القامة ناظرا فيما أمامه نظرة مجردة بعيدة المرمى وهو يحرك قدميه (محلك سر) طيلة الوقت).

الأحمر : أرأيت؟

الأبيض : نعم.

الأحمر : نذهب إلى مكان آخر؟

الأبيض : فلنلعب إن تكن لك رغبة فى اللعب حقا.

الأحمر : تحت عينيه؟

الأبيض : ولم لا؟

الأحمر : (ملَاحظا الرجل) إنه لا يكف عن الحركة رغم أنه لا يبرح مكانه.

الأبيض : المهم ألا يتدخل فى شئوننا.

الأحمر : ولكنه يتبعنا أينما سرنا.

الأبيض : لا يعد ذلك تدخلا فى شئوننا .

(صمت)

الأبيض : فلنلعب «وطى البصلة» .

الأحمر : (يهز منكبيه استهانة) فليكن ، «وطى» .

الأبيض : وطى أنت أولا .

الأحمر : بل أنت الأول .

الأبيض : لا تكن أنانيا .

الأحمر : لا هم لك إلا المعارضة .

الأبيض : وأنت تتصرف كأن لا وجود لأحد معك .

الأحمر : لاعبنى «برادى فير» والمغلوب يوطى .

(الأحمر ينطرح على بطنه ويركز ذراعه على كوعه ناظرا إلى الأبيض فى تحد فيضطر هذا إلى أن يفعل مثله، يتصارعان، الأحمر يميل ذراع الأبيض حتى يلصقها بالأرض..).

الأحمر : **(صائحا بفرح) غلبت.... لم يوجد بعد الذى يستطيع أن يغلبنى (تلوح منه نظرة نحو الرجل القوى المتحرك فيبوخ حماسه نوعا) لم يوجد بعد.. (الأبيض ينهض مستسلما، يوطى واضعا يديه على ركبتيه. الأحمر يتراجع مسافة ثم يجرى نحو الآخر ويثب من فوقه معتمدا بيديه على ظهره المنحنى، ثم يوطى بدوره فيثب الأبيض من فوقه، هكذا تستمر اللعبة حتى يتعثر الأبيض وهو يثب فيرتطم بالآخر ويقعان معا، ويغرقان فى الضحك. يقفان وهما يضحكان. ويكف الأبيض عن الضحك ويواصله الأحمر. الأبيض يشير إلى صاحبه بالسكون وهو يرهف السمع، ثم يتراجع به بعيدا عن الرجل).**

الأبيض : يخيل إلىّ أنه طالبنا بالكف عن اللعب .

الأحمر : لم أسمع شيئا .

الأبيض : ولكنى سمعته .

الأحمر : سمعى أقوى من سمعك .

الأبيض : ولكنك كنت تضحك .

الأحمر : (غاضبا) أرى أن نوقفه عند حده . .

الأبيض : يحسن بنا أن نتجاهله . .

الأحمر : بأى حق يتدخل فى حريتنا؟

(صمت)

الأحمر : وكلما سكتنا زاد فى غيه.

الأبيض : تذكر أنه كان صديقا لوالدنا!

الأحمر : لا نستطيع أن نحكم، كنا وقتها صغارا.

الأبيض : ولكنه لم يكف عن زيارته حتى آخر يوم فى حياته..

الأحمر : لعله كان يتدخل فى شئونه كما يريد أن يفعل معنا؟

الأبيض : لا يبدو أنه شرير..

الأحمر : ولكن غير بعيد أن يكون به لطف!

الأبيض : لعل متابعته لنا حيثما نذهب نوع من الرعاية بحكم صلته القديمة بوالدنا؟

الأحمر : أنت عبيط، ولعله كان ضمن الأشياء التى نغصت صفو أبينا فى أواخر أيامه..

الأبيض : ولكن والدنا لم يذكره بسوء.

الأحمر : كنا صغارا لا نفقه لما يقال معنى..

الأبيض : لم يكن لوالدنا أعداء.

الأحمر : من أدرانا بحقائق ذلك الزمن؟

(صمت)

الأحمر : لماذا يطاردنا؟

الأبيض : إن صح أنه يطاردنا حقا فلماذا يطاردنا؟

الأحمر : انظر إلى حركته المستمرة، إنه مجنون..

الأبيض : لا تتسرع فى الحكم..

الأحمر : هل يقبل عاقل أن يقف كما يقف ويحرك ساقيه كما يحركهما؟

الأبيض : بعض الناس لا يطيقون السكون..

الأحمر : ترى ما مهنته؟

الأبيض : إنه قوى، خالى البال، فلعله من الأعيان.

الأحمر : دعنا نناقشه جهارا.

الأبيض : كلا، مظهره لا يشجع على المناقشة..

الأحمر : دعنى أسأله بضعة أسئلة..

الأبيض : مثل ماذا؟

الأحمر : لماذا يطاردنا؟

الأبيض : لن يعترف بذلك، ولا دليل عليه..

الأحمر : ألم تسمعه وهو يطالبنا بالكف عن اللعب؟

الأبيض : حتى ذلك غير مؤكد.

(صمت)

الأبيض : خير ما نفعل أن نتجاهله..

الأحمر : لا أستطيع..

الأبيض : لولا عصبيتك...

الأحمر : (مقاطعا) دائما ترميني بعجزك..

الأبيض : لا حد لمكابرتك..

الأحمر : أحيانا أود أن أدق عنقك.

الأبيض : سأضيق بك يوما فأهجرك..

(يتواجهان فى غضب. الرجل يضرب الهواء بسوطه فيحدث طرقعة شديدة.. يدب الخوف فى قلبيهما. ينسيان خلافهما الطارئ. يغادران المكان. الرجل يقف وقفته وهو يحرك ساقيه (محلك سر).. المكان يظلم..).

٢

(يضاء المسرح. نفس المسرح الخالى. يقف الأحمر والأبيض متواجهين. لقد تغيرا تغيرا ملحوظا. ارتدى كل منهما جاكتة من لون القميص وحذاء جلديا وأصبح لكل شارب صغير يتبادلان النظر فى ارتياح).

الأحمر : هيهات أن يتعرف علينا الآن.

الأبيض : تغيرنا لدرجة لا بأس بها.

الأحمر : ولكنها كافية لتضليله..

الأبيض : هذا هو المأمول.

الأحمر : لا تبدو واثقا ولا مطمئنا.

الأبيض : يخيل إلىّ أحيانا أن التغير سطحى.

الأحمر : أنت مولع دائما بالتهوين من مهارتى.

الأبيض : أبدا، استعدادى طيب للاعتراف بمواهبك..

الأحمر : إذن فلماذا تبدو مرتابا؟

الأبيض : أخشى ألا يخدعه مظهرنا الجديد.

الأحمر : لن يصل إلى حقيقتنا الكامنة وراء الشارب والجاكتة والحذاء .
الأبيض : عظيم، هذا هو المأمول . .
الأحمر : نحن الآن موظفان من قوة الدولة!
الأبيض : هذا صحيح و . . .

(يصمت فجأة متنصتا. الآخر يتنصت أيضًا)

الأبيض : وقع أقدام . .
الأحمر : لا أظن .
الأبيض : إنه قادم . .
الأحمر : لعله عابر سبيل مجهول .
الأبيض : بت أعرف إيقاع قدميه . .
الأحمر : لا تدّع امتلاك الحكمة كلها .

(يصبح وقع الأقدام مسموعا. يدخل الرجل بنفس الصورة التى ظهر بها أول مرة، ولكنه لا يقف إنما يمضى ذهابا وجيئة فى بطء ملحوظ بعرض المسرح وفى عمقه. الشابان ينظران نحوه بذهول. يتنحيان جانبا بعيدا عن مسمعه).

الأبيض : أرأيت؟
الأحمر : مهلا . . أرجح أنه لم يتعرف علينا .
الأبيض : أتؤمن بذلك حقا؟!
الأحمر : لعل الذى يجمعنا هو الطريق والمصادفة ولا شىء سواهما . .
الأبيض : لا بأس من أن نسلم بذلك . .
الأحمر : فلنتجاهله ولنمارس عملنا فى هدوء وسكينة . .

(يرجعان إلى وسط المسرح، يتظاهران بالانهماك)

الأحمر : **(بنبرة عظمة)** حررت استمارات الصرف؟
الأبيض : لم تبق إلا واحدة .
الأحمر : أسرع من فضلك لتتم مراجعتها اليوم .
الأبيض : على أى حال فالخزانة لا تغلق قبل منتصف النهار .
الأحمر : لا يجوز تأجيل عمل اليوم إلى غد .
الأبيض : ألا ترى أنه يجب مراجعة ميزانية المصروفات؟
الأحمر : أعلم أنها تسمح بالصرف حتى نهاية العام المالى . .
الأبيض : إذن يحسن أن أكتب المذكرة .

(صمت)

الأحمر : هل لك علاوة هذا العام؟

الأبيض : كلا وأنت؟

الأحمر : أستحق علاوة هذا العام .

الأبيض : مبارك .

الأحمر : ستغرق فى خضم أعباء المعيشة .

(الأبيض يتنصت فجأة وهو يمد أذنه نحو الرجل المتحرك، ثم يأخذ الآخر من يده بعيدا عن مسمعه).

الأبيض : أسمعت؟

الأحمر : كلا .

الأبيض : عاد يطالبنا بالكف عن اللعب . .

الأحمر : متأكد؟ !

الأبيض : بلا أدنى شك .

الأحمر : اللعنة . .

الأبيض : من السهل خداعه .

الأحمر : ماذا يريد منا؟

الأبيض : الله أعلم .

الأحمر : واضح أننا لا نلعب .

الأبيض : واضح جدا .

الأحمر : أيظن أنه ولى أمرنا؟

(الأحمر يغضب. يأخذ الأبيض من يده ويذهبان إلى وسط المسرح. الأحمر ينظر نحو الرجل المتحرك متحديا).

الأحمر : هل تخاطبنا يا حضرة؟

(الرجل يواصل حركته صامتا)

الأحمر : يجب أن تتكلم . .

(الرجل يواصل حركته صامتا)

الأحمر : نحن موظفان محترمان، ولا نقبل إلا المعاملة اللائقة بكرامة الدولة . .

(الرجل يواصل حركته صامتا)

الأبيض : هل لك حاجة فى المصلحة؟

الأحمر : عليه أولا أن يجيب . .

الأبيض : هل لك طلب؟ . . شكوى؟ . . أموال متأخرة؟

(الرجل يواصل حركته صامتا)

الأحمر : كيف دخلت الإدارة؟ . . أمعك بطاقة شخصية؟
الأبيض : نحن فى خدمة الجمهور . .
الأحمر :(ثائرا) كف عن حركتك اللعينة فقد أدرت رءوسنا!
الأبيض : وتذكر أن الخزانة تغلق فى تمام الثانية عشرة .
الأحمر : لو رآك المدير وهو ذاهب إلى دورة المياه فلن تحمد العواقب . .
الأبيض : ما زلت أقول إننا فى خدمة الجمهور .
الأحمر : يا ويلك من رجال أمن الوزارة لو رأوك!
الأبيض : ماذا جاء بك يا سيدى؟
الأحمر : طبعا عندك فكرة عن العقوبة التى ينالها من يعتدى على موظف فى أثناء قيامه بأعمال وظيفته؟
الأبيض : هل تضايقك بعض الشكليات السخيفة؟
الأحمر : أنت أدرى بما يضايقك، ومن حقك أن تشكو، ولكن لكل إجراء نظمه المتبعة الواجبة الاحترام .
الأبيض : وحتى إذا احتاج الأمر إلى رعاية خاصة أو وساطة لها وزنها فستجد عندنا ما يحقق رغباتك المشروعة .
الأحمر : عليك أولا أن تكف عن الحركة وأن تتفاهم كما يجدر بالناس الطيبين .

(الرجل يواصل حركته وفجأة يضرب الهواء بسوطه فيحدث فرقعة شديدة.. يتراجع الشابان فى خوف).

الأحمر : (بلهوجة) أذن موعد الانصراف .
الأبيض : هيا بنا إلى معركة المواصلات .

(يغادران المكان بسرعة، وفى خوف لم يفلحا فى إخفائه. يستمر الرجل فى حركته. يظلم المسرح).

٣

(يضاء المسرح. الأحمر والأبيض متواجهان بنفس الحال التى رأيناهما عليها، عدا الشارب الذى امتد ونما فأضفى عليهما مظهر رجولة لم تجاوز حدود الشباب).

الأحمر : أليست فكرة بارعة؟
الأبيض : وطبيعية، وتهيئ لنا استقرارا .

الأحمر : الزواج هناء، ومصاهرة تقوى مركزنا وسواعدنا، وفى إطار الصورة الجديدة لن يتعرف علينا.

الأبيض : هو خير من العزوبة على أى حال.

الأحمر : (فى عصبية) لا أراك متحمسا.

الأبيض : بل إنى مرحب جدا بالفكرة.

الأحمر : لا أرى أثرا للحماس فى وجهك.

الأبيض : الزواج فكرة طيبة ولكن هل يغيرنا للدرجة التى تضلله عنا؟

الأحمر : أعتقد ذلك.

الأبيض : فلنجرب والله معنا.

الأحمر : أظن يكفينا زوجة واحدة؟

الأبيض : فكرة مبتكرة.

الأحمر : واقتصادية، ولكنى أخشى قيام نزاع يهدد كل شىء.

الأبيض : (باسما) طالما واجهنا الحياة كشخص واحد.

الأحمر : كثيرا ما نختلف ونتخاصم.

الأبيض : ولكن شيئا لم يستطع أن يقضى على الرابطة التى تجمعنا.

(صمت)

الأحمر : وقع اختيارى على زوجة ممتازة ولكن هل تتفق أذواقنا؟

الأبيض : بيننا تقارب لا شك فيه ولا تنس تسامحى.

(صمت)

الأحمر : إنى أحب اللون الخمرى.

الأبيض : اللون الأبيض لا يُعلى عليه.

الأحمر : بدأ الخلاف.

الأبيض : (بسرعة) ومع ذلك فجميع الألوان واحدة.

الأحمر : وأحب العود الممتلئ.

الأبيض : نحن فى عصر الرشاقة.

الأحمر : لا أتصور ذلك أبدا.

الأبيض : ليكن.. ليكن.. بشرط ألا يزيد وزنها بعد المعاشرة.

الأحمر : بل لا بأس من أن يزيد وأن تمتلئ المواقع التى يريد الله لها أن تمتلئ.

الأبيض : (متنهدا) لتكن إرادة الله.

الأحمر : ورأيت من الحكمة أن تكون ذات مال ولو فى الحدود المعقولة.

الأبيض : يا له من تفكير تجارى!

الأحمر : أنت جاهل بالدور الذى يلعبه المال فى الحضارة!

الأبيض : ليكن ما تريد، لا تغضب.

الأحمر : ولا أقبل بحال أن تكون كاملة التعليم، حسبها التعليم الابتدائى، فالعلم زينة غير مقبولة للمرأة وهو يغريها دائما بالعمل الذى يحولها فى النهاية إلى رجل.

الأبيض : رأيك هذا كان رأيا عصريا فى العصر الحجرى.

الأحمر : أنا لا يخيفنى التعبير بالعصور القديمة.

الأبيض : ما دمنا نرغب فى أن نكون ثلاثة فأكثر، وما دام ذلك فى صالحنا وضمانا لأمننا المهدد، فلا يعنى إلا القبول.

الأحمر : وطالبت بأن تكون لعوبا فى نطاق الشرع!

الأبيض : المرأة اللعوب لا يسعها إلا أن تكون لعوبا سواء فى نطاق الشرع أو خارجه.

الأحمر : بل فى نطاق الشرع وحده وسوف ترى.

الأبيض : فلنجرب على أى حال.

(صمت)

الأحمر : هل لك مواصفات أخرى؟

الأبيض : مواصفات هامشية ولكنها لا تخلو من فائدة، مثل البراعة فى الحديث.

الأحمر : لا أهمية لذلك، أنا أعرف زوجا سعيدا، ترجع سعادته أولا إلى كون زوجته خرساء.

الأبيض : ويا حبذا لو كانت تجيد الغناء!

الأحمر : لا أهمية لذلك أيضا فلدينا الكفاية فى الإذاعة والتليفزيون.

(صمت)

الأحمر : هل من مواصفات أخرى؟

الأبيض : كلا.

الأحمر : أعتبر اتفاقنا كاملا؟

(الأحمر ينظر إلى الجانب الأيمن من المسرح ويزغرد. تسمع موسيقى زفة العروس.

تدخل العروس وهى تسير بين شيخ وشرطى. يقفون أمام الشابين ثم يستدير الرجلان ويذهبان. تتبادل النظرات بين العروس وبين الشابين).

الأحمر : أهلا بك يا عروس.

العروس : (فى حياء) أهلا بك.

الأبيض : فلتحل بحلولك النعمة والهناء.

العروس : آمين.

(يقبلانها فى وقت واحد، كل فى خد)

العروس : (بحيرة) توقعت قبلة واحدة!

الأبيض : سيتكرر ذلك كثيرا.

الأحمر : وعلى كل موقع مختار!

(ذهول من العروس وضحك من الشابين)

الزوجة : (فى حيرة أكثر) إنى أتزوج لأول مرة فمعذرة.

الأحمر والأبيض معا : ونحن كذلك!

الزوجة : نحن؟!

الأبيض : نعم.

الأحمر : لسنا من أنصار تعدد الزوجات.

العروس : ولكن.

الأحمر : أنت الزوجة ونحن الزوج.

العروس : معا؟

الأحمر : نعم.

العروس : ولكنكما اثنان.

الأبيض : اعتبرينا شخصا واحدا.

العروس : لا أفهم شيئا.

الأحمر : ثمة أمور لا تفهم إلا بعد ممارسة الحياة الزوجية بالفعل.

العروس : لم يكن ذلك ضمن المعلومات التى زودتنى بها أمى.

الأحمر : طيبة منها ولا شك.

العروس : وكيف تستقيم المعيشة معكما معا؟

الأحمر : ستعلمين ذلك فى حينه.

العروس : أليست حالا غير طبيعية؟

الأحمر : هذا ما جرت به الطبيعة منذ الأزل.

العروس : قيل لى إن التوفيق مع زوج واحد أمر ليس بالهين فكيف يتيسر مع اثنين؟

الأبيض : هو غير هين لذلك وليس لسبب آخر.

الأحمر : ستتعلمين كل شىء فى حينه . . تعالى .

(ينهالان عليها قبلا وأحضانا وهى مرتبكة)

العروس : ستوجد مشاكل؟

الأحمر : مشاكل؟

العروس : (فى حياء) من سيكون أبا الوليد؟

الأبيض : سيحمل اسم من يسجله فى المكتب المدنى .

العروس : ولكن ذلك شىء عرضى جدا .

الأبيض : الأسماء كلها عرضية .

العروس : أعجب ما سمعت فى حياتى!

الأحمر : هكذا سيبدو لك كل شىء .

العروس : لم أسمع بذلك مَن قبل .

الأحمر : ولذلك فإنى من أنصار تعليم الجنس فى المدارس!

(صمت)

(يترامى وقع أقدام. يخرجون بعنف من جو الموقف ويرهفون السمع)

الأحمر : غير معقول .

الأبيض : (متنهدا) لم أكن مغاليا .

العروس : من القادم؟

الأحمر : (للأبيض) : ولكن . . هيهات أن يعرفنا!

الأبيض : فليحقق الله ظنك .

العروس : أتتوقعان قدوم أحد؟

الأحمر : كلا .

العروس : فمن القادم؟

(صمت مع إرهاف السمع)

(يدخل الرجل بصورته الشابتة، ويمضى ذهابا وإيابا فى حركة أسرع قليلا مما كانت عليه فى المنظر السابق.

الأحمر والأبيض والعروس يتراجعون بعيدا عن مسمعه).

الأحمر : قلبى يحدثنى بأنه لم يعرفنا .

الأبيض : طالما منينا أنفسنا بذلك .

العروس : (بضيق واضح) ماذا جاء به إلى هنا؟

الأحمر : (للعروس) أرأيته من قبل؟

العـــروس : أكثر من مرة!

الأحــمــر : أنت أيضا؟!

العـــروس : وأنتما؟ . . أليس كذلك؟!

الأبـيـض : لعله من سكان الحى!

الأحــمــر : أكاد أوقن بجنونه.

العـــروس : كان من المترددين على أبى.

الأحــمــر : أيضا!

العـــروس : ظننته سينقطع عن الظهور عندما أصير فى عصمة رجل ولكنه مصر رغم أننى صرت فى عصمة رجلين!

الأحــمــر : لا داعى للتشاؤم فلعله لم يعرفنا.

الأبـيـض : لعله!

العـــروس : رباه . . ما أشد قلقى . . ماذا يجدر بنا أن نفعل؟

(صمت)

الأحــمــر : فلنتجاهله . . ولنغن احتفالا بحياتنا الزوجية.

(يرجع الأحمر بهما إلى موقفهما السابق وسط المسرح ثم يغنون):

بشـــرى لنـــا   نلنـــا المنـــى

زال العنـــــا   وافـــى الهنـــا

(الأبيض يرهف السمع باهتمام واضح)

الأبـيـض : (للأحمر) عاد يتكلم.

الأحــمــر : (منفعلا) ماذا قال؟

الأبـيـض : كالعادة.

الأحــمــر : (مخاطبا الرجل) ماذا تريد؟

الأبـيـض : (للرجل) سيدى . . لم تضيع وقتك هدرا؟!

الأحــمــر : (للرجل وحدته ترتفع) هل تغرك قوتك؟ هل تستند إلى أحد من ذوى الشأن؟ إذن فاعلم أننا أصهرنا إلى واحد منهم هو والد هذه الزوجة الكريمة، وقد أصبحنا ثلاثة تؤيدهم حلقة متينة من العائلات الأصيلة.

الأبـيـض : (للرجل) أخى شاب ذو حدة، ولكننا فى النهاية من صلب الرجل الطيب الذى كان صديقا لك.

الأحــمــر : (مستسلما للحدة): لم أعد أطيق هذا التدخل السخيف!

العـــروس : ولا أنا.

الأبيض : (للرجل) ماذا تريد يا سيدى؟ كأنه لا يروق لك شىء مما نفعله، فماذا تريدنا على أن نفعل؟

الأحمر : (للرجل) تكلم.. يجب أن تتكلم.

العروس : (للرجل أيضا) احترم الحياة الزوجية المقدسة.

الأبيض : نحن ندعوك لحفل زفافنا، ما رأيك؟

(صمت)

الأحمر : (موجها خطابه للزوجة والأبيض) لا فائدة!

العروس : يا للأسف!

الأبيض : (وهو يتنهد بصوت مسموع) أصبح لنا أسرة على أى حال!

(الرجل وهو يواصل حركته ذهابا وإيابا يضرب بسوطه الهواء فتسمع طرقعة شديدة.. يتراجعون بعيدا عنه فى ذعر واضح).

العروس : لا أطيق ذلك.

الأحمر : ولا أنا.

الأبيض : لنبدأ رحلة شهر العسل!

الأحمر : لنبدأها فورا.

العروس : هيا.. هيا.

الأحمر : سيسقط يوما من الإعياء جثة هامدة.

العروس : آمين.

(يتأبط كل منهما ذراعا لها ويغادرون المكان وهم يسترقون النظر إليه فى حذر. يواصل الرجل حركته على حين يظلم المسرح).

٤

(يضاء المسرح. الأبيض والأحمر بنفس الملابس ومعهما الزوجة. واضح أن العمر قد تقدم بهم فجرى المشيب فى رءوسهم وذبلت نضارتهم، أصبحوا كهلين وسيدة).

الزوجة : مهما يكن من متاعبكم فلا يجوز أن ننسى الأبناء!

(الرجلان يتبادلان نظرات عميقة وكأنهما لم يسمعا صوت الزوجة).

الأحمر : إذا طارت درجة المدير العام هذه المرة فقل عليها السلام.

الأبيض : ما زالت اجتماعات اللجنة مستمرة!

الأحمر : ككل مرة، ثم يرقى شخص مجهول لا يخطر ببال أحد.

الأبيض : هل تطيق الصحة أعباء جديدة يا عزيزى؟

الأحمر : لا شىء يهمك حتى الأعماق، أبدا، هل فكرت فى تحسين المعاش كما ينبغى لرجل مسئول؟!

الزوجة : المعاش فى النهاية أهم من المرتب نفسه!

الأحمر : كررى ذلك على مسامعه!

الأبيض : إنى أود الترقية أيضا ولكننى أكره حرق الدم.

الأحمر : سرعان ما تضيق بأى شىء.

الأبيض : فليهتم بالمعاش من لن يملكوا سواه، أما أنت فإن نشاطك الحر أضعاف نشاطك الرسمى.

الأحمر : لولا ذلك ما توافرت لنا الحياة التى ننعم بها.

الأبيض : غرقنا فى العمل طيلة عمر، للدولة ولأنفسنا، بت أتطلع لحياة أخرى، لشىء من الهدوء والراحة.

الأحمر : عما قريب ستشبع من الهدوء والراحة وتبكى الأيام الخالية.

الأبيض : لا أظن.

الزوجة : كفا عن النزاع، ولندع الله أن يهبنا القوة والصحة، ولكن فكرا قليلا فى الأبناء.

الأحمر : (للأبيض) أنت مثبط للهمم.

الأبيض : كلا، لى طموح بعيد أيضا.

الأحمر : لا أعترف به.

الأبيض : تلزمنا فترة تأمل عقب الجنون المحتدم.

الأحمر : من أين لنا بها؟ ثلاثة اجتماعات فى اليوم، ورابع فى المساء مع سمسار من السوق الحرة، وعلينا بعد ذلك أن نقيم وليمة عشاء للعملاء..

الزوجة : ستكون وليمة يشهد لها العدو قبل الصديق..

الأبيض : (للأحمر) ولكن ألا ترى أن وظيفة المدير العام ستلتهم وقتنا الضيق؟

الأحمر : كلا، فهى من ناحية أخرى تذلل كثيرا من الصعاب..

الأبيض : لا تنس أمراضك المزمنة.

الأحمر : إنى مسيطر عليها تماما..

الزوجة : نسأل الله السلامة..

الأحمر : (للزوجة) لن أنسى أفضالك فأنت ممرضة ماهرة!
الأبيض : هى نفسها لا تخلو من أمراض مزمنة . .
الأحمر : هذا يدعونا إلى مضاعفة النشاط .
الزوجة : والأبناء؟
الأحمر : (فى ضيق) الأبناء . . الأبناء . . لا حكاية لك إلا الأبناء، وحكايتهم لا تسر الخاطر . .
الزوجة : ولكنها جديرة بكل اهتمام وعناية . .
الأحمر : اللعنة . . إنهم أعقد من درجة المدير العام .
الزوجة : (للأبيض) قل شيئا . .
الأبيض : فى ذلك المجال فإنى أفعل أكثر مما أتكلم .
الزوجة : (متأوهة) حسادنا كثيرون على حين أننا تعساء .
الأحمر : (غاضبا) كفى عن الولولة!
الزوجة : (غاضبة أيضا) أنت رجل أنانى . .

(يخرصهم السكوت فجأة فيرهفون السمع فى قلق واضح).

الأحمر : كلا . . لا شىء . .
الزوجة : ماذا هناك؟
الأحمر : خيل إلىّ . .
الزوجة : يا رحمن يا رحيم .
الأبيض : ليست المرة الأولى .
الأحمر : ماذا تعنى؟
الأبيض : سمعنا الأقدام مرات ولكن الرجل لم يظهر، منذ مدة لم يظهر .
الأحمر : بل كدنا ننساه تماما .
الزوجة : ليس تماما .
الأبيض : ولكنه كثير ما يسمعنا وقع أقدامه . .
الأحمر : مجرد ظنون .
الزوجة : لعله مات . .
الأبيض : مات؟!
الزوجة : وإلا ما اختفى طيلة تلك المدة . .
الأبيض : لكنه لم يختف تماما . .
الأحمر : أقسم أننى كدت أنساه . .

(وقع الأقدام يسمع بوضوح. ينصتون بقلق واضح..).

الأحمر : ليتنا ما ذكرناه. .

الزوجة : ليتنا. .

الأبيض : ولكن لا حيلة لنا فى ذلك.

الأحمر : لا تنقصنا الهموم. .

الزوجة : وكل الهموم تهون بالقياس لهمه. .

الأبيض : ونحن نخلق من الهموم ما يكفى.

الأحمر : (للأبيض فى غيظ وحنق) يخيل إلىّ أحيانا أنك حليفه علينا!

الأبيض : ليتك تزداد مع العمر حكمة. .

الأحمر : الإعجاز أن نزداد مع العمر حماقة!

الأبيض : أشهد أن ذلك الإعجاز لا ينقصنا!

الأحمر : ما زلنا شبابا.

الأبيض : ظننت أن الشباب قد ولى. .

الأحمر : (مشيرا إلى قلبه) الشباب هنا وليس فى مكان آخر.

الزوجة : ما زلنا شبابا!

الأبيض : إذن فعليكم ألا تهتموا بمطاردة الرجل لنا.

الأحمر : ولكنى لا أرتاح إليه.

الزوجة : وأما أنا فإنى أمقته. . ويخيل إلىّ أنه سيقتلنا يوما ما.

الأبيض : نحن نقتل أنفسنا أيضا. .

الأحمر : لقد حققنا أعمالا مجيدة.

الزوجة : أعمال غير قابلة للموت.

الأبيض : لا يجوز أن نخشى الموت أكثر مما ينبغى.

الأحمر : كلام فارغ، أنت أول من يخاف الموت.

الزوجة : كيف لا نخشى الموت؟!

الأبيض : لا يبعد أن يكون آخر مغامرة فى الحياة. .

الأحمر : لا تتعلق بالأوهام. .

(وقع الأقدام يشتد. يدخل الرجل. منظره لم يتغير. يمضى فى حركته ذهابا وإيابا بسرعة أكبر مما كانت عليه فى المنظر السابق. يتابعونه بذهول. يتراجعون بعيدا عن مسمعه).

الأحمر : قلبى يحدثنى بأنه لم يعرفنا.

الأبيض : لا تتعلق بالأوهام!

الزوجة : إنه يزداد سرعة!

الأحمر : ذلك يعنى أنه يزداد جنونا.

الأبيض : ترى ما معنى ذلك؟

الأحمر : لا تحمل الأمور أكثر مما تعنى..

الزوجة : (فى عصبية) ما له يسرع هكذا!

الأحمر : علينا أن نفزعه..

الزوجة : كيف؟

الأحمر : (غامزا بعينه) فلنمثل دورنا بإتقان..

: **(يرجع بهما إلى المكان الأول وهو يتظاهر بالثقة والعظمة..).**

الأحمر : (للأبيض) هل أضفت الأموال إلى حسابنا الجارى؟

الأبيض : نعم.

الأحمر : عظيم.. لا يجوز أن نترك مليما بلا استثمار.

الزوجة : عين الصواب.

الأحمر : سأقابل غدا بعض كبار المسئولين.

الزوجة : لعلهم ضمن المدعوين إلى مأدبة العشاء؟

الأحمر : كلا، ستكون الوليمة قاصرة على الوزراء!

الزوجة : ولا تنس السفراء يا عزيزى.

الأحمر : ذلك ما لا يمكن نسيانه.

الزوجة : سيتم كل شىء على خير وجه قبل أن تسافر إلى الخارج.

الأحمر : **(وهو يضحك عاليا) طبعا.. طبعا..**

(الأبيض يرهف السمع باهتمام وقلق، يتجه نحو الأحمر).

الأبيض : تكلم مرة أخرى كالعادة!

الأحمر : أنت وحدك تسمع رغم أنك أضعفنا سمعا!

الأبيض : عليك أن تصدقنى..

الأحمر : (للرجل وهو يتقد غضبا) ماذا تريد؟

الزوجة : (للرجل) ماذا جاء بك إلى بيتنا؟

الأحمر : (») نحن نطالبك بالأدب واللياقة.

الأبيض : (») لم يعد يمكن أن يقال إننا نبدد وقتنا فى اللعب!

الأحمر : (») وماذا يهمك من سلوكنا؟

الزوجـــــة : (للرجل) ألا تخاف على أعصابك وأنت تجرى بهذه السرعة؟

الأحــمــر : (») يوجد قانون وتقاليد.

الزوجـــــة : (») صن صحتك من أجل خاطر أولادك، أليس لك أبناء؟

الأبــيــض : (للرجل) ليتك تصارحنا بما تريد.

الأحــمــر : (») إنى أحذرك عواقب الاستهتار.

الأبــيــض : (») المصارحة مفيدة للطرفين.

الأحــمــر : (للأبيض) لا تلاينه فإنه لا يزداد بالملاينة إلا عتوا.

الزوجـــــة : (للأحمر متوسلة) دعه يجرى!

(يتراجع الأحمر والزوجة تاركين الأبيض يجرب حظه..).

الأبــيــض : علاقتك القديمة بوالدنا لا يمكن أن تنسى..

(الرجل يواصل حركته وكأنه لا يسمع شيئا).

الأبــيــض : إنك لا تدرى مدى الإزعاج الذى تسببه لنا بحسن نية.

(الرجل يواصل حركته وكأنه... إلخ)

الأبــيــض : أأنت مكلف بمهمة؟ ما هى؟ من كلفك بها؟.. صارحنا وأعدك بالمساعدة!

(الرجل يواصل.. إلخ)

الأبــيــض : لا تسىء بنا الظن، لنا أخطاء بلا شك، ولكن أعمالنا لا تخلو من قيمة.. وخيرنا أكثر من شرنا..

(الرجل يواصل.. إلخ)

الأبــيــض : صارحنا بما فى نفسك وإلا فمن العدل أن تتركنا وشأننا..

(صمت مع استمرار الرجل فى حركته)

الزوجـــــة : (لنفسها) الكلام الطيب لا يؤثر فيه.

الزوجـــــة : (للرجل بصوت مرتفع منفعل) هذه أرضنا، لنا فيها أبناء وأموال وأعمال، فليس من الإنصاف أن تزعجنا على هذا النحو..

الأحــمــر : (بنبرة تهديد) لا فائدة، ولا مفر من اللجوء إلى المسئولين..

(الرجل مستمر فى حركته على حين ينضم الأحمر والزوجة إلى الأبيض).

الأحــمــر : (بنفس النبرة المهددة) قوى شر كثيرة تعترض مجرى الحياة، مستهترة بالقوانين والتقاليد، ولكن كيف تكون عاقبتها ولو على المدى البعيد؟ تغلب على أمرها، ويحق عليها الجزاء والقهر، هذه هى سنة الحياة وإلا حق عليها الفناء..

(الرجل وهو مستمر يضرب الهواء بسوطه فيحدث طرقعة رهيبة فينكمش الثلاثة، ثم يرون من الأوفق أن يغادروا المكان فيغادروه متعثرين. الرجل مستمر والظلام يهبط . .).

٥

(يضاء المسرح. الأحمر والأبيض والزوجة وقد طعنوا فى السن وركبتهم الشيخوخة. الأحمر يرتدى عباءة حمراء وطاقية حمراء، والأبيض عباءة بيضاء وطاقية بيضاء، أما الزوجة فترتدى روبا يجمع بين اللونين. يتحركون حركات تنم عن الضعف والشيخوخة).

الأحمر : آه.

الأبيض : آه.

الزوجة : آه.

(صمت)

الزوجة : الحمد لله على أى حال.

الأبيض : له الحمد والشكر.

الأحمر : اللهم احفظنا.

(صمت)

الأبيض : (مرهفا السمع) هل تسمعان وقع أقدام؟

الأحمر : ثقل السمع!

الزوجة : إنى أسمعها عن غير طريق الأذن!

(صمت)

الزوجة : أتذكران عندما كنا أطفالا؟

الأحمر : ولكننا عرفناك بعد مرحلة الطفولة!

الأبيض : (فى حنان) عندما كنا أطفالا!

الزوجة : (متنهدة) عندما كنا أطفالا!

(صمت)

الزوجة : كأنه الأمس.

الأبيض : كأنه الأمس.

الأحمر : كأنه.. كأنه.. كأنه.. عليكم اللعنة!

(صمت)

الزوجة : الأيام الحلوة.

الأبيض : والأحلام الحلوة.

الأحمر : كنا نبول على أنفسنا وها نحن نبول على أنفسنا مرة أخرى!

(صمت)

الأبيض : (مرهفا السمع) هل...

الأحمر : (مقاطعا) تسمعان وقع أقدام؟

الزوجة : إنها تدب بلا انقطاع.

الأبيض : أعتقد أننا ألفناها.

الأحمر : أعتقد أنك مزعج مثله.

الزوجة : لا داعى للخلاف الآن.

(صمت)

الأحمر : فاتتنا فرص عظيمة ولكننا قمنا بأعمال تستحق الذكر.

الزوجة : نحمده على ما نلنا ونستعيضه عما فاتنا.

الأبيض : نحمده.

(صمت)

الأحمر : ترى هل أخطأنا فى توظيف أموالنا؟

الزوجة : العمارات أثبت من السوق المتقلبة!

الأبيض : سبحان من له الدوام.

الأحمر : وفكرة البيع الصورى للأبناء رائعة من ناحية الضرائب!

الأبيض : هى أروع فكرة قانونية للخروج عن القانون.

الأحمر : (غاضبا) أنت عنيد وأحمق.

الأبيض : دائما لا تعجبك الحقيقة.

الزوجة : لا تضاعف من مخاوفنا.

الأحمر : (ساخرا) الابن الوحيد الذى يحمل اسمك ضاع، إخوته رجال أعمال يفخر بهم الوطن أما هو فماذا يعمل؟.. ملحِّن، ملحِّن.. ها.. ها.

الأبيض : لا يقل عن إخوته شأنا ولا يتطلع مثلهم للهجرة إلى الولايات المتحدة.

الأحمر : (وهو يضحك) ماذا يعمل بالله؟

الأبيض : إنه يلحن فيقول الناس آه.

الزوجـــة : (متأوهة) آه.

الأحـمـر : (متأوها) آه.

(صمت)

الزوجـــة : (معاتبة) كفا عن النزاع لم تعودا صغيرين.

الأحـمـر : (فخورا) لولاى ما دامت لنا الحياة الزوجية.

الأبـيـض : (فى امتعاض) الحق أنه لولاى لانفصمت عروة الزوجية فى أعقاب شهر العسل!

الأحـمـر : (ساخرا) أى فضل لك فى شهر العسل؟!

الزوجـــة : (مغطية وجهها) يا للفضيحة!.. أخفضا صوتكما!

(صمت)

الأحـمـر : (متذكرا أوجاع الكبر) آه.

الزوجـــة : آه.

الأبـيـض : آه.

(صمت)

الأحـمـر : آن لى أن أذهب إلى النادى.

الزوجـــة : يحسن بك ألا تخرج فى فصل الشتاء.

الأحـمـر : لا أريد أن يشمت بى أحد من الأعداء.

الأبـيـض : لا تبالغ فى تصور الأعداء.

الأحـمـر : الناس بطبعهم أعداء للرجل الناجح.

(وقع الأقدام يرتفع لدرجة لا تخفى على أحد. يرهفون السمع فى رهبة صامتين. يدخل الرجل بمنظره المألوف. يمضى ذهابا وإيابا فى سرعة أكبر من المنظر السابق وهم يتابعونه بذهول).

الزوجـــة : إنه يكاد يجرى.

الأحـمـر : يزداد جنونه استفحالا.

الأبـيـض : لا يبدو عليه الكبر مثلنا.

الزوجـــة : ما فائدة أن نتساءل عما يجعله يتبعنا؟!

الأبـيـض : ولا تؤثر فيه وسائل دفاعنا.

الأحـمـر : مهما يكن من أمر فلا يجوز أن نطلعه على ضعفنا.

الأبـيـض : أتؤمن بجدوى ذلك؟

الأحمر : بلا أدنى شك، فلولا علمه بعملنا ونجاحنا وعلاقاتنا بذوى الشأن لقضى علينا من قديم!

(صمت)

الزوجة : أتوجد فائدة من مناقشته؟

الأحمر : يقينا لا.

الأبيض : واضح أنه يتبعنا أينما نذهب ولكنه لا يتعرض لنا بسوء.

الأحمر : (فى غيظ) ألم يجعلنا طول العمر نتوقعه ونفكر فيه ونضيق به ونتوجس منه؟

الأبيض : نحن الذين نفعل ذلك لا هو.

الأحمر : يا لك من مكابر!

الزوجة : كان وما زال هما ثقيلا على القلب.

الأحمر : كيف فاتنا طيلة عمرنا أن نهاجمه ولو مرة؟!

الزوجة : حذار أن تفكر فى ذلك.

الأبيض : لم نعد أهلا للمعارك.

الأحمر : ولكننا كنا أهلا يوما ما!

الأبيض : شغلتنا المعارك الأخرى.

الأحمر : لا يخلو صوتك من تأنيب أبدا.

الأبيض : دائما ألام على قول الحق!

الأحمر : أنت عبء طالما حملته فوق عنقى.

الأبيض : علم الله أنك كنت العبء لا أنا وأننى تحملتك بصبر يفوق طاقة البشر.

الأحمر : يا لك من مكابر جاحد!

الأبيض : يا لك من جاهل!

الأحمر : لولاك ما جرؤ هذا المجنون على مطاردتنا والاستهزاء بنا.

الأبيض : إنه يستهزئ بك وحدك.

(الزوجة تفصل بينهما لتلطف الجو. يسود الصمت. تتعلق الأبصار بالرجل المتحرك بسرعته المفزعة).

الأحمر : عندى فكرة.

الأبيض : كل ما فعلناه كان من وحى فكرك ولكنه لم يجد.

الأحمر : أتستهين بما فعلنا؟

الأبيض : كلا، إنه عظيم، ورغم مخالفته للقانون أحيانا فهو عظيم، ولكنه لم يرحنا من مطاردته.

الأحمر : لم لم نلجأ إلى المسئولين عن الأمن؟
الأبيض : لَأننا كنا وما زلنا نخشاهم!
(يتبادلان نظرة تحد ولكن الزوجة تفصل بينهما مرة أخرى).
الزوجة : لجأ كثيرون إلى رجال الأمن ولكن ماذا كانت النتيجة؟ . . لا شيء، وهو لا يرتكب جريمة يعاقب عليها القانون، ولعله يعتمد على صلاته بأناس فى أقوى مواقع السلطة، بل علمت أن كثيرين من رجال الأمن أنفسهم يعانون منه مثلنا.
الأحمر : لعله يطمع فى شىء مما نملك؟
الأبيض : ولكنه يطاردنا مذ كنا لا نملك شيئا.
(الأحمر يضرب الأرض بقدمه مغيظا محنقا)
(صمت)
الأبيض : (وكأنه يحدث نفسه) أهو يطاردنا حقا؟ وإن صح ذلك فلماذا يطاردنا؟ وهل يعمل لحسابه أو لحساب شخص آخر؟
(صمت)
الأبيض : (مسترسلا فى تفكيره) أضعنا وقتا طويلا دون أن نعنى عناية حقيقية بذلك.
الأحمر : (هازئا) لو عنينا بذلك عناية حقيقية لما تبقى لنا وقت لتحقيق شىء ذى قيمة!
الأبيض : نحن الآن على المعاش وبلا عمل جدّى.
الأحمر : ولكننا طاعنون فى السن، ومرضى، ولا قدرة لنا على البحث!
(صمت)
الزوجة : (بغيظ) ترى ما الذى يجعله يحافظ على قوته رغم مرور الزمن؟
الأحمر : (فى سخرية) ربما لأنه لم يتزوج!
الزوجة : (غاضبة) يا لك من جاحد أنانى!
الأحمر : (للأبيض) لا داعى لطرح أسئلة والانشغال بها على حين أنها واضحة الجواب، فهو يطاردنا بلا ريب، ويطاردنا ليقضى علينا، ولا يهم بعد ذلك أن يكون عمله لحسابه أو لحساب شخص آخر.
الأبيض : ولكن يخيل إلىّ أحيانا انه بفضله حققنا ما حققنا من عمل.
الأحمر : ليس بفضله ولكن دفعا لمطاردته الملحة.
الأبيض : (بنبرة اعتراف) الحق أننى قمت سرا بتحريات كثيرة عنه.

الأحمر والزوجة (معا) : حقا؟

الأبيض : بلا نتيجة تذكر.

(صمت)

الأبيض : حسبته مندوبا لمصلحة الضرائب أو مرشدا للمخابرات أو موظف إحصاء، أو من شرطة الآداب!

الأحمر : جميع أولئك ثقلاء ولكن ليس لهذا الحد.

الأبيض : وحتى تلك المراكز الهامة تبين لى أنهم لا يعرفونه أكثر منا ويعانون من مطاردته مثلنا.

الأحمر : ولم سكتوا عنه وهم يقضون على الآلاف بلا حساب؟

الأبيض : بلَ إن محاولات قتله وفيرة ولكنها تبوء عادة بالفشل.

الزوجة : (فى عصبية) سرعته تدير رأسى!

(ينظرون إليه بحنق. يضرب الرجل الهواء بالسوط محدثا الطرقعة المخيفة. يتجمعون ويغادرون المكان ببطء حسبما تسمح به سنهم المتقدمة. الرجل يستمر فى حركته على حين يهبط الظلام).

٦

(يضاء المسرح. الأحمر والأبيض والزوجة ولكنهم تغيروا تغيراً مذهلا، عادوا إلى منظر الشباب وملابسه كما رأيناها سابقا. واضح أنهم صبغوا الشعور وشدوا الجلود وفعلوا المستحيل لاستعادة شبابهم الضائع. يتبادلون النظرات وهم يبتسمون فى ارتياح وسرور).

الأحمر : آخر حيلة ولكنها تجوز على الجن الأحمر نفسه.

الزوجة : ما أحلى الرجوع إلى الشباب.

الأبيض : ما أحلاه.

الأحمر : لن يعرفنا ولو دار حول الأرض.

الزوجة : استجب يا رحمن.

الأحمر : من اليسير أن يتابع أناسا وهم يكبرون ولكن كيف يخطر له أنه يمكن أن يرجعوا يوما إلى الشباب؟!

الزوجة : قلبى يحدثنى بأننا نجونا من مخالبه.

الأحمر : وليعوضنا الله عما بذلنا من جهد ومال .

الزوجة : طبيب التجميل وما أخذ نظير تجديد جلد الوجه .

الأبيض : والصبغة العجيبة وارد الخارج .

الأحمر : والحقن، لا تنسوا الحقن .

الزوجة : والهرمونات والحمامات الطبية والتدليك الفنى .

الأحمر : (فى حبور) حل لغز ما وراء الموت أقرب إليه من التعرف علينا .

الأبيض : هى على أى حال آخر ما فى الجراب من حيل .

(صمت)

الأحمر : وثمة مفاجأة جديدة تتم بها اللعبة وتحقق كمالها المنشود .

الأبيض : أكثر مما تحقق بالفعل؟

الأحمر : نعم .

الأبيض : ترى ما هى؟

الأحمر : عروس جديدة!

(الزوجة تصرخ غاضبة محتجة مهددة)

الأحمر : لا تسيئى فهمى .

(الزوجة مستمرة فى صراخها الغاضب)

الأحمر : اعلمى أننى أعمل من أجل سعادة الجميع !

الزوجة : غدر وإجرام!

الأحمر : من أجل عذابك حيال مطاردته لنا اللعينة .

الزوجة : لا داعى مطلقا لهذه المفاجأة ، ما حققناه كاف وأكثر .

الأحمر : انضمام العروس إلى الصورة الجديدة يغيرها تغيرا مطلقا .

الزوجة : أنت تستطيع خداعه ولكنك لا تستطيع خداعى .

الأحمر : لا مجال للشهوات ولكننا ندافع عن حياتنا .

الزوجة : لا تحاول خداعى ، أنا أعرفك أكثر مما تعرف نفسك .

الأحمر : مضى زمان الحب ، وما شبابنا الراهن إلا قناع ، هل تجدين رغبة فى الجنس؟

الزوجة : (بتحد) نعم .

الأحمر : يا لك من عجوز مستهترة .

الزوجة : وعندك أضعاف ذلك .

الأحمر : لا تضيعى من أيدينا آخر فرصة لنا .

الزوجة : إن أردت عروسا جديدة فهاك أنا!
الأحمر : اتقى الله يا ولية وجربى قرعتك فى الحج هذا العام.
الزوجة : إنى صالحة للحب كما أنى صالحة للحج.
الأحمر : ألم تزجرينى كثيرا مذكرة إياى بالأبناء والأحفاد؟
الزوجة : لا تذكرنى بتلك الأيام اللعينة.
الأحمر : أؤكد لك أنك غير صالحة للحب.
الزوجة : جرب.. العبرة بالتجربة.
الأحمر : أنت مجنونة!
الزوجة : أنتَ غدار خائن.
الأحمر : (للأبيض) هل خرست؟.. أسعفنا برأيك.
الأبيض : أمهلنا وقتًا للتفكير.
الزوجة : (للأبيض) حتى أنت تريد أن تفكر!
الأحمر : فات الوقت، العروس الجديدة حقيقة مفروغ منها.

(الزوجة تعاود الصراخ)

الأبيض : كان يجب أن نتشاور!
الزوجة : لن يكون ذلك أبدا.
الأحمر : لا أسمح بكلمة أخرى.. وإلا اضطررت إلى الطلاق!
الزوجة : تطلقنى وأنا جدة؟.. حتى الوحوش تستنكف ذلك.
الأحمر : اذهبى إلى أولادك قبل أن يعصف الغضب برأسى.

(الأبيض يتدخل لإنقاذ الموقف. يأخذ الزوجة من يدها إلى الخارج وهو يحادثها بصوت غير مسموع.. ثم يعود الأبيض وحده).

الأبيض : يا لك من جرىء حقا!
الأحمر : أظهر سرورك الآن يا منافق!
الأبيض : لن تجد عروسا مناسبة أبدا..
الأحمر : عروس فى السادسة عشرة مثل لهطة القشدة.
الأبيض : أصغر من حفيدتنا.
الأحمر : ليست حفيدتنا على أى حال.
الأبيض : لا تحرجنا.
الأحمر : ستعلم أنها أقوى أثرا من كافة العقاقير.
الأبيض : يا لها من مغامرة!

الأحمر : لن تكون أفظع من المطاردة اللعينة.

(الأحمر يصفق بيديه. نسمع موسيقى الزفة. تدخل العروس بين شابين هما أمين من أمناء الشرطة حاملا جهازه اللاسلكى ومأذون عصرى متأبطا دفتره مرتديا بنطلونا وقميصا أمريكيا متعدد الألوان. يقدمان العروس ويذهبان.. الثلاثة يتبادلون النظرات..).

الأحمر : مبارك يا عروس.

(العروس تضحك ضحكة عذبة دون أدنى ارتباك).

الأحمر : خذى راحتك على آخرها فأنت فى بيتك.

العروس : شكرا.. ولكن.

الأحمر : أفصحى عما تريدين بكل حرية.

العروس : أشعر كأنى فى حاجة إلى تشجيع.

الأحمر : قلت لك إنك فى بيتك.

العروس : أعنى أنه من المفيد.. أعنى أن قليلا من.. الويسكى..

الأحمر والأبيض: ويسكى!

العروس : قليل منه مناسب.

الأحمر : هل لك تجربة سابقة به؟

العروس : فى نطاق ما يسمح به عمرى.

(الأحمر والأبيض يتبادلان النظر فى ذهول. ينتحيان جانبا).

الأحمر : فى نطاق ما يسمح به عمرى!

الأبيض : سمعت كل كلمة.. ما رأيك؟

الأحمر : ما كان كان.

الأبيض : عظيم.

الأحمر : ولكن الخمر مضرة لنا ونحن لم نجدد الكبد.

الأبيض : ولم نجدد القلب ولا العروق.

الأحمر : الله معنا.

(يرجعان وهما يبتسمان)

الأحمر : ما أجمل أن نستغنى عن الخمر!

العروس : أتسمعنى وعظا فى ليلة الزفاف؟

الأحمر : كلا، ولكنها الصحة.

العروس : أأنت مريض؟

الأحمر : كلا . . ما زلنا بعيدين عن سن الأمراض!

العروس : اتفقنا!

الأحمر : (ضاحكا) يبدو لى أنك فتاة ذات ذكاء وتجربة .

العروس : هذا هو طابع القرن!

الأحمر : لا أستبعد أن تكونى على إلمام بالتربية الـ . . . العاطفية .

العروس : العاطفية؟

الأحمر : أعنى الجنسية؟

العروس : أووه .

الأحمر : لكنها لم تقرر بعد فى المدارس!

العروس : (ضاحكة) لكنها مقررة فى أماكن كثيرة!

الأحمر : يا لك من عروس مثيرة!

العروس : إذا كنت ممن يخافون فلم زججت بنفسك فى الحياة الزوجية؟

الأحمر : لا خوف هناك ولكن للأسر العريقة تقاليدها .

العروس : طظ!

(الأحمر يتظاهر بالضحك وكذلك الأبيض)

الأحمر : أسلوبك بديع ولكنه جرىء، أجرأ من أساليب العذارى!

العروس : لم يعرف التاريخ إلا عذراء واحدة!

(الرجلان يتبادلان النظر فى ذهول. العروس تفتح حقيبة يدها وتخرج منها زجاجة ويسكى.. وتشرب.. وتمد بها يدها إليهما).

العروس : يبدو أنك بخيل، خذ واشرب وإلا غضبت .

(الأحمر يحرج فيتناول الزجاجة ويشرب ثم يعطيها الأبيض فيشرب، وتنتقل الزجاجة بينهم).

العروس : ذلك مفيد جدا فى التغلب على الحياء!

الأحمر : (مندهشا) الحياء؟!

العروس : نعم الحياء، أنت لم تر شيئا بعد .

الأحمر : نخب الحياء .

(الزجاجة تدور. فى نشوة يقبلان العروس فى الخدين فى وقت واحد).

الأحمر : (للعروس) لعلك مندهشة لأن القبل تنهال عليك من رجلين لا من رجل واحد .

العروس : (وهى منتشية) القبل نعم مشكورة لا يجوز أن نفسدها بالتساؤل!

الأحمر : (ضاحكا) الحقيقة أن لك زوجين لا زوجا واحدا!

العروس : (منقلة البصر بينهما) أرجو أن أجد فى ذلك الكفاية حتى أنعم بالاستقرار المنشود.

(الرجلان يتبادلان النظر ثم يغرقان فى الضحك. الزجاجة تدور مع القبلات).

الأحمر : لم نفلح فى إثارة دهشتك ولو مرة واحدة!

العروس : عسير جدا أن تثار دهشة فى هذه الأيام.

(الأبيض يتنصت فى ترقب مفاجئ)

الأبيض : (للأحمر) سمعت شيئا؟

(الأحمر ينصت. يترامى وقع أقدام)

الأحمر : لعله عابر سبيل..

الأبيض : ولكنها أقدامه هو.

الأحمر : غير معقول، وحتى لو كان هو فلن يتعرف علينا..

العروس : هل تتوقعان قدوم أحد؟

الأحمر : كلا.

العروس : أظن أن اثنين فيهما الكفاية!

(الرجل يدخل. هو هو كما رأيناه. يذهب ويجىء فى سرعة تفوق سرعاته السابقة كلها).

الأحمر : اللعنة.

الأبيض : أعوذ بالله.

العروس : هذا الرجل أذكره.

الأحمر : أنت أيضا تعرفينه؟ هذا ما توقعته، إنه مجنون.

العروس : مثل جميع الطاعنين فى السن فيما يبدو.

الأبيض : ولكنه ليس طاعنا فى السن فيما يبدو.

العروس : كان صديقا لأبى..

الأحمر : (بإصرار) لنشرب.

(تدور الزجاجة بينهم)

الأحمر : لا مفر.

الأبيض : لا مفر.

العروس : ظننته يوما يطاردنى للحب..

الأحمر : إنه مجنون بداء المطاردة.

العـــروس : لا يبعد أن يكون لطيفا خفيف الروح.
الأحـمـر : عرفناه أكثر منك.

(صمت)

الأحـمـر : (للرجل متحديا وهو ثمل) اجر.. اجر.. افعل ما تشاء.. ماذا يهم؟.. ولكن لا تعد نفسك منتصرا.. لن نقتنع بأنك تتعرف علينا بحاسة مجهولة.. أبدا.. الحكاية أن البلد ملأى بالجواسيس.. أنت على صلة بالشرطى أو المأذون أو طبيب التجميل أو الصيدلى.. لا سر هناك ولا معجزة.. افعل ما تشاء.. اجر.. اجر حتى تقع مغشيا عليك.. وسوف نضحك كثيرا وطويلا..
الأبـيـض : (للرجل) ليتك تشرب معنا، الشرب صنع لنا معجزات..
العـــروس : كيف أنساكما هذا الرجل عروسكما؟

(يدور الشراب والقبلات والأحضان)

الأحـمـر : (للرجل) سنفعل ما يحلو لنا تحت سمعك وبصرك، سينبت فى رأسك قرنان وأنت تجرى كالمجنون..
الأبـيـض : (للرجل) معذرة، للخمر سلطان وللحب سلطان، ولكننا فى الواقع نحترمك، صدقنى فأنت تشغل من وقتنا أكثر مما تتصور، وأنا مقتنع بأنك لا تتعرض لنا بأذى، وأننا فى الواقع مسئولون عن كل شىء، فنحن الذين نعمل ونحن الذين نتغير ونحن الذين نكبر، ولا حق لنا فى أن نعلق عليك الأخطاء والمتاعب، وبودى أن تقبل دعوتى للشراب!
الأحـمـر : (للأبيض) يا لك من منافق!
الأبـيـض : لا تفسد شهر العسل بسوء الأدب.
العـــروس : هل تزوجتمانى لقتل الوقت بالشجار والجدل؟

(يرجعون للقبل والأحضان والضحك. العروس والأبيض يرقصان. الأحمر ينظر نحو الرجل وهو يترنح من السكر).

الأحـمـر : اجر.. لا يهم.. سيدور رأسك وتقع جثة هامدة..

(العروس تتخلص من ذراع الأبيض ثم تقبل نحو الأحمر فيرقصان معا. الأبيض وهو يترنح ينظر نحو الرجل).

الأبـيـض : أود أن أقابلك على انفراد..

(الرقص مستمر وكذلك الرجل)

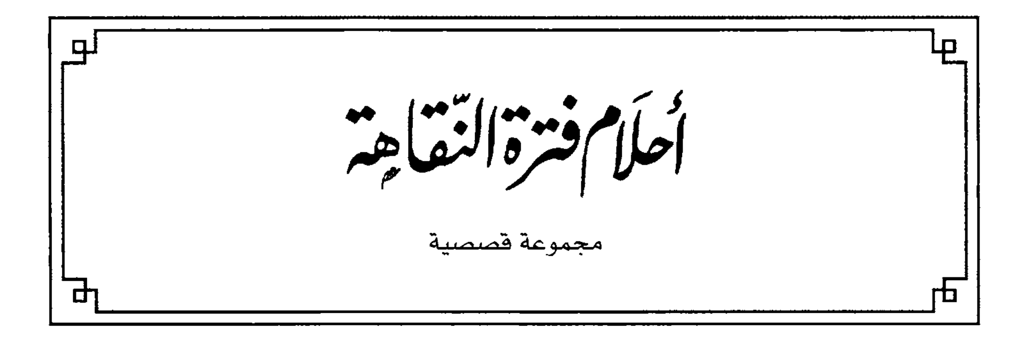
الأبـيـض : سيجرى بيننا حوار مفيد، وإن كان ثمة جديد فلعله يكمن فى صدرك الصامت. .

(الرجل يضرب الهواء بسوطه محدثا طرقعة رهيبة..).

(الأحمر والأبيض يتلاصقان. يحاولان مغادرة المكان ولكن قدميهما لا تسعفانهما. يسقطان. يزحفان على أربع إلى الخارج حتى يختفيا تماما. العروس مستمرة فى الرقص وحدها.. الرجل تأخذ حركته فى التباطؤ رويدا رويدا حتى يقف تماما وهو يحرك قدميه (محلك سر). العروس ترقص وحدها أمام الرجل).

(ستار)





حلـــم ١

أسوق دراجتى من ناحية إلى أخرى مدفوعا بالجوع باحثا عن مطعم مناسب لذوى الدخل المحدود ودائما أجدها مغلقة الأبواب وحانت منى التفاتة إلى ساعة الميدان فرأيت أسفلها صديقى فدعانى بإشارة من يده فملت بدراجتى نحوه وإذا به على علم بحالى فاقترح علىَّ أن أترك دراجتى معه ليسهل علىَّ البحث فنفذت اقتراحه وواصلت البحث وجوعى يشتد وصادفنى فى طريقى مطعم العائلات فبدافع من الجوع واليأس اتجهت نحوه على الرغم من علمى بارتفاع أسعاره ورآنى صاحبه وهو يقف فى مدخله أمام ستارة مسدلة فما كان منه إلا أن أزاح الستارة فبدت خرابة ملأى بالنفايات فى وضع البهو الفخم المعد للطعام فقلت بانزعاج : ماذا جرى؟

فقال الرجل : أسرع إلى كبابجى الشباب لعلك تدركه قبل أن يشطب، ولم أضيع وقتا فرجعت إلى ساعة الميدان ولكننى لم أجد الدراجة والصديق .

حلـــم ٢

دخلنا الشقة . . الفتاة فى المقدمة وأنا فى أثرها والبواب يتبعنا حاملا الحقيبة . الفتاة على صلة بى مؤكدة وكأنها غير محددة . تركنا ترتيب الأشياء ودلفت إلى الشرفة المطلة على البحر سابحا فى آفاقه غير المحدودة منتعشا بهوائه الرطيب منتشيا بهديره المتقطع . وإذا بصرخة تنطلق من الداخل فهرعت نحوها فرأيت الفتاة منكمشة مذعورة والنار تشتعل فى أعلى الباب . وقبل أن أفيق من الصدمة دخل رجل صلب الملامح كأنما قدت من صخر وبإشارة من يده انطفأت النار وتحول ذاهبا وهو يقول :

ربما انقطعت المياه بعض الوقت . وغمرنى الارتياح فلم أبال بشىء، غادرت الحجرة

قاصدا السوبر ماركت لأبتاع بعض التموين المناسب. ولما رجعت وجدت باب الشقة مفتوحا والبواب واقفا فدخلت أنا الحجرة قلقا فوجدتها عارية إلا من بقجة منتفخة بالملابس ملقاة على الأرض وذراع بيجامتى يتدلى من فتحة رابطتها ولا أثر للفتاة فسألت: ماذا جرى؟

فأجابنى البواب: حضرتك أخطأت الطريق وهذه ليست شقتك.

فأشرت إلى ذراع البيجاما وقلت: هذه بيجامتى.

فقال الرجل بهدوء: يوجد من نوعها آلاف فى السوق

وملت إلى الاعتقاد بالخطأ متذكرا أنه توجد ثلاث عمارات متشابهة فى صف واحد وهبطت السلم بسرعة وفى الطريق رأيت الفتاة تسير فى طرفه المفضى إلى ميدان مكتظ بالسيارات والبشر فجريت نحوها حتى أدركها قبل أن تذوب فى الزحام.

حلم ٣

هذا سطح سفينة يتوسطه عامود مقيد به رجل يلتف حوله حبل من أعلى صدره حتى أسفل ساقيه وهو يحرك رأسه بعنف يمنة ويسرة ويهتف من أعماقه الجريحة.

متى ينتهى هذا العذاب؟

وكان ثلاثتنا ينظرون إليه بإشفاق ويتبادلون النظر فى ذهول، وتساءل صوت: من فعل بك ذلك؟

فأجاب الرجل المعذب ورأسه لا يكف الحركة: أنا الفاعل

ـ لماذا؟

ـ هو العقاب الذى أستحقه

ـ عن أى ذنب؟

فصاح بغضب: الجهل

فقلت له: عهدنا بك ذو حلم وخبرة. جهلنا أن الغضب استعداد فى كل فرد.

وارتفع صوته وهو يقول: وجهلت أن أى إنسان لا يمكن أن يخلو من كرامة مهما يهن شأنه.

وغلبنا الحزن والصمت.

حلـــم ٤

بهو مترامى الأركان متعدد الأبواب خال من كل شىء فوقف ثلاثتنا فى ركن مكنون، صاحباى يرفلان فى كامل حليتهما حتى رباط العنق على حين اكتفيت أنا بالجلباب المغربى ودون شعور بأى حرج لشدة الألفة التى تجمعنا، سمعت حركة، نظرت فرأيت رجلا لا أدرى من أين جاء فى ملابس رسمية توحى بأنه ممن يشرفون على الحفلات تلففت فى جلبابى وقلت لصاحبى: أخاف أن يقام حفل!

فقالا بالتتابع:

ـ لا أظن.

ـ لا أهمية لذلك.

وجدت حركة أخرى فنظرت فرأيت رجلين ماثلين للأول قد انضما إليه فزال كل شك وهربت إلى أقرب باب وفتحته وكأنى وجدت وراءه سداً من جدار البهو، فكررت المحاولة مع الأبواب جميعاً وخاب مسعاى كالمرة الأولى رجعت إلى صاحبىّ واندسست بينهما كأنما أستتر بهما.

وطمأننى بعض الشىء أن الرجال الثلاثة لم يعيرونا أى التفات.

وتتابعت الحركات وانهمر سيل من المدعوين من كافة النواحى.

وأخذوا يملأون المكان دون أن ينظر نحونا أحد مركزين أبصارهم فى ناحية واحدة فلم نملك إلا أن نفعل فعلهم وبدا فجأة شخص جليل فى هيئة الزعامة فتعالت قعقعات الهتاف. وكلما تقدم الرجل خطوة اشتد الهتاف ولكنهم حذروه فى الوقت نفسه من السير نحو الباب الذى بدا أنه يقصده وقلت لصاحبى: سيفتح الباب عن سد لا منفذ فيه.

وتقدم الزعيم وسط هتاف متصاعد وتحذير مستمر حتى فتح الباب ودخل مختفيا عن الأنظار.

حلـــم ٥

أسير على غير هدى وبلا هدف ولكن صادفتنى مفاجأة لم تخطر لى فى خاطرى فصرت كلما وضعت قدمى فى شارع انقلب الشارع سيركا.

اختفت جدرانه وأبنيته وسياراته والمارة وحل محل ذلك قبة هائلة بمقاعدها المتدرجة وحبالها الممدودة والمدلاة وأراجيحها وأقفاص حيواناتها والممثلون والمبتكرون والرياضيون حتى البلياتشو، وشد ما دهشت وسررت وكدت أطير من الفرح. ولكن بالانتقال من شارع إلى شارع وبتكرار المعجزة مضى السرور يفتر والضجر يزحف حتى ضقت بالمشى والرؤية وتاقت نفسى للرجوع إلى مسكنى، ولكم فرحت حين لاح لى وجه الدنيا وآمنت بمجىء الفرح. وفتحت الباب فإذا بالبلياتشو يستقبلنى مقهقها.

حلم ٦

رن جرس التليفون وقال المتكلم: الشيخ محرم أستاذك يتكلم.

فقلت بأدب وإجلال: أهلا أستاذى وسهلا..

ـ إنى قادم لزيارتك.

ـ على الرحب والسعة

لم تمسنى أية دهشة على الرغم من أننى شاركت فى تشييع جنازته منذ حوالى ستين عاما وتتابعت علىَّ ذكريات لا تنسى عن أستاذى القديم فى اللغة والدين وما عرف عنه من وسامة الوجه وأناقة الملبس إضافة إلى شدته المتناهية فى معاملة التلاميذ وجاء الشيخ بجبته وقفطانه الزاهيين وعمته المقلوظة وقال دون مقدمات:

هناك عايشت العديد من الرواة والعلماء ومن حوارى معهم عرفت أن بعض الدروس التى كنت ألقيها عليكم يحتاج إلى تصحيحات فدونت التصحيحات فى الورقة وجئتك بها.

قال ذلك ثم وضع لفافة من الورق على الخوان وذهب.

حلم ٧

يا له من ميدان مترامى الاتساع مكتظ بالخلق والسيارات. وقفت على طوار المحطة أنتظر مقدم الترام رقم ٣ والوقت قارب المغيب. أريد العودة إلى بيتى على الرغم من أنه

لا ينتظرنى أحد. ويهبط المساء وتغلب الظلام على أضواء المصابيح المتباعدة وشعرت بوحشة وتساءلت عن آخر الترام رقم ٣ جميع الترامات جاءت وحملت من المنتظرين من حملت ولكن لا أدرى ماذا حصل للترام ٣. وخفت حركة الميدان وقل مرور السبلة حتى كدت أتركه وحيدا فى المحطة فى ميدان خال أنتظر تراما لا يجىء وسمعت صوتا خفيضا فنظرت فرأيت على مبعدة يسيرة فتاة ينطق مظهرها بأنها من بنات الليل فازداد شعورى بالوحشة واليأس وسألتنى: أليست محطة الترام رقم ٣؟

فأجبت بالإيجاب وفكرت فى مغادرة المحطة وإذا بالترام رقم ٣ يقترب فى هدوء ولا أحد فيه سوى السائق وقاطع التذاكر، وشىء من داخلى دعانى إلى عدم الركوب فوليت الترام ظهرى ولبثت على حالى حتى غادر الترام المحطة. ونظرت فرأيت الفتاة بموقفها، ولما شعرت بعينى ابتسمت وسارت نحو أقرب منعطف فتبعتها على الأثر..

حلـــم ٨

عندما أقبلت على مسكنى وجدت الباب مفتوحا على ضلفتيه على غير عادة، وجاءتنى من الداخل ضوضاء وأصداء كلام.

دق قلبى متوقعا شرا، ورأيت من أحبابى ابتسامات مشفقة، وسرعان ما عرفت كل شىء، خلت الشقة من الأثاث الذى كوم فى ناحية داخل المكان.. عمال من متفاوتى الأعمار، منهم من دهن الجدران ومنهم من يعجن المونة ومنهم من يحمل المياه.. وهكذا نفذت المكيدة فى أثناء غيابى وذهبت توسلاتى فى الهواء.

وهل أطيق هذا الانقلاب وأنا على تلك الحال من الإرهاق؟

وصحت بالعمال من أذن لكم ذلك، ولكنهم استمروا فى عملهم دون أن يعيرونى أى اهتمام، وقهرنى الغضب فغادرت الشقة وأنا أشعر بأننى لن أرجع إليها مدى عمرى وعند مدخل العمارة رأيت أمى مقبلة بعد رحيلها الطويل وبدت مستاءة وغاضبة وقالت لى: أنت السبب فيما حصل!

فثار غضبى وصحت: بل أنت السبب فيما حصل وما سوف يحصل..

وسرعان ما اختفت وأمضت فى الهرب.

حلــم ٩

على أريكة فى حديقة المنزل الصغيرة جلست أختى تتأمل ضفدعا يسبح فى القناة التى تروى الحديقة. وانتشيت بالنسيم الرقيق وعناقيد العنب المدلاة من التكعيبة.

وسألت أختى: ماذا تنتظرين؟

وقبل أن تجيبنى قلت: من الأفضل أن نجلس فى الحجرة لنسمع الفونوغراف وتبادلنا نظرة اختيار ثم انتقلنا إلى الحجرة وازداد الجو صمتا وحتى النسيم لم يعد معنا.

ونظرت إلى أختى فإذا بها قد تحولت إلى الممثلة السينمائية جريتا جاربو وهى ممثلتى المفضلة وطرت من السعادة بغير أجنحة.

وملأ السرور جوانحى. غير أن ذلك السحر لم يدم طويلا. وأردت أن أستعيد المعجزة السحرية مرة أخرى ولكن أختى رفضت الذهاب معى. فسألتها عن سبب الرفض فقالت: أمى.

فقاطعتها قبل أن تتم عبارتها: إنها لا تدرى.

فقالت بيقين: إنها تدرى كل شىء.

وشعرت بأن الحزن غشى كل شىء كأنه شابورة مفاجئة.

حلــم ١٠

جمعتنا الصداقة والنشأة وتواعدنا فى تلك الحارة وذيول الليل تهبط. ولا هدف لنا إلا الانشراح باللقاء والاستسلام للمزاح والضحك على طريقة القافية.

وتبادلنا النكات وأخذنا نتحول إلى أشباح فى الظلام وتعارفنا بأصواتنا، ولم نكف عن المزاح والقافية وانطلقت قهقهاتنا ترج الجدران وتوقظ النيام. الحارة متعرجة ونحن نتقارب حتى لا نذوب فى الظلمة وكلما تمادينا فى الحيرة غالينا فى الضحك وبدأنا نتساءل حتى نجد خلاصنا فى ميدان أو شارع كبير.

وذكرنا أحدنا بأن الملكة الفرعونية التى أرادت الانتقام من الكهنة الذين قتلوا زوجها دعتهم إلى مكان يشبه هذا الذى يغبطون فيها وسلطت عليهم المياه وما كاد يفرغ

من حكايته حتى هطلت السماء علينا بقوة غير معهودة وأسكتنا الرعد ومضت المياه ترتفع حتى غطت أقدامنا وزحفت على سيقاننا وشعرنا بأننا نغرق تحت المطر فى ظلم الليل ونسينا نكاتنا وضحكاتنا ولم يعد لنا من أمل فى الخلاص إلا أن نطير فى الفضاء.

حلم ١١

فى ظل نخلة على شاطئ النيل استلقت على ظهرها امرأة فارعة الطول ريانة الجسد. وكشفت عن صدرها ونادت يزحف نحوها أطفال لا يحصرهم العد. وتزاحموا على ثدييها ورضعوا بشراهة غير معهودة وكلما انتهت جماعة أقبلت أخرى وبدا أن الأمر أفلت زمامه وتمرد على كل تنظيم. وخيل إلىّ أن الحال تقتضى التنبيه أو الاستغاثة ولكن الناس يغطون فى النوم على شاطئ النيل. وحاولت النداء ولكن الصوت لم يخرج من فمى وأطبق على صدرى ضيق شديد. أما الأطفال والمرأة فقد تركوها جلدة على عظم. ولما يئسوا من مزيد من اللبن راحوا ينهشون اللحم حتى تحولت بينهم إلى هيكل عظمى. وشعرت بأنه كان يجب علىّ أن أفعل شيئا أكثر من الغداء الذى لم يخرج من فمى وأذهلنى أن الأطفال بعد يأس من اللبن واللحم التحموا فى معركة وحشية فسالت دماؤهم وتخرقت لحومهم. ولمحنى بعض منهم فأقبلوا نحوى أنا لعمل المستحيل فى رحاب الرعب الشامل.

حلم ١٢

فى الجو شىء مثير للأعصاب، فهو من عدة نواح تبرز رءوس وتختفى بسرعة. وجرت شائعة مثل الشهاب تنذر بوقوع الحرب. وترددت كلمة «الحرب» على الألسنة، وعمت الحيرة والانزعاج ورأيت من يحمل تموينا لتخزينه. وجعلت أتذكر تلك الأيام المكدرة، هل نبقى أم نهاجر؟ ولكن إلى أين؟

ولذت بمقر المكان الآمن من الخطر وجاء رجل من الأمن وقال صراحة: إن الدولة تريد أن تعرف طاقة الأسر على إيواء من يحتاجون إلى إيواء لا سمح الله. وتضاعف الاضطرابات وأعلنت أمى وهى تعيش وحدها فى بيت كبير أنها على استعداد لإيواء أسرة كاملة. أما أنا فوجدت أننا يمكن الاستغناء عن حجرة واحدة تسع لشخصين

وأصبحت حذرا عند سماع أى صوت أو الإجابة على أى سؤال وطرق ببابى مخبر ودعانى إلى القسم ولما سألته عن سبب الاستدعاء أجاب بخشونة أنه لا يعرف وقطع حديثنا انطلاق سفارة الإنذار .

حلم ١٣

هذا هو المطار . جوه يموج بشتى الأصوات واللغات . وكن قد فرغن من جميع الإجراءات ووقفن ينتظرن . اقتربت منهن وقدمت إلى كل منهن وردة فى قرطاس فضى وقلت : مع السلامة والدعاء بالتوفيق

فشكرننى باسمات وقالت إحداهن : إنها بعثة شاقة ونجاحنا يحتاج إلى أعوام وأعوام .

فأدركت ما تعنى وغمر الألم قلبى وتبادلنا نظرات وداع صامتة ولاحت لأعيننا مرات الزمان الأول .

وتحركت الطائرة وجعلت أتابعها بعينى حتى غيبها الأفق . وحال عودتى إلى بهو المطار لم أعد أذكر إلا رغبتى فى الاهتداء إلى مكتب البريد .

وكأننى ما جئت إلا لهذا الغرض وحده . وسمعت صوتا يهمس : أنت تريد مكتب البريد؟ فنظرت نحوه ذاهلا فرأيت فتاة لم أرها من قبل فسألتها عن هويتها فقالت بجرأة : أنا بنت ريا . لعلك مازلت تذكر ريا وسكينة؟

فقلت وذهولى يشتد : إنها ذكرى مرعبة .

فرفعت منكبيها وسارت وهى تقول : إن كنت تريد مكتب البريد فاتبعنى . فتبعتها بعد تردد غاية فى العنف .

حلم ١٤

تريضت على الشاطئ الأخضر للنيل ، الليلة ندية والمناجاة بين القمر ومياه النهر مستمرة تشع منها الأضواء هامت روحى حول أركان العباسية المفعمة بالياسمين والحب ووجدت نفسى تردد السؤال الذى يراودها بين حين وآخر لماذا لم تزرنى فى المنام ولو

مرة واحدة منذ رحلت على الأقل لأتأكد من أنها كانت حقيقة وليست وهما من أوهام المراهقة. وهل الصورة التى طبعت فى خيالى هى الصورة الحقيقية للأصل. وإذا بصوت موسيقى يترامى إلىّ من ناحية الشارع المظلم صارت أشباحا ثم تجلت مع ضوء أول مصباح صادفها فى طريقها، أدهشنى أنها لم تكن غريبة علىّ فى الموسيقى النحاسية التى كثيراً ما استمعت إليها فى صباى ورأيتها تتقدم بعض الجنازات وهذا اللحن أكاد أحفظه حفظا، أما المصادفة السعيدة غير المتوقعة فهى أن حبيبتى الراحلة تسير وراء الفرقة هى هى بطلعتها البرية ومشيتها السنية وملامحها الأنيقة، أخيراً تكرمت بزيارتى وتركت الفرقة الجنائزية تسير ووقفت قبالتى لتؤكد لى أن العمر لم يضع هدراً. وقمت واقفا منبهرا وتطلعت إليها بكل قوة روحى وقلت لنفسى إن هذه فرصة لا تتكرر. لألمس حبيبة القلب.

وتقدمت خطوة وأحطتها بذراعى ولكنى سمعت طقطقة شىء يتكسر وأيقنت أن الفستان ينسدل على فراغ وسرعان ما هوى الرأس البديع إلى الأرض وتدحرج إلى النهر وحملته الأمواج مثل ورد النيل تاركة إياى فى حسرة أبدية!

حلـم ١٥

بهو رضت على جوانبه المكاتب.. إنه مصلحة حكومية أو مؤسسة تجارية والموظفون بين السكون وراء مكاتبهم أو الحركة بين المكاتب.

وهم خليط من الجنسين والتعاون فى العمل واضح والغزل الخفيف غير خاف وأنا فيما بدا من الموظفين الجدد ومرتبى على قد حاله وشعورى بذلك عميق ولكنه لم يمنعنى من طلب يد فتاة جميلة وهى كموظفة أقدم وأعلى. والحق أنها شكرتنى ولكنها اعتذرت عن عدم الاستجابة لطلبى قائلة: لا نملك ما يهيىء لنا حياة سعيدة.

وتلقيت بذلك طعنة نفذت إلى صميم وجدانى.

ومن يومها تحسبت مفاتحة أى زميلة فى هذا الشأن على الرغم من إعجابى بأكثر من واحدة وعانيت مر المعاناة من العزلة والكآبة.. وألحقت بالخدمة فتاة جديدة فوجدت نفسى فى مكانة أعلى لأول مرة فأنا مراجع وهى كاتبة على الآلة الكاتبة ومرتبى ضعف مرتبها إلا أنها لم تكن جميلة بل الأدهى من ذلك أنى سمعت همسا يدور حول سلوكها وبدافع من اليأس قررت الخروج من عزلتى فداعبتها فإذا بها تداعبنى، ومن شدة فرحى فقدت وعيى وطلبت يدها وقالت لى: آسفة!

فلم أصدق أذنى وقلت وأنا أتهادى : مرتبى لا بأس به بالإضافة إلى مرتبك .

فقالت بجدية : المال لا يهمنى .

وهممت أن أسألها عما يهمها ولكنها ذهبت قبل أن أنطق . .

حلــم ١٦

هنأنى الطبيب المساعد على نجاح العملية . . عقب إفاقتى من التخدير أشعر بارتياح عميق وبسعادة النجاة الصافية . دخلت الحجرة فجاءت الممرضة بكرسى وجلست مقتربة برأسها من رأسى تأملتنى مليا ثم قالت لى بهدوء شديد : طالما كانت أمنيتى أن أراك راقدا بلا حول ولا قوة .

فنظرت إليها بدورى وقلت لها فى ذهول : ولكنى أراك لأول مرة فى حياتى فلماذا تتمنين لى السوء؟

فقالت باحتقار وحقد : جاء وقت الانتقام .

وقامت وغادرت الحجرة تاركة إياى فى دوامة من الحيرة والقلق والخوف ، كيف تتصور تلك المرأة أننى أسأت إليها على حين أننى أراها لأول مرة فى حياتى وجاء الطبيب الجراح ليلقى علىّ نظرة فتشبثت به قائلا : أدركنى يا دكتور فإن حياتى فى خطر :

فأصغى إلىّ وأنا أقص عليه ما جرى وأمر بعرض الممرضات المكلفات بالخدمة فى العنبر علىّ ولكنى لم أعثر على الممرضة بينهن .

وغادرنى الدكتور وهو يقول : أنت هنا فى كامل الرعاية .

ولكن صورة الممرضة لم تفارقنى ولم تغب عنى الوساوس وكل من دخل الحجرة نظر إلىّ بغرابة كأننى أصبحت موضع تساؤل وشك وتراءى أمام عينى طريق طويل ملىء بالمتاعب .

حلــم ١٧

تواصلت أحياء الجمالية والعباسية وأنا أسير وكأننى أسير فى مكان واحد . وخيّل إلىّ أن شخصا يتبعنى ، فالتفت خلفى ولكن الأمطار هطلت بقوة لم نشهدها منذ سنين

ورجعت إلى مسكنى مهرولا . وشرعت أخلع ملابسى ، ولكن شعوراً غريبا اجتاحنى بأن شخصا غريبا مختف فى المسكن ، واستفزنى استهتاره ، فصحت به أن يسلم نفسه وفتح باب حجرة الاستقبال وبرز رجل لم أر مثيلا فى مساحته وقوته وقال بهدوء وسخرية «سلم أنت نفسك» .

وملكنى إحساس بالعجز والخوف وأيقنت أن ضربة واحدة من يده كفيلة بسحقى تماما أما هو فأمرنى بتسليمه محفظتى ومعطفى وكان المعطف يهمنى أكثر ولكنى لم أتردد إلا قليلا وسلمته المعطف والمحفظة . . ودفعنى فألقانى أرضا . ولما قمت كان قد اختفى وتساءلت هل أنادى وأستغيث .

ولكن ما حدث مهين ومخجل وسيجعلنى نادرة ونكتة فلم أفعل .

وفكرت فى الذهاب إلى القسم ، ولكن ضابط المباحث كان من أصحابى وستذاع الفضيحة بطريقة أو بأخرى .

وقررت الصمت ولكنى لم أسلم من الوساوس .

وخفت أن أقابل اللص فى مكان ما وهو يسير هانئا بمعطفى ، ونقودى .

حلم ١٨

وتم مجلسنا على الجانبين فى القارب البخارى .

بدا كل واحد وحده لا علاقة له بالآخرين وجاء الملاح ودار الموتور . الملاح فتاة جميلة ، ارتعش لمرآها قلبى . أطلت من النافذة وأنا واقف تحت الشجرة وكان الوقت بين الصبا ومطلع الشباب ، وركزت عينى رأسى فى رأسها النبيل وهى تمرق بنا فى النهر وتتناغم خفقات قلبى مع دفقات النسيم وفكرت أن أسير إليها لأرى كيف يكون استقبالها لى .

لكنى وجدت نفسى فى شارع شعبى لعله الغورية وهو مكتظ بالخلق فى مولد الحسين ولمحتها تشق طريقها بصعوبة عند أحد المنعطفات فصممت على اللحاق بها . .

وحيا فريق من المنشدين الحسين الشهيد .

وسرعان ما رجعت إلى مجلسى فى القارب وكان قد توغل فى النهر شوطا طويلا . ونظرت إلى مكان القيادة فرأيت ملاحا عجوزا متجهم الوجه . ونظرت حولى لأسأل عن الجميلة الغائبة ولكنى لم أر إلا مقاعد خالية .

وقمت لأسأل العجوز عن الجميلة الغائبة .

حلـــم ١٩

انبـهرت بـالشقـة الجـديدة بعد تسلمـهـا، ففحصت كل مـوضع بنظراتى، امتلأت جوانحى بالسعادة وقلت لنفسى من الآن يحق لى أن أشغل وظيفة وعلىّ أن أسعى إليها دون تأخير.

وذهبت إلى السوق، المكان واسع المساحة مسوّر بسور من البناء المتين، وأظهرت أوراق ملكية الشقة فسمحوا لى بالدخول.

المكان مكتظ بالخلق، لمحت وجوها أحببتها كثيرا ولكنهن جميعا كن متأبطات أذرع رجالهن، وذهبت إلى النافذة المقصودة وقدمت أوراقى وفى مقدمتها أوراق ملكية الشقة الجديدة، وفحصها الرجل وسجلها وقال لى: «لا توجد الآن وظائف خالية، وسوف نتصل بك، فى الوقت المناسب».

شعرت بخيبة أمل وشعرت بأننى سأنتظر طويلا ورجعت مخترقا الجموع ومتأملا بعجلة الوجوه الجميلة التى أحببتها فى الماضى، ولبثت فى الشقة وحدى، وفى الطريق سمعت رجلا يقول بصوت جهير «لا معنى لأن يملك شخص شقة دون أن يشغل وظيفة. . الأولى أن يتركها لغيره فيمن يحظون بفرص أكثر لشغل وظيفة». . وكأنه يعنينى بقوله، وما دامت الفكرة وجدت فقد تتحول إلى واقع.

وساورنى الشك والهم، وانتظرت ما يخبئه الغد بعين قلقة مؤرقة.

حلـــم ٢٠

خرجنا باحثين عن مكان طيب نمضى فيه بعض الوقت، ونظرنا إلى الهلال ثم تبادلنا النظر. ورأيت على ضوء المصباح رجلا عملاقا لم تر العين مثله أرسل عمودا لا مثيل لطوله نحو الهلال حتى بلغ طرفه. وراح بحركة ماهرة يفرد طيات نوره حتى استوى بدرا. وسمعنا أصوات تهليل فهللنا معها وقلت إنه لم يحدث مثل هذا من قبل فصدَّقت على قولى، وانساب النور على الكون رفعنى على سطح الماء فهتفت «ليلة قمرية» فقلت «القارب يدعوننا» وركبنا ونحن فى غاية السرور، وغنى الملاح رايداك والنبى رايداك، وأسكرنا الفرح فاقترحت أن نسبح حول القارب. وخلعنا ملابسنا ووثبنا إلى

الماء وسبحنا ونحن فى غاية الامتنان، ولكن القمر تراجع فجأة إلى الهلال واختفى الهلال. . انزعجنا انزعاجا لم نعرف مثله من قبل، ولكننى شعرت بأنه يجب مراجعة الموقف بما يتطلبه من جدية فقلت ونحن غارقان فى الظلام «لنسبح نحو القارب» فقالت «وإذا ضللنا الطريق» فقلت «نستطيع أن نسبح حتى الشاطئ» فقالت «سنكون عاريين على الشاطئ» فقلت: فليؤجل التفكير فى ذلك.

حلـــم ٢١

الشارع الجانبى لا يخلو من مارة وأناس فى الشُرفات، والسيدة تسير على مَهل وتقف أحيانا أمام معارض الأزياء.

يتعرض لها أربعة شبان دون العشرين، تتجهم فى وجوههم وتبتعد عن طريقهم، ينقضّون عليها ويعبثون بها، تقاوم والناس تتفرج دون أى مبادرة. . الشبان يُمزّقون ثوبها ويعرون أجزاء من جسدها، السيدة تصوّت مستغيثة، راقبت ما حدث فتوقفت عن السير وملكنى الارتياع والاشمئزاز ووددت أن أفعل شيئا أو أن يفعله غيرى ولكن لم يحدث شىء، وبعد أن تمت المأساة وفر الجناة. . جاءت الشرطة، وتغير المكان فوجدت نفسى مع آخرين أمام مكتب الضابط، واتفقت أقوالنا، ولما سُئلنا عما فعلناه كان الجواب بالسلب وشعرت بخجل وقهر، وكانت يدى ترتجف وهى توقع بالإمضاء على المحضر.

حلـــم ٢٢

كنا فى حجرة المكتب مشغولين ونظر إلى وجهى وقال إنك مشغول البال فقلت له بإيجاز وإعياء: الدواء لا تطيقه فقال أفهم ذلك وأقدره وأحمد الله الذى نجانى من مخالبه فسألته كيف نجا مما لا نجاة منه فقال «لى صديق له أخ صيدلى» فلما عرف شكواى أكد لى أنه يملك الحل. . وعرف منى الأدوية اللازمة لى ولأسرتى شهريا وعرضتها على أخى الصيدلى فجاءنا بمثيل لها بأقل من عُشر الثمن.

فسألته عن مدى الخطورة فى العملية فطمأننى وحدثنى طويلا عن أساليب شركات الأدوية حتى أذهلنى وأزعجنى، ولم أتردد فكتبت له قائمة بالأدوية اللازمة لى شهريا وأنا أشعر بارتياح عميق.

وإذا به يقول لى «ولكنى أريد منك خدمة فى مقابل ذلك» فأبديت استعدادى لأداء ما يطلب.

فقال «أنا يزعجنى الهجوم على الروتين الحكومى والبيروقراطية وتأثر الحكومة بما يقال وبما يكتب وأريد منك أن تكرس قلمك للدفاع عن الروتين والبيروقراطية» فدهشت وسألته عن سر حماسه لما أجمع الناس عن نقده ورفضه فقال غاضبا: «يا أخى ما قيمة الموظف أمام الجمهور من غير الروتين والبيروقراطية؟» ودار رأسى حيرة بين الأدوية والروتين.

حلم ٢٣

أسير فى الشارع وأنا على بيِّنة من كل مكان فيه، فهو عملى ونزهتى، وأصحابى وأحبائى، أحيى هذا وأصافح ذاك، غير أنى لاحظت أن رجلا يتعدانى بمسافة غير طويلة وغير قصيرة، وبين كل حين وآخر يلتفت وراءه كأنما ليطمئن إلى أنى أتقدم وراءه. لعلى لم أكن أراه لأول مرة ولكن على وجه اليقين لا تربطنى به معرفة أو مودة وضايقنى أمره فاستفزنى إلى التحدى. . أوسعت الخطى فأوسع خطاه، أدركت أنه يبيِّت أمرا فازددت تحديا ولكن دعانى صديق إلى شأن من شئوننا فملت إلى دكانه وانهمكت فى الحديث فنسيت الرجل وأنهيت مهمتى بعد الأصيل فودَّعته ومضيت فى طريق سكنى وتذكرت الرجل فالتفت خلفى فرأيته يتبعنى على نفس طبيعته. . تملكنى الانفعال وكان بوسعى أن أقف لأرى ماذا يفعل ولكنى بالعكس وجدت نفسى أسرع وكأنى أهرب منه وأخذ يساورنى القلق وأتساءل عما يريد. ولما لاح لى مسكنى شعرت بالارتياح وفتحته ودخلت دون أن أنظر خلفى ووجدت البيت خاليا فاتجهت نحو غرفة نومى ولكنى توقفت بإزاء شعور غريب يوحى إلىّ بأن الرجل فى داخل الحجرة.

حلم ٢٤

قررت إصلاح شقتى بالإسكندرية بعد غياب ليس بالقصير، وجاء العمال وفى مقدمتهم المُعلم وبدأ العمل بنشاط ملحوظ، وحانت منى التفاتة إلى شاب منهم فشعرت بأننى لا أراه لأول مرة، وسَرت فى جسدى قشعريرة عندما تذكرت أننى رأيته

يوما فى شارع جانبى يهاجم سيدة ويخطف حقيبتها ويلوذ بالفرار، ولكنى لم أكن على يقين وسألت المُعلم عن مدى ثقته بالشاب دون أن أشعر الشاب بذلك فقال لى المعلم:

- إنه مضمون كالجنيه الذهب فهو ابنى وتربية يدى واستقر قلبى إلى حين، وكلما وقع بصرى على الشاب انقبض صدرى، وطلبا للأمان فتحت إحدى النوافذ المطلة على الشارع الذى يعمل فيه كثيرون ممن أعرفهم ويعرفوننى ولكنى رأيت حارة الجراج التى تطل عليها شقتى بالقاهرة فعجبت لذلك وازداد انقباضى، وجرى الوقت واقترب المساء فطالبتهم بإنهاء عمل اليوم قبل المساء لعلمى بأن الكهرباء مقطوعة بسبب طول غيابى عن الشقة.

فقال الشاب: «لا تقلق.. معى شمعة».. فساورنى شك بأن الفرصة ستكون مُتاحة لنهّب ما خف وزنه وبحثت عن المُعلم فقيل لى إنه دخل الحمام وانتظرت خروجه وقلقى يَتزايد، وتصورت أن غيابه فى الحمام مؤامرة وأننى وحيد فى وسط عصابة، وناديت على المُعلم ونُذر المساء تتسلل إلى الشقة.

حلم ٢٥

رأيتها فى الحجرة معى. ولا أحد معنا، فرقص قلبى طربا وسعادة، وكنت أعلم أن سعادتى قصيرة. وأنه لن يلبث أن نفتح الباب ويجيء أحد.. وأردت أن أقول لها إن جميع الشروط التى أبلغت بها على العين والرأس ولكن تلزمنى فترة من الزمن ولكنى فتنت بوجودها فلم أقل شيئا، وناديت رغبتى.

فخطوت نحوها خطوتين لكن الباب فتح ودخل الأستاذ وقال بحدة «إنك لا تفهم معنى الوقت» واقتلعت نفسى وتبعته إلى معهده القائم قبالة عمارتنا وهناك قال لى «أنت فى حاجة إلى العمل عشر ساعات يوميا حتى تتقن العزف. ودعانى للجلوس أمام البيانو فبدأت التمرين وقلبى يحوم فى حجرتى. وسرعان ما انهمكت فى العمل.

وعندما سمح لى بالذهاب كان المساء يهبط بجلاله. وبادرت أعبر الطريق على عجل. ولكن لم يكن ثمة أمل فى أن تنتظرنى مدة غيابى.

وإذا برجل صينى طويل اللحية بسام الوجه يعترض سبيلى ويقول: «كنت فى المعهد وأنت تعزف، ولاشك عندى أنه ينتظرك مستقبل رائع».

وانحنى لى وذهب وواصلت سيرى وأنا مشفق مما ينتظرنى فى مسكنى من وحشة.

حلـــم ٢٦

جمعنا مقهى بلدى، وقص علينا صاحبى قصة بوليسية من تأليفه. . وقبيل الختام دعانا إلى الكشف عن القاتل. ومن دفع ثمن طلبه، ووفِّقت إلى الإجابة الصحيحة وحدث بذلك غاية السعادة. وبعد ساعة استأذنت فى العودة إلى بيتى. ولانشغالى بنجاحى تهت فسرت فى طرق حتى وجدت نفسى أخيرا أمام المقهى مما أثار ضحك الجميع، وتطوع أحدهم فأوصلنى إلى بيتى وودعنى وانصرف. وبيتى مكون من طابق واحد وحديقة صغيرة وشرعت فى خلع ملابسى ولما صرت بملابسى الداخلية لاحظت أن خطا من التراب يتساقط من أحد أركان الغرفة. . وكان هذا المنظر قد ورد فى القصة التى ألفها صاحبنا وكان نذيرا بسقوط البيت على من فيه فبكيت أن بيتى الصغير سينقض فوق رأسى. وملكنى الفزع فغادرت البيت بسرعة ولهوجة واستزادة فى الأمان انطلقت بعيدا عن البيت بأقصى سرعة فى الهواء الطلق.

حلـــم ٢٧

فى سفينة عابرة للمحيط. أجناس من كل لون ولغات شتى. وكنا نتوقع هبوب ريح وهبت الريح واختفى الأفق خلف الأمواج الغاضبة، إنى ذعرت ولكن أحدا لم يكن يعنى بأحد. وقال لى خاطر إننى وحيد فى أعماق المحيط. وأنه لا نجاة من الهول المحيط إلا بأن يكون الأمر كابوسا وينقشع بيقظة دافئة بالسرور. والريح تشتد والسفينة كرة تتقاذفها الأمواج. وظهر أمامى فجأة حمزة أفندى مدرس الحساب بخيرزانته وحدجنى بنظرة متسائلة عن الواجب. كان الإهمال الواحد بعشرة خيرزانات تكوى الأصابع كيا. وازددت كرها من ذكريات تلك الأيام.

وهممت بدق عنقه ولكنى خفت أن يكون أى خطأ سببا فى هلاكى فسكت على الذل وتجرعته رغم جفاف ريقى. ورأيت حبيبتى فهرعت نحوها أشق طريقا بين عشرات المذهولين. ولكنها لم تعرفنى وتولت عنى وهى تعلن ساخطة وجرت نحو حافة السفينة ورمت بنفسها فى العاصفة واعتقدت أنها تبين لى طريق الخلاص فجريت متعثراً نحو حافة السفينة ولكن مدرس الحساب القديم اعترض سبيلى ملوِّحا بعصاه.

حلــم ٢٨

تتحلق المستديرة والنقود تذهب وتجيء، أما الفتاة الجميلة فكانت تقوم بالخدمة وتقديم المشروبات وأحيانا السندوتشات. وابتسم لى الحظ فربحت عددا من الجنيهات يعد كبيرا فى مجالنا المحدود وشعرت بدوار خفيف فأعلنت أننى سأنسحب، وعلى الرغم من أن أحدا لم يصدق عذرى إلا أننى انسحبت، وعند ذلك اتهم أحد اللاعبين الفتاة بأنها كانت تكشف لى خفية عن بعض أوراق اللعب فغضبت الفتاة كما غضبت أنا احتجاجا على التهمة البطالة. وقام الرجل ومعه آخران ونزعوا ثياب الفتاة حتى تبدت عارية وهى تصرخ وتهدد بإبلاغ الشرطة عن الشقة التى تدار للمقامرة وغيرها من المحرمات فسرعان ما عاد كل إلى مجلسه. وساعدت الفتاة على ارتداء ملابسها وغادرت المكان إلى مسكنى القريب.

وجلست أستريح فإذا بالفتاة تحضر وأخبرتنى أن المجموعة غاضبة وزادها السُكْر غضبا وتهدد باقتحام مسكنى وإشعال فضيحة فى الحى كله ونصحتنى أن أرد ما ربحته حلا للمشكلة، ولكنى قلت لها إنهم سيعتبرون ذلك اعترافا بجريمة لم نرتكبها، فقالت إن ذلك أهون مما يعتزمون ارتكابه وأذعنت لرأيها وسلمتها النقود وذهبت بها.

وعاد الهدوء لليل ولكنى لم أزل أتوقع فضيحة أو شرا من ذلك.

حلــم ٢٩

المكان جديد لم أره من قبل. لعله بهو فى فندق وقد جلس الحرافيش حول مائدة. وكانوا يناقشوننى حول اختيار أحسن كاتبة فى مسابقة ذات شأن. وبدا واضحا أن الكاتبة التى رشحتها لم تحز أى قبول. قالوا إن ثقافتها سطحية. وإن سلوكها غاية فى السوء. وعبثا حاولت الدفاع. ولاحظت أنهم ينظرون إلىَّ بتجهُّم غير معهود وكأنهم نسوا عشرة العمر. وتحركت لمغادرة البهو فلم يتحرك منهم أحد وأعرضوا عنى بغضب شديد، سرت نحو المصعد ودخلت وأنا أكاد أبكى. وانتبهت إلى أنه توجد معى امرأة فى ملابس الرجال ذات وجه صارم. قالت إنها تسخر بما يسمونه صداقة وإن المعاملة بين البشر يجب

أن تتغير من أساسها . وقبل أن أفكر فيما تعنيه استخرجت مسدسا من جيبها ووجهته الىَّ مطالبة إياى بالنقود التى معى . وتم كل شىء بسرعة ولما وقف المصعد وفتح بابه أمرتنى بالخروج . وهبط المصعد ووجدتنى فى طرقة مظلمة وقهرنى شعور بأننى فقدت أصدقائى وأن حوادث كالتى وقعت لى فى المصعد تتربص بى هنا أو هناك .

حلـــم ٣٠

هذا بيتنا بالعباسية أدخل الصالة أمى تذهب إلى المدخل وأختى تجىء فتقف لحظات ثم تلحق بأمها . لم نتبادل السلام ولكنى أعلنت عن جوعى الشديد بصوت مسموع . لم يرد أحد فكررت الطلب . وسمعت أصواتا فى الحجرة المطلة على الحقل فذهبت إليها فوجدت أخى الأكبر يجلس صامتا ويتربع أمامه على الكنبة شيخ بالأزهر وقال الشيخ كلاما جميلا ولما انتهى قلت له إنى جائع فقال لى إن أحدا لم يقدم له القهوة ولا حتى قدح ماء فغادرت الحجرة وقلت بصوت تسمعه أمى وأختى أن يقدما القهوة لفضيلة الشيخ وأن يحضرا لى طعاما ولو قطعة خبز وجبنة ـ ولم أتلق إلا الصمت غير أنى سمعت حركة فى الحجرة المطلة على الفناء فأسرعت إليها وذكرت أنها حجرتى وفيها الفونوغراف والأسطوانات التى أحببتها فوجدت بنت الجيران التى كانت تزورنى لتستعير بعض أسطوانات سيد درويش خصوصا أسطوانة أنا عشقت وكانت تبحث عن إبرة لتسمع أسطوانة فقلت لها إنى جائع فقالت لى إنها جائعة أيضا . وغلبنى الجوع فغادرت الحجرة وصحت طالبا لقمة ولما لم أجد أى شىء غادرت البيت والمساء يظل الطريق والطريق خال وخفت أن تكون المحال قد أغلقت ولكنى اتجهت نحو المخبز منهوك القوى من الجوع وثمة أمل يراودنى .

حلـــم ٣١

أمتطى حمارا يسير بى وسط الحقول خطوات رتيبة وأنا خال من المشاعر تحت أشعة شمس الخريف . وترامى إلينا نباح كلب فتوقف الحمار فنخسته بكعبى فعاد إلى السير ، وتعود النباح وتنوح فأحدد بصرى لأرى الرجل الذى أقصده . وظهرت امرأة محاطة بالعديد من الكلاب فهتفت فيها ألا تكف عن النباح فأذعنت لها فسلمت وقلت إنى قادم

لمقابلة الشيخ بناء على خطابين متبادلين. قالت المرأة إنها صاحبة الأمر الأخيرة وأنها تستطيع أن تقدم الخدمات المطلوبة كما تستطيع أن تفنى من تشاء إن حرضت عليه الكلاب.

فقلت: إننى جئت للسلام لا للحرب وإنى أريد عملا. وأشارت إلىّ فنزلت عن ظهر الحمار ووقفت أمامها فى خشوع وسارت وتبعتها ومن خلفى الحمار تحيط بنا الكلاب. ووقفت أمام مبنى صغير فتوقف الركب كله. وأمرتنى بالدخول فدخلت وقالت لى أن أنتظر فى الداخل وحذرتنى من الخروج إلى الكلاب التى لا ترحم. فسألتها حتى متى ألبى. وماذا عن العمل؟ وأن الشيخ وعدنى خيرا ولكنها لم تحفل بكلامى وامتطيت الحمار وذهبت تاركة الكلاب حول المبنى. وكانت ترسل إلىّ باحتياجاتى مع رجال أشداء ولكنهم لاينبسون بكلمة وأفكر أحيانا فى الدخول مع الكلاب فى معركة حياة أو موت. ولكن يتغلب الأمل فأنتظر.

حلم ٣٢

حدثنى الزميل القديم فقال إنه ذاهب للعمل فى اليمن وقال لى إن ثمة كلاما يدور حول دعوتى للعمل فى اليمن وحثنى على القبول فوعدت بالتفكير فى الموضوع دون أن أبدى أى حماس له. وفى البيت الذى أعيش فيه وحيدا مع كلبتى فكرت فى الأمر على غير المتوقع. وشجعنى على ذلك نفورى من كلبتى الذى تولد منذ أخذ وجهها يتغير ويتخذ صورة وجه إنسان. كانت وهى كلبته خالصة جذابة ومسلية أما بعد التغيير المذهل فلم تعد كلبته ولا بلغت أن تكون إنسانا وسرعان ما أجد نفسى فى حجرة مكتبى فى اليمن وسكرتيرى الخاص واقف بين يدى وكانت الحرارة شديدة فسألت السكرتير عن حال الجو فى هذا البلد فقال لى إنه دافىء شتاء وشديد الحرارة بقية فصول السنة ولكن المبنى مرتفع جدا وكلما ارتفع تحسن الجو وأنه ما علىّ كلما ضقت بالجو أن أكتب التماسا للمدير للنقل إلى طابق أعلى. سررت بعد اكتئاب وقمت إلى النافذة ونظرت إلى أعلى فرأيت المبنى عظيم الارتفاع حتى خيل إلىّ أنه يلامس السماء.

ورأيت رءوسا تطل من النوافذ العالية فارتعش قلبى لرؤيتها إذ رأيت فيها وجوه أحبة الزمان الأول. سررت سرورا لا مزيد عليه وحمدت الله على قبولى الدعوة للعمل فى اليمن السعيد.

حلـــم ٣٣

ماذا حَل بالشارع بل بالحىّ كله؟ . . على ذاك لم أكن أتوقع خيراً فيما أرى .

الحىّ كله كأنما هَرِم به العمر فذهب رونقه وتناثرت القمامة هنا وهناك ، وصادفنى أحد العاملين فسألته : ماذَا جرى؟

فأجاب وهو يبتسم : البقاء للـه وحده ، وسبحان مُغيّر الأحوال .

وقصدت مسكن صديقى متوقعا أن يحيق به ما حاق بالحى كله أو أكثر ، ولا أُنكر أنه كان وساطتى للحصول على بعض الأدوية الضرورية من الخارج كما كانت مكالمة تليفونية منه تحل أعصى المشكلات فى المصالح الحكومية ، وجدته كاسف البال لا يأمل خيراً فى شىء . . فعزَّيته وقلت له إنه صاحب مهنة على أى حال .

فقال متهكّما : ستثبت لك الأيام أننا لسنا أسوأ من غيرنا .

وساءلت نفسى ترى هل يوجد حقاً ما هو أسوأ ، وسرعان ما حضر نفر من الشبان والشابات ، ومع كل حقيبته مَلأها بأشيائه المودعة فى الشقة مثل البيجامات والملابس الداخلية والقمصان النسائية الفاتنة وداهنة وروائح عطرية .

وحمل كل حقيبته وذَهب . . نطق كل شىء بما كانت تؤديه شقته من خدمات كما فطن بتدهوره . . وتساءلت فى نفسى . . ترى هل كان ينعم بالفخر أو أنه تجرّع المذلة والقهر .

حلـــم ٣٤

عند منعطف من منعطفات الحارة ، رأيت أمامى الصديقين الشقيقين اللذين طال غيابهما وأحزننى غاية الحزن ، وبهتنا لحظات ثم فتحت الأذرع وكان العناق الحار ، وتذاكرنا الأحزان والأفراح والليالى الملاح وطلبا منى زيارة سكنى فمضيت بهما إليه على بُعد أمتار ، وتفحصاه حجرة بعد حجرة وضحكا طويلا كعادتهما ثم أعربا عن أسفهما لبساطة المأوى ثم سخرا منى بلسانيهما اللاذعين الجذابين ، وسألانى عن عملى الذى أعيش منه ، فأجبت بأننى عازف رباب وأتغنى بعذابات الحياة وغدر الدهر ، وعزفت

لهما وغنيت فقالا إنها حياة أشبه بالتسول ولذلك فهما لا يدهشان لما يبدو فى وجهى من آثار الضعف والبؤس وقالا لى إنهما بحثا عنى طويلا حتى عثرا علىّ، وتبين لهما أن قلقهما كان فى محله وأنهما يبشرانه بالفرج . . حمدت الله على ذلك ولكن ما الذى يبشراننى به، قالا ستهاجر معنا إلى المكان الجميل والرزق الوفير، فسألت كيف يتيسر لى ذلك فقالا إنهما ـ كما أعلم ـ يمتان بصلة لأصحاب النفوذ ولا خير يجىء إلا عن طريق أصحاب النفوذ.

وتأبطا ذراعى وسارا بى إلى الخارج، حتى بلغنا أحد الرجال العظام شكلا وموضوعا، واستمع للحكاية بوجه محايد، وقال لى إن الهجرة تحتاج لهجة عالية وصبرا طويلا، فوعدنى خيراً وقال الصديقان، إنهما يطمئناننى . . فقال:

ـ انتظرونى عند الجامع على طلوع الفجر.

حلم ٣٥

فى بيت العباسية ونحن نأوى إلى أسرتنا للنوم أيقظنى صوت ابن أخى وهو يصيح حريق فى السقف، ونهضت فزعاً وجاء ابن أخى بالسلم الخشبى وأقمناه فى الصالة وصعد كل واحد منا على جانب حاملاً ما استطاع حمله من الماء وأخذ يرشه على النار السارية بين الأركَان، واقتحمت حجرة أختى . وأيقظتها من نومها العميق ومن عجب أنها قامت متكاسلة ومتشاكية من أننا لا نتركها أبداً تنعم بالنوم . وعلى أى حال ساعدتنا بملء الأوعية بالماء حتى سيطرنا على النار وأخمدناها . وبدأنا نحقق فى الأمر ولكن رجال المطافىء حضروا على أثر استدعاء الجيران لهم وتأكدوا من خمول النار وفتحوا الشرفات وتفقدوا الأثاث الموجود بها وانتهى الحريق بعد أن أفحمنا فزعاً . وعندما جلسنا نستعيد بعض هدوئنا دق جرس التليفون، ويلاحظ هنا تداخل الزمان والمكان إذ إن بيت العباسية لم يكن به تليفون، وهكذا أصبحنا فى مسكن آخر مع أناس آخرين دق جرس التليفون وكان المتحدث صاحب العمارة التى أستأجرنا بها شقة فى الإسكندرية ودعانا الرجل إلى الإسكندرية دون إبطاء وأنه شبت النار داخل الشقة . وطمأننا أنه استدعى المطافىء فأخمدوا النار ولكن حضورنا ضرورى بطبيعة الحال . وفى الحال ارتدينا ملابسنا أنا وزوجتى وأسرعنا إلى محطة الباص الصحراوى وكنا فى غاية الكدر والانزعاج حتى أننى اقترحت على زوجتى إخلاء الشقة وتسليمها لصاحبها خاصة وأنها تعرضت إلى محاولة سرقة قبل ذلك ولكنها قالت لى انتظر حتى نرى ماذا ضاع منا وماذا بقى.

حلـــم ٣٦

جمعنا بهو ما. ثمة وجوه أراها لأول مرة ووجوه أعرفها جيداً من الزملاء. وكنا ننتظر إعلان نتيجة يا نصيب. وأعلنت النتيجة وكنت الرابح وكانت الجائزة فيلا حديثة. وحصل زياط وتعليقات وتوهان. ولم تستطع وجوه كثيرة أن تخفى كمدها. وقال لى كثيرون إنه فوز ولكنه خازوق من أين لك المال لتأثيثها وتوفير الخدم اللازمين لها واستهلاكات الماء والكهرباء وخدمة حوض السباحة والتكييف الخ؟

الحق أن الحلم مازال حلما وها أنا أتفقد الفيلا كل يوم تقريبا وأرجع بالخيبة والحسرات. واستغل أناس قلة خبرتى وأقنعونى ببيعها واشتروها بثمن فرحت به ساعات حتى تبين لى أننى خدعت وسرقت.

وحدث فى ذلك الوقت أن خلت وظيفة مدير عام وكثر التزاحم حولها والمرشحون وبطاقات ذوى النفوذ وقابلت الوزير وقلت له إننى لا وسيط لى سواه ولكنه قال لى إنك لم تستطع أن تحافظ على مالك الخاص فكيف أأتمنك على المال العام.

وصرت نادرة ومثالا فطلبت ضم المدة الباقية لى فى الخدمة إلى خدمتى وإحالتى إلى المعاش وأخيراً وجدت الطمأنينة فى موضع لا يتطلع إليه طماع ولا ينظر إليه ذوو الطموح.

حلـــم ٣٧

المحمل يتمايل فوق الجمل المزين بالألوان والورود. أمامه رجل يغرس فى فيه عامودا ذا رأس تدلى منه شراشيب ورأس الجمل فى مستوى أول طابق من بيت أطل أنا من نافذته وتلاقت عينى مع عين الجمل فقرأت فيها ابتسامة وغمرة وحلت لى البركة فطرت من موقعى وراء النافذة ودرت حول رأس الجمل بجلبابى وشعرى المنفوش وكبرّ الناس وهللوا وزهلوا لوقوع المعجزة وتماديت أنا فارتفعت فى الجو وتراجعت نحو سطح بيتى وهبطت. وبعد مرور المحمل تجمع الناس أمام البيت يريدون مشاهدة الإنسان الطائر. وإذا بهم يتحولون فجأة من الإعجاب إلى الخوف والحذر وقالوا إن روحا شريرة حلت بالشخص الطائر وأن طيرانه حول رأس الجمل نذير شؤم للناس جميعا وإنه

يجب أن يبرأ من الشيطان ذلك بجلده حتى يتطهر تماماً فإذا رفض الدواء عرض نفسه للعقاب المناسب وهو القتل، وركب الرعب الشاب وأسرته واستنجدت الأسرة بالشرطة واشترط المأمور أن يرى المعجزة وهى تحدث أمام عينيه وذهب إلى البيت ورأى المعجزة وبهر بها حقا ولكنه وجد نفسه بين رأيين. الأسرة تقول إنها كرامة من كرامات الأولياء والناس تؤكد أنه عبث من الشيطان ونذير شر.

وأخيراً قرر المأمور أن يضع الشاب فى السجن حتى ينسى الموضوع برمته.

حلـــم ٣٨

فى حجرتى جالس أستمع إلى أغنية يذيعها الفونوغراف. دخلت من الباب المفتوح فتاة فى العشرين جميلة ورشيقة ومثيرة. اكتسحتنى دهشة ورغبة فقمت من مجلسى واتجهت نحوها حتى وقفت قبالتها. وبهدوء مدت يدها بخطاب فتناولته ونظرت فيه ثم رددته إليها وأنا أقول لها إننى لا أستطيع القراءة لضعف بصرى وطلبت منها أن تقرأه هى ولكنها اعتذرت بأنها لا تقرأ ولا تكتب وأن والدها كتبه للأمير المسطر اسمه على الظرف ووصاها والدها قبل وفاته بأن تجيئنى بالخطاب لأحمله إلى الأمير. وقلت لها ودهشتى تتزايد إننى لا أعرف الأمير ولا أى أمير غيره وساورنى الارتياب من ناحيتها وحاولت تغيير الموضوع ولكنها ذهبت.

وعندما كنت أعبر جسر قصر النيل فى طريقى إلى عملى ظهرت لى عند نهايته فتجاهلتها ولكنها تبعتنى مسافة غير قصيرة.

وعندما عدت إلى مسكنى وجدتها مستقرة. حذرتها من أن تعود إلى موضوع الخطاب والأمير. ومر وقت طيب ولكنى لم أخل من الوساوس. والظاهر أنها لم تخل كذلك من مخاوف. وكان واضحاً أننا نريد الهرب بطريقة أو بأخرى.

حلـــم ٣٩

دخلت حجرة الوزير ومعى بيان مكتوب على الآلة الكاتبة بأسماء الموظفين المرشحين للترقية. اسمى بينهم وواضح أن الوزير يخصنى بالرعاية.

وقَّع الوزير البيان فى أعلاه وذهبت به إلى إدارة المستخدمين لتنفيذه. اتجهت إلى الموظف المختص وكانت فتاة شابة وجميلة. نظرت فى البيان ولاحظت أن الوزير وضع إمضاءه فى أعلاه وأنه يجب أن يضعه فى أسفله. وإلا فإنها لن تستطيع تنفيذ أمر الترقية أو على الموظفين المسجلين فى أعلاه. اغتظت وشكوت ما نلاقى من الروتين ولكنها أصرت على موقفها فحملت البيان من جديد إلى الوزير فوقَّع اسمه فى الموضع الصحيح وهو يضحك. ورجعت إلى الفتاة وسلمتها البيان. وكانت تجلس على يمين مكتبها موظفة صديقة معروفة بالمرح فدافعت عن تصرف زميلتها قائلة إنها تضن بالترقية على الموظفين العزَّاب وترى أن المتزوجين أولى بها. وتظاهرت الموظفة بأنها تضايقت من إذاعة هذا السر. ولما قابلتنى الموظفة المرحة بعد ذلك سألتنى عن رأيى فى موظفة المستخدمين فصارحتها بأنها أعجبتنى فاقترحت أن تبلغها بإعجابى كمقدمة لجمع رأسين فى الحلال. فطلبت مهلة للتفكير فقالت إننى لم أعد شابا وإن عمرى يضيع فى التفكير وأصرت على إبلاغها واستسلمت فلم أرفض..

حلـــم ٤٠

قبيل المساء وأنا عائد إلى بيتى متدثّرا بالمعطف والكوفية اعترض سبيلى صبى وصبية غاية فى الجمال والتعاسة وطلبا منى ما أجود به لوجه الله وبحثت فى جيبى عن فكة فلم أجد فأخرجت ورقة من ذات الجنيهات الخمسة وطلبت من الصبى أن يذهب إلى أقرب كشك ويشترى لى قطعة شيكولاتة ويجيئنى بالباقى. وما غاب الصبى عن عينى حتى بكت الصبية واعترفت لى بأن أخاها يعاملها بغضب شديد ويدفعها لارتكاب الأخطاء فهى تزداد كل يوم انحرافا وشرا وتدعو الله أن ينقذها مما تعانى. تأثرت وتحيرت. ثم عرفت أن الصبى لن يعود وأدركت مدى حماقتى لما أوليته من ثقة وتذكرت كيف يتهمنى أهلى بالطيبة والغفلة، ولكنى لم أترك له أخته وأخذتها إلى بيتى لتبدأ حياة جديدة مع أهلى. وتحسنت أحوالها وبدت وكأنها من الأسرة لا شغالة لها.

وذات يوم جاء لى شرطى ومعه الصبى الأخ ولما رأى أخته أمسك بها. وعلمت أنى مطلوب فى القسم. وهناك وُجِّهت إلىّ تهمة اغتصاب البنت والاحتفاظ بها فى بيتى بالقوة. وذُهلت أمام ما يوجه إلىّ وطلبت من البنت أن تتكلم فبكت ووجهت إلىّ من الكبائر ما لم يخطر لى على بال. وكان المحضر يسجل كل كلمة والدنيا تسود فى عينى وعلى الرغم من إيمانى الراسخ فلم تغب عنى خطورة الموقف.

حلـــم ٤١

قال لى السمسار: لا تضجر ولا تيأس يلزمك الصبر الجميل. وكنت أعرف أنه على علم بسر قلقى. وأننى مهدد بأن أفقد المأوى وأجد نفسى فى الطريق. قلت له بأننى رأيت من المساكن عدد شعر رأسى ولكن الأسعار دائماً فوق قدرتى. وما هذه المساكن الخيالية التى يقدر ثمن الشقة فيها بالمليون. والعجيب أنه أكد لى أن أربع زميلات لى يملكن شققا فى هذه المساكن الخيالية. وغبطهن على قدراتهن الخارقة. وقال لى الرجل إن الأمل الأخير فى عمارة الحاج على بحى الحسين وأن علينا أن ننتظر عودته من الحج. وقلت له إننى أذكره من أيام إقامتنا فى الحى العتيق وإننى كنت أشترى منه الفول أحياناً بنفسى فضحك الرجل وقال إن هذا ما يقوله الكثيرون ممن يرجون امتلاك شقة فى عمارته الجديدة.

قلت بخوف : إنه الأمل الأخير .

فقال بلهجة مشجعة : «عليك بالصبر الجميل» .

حلم ٤٢

السفينة تشق طريقها بين أمواج النيل الرزينة . نحن جلوس على صورة دائرة يقف فى مركزها الأستاذ . وضح أننا نؤدى الامتحان النهائى . وكان مستوى الإجابات ممتازا . وتفرقنا نشرب الشاى ونأكل الجاتوه . وتسلمنا شهادات النجاح وعند المرسى وقفت السفينة وغادرناها وكل يحمل شهادته فى مظروف كبير . ووجدت نفسى أسير فى شارع عريض خال من المبانى ومن المارة . ولاح لى مسجد يقوم وحيدا فاتجهت نحوه لأصلى وأرتاح قليلا . ولكن تبيَّن لى حال دخولى أنه بيت قديم . هممت بالرجوع ولكن جماعة من قطاع الطريق أحاطوا بى وأخذوا الشهادة والساعة والمحفظة وانهالوا علىَّ ضربا ثم اختفوا فى أرجاء البيت .

خرجت إلى الطريق وأنا لا أصدق بالنجاة . وبعد مسيرة يسيرة صادفتنى دورية من الشرطة فهرعت إليهم وحكيت لقائدهم ما وقع لى .

وسرنا جميعا نحو بيت اللصوص ، واندفعوا داخلين شاهرى أسلحتهم ولكننا وجدنا أنفسنا فى مسجد والناس يصلون وراء الإمام . وحصل ذهول وتراجعنا مسرعين وأمر قائد الدورية بإلقاء القبض علىَّ . وجعلت أؤكد ما وقع لى وأقسم بأغلظ الأيمان ، ولكن وضح لى أنهم أخذوا يشكون فى عقلى على أنى لم أكن دونهم حيرة وذهولا .

حلم ٤٣

ليلة زفاف ابن عمى تقام فى بيتنا بالعباسية بين الطبل والأغانى . يتقدم ابن عمى تتأبط ذراعه عروسه فى حلة العرس . وقبل أن يصعدا السلم إلى الداخل يعترضهما مفتش الشرطة . ذهلنا وتساءلنا عما وراء ذلك . انقض المفتش على العروس فتفحص وجهها وأخذ بصمتها على لوح صغير وفحصه بمنظار مكبر وألقى القبض عليها وسار بها إلى سيارة الشرطة . وأدرك الجميع ما يعنيه ذلك وأقبلوا على ابن عمى يواسونه ويحمدون الله الذى نجاه من شر أوشك أن يطوقه ، ورغم ذلك فقد مضى الشاب وهو

يبكى . وقررت أن أمضى الليلة فى بيت العباسية مع أهلى ولكنى اكتشفت أن جميع مصابيحه الكهربائية معطلة . فسألت أختى كيف يعيشون فى الظلام . واكتشفت أيضا أن جدرانه تحتاج إلى ترميم ودهان . وضقت بالمكان ونويت أن أصلحه ، وأعيده إلى رونقه القديم .

حلم ٤٤

وجدت نفسى جالسا أمام مكتب وزير الداخلية . منذ أيام قلائل كان زميلى فى الجريدة وكان اختياره وزيرا للداخلية مفاجأة وانتهزت الفرصة وطلبت مقابلته فاستقبلنى بمودة وترحاب وعرضت عليه مطلبى وهو توصية لرجل أعمال معروف بصداقته له فاختاره فى وظيفة معينة فى شركة من شركاته . وكتب بخط يده التوصية المطلوبة وانتهت المقابلة على أحسن حال . وفى مساء اليوم نفسه وأنا أمشى على شاطىء النيل اعترضنى رجل ممن نسمع عنهم فى الصحف وأشهر علىّ سلاحا وسلب منى نقودى . كانت فى حدود خمسين جنيها .

رجعت إلى منزلى مضطربا ولكنى لم أتخذ أى إجراء يؤثر فى الميعاد الذى حدده لى رجل الأعمال . وعند الضحى كنت فى مكتبه وبعد دقائق سمح لى بالدخول فى مكتبه وقدمت التوصية ، تجمدت فى موقفى وكانت لحظة غاية فى الحرج قلت فى نفسى «رباه . . . إنه اللص الذى سرقنى أو أخوه التوءم ودارت بى الأرض» .

حلم ٤٥

على سطح البحيرة ينطلق قاربى البخارى وذاك قارب آخر يتبعنى أو هكذا خيل إلىّ . وأسرع فيسرع وساورنى القلق . ولكن لماذا يتبعنى ؟

ووجدتنى أقترب من مرسى فخم فرسوت وصعدت سلما إلى شرفة واسعة وعرفت أنها تتبع السفارة الروسية وكانت الشرفة مليئة بالمعزين الذين جاءوا يعزون فى وفاة فقيدة عزيزة .

وسلمت على السفير وجلست أسمع مايقال عن الفقيدة . وأنظر إلى البحيرة فلا أرى أثرا للقارب الآخر فاطمأن قلبى .

وقمت فى الوقت المناسب إلى قاربى وانطلق بى فى اتجاه الشاطئ الآخر ونظرت خلفى فرأيت القارب الغريب وهو ينطلق ورائى وكنت بلغت وسط البحيرة فرأيت من الأفضل أن أسير إلى الشاطى عن الرجوع إلى السفارة وقلت إنه عند الشاطىء تتضح حقيقة الموقف للمواجهة بكل قوة.

حلم ٤٦

جمعتنا حديقة. درج صاحبنا يغنى ونحن نسمع ونطرب ويعلو منا هتاف الوجد والاستحسان. وأزعجنا العباد فشكونا إلى الشرطة. ورأينا الشرطة قادمة فتفرقنا لائذين بالفرار. جريت فى الاتجاه الذى اتفق وكلما نظرت خلفى رأيت الشرطى يجرى فى أثرى بكل قوة وإصرار. وظهر لى شخص يجرى أمامى وكأنه يفر منى. من يكون ذلك الشخص؟

ذكَّرتنى رشاقته وجميل قوامه بالحبيبة الغائبة اطَّرد الجرى. الشرطى يريد اللحاق بى وأنا أرى أن أهرب منه وألحق بالحبيبة. وهكذا صعدنا البرج وفوق سطحه متَّتنى النفس باحتضان حبيبتى ولكنها تخطت السور وهوت من ذلك العلو الشاهق إلى الأرض. فقدت عقلى وزاد من تعاستى اقتراب الشرطى فوثبت من فوق السور وراء حبيبتى. توقعت أفظع ألم وكان لارتطامى بالأرض دوى مثل قنبلة لكننى لم أشعر بأى ألم. وقمت واقفا فى تمام الصحة تلفتُّ فلم أجد لحبيبتى أثرا ونظرت إلى أعلى البرج فرأيت الشرطى يطل علينا وهو يغرق فى الضحك.

حلم ٤٧

فى الطريق لعب أمامى مجموعة من الصبية فشعرت أنهم يضمرون لى السوء. وعجبت لأنه لم يحصل بينى وبينهم ما يدعو إلى ذلك. وسرت فى حذر وأنا أتذكر بدهشة حالى عندما كنت فى سنهم.

ووجدت أمامى محلاً كبيراً يعد ليكون محلاً لبيع الحلوى كما فهمت من لافتته الكبيرة. وكان العمل على أشده فى إعداده فاقتربت منهم وسألتهم «هل ستقدمون ضمن الحلوى بقلاوة وكنافة» وكف العمال عن العمل واتجهوا بأنظارهم نحوى وعلى حين قهقهه الصبية وصفروا. وجاء من أقصى المحل رجل بدا أنه صاحبه وسأل «هل حقا

مازال يوجد أناس يحبون البقلاوة والكنافة؟» وسرت بين العمال همهمة وراح الصبية يرقصون ويصفرون ويكورون قبضات أيديهم فى وجهى . .

حلم ٤٨

أقبلت فوجدت فى الحجرة الحرافيش وسألت عن الغائب الوحيد فقالوا إنهم أرسلوا إلى الموسيقار سيد درويش فى طلب فرقة الباليه الجديدة ولا أدرى كيف فسد الجو بينى وبينهم وتجهمت وجوههم جميعاً . وهممت بمغادرة المكان ولكن فرقة الباليه وصلت وفى الحال عزفت الموسيقى ودار الرقص وخف التوتر بيننا واندمجنا فى الرقص والنغم بل وصفت القلوب وانهالت علينا النشوات وغمرنا الحب والمودة .

وإذا بنا ننضم إلى فريق الراقصين والراقصات ونشارك فى الأناشيد والأغانى وتعاهدنا دون كلام على أن نؤرخ تلك الليلة .

حلم ٤٩

قصدت المبنى الأبيض الأنيق فى صدر البهو جلست السيدة الجميلة . واجتمعنا إليها فراحت تتحدث عن شركة الإنتاج الفنى التى قررت إنشاءها . ورحبنا بالشركة وصاحبتها ومضى كل منا يدلى برأيه فى الإنتاج والعمل . ولم نختلف إلا حول الأجور . فقد كان رأيها أن يحدد الأجر تبعا للاتفاق معها . وكان رأيى الذى أيده البعض أن يحدد الأجر بنسبة ثابتة من تكاليف الفيلم أو المسرحية . وأجلت المناقشة إلى جلسة أخرى . وقلت لزملائى إن الأخذ برأيها يجعلنا تحت رحمتها وإن النسبة توضح الأمر وتغلق الباب أمام الانتهازية .

ودعتنا السيدة مع آخرين للعشاء . وبعد العشاء أقيمت حفلة موسيقية . وما ندرى إلا والسيدة تتجرد من ثيابها وترقص عارية وبصورة غاية فى الإثارة .

واستقر رأيى بصفة نهائية . قررت أن أبتعد عن الشركة وصاحبتها .

حلــم ٥٠

كنت أتطلع إلى امرأة فاتنة تسير فى الطريق فاقترب منى بجرأة وهمس فى أذنى إنها تحت أمرى إذا أمرت. كان برّاق العينين منفرًا ولكنى لم أصده. واتفقنا على مبلغ وأصرّ على أن يأخذ نصفه مقدما فأعطيته النصف. وضرب لى موعدا ولكن عند اللقاء كان بمفرده واعتذر بتوعك المرأة وكان على أتم استعداد لرد المقدم ولكنى صدقته وأبقيته معه. وكان يقابلنى فى حلى وترحالى ويطالبنى بالصبر. وخشيت أن تسىء هذه المقابلات سمعتى فأخبرته أننى عدلّت عن رغبتى ولن أسترد المقدم ولكن عليه ألا يقابلنى. ولم يعد يقابلنى ولكنه كان يلوِّح بها فى أكثر الأماكن التى أذهب إليها.

وضقت به كما كرهته وقررت الانتقال إلى الإسكندرية. وفى محطة سيدى جابر رأيته واقفا وكأنه ينتظر.

حلــم ٥١

وقف القطار دون وجود محطة فتساءلتْ صاحبتى عن السبب ولكنى لم أدر كيف أجيبها. وإذا بكتائب من الجيش تطوِّقه وتقتحمه شاهرة أسلحتها وساقت إلى الخارج كثيرين من ضباط الجيش الذين كانوا بالقطار وعددا محدودا من المدنيين. وقُبض علىّ فيمن قبض عليهم فتركت صاحبتى منزعجة خائفة. وجدنا أنفسنا فى صحراء. أمرنا الجنود المسلحون بخلع بدَلنا والبقاء بملابسنا الداخلية، ولكنهم وضعوا العسكريين فى ناحية والمدنيين فى ناحيةَ. وأخذنا نتهامس أننا ضعنا وانتهى الأمر.

وجاء قائد الجنود ونادى علينا كل واحد باسمه.

وتساءل صوت منا: هل تقتلوننا بلا محاكمة؟

فأجاب القائد بصراحة: الأمر لايحتاج إلى محاكمة.

وتحرك القطار فتذكرتُ صاحبتى.

حلـــم ٥٢

دُعينا إلى اجتماع فى حديقة الأزبكية. وهناك طرح علينا اقتراح بتكريم أستاذنا الجليل بمناسبة مرور مائة عام على مولده ولم يتحمس أحد ولكن لم يُبد أحد منا اعتراضه. واتُفق على أن يتم التكريم فى وزارة الخارجية التى قضى فيها زهرة عمَره وأنجز أكبر مآثره.

وفى اليوم الموعود ذهبت مبكرا لأتفقد المكان واتجهت من فورى إلى البهو المختار. كان أنيقا مهيبا كعادته ولكنه ازدان هذه المرة بوجود الفتيات الحسان اللائى عشقهن على مدى العمر.

جئن فى زى موحد ليقمن بالخدمات المطلوبة وقد اكتسين برونق الشباب الريان. خفق قلبى بشدة وتحيرت بين نداءات الحسن وجاء قلبى بأقصى قدراته من الحب. وجاش صدرى بالمعانى التى سألقيها فى خطاب التكريم.

حلـــم ٥٣

سألت عن صديقى فقيل لى إن الموسيقار الشيخ زكريا أحمد يسهر فى بيته كل ليلة شاديا بألحانه حتى مطلع الفجر فقلت يا بخته ودُعيت لحضور سهرة فذهبت إلى الحجرة الواسعة المزخرفة جدرانها بالأرابيسك.. ورأيت الشيخ زكريا جالسا على أريكة محتضنا عوده وهو يغنى «هوه ده يخلص من الله» وفى حلقة جلست الأسرة نساء وأطفالا وبينهما رجل معلق من قدميه وتحت رأسه على مبعدة ذراع طست ملئ بمية النار.

ذهلت.

وضاعف من ذهولى أن الجميع كانوا يتابعون الغناء دون أدنى التفات إلى الرجل المعذب.

حلـــم ٥٤

في الحجرة المغلقة دار الحوار بيني وبين المذيعة وكان الحديث عن الموسيقى المحلية والأجنبية. وعند بعض مراحل الحوار أقوم للبيانو وأعزف عليه بعض الألحان. وكلما مر وقت فُتح الباب ودخلت سيدة من أهل البيت لعلها أمي أو أخرى في منزلتها تقدم مشروبا وتذهب ولكن وضح لنا أنها كانت تراقب خلوتنا بريبة.

وضقت ذرعا برقابتها فعزمت على تحدِّيها بصورة غير مسبوقة فما أن سمعت صوت الباب وهو يفتح حتى اندفعت نحو المذيعة وضممتها إلى صدري.

ولم أعد أبالي شيئا كما لم أجد غضاضة ما. ولما انتهيت من التحدي كانت المرأة قد اختفت من الحجرة بل ومن البيت كله.

حلـــم ٥٥

تحتدم المناقشة بين امرأة ورجل وأبنائهما الخمسة حول حق الأم التي تجاوزت الستين في الحب والحياة.

وتخطت المناقشة الأسوار فصارت حديث الجيران.

يقول البعض إنه حب زائف من عجوز وشاب في سن أبنائها طمعا في المال الذي ورثته عن زوجها. ويقول البعض إنه ليس للإنسان إلا ما يقدر له من الحياة والحب خاصة حتى ولو أدى ذلك إلى دفع الثمن غاليا. وبدا الأمر في نظر الشبان الخمسة مصيبة لها. وكان ما كان من قتل الأم البائسة ووقف الأبناء الخمسة في قفص الاتهام. وتوزعت التهمة عليهم من التنفيذ للمشاركة للتخطيط.

وكان التحقيق فيها والمرافعات حامية وإذ كانت مفرداتها الأمومة والبر والشرف. والسمعة والتقاليد ومازلت أذكر وجوههم وأقوالهم كما مازلت أذكر المرحومة أيام كانت تتحدى العمر والألسنة وتسير متبرِّجة تتبختر.

حلــم ٥٦

غادرت البيت الكبير الذى ننتظر فيه كل رجل بذاته فلا يعرف أحد من الآخرين. وشعرت بشىء من الأمان بعد القلق.

غير أن شعور الأمان لم يدم طويلا، فخُيِّل إلىَّ أن آخرين يتبعوننى. ونظرت خلفى فرأيت عن بعد جماعة قادمة ملوِّحة بأيديها فى الهواء. فأوسعت الخطى حتى أخذت فى الجرى. ورأيت فى الطريق بيتا وكان هنا من يدعوننى فهرعت من فورى إليه ووجدت أهله وكأنهم عائدون من الخارج فهم ينظمون الأشياء ويزيلون عنها الغبار. ولم يدهش أحد لحضورى أمامهم فنظروا لوجهى ودودين فى وجوههم وأحاديثهم وابتسامتهم رجع معهم ونسيت فى تلك اللحظة الزاحفين ورائى.

حلــم ٥٧

درت حول الحصن مرتين.. حصن حجرى نوافذه صغيرة كالثقوب، ومن كل نافذة يطل وجه أعرفه بل وأحبه.. البعض طال غيابه والآخر رحل عن دنيانا من أزمنة مختلفة، فنظرت بشوق وأسى وخيِّل إلىَّ أن كل وجه يسألنى من أعماقه أن أحرره، ونظرت إلى باب الحصن الحجرى بلا أمل، ثم ذهبت إلى دار السلطة وطلبت العون، وغادرتها مجبور الخاطر قابضا على عمود من الصلب، ورجعت إلى الحصن، ولوّحت بالعامود فتهللت الوجوه واصطفت على الباب وضربت ضربة هائلة فتحطم وتهاوى، واختفت الوجوه من النوافذ وتعالى هتاف فرحة وسرور، ووقفت خافق القلب منتظرا لقاء الأحبة بلهفة وشوق.

حلــم ٥٨

أخيرا جاء الترام الجديد وأصبح درة المواصلات فى حى العباسية وكنت من أول من استقلوه وجذبتنى إليه ألوانه الخضراء والبيضاء وزخارف جدرانه وفخامة مقاعده. كنت

أقعد وأقف وأنا أتعجب من جماله، وأقول لنفسى هذا متحف جميل لا ترام. ولكنى لاحظت مع ورود الزمن أن سلوك ركابه دون مستوى جماله بكثير.

والحق أنى رأيت فعالا يندى لها الجبين خجلا. ويوم رأيت شابا من الخواجات ينقض على طفلة يريد أن يلتهمها ولكنى حلت بينه وبينها مذكِّرا إياه بأنها طفلة. وقبل أن يشتبك معى صعدت سيدة جميلة فى أواسط العمر فهرع الشاب إليها وهو يهتف «I love you» وقالت السيدة إنها راجعة لتوِّها من أوروبا، حيث شاركت فى الاحتفال بظهور سيرتها الذاتية وعرضت علينا نسخة فإذا على الغلاف صورة امرأة عارية تماماً!

حلم ٥٩

إنه عجيب لطول قامته.. عجيب فى سلوكه، أما عن قامته فهى مثل مئذنة الزاوية، وأما عن سلوكه فإنه يعترض سبيل من يختار من أهل حارتنا، ويحنى قامته المديدة حتى يوازى وجهه وجهه، ويتفرس فى أساريره بإمعان، كأنما يبحث عن سر دفين، ويمضى بعد ذلك نحو المقصد حتى يختفى عند المنحنى.. وتلقاه الناس بدهشة واجمة وامتعاض شديد، بل إن أحدهم تبعه بعد ليكشف أمره، ولما طالت غيبته خرجت جماعة من الأهل والجيران للبحث والاطمئنان ولكنها رجعت مخيبة الرجاء.

عند ذاك جاء دور شيخ الحارة فنهض ليؤدى واجبه ورجع الرجل جريح الكبرياء، وانقلب الحادث إلى حكاية على كل لسان، وكثرت حوله الأفكار والظنون، ولكن بلا جدوى فطواه النسيان أو كاد.

وذات يوم كان شيخ الحارة يسامر أمام الزاوية إذ شعر بوجود يحل فى وجوده، ورأى أمره العجيب بل ولمح قبسا من سره الذى حيّر الناس، وقرر فى الحال القبض عليه، وأذاع ما عرفه من سره على الملأ.

وهم بالقيام ولكن خانته قواه جميعا، فلم يستطع أن يتحرك ولم يستطع أن ينطق.

حلم ٦٠

دققت جرس الباب ففتح عن ثلاث فتيات يقينا أنى لا أعرفهن لكننى شعرت بأننى لا أراهن لأول مرة. سألت عن السيدة صاحبة الشقة فأجبن بأنها مازالت فى الحج ولم

يعرفن بعد ميعاد عودتها. وسرن بى إلى حجرات الشقة. وعند فتح كل باب أرى جماعة حول مائدة مستديرة غارقين فى مناقشة حادة ولكنى لم أعرف أى موضوع يناقشون من اختلاط الأصوات وتداخلها. ولم أرغب فى الدخول فى أى غرفة مفضلا انتظار السيدة صاحبة الشقة. ولفتت نظرى إحدى الفتيات بأن السيدة سوف تتأخر بضعة أيام ومن يأسى أجبتها ـ بعد أن اشتركت فى المناقشات دون جدوى ـ أننى أفضل انتظار عودة السيدة.

حلـــم ٦١

وصلتنى دعوة عشاء فى بيت قريب عزيز. ولما اقتربت من الباب رأيت أفواجا من المدعوين يدخلون. فأدركت أن الدعوة عامة. ورأيت بين القادمين نخبة من جيل أساتذة وأخرى من جيل الزملاء. وتبادلنا التحية وبعض الكلام كان مما أجمعوا عليه أنهم يقيمون الآن فى قرية كرستوفر وقالوا الكثير عن جمالها وتفوقها على جميع القرى السياحية دخلنا وتفرقنا بين الموائد. وكانت جلستى أمام مائدة صغيرة عارية من كل شىء فلا مفرش ولا طبق ولا أدوات طعام وقبل أن أفيق من دهشتى رأيت شكوكو قادما نحوى قابضا على فخدة خروف محمرة. وسلمها لى يدا بيد وذهب وهو يضحك. صعقت واستأت ولكنى لم أر بُدا من قطع اللحم بأصابعى لأتناول طعامى غير أننى كنت أفكر طيلة الوقت فى كرستوفر...

حلـــم ٦٢

أخيرا عثرت على الصورة القديمة العزيزة بين الأشياء القديمة. ولكن فرحتى لم تتم إذ سرعان ما تبين لى أن الصورة تهرأت بمرور الزمن عليها وطمست ملامح الأعزاء فلم يبق منها بقية تذكر.

وبقدرة قادر وجدت نفسى فى بهو مصلحة حكومية وبيدى ملف خدمة موظف يتتبع خطاى ويطالب بالإنصاف. وأدركت بخبرتى أن الموضوع من اختصاص إدارة المستخدمين.

وبحثت فلم أجد لها أثرا وفيما أمر أمام حجرة المخازن فتح الباب وخرج منه زميل

توفاه الله منذ شهر . خطف الملف من يدى ورجع الى المخازن وهو يؤكد أن الموضوع من اختصاصه . وأنسانى مظهره المهمة التى كانت تشغلنى .

حلم ٦٣

هذه أرض خضراء يحيط بها سور متوسط الارتفاع لكنه كاف لإخفاء مايجرى داخله عمن فى الخارج ، وتنطلق من وسطها مسلة طويلة فى رأسها علم ، أما سطحها فيمرح بالشباب والحركة . خلت بادئ الأمر أننى فى ناد رياضى - ولكن بعد أن أمعنت البصر غلب على ظنى أننى فى سيرك ، فهنا جماعة تسير على أربع . وهنا فريق يتبادل أفراده الصياح والركل . وفريق آخر يتعاقب الحركة . . . الشتائم ، أما البقية من الشباب فتشدو بألحان لم يسمع مثلها . وأردت أن أزداد علما فوجدتنى خارج السور فى مدينة كبيرة يشقها شارع عملاق تتكتل الجماهير على جانبيه خارج السور وهى تهتف متطلعة إلى العلم فى رأس المسلة . وأخيرا فتح الباب الكبير . وتهادى منه الموكب ، عربة إثر عربة . وفى كل عربة شاب يجلس جلسة ملوكية ، ينظر إلى الناس من عل . ويرد تحياتهم باستعلاء واستكبار .

حلم ٦٤

من شدة الرعب تسمرت قدماى فى الأرض فعلى بعد ذراع منى شبت ثلاثة كلاب ضخمة متوحشة تريد أن تنقض علىّ لتفتك بى لولا أن قبضت على أذيالها امرأة باستماتة .

وإلى اليمين وقفت كلبة فى ريعان الشباب ، آية فى غزارة الشعر وبياضه ونعومته وكانت تشاهد مايحدث فى قلق تجلى فى اهتزازات ذيلها القصير المقصوص .

وارتفع نباح الكلاب الثلاثة وتتابع كالرعد واشتعلت فى أعينها الرغبة المتأججة فى الفتك بى ولما تعذر عليها الوصول إلىّ استدارت فجأة ووثبت على المرأة وعند ذاك اقتلع الرعب قلبى وارتمت علىَّ الكلاب . أما الكلبة الجميلة فتطلعت لى مدة وترددت لحظة عابرة ثم ألقت بنفسها فى المعركة دون مبالاة بالعواقب .

حلم ٦٥

انقضى العام الدراسى وأعلن عن يوم الامتحان. ولم نكن فتحنا كتابا ولا حفظنا جملة توجب التفكير فيما ينبغى عمله. وثمة قلة كانت ماتزال تحتفظ بشىء من الاحترام لما هو معقول فقررت الامتناع عن حضور الامتحان. أما الأخرى كانت مولعة بالعبث واللامعقول فانتهزت الفرصة المتاحة وعزمت على حضور الامتحان. وفى الصباح الموعود انتظمنا الصفوف ولبسنا أقنعة الجدية والاهتمام. وإذا برئيس اللجنة يقوم ويقول بصوت جهورى إنه سيوزع علينا ورقتين إحداهما تحوى الأسئلة والأخرى تحوى الإجابات الصحيحة. وذهبنا حقا فلم نكن نتصور أن بين أساتذتنا من يفوقنا فى حب العبث واللامعقول.

حلم ٦٦

تم التفاهم بينى وبين المالك ودعانى الرجل لمعاينة ما تم التفاهم عليه أرانى شقة ممتازة وزوجته الحسناء وابنها وهو طفل فى الثالثة. وطابت نفسى بما رأت وتحدد موعد الساعة التاسعة من صباح اليوم الثانى للتسليم والتسلم. لكنى فى الحقيقة لم أستطع صبرا.

ودفعتنى قوة لا تقاوم للذهاب إلى الشقة. وأن الذى فتح لى الباب هو المالك نفسه. ولما رآنى ثار غضبه وصفق الباب فى وجهى بغضب ارتجت له الجدران وبت ليلة مسهدة أتساءل بقلق بالغ عن الصفقة والمصير.

حلم ٦٧

بناء كبير ستجده. فى الأصل كان مبنى الوزارة التى كنت موظفا بها ولما رأيت الشباب يعود إليها ـ راودتنى نفسى على ارتيادها. فى الداخل قابلت نفرا من الزملاء القدامى فانشرح صدرى للقائهم وسرنا من حجرة إلى حجرة ومن ذكرى إلى ذكرى حتى بعثنا

الماضى من مرقده. ومررنا بسلم واسع عجيب فصعدت من فورى إلى الطابق الثانى هناك رأيت شبابا كثيرين كلما رآنى أحدهم تجهم وجهه وألقى علىّ نظرة مستنكرة انتفض قلبى وشعرت برغبة فى التبول. وبحثت هنا وهناك حتى استقرت عيناى على لافتة ترشد إلى دورة مياه فى ممر بين الحجرات فهرعت إليه ولكنى وجدت عمالا عاكفين على إنجاز مشروع لم يتم تنفيذه لايصلح للاستعمال رجعت من حيث أتيت. وسرعان ما اكتشفت بأنه لا سبيل إلى الفرج إلا بالعودة الى الطريق.

حلـــم ٦٨

ما أجمل هذا المكان. إن سماءه وأرضه وما بينهما تتألق بلون الورد الأبيض. وجوه آية فى النقاء والصفاء. أما معجزته الحقيقية فهى أنه جمع أصدقاء العمر الأحياء منهم والأموات دون أن يثير ذلك دهشة أحد. فلا نحن سألناهم عما وجدوا فى العالم الآخر ولاهم سألونا عما حدث فى الدنيا عقب رحيلهم.

ولكنا أنفسنا جميعا فى اللهو متمنين أن تدوم الحال غير أن الحال لم تدم إذ هبطت من السماء سحابة سوداء، حتى ساد الظلام وفرق بيننا وانهمر مطر مثل الشلالات وتتابع البرق والرعد دون هدنة حتى بلغت القلوب الحناجر.

وهنا تسلل لأذنى أصوات بعض الأصدقاء.

قال الأول: «إنها النهاية».

وقال الثانى: «إنى لمحت عند الأفق قبسا من الفرج».

وقال الثالث: «مهما يكن من الأمر فلا مفر من الحساب».

حلـــم ٦٩

هذه غابة تتوسطها هضبة هرمية الشكل. يصعد إليها من خلال ممرات حجرية مدرجة مزينة بصفوف النخيل وأحواض الزهور وجواسق العاشقين. خلوت إلى صاحبتى.

وسبحنا معا فى مناجاة غيبت عن وعينا الوجود. وبغتة انتشرت صاحبتى واقفة وفى غمضة عين غادرت الجوسق. وقمت لألحق بها وأطمئن عليها فاعترضنى صوت كالرعد

ينطلق من مكبر صوت ويحذر الناس من وجود قنبلة زمنية ويدعوهم إلى مغادرة الهضبة بلا إبطاء ولا تردد. واندفع الناس نحو الممرات الحجرية وأنا أتلفت، وجمعنا رجال الأمن فى موضع على بعد آمن. وبحثت عن صاحبتى فلم أعثر لها على أثر ترى أين اختفت؟ وهل ثمة علاقة بينها وبين الجريمة؟ وألا يجرنى ذلك إلى الاتهام رغم براءتى؟

وسمعت أقرب الواقفين إلىَّ وهو يقول لصاحبته إن قلبه يحدثه بأن المسألة ليست أكثر من بلاغ كاذب. وسألت الله أن يصدق حدس الرجل ولكنى لبثت ممزقا من التفكير فى صاحبتى وتوقع الانفجار!

حلم ٧٠

نادانى الشوق لرؤية الأحباب فتوجهت صوب الحى العتيق. وكالعادة قطعت الطريق مشيا على الأقدام حتى بدا لى البيت القديم وذكرياته. ولم أضيع وقتا فأخذت فى الصعود نحو الطابق الثالث والأخير. ولكن دهمنى إرهاق غير يسير عند منتصف السلم جعلنى أفكر فى تأجيل الرحلة لولا أن طبعى يأبى التراجع وبجهد جهيد واصلت الصعود حتى بلغت البسطة الثالثة. ومن موقفى الجديد لاح لى باب الشقة غارقا فى الصمت والسكون، فعلمت أنه لم يبق من الصعود سوى عشر درجات هن ختام السلم لكنى لم أر درجة واحدة، ووجدت مكانها هوة عميقة فخفق قلبى خوفا على آل البيت.

ومع أن الوصول بات متعذرا إلا أنى لم ألتفت إلى الوراء، ولم أفكر فى التراجع، بل ولم أفقد الأمل. وجعلت ألصق بصرى بالباب الغارق فى الصمت والسكون وأنا أنادى، وأنادى، وأنادى من الأعماق.

حلم ٧١

كان أجمل ما فى عهد شبابنا صديق نادر المثال. آية فى خفة الروح وحلاوة النكتة ورشاقة القفشة وبراعة القافية وثراء الحكايات، والنوادر وإلى ذلك كله لم يكن يضن علينا عند الطلب بالغناء والرقص وسائر فنون اللهو. هكذا أمتعنا دهرا حتى وقع عليه الاختيار لشغل وظيفة مرموقة عرفت فى بلادنا بالجلال والوقار. وتوجسنا خيفة أو

سرعان ما تحقق تخوفنا فقال لنا وكأنه يرد عنا إنه قرر تغيير حياته من الألف إلى الياء ولم يراجعه أحد وسلمنا أمرنا لله.

وكان إذا قابلنا فى مناسبة حيّانا بوقار شديد يعمق شعورنا بالغربة والأسى.

ووهنت العلاقة الحميمة وقاربت التلاشى، ولم نعد نسمع عنه إلا فى نشرة التنقلات والترقيات. وأخذنا نتناسى حتى نسيناه أو كدنا. وباعد الزمن بيننا وبينه حتى شاء القدر أن نلتقى على غير ميعاد ذلك عندما احتفلت البلاد بعيدها القومى الجديد. خرجنا للمشاركة والفرحة.

وعزفت الموسيقى النحاسية ودقت الطبول. وتقدمت فرقة من الجيش تبعتها فرقة من الشرطة تبعتها سيارات الصفوة وهنا طالعنا صديقنا القديم ولكن على حال لم تجئ لنا فى خاطر. رأيناه يمتطى حمارا. ويتجلى التناقض صارخا بين تفاهة موكبه وفخامة ملبسه. وكان يثير الضحك أينما ظهر. لكنه والحق يقال لم يلتفت يمنة ولا يسرة، ولا حاد شعرة عن وقاره.

حلم ٧٢

امتلأ البيت القديم بالعباسية بالطيور المهاجرة من الإخوة والأخوات فى اليوم المتفق عليه لزيارة الوالدة. وطلبوا منى إعداد أكلة سمك من سمَّاك العباسية المشهور. ذهبت من فورى إلى المطعم وطلبت الطلب ووجدت جميع الموائد مشغولة إلا المائدة التى تلى الباب مباشرة فذهبت إليها وجلست فى طرفها أنتظر. وجاءت سيدة فى الستين مصطحبه معها فتاة فى العشرين وجلستا إلى المائدة. وجاء النادل بالأطباق والطواجن. وعلى خلاف المعهود دعتنى السيدة لمشاركتهما فى الطعام. وبخلاف المتوقع لبيت الدعوة صامتا وبدأت فى تناول الطعام. وسرعان ما جاء النادل باللفافة المعدة للمنزل فتناولتها وانسحبت من المائدة دون اعتذار أو شكر وخرجت من المطعم فرأيت على بعد ذراع صديقى المرحوم (ع. ش) وسررت برؤياه سرورا كبيرا. وعلى سبيل المجاملة قدمت له اللفافة لكنه أخذها بلهفة ومضى دون أن ينبس بكلمة إلى باب مفتوح فدخله وأغلقه. دهشت بتصرفه ولكنى لم أجد مناصا من تجديد الطلب فرجعت إلى المطعم وجددت الطلب. وكان النادل يحمل الحلوى إلى السيدة والفتاة. ودعتنى للمشاركة فذهبت دون تردد. وهنا قالت السيدة إنها ترغب فى الذهاب إلى شارع بين السرايات ولكنها لاتدرى كيف السبيل إليه. فتطوعت بتوصيلها وسار ثلاثتنا فى شارع العباسية. وتم التعارف بالشكر وتنوع الحديث بنا حتى أنى

مررت بشارع بين السرايات دون أن أنتبه لذلك. كما نسيت الطعام الذى يجهز لى فى المطعم وكما نسيت المنتظرين والمنتظرات فى البيت القديم بالعباسية.

حلم ٧٣

وجدتنى فى البيت القديم بالعباسية. ويبدو أننى كنت متكدر المزاج فلم يسلم من نقدى شىء. مثل طلاء الجدران وخشب الأرضية والأثاث حتى جاءنى صوت أمى من أقصى الشقة وهو يقول بنبرة باسمة لطيفة إنه آن الأوان كى أبحث بنفسى عن شقة جديدة تعجبنى. . وانتقلت إلى مكان وزمان آخرين فوجدتنى فى بهو متعدد الحجرات والأشخاص. يوحى منظره بأنه مصلحة حكومية. وأكد ذلك مجىء زميلى المرحوم (ح. أ) ليخبرنى بأن الوزير أرسل فى طلبى. وذهبت من فورى إلى حجرة الوزير. واستأذنا ودخلت. رأيت الوزير على غير عادته من البشاشة. وقال لى إنه حلم بنقدى للثورة وزعيمها فساءه ذلك فقلت له إنى أعتبر - نفسى متيَّما بمبادئ الثورة ولم أكن من رافضيها غير أنى تمنيت دائما لها الكمال وتجنب العثرات والنكسات وانتقلت إلى مكان وزمان آخرين فوجدتنى صبيا يتجول فى ميدان بيت القاضى. وجاءنى صديق فى مثل سنى يدعونى لحضور حفل زفاف شقيقه الأكبر. وقال إن شقيقة دعا سعد زغلول ليشرف الفرح ويباركه وأنه قبل الدعوة ووعد بالحضور. فدهشت دهشة كبرى وقلت له بأن سعد زغلول هو زعيم الأمة فضلا عن أنه اليوم رئيس وزرائها.

وأنت لستم من أقربائه ولا من زملائه فى جهاده. فقال إن سعد هو زعيم الأمة حقا ويخص البسطاء بوافر الحب وإننى سوف أرى.

وفى الميعاد ذهبت إلى الحفل فى درب قرمز ومضى بى صديقى إلى حجرة فرأيت فى الصدر سعد زغلول فى بدلة التشريفة يجلس معه ويتبسط معهما فى الحديث ويشاركهما فى الضحك. بهرت بما رأيت انبهارا استقر فى أعماقى. .

حلم ٧٤

هذا ملعب كبير حل محل بيوت الجيران فى الجانب المقابل من الطريق يملأه الجنود البريطانيون، فيغنون ويرقصون. . ونحن نتابعهم بدهشة وقلق، ثم ينتشرون فى شارعنا والشوارع المتفرعة منه.

وتشاورنا فى الأمر واستقر رأينا على الانتقال إلى حى آخر، ولما لم نجد بيتًا مستقلاً رضينا بشقة فى عمارة ضخمة ولم نضن بجهد حتى جعلناها صالحة للمعيشة؛ وما كدنا نركن إلى شىء من الراحة حتى سمعنا صوت خرفشة مما يصدر عادة عن الفئران فتعكر صفو راحتنا. . وقبل أن نفكر فى شىء ينبغى عمله سمعنا طرقات الباب الخارجى. ولما فتحت الباب رأيت كثرة من الرجال المسلحين بالعصى، قالوا إنهم سكان العمارة يطاردون لصًا يظنون أنه تسلل إلى شقتنا واقتحموا الشقة وتفرقوا فى الحجرات وأحدثوا جلبة مزعجة؛ ولكنهم أعلنوا أنهم لم يعثروا على اللص. وغادروا المكان بعد أن قلبوه رأسًا على عقب. . بل واكتشفنا اختفاء اللص المتخفى، وبينما نحن نتبادل النظر فى غيظ وضيق إذ سمعنا من جديد صوت الخرفشة. . فثرت غضبًا وقلت ليكن فأرًا أو لصًا أو عفريتًا فلن أفتح الباب للطارق.

حلم ٧٥

أمى ترحب بجارة عزيزة وكريمتها الحسناء فى حجرة المعيشة بالدور الثالث فى بيتنا القديم. ودعيت للجلوس معهن ثقة فى الألفة بين الأسرتين.

وفى أثناء الحوار استرقت إلى الفتاة نظرة واسترقت إلىّ نظرة دون أن يغيب هذا عن أم الفتاة، فلما ذهبت فى الابتعاد عن الغرفة همست لنا الجارة أن انزلا إذا شئتما إلى الدور التحتانى الآن كعادة من أهل البيت، وتلقيت الدعوة بذهول وبفرح شامل. وما أن دخلنا الدور التحتانى حتى جذبتها إلى صدرى. ولكنى ألم أخط الخطوة التالية لسماع ضجة غريبة واقتحم المكان نساء ورجال وشباب، وتفرقوا فى الحجرات؛ ثم جاء رجل من رجال الأمن ووقف عند الباب زاعمًا الحفاظ على القانون وكدت أفقد عقلى من الذهول وضاعف من ذهولى أنى رأيتهم يغنون فى حجرة، كما رأيتهم يرقصون فى حجرة أخرى. ونظرت إلى فتاتى مستغيثًا بها فوجدتها هادئة باسمة. . وعند ذلك قررت الهرب، غير أنى رأيت رجل الأمن عند الباب فتسمرت فى وضعى فريسة للذهول وخيبة الأمل.

حلم ٧٦

هذه شجرة مورقة يجلس تحتها صديق الشباب وشهيد الوطنية. . وعلى الرغم من مرور عشرات السنين على رحيله فإنه بدا أنيقا فى صحة وعافية. فانشرح صدرى لمرآه

وهرعت إليه ولكنه أوقفنى بإشارة من عصا بيده، ذكرته بعهد الصداقة فلم يعبأ بكلامى وقال إنه لم يعد يستطيع صبراً مع تل القمامة.

قال ذلك وألقى عصاه ثم ذهب، التقطت العصا وأنا حزين ولكنها نفخت فى روحًا جديداً فانطلقت من فورى إلى تل القمامة وانهلت ضربًا على أطرافه وكل ضربة أحدثت شقًا، ومن كل شق يخرج رجال ونساء ليسوا على شاكلة جامعى القمامة ولكنهم آية فى النظافة والوجاهة والفخامة وكلما لمح أحدهم العصا بيدى فر يركبه الفزع عند ذلك رسخ يقين بأن الشمس ستشرق غداً على أرض خضراء وجو نقى.

حلـــم ٧٧

انعطفت إلى الشارع الجانبى الهادئ حاملاً حقيبتى بيدى، وسرعان ما تلقيت من الطريق سيلاً من الذكريات والأشواق المحفوفة بالقلق والخوف.

وتوقعت عتابا على غيبتى غير القصيرة واستعددت له بالمعاذير المناسبة.

وبلغت مدخل العمارة فلاح فى الشقة الأرضية على بُعد أربع درجات من السلم. وضغطت على الجرس متطلعًا بوجه باسم. وفتحت الشراعة عن وجه رجل غريب فى جلباب منزلى يوحى بأنه صاحب المكان وفجأة هوى وجدانى الملتهب إلى قاعة بحيرة جليدية وفكرت بسرعة فى اختلاق كذبة تنتشلنى من ورطتى فادعيت أنى تهت وأبحث عن سكن فلان افندى المدرس وأننى ضللت العمارة.

فقال الرجل وهو يتفرس فى وجهى بارتياب وتحفز:

ـ هذه شقته وهو فى الداخل فمن حضرتك لأبلغه؟

وأدركت أننى انكشفت وخرست مبهوتًا فارتفع صوت الرجل وهو يقول:

ـ ما أنت إلا كذاب وفاسق مثل جميع من جاءونى قبلك.

ولم أطق المزيد فهرولت نازلاً وكدت أفقد توازنى فسقطت الحقيبة من يدى وانفتحت فظهر داخلها زجاجة نبيذ وكيلو كباب فى طبق من ورق، ولكنى لم أكن أفكر إلا فى أمر واحد وهو أن أختفى فى سرعة البرق.

حلـــم ٧٨

يا لها من جنازة كبيرة. لا أدرى كيف انضممت إليها. فإنى لا أعرف أحدا من المشيعين. بل لا أعرف الميت. والأغرب أن الجنازة سلكت طريقا لم تسلكه الجنازات من قبل. فقد اتجهت نحو شبكة من قضبان السكة الحديد. وعبرنا بها إلى الخلاء حيث توقفت عن السير طلبا للراحة. على حين واصلت القطارات سيرها نحو الشمال ونحو الجنوب وعلا جدل بين الملتفين حول النعش. فريق يرى أن يحمله إلى الجنوب. وفريق يريد أن يحمله إلى الشمال. وكلا الفريقين يزعم بأنه ينفذ وصية الراحل. وصاح أحد العارفين يذكر القوم بأن الراحل ولى من أولياء الله الصالحين. وأنه لن يسمح أحد بحمله إلى جهة لايرضاها. راعينا التحريم على قوله. وجرب فريق الجنوب حظه ولكنه عجز عن حمل النعش وجرب فريق الشمال حظه أيضا فمنى أيضا بالفشل، عند ذاك أدرك الجميع أن ولى الله يأبى أن يغادر الموقع الذى هو فيه وسط بين الجنوب والشمال.

حلـــم ٧٩

جلست فى شرفة الفندق الصغير المطلة على البحر. غاب عنى المنظر الجميل لشدة استغراقى فى انتظار فتاتى. ولما طال الانتظار جاءنى مدير الفندق وهو أيضًا صديق صباى واقترح علىّ أن أعالج حالتى بالمشى. ذهبت إلى الشاطئ. ورحت أسير ذهابا وإيابا. وإذا بى ألمح فتاتى فى سباق سباحة مع نفر من الشبان أحدهم مضى بها إلى الصخرة ليستريحا بعيدا عن الأعين، تلقيت طعنة فى القلب وغرقت فى إحباط لا قرار له وأدركنى المدير الصديق وقال:

– هذا هو حال الدنيا فلا تستسلم للحزن.

فقلت له:

– أنت تعلم أننى عرفت أشياء كثيرة ولكنى لم أتعلم السباحة. وأخذنى إلى ركن هادئ فى حديقة الفندق. وبقيت ساعة فى غم وهم. وإذا بمفاجأة غير متوقعة بحال رأيت فتاتى تقبل نحوى متهللة الوجه بالسعادة. وتوثبت لإفراغ شحنة من غضبى. وإذا بى أتلقى مفاجأة جديدة. غير متوقعة وغير مفهومة وتستعصى على أى إدراك. فقد

غمرتني بغتة فرحة شاملة مسحت عن صدرى الأحزان كلها وكأن ما كان لم يحدث، وهكذا تقابلنا كما نتقابل كل مرة. وذهبنا للتجول فى المدينة كالعادة. ولما مررنا بمحل بيع الهدايا دخلنا دون تردد واتجهنا إلى القسم المخصص لهدايا الخطوبة والأفراح. وقلبت فتاتى عينها فى الهدايا التى لاتحصى وقالت:

- ليس لدينا من الوقت مايكفى.

فقلت ببراءة: لدينا وقت يكفينا للأبد.

حلم ٨٠

جمعتنا الحجرة القديمة أنا وأمى وأخواتى الأربع وما أن أغلق الباب علينا حتى تصاعدت الشكوى من الزمان والناس، فأقبلت أمى علىّ قلقة وأقسمت بكل يمين أنه ما من قول قالته أو فعل فعلته إلا بدافع الحب الخالص فتساءلت أصوات: إذًا كيف حدث ما حدث؟

فقالت أمى بعتاب: عليكم أن تحاسبوا أنفسكم أيضًا وألا تقولوا معى إنه المقَّدر والمكتوب.

حلم ٨١

أخيراً ذهبت إلى القصر ورجوت البواب أن يبلغ الهانم أن الفائز بجائزتها حاضر ليقدم الشكر بنفسه إذا تنازلت وسمحت بذلك ورجع الرجل بعد قليل وتقدمنى إلى بهو راعنى جماله وضخامته ولم تلبث أن عزفت الموسيقى لحن الإقبال فأقبلت الهانم تتهادى فى أبعادها الفتَّانة فقمت لألقى خطاب الشكر ولكنها بحركة رشيقة من يديها كشفت عن ثدييها وأخذت من بينهما مسدسًا أنيقًا وصوبته نحوى فنسيت الخطاب. . . وأخذت أنصهر من قبل أن تلمس الهانم زناد المسدس.

حلم ٨٢

أسعدنى جدا أن يتولى شئون المؤسسة المدير الجديد على الرغم من أننى لم أشارك فى انتخابه. ولكن كلما أثنيت عليه تصدى لى إخوان بالسخرية فسرت حائرا بين الإعجاب من ناحية والسخرية من ناحية أخرى ولكنى رفضت اليأس رفضا تاما.

حلم ٨٣

رأيت الكارتة مقبلة حاملة فاتنة درب ترمز ويجرها جواد مجنح اتخذت مجلسى فيما وراءها وفرد الجواد جناحيه فابتدت ترتفع حتى علون الأسطح والمآذن وفى ثوان وصلنا قمة الهرم الأكبر وأخذنا فى عبوره على ارتفاع ذراع فجاذفت وقفزت إلى قمته وعيناى لا تتحولان عن الفاتنة وهى تعلو وتصعد والليل يهبط والظلام يسود حتى استقرت كوكبا مضيئا.

حلم ٨٤

رأيتنى فى شارع الحب كما اعتدت أن أسميه فى الشباب الأمل. ورأيتنى أهيم بين القصور والحدائق وعبير الزهور. ولكن أين قصر معبودتى؟. لم يبق منه أثر. وحل محله جامع جليل الأبعاد. رائع المعمار. ذو مئذنة هى غاية فى الطول والرشاقة. ودهشت. وبينما أنا غارق فى دهشتى انطلق الأذان داعيا إلى صلاة المغرب. دون تردد دخلت الجامع. وصليت مع المصلين ولما ختمت الصلاة تباطأت كأنما لا أرغب فى مغادرة المكان. لذلك كنت آخر الراحلين إلى الباب. وهناك اكتشفت أن حذائى قد فقد. وأن علىّ أن أجد لنفسى مخرجا.

حلــم ٨٥

هذه محطة ترام وأنا حائر بين أبعادها لانتظار مجيء ترام ما ولكن ترقبى لسطوع القمر فى النافذة المطلة على المحطة حيث أختلس نظرة بعد نظرة. وأتمادى فى الطلب وما أكثر الأصدقاء الذين يسألوننى. حتى متى تبقى وحشتى. ولكن أنا فى رحلة لا مفر منها كأنها قضاء وقدر والحق إنها رحلة شاقة مرهقة وأطول مما تصورت وعند العودة لم يتبين لى إلا قفص مربع هو النافذة ووجدتها بموضعها ولكنها بدت واجمة لا تستجيب ولا تجيب وكما كنت بالأمس ووقفت تحت النافذة منتظرا غير عابئ بالمارة وأخيرا هبط علىّ صوت حديث كالهمس يتخلله ضحك مكتوم.

ثم سمعت صوتا يتساءل:

ـ ما حكاية الرجل الذى يقف تحت النافذة؟

فأجابه صوت ضحكتها:

ـ إنه يبكى عن ذكرى حبيب ومنزل.

حلــم ٨٦

كلفت بحمل رسالة إلى المرحوم الدكتور حسين فوزى، فقلت له إن معى عرضا لإعادته فى الخدمة مع زيادة ملموسة فى الراتب.

وتخصيص حجرة فاخرة لمقامك. ضحك الدكتور وقال إنه لا يهمه الراتب ولا الحجرة، ولكن يهمه احترام فكره وكرامته.

ورجعت وفى يقينى أن مهمتى قد فشلت.

حلــم ٨٧

فى الصباح الباكر اكتشفت الجريمة الوحشية. وما لبثت وحشيتها أن صارت حكاية على كل لسان. ولكنى لم أجد موضعا للاختباء إذ إن المكان كله يتقاسمه رجال الشرطة

وطبيبات المرض النفسى. وأصبحت فريسة للقلق حتى استدعتنى إلى حجرتها كبيرة الطبيبات. وقالت لى الأكثرية هنا يفسرون وحشية هذه الجريمة بالقسوة الكامنة فى طبيعة القاتل. أما أنا فأفسرها بقلة خبرته وجهله للأصول العلمية الحديثة لفن القتل. لذلك قررت إلحاقه بالمعهد العصرى للجريمة. والله ولى التوفيق !

حلم ٨٨

فى قريتنا كل فرد ينتظر رسالة قد تقرر مصيره. وذات يوم تلقيت رسالتى فقرأت فيها أن الحكم صدر بإعدامى شنقا. وذاع الخبر كعادة تقاليدنا. فاجتمع أعضاء نادى القرية وقرروا الاحتفال بالأمر فى حينه أما فى بيتى حيث أعيش مع أمى وإخوتى وأخواتى فقد انشرحت الصدور وعم السرور. وفى اليوم المنتظر دقت فى النادى الطبول. وخرجت أنا من بيتى فى أحسن زينة محاطا بأفراد أسرتى، ولكن أمى شذت عن حالنا فدمعت عيناها وتمنت لو كان العمر امتد بأبى حتى يشهد بنفسه هذا اليوم السعيد.

حلم ٨٩

من موقفى فى الحديقة رأيت سيدة فى الستين مقبلة نحوى متجهمة الوجه وقالت بنبرة غاضبة: بسببك خسرت الجائزة.

وتذكرت السيدة ووجهها الحزين ولكنى لم أفهم لقولها معنى واستمرت تقول: اللجنة استبعدت قصتى بحجة أنها نسخة من قصتك المطبوعة منذ أربعين سنة.

وضح كل شىء وعرفت أن الحظ السيئ مازال يتعقب المرأة وواصلت حديثها.

ـ أقسمت لهم أن قصتى لايجوز أن تتهم بسبب بسيط وهو أنها قصة حياتى.

فقلت بانفعال: صدقت. أنا الذى اقتبست قصتى من واقع حياتك الذى شاركت فيه أسوأ مشاركة.

فقالت وهى تضحك بسخرية: فرصة أن أكون ضحية لك فى واقع الحياة لا فى الخيال..

حلـــم ٩٠

تم بناء البيت فكان تحفة معمارية جاء إليها الناس من جميع الأطراف وكل يأمل امتلاكها . . وكثرت المساومات واشتد الجدل حتى شق الجموع عملاق وهو يقول بصوت جهير : إن القوة هى الحل . ووجم الناس إلا واحدا تصدى له فقامت بينهما معركة حامية حتى تمكن العملاق من توجيه ضربة إلى رأس خصمه فهوى فاقد الوعى ثم اقتحم العملاق البيت وأغلق البيت بإحكام . وتمر الساعات فلا يفتح فى البيت منفذ إيفاء للانتقام أما الواقفون فى الخارج فلم يأتوا بحركة مجدية وكأنهم فى الوقت ذاته لم يتفرقوا .

حلـــم ٩١

فى البدء كانت العربة . كنت أدفعها أمامى بقوة ومرح . وذات يوم وجدت على سطح العربة طفلة فازددت نشاطا ومرحا وتتابع القادمون حتى غطوا السطح فاستنفدوا قوتى ومرحى . وشعر الراكبون بمعاناتى فعزمت على ترك العربة حالما تسنح فرصة طيبة . وبمرور الأيام خلا السطح ، رجع إلى أصله . أما أنا فلم أرجع بل ازددت ضعفا وأخيراً ركنت العربة ورقدت إلى جانبها» .

حلـــم ٩٢

وجدت نفسى فى بهو جميل ، وبين يدىّ وعاء ذهبى ملىء بما لذ وطاب .

فذكرنى هذا بسمار الليالى من أصدقاء العمر الراحلين ، وإذا بى أراهم مقبلين تسبقهم ضحكاتهم المجلجلة . فتبادلنا السلام وأثنوا على الوعاء وما فيه . غير أن سعادتى انطفأت فجأة وصارحتهم بأننى لن أستطيع مشاركتهم حيث منعنى الأطباء من التدخين منعا باتا ، وبدت الدهشة على وجوههم ثم ركزوا أبصارهم فى وجهى وتساءلوا ساخرين :

– أمازلت تخاف من الموت؟ !

حلـــم ٩٣

على سطح بيت قريب رأيت أثاثا يرتب وينمق فسألت قيل لى إن صاحب ذلك البيت حول بيته إلى معهد ثقافى بالمجان قانعا بالمعيشة فوق السطح فأعجبت به وأكبرته وعزمت على حضور بعض دروسه ووجدت المكان غاصا بالبشر وقال الرجل إن درس اليوم سيكون عن الثور الذى يحمل على قرنه الأرض وصدمنى قوله بشدة ففرت منى ضحكة ساخرة فاتجهت نحوى الوجوه شاخصة بالغضب. أما الرجل فرمانى بنظرة عابسة وهو يشير صامتا إلى باب الخروج.

حلـــم ٩٤

خمسة انقضوا علىّ شاهرين المطاوى فسلبوا نقودى وفروا بسرعة مذهلة ولكن بعض ملامحهم انطبعت على ذاكرتى ومنذ وقوع هذا الحادث تجنبت المشى منفردا فى الشوارع الجانبية غير أن الشارع الرئيسى لم يكن يخلو من متاعب. فذات يوم وجدت المرور متوقفا والناس متكدسين على الجانبين وما لبث أن جاء طابور من سيارات عديدة ولما مر أمام ناظرى مؤخرة الطابور لمحت وجها انشق لمرآه قلبى فجعلت أنطق «يخلق من الشبه أربعين».

حلـــم ٩٥

تمت الموافقة على بدء الرحلة فتلقى الأهل الخبر بالرضى وسارعوا إلى إمدادى بالمال فذهبت من فورى إلى الترزى لتفصيل بدلة على أحدث موضة وقام الرجل بعمله كأحسن ما يكون ولم يكتف بذلك بل جاء بعمامة أنيقة ووضعها على رأسى وهو يقول: إنه بذلك تصبح البدلة على أحدث موضة.

حلـــم ٩٦

اشتد العراك فى جانب الطريق حتى غطت ضجته ضوضاء المواصلات ورجعت إلى البيت متعبا، وهناك تاقت نفسى إلى التخفف من التعب تحت مياه الدش فدخلت الحمام فوجدت فتاتى تجفف جسدها العارى فتغيرت تغيرا كليا واندفعت نحوها، ولكنها دفعتنى بعيدا وهى تنبهنى إلى أن ضجة العراك تقترب من بيتى.

حلـــم ٩٧

هذه حجرة السكرتارية حيث أمضيت عمرا قبل إحالتى إلى المعاش، وحيث زاملت نخبة من الموظفين شاء القدر أن أشيع جنازاتهم جميعا، واسترقت نظرة من داخل الحجرة لأرى من خلفونا من الشباب، فكدت أن أصعق لم أر سوى زملائى القدامى واندفعت إلى الداخل هاتفا سلام الله على الأحباب متوقعا ذهولا واضطرابا، ولكن أحدا لم يرفع رأسه عن أوراقه فارتددت إلى نفسى محبطا تعسا، ولما حان وقت الانصراف غادروا مكاتبهم دون أن يلتفت أحد نحوى بما فيهم المترجمة الحسناء، ووجدت نفسى وحيدا فى حجرة خالية.

حلـــم ٩٨

من موقفى على الطوار أرسلت بصرى إلى الحديقة من خلال قضبان السور الحديدية، وهناك رأيت مالكة فؤادى وهى توزع شيكولاتة على المحبين فاندفعت جهة باب السور حتى بلغت مدخل الحديقة وأنا ألهث وواصلت الجرى فى الداخل ولكنى لم أعثر للمحبوبة على أثر فهتفت بحدة لاعنا الحب. وحانت منى التفاتة إلى الخارج فرأيت الفتاة فى الموضع الذى كنت فيه وهى تتأبط ذراع شاب بدا أنه خطيبها، وهممت بالرجوع من حيث أتيت ولكن أقعدنى الإرهاق وطول المساءلة وفوات الفرصة.

حلـــم ٩٩

هذا فناء مستدير تتوسطه نخلة رشيقة وتقوم فى جوانبه بيوت صغيرة وعند العصارى تفتح الأبواب وتخرج النساء للسمر تحت النخلة ويدور الحديث غالبا حول البنات والزواج، وأنزوى أنا بعيد لأتابع الحديث بشغف، وعندما يهبط المغيب يعضنى الجوع ولم يكن يعلم بحالى سوى صديقة طفولتى تتسلل إلىَّ حاملة طبقا صغيرا نصفه مملوء بالجبن البيضاء والنصف الآخر مفروش بالبقدونس، ونتعاون معا على معالجةالجوع على أنغام حديث الزواج.

حلـــم ١٠٠

هذه محكمة وهذه منضدة يجلس عليها قاض واحد وهذا موضع الاتهام يجلس فيه نفر من الزعماء وهذه قاعة الجلسة، حيث جلست أنا متشوقا لمعرفة المسئول عما حاق بنا، ولكنى أحبطت عندما دار الحديث بين القاضى والزعماء بلغة لم أسمعها من قبل حتى اعتدل القاضى فى جلسته استعدادا لإعلان الحكم باللغة العربية فاستردت للأمام، ولكن القاضى أشار إلىّ أنا ونطق بحكم الإعدام فصرخت منبها إياه بأننى خارج القضية وإنى جئت بمحض اختيارى لأكون مجرد متفرج، ولكن لم يعبأ أحد بصراخى.

حلـــم ١٠١

زيَّنا البيت ترحيبا بالابن العائد بعد غياب، أصبح فيه نجما من نجوم المجتمع وأمضينا السهرة فى الشرفة التى تمد الشقة بالمنظر الجميل والهواء النقى، وأتحفنا العائد بالأشعار والألحان حتى انتصف الليل وفى الصباح وجدت مدخل الشرفة مسدودا بدولاب عملاق فخجلت، ولكن الابن لم يخف حزنه، إذ ثبت له أن أناسا من صميم أسرته لا يستلطفون وجوده ويكرهون عمله الجميل.

حلــم ١٠٢

أخيرا اهتديت إلى مأوى فى الدور التحتانى من بيت قديم، ولكن سرعان ما ضقت برطوبته وسوء مرافقه فسعيت من جديد حتى نقلت إلى الدور الفوقانى وهو أفضل من جميع النواحى، غير أن السماء أمطرت بغزارة غير معهودة فانسابت المياه من الأسقف فاضطررنا إلى تكويم العفش وتغطيته بالأكلمة، وغادرنا الشقة إلى بير السلم فشعر بنا ساكن الدور التحتانى الجديد فخرج إلينا ودعانا بإلحاح وبشدة إلى الداخل حيث الدفء والرعاية.

حلــم ١٠٣

ماذا جرى لبيتنا؟ جميع المقاعد تلاصقت وسمِّرت قوائمها فى الأرض، وخلت الأسقف من المصابيح والجدران من الصور والأرض من السجاجيد، فماذا جرى لبيتنا؟

قالوا بأنه إجراء لتأمين البيت لتعدد حوادث السطو على المنازل، فقلت دون تردد إن السطو أحب إلىَّ من القبح والفوضى.

حلــم ١٠٤

رأيتنى فى حى العباسية أتجول فى رحاب الذكريات، وذكرت بصفة خاصة المرحومة عين فاتصلت بتليفونها ودعوتها إلى مقابلتى عند السبيل، وهناك رحبت بها بقلب مشوق واقترحت عليها أن نقضى سهرتنا فى الفيشاوى كالزمان الأول، وعندما بلغنا المقهى خف إلينا المرحوم المعلم القديم ورحب بنا غير أنه عتب على المرحومة عين طول غيابها، فقالت إن الذى منعها عن الحضور الموت فلم يقبل هذا الاعتذار، وقال إن الموت لايستطيع أن يفرق بين الأحبَّة.

حلـــم ١٠٥

جميع الرجال فى حيِّنا يحلقون رءوسهم فى صالون عم عبده انجذابا للحسناء الجالسة خلف صندوق النقود، وتمنينا جميعا أن تتحسن حالتنا المالية فنحلق ذقوننا كل صباح فى رحاب الجمال، وذات يوم وجدتنى أسير فى طريق متألق الجمال والنقاء، وإذا الحسناء مقبلة نحوى من بُعد قريب حتى إذا حاذتنى التفتت إلىّ فجأة وأخرجت لى لسانها، وبسرعة مذهلة تحول وجهها إلى كتلة خشبية سميكة فذعرت وسارعت مبتعدا، غير أن ترامى إلىّ صوت ضحك فنظرت ناحيته فرأيت الحسناء تراقص الأسطى وهما فى غاية الحيوية والمرح.

حلـــم ١٠٦

غزا الوزارة نبأ بأن انقلابا قد وقع فى الصباح الباكر فتجمع الموظفون حول التليفزيون واستمعنا إلى البيان الأول، فقال موظف قديم إنه سمع هذا البيان فى مطلع شبابه، أما أنا فاكتشف أن زعيم الانقلاب صديق حميم، ومن فرحتى أعلنت الخبر مسترخيا فى حبور بأن الحياة سوف تضحك لى، فقال الموظف القديم: إنه قد تضحك لى الدنيا وقد أعدم بدون محاكمة.

حلـــم ١٠٧

أنه من تراحم عجيب، ففى حقيقته يرقد نعش كتب عليه أن هذه جنازة فلان تنفيذا لوصيته، وفلان زميل كريم اشتهر بندب حظه السيئ فعلى كثرة مؤلفاته لا يكاد يعرفه قارئ، وجاء المشيعون والمتفرجون حتى بلغ الكرام المدافن وسط مظاهرة لم تشهدها جنازة من قبل، وما جاء المساء حتى كان اسم الراحل يتردد على كل لسان.

حلم ١٠٨

غادرت القطار الجميل وقلبي مفعم بالإشراق، ولكنى وجدت نفسى فى خلاء مخيف، فأين إذن الحديقة التى لا يوجد مثلها فى البلاد؟! وأدركنى رجل وجيه تذكرت وجه الرجل الذى تزوج من حبيبتى منذ سنوات فاعتذر عن التأخير فى بدء العمل لتعاقب الحروب وأكد أن الرأى استقر نهائيا على أن يعود هذا الأسبوع وعلى أن يتم تمامه فى شهر واحد تعود بعده الحياة لأجمل صديقه فى الوجود، وبخلاف المتوقع فإننى صدقته أملا أن يجىء يوم تجمع الحديقة بينى وبين حبيبتى كما جمع بيننا حى واحد فى الزمان الأول.

حلم ١٠٩

هذا تلميذى يتلقى عنى علوم الموسيقى والألحان وسرعان ما أصبح تلميذى نجما ثريا، وظللت أنا فى الظل منسيا فتركت عملى الجميل الشاق واشتغلت بتدريب الآثار، وكف تلميذى عن التعلم والعلم وأدمن المخدرات وعرض صوته للتلف، وحدث أن جمعنا حفل ساهر فلا هو عرفنى ولا أنا عرفته، وأخذت أتساءل مع كثيرين عن تدهورنا وما جرى لنا.

حلم ١١٠

إنه مشوار مرهق وعند نهايته وجدت بوابة مغلقة فاستجمعت قواى وجعلت أرفعها حتى استجابت، فرأيت وراءها بحيرة تنطلق منها صواريخ كلما بلغ صاروخ الفضاء فى الفجر باعثا من الظلمة وجها عزيزا محبوبا امتلأ الفضاء بالأحبة، ومع ذلك فمازلت أنتظر سطوع الوجه الذى علمنى العشق وألهمنى الخلود.

حلم ١١١

فى الجو غيم وفى الصدور قلق ويترامى إلينا من بعيد لا يتوقف، وقال صاحبى وهو يحذرنى بأنهم يستهدفون حياتنا فقلت له إنى عرفت أخيرا سبيل الخلاص، ولا أنكر أنه وعر كثير المقاومة ولكن ليس عندى خير منه فاتبعنى إن شئت، وتفكر صاحبى طويلا ثم تبعنى وهو يقول إن الأعمار بيد الله وحده!

حلم ١١٢

يا لها من ضوضاء، فثمة أصوات متضاربة وخطوات تهرول حينا وتركض حينا وصرخة هنا وصرخة هناك وطلقات نارية وامرأة تستغيث بالله، أذهلنى التشابه بين صوته وصوت المرحومة أمى، ومن فورى هرعت إلى السطوح حيث اجتمع إخوتى وأخوانى وتحدث أخى الأكبر عن الاستغاثة والصوت، فقال لى بتيقن بأن الصوت هو صوت أمُنا دون غيره وليس آخر يشبهه.

حلم ١١٣

أخيرا حضر الوزير الجديد فقدمت له نفسى باعتبارى سكرتيره البرلمانى، ولكنه لم يفهم كلمة من كلامى فحاولت شرح عملى ولكنه نهرنى بحدة وأمر بنقلى من وظيفتى، وهكذا بدأت المعاناة فى حياتى، ثم شاء القدر أن يجمع بينى وبين الوزير فى مكان خير موقع وهو السجن، وبعد أن أفقت من ذهولى أخذت أذكره بلقائنا الأول وما جرى فيه حتى تذكر وتأسف واعتذر، وانتهزت وجودنا فى مكان واحد كى أشرح له عمل السكرتير البرلمانى.

حلــم ١١٤

جاءت الشغالة الجديدة مصحوبة ببعض أقربائها وكأنهم أرادوا أن يشاهدوا المكان وأهله لتطمئن قلوبهم على ابنتهم الوسيمة، غير أن الوسيمة لم تمكث عندنا إلا نصف يوم، ثم ذهبت تاركة فى النفوس غضبا وبلبلة، حتى كان ذات مساء فرأيتها تخرج من عمارة قريبة وهى على حال من الانحراف الصارخ فصعقتنى الحقيقة الغائبة وأدركت عمَّ كانوا يبحثون فى اللقاء الأول.

حلــم ١١٥

فى البدء التهب الخصام حول إصلاح البيت بين الساكنة فى الدور التحتانى ومالكة البيت المقيمة فى الدور الفوقانى وترامت الأصوات إلى الحارة الصغيرة ففُتحتْ نوافذ وأبواب وأيَّد البعض مالكة البيت. أما الكثرة فأيَّدت الساكنة، واحتدم الجدل ثم تطايرت الشتائم حتى أنذر الغضب الأحمر بسفك الدماء.

حلــم ١١٦

ذهبت لتهنئة صديق قديم على الوزارة، ولكن بخلاف المتوقع قوبلت فى المكتب بفتور واضح ثم طال انتظار المقابلة دون جدوى، فتسلل إلى ظنى أن بعضهم افترى علىَّ فرية أفسدت الود القديم، وأخيرا غادرت مجلسى لا أرى ما بين يدى واستقبلنى زميل.

يبقى على وده وقال لى إن لعنة الله على ألسنة السوء فسألته ولمَ لم يقابلنى ويتحقق من الأمر، فقال إنه مضى زمن والقانون معطل اكتفاءً بأقوال الشهودَ.

حلـــم ١١٧

كنت جالسا فى المقهى وإذا بفتوّة الحى يجلس إلى جانبى دون استئذان فرحّبت به مرغما فقال: إنه اختارنى للزواج من ابنته المطلقة، فارتعشت أطرافى وقلت: إننى سأتزوج من ابنة عمى فى نهاية الأسبوع، فقال ببساطة وثقة: أنت ستتزوج من ابنتى وأنا سأتزوج من ابنة عمك.

حلـــم ١١٨

وجدتنى فى ميدان محطة الرمل المزدحم دوما بالبشر، ولمحت فى ناحيته الرجل الذى تردد كلماته الألوف وهو يغازل غانية، فهمست فى أذنه «إذا بليتم فاستتروا». فقال: وهل ثمة ستر أقوى من ملابسها؟!

حلـــم ١١٩

وصلت إلى المحطة فى الوقت الحرج واتخذت موقعى فى الطابور الممتد إلى شباك التذاكر. ظللنا بين القاطرة والشباك حتى انطلقت صفارة الإنذار الأخيرة ومازلت على مبعدة من الشباك، وهكذا فاتنى القطار.

حلـــم ١٢٠

قمنا برحلة إلى المملكة التى تغنّى بروعتها الشعراء، وهناك انضم كل فرد إلى المرشد الذى اختاره ينتقل به من مشهد إلى مشهد ومن جبل إلى بحيرة ومن متحف إلى مقبرة، وقال المرشد: إنه لم يبق من الرحلة إلا الحديقة البللورية، ودعانا إلى شىء من الراحة

والتأمل كى لا يصدمنا الانبهار فسألنا: وهل ثمة انبهار يفوق ما شاهدنا من أحياء وأشياء، فابتسم المرشد وواصل السير ونحن فى أثره..

حلـم ١٢١

رأيتنى أسير فى شارع كورنيش الإسكندرية مستهدفا العمارة التى أرى فى إحدى شرفاتها السيدة الأنيقة بصحبة زوجها وأبنائها الشبان، فلما فتر الهدف ذاب المنظر ذوباناً سحرياً ناعماً حتى اختفى وحل محله شارع العباسية، ومازلت أسير نحو العمارة الجديدة التى تطالعنى من إحدى نوافذها الفتاة التى لا تُنسى، ولكنى وجدت النافذة خالية فقررت الانتظار كالعادة فى محطة الترام، ولكنى لم أجد للمحطة أثرا ولا لقضبان الترام أثرا على طول الشارع.

حلـم ١٢٢

الليل سجى فاحتوتنا غرفة وهبتنا الظلمة راحة عابرة وفرحاً حميماً، وترامى إلينا من الطريق ضجة، فهرعت إلى خصاص النافذة فرأيت قوما يحدقون بشخص مألوف الهيئة وينهالون عليه باللعنات واللكمات، وهو مستسلم لم يقاوم حتى شعرت بالكلمات تخرق جسدى.

حلـم ١٢٣

هذا ميدان الأوبرا وفيه أسير متجها نحو مقهى الحرية، فأدهشنى أن أجدها خالية من روادها اللهم إلا شخص منكب على قراءة أوراق مبسوطة بين يديه، وسرعان ما تبين لى أنه أستاذى الشيخ مصطفى عبدالرازق، فانشرح صدرى واندفعت نحوه مشتاقا إلى لقاء حميم غير أنه التفت إلىّ متجهما فهبط قلبى، وأشار الأستاذ نحو الأوراق وقال لى: آسف إنه قرأ اسمى بين شهود الإثبات، فلم أدر ماذا أقول ولا كيف أعتذر؟

حلم ١٢٤

كثيرا ما اجتمعنا بمكان يقع بين الحقول من ناحية والطريق العام من ناحية أخرى، حتى قال لى صاحبى إن هذا الموقع لا يضمن السلامة فى كل الأحوال، ومن لحظتها سكن القلق فى صدرى حتى استيقظت ذات صباح على ضجة وصياح، فقمت إلى النافذة فرأيت جموعا لا يحصرها حصر وجماهير لم أميز فيها سوى الغضب الأحمر.

حلم ١٢٥

توجهت إلى مسكنى فوجدته يمور بالحركة ولا شىء من الأثاث فى موضعه، وثمة غلمان وبنات لا أعرفهم يلعبون هنا وهناك دون أن يحسوا بحضورى فانقبض صدرى، ودلفت إلى الشرفة المطلة على حديقة قريبة منى، وفيها شجرة ضخمة تمتلئ أغصانها بالعصافير المزقزقة، وكانت الزقزقة وحركة العصافير قد أنستنى كل شىء غير صوت العصافير وهى تغرد.

حلم ١٢٦

ذهبنا لتهنئة الوزير الجديد بوصفنا أصدقاء قدامى فرحب بنا، ووجدنا أحباء آخرين فرجعنا معهم إلى عهد الصبا، وفى الصباح التالى أذاع الراديو البيان الأول لحركة الجيش، وعندما ذهبنا إلى السكرتارية للترحيب قال لنا لا تسهبوا فى الترحيب قبل أن تعرفوا القادم.

حلم ١٢٧

فى حديقة هذه الفيلا نجتمع مساء للسهر والسمر فى حرية شاملة، ولكن صاحب الحديقة تغير فجأة فاستبد بكل شيء، فهو يختار موضع الجلسة وموضوع الحديث والأكل والشرب، وحسبناها دعابة ولكنه استمر وتمادى فضقنا به ذرعا غير أننا أخفينا مشاعرنا إكراما للموقف. إلا واحد لم يستطع إخفاء مشاعره، وذات مساء انفجر غضبه المكتوم وجن جنونه فصرخ، وأخرج من جيبه مسدسا صوبه نحونا بيد مرتجفة فتفرقنا فى الحديقة تطاردنا لعناته وشتائمه.

حلم ١٢٨

هذا محل لبيع التحف يتألق نورا وبهجة، وتجلس فى خدمة ضيوفه شابة آية فى الجمال، وطفت به حتى صادفنى مطعم صغير فتناولت ساندوتشا ودخنت سيجارة والتفت لرؤية الشابة الجميلة، لكنى وجدت مكانها امرأة طاعنة فى السن فانقبض صدرى وأرسلت ناظرى باحثا عن الجميلة، فمضيت فى حيرة بمرآة فوقها مشهد به صورة عجوز يتوكأ على عصا غليظة قد أعياه المشى والقلب والذاكرة.

حلم ١٢٩

مازلت فى صباحى مستوصيا بالصبر والعزم والاستمرار حتى بلغت مرتفعا أوحى إلىّ بأخذ شىء من الراحة، وهنا لمحت صبيا يكافح للصعود، فرق له قلبى ومددت له يدى، ولكنه جذبنى بقوة لم تجرنى فى جناحه، فهربت أتدحرج ولا أملك لنفسى شيئا.

حلــم ١٣٠

صحوت من نومى على أصوات تنادينى غير عابئة بوقار الليل ، وسرعان ما عرفت منها أصوات صديقات الزمان الأول ، وكن يذكرننى بالميعاد الذى لم أنجزه فتلفحت بالروب وهرولت إلى الخارج ، ولكنى وجدت الشارع خاليا والصمت سائدا .

حلــم ١٣١

لقاؤنا فى هذا الركن من الغابة وحياتنا طرب مستلهم من المواويل ، وسماؤنا سحب من دخان رقيق عاطر ، ونحن كأننا نائمون أو غافلون ، وذات يوم اقتحم هدوءنا غناء غريب مجنون الإيقاع شديد الصخب فذهلنا ورأى بعضنا إسكاته ولو بالقوة على حين آثر البعض التأمل والحكمة ، وعلى أى حال فقد استيقظ النائمون وتنبه الغافلون .

حلــم ١٣٢

هى وأنا ماضيان كالعادة إلى ملهى من الملاهى ، وفى الطريق استأذن دقيقة ريثما يشترى سجائره ولما رجع لم يجدها فعلم على ظنه إنها سبقته إلى الملهى المتفق عليه فذهب إليه ولكنه لم يجدها ، فراح ينتقل من ملهى إلى ملهى باحثا عنها ، وحتى هذه اللحظة لم يكف عن البحث .

حلــم ١٣٣

جائزة مقدارها مائة جنيه لم أعرف قبلها من النقود إلا راتبى الصغير ، فأملت أن تكون الخطوة الأولى فى طريق الثراء ، فكم من زميل بدأ من الصفر ثم أصبح من

كبار الأغنياء، وسألت أحدهم عن الوسيلة فضحك وقال لا تسل عن الوسيلة فلا يجهلها أحد، ولكن سل عن الشخص والزمن.

حلم ١٣٤

جمعتنا المواعيد فى الطريق الزراعية، فجعلنا ننشد الأشعار ونغنى ما طاب لنا من الألحان حتى سرقنا الوقت، فغاب قرص الشمس ونحن لاندرى، فتذكرنا أنه عند هبوط الظلام يترامى إلينا عواء الذئاب من جهات كثيرة.

حلم ١٣٥

اشتقت لرؤية أهلى فانتقلت من فورى إلى البيت القديم، وهالنى بأن أجده غارقاً فى الظلام كأنهم استأنسوا بالظلمة، فناديتهم معاتباً رجلاً رجلاً وامرأة امرأة، ولكن لم يجبنى أحد.. رجعت أكرر النداء حتى دمعت عيناى.

حلم ١٣٦

رقد جثمان أختى على الفراش، وقفت أمامه ومعى حبيبتى خاشعين، على حين تربعت على الفراش صبية جميلة تغنى غناء شجيا، وجرى الزمن فأصبح الجثمان الراقد على الفراش، وهو جثمان حبيبتى، ووقفت أنا وأختى أمام الفراش خاشعين، واصلت الصبية فى موضعها تغنى غناءها الشجى.

حلم ١٣٧

يا لها من حديقة لا أول لها ولا آخر يقطر من سمائها الصفاء وتتوارى أرضها تحت الشجر، وجلسنا فى ظل شجرة لنأكل ونشرب، وإذا بصوت يخبرنا بأن المغنيات

والراقصات آتيات آتيات، وصوت آخر يحذرنا من الاستماع إلى الأمثال والحكم التى تذم بصلب الدهر وتحدى الأيام، وقال إن حسبكم هذه من الأشجار المثقلة ثمارها بالهناء والسرور.

حلم ١٣٨

شارع طويل عريق وأنا أسير فيه على مهل غافلا عما حولى، وإذ بيد تربت على كتفى، فالتفت أمامى فرأيت امرأة آية فى الجمال والرشاقة ودهشت فابتسمت فأسرعت نحو بيت أنيق أخضر، فاستقر رأيى على أن أتبعها، ولكننى التفت حولى لحظة ليطمئن قلبى، وفى هذه اللحظة تدفق جنود الأمن حتى سدوا الطريق سدا وتعذر علىّ التقدم، ولكن عينى لم تتحولا قط عن البيت الأنيق الأخضر.

حلم ١٣٩

هذا معرض اشتهر بصوره الفنية التى تتغير شكلا ومضمونا كلما اقترب منها المشاهد، وأول ما طالعنى صورة غابة آية فى الجلال، ولما اقتربت خطوة تلاشت الغابة وحلت محلها صورة امرأة عارية متعددة المحاسن، وعند الخطوة التالية غابت المرأة وظهرت محلها صورة معركة حامية الوطيس اشتعلت فيها كافة أنواع الأسلحة من الأحجار وحتى الإلكترونات.

حلم ١٤٠

هذه امرأة ثرية المحاسن ما إن رأيتها حتى غازلتها، وإذا بزوجها ينقض علىّ ويأبى أن يتركنى إلا فى القسم، ولكن تداخل رجل من حينا اشتهر بين خاصة معارفه بالدعوة إلى الحرية المطلقة، ففررت بعد أن لقننى درساً لا ينسى ويتجسد لى كلما قابلت امرأة، حتى رأيت نفسى وجها لوجه مع المرأة الجميلة فهممت بالجرى، ولكنها

أقبلت علىَّ باسمة وتأبطت ذراعى وهى تهمس بأن زوجها اعتنق أخيرا دعوة الحرية المطلقة.

حلم ١٤١

هذا حينا القديم الجميل، وهذا أنا أجول فى أركانه حاملا فى قلبى ذكرياته، ثم خطر لى أن أقيم فى البيت القديم حتى تخف أزمة المساكن، ولكن تبين لى من أول يوم أنه لم يعد صالحا للحياة الحديثة.

حلم ١٤٢

هذه القطعة من الأرض الفضاء هى ميراثى الوحيد، وقد أطلق عليها اسم الخرابة لطول ما عانت من إهمالها، وما أن رُزقت بعض المال حتى فكرت جادا فى تعميرها، ولكنى لم أقدم لكثرة ما عرفت من حوادث النصب وفساد الذمم، حتى سألت جارى الحكيم: ألا يوجد فى الدنيا شخص خيِّر؟ فأجابنى بأنه موجود، ولكن يتطلب العثور عليه عزما وشجاعة وبحثا لا يتوقف.

حلم ١٤٣

سمعت صوتا غير مألوف فمرقت بسرعة إلى فناء العمارة فرأيت رجلا غريبا أثار فى نفسى الريب، فناديت البواب ولفتُّ نظره إلى الرجل الغريب، فأخبرنى بهدوء أنه موظف ويؤدى واجبه الرسمى وهو أخذ الزائد من الأفراد من المساكن المكتظة وينقله إلى مسكن يتسع له، فاعترضت قائلا إنه يأخذ فردا من أسرة ويخلف حزنا وينقله على رغمه إلى مكان لا يرحب به، فقال البواب بأن هذا هو القانون ونحن لا نملك حياله إلا الإذعان والتسليم.

حلــم ١٤٤

نظرت فى ظلمات الماضى فرأيت وجه حبيبتى يتألق نورا بعد أن دام غيابها خمسين سنة، فسألتها عن الرسالة التى أرسلتها لها منذ أسبوع، فقالت إنها وجدتها مفعمة بالحب ولكنها لا حظت أن الخط الذى كتبت به ينم عن إصابة كاتبه بداء الخوف من الحياة وبخاصة من الحب والزواج، ولما كنت مصاب بنفس الداء فقد عدلت عن الذهاب إليك وفكرت فى النجاة فلذت بالفرار.

حلــم ١٤٥

هذا مهرجان عظيم جمع العديد من رموز الأمم، ونادانى رئيس المهرجان وسلمنى كرة وهو يقول إنها هدية المهرجان لك وهى من الذهب الخالص، وأنهالت علىَّ التهانى، ولما رجعت أعلنت نيتى على التبرع بنفس الهدية لأعمال الخير فجاءوا بمنشار وأخذوا يقسمونها، ولما وصل المنشار إلى باطن الكرة دوى المكان بانفجار مزلزل وتطايرت شظايا الضحايا من الإنسان والحيوان والنبات والجماد.

حلــم ١٤٦

انتصر العدو واشترط لوقف القتال أن يتسلم تمثال النهضة الذهبى المحفوظ فى الخزانة التاريخية، وذهبت مع فريق لنحضر مفتاح الخزانة المحفوظ بالصندوق الأمين، ولما كشفنا غطاء الصندوق تبدى لنا ثعبان مخيف ينذر بالموت كل من يدنو منه، فتفرقنا وأنا أدارى فرحتى وأدعو للثعبان بالسلامة والتوفيق فى حفظ المفتاح.

حلم ١٤٧

دُعيت لاجتماع عاجل لسكان العمارة، وهناك أطلعونى على قرار صادر ضدى بإخلاء الشقة، ورحت أناشدهم العدل وأناشدهم الرحمة، حتى قال لى صاحب العمارة: إنه لم يعقد هذا الاجتماع للبحث عن العدل والرحمة ولكن للتأكد من مطابقة القرار للقانون.

حلم ١٤٨

اشتدت المنافسة بين القطارات وبين سيارات الطرق الزراعية، وأخيرا اجتمع المسئولون عن القطارات وقرروا تخصيص عربة قطار للعربدة والنساء فى نطاق الحرية المطلقة، كما قرروا إنشاء صالة فى كل عربة قطار للشرب والغناء والرقص، ورحت أشرب وأغنى وأرقص منتظرا فرصة للتسلل إلى عربة المسرات.

حلم ١٤٩

اجتاحت الثورة المدينة، وقُتل الملك وهو يدافع عن مدينته، وسرعان ما أولمت وليمة فاخرة لقادة الثورة، ودعت الملكة زعيمها إلى جناحها الخاص، وهناك استقبلته عارية تماما كاشفة عن مفاتنها.

حلم ١٥٠

اشتدت الأزمة حتى أشفى التاجر الكبير على الإفلاس ولم يجد من يقرضه فى طبقته التى أنهكتها الأزمة، ولكن تقدم بياع العرقسوس بقرض دون فوائد، ولما حان وقت السداد بلغت الأزمة ذروتها حتى

فكر التاجر فى الانتحار ولكن أسعفه بياع العرقسوس بقرض جديد، وطلب منه أن يعتبر القرضين مهرا لابنته، وقالوا إن التاجر وجد أخيرا حلا لأزمته، فقال بياع العرقسوس فى سره إنه أيضا وجد حلا لأزمته التى لم يبح بسرها لإنسان.

حلم ١٥١

كنا نجلس حوله للسمر الممتع والمفيد تحت الشجرة، ويوما استأذن منا دقيقتين لتناول الدواء وصعد إلى شقته ولكنه غاب، فأرسلنا أحدنا ليطمئن عليه فوجد الشقة مغلقة بالقفل من الخارج، ومن ثم بدأت رحلة البحث غير المجدية عنه فى جميع نطاقه، وأخذ يساورنا القلق، يتساوى فى ذلك المحبون والكارهون والمستفسرون، أما إمام المسجد فقد دعا إلى أداء صلاة الغائب على روح الغائب.

حلم ١٥٢

ذهبتُ مدعوًّا إلى الدار الشهيرة فى الاحتفال بعيدها الذهبى، وهناك وجدت البهو مكتظا بمختلف الطوائف وجميع أصناف الكلاب، ووقف الداعى فرحب وشكر ورجع إلى الذكريات، التى لا ننسى حين هجم عليهم كلب متوحش وكاد يفتك بهم جميعا، لولا أن تصدى له رجل جسور فألقى بنفسه عليه، ولأول مرة يعض آدم كلبا حتى امتص منه وحشيته، فتغيرت الطبيعة الكلبية وتغيرت معاملة الكلاب للبشر، وها هم يجلسون جنبا إلى جنب فى سلام ويتناولون الحلوى، وفى الختام وقفوا جميعا وتغنوا بنشيد بلادى بلادى.

حلم ١٥٣

رأيتنى فى قارب شراعى مع نخبة من صفوة القوم، تحدق بنا المياه من كل جانب، فانقبض صدرى لجهلى التام بالسباحة، وارتفع الموج من صمت عميق ينذر بالانفجار، فألقت الصفوة بنفسها فى الماء وراحت تسبح بقوة ورشاقة، وازددت أنا انتباها وتذكرت

الوقت الطويل الذى ضاع فى اللهو، وكان بعضه يكفى لتعلم السباحة والتدريب على الإنقاذ من الغرق.

حلـــم ١٥٤

دفعتنى أنا وصديقتى المذيعة أمواج متلاطمة من البشر، حتى توقفت فى ميدان صغير أمام سد من البشر لا يسمح بنفاذ إبرة، ونظرت فرأيت فى الجهة المقابلة محل الحلوانى الذى اعتدت أن أفطر فيه، ولكنى لم أستطع الحركة وقلت لصاحبتى إن برنامجها عن النصر سيتعطل قليلاً، فقالت: على كل حال أنا عندى خبر مثير؛ فقد مات فى الزحام المجاهد الكبير مكرم عبيد، فخفق قلبى حزنًا على موت البطل، وهناك رآنى نادل محل الحلوانى فوضع بعض الأطعمة فى كيس من الورق ووقف على كرسى ورماه من فوق الرءوس فتلقفته بلهفة وفتحته، ولكن يد صاحبتى سبقتنى إليه وهى تهمس بالمعذرة أنا أكاد أموت جوعًا، ثم مددت يدى داخله فلم أجد سوى بعض المخلل الإفرنجى.

حلـــم ١٥٥

بلغنى أن نزلة برد خفيفة ألمت بأستاذى الجليل الشيخ مصطفى عبد الرازق فقررت أن أعوده، ولكنى وجدته واقفًا على باب دارى والدموع تنحدر على خديه فهالنى منظره الحكيم إذا بكى، وقلت له: يا مولاى ما هى إلا وعكة خفيفة لا تستحق الدموع، فقال لى: أنا لا أبكى على حالى، فأدركت ما يعنى من أن البكاء على حالنا نحن، وانتهرت الفرصة وسألته عن العباد؟ فقال: عندكم الكثير من الصيدليات مليئة بالأدوية، إضافة إلى الوصفات الشعبية المجربة.

حلـــم ١٥٦

أخيرًا تنمرت القطة الوديعة وهاجت رياح الغضب، وتساقط الشرر يشعل الحرائق حيثما وقع، ولن أجد من أكلمه إلا الرياح، فقلت لها: عندنا وسائل سلمية كنا على

وشك استعمالها، فقالت: ما فات وقته تعطل فعله، واستمرت زمجرة الرياح وتساقط الشرر.

حلـــم ١٥٧

لم يبق لى فى الحياة إلا أسابيع.. فهذا ما قرره الفحص الطبى، فحزنت حزنًا شديدًا ثم تملكتنى موجة استهتار، فأقبلت أتناول الأطعمة التى حرمها علىّ الأطباء من سنين، ولازمت صديقتى «س» وعرضت عليها الزواج، فدهشت وقالت لى: إنك تفقد صداقة بريئة عظيمة ولا تكسب شيئًا، فألححت عليها حتى رضخت، وبعد يومين جاءنى صديق طبيب يخبرنى بأن هناك أخصائيا عالميا سيزور مصر وأننا حجزنا لك مكانًا عنده.. فهنيئًا لك بفرحة الحياة، وغمرنى سرور من رأسى لقدمى غير أننى تذكرت الأطعمة الضارة التى التهمتها والزواج الذى قيدت به نفسى على غير رغبة فشاب فرحتى كدر وقلق.

حلـــم ١٥٨

كلفنى الوزير بالتنقيب فى مخزن الفن التشكيلى بالوزارة تمهيدًا لإقامة معرض، فأخذت مجموعة من الفراشين لإزالة الغبار وقتل الحشرات، ولاحظت وجود لوحة كبيرة مغطاة فأزحت الغطاء عنها، فطالعتنى صورة الزعيم سعد زغلول جالسًا على كرسى الرياسة وشابكًا يديه فوق عصاته، فتأثرت لإهمال الزعيم الذى تربيت فى مدرسته الوطنية، وإذا بالحياة تدب فى الصورة فترمش عيناه ويبدل يديه فوق العصا ويتجلى فى عظمة لا مثيل لها.. وسرعان ما جاءت الوفود من أبناء جيله تحييه وتشكو إليه ما أصابها من ظلم، وسرعان ما نسيت تعاليم الوزير والمهمة التى انتدبت لها، وانضممت إلى أكبر مجموعة وهى التى كان يتقدمها مصطفى النحاس.

حلـــم ١٥٩

تلقى بعض الحرافيش دعوة من الأستاذ سعد الدين وهبة فذهبنا إلى مقابلته، وهناك رحب بنا وأطلعنا على بيان سيرفعه إلى كبار المسئولين لتطهير الهيئة من الساسة المنحرفين، ودعانا إلى التوقيع عليه بإمضاءاتنا فاستجبنا بحماس، وعند فجر ذلك اليوم اخترق بيوتنا زوار الفجر وساقونا معصوبى الأعين إلى المجهول.

حلـــم ١٦٠

عرفت بمصادفة أنى أستطيع الرؤية خلف الأبواب المغلقة، فدهشت وسررت، وذهبت إلى البهو فوجدت الإخوان ملتفين حول مائدة القمار، ودعتنى الفتاة التى تقدم المشروبات إلى كرسى خال فجلست وأنا مطمئن، ونظرت إلى ظهر الأوراق فرأيت باطنها فضمنت الربح، ولكن صوتًا قال لى: إن الذى أعطاك هذه الموهبة قادر على استردادها إذا استعملتها فى الشر فانسحبت من الجلسة إلى البوفيه، وفى آخر الليل جاءتنى الفتاة لتخبرنى أن الذى كسب المائدة وُجد قتيلا مسروقًا فدهشت.. ثم قالت الفتاة إنها كرهت هذه المهنة، فمددت لها يدى ومدت لى يدها وسرنا معًا دون مقاومة.

حلـــم ١٦١

فى البدء حامت حولى فتاة صغيرة رشيقة، ثم أخذتنى من ذراعى إلى ركن منزو توجد فيه عربة كارو مركَّبٌ فيها حمار وصعدت إليها، وأشارت إلى فصعدت وتربعتُ إلى جانبها، وتناولت اللجام وحرَّكته بخفة، فقد صار الحمار يشق طريقه ببطء شديد وسط زحام الناس والمركبات، حتى بلغ الطريق الصحراوى فأخذ يسرع ويسرع حتى سبق السيارات والأوتوبيسات وكأنه يطير طيرانًا، فذهلت وسألت الفتاة: إلى أين؟ فأجابت: إلى المكان الذى تخور فيه قوى الحمار فيتوقف.

حلم ١٦٢

قررت أن أسير من جنوب الوادى إلى شماله مشيًا على الأقدام، وقابلتنى فى أوائل الرحلة رفيقة الطفولة والصبا وقد سمنت سمنة مفرطة، ونصحتنى بأن أتزوج عوضا عن هذه الرحلة العقيم، فشكرتها وواصلت السير حتى قابلت صديقى «م» متربعا على سجادة الصلاة فدهشت، وذكرته بأيام العربدة والإلحاد فقال لى: الهداية من الله سبحانه، ودعانى إلى الجلوس إلى جانبه فوعدته خيرا وواصلت السير، وفى منتصف الطريق أقبلت علىّ «ب» وحيتنى قائلة: إننى طاردتها بنظراتى حتى استجابت وانتظرت أن تتقدم لأبى ولكنك لم تخط خطوة واحدة بعد النظر فما سر ذلك؟ فقلت لها: إنى مازلت أتساءل مثلك وواصلت السير حتى بلغت الشمال منهك القوى متورم القدمين، فرأيت الحبيبة الخالدة نصفها مغموس فى مياه البحر الأبيض والنصف الأعلى يضىء الأمكنة من حوله، وسألتنى بصوتها الرخيم: ماذا جنيت من هذه الرحلة الشاقة؟ فسألتها بدورى: كيف يدوم حب بلا أدنى أمل طوال هذا العمر المرير؟

حلم ١٦٣

ميدان المستشفى بالعباسية شاهد أول لقاء لى مع الآنسة «ر»، واشتعل الحوار بين الحب واليأس حتى حسمته بقولى: الحب وحده لا يكفى. وكان اللقاء الثانى فى جزيرة الشاى، ولكنه كان مع الأرملة «ر» التى قصدتنى لخدمة تتعلق بوظيفتها، وأيقظ اللقاء العواطف الكامنة فتطرق الكلام إلى حوار بين الحب من ناحيتى واليأس من ناحيتها، حيث كانت ترعى أربعة أبناء، وحسمت الحوار بقولها: إن الحب وحده لا يكفى!

حلم ١٦٤

هذا بيت صديقتى الست «ح»، وقالت لى ابنة أختها إنها عند الدكتور، وأرادت أن تعد القهوة فأمسكت بيدها وجذبتها إلى جانبى، وأوحى لنا خلو المكان بما أوحى، وإذا

بالست «ح» تفاجئنا، فتغير وجهها وقالت للفتاة: ارجعى إلى أمك فى الحال، وحدجتنى بنظرة حجرية وغادرت المكان، وأمطرت السماء فأشفقت على الفتاة وغادرت البيت مستهينًا بكل شىء، واخترقت المطر وأنا أناديها، وبعد حين سمعت صوت الست «ح» ينادينى.. وغرق ثلاثتنا تحت المطر!

حلـــم ١٦٥

قرأت فى المجلة مقال نقد قاس لشخصى وأعمالى بقلم الأستاذ «ع»، وإذا به يمثل أمامى معتذرا ويقول إنه يقصد بالمقال أن يكون أساس حوار بينى وبينه، يحدث ضجة تعيد الغائب إلى الوجود، فقلت له: من يصدق هذا الحوار وأنت ميت منذ ١٥ سنة، فقال إنه يعتمد على أن الأجيال الحديثة فاقدة الذاكرة.

فقلت له: إن المقال أحب إلى نفسى من الانفعال والخداع!

حلـــم ١٦٦

وجدتنى فى القطار الخاص ببلدة النور وكانت العربة خالية، فبث الخلو الرهبة فى نفسى وتحسست محفظتى وناوشتنى المخاوف، وعند أول محطة أردت النزول، فرأيت على رصيف المحطة رجالا تنطق وجوههم بالشر والعدوان، فتراجعت إلى مكانى وقد ازدادت مخاوفى، وإذا بفتاة وسيمة تصعد إلى العربة وتجلس غير بعيدة عنى، فسألتها هل تحرش بها الرجال؟ فأجابت بأنهم فى غاية التهذيب والأدب.. فذهلت وساورنى شك فى أنها متآمرة معهم للإيقاع بى وذهبت إلى آخر العربة متحفزا للدفاع، ووصل القطار إلى بلدة النور فغادرته إلى أول حديقة من حدائقه التى لا تحصى، وهناك هفا علىّ نسيم معطر بروائح الورد والفل والياسمين والحناء، فتسلل إلى جفونى النعاس واستسلمت له متناسيا المحفظة والمخاوف، ونمت نوما هادئا عميقا على أنغام موسيقى تأتى من الداخل!

حلــم ١٦٧

هذه شركة إنتاج وهذا مديرها يخبرنى بأن النص الذى قدمته قُبل، وأن المخرج قرأه وهو راض عنه وإليك العقد والشيك، غير أننا جعلنا النَّص قسمة: فاسمك على القصة واسم الموزع على السيناريو واسمى على الحوار، وذلك لصالح الفيلم من الناحية التجارية، وقبلت ذلك على مضض، وهنا دخل المخرج واطلع على العقد وصاح أين أنا فى هذه القسمة؟ فقال له المنتج: يمكن أن تضع اسمك على القصة مع المؤلف، فاجتاحنى غضب وقلت: أنا متنازل عن القصة كلها، ولكن المدير قال لى: إنهم يتعاملون مع الناس على أساس من مبادئ الأمانة والشرف، وعليه فلا نقبل حذف اسمك.

حلــم ١٦٨

هذه حجرة مدير المستخدمين وأنا واقف أمام مكتبه وأسائله كيف تتخطانى فى الترقية والقانون معى مائة فى المائة؟ فقال لى: أقم دعوى وستكسب القضية. وذهبت إلى مدير التحقيقات وقدمت شكوى ولكنه أقر عمل الإدارة، ولكن أذهلنى أن وجهه نسخة دقيقة من وجه مدير المستخدمين، وذهبت من فورى إلى المحامى وشرحت مشكلتى، فوعدنى خيراً ودفعت مقدم الأتعاب، ولكن ذهلت أيضًا أن وجهه نسخة أيضا من وجه مدير المستخدمين ومدير التحقيقات، وذهبت إلى الطبيب ففحصنى بدقة ولكن لاحظت أن وجهه نسخة طبق الأصل من سابقيه، وفى آخر النهار رجعت إلى بيتى، وفى الطريق شعرت بجسم بارد يوضع على رقبتى وسمعت صوتًا يقول لى من وراء: النقود أو حياتك، فسلمته ما معى من نقود فأخذها وهرب، ولما أفقت من اضطرابى سألت نفسى: ترى أين سمعت هذا الصوت فمؤكد أنى لا أسمعه لأول مرة فأين ومتى سمعته؟!

حلــم ١٦٩

وقفت مع المدير العام الأجنبى نشاهد سير الزفة بين الزغاريد والطبول واصطحبنى إلى حجرته فى الفندق وهو يتساءل عن هذه الضجة التى لا شك تؤذى النزلاء من

السواح، فقلت له: إنها تقاليد الزفاف المصرى وهى من الموارد الثابتة للفندق، فقال: إذن اشترط فى العقد ألا توجد ضجة، فقلت: لا أستطيع، فقال غاضبًا: هذا أمر وعليك تنفيذه وذهبت من فورى إلى الإدارة المركزية وعرضت الأمر على المدير فقال: إن هذا الرجل الأجنبى نفعنا كثيرًا بعلمه وتجربته فعليك الاتفاق معه أو إقناعه أو تقديم استقالتك، ورجعت وأنا أفكر وأتساءل عن مصيرى.

حلم ١٧٠

جددت البيت القديم الذى ولدت فيه ولما انتهى العمال ذهبت إليه وتفقدت حجراته وتذكرت، ثم دخلت الشرفة ومن خصاص نوافذها رأيت ميدان بيت القاضى وقسم الجمالية وتوابعه، والحنفية العمومية وأشجار دقن الباشا، ثم سمعت ضجة فى الداخل فدخلت، فرأيت زملاء الصبا الذين توفاهم الله يهرعون إلىّ فرحين ثم رددوا أناشيد الصبا الوطنية، وإذا بضابط ومعه قوة من الجنود يقتحمون البيت، فساد الصمت وسأل الرجل عن الذين كانوا يغنون، فقلت ليس فى البيت سواى ففتشوا البيت ثم قادونى إلى القسم، وهناك وجهت إلىّ التهم بالتستر على مجرمين والتحريض على قلب نظام الحكم، وقال لى المحامى فيما بعد: اطمئن فليس لديهم دليل واحد، ولكنى لم أطمئن فرحت أتساءل عن مصيرى؟!

حلم ١٧١

فى هذا البهو يستريح الزملاء، وقد جلست ألاعب مدير مكتبى الدومينو، وفاجأنا الوزير وأعلن أنه عين مدير مكتبى فى وظيفتى وأحالنى إلى المعاش، وارتاع الزملاء وفكروا فى الأمر، فاتفق الأمر بينهم أن هذا الأمر مخالف للقانون، ولكنهم انقسموا بعد ذلك فرأت فئة الاتصال بالوزير بالحسنى، ورأت الفئة الأخرى وجوب إقالة الوزير لاستهتاره بالقانون، واشتد الجدل بينهم وانحدر إلى تبادل السباب والشتائم والضرب بالأيدى والأرجل، وقلت لهم إن سلوككم هذا قد قضى على قضيتى بالفشل، فدفعونى حتى سقطت على وجهى، وكان الوزير يتابع ما يحدث ويقهقه ضاحكا!

حلم ١٧٢

ذهبت إلى الحمام العمومى لأزيل عن جسدى وروحى ما علق بهما، ودخلت فى حجرة البخار ووقفت عاريا أنتظر من يدلكنى، ولكن دخلت فتاة وسيمة، وتعرت عن مفاتنها وراحت تدلكنى برقة ورشاقة، واستاء جميع من علم بذلك، ولكنى لم أبال وشكرت الحظ على نعمته!

حلم ١٧٣

سار معى موظفو مكتبى، فرأيت أقبح مدينة فى الوجود، واقترحوا تحسين الشوارع والميادين وإنشاء الحدائق، ولما اجتمعت بهم فى مكتبى قلت لهم: إن ما يهمنى هو ما ينفع الناس مثل الصرف الصحى والصحة العامة وتوفير المدارس والمياه والكهرباء، ثم دعوة الأعيان إلى تقديم ما يقترحون من تسهيلات لاستثمار أموالهم فى البناء والتعمير!

حلم ١٧٤

قال لى صاحبى وهو يحاورنى: إن المصرى بطبيعته فلاح أو حرفى، أما التقدم فى الإدارة والسياسة والعلم.. والحضارة فموقعه إلى الأجانب أو المتمصرين، فقلت: لا دخل للطبيعة فى ذلك، ولكن الأجانب والمتمصرين شاركوا فى السلطة والمال ووجدوا الفراغ للإبداع، وقد تغير الحال بمشاركة المصرى فى الثورة ضد الاحتلال الفرنسى والثورة ضد الاحتلال البريطانى، وتأييد عرابى وسعد زغلول وجمال عبد الناصر، فأصبح يشارك فى السلطة، وتجلت إبداعاته فى جميع مناحى الحياة.

حلــم ١٧٥

رأيتنى مدير قسم الأملاك بوزارة الأوقاف، واكتشفت أن بعض السكان لا يدفعون الإيجار بالاتفاق مع بعض الموظفين، فصممت على استرداد المال الضائع وتحويل المسئولين إلى التحقيق، ولكنى وجدتنى معزولاً ومقدمًا للتحقيق بتهمة الإساءة إلى سمعة الوزارة، وكانت معركة.

حلــم ١٧٦

رأيتنى ضابطًا مكلفًا بالقبض على الفنان «ى»، والحق أنى كنت معجبًا به محبًا له رغم احتقارى لإدمانه المخدرات، ودعى الفنان لإحياء حفلة غنائية فذهبت إليها، ولكننى أجلت القبض عليه حتى يتم غناءه، وراح هو يجود ويكرر:

أمانة يا رايح يمه

تبوس على الحلو فى فمه

وقل له عبدك المغرم ذليل

حلــم ١٧٧

أقيم سرادق كبير للاحتفال بالحزب الجديد، وظهر فى المنصة الزعيم مصطفى النحاس واستقبل بالهتاف، وألقى خطابا يشرح فيه مبادئ الحزب وفى مقدمتها الديمقراطية والعدالة الاجتماعية والوحدة الوطنية، ولما رجعنا إلى المكان الذى نجتمع فيه كل مساء قلت لهم إننى لما رأيتهم يهتفون ذكرتهم بفرحتهم يوم حريق القاهرة وإقالة وزارة النحاس، فقال لى أحدهم: إن تلك الفرحة هى خطيئتهم الكبرى وأنهم كفروا عنها فى اجتماع اليوم!

حلــم ١٧٨

صدر قرار بأن يتولى الوظائف الممتازة والعليا المصريون مما ينتمون إلى أصول تركية أو مملوكية، فوجدت نفسى فى الشارع أسير على غير هدى، حتى نادانى صديقى صاحب دكان الحلوانى وعرض علىّ أن أعمل كاتب حسابات فى محله، ولكن جاءنا صوت أبيه من مجلسه بركن المحل قائلا لا تدع العواطف الشخصية تفسد عملك، فواصلت السير على غير هدى!

حلــم ١٧٩

زارنى المرحوم صديقى الحميم وسألنى عن أسباب حزنى فقلت له: إن ضعف السمع والبصر حال بينى وبين مصادر الثقافة المقروءة والمسموعة والمرئية، فمضى بى إلى دار نشر يديرها أحد زملائنا فى الجامعة وسأله عن كتاب يجمع الأفكار الحديثة فى العلم والفلسفة والأدب، فجاءنا بكتاب ضخم، ثم أهدانا طبعة أخيرة من القرآن الكريم قائلا: إن التفسير الموجود به غير مسبوق فأخذناها، وفى الطريق قال لى صديقى سأزورك كل مساء وأقرأ لك سورة من القرآن الكريم وفصلاً من الكتاب حتى نختمهما فدعوت له قائلا: يرحمك الله ويسكنك فسيح جناته!

حلــم ١٨٠

رأيت أستاذى الشيخ مصطفى عبد الرازق ـ وهو شيخ الأزهر ـ وهو يهم بدخول الإدارة، فسارعت إليه ومددت له يدى بالسلام، فصحبنى معه ورأيت فى الداخل حديقة كبيرة جميلة، فقال: إنه هو الذى أمر بغرسها، نصفها ورد بلدى والنصف الآخر ورد إفرنجى، وهو يرجو أن يولد من الاثنين وردة جديدة كاملة فى شكلها طيبة فى شذاها.

حلــم ١٨١

قال صديقى وأستاذى وهو يودعنى: رحلة طيبة وإن شاء الله تعثر على هدفك، وسرت وانهالت علىّ الخواطر الجميلة التى انعكس جمالها على روحى فحنن قلوب المحسنين علىّ، فلم أشعر بحاجة إلى غذاء أو شراب أو لباس، ولكنى لم أنس مدينتى طول الوقت، وأخيراً رجعت إليها، فسألنى صديقى وأستاذى هل وجدت هدفك؟ فأجبته سأجده هنا بين الآلام والآمال، ولكن ببصيرتى الرحالة وبصبرى المقيم!

حلــم ١٨٢

زارتنا «س» وهى زوجة صديق قديم، وكانت يومًا خطيبتى وقالت لى: أنت السبب فى إفلاس زوجى، فقلت لها إنه أطلعنى على فكرة وجدتها صالحة كأساس لفيلم سينمائى، ولكنه أبى إلا أن يكتب السيناريو وينتجها بثروته المحدودة مع جهله التام بكتابة السيناريو والإنتاج، فكانت النتيجة الإفلاس، فقالت لى: كان يجب أن تنصحه، فقلت لها: نصحته كثيراً ولكنه أصر على الخطأ!

حلــم ١٨٣

نحن موظفان فى مكتب الوزير ونتطلع إلى المزيد من القرب منه معتمدين على العمل، إضافة إلى أن زميلى يدس لى بما يسىء إلى سمعتى، ولكنى لم أقابل الشر بالشر إيمانا بأن القرب يقتضى النقاء، وبعد اعتماد الميزانية أصدر الوزير قرارين الأول بنقل زميلى إلى وظيفة أخرى بالوزارة، والآخر بتعيينى سكرتيراً برلمانيًا للوزير، وهو عمل يتيح لى مقابلة معاليه أكثر من مرة فى الأسبوع، فأدركت أنه عليم بما يجرى فى مكتبه!

حلــم ١٨٤

قرأت مقالة الكاتبة «ك» التى تتضمن نقدًا لاذعًا لى، ثم رأيتنى أسألها فى النادى ألا تذكرين كيف وقفت إلى جانبك فى محنتك؟ فقالت: لا يمكن أن أنساها إذ كنت الوحيد الذى تصدى للدفاع عنى ضد هجمات النقد الشرسة على كتابى، ولكن بعد فترة هدوء وتأمل تبين لى أن النقد كان على حق، وأنى استعملت الجنس لأغراض تجارية، ولكنك دافعت عنى لغرض فى نفسك نلته فسقطت فى نظرى، فلقننى قولها درسًا قاسيا!

حلــم ١٨٥

هذه الإسكندرية واليوم وقفة العيد الصغير وأنا أتنقل من سمسار إلى سمسار فلم نعثر على حجرة خالية، فقررت يائسًا الرجوع إلى القاهرة، وفى محطة الرمل قابلت صديقى «أ» فلما علم بمشكلتى دعانى للنزول فى شقته حتى تنقضى أيام العيد، وهى شقة فى شارع سعد زغلول وتقوم على نظافتها أم زينب، فقبلت دعوته وشكرته وقلت له إننى قابلته مصادفة ولكنها أسعد مصادفة فى حياتي، وتمر الأعوام حاملة عجائبها، وعندما أخلو إلى نفسى أتذكر تلك المصادفة التى أثبتت الأيام أنها أتعس مصادفة فى حياتى!

حلــم ١٨٦

أرانى أسير فى جنازة لصديق عزيز، ورأيت بين المشيعين صديقى «ب» بعد غياب سنوات فى الخارج، فسلمت عليه وهو واسع الثقافة، غير أنه غريب الأطوار ومغرم بالحداثة فى الفنون والحياة، وسألته عن حرمه التى كانت تماثله فى كل شىء، فأجابنى بأنه طلقها، وتوقفت الجنازة أمام المسجد وحُمل النعش إلى الداخل للصلاة عليه، ونودى للصلاة بين المشيعين، وإذا بصديقى يدخل مع الداخلين فلم أصدق عينى وذهلت ذهولا شديدًا!

حلــم ١٨٧

عندمـا رأيت الأنسـة «ب» خفق قلبى كـمـا خـفق عند أول حب، وتـابعتـهـا أنهل من عذوبة الحب ولوعة الحرمان ولا أزيد، وأرانى مع ابنة أختى وهى تسألنى حتى متى تبقى أعـزب يا خـالى؟! ورشـحت لى الآنسـة «ب» زمـيلتـهـا فى المعـهـد العـالى، فأيقنت أن وساطتها جاءت بعد اتفاق مع «ب» وأسعدنى ذلك، ولكنى شعرت بخوف لا أدرى كنهه دفعنى للهروب، فغيرت طريقى مختفيا حتى سمعت أنها خطبت إلى شاب لائق، وأرانى واقفا أمام معرض مصور أشاهد الفتاة مع زوجها فى ثوب العرس، فرجعت إلى النهل من عذوبة الحب ولوعة الحرمان، ولكن فى إطار من الأمان!

حلــم ١٨٨

رأيتنى أسير مع الشيخ زكريا أحمد نحو هضبة مغطاة بخمائل الأزهار، وتقف فى مركزها أم كلثوم ووفد أهل الفن: الحامولى وعثمان والمنيلاوى وعبد الحى حلمى وسيد درويش ومحمد عبد الوهاب ومنيرة المهدية وفتحية أحمد وليلى مراد، وغنت أم كلثوم قائلة: سمعت صوتا هاتفا فى السحر. وأخذت تكرره حتى ساد القلق بيننا، ثم أخذ صوتها ينخفض رويداً رويدا حتى تلاشى، وغنت منيرة المهدية قائلة:

ليلة ما جه.. فى المنتزه

يا دوب قعدنا.. والكاس فى إيدنا

هف.. طلع النهار

وغنى سيد درويش: زرونى كل سنة مرة.. حرام الهجر بالمرة

وغنى الشيخ زكريا: يا عشرة الماضى الجميل.. ياريت تعودى

أما أنا فتلوت الفاتحة!..

حلـــم ١٨٩

رأيتنى وزيرًا فى وزارة يرأسها مصطفى النحاس، وجعلت أفكر فى مشروع إنشاء مدارس أولية وابتدائية وثانوية بلا مصروفات ولا رسوم للمتفوقين والمتفوقات من أبناء الفلاحين والعمال. على أن نتابعهم بالرعاية فى الجامعة والبعثات، وعرضت الموضوع على الزعيم، فرحب به وأضاف إليه تعديلاً أن تخصص تلك المدارس للمتفوقين والمتفوقات من أبناء الأمة كلها، وطلب منى أن أقدم المشروع فى مجلس الوزراء القادم ووعد بتأييده!

حلـــم ١٩٠

علمت أن صديقى «ج» معتصم بحجرته ويهدد بالانتحار، فانتقلت إلى بيته ووجدت إخوته وأخواته مجتمعين فى الصالة الكبيرة، وهو يطل عليهم من الشراعة فى حجرته العليا والحبل يطوق رقبته، فقلت له أنت مؤمن والمؤمن لا ينتحر، فقال لى: لقد سدت النوافذ فى وجهى، إذا قلت لهم تحركوا لا يتحركون، وأعلنت عن رغبتى فى أن أموت شهيداً فمنعونى من الخروج فلم يبق لى إلا هذا، فقلت لهم دعوه وشأنه فالاستشهاد خير مليون مرة من الانتحار.

حلـــم ١٩١

قال لى قرينى الدكتور «م» إنه يرغب فى الزواج من «ع»، ولما كنت جاراً لها وصديقًا لإخوتها فأنا خير من يحدثه عنها، وأنا أحب «ع» بدون أدنى أمل، فتماسكت وقلت له: أمّا عن جمالها فقاطعنى: دع هذا فهو فى متناول عينى وحدثنى عن الأمور الأخرى، فقلت له: إنها فى كمالها لا تقل عن جمالها، فقبلنى فى رأسى، ووجدتنى فى بهو يموج بالكثير من رموز المجتمع وفيه غناء ورقص، فسمعت وشاهدت، وتوقع قلبى الضربة القاضية.

حلــم ١٩٢

هذه حديقة الحرية التى تروى أزهارها بدموع العاشقين، وأنا أتجول فى جنباتها بين آهات الحب وهتاف المناضلين، وقد عاهدت نفسى على أن أزود النسيان عن الحب والنضال!

حلــم ١٩٣

هذه هضبة الأهرام وهذا هو سير ريدر هجارد فهرعت إليه ورحبت به، وقلت له إنه كان فردوس طفولتى وصباى برواياته الفاتنة عن عائشة وكليوباترا وصلاح الدين وكنوز الملك سليمان، ثم سألته عن كنوز الملك ألها أصل فى الواقع أم أنها من صنع الخيال وحده؟ فرأيتنى أسير إلى جانبه فى غابة إفريقية، وفى موضع منها أخرج من جيبه مفتاحًا وانحنى حتى غاب فى الحشائش، وإذا بباب ينفتح عن معرض طويل عريض ملىء بالجواهر وسقطت أشعة الشمس على سبائك الذهب فانعكست نورًا أضاء لى عالم الغيب.

حلــم ١٩٤

من أمواج الضياء انبثق المرحوم صديقى «ط» فسلمت عليه، وقلت له إنه مات فلا نُشر له نعى أو أقيم له عزاء مناسب، وجاء العمال وأقاموا السرادق، ولكن لم يحضر أحد للعزاء ولا جاء المقرئ، فصعد صديقى إلى أريكة وتلا بصوت عذب سورة الرحمن.

حلــم ١٩٥

أعددت المائدة الصغيرة بما لذّ وطاب، ولما دقّ الجرس فتحت الباب فاندفعت صديقتى إلى الكنبة، وما لبثت أن مَال رأسها على المسند واسترخت ذراعاها؛ فهرعت إليها وربت

خديها وجسست رسغيها ثم قلت بفزع : يا إلهى ؛ إنها ميتة . . وتخايل لعينى شبح الفضيحة والجريمة ، ولكنى حملتها بذراعى وسرت إلى المطبخ وألقيتها من النافذة المطلة على فناء المنزل ، ووقفت أرتجف من رأسى إلى قدمى ، وفى ضحى اليوم التالى وجدتنى واقفًا مع بعض السكان وصاحب البيت يحدثنا عن الست التى نقلت إلى المستشفى فقلت : إنها ميتة ، فقال : كلا ، والطبيب قال لى : إن الأمل كبير فى إنقاذها والنيابة تنتظر اللحظة المناسبة للتحقيق ؛ فعاد يتخايل لعينى شبح الفضيحة والجريمة .

حلــم ١٩٦

دعانا أستاذنا للغداء ، وبعد تناول الطعام جلسنا حوله نطرح الأسئلة ونناقش الأجوبة وإذا بالشرطة تقتحم المنزل وتسوقنا إلى المعتقل ، حيث مكثنا ستة أشهر دون محاكمة ، ثم أُفرج عنا دون أن نعلم السبب الذى اعتقلنا من أجله ، وحتى اليوم وكلما تذكرت عذاب المعتقل تساءلت عن السبب الذى من أجله اعتقلنا .

حلــم ١٩٧

بيوتنا تقع على حافة الصحراء ، وكل بيت له فناء ، نضع فيه زيرًا للمياه العذبة فيدخل العطشان يروى ظمأه ويدعو لنا . . ويومًا اندست عصابة بين الداخلين وهاجمت بيتًا فقتلت وسرقت وهربت ، فأغلقنا الأبواب ولكن علمنا أنهم يحفرون نفقًا للوصول إلينا ، وعند إحدى الحفريات تفجر ينبوع ماء وتدفق حتى غطى الصحراء وبشر بالخير العميم ، وهتف حكيم بيننا أن افتحوا الأبواب وانعموا بحسن الجوار .

حلــم ١٩٨

كلفنى المنتج السينمائى بكتابة قصة كوميدية ، فتصورت مدينة يكافح أهلها فى سبيل لقمة العيش ، ويشقون بما بينهم من خصومات ويعانون الأمراض والحوادث ، ثم يجىء

بعد ذلك زلزال مدمر فيقضى على البقية الباقية منهم ويمحو من الوجود ذكرياتهم، فكأنهم لم يوجدوا، فضحك المنتج وقال: حقًا إنك فارس الكوميديا!

حلم ١٩٩

رأيتنى أتجول فى حديقة الحيوان مع صديقة، ثم جلسنا فى ركن خال بجزيرة الشاى، وكلما ترامى إلينا زئير وخوار أو عواء ازددنا التصاقًا حتى ذُبنا ذوبانًا!

حلم ٢٠٠

قال لى صديقى «ص»: إن قوانين الإصلاح الزراعى أصابت والده بانهيار فى وعيه وهو يريد مقابلة وزير المالية، وأنا اخترتك لتمثل دور الوزير بوصفك أعز أصدقائى، ووجدت الإقطاعى الكبير فى حال يرثى لها واستقبلنى قائلاً: يا معالى الباشا هل حقا ستصادرون أراضينا؟ فنفيت ذلك كلية وقلت له: إن هى إلاّ شائعة تركناها لكسب قلوب الناس، وعندما خرجنا من السراى شكرنى صديقى وهو يجفف دموعه، فقلت له مواسيًا: إن كل تقدم فى المجتمع يقتضى ثمنًا ولا تنس أنك كنت من دعاة الاشتراكية، فقال بحدة: إن الكتابة شىء والتطبيق الفعلى شىء آخر!

حلم ٢٠١

يا له من بهو عظيم يتلألأ نورا ويتألق زخارف وألوانا! وجدتنى فيه مع إخوتى وأخواتى وأعمامى وأخوالى وأبنائهم وبناتهم، ثم جاء أصدقاء الجمالية وأصدقاء العباسية والحرافيش، وراحوا يغنون ويضحكون حتى بحت حناجرهم، ويرقصون حتى كلت أقدامهم، ويتحابون حتى ذابت قلوبهم، والآن جميعهم يرقدون فى مقابرهم مخلفين وراءهم صمتا ونذيرا بالنسيان وسبحان من له الدوام.

حلـــم ٢٠٢

تأبطت الجميلة الشابة ذراعى، ووقفنا أمام بياع الكتب الذى يفرش الأرض بكتبه، ورأيت كتبى التى تشغل مساحة كبيرة، وتناولت كتابا وقلبت غلافه ففوجئت بأننى لم أجد سوى ورق أبيض، فتناولت كتابا آخر، وهكذا جميع الكتب لم يبق منها شىء، واسترقت النظر إلى فتاتى فرأيتها تنظر إلىّ برثاء!

حلـــم ٢٠٣

رأيتنى أقرأ كتابا وإذا بسكارى رأس السنة يرمون قواريرهم الفارغة، فتطايرت شظايا، ويندروننى بالويل، فجريت إلى أقرب قسم شرطة، ولكنى وجدت الشرطة منهمكة فى حفظ الأمن العام، فجريت إلى فتوة الحى القديم، وقبل أن أنتهى من شكواى هب هو ورجاله وانقضوا على الخمَّارة التى يشرب فيها المجرمون، وانهالوا عليهم بالعصى حتى استغاثوا بى!

أحلام عيد الميلاد

نشرت هذه الأحلام الستة فى جريدة الأهرام

بمناسبة عيد الميلاد الرابع والتسعين للأستاذ نجيب محفوظ عام ٢٠٠٥

حلـــم ١

رأيتنى أستقبل شقيقتى وهى تقول لى: إنه تقرر أن يتم قرانك فى الخميس القادم، فذهبت إلى بيت أختى فى الميعاد المضروب ودخلت بهو المدعوين فقوبلت بتصفيق حاد،

وعند ذاك تذكرت أننى لا أعرف أى عروس ستزف إلىّ، وخجلت أن أسأل أختى، ونظرت إلى المدعوات فوجدتهن ممن أضأن حياتى بنورهن، ولكن بعضهن ممن تقدمت بهن السن والبعض الآخر ممن فارقن الحياة، فقلت لا مفر من الانتظار حتى أعرف حظى.

حلم ٢

رأيتنى أتلقى نبأ مهما هو أنه تم بناء دار الأوبرا الجديدة، واصطحبت زملائى وتجولت فى أنحائها فوجدناها صورة طبق الأصل من الدار التى التهمتها النيران، فقررنا أن نعد عملا ليوم الافتتاح، فوضعنا تمثيلية وألفنا الأغانى والألحان، ولكننا اختلفنا على العنوان، واشتد الاختلاف حتى تحول إلى معركة هددت سلامة الدار الجديدة.

حلم ٣

رأيتنى راجعًا إلى بيتنا وفى حجرتى وجدت أختى فى زيارتنا، فتصافحنا وامتد بصرى إلى نافذة الحبيبة التى لم تعد تظهر فيها منذ عام وهو تاريخ زواجها، وتقول لى أختى لدىّ خبر لعله يساعدك على السلوان، فسألتها ما هو فقالت: إن «ع» ماتت وهى تلد أول مولود لها، فاجتاحنى ذهول وخيمت ظلمات على السماء والأرض.

حلم ٤

رأيتنى رقيبا مكلفا بقراءة مسرحية الأديب «ى» وعنوانها «الموت»، ففى الفصل الأول يدور الحوار بين الموت وجيل الرواد مثل: طه حسين والعقاد، وفى الفصل الثانى يدور الحوار بين الموت وجيلى مثل: على باكثير ومحمود البدوى، أما الفصل الثالث فكان غنائيا وراقصا، فثمة ذكور وإناث فى سن السابعة يرقصون فى دائرة توسطها الموت وهو يغنى: نصيبك فى الحياة لازم يصيبك.

وأجزت عرضها للجمهور.

حلـــم ٥

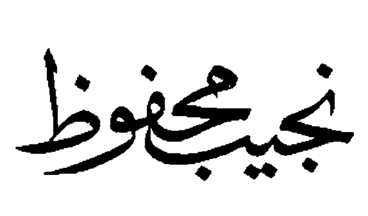
رأيتنى فى شارع الأحباب بالعباسية ووجدت سماءها خالية من البدر، ولكن تسطع ببعض النجوم، ووجدت الهواء نقيا والماء عذبا على حين ينعم الشارع بهدوء عميق وصوت يغنى:

زورونى كل سنة مرة!

حلـــم ٦

دعيت إلى مقابلة المرحوم الرئيس السادات، وهناك أخبرنى بأنه قرر تعيينى محافظا للإسكندرية، فأطلعته على حالتى الصحية من ضعف البصر والسمع ويدى اليمنى المشلولة، ولكنه أصر على رأيه. . ولدى عودتى إلى مكتبى وجدت المرحوم «ش» ابن أختى، ويقول لى: لا تقلق سأكون العين التى بها ترى وتقرأ والأذن التى بها تسمع واليد التى بها تكتب، ولكن لم يزايلنى القلق.





١ ـ مصر القديمة	ترجمة	١٩٣٢
٢ ـ همس الجنون	مجموعة قصصية	١٩٣٨
٣ ـ عبث الأقدار	رواية تاريخية	١٩٣٩
٤ ـ رادوبيس	رواية تاريخية	١٩٤٣
٥ ـ كفاح طيبة	رواية تاريخية	١٩٤٤
٦ ـ القاهرة الجديدة	رواية	١٩٤٥
٧ ـ خان الخليلي	رواية	١٩٤٦
٨ ـ زقاق المدق	رواية	١٩٤٧
٩ ـ السراب	رواية	١٩٤٨
١٠ ـ بداية ونهاية	رواية	١٩٤٩
١١ ـ بين القصرين	رواية	١٩٥٦
١٢ ـ قصر الشوق	رواية	١٩٥٧
١٣ ـ السكرية	رواية	١٩٥٧
١٤ ـ اللص والكلاب	رواية	١٩٦١
١٥ ـ السمان والخريف	رواية	١٩٦٢
١٦ ـ دنيا الله	مجموعة قصصية	١٩٦٢
١٧ ـ الطريق	رواية	١٩٦٤
١٨ ـ بيت سيئ السمعة	مجموعة قصصية	١٩٦٥
١٩ ـ الشحاذ	رواية	١٩٦٥
٢٠ ـ ثرثرة فوق النيل	رواية	١٩٦٦
٢١ ـ ميرامار	رواية	١٩٦٧
٢٢ ـ أولاد حارتنا	رواية	١٩٦٧

٢٣ ـ خمارة القط الأسود	مجموعة قصصية	١٩٦٩
٢٤ ـ تحت المظلة	مجموعة قصصية	١٩٦٩
٢٥ ـ حكاية بلا بداية ولا نهاية	مجموعة قصصية	١٩٧١
٢٦ ـ شهر العسل	مجموعة قصصية	١٩٧١
٢٧ ـ المرايا	رواية	١٩٧٢
٢٨ ـ الحب تحت المطر	رواية	١٩٧٣
٢٩ ـ الجريمة	مجموعة قصصية	١٩٧٣
٣٠ ـ الكرنك	رواية	١٩٧٤
٣١ ـ حكايات حارتنا	رواية	١٩٧٥
٣٢ ـ قلب الليل	رواية	١٩٧٥
٣٣ ـ حضرة المحترم	رواية	١٩٧٥
٣٤ ـ الحرافيش	رواية	١٩٧٧
٣٥ ـ الحب فوق هضبة الهرم	مجموعة قصصية	١٩٧٩
٣٦ ـ الشيطان يعظ	مجموعة قصصية	١٩٧٩
٣٧ ـ عصر الحب	رواية	١٩٨٠
٣٨ ـ أفراح القبة	رواية	١٩٨١
٣٩ ـ ليالى ألف ليلة	رواية	١٩٨٢
٤٠ ـ رأيت فيما يرى النائم	مجموعة قصصية	١٩٨٢
٤١ ـ الباقى من الزمن ساعة	رواية	١٩٨٢
٤٢ ـ أمام العرش (حوار بين الحكام)	رواية	١٩٨٣
٤٣ ـ رحلة ابن فطومة	رواية	١٩٨٣
٤٤ ـ التنظيم السرى	مجموعة قصصية	١٩٨٤
٤٥ ـ العائش فى الحقيقة	رواية	١٩٨٥
٤٦ ـ يوم قتل الزعيم	رواية	١٩٨٥
٤٧ ـ حديث الصباح والمساء	رواية	١٩٨٧
٤٨ ـ صباح الورد	مجموعة قصصية	١٩٨٧
٤٩ ـ قشتمر	رواية	١٩٨٨
٥٠ ـ الفجر الكاذب	مجموعة قصصية	١٩٨٨

٥١ ـ أصداء السيرة الذاتية	مجموعة قصصية	١٩٩٥
٥٢ ـ القرار الأخير	مجموعة قصصية	١٩٩٦
٥٣ ـ صدى النسيان	مجموعة قصصية	١٩٩٩
٥٤ ـ فتوة العطوف	مجموعة قصصية	٢٠٠١
٥٥ ـ أحلام فترة النقاهة	مجموعة قصصية	٢٠٠٤
٥٦ ـ المسرحيات	مسرحيات	٢٠٠٦



رقم الإيداع ٢١٩٤٣ / ٢٠٠٦
الترقيم الدولى 7 - 1899 - 09 - 977

مطابع الشروق
القاهرة: ٨ شارع سيبويه المصرى ـ ت: ٤٠٢٣٣٩٩ ـ فاكس: ٤٠٣٧٥٦٧ (٠٢)
بيروت: ص.ب: ٨٠٦٤ ـ هاتف: ٣١٥٨٥٩ ـ ٨١٧٢١٣ ـ فاكس: ٨١٧٧٦٥(٠١)


6 221102 018227